

شُبُهَاتٌ وَرُدُّهُنَّ حَوْلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تأليف:

الأستاذ محمد هادي معرفة

تحقيق:

مؤسسة التمهيد - قم المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

وبعد ، فقد صدق الله وعده إذ قال : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. ^(١)

كان القرآن منذ أول يومه ولا يزال موضع عناية ذوي الأحلام الراجحة والنفوس الطيبة من علماء ونبهاء ملأت بهم الآفاق. كما كان مطمح غواية ذوي الأحقاد الرديئة والأنفس الخبيثة ، لم ترعهم شاكلة القرآن الوضيئة ، فطفقوا يناوءونه في محاولة مستمرة لغرض الخطّ من كرامته الرفيعة أو النقص من دعائمه القوية وهيئات ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. ^(٢)

وكان من مضاعفات تلكم المحاولات الفاشلة أن تراكمت هناك (في غياهب التيه) شبهات هي ظلمات بعضها فوق بعض ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا

فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾. ^(٣)

(١) فضّلت ٤١ : ٤١ - ٤٢.

(٢) التوبة ٩ : ٣٢.

(٣) النور ٢٤ : ٤٠.

والشبهات حول القرآن . في قديمها أو الحديث منها . تتنوع إلى أنحاء :

١ . منها ما يعود إلى التشكيك في كونه وحيا مباشريا تلقاه نبيّ الإسلام من ملكوت أعلى ، إمّا لعدم إمكانه ، نظرا لعدم التوائم بين عالمين أحدهما أعلى لطيف والآخر أسفل كثيف! وقد أجبنا على ذلك ^(١) بإمكان الاتصال بالجانب الروحاني (حقيقة الإنسان الذاتيّة) من الإنسان إذا كان قد بلغ الكمال واستعدّ روحيا للاتصال بالملاّ الأعلى.

وإمّا لزعم أنّها ملتقطات التقطها نبيّ الإسلام من أفواه الرجال (أهل الكتاب) كان يلتقي برجال من أهل الديانات المعروفة في جزيرة العرب في رحلاته وأسفاره إلى مختلف البلاد ، بل وفي مكّة والحجاز ممّن آوى إليها من المعتنقين للمسيحية وأبناء اليهود. ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. ^(٢)

أضف إليه ما كان يستلهم من صميم وعيه المطعم بإجاءات البيئة التي كان يعيشها ، كان يستوحىها من داخل ضميره عند ما يختلي بنفسه في غار حراء. فكان يستصفي أحسن ما تلقاه ليبيديه وحيا من الله وقرآنا نازلا من السماء.

هكذا فرضوا فيما زعموا من غير برهان أتاهاهم. وسنفصل الكلام في ذلك.

٢ . ومنها زعم التأثير بالبيئة وثقافات جاهلية كانت ساطية حينذاك. حسبوا أنّ في القرآن الشيء الكثير من رسوم وعادات بائدة كانت قد تعارفها العرب وربّما البشرية يوم ذاك وقد خضع لها القرآن في كثير من تعاليمه وبرامجه ، والتي منها ما يبدو غليظا أو شديدا أو متجافيا للحكمة ويتعافاه العقل الرشيد فيما تقدّمت ركب البشرية فيما بعد ، وأخذوا من عقوبات الإسلام دليلا على ذلك فيما وهموا!

٣ . ومنها ما حسبه متهافتا من إيهام التناقض في القرآن ، ولو كان من عند الله لم يوجد فيه هذا الاختلاف! هكذا حسبوا حسبهم لا عن مداقة!

٤ . ومنها احتمال وجود اللحن في القرآن إمّا تأريحيّا أو أدبيّا أو متنافيا مع بدهة العلم ، فيما توهموه عبر الخيال!

(١) في الجزء الاول من التمهيد.

(٢) الفرقان ٢٥ : ٥٠.

٥ . ومنها احتمال التحريف في نصّه الكريم والذي يذهب بحجّيته وإمكان الاستناد إليه ، فيما حسبه أهل الظاهر المقلّدة ممّن كانت تهمّهم الرواية وتعوزهم الدراية!

إلى غير ذلك من تساويل شيطانية حيكت حول هذا الكتاب الإلهي العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. ^(١) ومنذ أمد غير قصير قمنا بجمع تلك السفاسف والأقاويل لنأتي عليها بما أوتينا من حول وقوّة ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ ^(٢) وهو توفيق ربّاني نحمده عليه.

ولننظر فيما سطرّوه بهذا الصدد تباعا حسب الترتيب.

(١) فصلت ٤١ : ٤٢ .

(٢) الذاريات ٥١ : ٤٢ .

الباب الأول

هل للقرآن من مصادر؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

سؤال أثارتته شاكلة المستشرقين الأجانب لكنّه رجع قول قد قاله رجال من قبلهم :

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان ٢٥ : ٥)

الوحي مصدر القرآن الوحيد!

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَى﴾

قال تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾. ^(١)

كانت الدلائل على أنّ القرآن كلّهُ . بلفظه ونظمه ومحتواه جميعاً . كلام ربّ العالمين ، وافرة وظافرة ، وقد تكفّل عرضها مباحث الإعجاز القرآني باستيفاء وإحكام. ^(٢) كما وأصبحت سفساف المعاكسين لذلك الاتجاه الناصع هباء منثوراً تذروه عواصف الرياح. والآن ، فلنشهد تجوالهم الحديث في هذا الميدان الرهيب :

وليعلم أنّ عمدة مستند القول باستيحاء القرآن تعاليمه الدينية من زبر الأولين هو تواجد التوافق . نسبياً . بين شريعة الإسلام وشرائع سالفه. لكن هذا لا يجدي نفعا بعد اعترافنا بوحدة أصول الشرائع وأنها جميعاً مستقاة من عين واحدة : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. ^(٣)

(١) النجم ٥٣ : ٤ - ١٢ .

(٢) قد استوفينا البحث عنها في التمهيد ، ج ٤ و ٥ و ٦ .

(٣) آل عمران ٣ : ٦٤ .

هذا فضلا عن وجود التخالف الفاحش بين أكدار أحاطت بتلك الكتب على أثر التحريف ، وقداسة زاكية حظي بها القرآن الكريم ، ولا يزال مصونا في حراسته تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. (١)

هذا إجمال الكلام في ذلك ولنخض في تفصيل الحديث :

كتب الكثير من الكتّاب المستشرقين عن نبي الإسلام والقرآن حسب أساليبهم في التحقيق عن سائر الأديان ، حيث لا يرون لها صلة بوحى السماء. فكان من الطبيعي في عرفهم أن يلتمسوا من هنا وهناك مصادر غدت تلکم الشرائع في طول التأريخ. وحتى من تظاهر منهم بالمسيحية يعتنقونها شكليا وليس عن صدق عقيدة. غير أنّ المسيحية . ولو شكليا . كانت من الدوافع الحافزة للبغى على الإسلام وللنظر إليه نظرة سوء. وهذا ما يسمّى بالاستشراق الديني الذي قام به أبناء الفاتيكان ، كان أول رواده من رجال الكنيسة وعلماء اللاهوت حيث ظلّوا المشرفين على هذه الحركة والمسيّرين لها طوال القرنين الأخيرين. وكان الهدف من ذلك :

١ . الطعن في الإسلام وتشويه حقائقه.

٢ . حماية النصارى من خطر الإسلام بالحيلولة بينهم وبين رؤية حقائقه الناصعة وآياته البينة اللائحة.

٣ . محاولة تنصير المسلمين ، ولا أقلّ من تضعيف العقيدة في نفوسهم أضف إلى ذلك دوافع استعمارية : ثقافية وسياسية وتجارية تحول دون خلوص مهنة الاستشراق (استطلاع تاريخ الثقافة الشرقية بسلام) ومن ثمّ فقد أسىء بهم الظنّ في كثير ما يبدو منه من نظر.

جاء في قصّة الحضارة : وكان في بلاد العرب كثيرون من المسيحيين وكان منهم عدد قليل في مكّة ، وكان محمّد على صلة وثيقة بواحد منهم على الأقل هو ورقة بن نوفل ابن عمّ خديجة ، الذي كان مطلعا على كتب اليهود والمسيحيين المقدّسة. وكثيرا ما كان محمد يزور المدينة التي مات فيها والده عبد الله. ولعلّه قد التقى هناك ببعض اليهود وكانوا

(١) الحجر ١٥ : ٩.

كثيرين فيها. وتدلّ كثير من آيات القرآن على اعجابه بأخلاق المسيحيّين ، وبما في دين اليهود من نزعة إلى التوحيد ، وبما عاد على المسيحية واليهودية من قوّة كبيرة لأنّ لكلّتيهما كتابا مقدّسا تعتقد أنّه موحى من عند الله.

قال : ولعلّه قد بدا له أنّ ما يسود جزيرة العرب من شرك ، ومن عبادة للأوثان ، ومن فساد خلقي ، ومن حروب بين القبائل وتفكّك سياسي ، نقول : لعلّه قد بدا له أنّ حال بلاد العرب إذا قورنت بما تأمر به المسيحية واليهودية حال بدائية لا تشرف ساكنيها. ولهذا أحسنّ بالحاجة إلى دين جديد. ولعلّه أحسنّ بالحاجة إلى دين يؤلّف بين هذه الجماعات المتباغضة المتعادية ويخلق منها أمة قويّة سليمة ، دين يسموا بأخلاقهم عمّا ألفه البدو من شريعة العنف والانتقام ، ولكنّه قائم على أوامر منزلة لا ينازع فيها إنسان. ولعلّ هذا الأفكار نفسها قد طافت بعقل غيره من الناس. فنحن نسمع عن قيام عدد من المنتبّين في بلاد العرب في بداية القرن السابع ، وقد تأثّر كثير من العرب بعقيدة المسيح المنتظر التي يؤمن بها اليهود. وكان هؤلاء أيضا ينتظرون بفرغ الصبر مجيء رسول من عند الله. وكانت في البلاد شيعة من العرب تدعى بالحنفيّة أبت أن تقرّ بالالوهية لأصنام الكعبة ، وقامت تنادي بإله واحد يجب أن يكون البشر جميعا عبيدا له وأن يعبدوه راضين (هم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل). كانوا قد أيقنوا أنّ ما هم عليه من الوثنية ليس بشيء ، فتفرّقوا في البلاد يلتمسون الحنيفيّة دين إبراهيم عليه السلام ...

وكان محمّد . كما كان كلّ داع ناجح في دعوته . الناطق بلسان أهل زمانه والمعبر عن حاجاتهم وآمالهم ... ^(١)

ويقول الأسقف يوسف درّة الحدّاد : ^(٢) استفاد القرآن من مصادر شتّى أهمّها الكتاب المقدّس ولا سيّما كتاب موسى ، وذلك بشهادة القرآن ذاته

:

(١) ول ديورانت : قصّة الحضارة ج ١٣ ، ص ٢٣ و ٢٤ ، ترجمتها العربية.

(٢) مارس رتبة الكهنوتية في الكنيسة اللبنانية عام ١٩٣٩ م. ثمّ انقطع زهاء عشرين عاما يبحث عن شئون الإسلام والقرآن على اسلوبه الكهنوتي ، حاول التقارب والتقارب بين القرآن وكتب العهدين ليجعل الأخيرة منابع للقرآن ومصادره في كلّ ما ينسبه إلى وحي السماء. توفي سنة ١٩٧٩ م.

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾. ^(١)

﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى. أَلَا تَرَى وَاِزْرَةً وَإِزْرَةً أُخْرَى﴾. ^(٢)

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ. أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. ^(٣)

قال : فآية محمد الأولى هي مطابقة قرآنه للكتب السابقة عليه. وآيته الثانية استشهاده بعلماء بني إسرائيل وشهادتهم له بصحة هذه المطابقة. ولكن ما الصلة بين القرآن وكونه في زبر الأولين؟! هذا هو سر محمد! فيكون من ثم أنه نزل في زبر الأولين بلغة أعجمية يجهلونها ، ثم وصل إلى محمد بواسطة علماء بني إسرائيل ، فأنذر به محمد بلسان عربي مبين.

فأصل القرآن منزل في زبر الأولين ، وهذا يوحي بصلة القرآن بمصدره الكتابي زبر الأولين ، أي صحفهم وكتبهم. وأيضا فإن شهادة علماء أهل الكتاب بصحة ما في القرآن لم تكن إلا لأهم كانوا شركاء هذا الوحي المولود. ذلك لأن الوحي التنزيلي أمر شخصي لا يعرفه غير صاحبه فحسب.

والآية ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ ^(٤) فيها صراحة بأنه تتلمذ لدى كتاب موسى وجعله في قالب لسان العرب ، الأمر الذي يجعل من القرآن نسخة عربية مترجمة عن الكتاب الإمام.

﴿كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. ^(٥) التفصيل هنا يعنى النقل من الأصل الأعجمي إلى العربي. فالقرآن موحى ، والتفصيل العربي للكتاب منزل ، لأن الأصل وحي منزل ... ^(٦)

وعلى هذا الغرار جرى كل من «تسدال» و «ماسيه» و «أندريه» و «لامنز» و «جولد تسيهر» و «نولديكه» ^(٧) إلى أن القرآن استفاد كثيرا من زبر الأولين ، وحجّتهم في ذلك

(١) الأعلى ٨٧ : ١٨ و ١٩ .

(٢) النجم ٥٣ : ٣٦ - ٣٨ .

(٣) الشعراء ٢٦ : ١٩٦ و ١٩٧ .

(٤) الأحقاف ٤٦ : ١٢ .

(٥) فصلت ٤١ : ٣ .

(٦) دروس قرآنية ليوسف درة الحدّاد ، ج ٢ ، ص ١٧٣ - ١٨٨ (القرآن والكتاب) بيئة القرآن الكتابية ، فصل ١١ (هل للقرآن من مصادر؟) منشورات المكتبة البولسية . لبنان ١٩٨٢ م .

(٧) آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره لعمر رضوان ، ج ١ ، صفحات ٢٧٢ - ٢٩٠ و ٣٣٥ .

محضر التشابه بين تعاليم القرآن وسائر الصحف. فالقصص والحكم في القرآن هي التي جاءت في كتب اليهود ، وكذا قضايا جاءت في الأناجيل وحتى في تعاليم زرادشت والبرهمية في مثل حديث المعراج ونعيم الآخرة والجحيم والصراط والافتتاح بالبسملة والصلوات الخمس وأمثالها من طقوس عبادية ، وكذا مسألة شهادة كل نبي بالآتي بعده ، كلّها مأخوذة من كتب سالفة كانت معهودة لدى العرب.

زعموا أنّ القرآن صورة تلمودية وصلت إلى نبي الإسلام عن طريق علماء اليهود وسائر أهل الكتاب ممن كانت لهم صلة قريبة بجزيرة العرب ، فكان محمد ﷺ يلتقي بهم قبل أن يعلن نبوته ، ويأخذ منهم الكثير من اصول الشريعة.

يقول «ول ديورانت» : وجدير بالذكر أنّ الشريعة الإسلامية لها شبه بشريعة اليهود ... ثمّ جعل يسرد قضايا مشتركة بين القرآن والعهدين ويعدّ منها مسألة التوحيد والنبوة والإيمان والإنابة ويوم الحساب والجنة والنار ، زاعماً أنّها من تأثير اليهودية على دين الإسلام. وكذا كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) مأخوذة من كلمة إسرائيلية : ألا فاسمع يا إسرائيل وحدك. والبسملة مأخوذة أيضاً من تلمود. ولفظة «الرحمن» معربة من «رحمانا» العبرية ... إلى غيرها من تعابير جاءت في الإسلام منحدرة عن أصل يهودي. الأمر الذي جعل البعض يتصوّر أنّ محمداً كان عارفاً بمصادر يهودية وكانت هي مستفاه في تأليف القرآن ... (١)

شرائع إبراهيمية منحدرة عن أصل واحد

نحن المسلمون نعتقد في الشرائع الإلهية أجمع أنّها منحدرة عن أصل واحد ومنبعثة من منهل عذب فارد ، تهدف جميعاً إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة. والإخلاص في العمل الصالح والتحلي بمكارم الأخلاق ، من غير اختلاف في الجذور ولا في الفروع المتصاعدة. ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا

(١) تاريخ التمدن (قصّة الحضارة) الفارسية ، مؤلفه ول ديورانت ، مجلد ٤ ، ص ٢٣٦ . ٢٣٨ ، عصر الإيمان ، الفصل التاسع وراجع قصّة الحضارة ، ج ١٣ ، ص ٢٢ ، فيه إلمامة إلى ذلك.

وَصَيَّنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... ﴿١﴾ .

إذن ، فالدين واحد والشرعية واحدة والأحكام والتكاليف تهدف إلى غرض واحد وهو كمال الإنسان ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. ^(٢) يعني أن الدين كله . من آدم إلى الخاتم . هو الإسلام أي التسليم لله والإخلاص في عبادته محضاً.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. ^(٣) الإسلام هو الدين الشامل ، فمن حاد عنه فقد حاد عن الجادة الوسطى وضلّ الطريق في نهاية المسير. وهكذا تأدّب المسلمون بالإيمان بجميع الأنبياء من غير ما فارق. ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. ^(٤)

وهذا منطق القرآن يدعو إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، وأن لا تفرقة بين الأديان ما دام التسليم لله ربّ العالمين ، وبذلك يكون الاهتداء والاتحاد ، وفي غيره الضلال والشقاق ، ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾. ^(٥)

وفي ذلك ردّ وتشنيع بشأن اليهود والنصارى ، أولئك الذين يدعون إلى الحياد والانحياز ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾. ^(٦) أي قالت اليهود كونوا منحازين على اليهودية لا غيرها حتى تهتدوا!

وقالت النصارى كونوا حياداً على النصرانية لا غيرها حتى تهتدوا! والقرآن يردّ عليهم جميعاً ويدعو إلى الالتفاف حول الحنيفية الإبراهيمية : ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. ^(٧) ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾. ^(٨)

نعم ، صبغة الله شاملة وكافلة للإسعاد بالبشرية جمعاء ، الأمر الذي يعتنقه المسلمون أجمع ، والحمد لله.

(١) الشورى ٤٢ : ١٣ .

(٢) آل عمران ٣ : ١٩ .

(٣) آل عمران ٣ : ٨٥ .

(٤) البقرة ٢ : ١٣٦ .

(٥) البقرة ٢ : ١٣٧ .

(٦) البقرة ٢ : ١٣٥ .

(٧) البقرة ٢ : ١٣٥ .

(٨) البقرة ٢ : ١٣٨ .

وحدة المنشأ هو السبب للتوافق على المنهج

وبعد ، فإنّ ائتلاف الأديان السماوية واتّحاد كلمتها لا بدّ أن يكون عن سبب معقول ، وهذا يحتمل أحد وجوه ثلاثة :

١ . إمّا لوحدة المنشأ ، حيث الجميع منبعث من أصل واحد ، فكان التشابه في الفروع المتصاعدة طبيعيّا.

٢ . أو لأنّ البعض متّخذ من البعض فكان التشاكل نتيجة ذاك التبادل يدا بيد.

٣ . أو جاء التماثل عن مصادفة اتفافيّة وليس عن علّة حكيمة.

ولا شكّ أنّ الأخير مرفوض بعد مضادّة الصدفة مع الحكمة الساطية في عالم التدبير .

بقي الوجهان الأوّلان ، فلنتساءل القوم : ما بالهم تغافلوا عن الوجه الأوّل الرصين وتواكبوا جميعا على الوجه الهجين؟! إنّ هذا لشيء مريب!

هذا ، والشواهد متظافرة تدعم الشقّة الاولى لتهدم الاخرى من أساس :

أوّلا : صراحة القرآن نفسه بأنّه موحى إلى نبيّ الإسلام وحيا مباشرًا نزل عليه ليكون للعالمين نذيرا ، فكيف الاستشهاد بالقرآن لإثبات خلافه؟! إن

هذا إلّا تناقض في الفهم واجتهاد في مقابلة النصّ الصريح!

ثانيا : معارف فخيمة قدّمها القرآن إلى البشرية ، بحثا وراء فلسفة الوجود ومعرفة الإنسان ذاته ، لم يكد يدانيها أيّة فكرة عن الحياة كانت البشرية

قد وصل إليها لحدّ ذاك العهد ، فكيف بالهزائل الممسوخة التي شحنت بها كتب العهدين؟!!

ثالثا : تعاليم راقية عرضها القرآن لا تتجانس مع ضئالة الأساطير المسطرّة في كتب العهدين ، وهل يكون ذاك الرفيع مستقى من هذا الوضع؟!!

إلى غيرها من دلائل سوف يوافيك تفصيلها.

القرآن يشهد بأنه موحى

وأما إن كنّا نستنطق القرآن فإنّه يشهد بكونه موحى إلى نبيّ الإسلام محمد ﷺ كما أوحى إلى النبيّين من قبله : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا. رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. ^(١)

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾. ^(٢)

والآيات بهذا الشأن كثيرة ، ناطقة صريحا بكون القرآن موحى إلى نبيّ الإسلام وحيا مباشرا لينذر قومه ومن بلغ كافّة.

أما أنّه ﷺ تلقاه (التقطه) من كتب السالفين وتعلّمه من علماء بني إسرائيل فهذا شيء غريب يأباه نسج القرآن الحكيم.

القرآن في زبر الأولين

وأما ما تدرّج به صاحبنا الاسقف درّة فلامح الوهن عليه بادية بوضوح :

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾. ^(٣)

هذا إشارة إلى نصائح تقدّمت الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى. بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. وذلك تأكيد على

أنّ ما جاء به محمد ﷺ لم يكن بدعا ممّا جاء به سائر الرسل ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾. ^(٤) فليس الذي جاء به نبيّ الإسلام جديدا لا سابقة له

في رسالات الله ، الأمر الذي يستدعيه طبيعة وحي السماء

(١) النساء ٤ : ١٦٣ . ١٦٦ .

(٢) الأنعام ٦ : ١٩ .

(٣) الأعلى ٨٧ : ١٨ و ١٩ .

(٤) الأحقاف ٤٦ : ٩ .

العامّ وفي كلّ الأدوار من آدم فيلّى الخاتم. فإنّ شريعة الله واحدة لا يختلف بعضها عن بعض. فالإشارة راجعة إلى محتويات الكتاب توالى نزولها حسب توالي بعثة الأنبياء. فالنصائح والإرشادات تكررّت مع تكررّ الأجيال. هذا ما تعنيه الآية لا ما زعمه صاحبنا الأسقف!

وهكذا قوله تعالى : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾. ^(١)

يعود الضمير إلى من وقف في وجه الدعوة مستهزئاً بأن سوف يتحمّل آثام الآخرين إن لم يؤمنوا بهذا الحديث. فيردّ عليهم القرآن : ألم يبلغهم أنّ كلّ إنسان سوف يكافأ حسب عمله ولا تزر وازرة وزر أخرى؟ فإن لم يعيروا القرآن اهتماماً فليعيروا اهتمامهم لما جاء في الصحف الأولى ، وهلّا بلغهم ذلك وقد شاع وذاع خبره منذ حين؟! وهكذا سائر الآيات تروم هذا المعنى لا غير!

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ^(٢)

وآية اخرى على صدق الدعوة المحمدية : أنّ الراسخين في العلم من أهل الكتاب يشهدون بصدقها ممّا عرفوا من الحقّ :

﴿لَكِنَّ الرّٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ (أي من أهل الكتاب) ﴿وَالْمُؤْمِنُوْنَ﴾ (أي من أهل الإسلام) ﴿يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾. ^(٣)

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشّٰهِدِينَ﴾. ^(٤) وهؤلاء هم القساوسة

والرهبان الذين لا يستكبرون ، ومن ثمّ فهم خاضعون للحقّ أين وجدوه ، وبالفعل فقد وجدوه في حظيرة الإسلام.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ (أيها الكافرون بالقرآن) ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (ممن آمن برسالة الإسلام) ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ قَامَنَ

وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾. ^(٥)

(١) النجم ٥٣ : ٣٦ و ٣٧.

(٢) الشعراء ٢٦ : ١٩٧.

(٣) النساء ٤ : ١٦٢.

(٤) المائدة ٥ : ٨٣.

(٥) الأحقاف ٤٦ : ١٠.

الضمير في قوله «على مثله» يعود إلى القرآن. يعني أنّ من علماء بني إسرائيل من يشهد بأنّ تعاليم القرآن تماما مثل تعاليم التوراة التي أنزلها الله على موسى ، ولذا آمن به لما قد لمس فيه من الحقّ المتطابق مع شريعة الله في الغابرين.

وكثير من علماء أهل الكتاب آمنوا بصدق رسالة الإسلام فور بلوغ الدعوة إليهم ، حيث وجدوا ضالّتهم المنشودة في القرآن فأمنوا به. فكانت شهادة عمليّة إلى جنب تصريحهم بذلك علنا على الملأ من بني إسرائيل.

وهذا هو معنى شهادة علماء بني إسرائيل بصدق الدعوة ، حيث وجدوها متطابقة مع معايير الحقّ الذي عندهم. لا ما حسبه صاحبنا الأسقف بعد أربعة عشر قرنا أنّه مقتبس من كتبهم ومتلقّى من أفواههم هم!! الأمر الذي لم يقله أولئك الأنجابه وقد أنصفوا الحقّ الصريح! ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾. ^(١) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾. ^(٢)

وهذه المعرفة ناشئة عن لمس الحقيقة في الدعوة ذاتها وفقا لمعايير وافتهم على أيدي الرسل من قبل. وقد لمسها أمثال صاحبنا الاسقف اليوم أيضا ولكن ﴿جَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ^(٣) كالذين من قبلهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ^(٤) ممّن حاول إخفاء الحقيقة. قديما وحديثا. فضّلوا وأضلّوا وما كانوا مهتدين.

مقارنة عابرة بين القرآن وكتب سالفه محرّفة

معارف فخيمة امتاز بها الإسلام

والآن ، فلنقارن . شيئا . بين ما جاء في القرآن من معارف وتعاليم كانت في قمّة الشموخ والعظمة ، وبين ما ذكرته سائر الكتب أو بلغتها الفكرة البشريّة في قصور بالغ. وليكون برهاننا قاطعا على أنّ هذا الهزيل لا يصلح لأن يكون مستندا لذلك الفخيم!

(١) الأنعام ٦ : ١١٤ .

(٢) الأنعام ٦ : ٢٠ .

(٣) النمل ٢٧ : ١٤ .

(٤) البقرة ٢ : ٨٩ .

جلائل صفات الله في القرآن

جاء وصفه تعالى في القرآن ما يفوق الفكر البشري آنذاك ، بل ولو لا القرآن لما تسنى للبشرية أن تبلغه على مدى الزمان. حيث أدقّ الوصف ما وصف الله نفسه في كلامه العزيز (القرآن الكريم وليس في غيره إطلاقاً).

جاء في سورة الحشر : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ. سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى. يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. ^(١)

وفي سورة التوحيد : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. ^(٢)

وفي سورة الرعد : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾. ^(٣)

وفي سورة الشورى : ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. ^(٤)

وفي سورة البقرة : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾. ^(٥)

إلى غيرها من جلائل صفات زخر بها القرآن الكريم واختلى عنها سائر الكتب ، اللهم إلا النزر اليسير ، فيا ترى هل يصلح أن يكون هذا النزر اليسير منشأً لذلك الجم الغفير؟!

وكلّ واحدة من هذه الصفات تنمّ عن حقيقة ملحوظة في الذات المقدسة هي منشأ

(١) الحشر ٥٩ : ٢٤ . ٢٢ .

(٢) الاخلاص ١١٢ .

(٣) الرعد ١٣ : ٩ .

(٤) الشورى ٤٢ : ١١ و ١٢ .

(٥) البقرة ٢ : ٢٥٥ .

لآثار وبركات فاضت بها سلسلة الوجود ، وقد شرحها العلماء الأكابر ملاء موسوعات كبار.

وصفه تعالى كما في التوراة؟

وأدنى مراجعة لكتب العهدين تكفي للإشراف على مدى الوهن في وصفه تعالى بما يجعله في مرتبة أحسن مخلوق ويتصرف تصرفات لا تليق بساحة قدسه الرفيع.

تلك قصّة بدء الخليقة جاءت في سفر التكوين مشوّهة شائنة : تجد الإله الخالق المتعالي هناك إلها يخشى منافسة مخلوق له ، فيدبر له المكائد في خداع فاضح.

جاء فيها : إنّ الربّ الإله لما أسكن آدم وزوجته حواء في جنة عدن رخص لهما الأكل من جميع شجر الجنة وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا يأكلا منها. وما كرها في ذلك قائلا : «لأنّك - خطابا لآدم - يوم تأكل منها موتا تموت». ^(١)

وهي كذبة حاول خداعهما بذلك لئلا يصبحا عارفين كالإله وينافسا سلطانه ، الأمر الذي صادقهما فيه إبليس وقال لهما : «لن تموتا ، بل الله عالم أنّه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر»! ^(٢)

وحينما أكلا منها تبين صدق إبليس وكذب الإله . وحاشاه . فانفتحت أعينهما وشعرا بأنّهما عريانان فجعللا يخططان لأنفسهما مآزر من ورق التين. وفي هذا الأثناء جاء الإله يتمشّى بأرجله في الجنة إذ سمعا الصوت فاختبئا وراء شجرة لئلا يفتضح أمرهما ، وناداهما الربّ : أين أنتما؟ فقال آدم : ها نحن هنا فخشيت لأنيّ عريان فاختبأت!

فهنا عرف الربّ أنّهما أكلا من الشجرة وأصبحا عارفين للخير والشر فقال : هو ذا الإنسان قد صار كواحد منّا ، والآن لعلّه يمدّ يده ويتناول من شجرة الحياة ويحيا إلى الأبد ، فطردهما من الجنة وأقام حرسا عليها لئلا يقربا منها.

(١) سفر التكوين ، إصحاح ٢ / ١٧.

(٢) المصدر : ٣ / ٤ و ٥.

هكذا إله التوراة يخشى منافسة مخلوق صنعه بيده فيماكر ويخاتل كي يصرفه عنها ، ويجهل ويكذب كذبة عارمة افتضحت لفورها على يد إبليس منافسة الآخر! الأمر الذي يشفّ عن عجز وضعف مضافا إلى الوهن في التدبير والعياذ بالله!

* * *

هذا ، والقرآن يعلّل المنع (من تناول الشجرة) بشقاء (عناء في الحياة) سوف ينتظرهما لو أكلا منها ، منعا إرشاديا لصالح أنفسهما : ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾. ^(١) أي تقع في مشاقّ الحياة بعد هذا الرغد في العيش الهنيء.

وإبليس هو الذي ما كرها وكذب كذبتة الفاضحة : ﴿قَالَ مَا هَآكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾. ^(٢)

فالذي كذب وافتضح هو إبليس ، كما جاء في القرآن ، على عكس ما جاء في التوراة!

وفارق آخر : كان آدم وحوّاء متلبّسين بلباس يستر سوءاتهما قبل أن يغويهما الشيطان لينزع عنهما لباسهما ويريهما سوءاتهما. ^(٣)

وهذا على عكس التوراة (المصطنعة) تفرضهما عريانين من غير شعور بالعراء حتى إذا ذاقا الشجرة ، فعند ذلك شعرا بالعراء وحاولا التستّر بورق

الجنة.

فكان الله قد خلقهما عريانين من غير أن يشعرا بالخجل والحياء كسائر الحيوان. فجاء إبليس ليخرجهما من العمه إلى العقل الرشيد!

وفارق ثالث : القرآن يمجّد الإله برحمته الواسعة على العباد ، وحتّى الذين أسرفوا على أنفسهم أن لا يقنطوا من رحمة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. ^(٤) وبالفعل فقد تاب الله على آدم واجتباه مع ما فرط منه من النسيان ومخالفة وصيّة الله ﴿ثُمَّ

(١) طه ٢٠ : ١١٧.

(٢) الأعراف ٧ : ٢٠ . ٢٢.

(٣) إشارة إلى الآية ٢٧ من سورة الأعراف.

(٤) الزمر ٣٩ : ٥٣.

اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١﴾ ، ووعدته الرحمة المتواصلة والعناية الشاملة طول حياته وحياة ذراريه في الأرض ﴿فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. (٢)

وهذا يعطي امتداد بركات الله على أهل الأرض أبدا. على خلاف ما ذكرته التوراة بامتداد سخطه تعالى على آدم ، وجعل الأرض ملعونة عليه وعلى زوجته وذراريهما عبر الحياة أبدا «ملعونة الأرض بسببك». (٣)

نعم كان الإله . حسب وصف القرآن . غفورا ودودا رءوفا بعباده . وحسب وصف التوراة : حقودا عنودا شديد الانتقام! فأين ذاك التوافق المزعوم ليجعل مصطنعات اليهود أصلا تفرّج منه القرآن؟!

الله يصول ويجول ضدّ بني آدم؟

ومسرّحا آخر ترينا التوراة كيف حشّد الإله الربّ جموعه لمكافحة بني آدم : فرّق شملهم وبلبل ألسنتهم فلا يجتمعوا ولا يتوازروا ولا يتعارف بعضهم إلى بعض ولا يتعاونوا في حياتهم الاجتماعية ... لما ذا؟ لأنّه كان . وحاشاه . يخاف سطوتهم فيثورون ضدّ مطامع الإله!!
جاء في سفر التكوين : كان بنو الإنسان على لسان واحد متفرّقين على وجه الأرض ، فحاولوا التجمّع وبناء مدينة في أرض شنعار (بين دجلة والفرات من أرض العراق). (٤) فنزل الربّ لينظر بناء المدينة والبرج (برج بابل) ولكن هابه ذلك وخاف سطوتهم ، فعمد إلى تدمير المدينة وتفريق الألسن ، فلا يستطيع أحدهم أن يجتمع مع الآخر ليتفاوض معه ، فبدّدهم الربّ من هناك على وجه الأرض ومنعهم من البنيان. (٥)

(١) طه ٢٠ : ١٢٢.

(٢) البقرة ٢ : ٣٨.

(٣) سفر التكوين ، إصحاح ٣ / ١٧.

(٤) عرفت باسم بابل عاصمة الكلدانيين ممّا يلي الحلة الفيحاء.

(٥) سفر التكوين ، إصحاح ١١.

هكذا تبدي التوراة عداؤه تعالى مع بني الإنسان!

هذا والقرآن يحثّ الأمم على الاجتماع دون التفرّق ، وعلى التعارف بعضهم مع بعضهم ليتعاونوا في الحياة ، دون التباغض والتباعد والاختلاف :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾. (١)

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾. (٢)

الإنسان سرّ الخليقة

الإنسان . كما وصفه القرآن . صفوة الخليقة وفضلتها وسرّها الكامن في سلسلة الوجود.

لا تجد وصفا عن الإنسان وافيا ببيان حقيقته الذاتية التي جبله الله عليها . في جميع مناحيها وأبعادها المترامية . في سوى القرآن . يصفه بأجمل صفات

وأفضل نعوت لم ينعم بها أيّ مخلوق سواه ، ومن ثمّ فقد حظى بعناية الله الخاصّة وحيي بكرامته منذ بدء الوجود.

ولنشر إلى فهرسة تلکم الصفات والميزات التي أهلتها لمثل هذه العناية والحباء :

١ . خلقه الله بيديه : ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾. (٣)

٢ . نفخ فيه من روحه : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾. (٤)

٣ . أودعه أمانته : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾. (٥)

٤ . علّمه الأسماء كلّها : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾. (٦)

٥ . أسجد له ملائكته : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا...﴾. (٧)

(١) الحجرات ٤٩ : ١٣ .

(٢) الأنفال ٨ : ٤٦ .

(٣) ص ٣٨ : ٧٥ .

(٤) الحجر ١٥ : ٢٩ . وص ٣٨ : ٧٢ . وفي سورة السجدة ٣٢ : ٩ : ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾.

(٥) الأحزاب ٣٣ : ٧٢ .

(٦) البقرة ٢ : ٣١ .

(٧) البقرة ٢ : ٣٤ .

- ٦ . منحه الخلافة في الأرض : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. ^(١)
- ٧ . سَخَّرَ له ما في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ جميعا : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾. ^(٢)
- ومن ثمَّ بَارَكَ نفسه في هذا الخلق الممتاز : ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. ^(٣)
- مميزات سبع حظي بها الإنسان في أصل وجوده ، فكان المخلوق المفضل الكريم. وإليك بعض التوضيح :

مميزات الإنسان الفطرية

امتاز الإنسان في ذات وجوده بمميزات لم يحظ بها غيره من سائر الخلق :

فقد شرفه الله بأن خلقه بيديه : ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ (خطابا لإبليس) ﴿أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾. ^(٤) والله خالق كل شيء. فلا بدّ أن تكون هناك خصوصيّة في خلق هذا الإنسان تستحقّ هذا التنويه. هي خصوصيّة العناية الربّانيّة بهذا الكائن ، وإيداعه نفخة من روح الله دلالة على هذه العناية!

قال العلامة الطباطبائي : نسبة خلقه إلى اليد تشريف بالاختصاص كما قال : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾. ^(٥) وتثنية اليد كناية عن الاهتمام البالغ بخلقه وصنعه ، ذلك أنّ الإنسان إذا اهتمّ بصنع شيء استعمل يديه معاً عناية به. ^(٦)

وهكذا نفخة الروح الإلهيّة فيه كناية عن جانب اختصاص هذا الإنسان . في أصل فطرته . بالملاّ الأعلى حتّى ولو كان متّخذاً . في جانب جسده . من عناصر تربطه بالأرض ، فهو في ذاته عنصر سماوي قبل أن يكون أرضيّاً.

ولقد خلق الإنسان من عناصر هذه الأرض ثمّ من النفخة العلويّة التي فرّقت بينه

(١) البقرة ٢ : ٣٠ .

(٢) الجاثية ٤٥ : ١٣ .

(٣) المؤمنون ٢٣ : ١٤ .

(٤) ص ٣٨ : ٧٥ .

(٥) الحجر ١٥ : ٢٩ .

(٦) تفسير الميزان ، ج ١٧ ، ص ٢٣٩ .

وبين سائر الأحياء. ومنحته خصائصه الإنسانيّة الكبرى. وأوّها القدرة على الارتقاء في سلّم المدارك العليا الخاصّة بعالم الإنسان. هذه النفخة هي التي تصله بالملا الأعلى ، وتجعله أهلاً للاتصال بالله ، ولتلقّي عنه ولتجاوز النطاق المادّي الذي تتعامل فيه العضلات والحواسّ ، إلى النطاق التجريدي الذي تتعامل فيه القلوب والعقول. والتي تمنحه ذلك السرّ الخفيّ الذي يسرب به وراء الزمان والمكان ، ووراء طاقة العضلات والحواسّ ، إلى ألوان من المدركات وألوان من تصوّرات غير المحدودة في بعض الأحيان. ^(١)

وبذلك استحقّ إيداعه أمانة الله التي هي ودائع ربّانية لها صبغة ملكوتية رفيعة أودعت هذا الإنسان دون غيره من سائر المخلوق. وتتلخّص هذه الودائع في قدرات هائلة يملكها الإنسان في جبلّته الأولى والتي أهّلته للاستيلاء على طاقات كامنة في طبيعة الوجود وتسخيرها حيث يشاء.

إنّما القدرة على الإرادة والتصميم ، القدرة على التفكير والتدبير ، القدرة على الإبداع والتكوين. القدرة على الاكتشاف والتسخير. إنّها الجرأة على حمل هذا العبء الخطير. قال سيّد قطب : إنّها الإرادة والإدراك والمحاولة وحمل التبعة ، هي هي ميزة هذا الإنسان على كثير من خلق الله. وهي هي مناط التكريم الذي أعلنه الله في الملأ الأعلى وهو يسجد الملائكة لآدم. وأعلنه في قرآنه الباقي وهو يقول : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾. ^(٢) فليعرف الإنسان مناط تكريمه عند الله ، ولينهض بالأمانة التي اختارها. والتي عرضت على السماوات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها. ^(٣)

إنّما أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم الكبير القوى القويّ العزم. ومن ثمّ كان ظلوماً لنفسه حيث لم ينهض بأداء هذه الأمانة كما حملها ، جهولاً لطاقاته هذه الهائلة المودعة في وجوده وهو بعد لا يعرفها.

(١) من إفادات سيّد قطب ، راجع : في ظلال القرآن ، ج ١٤ ، ص ١٧ ، المجلد ٥ ، ص ٢٠٣.

(٢) الإسراء ١٧ : ٧٠.

(٣) في ظلال القرآن ، ج ٢٢ ، ص ٤٧ ، المجلد ٦ ، ص ٦١٨.

وهكذا علّمه الأسماء : القدرة على معرفة الأشياء بذواتها وخاصيّاتها وآثارها الطبيعية العاملة في تطوير الحياة ، والتي وقعت رهن إرادة الإنسان ليسخرها في مآربه حيث يشاء ، وبذلك يتقدّم العلم بحشده وجموعه في سبيل عمارة الأرض وازدهار معالمها ، حيث أراد الله من هذا الإنسان ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾. (١)

وبذلك أصبح هذا الإنسان . بهذه الميزات . خليفة الله في الأرض ، (٢) حيث يتصرّف فيها وفق إرادته وطاقاته المودعة فيه ، ويعمل في عمارة الأرض وتطوير الحياة.

وإسجاد الملائكة له في عرصة الوجود ، كناية عن إخضاع القوى النورانية برمتها للإنسان ، تعمل وفق إرادته الخاصّة من غير ما تخلف ، في مقابلة القوى الظلمانية (إبليس وجنوده) تعمل في معاكسة مصالحه إلّا من عصمه الله من شرور الشياطين ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾. (٣)

كما وأنّ تسخير ما في السماوات وما في الأرض جميعا ، (٤) كناية عن إخضاع القوى الطبيعية المودعة في أجواء السماوات والأرض . لهذا الإنسان ، تعمل فور إرادته بلا فتور ولا قصور. ومعنى تسخيرها له : أنّ الإنسان فطر على إمكان تسخيرها.

فسبحانه من خالق عظيم ، إذ خلق خلقا بهذه العظمة والافتقار الفائق على كلّ مخلوق!

هذه دراستنا عن الإنسان على صفحات مشرقة من القرآن الكريم ، فيا ترى أين يوجد مثل هذه العظمة والتبجيل لمخلوق هو في هندامه صغير وفي طاقاته كبير ، كبرياء ملأ الآفاق!

أتُزعم أنك جسم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
فتبارك الله أحسن الخالقين بخلقه أحسن المخلوقين!

(١) هود ١١ : ٦١ .

(٢) راجع : البقرة ٢ : ٣٠ .

(٣) الإسراء ١٧ : ٦٥ .

(٤) راجع : الجاثية ٤٥ : ١٣ .

خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي!

حديث قدسيّ معروف ^(١) خطاباً مع بني آدم ، حيث كانوا هم الغاية من الخليقة ، كما كانت الذات المقدّسة هي الغاية من خلقه الإنسان! فكما وأنّ الأشياء برمتها . علوا وسفلا . سحرها الله لهذا الإنسان ولتكون في قبضته فتجلّي فيها مقدرته الهائلة ، كذلك خلق الإنسان ليكون مظهراً تامّاً لكامل قدرته تعالى في الخلق والإبداع.

ما من مخلوق . صغير أو كبير . إلّا وهو مظهر لتجلّي جانب من سمات الصانع الحكيم «وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد». أمّا الإنسان فكان المرآة الصقيلة التي تتجلّى فيها جميع صفات الجمال والجلال.

فإذا سألت : ما هي الغاية من خلق ما في السماوات وما في الأرض جميعاً؟ قلت . حسب وصف القرآن . : هو الإنسان ذاته مستودع أمانات الله وليكون خليفته في الأرض!

وإذا سألت : ما هي الغاية من خلقه الإنسان ذاته؟ قلت : هو الله الصانع الحكيم ، حيث الإنسان بقدرته على الخلق والإبداع أصبح مظهراً تامّاً لكامل الأسماء والصفات ، فكان وجه الله الأكمل وعين الله الأتمّ!

فكان الإنسان غاية الخليفة ، وكان الله الغاية من خلق الإنسان ، فالله هو غاية الغايات وبذلك ورد : «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن اعرف ، فخلقت الخلق لكي اعرف». ^(٢) حيث الإفاضة . وهي تجلّي الذات المقدّسة . كانت بالخلق والإبداع ومظهره الأتمّ هو الإنسان.

الحفاظ على كرامة الأنبياء

يمتاز القرآن بالحفاظ على كرامة الأنبياء . بينما التوراة تحطّ من كرامتهم.

(١) راجع : علم اليقين للفيض الكاشاني ، ج ١ ، ص ٣٨١.

(٢) حديث قدسي معروف . راجع : البحار ، ج ٨٤ ، ص ١٩٩ ؛ وهامش عوالى اللّثالي ، ج ١ ، ص ٥٥ ؛ وكتاب كشف الخفاء للعجلوني ، ج ٢ ، ص ١٣٢.

لم يأت ذكر نبيّ من الأنبياء في القرآن إلّا وقد أحاط بهم هالة من التبجيل والإكرام ، كما ونزّهمهم عن الأدناس على وجه الإطلاق.

خذ مثلاً سورة الصافات جاء فيها ذكر أنبياء عظام مرفقا بعظيم الاحترام.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾. ^(١)

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ. إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وينتهي إلى قوله : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ...﴾. ^(٢)

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ. وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ. وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾. ^(٣)

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾. ^(٤) وهكذا كلّما يمرّ ذكر نبيّ تصحبه لمّة من الإجلال والتكريم.

وأما التوراة فلا تمرّ فيها بقصّة من قصص الأنبياء إلّا وملؤها الإهانة والتحقير ، وربّما بلغ إلى حدّ الابتذال والتعير ممّا لا يليق بشأن عباد الله المخلصين!

هذا نوح شيخ الأنبياء تصفه التوراة : رجلاً سكّيراً مستهترا لا يرعوي شناعة حال ولا فضاة بال.

تقول عنه التوراة : إنّهُ بعد ما نزل من السفينة هو ومن معه غرس كرماً وصنع خمراً وشربها حتّى إذا سكر وتعرى داخل خبائه إذ دخل عليه ابنه الصغير حام فرأى أباه

(١) الآيات : ٧٥ . ٨١.

(٢) الآيات : ٨٣ . ١١٣.

(٣) الآيات : ١١٤ . ١٢٢.

(٤) الآيات : ١٢٣ . ١٣٢.

مكشوفاً عورته فاستحى ورجع ليخبر إخوته بذلك ، ولما صحا نوح وعلم بفضيع أمره دعا على ابنه هذا ولعنه هو وذريته في الآخرين. فكان من أثر دعائه عليه أن كانت ذريته عبداً لذرية أخويه سام وياث أبد الآبدين!^(١)

يا لها من مهزلة نسجتها ذهنية الحاقدين على أهل الدين ، فما شأن التوراة وثبت هكذا سفاسف حمقانية تمسّ بكرامة الشيخ الأنبياء! وهذا إبراهيم خليل الرحمن وأبو الأنبياء وصاحب الشريعة الخفيفة والتي أورثها الأنبياء من بعده ، نجده في التوراة رجلاً أرضياً يتاجر بزوجه الحسناء «سارة» ليفتدي بها ، لا لشيء إلا ليحظى بالحياة الدنيا على غرار سائر المرابين ، يفعلون الفجور للحصول على القليل من حطام الدنيا الدنية!^(٢) وما هي إلا فرية فاضحة يكذبها تاريخ حياة إبراهيم عليه السلام :

كانت سارة عند ما صحبت زوجها إبراهيم في سفره إلى أرض مصر قد طعنت في السنّ من السبعينيات وكان الدهر قد وسم على وجهها آثار الكهولة والهرم. ولم يعهد من عادة الملوك الجبارة وأصحاب الترف والبذخ أن يطمعوا في هكذا نساء عجوزات!

كان إبراهيم عند ما غادر «حاران» موطن أبيه «تارح» قاصداً بلاد كنعان ، قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره ، واجتاز أرض «شكيم» لبيني هناك مذبحاً (معبدًا). وارتحل إلى الجبل : شرقي «بيت إيل». وهكذا تداوم في رحلته يجوب البلاد ويبيني مذابح ، إلى أن حدث جذب عمّ البلاد ، فانحدر إلى أرض مصر لينتجع هناك.

ولم يأت في التوراة مدّة هذا التجوال والرحلات ، لكن جاء فيها : أنّ سارة لما وهبت جارياتها «هاجر» لإبراهيم كان قد مضى من مغادرتهم أرض مصر عشر سنين.^(٣) فحبلت هاجر وولدت إسماعيل بعد ما انقضى من عمر إبراهيم ست وثمانون عاماً.^(٤) فكان إبراهيم عند مقدمه مصر قد تجاوز الستّ والسبعين. وبما أنّ سارة كانت أصغر من إبراهيم

(١) سفر التكوين ، إصحاح ٩ / ١٨ - ٢٤.

(٢) المصدر : ١٢ / ١١ - ٢٠.

(٣) المصدر : ١٦ / ٣.

(٤) المصدر : ١٦ / ١٦.

بعشر سنين فقد كانت عند قدميها مصر قد ناهزت الست والستين وهو سنّ العجائز! ^(١)

إبراهيم ، لم يكذب قط!

جاء في أحاديث العامة برواية أبي هريرة . وهي أشبه بالإسرائيليات . أنّ إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات : ثنتين في ذات الله : قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ^(٣) والثالثة بشأن سارة : أنها اخته. ^(٤)

وفي حديث الشفاعة برواية أبي هريرة أيضا : أنّ أهل الموقف يأتون الأنبياء واحدا بعد واحد يستشفعون منهم ، حتّى يأتوا إبراهيم فيأبى معتذرا : إنّني كذبت ثلاث كذبات ولست هناكم. ^(٥)

وقد وصفت لجنة مشايخ الأزهر هذه الروايات بالصحاح ، وعارضت الاستاذ عبد الوهاب النجار استنكاره لهذه المفتريات. ^(٦)
قلت : وحاشا إبراهيم الخليل . الداعي إلى الحنيفية البيضاء . أن ينطق بكذب ، وإنّما كذب عليه بلا ريب . والرواية عامية الإسناد لا اعتداد بها في هكذا مجالات.

ولقد أجاد الإمام الرازي حيث قال : فلأن يضاف الكذب إلى رواة هذا الخبر أولى من أن يضاف إلى الأنبياء ، وأخذ في تأويل الموارد الثلاثة ، وأضاف قائلا : وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلاّ زنديق. ^(٧)
أمّا قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فلعله أراد وهن حالته الجسدية ممّا كان يرى قومه على عمه الغباء ، وقد أحسنّ ألما شديدا انتاب قلبه المرفف تجاه تلكم الجهالات العارمة.

وأمّا قوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ فقوله قالها مستهزئا بهم

(١) المصدر : ١٧ / ١٧ .

(٢) الصافات ٣٧ : ٨٩ .

(٣) الأنبياء ٢١ : ٦٣ .

(٤) صحيح البخاري ، ج ٤ ، ص ١٧١ وج ٧ ، ص ٧ ؛ وصحيح مسلم ، ج ٧ ، ص ٩٨ ؛ ومسند أحمد ، ج ٢ ، ص ٤٠٣ . ٤٠٤ .

(٥) جامع الترمذي ، ج ٤ ، ص ٦٢٣ وج ٥ ، ص ٣٢١ .

(٦) راجع : هامش قصص الأنبياء للنجار ، ص ٨٦ .

(٧) التفسير الكبير ، ج ٢٢ ، ص ١٨٥ وج ٢٦ ، ص ١٤٨ .

مستخفاً عقليتهم الكاسدة.

والكذب لا يكون إلّا لغرض التمويه. أمّا إذا كان السامعون عارفين بواقع الأمر وأنّ إبراهيم لم يقصد الحقيقة وإنّما أراد التسفيه من عقولهم محضاً فهذا لا يعدّ كذباً ، لأنّ الكذب إخبار في ظاهر غير مطابق للواقع. وهذا إنشاء لمحض التسفيه والهزء بهم. والإنشاء لا يحتمل الصدق والكذب ، فتدبّر. وأمّا الثالثة . بشأن سارة أنّها أخته . فحديث خرافة يا أمّ عمرو!

قصّة الطوفان في التوراة

جاءت قصّة الطوفان في سفر التكوين ^(١) بصورة تفصيليّة تشبه أن تكون أساطيرية ، وفيها ما ترفضه العقول وتأباه واقعية الحياة ، فضلاً عن منافاتها لاصول الحكمة المهيمنة على مظاهر الوجود.

جاء فيه : أنّ قوم نوح فسدوا وأفسدوا في الأرض ، فغضب الله عليهم وأنذرهم على لسان نوح بعذاب الاستئصال بإرسال الطوفان العارم ، فلم يعبثوا بذلك وظلّوا يعبثون ويعثون في البلاد.

ولما بلغ نوح من العمر ستمائة سنة أمره الله بصنع الفلك (في ٣٠٠ ذراع طولاً و ٥٠ ذراعاً عرضاً و ٣٠ ذراعاً في الارتفاع). فجاء الطوفان ، وجعلت ينابيع الأرض تتفجّر والسماء تمطر بغزارة أربعين صباحاً والماء يرتفع شيئاً فشيئاً على وجه الأرض كلّها حتّى بلغ قمم الجبال الشاخحة في كل جوانب الأرض وارتفع على أشمخ قمّة من الجبال بخمس عشرة ذراعاً ، وبذلك هلك الحرث والنسل ومات كلّ ذي حياة على وجه الأرض من الدوابّ والبهائم والدبابات والزخافات وحتّى الطير في السماء. ودام الطوفان مائة وخمسين صباحاً يحوم نوح بأهله وذويه وما حمله معه في الفلك على وجه الماء حتّى أخذ الماء ينحطّ ويغور فاستقرّت

(١) سفر التكوين ، إصحاح ٩ . ٦ .

سفينته على جبل «آارات» بإرمينية. فنزلوا من السفينة وعاش نوح بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين عاما ، فكان كلَّ أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة. على ما جاء في الإصحاح التاسع عدد ٢٨.

وكان الذي حمله نوح معه في السفينة . غير أهله وذويه . أزواجاً (ذكرا وانثى) من كلِّ أنواع الحيوانات لئلاَّ ينقرض نسلها وتبيد من الوجود. «من جميع البهائم والطيور ذكرا وانثى ، لاستبقاء نسلها على وجه كلِّ الأرض».^(١)

وهذا يعنى : أنَّ جميع الأحياء هلكوا على أثر الغرق «فمات كلَّ ذي جسد كان يدبَّ على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكلَّ الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس ، كلَّ ما في أنفه نسمة روح الحياة فيما في اليابسة مات».^(٢)

وذلك أنَّ الماء غمر وجه الأرض كلّها وطغى على أعالي الجبال الشامخة في كلِّ أكناف الأرض «وتعاضمت المياه كثيرا جدّا على الأرض فتغطّت جميع الجبال الشامخة التي تحت كلِّ السماء خمس عشرة ذراعا في الارتفاع فتغطّت كلَّ الجبال».^(٣)

حادث الطوفان في القرآن

وحاشا القرآن أن يساير التوراة (المتداولة) في سرد أفاصيص أسطورية واهية ، وإنما هي الواقعيّة ينتقيها وينبذ الأوهام الخرافية والتي أهدت بها على أثر طول العهد.

وإليك الحادث على ما جاء في سورة هود :

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ۖ^(٤) قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ. وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ. وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا

(١) المصدر : ٧ / ٤ .

(٢) المصدر : ٧ / ٢١ .

(٣) المصدر : ٧ / ١٩ .

(٤) كلمة أعجمية وتطلق في كلام العرب على مفجر المياه. جاء في القاموس : التنور كل مفجر ماء.

مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ. وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ^(١) وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(٢).

مواضع عبر أغفلتها التوراة

جاءت القصة في التوراة كسائر الأحداث التاريخية القديمة مشوّهة في خضمّ من خرافات بائدة ومن غير أن تتأكّد على مواضع العبر منها ، بل وأغفلتها في الأكثر. أمّا القرآن فيما أنّه كتاب هداية وعبر نراه يقتطف من أحداث التاريخ عبرها ويجتني من شجرة حياة الإنسان السالفة يانع ثمرها ، فليتمنّع الإنسان بها في حياته الحاضرة في شعف وهناء.

وقد أغفلت التوراة جانب زوجة نوح وابنه اللذين شملهما العذاب بسوء اختيارهما. إنّها عبرة كبرى ، كيف يغفل الإنسان أوفر إمكانيّات الهداية والصلاح ، وينجرف بسوء اختياره مع تيّار الضلالة والفساد ، وفي النهاية الدمار والهلاك!! ذكر السيّد ابن طاوس : أنّه كان لنوح زوجان إحداها وقية وأخرى غبية ، فركبت الصالحة مع أبنائها السفينة ، وهلكت الأخرى الطالحة مع الأثمين. ^(٣)

قال الله تعالى عنها وعن زوج لوط : ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰٰخِلِينَ﴾ ^(٤).

(١) قال أبو مسلم الأصبهاني : الجودي كلّ جبل وأرض صلبة.

(٢) هود ١١ : ٤٠ - ٤٨ .

(٣) راجع : سعد السعود لابن طاوس ، ص ٢٣٩ ؛ وبحار الأنوار ، ج ١١ ، ٣٤٢ .

(٤) التحريم ٦٦ : ١٠ .

وكانت خيانتها هي المسايرة مع الكافرين ونبد معالم الهداية التي كانت في متناولهما القريب.
وابن نوح يقول عنه تعالى : إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ. لا يصلح للانتساب إليه بهذا العنوان الفخيم (أهل نوح) لأنّه عمل غير صالح ، إنّهُ حصيلة أعماله غير الصالحة ، ومن ثمّ فإنّه كان يعيش خارج الإطار الذي كان يعيشه نوح وأهله.
وهذا أيضا من أعظم العبر ، كيف ينحدر الإنسان من أعلى قمم الهداية والتوفيق لينخرط مع البائسين الحيارى لا يهتدون سبيلا؟!
أما وكيف ابتغى نوح نجاه ابنه هذا وهو يعلم ما به من غواية الضلال؟ فهذا يعود إلى حنان الأبوة ورحمة العطفة التي كان يحملها نوح ﷺ لا سيّما مع ما وعده الله بنجاة أهله ، فلعلّه شملته العناية الربّانية وأصبح من المرحومين. ومن ثمّ جاءت الإجابة باليأس وأنّه لا يصلح أن يكون أهلا له وكان محتمّا عليه أن يمسي من المرحومين.

هل عمّ الطوفان وجه الأرض؟

صريح التوراة أنّ الطوفان عمّ وجه الأرض وأهلك الحرث والنسل وحتّى الطير في السماء.
وليس في القرآن دلالة ولا إشارة إلى ذلك ، بل على العكس أدلّ وأنّ الطوفان إنّما عمّ المنطقة التي كان يعيشها قوم نوح ولم يتجاوزها.
جاء في سورة الأعراف : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إلى قوله : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾^(١)
فالذين كان يخاف عليهم عذاب يوم عظيم ممّن كذبوه وكانوا قوما عمين ، كانوا هم المغرقين.

(١) الأعراف ٧ : ٥٩ . ٦٤ .

ولا دلالة فيها على غرق آخرين من أقوام لو كانوا مبعثرين عاشين في سائر أقطار الأرض ممّن لم تبلغهم دعوة نوح ولم يكن مرسلا إليهم. هذا فضلا عن سائر الحيوان من الزحّافات والدبابات المنتشرة في وجه الأرض ، وكذا الطير في الهواء ، ممّا لا شأن لها ورسالات الأنبياء ولا وجه لأن يعمّها العذاب وهو عقاب على معصية لا مساس لها بغير الإنسان. الأمر الذي يؤخذ على التوراة أشدّ الأخذ! ولا سيّما بذلك الوصف الذي وصفته : غمر الماء وجه الأرض كلها وارتفع حتّى غمر قمم الجبال الشاخات وعلاهّنّ بخمس عشرة ذراعا (سبعة أمتار)!

نقض فرضية الشمول؟

يقول «ولتر» . الكاتب الناقد الفرنسي (١٦٩٤ . ١٧٧٨ م) بصدد تسخيف أسطورة الطوفان على ما وصفته التوراة . : كان يجب لمثل هذا التضخّم من الماء المتراكم على وجه الأرض أن تضطّم اثنا عشر بحرا ، كلّ في سعة البحر الأطلنّتي المحيط ، بعضها فوق بعض ، ليكون الأعلى في حجم أكبر بأربع وعشرين ضعفا ، وهكذا حتّى تجتمع في مثل هذا الماء المتراكم ليغمر شاخات الجبال! ويزيد . مستخفاً عقلية مسطرّ هذه الأساطير وناقما على الذين اعتنقوها باعتبارها وحيا من السماء (وحاشاه) . : يكفي بذلك معجزة خالدة لا حاجة معها إلى سائر المعاجز ، حيث لا مثيل لها في خرق نواميس الكون!!.

ويقول آخر : إنّ المحاسبات العلمية الدقيقة تعطينا : أنّ الأبخرة المنبثّة في أجواء الأرض لو تكتّفت جميعا وهطلت أمطارا لما كانت تكفي لأن تغمر وتعلو عن وجه الأرض بأكثر من بضع سانتيمترات ، فكيف بجبال شاخات؟! يقول الدكتور «شفا» : لو كانت السماء تهطل بأمطارها أربعين صباحا . كما هو نصّ التوراة . لما كاد أن يغمر هضبة ما بين النهرين . على صغرها . فكيف بغمر وجه الأرض

وأن يعلو قمم الجبال؟! وجبل «آارات» يرتفع عن سطح البحر بأكثر من خمس كيلومترات ما يكاد أن يغمره ، فكيف بسائر الجبال الشاخنة؟! (١)

الطوفان ظاهرة طبيعية حيث أرادها الله

نعم ، كان حادث الطوفان ظاهرة طبيعية وعلى ما وصفه القرآن ممّا لا يكاد الغمز فيه.

كان قد مرّ على حياة الأرض في أدوارها الأولى كثير من تغيّرات جويّة مفاجئة ، كان وجه الأرض مسرحاً لتناوب هطول أمطار غزيرة وسيول هائلة منحدرة من أعالي الجبال كادت تغمّ الهضاب والوديان والمناطق المنخفضة من سطح الأرض. وكان طوفان نوح إحدى تلكم الظواهر الكونية حدثت بإذن الله ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا. فَالتَّقى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾. (٢) فانحدرت سيول هائلة على سفوح الجبال وتفجّر ينابيع الأرض المشبعة بالأمطار ، وهكذا أحاط الماء الهائم بقوم نوح وسدّ عليهم طرق النجاة. وحسب ابن نوح حاول اللجوء إلى أعالي المرتفعات لو لا أن جابهته سيول هائلة لتصرعه إلى حيث مهوى الهلاك ، بل وحسب لم يجد فرصة التريث فيما كان ينصحه أبوه ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين.

وفي تواريخ الامم ما يسجّل حدوث طوفانات هائلة جرفت بقسط من الحياة ، ولعلّه لتراكم الفساد والشرّ في تلكم البقاع. فمن قدماء الفرس : أنّ طوفانا هائلا غمّ أرض العراق إلى حدود كردستان. وهكذا روي عن قدماء اليونان. والهنود أثبتوا وقوع الطوفان سبع مرّات شمل شبه الجزيرة الهندية. ويروى تعدّد الطوفان عن اليابان والصين والبرازيل والمكسيك وغيرهم. ويروى عن الكلدانيين . وهم الذين وقع طوفان نوح في بلادهم . : أنّ المياه طغت على البلاد وحرفت بالحرث والنسل. فقد نقل عنهم «برهوشع» و

(١) راجع : ما كتبه الدكتور شجاع الدين شفا في كتابه «تولّد ديكر» ، ص ٢٨٥ منتقدا قصّة الطوفان على ما وردت في الكتب الدينية.

(٢) القمر ٥٤ : ١١ و ١٢.

«يوسفوس» : أنّ «زيزستروس» رأى في الحلم بعد موت أبيه «أوتيرت» أنّ المياه ستطغى وتغرق الناس كلّهم (مَن كان يعيش هناك طبعاً). فأمر بصنع سفينة يعتصم فيها هو وذووه ، ففعل. وقد كان هناك جبابرة طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد فعاقبهم الله بالطوفان والاستئصال. وقد عثر بعض الإنجليز على ألواح من الآجر نقشّت فيها هذه الرواية بالحروف المسمارية في عصر «آشور بانيبال» من نحو (٦٦٠) سنة قبل ميلاد المسيح وأتّما منقولة من كتابة قديمة من القرن السابع عشر قبل الميلاد أو قبل ذلك. ومن ثمّ فهي أقدم من كتابة سفر التكوين (يرجع تدوينه إلى عام ٥٣٦ قبل الميلاد بعد الرجوع من سبي بابل).

ويروي اليونان خبراً عن الطوفان أورده «أفلاطون» وهو : أنّ كهنة مصر قالوا للحكيم اليوناني «سولون» أنّ السماء أرسلت طوفاناً غيّر وجه الأرض مراراً فهلك الناس (مَن عمروا البلاد في المنطقة) وانمحت آثارهم ولم يبق للجيل الجديد شيء من تلكم الآثار والمعارف. وأورد «مانيتيون» خبر طوفان حدث بعد «هرمس» الأوّل الذي كان بعد «ميناس» الأوّل. وهو أقدم من تاريخ التوراة أيضاً. ^(١) وهكذا جاء خبر الطوفان في «أوستا» كتاب المجوس. ^(٢)

وجاء في كتاب «تاريخ الأدب الهندي» الجزء الأوّل المختصّ بالثقافة الوثنية الهندية ، للسيدّ أبي نصر أحمد الحسيني البهوبالي الهندي (مخطوط) ص ٤٢ و ٤٣ ، في الباب الخامس ، وعنوانه «برهمانا وأوبانيشاء» :
ومّا يلفت النظر في «ساتابانا برهمانا» قصّة الطوفان ، التي بيّنت في ضمن الضحايا. والقصّة وإن اختلفت من وجوه كثيرة عمّا في القرآن والتوراة ، وإن لم توجد شواهد قاطعة تربط القصّة الهندية مع السامية. توجب الاهتمام ..
ففي هذه القصّة البرهمانية يقوم «مانو» بدور نبيّ الله نوح عليه السلام في القرآن وفي

(١) راجع : تفسير المنار لمحمد عبده ، ج ١٢ ، ص ١٠٥ .

(٢) في ترجمتها الفرنسية. راجع : الميزان للطباطبائي ، ج ١٠ ، ص ٢٦٧ .

التوراة. و «مانو» اسم نال التقديس والاحترام في أدب الثقافة بأسره من الوثنيين ، فهو : ابن الله ، ومصدر جميع الناس وجدّهم الاسطوري.

وخلاصة القصّة : أنّه بينما كان «مانو» يغسل يديه إذ جاءت في يده سمكة ، ومّا اندهش به «مانو» أنّ السمكة كلّمته وطلبت إنقاذها من الهلاك ، ووعدته جزاء عليه أنّها ستنقذه في المستقبل من خطر عظيم. والخطر العظيم المحدث الذي أنبأت به السمكة كان طوفانا سيجرف جميع المخلوقات. وعلى ذلك حفظ «مانو» السمكة في «المرتبان». فلمّا كبرت السمكة أخبرت «مانو» عن السنة التي سيأتي فيها الطوفان ، ثمّ أشارت عليه أن يصنع سفينة كبيرة ، ويدخل فيها عند طغيان الماء ، قائلة : أنا أنقذك من الطوفان. فمانو صنع السفينة ، والسمكة كبرت أكثر من سعة «المرتبان» ، لذلك ألّفاه «مانو» في البحر. ثمّ جاء الطوفان كما أنبأت السمكة. وحين دخل «مانو» السفينة ، عامت السمكة إليه ، فربط السفينة بقرن على رأس السمكة ، فجرّتها إلى الجبال الشمالية. وهنا ربط «مانو» السفينة بشجرة ، وعند ما تراجع الماء وخفّ ، بقي «مانو» بوحدته. ^(١)

فذلكة الكلام : إنّ فيما أنبأت به الامم وحدثت به الأجيال من حوادث جويّة خطيرة داهمت الحياة البشرية الأولى وكان فيها الهلاك والدمار ومنها حادث الطوفان في كرات ومرات ليشرّف بالاطمئنان على تحقّق الحادث إجمالًا ولو لم يكن بذلك الشكل الأساطيري المنقول ، شأن سائر القصص البائدة حيكت حولها مخاريف ، الأمر الذي لا يوجب إنكارها من رأس. ولا سيّما أنّ مثل حادث الطوفان كان طبيعيًا أن يهاجم حياة الإنسان ويواجهه بالنكبات في الأيام الأولى بكثرة ، ولا يزال ينتاب وجه الأرض بعد حين وآخر.

وربما كان من أعظمها وأشملها طوفان نوح ، عمّ المنطقة ودمّر وأباد. هذا شيء لا مساغ لإنكاره ، بعد كونه طبيعيًا وأخبر به الصادق الأمين.

(١) راجع : قصص الأنبياء للنجار ، ص ٤٦ . ٤٧ .

أما الزيادات التي جاءت في الأساطير القديمة ونقلتها التوراة على علاقتها فهذا شيء نستخلص منه وننبذه كما نبذه القرآن واستخلص الحادث صافيا جليًا. الأمر الذي اختصّ به القرآن وكان نبأ غيبيا لا يعلمه أيّ إنسان ذلك الحين. ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾^(١).

أي لا تعلمها بهذا الخلوص والجلاء. أما صورتها المشوّهة فكان يتداول بها أقوام جاهلون بحقيقة الأمر.

لا شاهد على شمول الطوفان

لا شك أنّ شواهد الطبيعة لا تدع مجالا لاحتمال شمول الطوفان ، ولا سيّما بذلك الارتفاع الهائل! كما لا موجب لتناول الإعجاز لمثل هذا الحدّ غير الضروري قطعيا.

بقي ظاهر النصّ (التعابير الواردة في القرآن الكريم) ممّا حسبه البعض ذا دلالة أو إشارة إلى ذلك ، فضلا عن قرائن اخرى : قال الشيخ محمّد عبده : وأما مسألة عموم الطوفان في نفسها فهي موضوع نزاع بين أهل الأديان وأهل النظر في طبقات الأرض ، وموضوع خلاف بين مؤرّخي الامم. أمّا أهل الكتاب وعلماء الأئمة الإسلامية فعلى أنّ الطوفان كان عامّا لكلّ الأرض. ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر. واحتجّوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحرّجة في أعالي الجبال ، لأنّ هذه الأشياء ممّا لا تتكوّن إلّا في البحر ، فظهورها في رءوس الجبال دليل على أنّ الماء صعد إليها مرّة من المرّات ، ولن يكون ذلك حتّى يكون قد عمّ الأرض.^(٢) وقال السيّد الطباطبائي : الحقّ ، أنّ ظاهر القرآن الكريم . ظهورا لا ينكر . أنّ الطوفان كان عامّا للأرض ، وأنّ من كان عليها من البشر اغرقوا جميعا

...

ومن شواهد الآيات التي استند إليها قوله تعالى . حكاية عن نوح . ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ

(١) هود ١١ : ٤٩ .

(٢) تفسير المنار ، ج ١٢ ، ص ١٠٨ .

﴿الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ، ^(١) وقوله : ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ، ^(٢) وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ . ^(٣)

قال : ومن الشواهد من كلامه تعالى على عموم الطوفان ما ذكر في موضعين من الأمر بأن يحمل من كلّ زوجين اثنين. ^(٤) ومن الواضح أنّه لو كان الطوفان خاصّاً بالمنطقة (أرض العراق كما هو معروف) لم تكن حاجة إلى ذلك. ^(٥) نظرا لإمكان تداوم النسل بسائر أفراد النوع المنبثّة في أقطار الأرض حينذاك.

آثار جيولوجية؟

لكن وجود الفسائل وبقايا متحجّرة لحيوانات مائية وهكذا آثار الردم المشاهد في أعالي بعض الجبال لا يصلح شاهدا لصعود الماء إليها ، إذ لا يكفي لحدوث هذه الآثار ووجوده هذه البقايا صعود الماء أيّاما معدودة ولفترة قصيرة ، بل ومن المحتمل القريب أنّها من بقايا رسوبية كانت يوما ما تحت البحر وعلى ضفافه ، غير أنّ التغيّرات الجيولوجية والتمعّجات الحاصلة على قشرة الأرض على أثر الزلازل وغيرها هي التي أوجبت تغيّرا في وجه الأرض ، فمنها ما ارتفع بعد ما كان مغمورا ، أو انغمر بعد ما كان عاليا ، وهكذا تعرّجات حدثت على الأرض ولا سيّما في الفترات الأولى على أثر انخفاض حرارة سطح الأرض.

قال الشيخ محمّد عبده : إنّ وجود الأصدايف والحيوانات البحرية المتحجّرة في قلال الجبال لا يدلّ على أنّها من أثر ذلك الطوفان ، بل الأقرب أنّه كان من أثر تكوّن الجبال وغيرها من اليابسة في الماء. فإنّ صعود الماء إلى الجبال أيّاما معدودة لا يكفي لحدوث ما ذكر فيها. ^(٦)

(١) نوح ٧١ : ٢٦ .

(٢) هود ١١ : ٤٣ .

(٣) الصافات ٣٧ : ٧٧ .

(٤) راجع : سورة هود ١١ : ٤٠ والمؤمنون ٢٣ : ٢٧ .

(٥) راجع : تفسير الميزان ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ و ٢٧٤ . ووافقه على ذلك الدكتور محمّد الصادقي في تفسيره الفرقان ، ج ١٢ ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .

(٦) تفسير المنار ، ج ١٢ ، ص ١٠٨ .

﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ﴾^(١)

أخذوا من هذه الآية دليلاً على عموم الطوفان وشموله لوجه الأرض كلّها.

قال الشيخ محمد عبده : ليست الآية نصّاً في أنّ المراد بالأرض هذه الكرة كلّها ، فإنّ المعروف في كلام الأنبياء والأقوام وفي أخبارهم أن تذكر الأرض ويراد بها أرضهم ووطنهم ، كقوله تعالى حكاية عن خطاب فرعون لموسى وهارون : ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) يعنى أرض مصر ، وقوله : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾^(٣) فالمراد بها مكّة ، وقوله : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾^(٤) والمراد ديار فلسطين ، والشواهد على ذلك كثيرة.

قال : وظواهر الآيات تدلّ بمعونة القرائن والتقاليد الموروثة عن أهل الكتاب ، على أنّه لم يكن في الأرض كلّها في زمن نوح إلّا قومه . «وهو في أوّليات حياة البشر» . وأنّهم هلكوا كلّهم بالطوفان ولم يبق بعده فيها غير ذريّته . وهذا يقتضي أن يكون الطوفان في البقعة التي كانوا فيها من الأرض سهلها وجبالها ، لا في الأرض كلّها . إلّا إذا كانت اليابسة منها في ذلك الزمن صغيرة لقرب العهد بالتكوين وبوجود البشر عليها فإنّ علماء التكوين وطبقات الأرض (الجيولوجية) يقولون : إنّ الأرض كانت عند انفصالها من الشمس كرة نارية ملتهبة ثمّ صارت كرة مائية ، ثمّ ظهرت فيها اليابسة بالتدريج .^(٥) وبذلك ظهر عدم دلالة الآية ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾^(٦) على شمول الطوفان لعامة وجه الأرض ، بعد فرض محدودية نطاق النسل البشري آنذاك (في عهد بعيد جدّاً) وعدم الانتشار في أقطار الأرض . ولا نتسلّم بما حدّدته التوراة من التاريخ القريب ولا مستند لها.

﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾

شاهد آخر التمسوه دليلاً على عموم الطوفان.

قال تعالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ . وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ

(١) نوح ٧١ : ٢٦ .

(٢) يونس ١٠ : ٨٧ .

(٣) الإسراء ١٧ : ٧٦ .

(٤) الإسراء ١٧ : ٤ .

(٥) تفسير المنار ، ج ١٢ ، ص ١٠٦ .

(٦) الصافات ٣٧ : ٧٧ .

ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١﴾.

في هذه الآية موضعان يمكن الاستناد إليهما تدليلاً على شمول الطوفان :

- ١ . التعبير بالموج الهائل كالجبال ، ممّا لا يحدث إلّا في متّسع من خضمّ الماء المتراكم.
 - ٢ . محاولة ابن نوح للصعود إلى جبل يعصمه من الماء ، ولكن نوحاً أنذره أن لا عاصم اليوم. ومعنى ذلك أنّ الماء سيغطّي الجبال أيضاً ولا يذر موضعاً يأوي إليه. وهكذا ابتلعه الموج الهائم فكان من المغرقين.
- لكن لا شك أنّ هضبة كبيرة واسعة الأرجاء إذا ازدحمت عليها المياه واكتنفتها السيول العارمة من كلّ جانب وفاضت ينابيع الأرض فإنّ الماء ليجول ويصّول في ساحتها وربّما ارتفعت إلى عشرات الأمتار. وفي مثل هذا الخضمّ من الماء الهائم والذي في عرضة الطوفان وهبوب رياح عاصف لا بدّ أنّ تحصل أمواج عالية وعاتية تلوي على كلّ شيء ، ولا بدّ أنّ ابن نوح كان واقفاً على مرتفع من الأرض ليرى تجوال السفينة على وجه الماء ، وحينما كلّمه أبوه . وهو راكب في السفينة . لم يعبه بنصح أبيه ، وأنّه سوف يأوي إلى أعالي الجبال. لكنّه غافل أنّ السيول الهائلة المنحدرة على سفوح الجبال سوف تلوي به إلى أعماق الغرق ، وبالفعل نزلت به النازلة وحال بينه وبين أبيه الموج فكان من الهالكين.
- وليس في ذلك دلالة على أنّ الماء سوف يرتفع على قمم الجبال الشامخة في كلّ مناحي الأرض.
- وهكذا رجّح العلامة الشعراي أنّ الماء لم يرتفع في أرض الطوفان (هضبة ما بين النهرين) أكثر من عشرين أو ثلاثين متراً ، ممّا لا يمكن غشيانه قلل جبال رفيعة كقلّة آرات من سلسلة جبال جودي. (٢)

(١) هود ١١ : ٤٢ و ٤٣ .

(٢) معجم لغات القرآن للعلامة أبي الحسن الشعراي (ملحق تفسير أبي الفتوح الرازي ، ج ١١ ، ص ١٤٤).

﴿قُلْنَا اِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾^(١)

شاهد ثالث أخذه دليلا على عموم الطوفان :

قال العلامة الطباطبائي : هذا كالنصّ في أنّ الطوفان عمّ البقاع اليابسة من الأرض جميعا أو معظمها الذي هو بمنزلة الجميع. قال : ولو كان الطوفان خاصا بصقع من أصقاع الأرض وناحية من نواحيها . كالعراق على ما قيل . لم يكن أيّ حاجة إلى أن يحمل في السفينة من كلّ جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين.^(٢)

وهذا المعنى قائم على أساس ما حسبه المفسّرون في سبب حمل زوجين من كلّ جنس من الحيوان لعلّ استبقاء نسلها لئلا تنقرض. قال صاحب المنار : والتقدير . على قراءة حفص [بتنوين كلّ] . : احمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَحْيَاءِ أَوْ الْحَيَّاتِ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى ، لأجل أن تبقى بعد غرق سائر الأحياء فتتناسل ويبقى نوعها على الأرض.^(٣)

وعامة المفسّرين على ذلك ، ولعلّهم متأثرون بنصّ التوراة وتوارد الإسرائيليات بهذا المعنى. جاء في سفر التكوين : ومن جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكرا وأنثى ، ومن البهائم غير الطاهرة اثنين ذكرا وأنثى ، ومن طيور السماء أيضا سبعة سبعة ذكرا وأنثى ، لاستبقاء نسل على وجه كلّ الأرض.^(٤) وهكذا ورد في الإسرائيليات.^(٥)

ولكن ما قدر السفينة حتّى يحمل فيها مثل هذا العدد الجَمّ من أنواع الحيوان الأهلية والوحشية والحشار والطيور لئلا ينقرض نسل الأحياء. بل وفي هذه الروايات : حمل الأزواج من أنواع النبات والشجر والأعشاب ، وهو من الغرابة بمكان!!

وبحقّ قال سيّد قطب : ومرة أخرى تتفرّق الأقوال حول ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾. ونشيع في الجوّ رائحة الإسرائيليات قويّة.

وتعقّب بقوله : أمّا نحن فلا ندع الخيال يلعب بنا ويشتطّ حول النصّ ﴿اِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ممّا يملك نوح أن يمسك وأن يستصحب من الأحياء ، وما وراء ذلك خبط عشواء.^(٦)

(١) هود ١١ : ٤٠ ؛ المؤمنون ٢٤ : ٢٧ .

(٢) تفسير الميزان ، ج ١٠ ، ص ٢٧٤ .

(٣) تفسير المنار ، ج ١٢ ، ص ٧٦ .

(٤) سفر التكوين ، إصحاح ٧ / ٢ . ٣ .

(٥) راجع : الدرّ المنثور للسيوطي ، ج ٤ ، ص ٤٢٣ فما بعد .

(٦) في ظلال القرآن ، ج ١٢ ، ص ٦٢ ، مجلّد ٤ ، ص ٥٤٨ .

وهذا هو الرأي الصحيح ، فقد رخص الله لنوح أن يحمل معه ما يملكه من الحيوانات الأهلية بقدر ما يحتاج إليه من زاد وراحلة ، ولا يثقل حمله حتى تعود الأحوال إلى أوضاعها الأولى. وأما سائر الأحياء الأهلية والوحش فتتشرّد لوجهها ولا تبقى في المنطقة المصابة بالحادث ، كما هو مألوف. هذا ما يدلّ عليه نصّ القرآن لا أكثر.

والزوجان . في الآية . يراد به المتعدّد في تشاكل ، أي من كلّ جنس عددا يفي لتأمين الحاجة بها. وهذا نظير قوله تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا﴾ (في الأرض) ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾^(١) أي من كلّ نوع في أشكال وألوان متقاربة ومتنوعة ، كالنفاحة في أشكالها وألوانها ، وهكذا الليمون والزمان وسائر الفواكه من كلّ نوع فيها أزواج متشابهة. كما قال تعالى : ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾^(٢) أي متشاكلا وغير متشاكل.

وجاء في وصف فواكه الجنة : ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾^(٣) أي صنفان متشاكلان. والمراد المتعدّد في أشكال وأصناف ، كما قال : ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾^(٤) أي متشاكلا.

ومن الواضح أنّ الثمرة . هي الفاكهة . ليس فيها ذكر ولا انثى ولا تزواج لقاح ، وإلّا ذاك في بذور الأزهار لا في الفواكه والثمار. على أنّها لغة دارجة : أن يراد بالمتنّى الشيع في الجنس لا الاثنان عددا. قال أبو علي : الزوجان في قوله : ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ يراد بهما الشيع وليس يراد بهما عدد الاثنين ، كما قال الشاعر :

فاعمدا لما يعلو فمالك بالذي لا تسطيع من الامور يــــدان

يريد : الأيدي والقوى الكثيرة حتى يستطيع التغلّب بها على الامور.

قال : ويبيّن هذا المعنى أيضا قول الفرزدق :

وكــــلّ رفيقــــي كــــلّ رــــحــــل وإن هــــما تعاطى القنا قومــــا هــــما أــــحــــوان^(٥)

(١) الرعد ١٣ : ٣.

(٢) الأنعام ٦ : ١٤١.

(٣) الرحمن ٥٥ : ٥٢.

(٤) البقرة ٢ : ٢٥.

(٥) تعاطى مخفّف تعاطيا ، حذف اللام للضرورة. جامع الشواهد ، ص ٣٢٤.

إذ رفيقان اثنان لا يكونان رفيقي كلّ رحل ، وإنما يريد الرفقاء كلّ واحد مع صاحبه يكونان رفيقين.
وأما وصف الزوجين بالاثنتين فلإرادة التأكيد والتشديد في المتبوع ، كما قال تعالى : ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾^(١) خطابا مع المشركين ، نهي عن اتخاذ الآلهة ، ومع ذلك جاء تأكيده بالاثنتين ، زيادة في المبالغة.^(٢) ومن ثمّ عبّ به بقوله : ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِذَا يَافِرُهُبُونَ﴾.
وإنّما جاء بالثنائية باعتبار اتخاذ إله آخر معه سبحانه ، أي لا تتخذوا مع الله إلهًا آخر ، والمعنى : النهي عن التعدّد في الآلهة وإن كان في صياغة المثنى^(٣) وقد بحثنا عن إرادة الشيع من المثنى بتفصيل فليرجع إليه.^(٤)

﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾^(٥)

يقال : إنّ تعريب «جورداي» اليونانية ، اسم لسلسلة جبال تمتدّ من شماليّ العراق فيلّي تركيا وبلاد أرمينية ذات قمّة رفيعة (٥١٧٥ مترا) عرفت ب «آراراط». شاع عند الأرامنة . القاطنين في المنطقة . أنّها مرسى سفينة نوح ، وأخذ عنهم العرب من غير تحقيق.
ويرجع هذا الشيع إلى عهد متأخّر (منذ القرن العاشر بعد الميلاد) حيث ترجمت عبارة التوراة : (رست السفينة على جبل الأكراد) بجبل آراراط.
ولم تكن الأرامنة تعرف لذلك الوقت مرسى متعيّنا للسفينة ، حتى شوّهت عليهم هذه الترجمة الخاطئة ، وجعلت الأوهام تحيك حولها أساطير.
جاء في دائرة المعارف الإسلامية : والمحقّق من كتابات كثير من المؤلّفين الأرمن وغيرهم من الكتاب أنّ جبل «آراراط» لم يكن له حتّى القرن العاشر صلة ما بحادث

(١) النحل ١٦ : ٥١ .

(٢) راجع : مجمع البيان للطبرسي ، ج ٥ ، ص ١٦١ .

(٣) المصدر : ج ٦ ، ص ٣٦٥ .

(٤) فيما يأتي في البحث عن آية وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ فيما توهم من المخالفة مع العلم .

(٥) هود ١١ : ٤٤ .

الطوفان. فالرواية الأرمنية القديمة لا تعرف . على التحقيق . شيئا على جبل استقرّت عليه فلك نوح. فلمّا أن جاء ذكر جبل في المؤلّفات الأرمنية المتأخّرة تبين أنّ ذلك كان بتأثير الكتاب المقدّس ، المتزايد في هذه المؤلّفات. والكتاب المقدّس هو الذي يقول إنّ السفينة استقرّت على جبال أراراط. وأعلى هذه الجبال وأشهرها جبل «ماسك» (ماسيس) ومن ثمّ فلا بدّ أنّ نوحا قد حطّ بسفينته على هذا الجبل.

أمّا المرحلة الثانية من نموّ هذه الرواية الأرمنية فتتردّ إلى الأوربيين الذين أطلقوا اسم آراراط (بالإرمنية : إيراراط) وهو اسم ناحية على جبل ماسك ، استنادا على تفسير خاطئ لسفر التكوين.^(١)

وإنّما أخذت الرواية القائلة بأنّ «ماسك» هو الجبل الذي استقرّت عليه السفينة ، تجد مكانا في المؤلّفات الأرمنية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وتذهب التفاسير الدينية السابقة على هذا في الزمن ، إلى أنّ الجبل المعروف الآن بجبل «الجوديّ» أو جبال «جوردين» (بالسريانية : قردو. وبالإرمنية : كردخ). كما تقول المصادر النصرانية . هو المكان الذي رست عليه سفينة نوح.

والمحقّق أنّ هذا التحديد للمكان الذي استقرّت عليه السفينة . وهو التحديد الذي ذكر حتّى في الترغوم (الترجمة الكلدانية للعهد القديم). يسند إلى الرواية البابلية. وقد نشأ من الاسم البابلي «برسوس».

زد على ذلك أنّ جبل «نصر» الذي ذكر في قصّة الطوفان في الكتابات المسمارية يصحّ أيضا أن يحدّد مكانه في جبال «جوردين» بالمدلول الواسع لهذا الاسم. وقد أخذ النصارى بالرواية البابلية اليهودية القديمة ، وعرفها العرب منهم عند ما وصلوا بفتوحاتهم إلى إقليم «بمستان» (بلاد أرمينية). وأطلق العرب اسم الجودي . الوارد في القرآن . في غير تثبّت على جبل «قردو» المعروفة بذلك منذ أقدم الزمن.

(١) المصدر : ٨ / ٤ .

وما زالت المنطقة المحيطة بجبل الجودي إلى يومنا هذا حافلة . بالمنطقة المحيطة بجبل آراراط . بالأساطير والذكريات المتّصلة بقصّة الطوفان وحياة نوح بعد إذ غادر السفينة.^(١)

* * *

وهكذا نرى الجغرافيّ الكبير ياقوت الحموي (ت ٦٢٦) متأثراً بتلكم الأساطير المسطّرة ، يقول : الجوديّ جبل مطلّ على جزيرة «ابن عمر» في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل . عليه استوت سفينة نوح ﷺ .

ثمّ يذكر نصّ التوراة . مستشهدا به . : «... واستقرّت السفينة على الجودي في شهر كذا ويوم كذا ... ويقول : هذا تعريب التوراة حرفا حرفا». ^(٢) ما ندري ما ذا كان الأصل حتى ترجمه إلى ذلك . ولعلّه لقّن بذلك . وهو روميّ الأصل . من بعض الأرامنة المسيحيّين . وهكذا لقّن أبناء الإسلام بأوهام جاءتهم من قبل أهل الكتاب!

هذا ، ومن ورائهم زرافات من المفسّرين سواء في الغابر والحاضر . مع الأسف . من غير تريّث ولا تحقيق ، وكم له من نظائر في مواضع من التفسير ، أشهرها وأشنعها تفسيرهم ذا القرنين بالإسكندر الكبير!

ومن مضاعفات هذا الزعم . كما نبّه عليه المحقّق الشعراي . ^(٣) القول بعموم الطوفان المستحيل . ^(٤) إذ لازمه أن يكون الماء قد غمر رؤوس الجبال الشامخات ، حيث رست السفينة . بعد ما أخذت المياه في النضوب . على قمّة جبل ترتفع خمس كيلومترات!

ومّا يجدر التنبّه له : أنّ القوم حسبوا من كلمة «الجودي» . باعتبارها اسم جبل . أنّها أعجمية معرّبة ، فراحوا يجوبون البلاد علّهم يعثروا على ذلك الأصل أهو «جورداين» أو «جورداي» أو «قوردو» أو غيرها؟

(١) راجع : دائرة المعارف الإسلامية المترجمة إلى العربية ، ج ٧ ، ص ١٦١ . ١٦٣ (الجودي).

(٢) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٧٩ .

(٣) معجم لغات القرآن للشعراي ، ج ١١ ، ص ١٤٤ .

(٤) عادة في الطبيعة . ولا ضرورة تدعو إلى مثل هذا الإعجاز!

لكن لا مبرّر لهذا الحسبان بعد أن كان لهذه الكلمة أصل عربي خالص ولها سابق التعبير في جاهلية العرب. قال اميّة بن أبي الصلت :
 ســـــــــــــــــبحانه ثمّ ســـــــــــــــــبحانا يعــــــــــــــــود لـــــــــــــــــه وقبلـــــــــــــــــه ســــــــــــــــبح الجــــــــــــــــودي والجــــــــــــــــمــــــــــــــــد
 الجودي . من الجود . : الربوة من الأرض تجود بنباتها إذا أصابها وابل آتت أكلها ضعفين. والجمد : الحزنه من الأرض تحمد بنباتها وتبخل سواء
 أصابها وابل أو طلّ.
 قال أبو مسلم الأصبهاني : الجودي اسم لكلّ جبل وأرض صلبة. ^(١) في مقابلة الرخوة أي استقرّت على مرتفع من الأرض غير ذات وحل ، وكانت
 ذات بركة عليه حينما نزل بها.

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾. ^(٢) فأول مفاتيح البركات نزوله بأرض ذات بركة وجود.

وأيّن هذا من حسبان نزوله في أعالي جبال شامخات ترتفع عن الأرض السهلة بخمس كيلومترات؟!

وهل كان نزوله حينذاك بسلام وبركات أم بشقاء وعناء؟!

﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ ^(٣)

هذه العبارة «وفار التنّور» إمّا كناية عن فورة سخطه تعالى بمعنى : وثار غضب الربّ ، كما يقال : فار فائره إذا اشتدّ غضبه. وبنو فلان تفور علينا
 قدرهم أي يشتدّ غضبهم علينا.

قال الشاعر :

تفــــــــــــــــور علينا قــــــــــــــــدرهم فنــــــــــــــــديمها ونفــــــــــــــــثؤهم عــــــــــــــــنا إذا حميــــــــــــــــها غــــــــــــــــلا ^(٤)

وهكذا فار تنّورهم أي احتدّ سخطهم وثارث نائرتهم. فمعنى «فار التنّور» : حمى

(١) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ١٦٥ .

(٢) هود ١١ : ٤٨ .

(٣) هود ١١ : ٤٠ .

(٤) أساس البلاغة للزمخشري ، ج ٢ ، ص ٢١٧ . وثأ القدر . بالثاء المثناة . : إذا صبّ عليه ماء باردا ليفتر غليانه.

غضب الربّ وإمّا أن نأخذ التعبير على حقيقته ليكون التّنور مفجر الماء.

غير أنّ التّنور . في أصله . اسم لما يجز فيه ، والكلمة فارسيّة واستعملتها العرب بلا تحوير.

قال ابن دريد : التّنور فارسيّ معرّب. لا تعرف العرب له اسما غير هذا ، فلذلك جاء في التنزيل لأَنَّهُمْ خوطبوا بما يعرفون.

وقال ابن قتيبة : روي عن ابن عباس أنّه قال : التّنور بكلّ لسان ، عربيّ وعجمي. ^(١)

واستعير لمفجر الماء. والتنانير : ينابيع الماء ، حيث تفور كما يفور التّنور بالنار.

قال الفيروزآبادي : التّنور : كلّ مفجر ماء ، ومحفل ماء الوادي أي مجتمعه. وتنانير الوادي محافله (مواضع تجتمع فيها المياه) وهي الوهاد

والمستنقعات في البراري.

ومعنى الآية على ذلك : وفارت تنانير الأرض أي فاضت ينابيعها واثارت.

وهكذا جاء التعبير في سورة القمر : ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ

الْوَاحِ وَدُسرٍ﴾. ^(٢)

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ^(٣)

وهل يعيش إنسان في مثل هذا العمر الطويل؟ الأمر الذي لم يكد يكون معروفا وحتى في القرون الماضية ، هؤلاء الفراعنة في مصر نجد أجسامهم

كأجسام أهل هذه الأيام وأعمارهم لم تختلف عن أعمارنا وقد مرّ لهم أربعون قرنا أو أكثر ، فكيف يكون ذلك؟

يقول الاستاذ عبد الوهاب النجار : لا مانع من أن يعمر آدم ومن قرب منه أعمارا طويلة ، لأنّ النوع الإنساني كان في بدء نشأته لم يحمل هموما ولم

تعتوره الأمراض المختلفة ولم تنهك قوّته الأطعمة التي لا يقدر على هضمها ، فكان من المعقول أن يعيش طويلا. وأمّا نحن وأمثالنا ممّن كانوا قبل أربعين قرنا

فقد جئنا بعد أن أنهكت النوع

(١) المعرّب لأبي منصور الجواليقي ، ص ٢١٣. وراجع : جمهرة اللغة لابن دريد ، ج ٣ ، ص ٥٠٢ ، وج ٢ ، ص ١٤ ؛ وأدب الكاتب لابن قتيبة ، ص ٣٨٤.

(٢) القمر ٥٤ : ١١-١٣.

(٣) العنكبوت ٢٩ : ١٤.

الإنساني الأمراض وطحنته الأدوية. فالواحد منّا عصارة لآلاف الأمراض التي انتابت آباءه وأمهاته ، فلم تعد قوانا تتحمّل العمر الطويل. وعند العلماء بالطبّ والأحوال الاجتماعية أنّ الإنسان قواه محدودة والحياة العريضة تستنفدها بسرعة بخلاف الحياة الضيّقة ، فإنّها تكون طويلة لقلّة ما يستنفد من قوى الأجسام بتلك الحياة. فنحن الآن لا نعيش عيشة البساطة التي كان يعيشها آدم ومن قرب منه ، بل نتفنّن في أنواع الطعام ولذائذ المعيشة بما ينهك قوانا ، فلا غرابة أن تكون أعمارنا قصيرة ، وقد اجتمعت عليها الأمراض المتوارثة والتبسيط في العيش. ويقول بعض الأطباء الألمان : إنّ إنسان هذا الزمان يمكن أن يعيش ثلاثمائة سنة إذا اتّبع نظاما خاصّا. ^(١)

وهكذا ذكر الشيخ محمّد عبده في إمكان إطالة الأعمار في عهد كانت الحياة غير موسّعة الأطراف والمعيشة على بساطتها الاولى غير معقّدة الجوانب ولا كانت مزدحم الأمراض والأدواء والشدائد والآلام حيث كانت طبيعة العمران ومعيشة الإنسان الفطرية أسلم للأبدان. ^(٢)

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ ^(٣)

دلّت الآية على أنّه لم يبق بعد الطوفان سوى نوح وبنيه وذريته. وحتىّ الذين ركبوا معه في الفلك ممّن آمن به ونجوا من الغرق هلكوا وانقرضوا بلا عقب. هكذا جاءت في الروايات الإسلاميّة عن ابن عباس وقتادة. قال الكلبي : لما خرج نوح من السفينة مات من كان معه من الرجال والنساء إلّا ولده ونساءهم. ^(٤) ومن ثمّ كان نوح عليّ السلام هو الأب الثاني لكافة البشر بعد آدم عليّ السلام .

لكنّه يتنافى وقوله تعالى خطابا لبني إسرائيل : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾. ^(٥)

(١) قصص الأنبياء للنجّار ، ص ٤٨ .

(٢) تفسير المنار ، ج ١٢ ، ص ١٠٤ .

(٣) الصافات ٣٧ : ٧٧ .

(٤) مجمع البيان ، ج ٧ ، ص ٤٤٧ .

(٥) الإسراء ١٧ : ٣ .

والموصول عامّ يشمل من ركب مع نوح من المؤمنين ، ولا يخصّ ولد صلبه . كما قيل . إذ لا شاهد عليه في ظاهر تعبير القرآن العامّ .
والقول بتشعب البشر من ولد نوح الثلاثة (سام ، حام ، يافث) رواية إسرائيلية بحثة ذكرتها التوراة : «ومن هؤلاء تشعب كلّ الأرض».^(١)
غير أنّها ذكرت أيضا أنّ الذين ركبوا مع نوح هم بنوه وأزواجهم فحسب^(٢) ليكون غيرهم لم يؤمنوا به إطلاقا ممّا يبدو غريبا جدّا أو كانوا آمنوا ولكنّهم بقوا ليكونوا مع المغرقين ، وهذا أبعد وأغرب!
فالصحيح ما ذكره القرآن : ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.^(٣) فقد ركب معه من المؤمنين جماعة وإن كانوا في قلة بالنسبة إلى قومه الأكثرين . وقد ذكر المفسّرون أنّهم كانوا ثمانين نفسا.^(٤)
فلا بدّ أنّ هؤلاء الذين ركبوا معه ونجوا كانوا معه وهبطوا جميعا بسلام ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.^(٥)
والتعبير بالأمم ممّن معه يعطي تناسل الأمم منهم ، منهم المؤمنون كآبائهم ومنهم الفاسقون ، وهذا أيضا مطلق شامل لكلّ من ركب معه وهبط إلى الأرض بسلام.

فالخطاب . مع بني إسرائيل . بأنّهم ذريّة من حملنا مع نوح (يعني الذين آمنوا به) يشمل الجميع .
ثمّ لو كان المراد ذريّة ولد نوح الذين ركبوا معه لكان التعبير بذريّة نوح أولى ، من غير ضرورة تدعو إلى هذا الالتواء في التعبير الموهم!!
والوجه فيما ذكره الكلبي وغيره أنّه تأثّر بروايات إسرائيلية وينبو عنه ظاهر تعبير القرآن .
بقي قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾^(٦) يظهر منه أنّ البشرية أصبحت جميعا

(١) سفر التكوين ، إصحاح ٩ / ١٨ .

(٢) المصدر : ٧ / ٨ .

(٣) هود ١١ : ٤٠ .

(٤) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ١٦٤ .

(٥) هود ١١ : ٤٨ .

(٦) الصافات ٣٧ : ٧٧ .

من ذرية نوح ولم يعقب الآخرون.

لكن في رواية أبي الجارود عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال : الباقون بالحق والنبوة والكتاب والإيمان في عقبه. قال : وليس كل من في الأرض من بني آدم ، من ولد نوح. واستشهد عليه السلام بالآية من سورة هود : ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾. ^(١) وهو تأويل وجيه يدعمه قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾. ^(٢) وهذا هو معنى البقاء ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾. ^(٣) يعني إبراهيم عليه السلام وقال تعالى : ﴿فَلَوْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ...﴾. ^(٤) فالبقية الباقية في مصطلح القرآن هم الذين ورثوا الكتاب والنبوة والإيمان ، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر. هذا هو البقاء وفي غيره الفناء ، الأمر الذي تحقق في ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام .

قال الحسن البصري : هلك المتمتعون في الدنيا ، لأنّ الجاهل يغلب عليهم والغفلة ، فلا يتفكرون إلّا في الدنيا وعمارتها وملاذّها ... ^(٥)
قال الإمام أمير المؤمنين عليه صلوات المصلّين : هلك خزّان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر. ^(٦)

نوح عليه السلام بعد الهبوط

قال تعالى : ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّنْ مَّكَكَ وَأُمَمٍ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ^(٧)
دلّت الآية على أنّ نوحا هبط بسلام وبركات. فقد أسّس أمة وبني حضارة من

(١) تفسير القمي ، ج ٢ ، ص ٢٢٣.

(٢) الحديد ٥٧ : ٢٦.

(٣) الزخرف ٤٣ : ٢٨.

(٤) هود ١١ : ١١٦.

(٥) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ١٦٨.

(٦) نهج البلاغة ، قصار الكلم ، رقم ١٤٧ ، في كلامه عليه السلام مع كميل بن زياد النخعي عليه الرحمة ، ص ٤٩٦.

(٧) هود ١١ : ٤٨.

جديد وعمر الأرض وأحيى البلاد وسعى في إعلاء كلمة الله في الأرض على بنيان مرصوص.

فقد أخذ من تجارب ماضية دليلاً هادياً له إلى تأسيس معالم جديدة تنير درب الإنسان إلى حيث سعادته الخالدة ، وكان التوفيق حليفه في هذا الشطر من حياته الكريمة ، وصار قدوة لمن جاء بعده من الأنبياء. وحتى أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام أصبح من شيعته ، ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. ^(١)
 قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخَرِينَ. وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ. إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ...﴾. ^(٢)
 وكم عاش نوح بعد الطوفان؟ القرآن ساكت عنه ، وفي الروايات اختلاف ، خمسين إلى خمسمائة عام ^(٣) أو أكثر ممّا لا اعتداد به.

والد إبراهيم عليه السلام تارح أو آزر؟

ذكرت التوراة : أنّ والد إبراهيم عليه السلام هو «تارح» براء مفتوحة وحاء مهملة. ^(٤) وجاء في القرآن : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ...﴾. ^(٥)
 قال الزجاج : لا خلاف بين النسّابين أنّ اسم والد إبراهيم عليه السلام تارح. ومن الملحدة من جعل هذا طعنا في القرآن. وقال : هذا النسب. الذي جاء في القرآن . خطأ وليس بصواب.
 وحاول الإمام الرازي الإجابة عن ذلك بأنّه من المحتمل أنّ والد إبراهيم كان مسمّى باسمين ، فلعلّ اسمه الأصلي آزر ، وجعل تارح لقباً له ، فاشتهر هذا اللقب وخفي الاسم ، والقرآن ذكره بالاسم. ^(٦)
 ويتأيد هذا الاحتمال بأنّ «تارح» بالعبرية يعطي معنى الكسول المتقاعس في

(١) الصّافّات ٣٧ : ٨٤.

(٢) الصّافّات ٣٧ : ٨٤ - ٧٥.

(٣) راجع : كمال الدين للصدوق ، ص ١٣٤ ، رقم ٣ ؛ وبحار الأنوار ، ج ١١ ، ص ٢٨٩.

(٤) سفر التكوين ، إصحاح ١١ / ٢٧.

(٥) الأنعام ٦ : ٧٤.

(٦) راجع : التفسير الكبير ، ج ١٣ ، ص ٣٧ ؛ وتفسير البيضاوي ، ج ٢ ، ص ١٩٤.

العمل. ^(١) أمّا «آزر» فهو النشيط في العمل ، لأنّه من «الأزر» بمعنى القوّة والنصر والعون. ومنه «الوزير» أي المعين. قال تعالى حكاية عن موسى بشأن هارون : ﴿أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾. ^(٢) وهذا المعنى قريب في اللغات الساميّة ، ومن ذلك عازر وعزير في العبرية ، وجاءت المادّة بنفس المعنى في العربية. قال الله تعالى : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾. ^(٣) ومعلوم أنّ العين والهمزة يتعاوران في اللغتين العبرية والعربية. ^(٤) فلعلّ اسمه الأصلي كان «آزر» بمعنى النشيط ، لكنّهم رأوا منه كسلا وفشلا في العمل والهمّة فلقّبوه بتارخ. وكما اشتهر نبيّ الله يعقوب بلقب «إسرائيل».

* * *

أمّا مفسّرو الشيعة الإمامية فيرون أنّ «آزر» هذا لم يكن والد نبيّ الله إبراهيم عليه السلام وإن كان إبراهيم يدعوه أبا ، لأنّ «الأب» أعمّ من الوالد ، فيطلق على الجدّ للامّ ، وعلى المربيّ والمعلّم والمرشد ، وعلى العمّ أيضا حيث جاء إطلاق الأب عليه في القرآن. فقد حكى الله على أولاد يعقوب قولهم : ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ ^(٥) وإسماعيل كان عمّا ليعقوب. قال الشيخ أبو جعفر الطوسي : والذي قاله الزجاج يقوي ما قاله أصحابنا : أنّ آزر كان جدّ إبراهيم لأّمّه ، أو كان عمّه ، لأنّ أباه كان مؤمنا ، لأنّه قد ثبت عندهم أنّ آباء النبي ﷺ إلى آدم كلّهم كانوا موحدّين لم يكن فيهم كافر ، ولا خلاف بين أصحابنا في هذه المسألة. قال : وأيضا روي عن النبي ﷺ أنّه قال : نقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات ، لم يدنّسني بدنس الجاهلية. وهذا خبر لا خلاف في صحّته. ^(٦) فبيّن النبي ﷺ أنّ

(١) جاء في قاموس الكتاب المقدّس (بالفارسية) ص ٢٤١ : «تارخ : تنبل» أي الكسلان.

(٢) طه ٢٠ : ٣١.

(٣) الأعراف ٧ : ١٥٧.

(٤) راجع : قصص الأنبياء للنجاشي ، ص ٧٠.

(٥) البقرة ٢ : ١٣٣.

(٦) ورد في تأويل قوله تعالى : ﴿وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ ، الشعراء ٢٦ : ٢١٩ ، بطرق الفريقين أحاديث متظافرة أنّه ﷺ قال : «لم أزل انقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات». راجع : التفسير الكبير ، ج ١٣ ، ص ٣٩ ؛ والدرّ المنثور ، ج ٦ ، ص ٣٣٢ ؛ مجمع البيان ، ج ٧ ، ص ٢٠٧.

الله نقله من أصلاب الطاهرين ، فلو كان فيهم كافر لما جاز وصفهم بأنهم طاهرون ، لأنّ الله وصف المشركين بأنهم أنجاس : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾^(١).
قال : ولهم في ذلك أدلّة لا نطول بذكرها الكتاب لئلا يخرج عن الغرض.^(٢)

* * *

وللإمام الرازي هنا بحث طويل وحجج أقامها دعما لما يقوله مفسّرو الشيعة. وأخيرا يقول : فثبت بهذه الوجوه أنّ «آزر» ما كان والد إبراهيم عليه السلام بل كان عمّا له ، والعمّ قد يسمّى بالأب ، كما سمّى أولاد يعقوب إسماعيل أبا ليعقوب. وقال النبي ﷺ بشأن عمّة العباس حين اسر : ردّوا عليّ أبي.
قال : وأيضا يحتمل أنّ «آزر» كان والد أمّ إبراهيم. وهذا قد يقال له الأب. والدليل عليه قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾. إلى قوله .
﴿وَعِيسَى﴾^(٣) فجعل عيسى من ذرية إبراهيم ، مع أنّه عليه السلام كان جدّا لعيسى من قبل الامّ.^(٤)

* * *

ولسيّدنا الطباطبائي تحقيق بهذا الشأن ، استظهر من القرآن ذاته أنّ «آزر» الذي خاطبه إبراهيم بالأبوة وجاء ذلك في كثير من الآيات لم يكن والده قطعيا.

وذلك أنّ إبراهيم في بداية أمره حين كان بين أظهر قومه من أرض كلدان ، وكان تحت كفالة آزر ، وقد حاجّ قومه وحاجّ أباه كثيرا وفي فترات ومناسبات مؤاتية ، وكان أبوه آزر يطارده ويؤتبه على جرأته على آلهة قومه : ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا. قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا. قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي

(١) التوبة ٩ : ٢٨.

(٢) تفسير التبيان للطوسي ، ج ٤ ، ص ١٧٥. وراجع : أيضا مجمع البيان ، ج ٤ ، ص ٣٢٢.

(٣) الأنعام ٦ : ٨٤ و ٨٥.

(٤) التفسير الكبير ، ج ١٣ ، ص ٤٠.

حَقِيًّا^(١).

فإبراهيم هنا قد وعد أباه أن يستغفر له ، وبالفعل وفى بوعده : ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وَاعْفُرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ^(٢)﴾.

لكن سرعان ما رجع عما كان قد رجا في أبيه خيرا ، ومن ثم تبرأ منه حين لم يرج فيه الصلاح ويثس منه. قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ^(٣)﴾.

هذا في بداية أمره قبل مغادرة بلاده وقومه قاصدا البلاد المقدسة. والدليل على ذلك أنه يبدأ الدعاء بقوله : ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ...﴾ الخ.

* * *

وبعد ذلك يأتي دور مغادرته إلى الأرض المقدسة ، ويتجهل إلى الله أن يرزقه أولادا صالحين. ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ. وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهِدِينَ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ^(٤)﴾.

وهنا يجب الله دعاءه : ﴿وَنَجِّنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ^(٥)﴾. ثم إنه لما كبر ابنه إسماعيل وبنى البيت الحرام نراه يدعو لوالديه ويستغفر لهما : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ^(٦)﴾ إلى قوله : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ^(٦)﴾.

قال العلامة الطباطبائي : والآية بما لها من السياق والقرائن المحتفة بها خير شاهدة على أنّ والده الذي دعا له واستغفر له هنا غير أبيه آزر الذي تبرأ منه في سالف الأيام. فقد تحصل أنّ آزر الذي جاء ذكره في تلك الآيات لم يكن والد إبراهيم ولا أباه الحقيقي ،

(١) مريم ١٩ : ٤١ . ٤٧ .

(٢) الشعراء ٢٦ : ٨٦ . ٨٩ .

(٣) التوبة ٩ : ١١٤ .

(٤) الصافات ٣٧ : ٩٨ . ١٠٠ .

(٥) الأنبياء ٢١ : ٧١ و ٧٢ .

(٦) إبراهيم ١٤ : ٣٥ . ٤١ .

وإنّما صحّ إطلاق الأب عليه لوجود عناوين تسوغ اللغة مثل هذا الإطلاق ، كالجّد للأُمّ والعمّ ، وزوج الأُمّ ، وكلّ من يتولّى شأن صغير ، وكذا كلّ كبير مطاع ، ونحو ذلك. وليس مثل هذا التوسّع في إطلاق لفظ الأب مختصّا بلغة العرب ، بل هو جار في سائر اللغات أيضا. ^(١)

الذبيح هو إسماعيل وليس بإسحاق!

جاء في سفر التكوين ، الإصحاح ٢٢ :

١ . وحدث بعد هذه الأمور أنّ الله امتحن إبراهيم ، فقال له : يا إبراهيم ، خذ ابنك وحيدك الذي تحبّه إسحاق واذهب إلى أرض المريّا وأصعده هناك.

٩ . فلمّا أتيا إلى الموضع ورّب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب.

١٠ . ثمّ مدّ إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه.

١١ . فناداه ملاك الربّ من السماء.

١٢ . فقال : لا تمدّ يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئا ، لأنيّ الآن علمت أنّك خائف الله ، فلم تمسك ابنك وحيدك عنيّ.

١٣ . فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا في الغابة بقرنيه ، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه.

١٥ . ونادى ملاك الربّ إبراهيم ثانية من السماء ، وقال : بذاتي أقسمت يقول الربّ : إنّي من أجل أنّك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك

، أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثر كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر. ويرث نسلك باب أعدائه ، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنّك سمعت لقولي.

* * *

بطل هذه القصّة عند اليهود هو إسحاق ، ولعلّ لفظ إسحاق حشر حشرا في غضون القصّة ، وذلك حرصا من بني إسرائيل على أن يكون أبوهم

هو الذبيح الذي جاء بنفسه في

(١) راجع : تفسير الميزان ، ج ٧ ، ص ١٦٨ . ١٧١ .

طاعة ربّه ، وبورك للعالمين في نسله.

غير أنّ التعبير ب «ابنك وحيدك» . دليلا على سخاء نفس إبراهيم بولده الوحيد يذبحه امثالاً لأمر ربّه . ممّا يتنافى وكون الذبيح هو إسحاق ، الذي كان أصغر من أخيه إسماعيل بأربعة عشرة عاما.

فالابن الوحيد الذي جادت نفس إبراهيم بذبحه ليس سوى إسماعيل.

وقرينة اخرى : إنّ الذي بورك العالمون بنسله وأفاض نسله بالبركات على العالمين هو إسماعيل ، دون إسحاق الذي كان ولا يزال نسله (بنو إسرائيل) نكبة في العالمين ، ومفجر الفساد بين العباد ، والعيث في البلاد.

وفي القرآن إشارة إلى ذلك ، حيث يقول تعالى : ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحاقَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَهُمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾. ^(١)

فالتبشير الأول بسلام حليم ينبئ عن أنّ إبراهيم لم يكن صاحب ولد حينذاك ، حيث بشره بسلام.

والتبشير الثاني جاء تصريحاً باسم إسحاق نبياً من الصالحين. فيدلّ على أنّ التبشير الأول كان بغير إسحاق ، وهو إسماعيل.

وفي الإصحاح ٢١ من سفر التكوين :

إن الربّ بشر إبراهيم بنسل في ولده إسحاق. وينسل في ولده إسماعيل ، ولكن يجعل من نسل إسماعيل أمة.

جاء في العدد ١٢ : لأنّه بإسحاق يدعى لك نسل.

(١) الصافات ٣٧ : ١٠١-١١٣.

وفي العدد ١٣ : وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأته نسلك.

ومن ذلك يعرف أنّ البركة العامّة الشاملة التي جعلت في نسل الذبيح خاصّة بولد إسماعيل فقد أصبحوا أمة هيمنت ببركتها ما بين الخافقين.

قصة لوط مع ابنتيه كما هي في التوراة

جاء في الإصحاح ١٩ من سفر التكوين :

٣٠ . وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه ، لأته خاف أن يسكن في صوغر ، فسكن في المغارة هو وابنتاه.

٣١ . وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كلّ الأرض.

٣٢ . هلمّ نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه ، فنحبي من أبنينا نسلا.

٣٣ . فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها.

٣٤ . وحدث في الغد أنّ البكر قالت للصغيرة : إنّني قد اضطجعت البارحة مع أبي ، نسقيه خمرًا الليلة أيضا فادخلي اضطجعي معه ، فنحبي من

أبنينا نسلا.

٣٥ . فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضا ، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها.

٣٦ . فجعلت ابنتا لوط من أبيهما.

٣٧ . فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب ، وهو أبو المؤابيين إلى اليوم.

٣٨ . والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمّي . وهو أبو بني عمّون إلى اليوم.

* * *

هذا ، ولكنّ القرآن يأبى أن تتلوّث ساحة قدس نبيّ من أنبيائه بمثل هكذا تلوّث فضيع. فقد نزلت بشأنه ورفعة مقامه آيات تتلى ولتكون شهادة

من الله بنزاهة ساحة قدس

أوليائه الكرام :

قال تعالى : ﴿وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ

الصَّالِحِينَ﴾. (١)

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾. (٢)

يعقوب ينتهب النبوة من أخيه عيسو!

لم تتوان اليهود في الخطّ من كرامة الأنبياء حتّى ولقد مدّوا يد التدنيس إلى حياة أبيهم يعقوب ليجعلوه متزوّرا لبس الأمر على أبيه إسحاق لينتهب النبوة من أخيه «عيسو» حيث كان مرشّحا لها من قبل أبيه. فأغفل يعقوب أباه إسحاق واستغلّ عماه ليتصوّر أنّه عيسو فيبارك له بالنبوة! في مثل هذا التلاعب الصبباني تذكر التوراة حادث انتقال النبوة من إسحاق إلى يعقوب. يا لها من مهزلة حمقانيّة وإساءة أدب إلى ساحة أنبياء الله العظام! (٣)

(١) الأنبياء ٢١ : ٧٤ و ٧٥.

(٢) الصافات ٣٧ : ١٣٣ - ١٣٥.

(٣) جاء في الإصحاح ٢٧ من سفر التكوين : وحدث لما شاخ إسحاق وكلّت عيناه أنّه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال : اخرج إلى البريّة وتصيّد لي صيدا ، واصنع لي أطعمة حتّى تباركك نفسي قبل أن أموت. وكانت رفقة (زوجة إسحاق وأمّ يعقوب) سامعة إذ تكلم إسحاق مع عيسو ابنه ، فكلّمت يعقوب ابنها بما قال أبوه ، قالت : فالآن يا ابني اذهب إلى الغنم وخذ جديين جيّدين من المعزى ، فاصنعهما أطعمه لأبيك كما يحبّ ، فتحضرها إليه ليأكل ويباركك قبل وفاته. فذهب يعقوب وأخذ وأحضر لأُمّه ، فصنعت أطعمة كما كان يحبّ أبوه. وأخذت رفقة لباس عيسو الفاخرة وألبستها ابنها يعقوب. وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديي المعزى . لأنّ عيسو كان أشعر ويعقوب كان أملس . صنعت ذلك تلبّيسا على إسحاق. وأعطت الأطعمة في يد يعقوب. فدخل إلى أبيه وقال : يا أبي فقال : ها أنا ذا ، من أنت يا ابني؟ فقال يعقوب : أنا عيسو بكرك ، قد فعلت كما كلمتني ، قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك. فقال إسحاق : ما هذا الذي أسرع؟ فقال : إنّ الربّ إلهك قد يسّر لي. فقال إسحاق : تقدّم لأجسّك يا ابني ، أأنت هو ابن عيسو أم لا. فتقدّم يعقوب ، فحسّه وقال : الصوت صوت يعقوب ، ولكن اليدين يدا عيسو. ولم يعرفه ، لأنّ يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه ، فباركه وقال : هل أنت هو ابن عيسو؟ فقال : أنا هو. فدعا له إسحاق وقال : ليستعبد لك شعوب ، وتسجد لك قبائل. كن سيّدا لإخوتك وليسجد لك بنو أمك. وعند ما فرغ إسحاق من بركة يعقوب وخرج من عنده جاء عيسو وأتى بالصيد ليبارك له أبوه فارتعد إسحاق ارتعادا عظيما جدّا ، واتّضح الأمر ، فصرخ عيسو صرخة عظيمة ومرة جدّا ، وقال لأبيه : باركني أيضا. فقال : قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك. ورفع عيسو صوته وبكى ، وقال : قد أخذ يعقوب بكورني وبركتي. وعزم على قتل أخيه ، لو لا فراره من وجهه واختفاؤه عند أخواله بإشارة من أمّه رفقة. وهكذا أصبح يعقوب نبيا وأصبح إخوته عبيدا له.

يعقوب يصارع الربّ

وكارثة اخرى ألصقوها بنبيّ الله يعقوب ، وهي أنّه صارع الربّ ليلته كلّها ، ولم يتركه حتّى ضربه الربّ على حقّ فخذه أي رأس وركه ، فباركه حتى تركه يعقوب. ^(١)

أما القرآن فإنّه يصف إسحاق ويعقوب بأجمل وصف وأتّهما من عباد الله الصالحين : ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ﴾. ^(٢)

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمَن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾. ^(٣)

والآيات بترفع شأن إبراهيم وبنيه إسحاق ويعقوب وإسماعيل كثيرة في القرآن ، على العكس ممّا جاء في التوراة اليهوديّة ، من الحطّ بكرامة الأنبياء عليهم السلام .

خروج بني إسرائيل وتجاوزهم البحر

جاء في سفر الخروج أنّ فرعون اضطرّ إلى إطلاق سراح بني إسرائيل لما أصاب القبطيّين من الجذب والبلاء ، لكنّه فور ما أطلق سراحهم ندم على ذلك فأخذ هو وجنوده

(١) جاء في الإصحاح ٣٢ من سفر التكوين رقم ٢٢ . ٢٩ : ثمّ قام في تلك الليلة وأخذ امرأتيه وجاريّتيه وأولاده الأحد عشر ، وعبر مخاضة ييوق. أخذهم وأجازهم الوادي وأجاز ما كان له. فبقى يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتّى طلوع الفجر. ولما رأى أنّه لا يقدر عليه ضرب حقّ فخذه ، فانخلع حقّ فخذه يعقوب في مصارعته معه ، وقال : أطلقني لأنّه قد طلع الفجر. فقال لا اطلقك إن لم تباركني. فقال له ما اسمك؟ فقال : يعقوب. فقال : لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب ، بل إسرائيل. لأنّك جاهدت مع الله والناس وقدرت. وسأل يعقوب وقال : أخبرني باسمك. فقال : لما ذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان فنيثيل ، قائلا : لأنّي نظرت الله وجهها لوجه.

(٢) ص ٣٨ : ٤٥ . ٤٧ .

(٣) الأنعام ٦ : ٨٣ . ٨٨ .

يعقبونهم ليردّوهم إلى الذلّ والعبوديّة الاولى ، غير أنّ بني إسرائيل ضلّوا الطريق إلى فلسطين . وكانت قرية . فأخذوا في الطريق البعيد . وتقول التوراة : إنّ الله هو الذي أضلّهم كي لا يندموا إذا رأوا حربا فيرجعوا إلى مصر . فأدركهم فرعون وهم على ضفّة البحر الأحمر . فلمّا رأى بنو إسرائيل فرعون وجنوده ذعروا وفزعوا إلى موسى ، فأوحى الله إليهم ناجون وأنّ فرعون وجنوده سوف يغرقون ، وحال بينهم وبين فرعون ، فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه البحر ويشقّه ، ففعل فأجرى الله بريح شرقية شديدة كلّ الليل وجعل البحر طريقا يابسة وانشقّ الماء ، فمشى بنو إسرائيل على اليابسة في وسط البحر والماء كالسور عن يمينهم وعن يسارهم وعبروا إلى الضفّة الاخرى . وآهم فرعون يسيرون على اليابسة فسار في أثرهم ، فلمّا توسّط اليمّ وعبر بنو إسرائيل جميعا انطبق الماء على فرعون وجنوده فاغرقوا جميعا ولم يبق منهم ولا واحد. ^(١)

ونصّت التوراة أنّ البحر الذي جاوزه بنو إسرائيل هو بحر سوف ، ^(٢) والموضع الذي انشقّ منه كان عند فم الحيروث أتام بعل صفون. ^(٣) وجاء في قاموس الكتاب المقدّس أنّه «القلزم». ^(٤)

و «فم الحيروث» مضيق قرب نهاية خليج السويس على ما جاء في خارطة الأراضي المقدّسة . ملحق كتب العهدين . وهكذا جاء في المأثور من دعاء «المسماة» المعروف بدعاء «شبّور» : «ويوم فرقت لبني إسرائيل البحر وفي المنبجسات التي صنعت بها العجائب في بحر سوف ...».

وقال العلامة المجلسي . في شرح الدعاء . : سمّاه الهروي في الغريين «إساف» قال : وهو الذي غرق فيه فرعون . قال المجلسي : وهذا البحر هو بحر القلزم. ^(٥)

ولعلّ ما جاء في عبارة الدعاء «وفي جبل حوريث» ^(٦) أيضا إشارة إلى «فم

(١) سفر الخروج ، إصحاح ١٠ - ١٤ .

(٢) المصدر : ١٣ / ١٨ ، و ١٥ / ٥ .

(٣) المصدر : ١٤ / ٩ .

(٤) قاموس الكتاب المقدّس لجيمس هاكس ، ص ٤٩٦ .

(٥) بحار الأنوار ، ج ٨٧ ، ص ١١٢ .

(٦) بحار الأنوار ، ج ٨٧ ، ص ١١٢ .

الحيروث».

والّذي جاء في القرآن بهذا الشأن ليس فيه ما يخالف التوراة جوهريّا. وجاء تفصيل القصّة في القرآن في سورة الشعراء^(١) وأوجزها في سائر السور.^(٢) وجاء التعبير في هذه الآيات بالبحر وباليّم وهو : لجة الماء ومعظمه. لكن هناك في التفاسير امور يبدو عليها بعض الإيهام ، فقد ذكر المفسّرون أنّ الطرق التي انفلقت لبني إسرائيل للعبور كانت على عدد أسباطهم اثني عشر طريقا ،^(٣) الأمر الذي ليست عبارة القرآن نصّا فيه بل ولا إشارة إليه. وأمّا قوله تعالى : ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾^(٤) فالمعنى : أنّ البحر انشقّ وتجمّع الماء في كلّ جانب يمينا ويسارا كالجبل. والفرق . بكسر الفاء . اسم لما انفرق. قال الراغب : الفرق القطعة المنفصلة ، فكلّ جانب من البحر انفصل عن الجانب الآخر وصار كلّ جانب كجبل عظيم. ولعلّ في قوله تعالى : ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾^(٥) ما يتنافى وقولهم بتعدّد الطرق على عدد الأسباط. وهكذا نجد أنّ بعض المفسّرين احتمل أن يكون المقصود هو نهر النيل ، بحجّة أنّ العرب تسمّي الماء العذب أيضا بحرا إذا كثر. قال الألوسي : واختلفوا في هذا البحر ، فقليل : القلزم ، وكان بين طرفيه أربعة فراسخ (!) وقيل : النيل ، والعرب تسمّي الماء المالح والعذب بحرا إذا كثر ، ومنه ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾^(٦) وقال الطبرسي : وهو نهر النيل ما بين أيلة

(١) الشعراء ٢٦ : ٦٨ . ٥٢ .

(٢) راجع : سورة البقرة ٢ : ٥٠ ، والأعراف ٧ : ١٣٦ - ١٣٨ ، ويونس ١٠ : ٩٠ ، والإسراء ١٧ : ١٠٣ و ١٠٤ ، وطه ٢٠ : ٧٧ ، والقصص ٢٨ : ٣٩ و ٤٠ ، والزخرف ٤٣ : ٥٥ و ٥٦ ، والدخان ٤٤ : ٣١ - ١٧ ، والذاريات ٥١ : ٣٨ - ٤٠ .

(٣) راجع : جامع البيان للطبري ، ج ١ ، ص ٢١٩ تجد فيه العجائب والغرائب بهذا الشأن. وراجع أيضا : مجمع البيان ، ج ٧ ، ص ١٩١ .

(٤) الشعراء ٢٦ : ٦٣ .

(٥) طه ٢٠ : ٧٧ .

(٦) الرحمن ٥٥ : ١٩ .

ومصر. وقيل هو بحر القلزم ما بين اليمن ومكة إلى مصر. ^(١)

ولقد فات هؤلاء أنّ بني إسرائيل أخذوا في طريقهم إلى أرض فلسطين عبر وادي سيناء ، ولم يعترض طريقهم إلى وادي سيناء سوى البحر الأحمر ، أمّا النيل فلا مساس له بذلك ولم يكن على جهة مسيرتهم نحو فلسطين ، إذ كان النيل على جهة الغرب وفلسطين على جهة الشرق حيث توجه بنو إسرائيل ، وليس في طريقهم ما يحول بينهم وبين فلسطين سوى مضيق السويس في نهاية البحر الأحمر.

قصة العجل والسامري

تنسب التوراة صنع العجل إلى هارون بدل السامري الذي يذكره القرآن.

جاء في سفر الخروج : أنّ موسى عليه السلام لما أبطأ على بني إسرائيل طلبوا من هارون أن يصنع لهم آلهة ، فأجابهم هارون إلى ذلك ، وأخذ أقراط الذهب ، وصنع منها عجلاً مسبوكة ، وقال : هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. فأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح ، وأكلوا وشربوا وقاموا باللعب حول العجل.

وأخبر الربّ موسى أنّ الشعب قد أفسد ، فقد صنعوا عجلاً وسجدوا له ... فحمي غضب الربّ وأراد أن يهلكهم لو لا أنّ موسى تشفّع لهم. وكان عند ما اقترب إلى المحلة أبصر العجل والرقص ، فحمي غضبه وطرح اللوحين من يديه وكسرهما ، ثمّ أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار ، وطحنه وذرّاه على الماء وسقاه بني إسرائيل.

وقال لهارون : ما ذا صنع بك هذا الشعب حتّى جلبت عليه خطيئة عظيمة؟! فاعتذر أنّهم افتقدوك فصنعت لهم العجل. ^(٢)

* * *

ونقرأ في سورة طه :

﴿وَمَا أَعْجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى قَالَ

(١) روح المعاني ، ج ١ ، ص ٢٣٣. وراجع : مجمع البيان ، ج ٧ ، ص ١٩١.

(٢) سفر الخروج ، إصحاح ٣٢ / ١ - ٢٤.

فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ. فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي. قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ. فَأَخْرَجَ هُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ. فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ. أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ هُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا. وَلَقَدْ قَالَ هَازُونُ مِنْ قَبْلُ. يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي. قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى. قَالَ يَا هَازُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي. قَالَ يَا بَنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي. قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ. قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي. قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿١﴾.

مواضع الاختلاف بين القرآن والتوراة بشأن العجل

- ١ . ذكرت التوراة : أَنَّ الَّذِي صَنَعَ الْعَجَلَ هُوَ هَارُونَ أَخُو مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . وجاء في سورة طه : أَنَّهُ السَّامِرِيُّ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ . ^(١) وَأَنَّ هَارُونَ أَرَادَ مِنْعَهُمْ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ : ﴿قَالَ ابْنُ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعِفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. ^(٢)
- ٢ . وذكرت : أَنَّ مُوسَى لَمَّا حَمَى غَضَبَهُ طَرَحَ اللُّوْحِينَ مِنْ يَدَيْهِ وَكَسَرَهُمَا . وجاء في القرآن : أَنَّهُ أَلْقَى الْأَلْوَحَ ^(٤) . لَكِنَّهَا لَمْ تَتَكَسَّرَ . وَمِنْ ثَمَّ ﴿لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾. ^(٥)
- ٣ . وذكرت : أَنَّ مُوسَى أَخَذَ الْعَجَلَ وَأَحْرَقَهُ وَطَحَنَهُ وَذَرَاهُ فِي مَاءٍ وَسَقَاهُ بَنِي

(١) طه ٢٠ : ٨٣ . ٩٧ .

(٢) طه ٢٠ : ٨٥ و ٨٧ و ٩٥ .

(٣) الأعراف ٧ : ١٥٠ .

(٤) الأعراف ٧ : ١٥٤ .

(٥) الأعراف ٧ : ١٥٤ .

إسرائيل.

وجاء في القرآن : أنه حرّقه ونسّفه في اليمّ نسفا. ^(١)

٤ . وجاء في القرآن : أَلَمْ يَتَّخِذُوا **﴿عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا﴾** ^(٢) لكنّه لا يكلمهم ولا يرجع إليهم قولا. ^(٣)

وقد سكنت التوراة عن ذلك.

٥ . وجاء في القرآن قولة السامري : **﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾**. ^(٤)

وسكنت التوراة عن ذلك.

* * *

وحسب الاستاذ عبد الوهاب النجار أنّ هناك وجها سادسا للفرق بين القرآن والتوراة بشأن قصّة العجل ، قال : والذي يظهر من عبارة سفر الخروج : أنّ ذهاب الشيوخ السبعين كان قبل عبادة العجل. وأمّا القرآن فإنّه يذكر أنّه ذهب لتلقّي الألواح قبل عبادتهم العجل ، وذهب مع الشيوخ السبعين بعد ذلك ، وهذا هو المعقول. ^(٥)

والذي أوقع الأستاذ في هذا الوهم أنّه وجد قوله تعالى : **﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمُ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَهْلَكْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾**. ^(٦) بعد قصّة العجل في نفس السورة. ^(٧)

لكن الثبت الموجود في المصحف الشريف لا يصلح دليلا على الترتيب في الحوادث التي يذكرها القرآن ، بل لا دليل فيه على أنّ النزول كان على نفس ترتيب الثبت ، حسبما نبّهنا عليه في الجزء الأول من التمهيد.

من ذلك قصّة ذبح البقرة ثبتت في المصحف قبل قصّة درء القتل في بني إسرائيل. ^(٨)

(١) طه ٢٠ : ٩٧.

(٢) الأعراف ٧ : ١٤٨ ، طه ٢٠ : ٨٨.

(٣) الأعراف ٧ : ١٤٨ ، طه ٢٠ : ٨٩.

(٤) طه ٢٠ : ٩٦.

(٥) قصص الأنبياء للنجار ، ص ٢٢٦ . وراجع : القصّة في التوراة في سفر الخروج ، إصحاح ٣٢ . ٢٤.

(٦) الأعراف ٧ : ١٥٥.

(٧) الأعراف ٧ : ١٤٨ . ١٥٤.

(٨) البقرة ٢ : ٦٧ . ٧٣.

على أنّ في القرآن ما يشهد بوقوع مأساة العجل بعد ذهاب الشيوخ السبعين للميقات :
 أولاً : أنّ ذهاب الشيوخ السبعين كان حسب الوعد للميقات ، وقد صرّحت الآيات بأنّ مأساة العجل وقعت بعد هذا الميقات الذي طال أربعين ليلة.

قال تعالى : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مَيَقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾. إلى قوله . ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجَلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ﴾. ^(١)

وقال بشأن السبعين رجلا : ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمَيَقَاتِنَا﴾. ^(٢)
 أما فعل السفهاء الذي يعتذر منه موسى فهو طلبهم الرؤية : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾. ^(٣)

ثانيا : التصريح بذلك في سورة النساء : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾. ^(٤)
 ومن المعلوم أنّ هؤلاء الشيوخ السبعين إنّما صحبوا موسى للميقات لإبلاغ رسالة القوم في طلب الرؤية ، ومن ثمّ جاء في سورة طه : ﴿وَمَا أَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى. قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾. ^(٥)

* * *

وهكذا جاء في سفر الخروج (١ ص ٢٤) :
 وقال لموسى اصعد إلى الربّ أنت وهارون وناداب وابيهو وسبعون من شيوخ بني إسرائيل ، واسجدوا من بعيد ، ويقترب موسى وحده إلى الربّ وهم لا يقتربون. وأما الشعب

(١) الأعراف ٧ : ١٤٢ . ١٤٨ .

(٢) الأعراف ٧ : ١٥٥ .

(٣) النساء ٤ : ١٥٣ .

(٤) النساء ٤ : ١٥٣ .

(٥) طه ٢٠ : ٨٣ . ٨٥ .

فلا يصعد معه ...

ثم يذكر بتفصيل ما جرى بين موسى والرب وآتاه معالم الشريعة ، وكان موسى يكتبها في الألواح ... وهكذا يستغرق البيان عدّة إصحاحات.
ثم يقول : ولما رأى الشعب أنّ موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة. ^(١)

نظرة في قولة السامري

﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾. ^(٢)

زعمت الحشوية من أهل الحديث أنّ السامري هذا كان قد ولد أيّام فرعون ، وكانت أمّه قد خافت عليه فخلّفته في غار وأطبقت عليه بالحجارة.
فوكّل الله جبرائيل أن يأتيه فيغذوه بأصابعه بواحدة لبنا وبأخرى عسلا وبثالثة سمنا ، فلم يزل يكفله جبرائيل حتّى نشأ وشبّ ، وأصبح يعرف جبرائيل بسماته.

ثمّ إنّ فرعون وأصحابه لما هجموا البحر ورأى بني إسرائيل أحجم فرسه عن الدخول وعند ذلك تمثّل جبرائيل راكبا فرسا انثنى في مقدمة فرعون وأصحابه ، فلمّا رآها فرس فرعون اقتحم البحر وراءها ...

وعند ذلك كان السامريّ قد عرف جبرائيل ، ورأى أنّ فرسه كلّما وضع حافره على تراب حصلت فيه رجفة وحركة وحياة. فألقى في روعه : أنّ من أثر حافر فرس جبرائيل أن لا يقذف في شيء إلّا حصلت له الحياة ، ولذلك قبض قبضة من أثر حافر فرسه وضمّها عنده.

ولما أبطأ موسى في الميقات دعا بني إسرائيل أن يأتوا بحليّهم ليصنع لهم آلهة ، فصاعها عجلا وألقى من تلك القبضة فيه ، فأصبح ذا حياة يخور كما يخور البقر ، وقال : هذا

(١) سفر الخروج ، إصحاح ٣٢ . ٢٤ .

(٢) طه ٢٠ : ٩٦ .

إلهمكم وإله موسى ، وأضلّهم عن الطريق.

هكذا روى الطبري بأسانيده والسيوطي وغيرهما من أرباب النقل في التفسير ^(١) وزادوا في الطين بلّة أحمّ قالوا : إنّ موسى سأل ربّه فقال : يا ربّ ، من أחר العجل؟ فقال الله : أنا ، قال موسى : فمن أحياء؟ قال الله : أنا وأردت فتنّهم ، فقال موسى : يا ربّ ، فأنت إذن أظللّتهم ، إن هي إلا فتنّك. ^(٢) وهذا عند ما قال الله تعالى لموسى : ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾. ^(٣)

* * *

قال أبو مسلم الأصفهاني : ليس في القرآن تصريح بهذا الذي ذكره المفسّرون ، فهاهنا وجه آخر ، وهو : أن يكون المراد بالرسول هو موسى عليه السلام ، وبأثره سنّته ورسمه الذي أمر به. فقد يقال : فلان يقفوا إثر فلان ويقبض أثره إذا كان يمثل رسمه. والتقدير : أنّ موسى عليه السلام لما أقبل على السامريّ باللوم والسؤال عن الذي دعاه إلى إضلال القوم قال السامريّ ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي عرفت أن الذي أنتم عليه ليس بحقّ ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيّها الرسول ، أي شيئاً من سنّتك ودينك ، فقدفته أي طرحته ... وإثماً أورد بلفظ الإخبار عن غائب ، كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير في كذا ، وبما ذا يأمر الأمير ... وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولا مع جحده وكفره فعلى مثل ما حكى الله عن المشركين : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ^(٤) وإن كانوا لم يؤمنوا بإنزال الذكر عليه.

والإمام الرازي رجّح هذا القول وأيده بوجه. قال : إنّ هذا القول الذي ذكره أبو مسلم ليس فيه إلّا مخالفة المفسّرين ، ولكنّه أقرب إلى التحقيق. ^(٥) وهكذا الشيخ المراغي ، قال : إنّ موسى لما أقبل على السامريّ باللوم والتعنيف والسؤال عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم ردّ عليه بأنّه كان استنّ بسنّته ، واقتفى أثره

(١) راجع : جامع البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٣ ؛ الدرّ المنثور ، ج ٥ ، ص ٥٩٢ ؛ تفسير الصافي للكاشاني ، ج ١ ، ص ٩٢ ؛ وتفسير القمي ، ج ٢ ، ص ٦٢ ؛ وتفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ١٦٤ ؛ وتفسير البيضاوي ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

(٢) راجع : الدرّ المنثور ، ج ٥ ، ص ٥٩٢ ؛ وتفسير الصافي ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

(٣) طه ٢٠ : ٨٥ .

(٤) الحجر ١٥ : ٦ .

(٥) التفسير الكبير ، ج ٢٢ ، ص ١١١ .

وتبع دينه ، ثم استبان له أنّ ذلك هو الضلال بعينه ، وأنّه ليس من الحقّ في شيء ، فطرحه وراءه ظهرًا وسار على النهج الذي رأى. ^(١)

ما كانت صفة العجل؟

جاء في تفسير ابن كثير وغيره : أنّ السامريّ القي في روعه أنّه لا ينبذ التراب الذي أخذ من تحت حافر فرس جبرائيل على شيء ويقول له كن كذا إلا كان كما أراد ، ومن ثمّ لما أخذ حليّ القوم وألقاها في النار قذف من تلك القبضة عليها وقال : كن عجلا ، فصار عجلا ذا لحم وعظم ودم ، وجعل يخور كما يخور ولد البقر. ^(٢)

وقال بعضهم : إنّ جعل مؤخّرة العجل على حائط فيه ثقب ، وأقعد هناك من يتكلّم مع القوم ليظنّوا أنّ العجل هو الذي يتكلّم معهم. ^(٣)
كلّ ذلك مخالف لصريح القرآن ، حيث إنّ عبّر بالجسد وصفا للعجل ﴿عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا﴾. ^(٤) وقال : ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾. ^(٥) وقال : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾. ^(٦)

على أنّ الروايات بهذا الشأن . في المسائل الثلاث . على ما وردت في التفاسير المعتمدة على النقل والأثر كلّها متضاربة ومتعارضة بعضها مع البعض ، فضلا عن مخالفة أكثرها لفهم العقل الرشيد ، ومن ثمّ فالإعراض عنها أجدر.

نعم ، يبدو أن السامريّ كان صاحب صنعة وصياغة الحلّي ، فسبك لهم من حلّيهم صنما بصورة عجل ، وقال لهم : هذا إلهكم وإله موسى. فعبّا فيه مسامات ومنافذ للهواء ، بحيث يحدث من ذلك صوت الخوار ، وهو صوت البقر. وهذا أمر بسيط ، ربما تصنع أمثال

(١) تفسير المراغي ، ج ٦ ، ص ١٤٥ .

(٢) راجع : تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ١٦٤ ؛ والدرّ المنثور ، ج ٥ ، ص ٥٩٣ ؛ وتفسير البيضاوي ، ج ٤ ، ص ٢٩ ؛ وتفسير القمي ، ج ٢ ، ص ٦٢ ؛ وجامع البيان ، ج ١٦ ، ص ١٤٩ ، وج ١ ، ص ٢٢٣ ؛ وتفسير الميزان ، ج ١٤ ، ص ٢١١ .

(٣) راجع : التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ، ص ٢٥١ ؛ وبحار الأنوار ، ج ١٣ ، ص ٢٣١ .

(٤) طه ٢٠ : ٨٨ .

(٥) طه ٢٠ : ٨٩ .

(٦) الأعراف ٧ : ١٤٨ .

ذلك للعبة الصبيان اليوم وقبل اليوم ، وليس من الأمر العجيب.

من هو السامريّ؟

ربّما تشكك بعض الكتّاب المسيحيّين ^(١) في «السامريّ» نسبة إلى السامرة بلدة كانت في أرض فلسطين بناها «عمري» رابع ملوك بني إسرائيل المتأخّر عن عهد نبيّ الله موسى ﷺ بخمسة قرون! فكيف يكون معاصرا له وقد صنع العجل كما جاء في القرآن؟

جاء في سفر الملوك : وفي السنة ٣١ لأسا ملك يهوذا ملك عمري على إسرائيل ١٢ سنة ، ملك في ترصة ٦ سنين ، واشترى جبل السامرة من شامر بوزنتين من الفضة وبنى على الجبل ودعا اسم المدينة التي بناها باسم شامر صاحب الجبل : السامرة.

وكان ذلك بعد خروج بني إسرائيل من أرض مصر بنحو من ثلاث وعشرين وخمسمائة عام. ^(٢)

لكن السامريّ لفظة معرّبة وليست على أصلاتها العبرية ، والشين العبرية تبدّل سينا في العبريّة كما في «موسى» معرّب «موشي» العبرية ، و «اليسع» معرّب «اليشوع». ^(٣) وكما في «السامرة» نسبة الى اسم صاحب الجبل «شامر».

أمّا السامري . في القرآن . فليس منسوباً إلى بلدة السامرة هذه ، وإنّما هي نسبة إلى «شمرون» بلدة كانت عامرة على عهد نبيّ الله موسى ووصيّيه يوشع بن نون. والنسبة إليها شمروني عزّبت إلى سامري ، ويجمع على شمرونيّ (سامريّين). وقد فتحها يوشع وجعلها في سبط «زبولون» كما جاء في سفر اليشوع ^(٤) وكان الملك عليها حين افتتحها يوشع «مرأون». ^(٥)

(١) مصادر الإسلام لتسدال ، ص ٣٧ فما بعد ؛ وآراء المستشرقين حول القرآن ، ج ١ ، ص ٣٥٢.

(٢) قاموس الكتاب المقدّس ، ص ٤٥٩ . وراجع : سفر الملوك ، إصحاح ١٦ / ٢٤ .

(٣) قاموس الكتاب المقدس ، ص ٩٥١ .

(٤) راجع : سفر اليشوع ، إصحاح ١١ / ١ ، و ١٢ / ٢٠ ، و ١٩ / ١٥ .

(٥) المصدر : ١٢ / ٢٠ .

هذا ما حققه العلامة الحجّة البلاغي. ^(١)

والسين والشين كانا يتبادلان في العبرية أيضا. كان سبط يهوذا ينطقون بالشين وسبط افرايمي بالسين في مثل «اليسوع» و «اليشوع». ^(٢) قال الاستاذ عبد الوهاب النجّار : ويغلب أن تكون «الشين» في العبرية «سينا» في العربية ، كما كان ينطق بها أيضا سبط افرايم بن يوسف. وقد كان رجال سبط يهوذا يختبرون الرجل ليعرف أنّه من سبط يهوذا أو افرايمي ، فيأمرّوه أن ينطق ب «شبوت» (سنبله) فإذا قال «سبوت» عرف أنّه افرايمي.

واحتمل في السامريّ نسبة إلى شامر أو سامر بمعنى «حارس». ^(٣) ونطقها في العبرية «شومير» مأخوذ من «شمر» أي حرس. فقد جاء في سفر التكوين : فقال الربّ لقائيل : أين هابيل أخوك؟ فأجاب : لا أعلم. وعقبه بقوله : ه شومير أخي أنو أخي؟ يعني : أحارس أنا لأخي؟ ^(٤) وما ذكره الحجّة البلاغي أقرب في النظر.

من هو قارون؟ ^(٥)

يقول تعالى عنه : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾. ^(٦)

قارون ، هو : قورح بن يصهار بن قهات بن لاوي من أبناء عمّ موسى وهارون. ثار هو جماعة من رؤساء بني إسرائيل في مائتين وخمسين شخصا ، وحاولوا مقابلة موسى وهارون لينزعوا زعامة إسرائيل عنهما. وكان قارون ثريّا جدّا ويعتزّ بثرائه ويفخر على سائر بني إسرائيل. وكان أولو

(١) راجع : كتابه «الهدى إلى دين المصطفى» ، ج ١ ، ص ١٠٣.

(٢) قاموس الكتاب المقدّس ، ص ٩٥١.

(٣) ذكر جيمس هاكس في قاموس الكتاب المقدّس ، ص ٥٣٠ ، أنّ أحد معنيي «شمرون» : كشيكي (نكهبان) يعني الحارس.

(٤) قصص الأنبياء للنجّار ، ص ٢٢٤. وراجع : سفر التكوين ، إصحاح ٤.

(٥) من شبهات أوردها هاشم العربي في ملحق ترجمه كتاب الإسلام لجرّس سال ، ص ٣٨١. زاعما أنّه تناقض في القرآن ، فمرّة من قوم موسى وأخرى مردفا بفرعون وهامان!؟

(٦) القصص ٢٨ : ٧٦.

البصائر من قومه ينصحونه ويحذّرونه عاقبة ما هو عليه من الخيلاء والزهو. فكان يتبسّج ويقول : إنّما أوتيته على علم عندي.. . ويقال : إنّّه كان واقفا على سرّ الصناعة أي الكيمياء .^(١) فكان يخرج على قومه في زينته مفتخرا عليهم ، ويتحسّره القوم ويقول الضعفاء : ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.^(٢) وبذلك كاد أن يتغلّب على موسى وقومه ، لو لا أن خسف الله به وبداره الأرض ، وبكلّ ما كان يملكه من كنوز.^(٣)

وأما قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.^(٤) حيث يبدو أنّه كان مع فرعون ومن قومه ، فالظاهر إرادة أنّه بالذات كان مقصودا بالإنذار إلى جنب فرعون وهامان ، من غير أن يستدعي ذلك أن يكون منهم ، بل معهم في العتوّ والطغيان ، ولعلّه كان واقفا بصفّهم إزاء موسى وهارون. قال تعالى : ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾.^(٥) فقد كان قارون مقصودا كما كان فرعون وهامان ، لعتوّهم واستكبارهم في الأرض جميعا.

﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾

قال تعالى بشأن ضخامة ثراء قارون : ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾.^(٦)

قال الطبرسي : «ما» هذه موصولة بمعنى الذي. وصلتها : إنّ ، مع اسمها وخبرها. أي أعطيناه من الأموال المدخرة قدر الذي ينيء مفاتحه العصبة^(٧) أي يثقلهم حمله. والعصبة : الجماعة الملتقّة بعضها ببعض ، أي المتآزرة على عمل ثقيل. أي كان حملها يضيئ بالفئام من أقوياء الناس.

(١) أي إحالة الفلزّات الخسيسة إلى فلزّ نفيس هو الذهب. وقد أحاله قوم ، لكن الاستمرار في البحث في الذرّة. أو الجوهر الفرد. أصبح أن جعله ممكنا ، والعلماء جادّون في تفريق أجزاء الذرّة ، حتى إذا تمّ لهم ذلك أمكنهم إيجاد أيّ مركّب شاءوا ، الذهب أو غيره. وحينذاك يكون ما كان يبدو مستحيلا قد صار جائزا. قصص الأنبياء للنجّار ، ص ٢٨٥.

(٢) القصص ٢٨ : ٧٩.

(٣) راجع : سفر الخروج ، إصحاح ١٦ / ١ - ٣٠.

(٤) غافر ٤٠ : ٢٣ و ٢٤.

(٥) العنكبوت ٢٩ : ٣٩.

(٦) القصص ٢٨ : ٧٦.

(٧) مجمع البيان ، ج ٧ ، ص ٢٦٦.

قال : والمفتاح . هنا . الخزائن في قول أكثر المفسرين . وهو اختيار الزجاج ، كما في قوله سبحانه : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ .^(١) والمفتاح ، جمع مفتاح . والمفتاح بكسر الميم : المفتاح . وبالمفتاح : الخزانة ، وكلّ خزانة لصنف من الأشياء أو الأموال . قال الفرّاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ : يعني خزائنه .^(٢)

قال الفراء : نوّوها بالعصبة أن تثقلهم. ومفتاحه : خزائنه. والمعنى : ما إنّ مفاتيح الكنوز أي خزائنها لتنيء العصبة أي تميلهم من ثقلها. وإذا أدخلت الباء قلت : تنوء بهم. ^(٣) قال الشاعر :

إلا عصا أرزن طارت برايتها _____ تنوء ضـربتها بالكـفّ والعـضـد^(٤)

وفي مسائل نافع بن الأزرق سأل ابن عباس : وهل تعرف العرب ذلك؟ قال : نعم ، أما سمعت قول امرئ القيس إذ يقول :

تمشي فتثقله _____ مشـي الضـعيف ينـوء بالوسـق^(٥)

والوسق : ستون صاعا ، حمل بعير ، وكذا وقر النخلة.

ومن الغريب ما نجد هنا من أجنبي عن اللغة . هو هاشم العربي . يعترض ويرى أنّ الصواب : «لتنوّأ بها العصبه» .^(٦) هذا في حين أنّ الزمخشري . وهو البطل الفحل . يقول : يقال : ناء به الحمل ، إذا أثقله حتّى أماله .^(٧) فسواء قلت : ناء به الحمل أو ناء بالحمل فالمعنى واحد . فالمعنى على الأول : مال به الحمل ثقلاً ، وعلى الثاني : مال بالحمل ثقلاً . وعلى الأول هو على الحقيقة كما جاء في القرآن ، وعلى الثاني كناية كما جاء في البيت .

حادث نتوق الجبل فوق رءوس بني إسرائيل

وحدث نتوق الجبل . وهو زعزعته من الأعالي ، وقد ذكره القرآن ، وأنكره بعض

(١) الأنعام ٦ : ٥٩. راجع : مجمع البيان ، ج ٧ ، ص ٢٦٦.

(٢) المصدر : ج ٤ ، ص ٣١٠ .

(٣) معاني القرآن للفراء ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .

(٤) الهدى إلى دين المصطفى ، ج ١ ، ص ٣٨٩ .

(٥) الدرّ المنثور ، ج ٦ ، ص ٤٣٨ .

(٦) ملحق ترجمة كتاب الإسلام ، ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٧) الكشاف للزمخشري ، ج ٣ ، ص ٤٣٠.

المستشرقين بحجة أنّه لم يأت ذكره في العهد القديم .^(١) عورض أيضا بأنّه من التعنيف على التكليف .^(٢)

وجاء ذكر هذا الحادث في القرآن في موضعين :

١ . سورة البقرة : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .^(٣)

٢ . سورة الأعراف : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .^(٤)

ليس في الآيتين سوى اقتلاع جزء عظيم من أعالي الجبل أثناء رجفة أو زلزال ، رأوه بأعينهم وهم مجتمعون في سفح الجبل ، وانحدر هابطا ليتوقّف في الأثناء وكانت وقفته بصورة عمودية ، مطّلا عليهم جانبيا فظنّوا أنّه واقع بهم . وصادف ذلك أن كان عند أخذ الميثاق منهم على العمل بشريعة التوراة . ولعلّ في هذه المصادفة حكمة إلهية بالغة ، ليريهـم من آيات كونية موجّهة لضمير الإنسان إلى جانب ضعف مقدّراته تجاه إرادة الله القادر الحكيم . وهذا من قبيل إراءة المعاجز على أيدي الأنبياء ، إيقاظا للضمير وليس إكراها على التسليم .

وفي هذا المقدار من دلالة الآيتين توافق مع ما جاء في العهد القديم . فقد جاء في سفر الخروج :

فانحدر موسى من الجبل . الطور . إلى الشعب وقُدّس الشعب وغسلوا ثيابهم ، وقال للشعب : كونوا مستعدّين لليوم الثالث ، لا تقربوا امرأة . وحدث

في اليوم الثالث لما

(١) راجع : مصادر الإسلام لتسدال ، ص ١٤ فما بعد ؛ وآراء المستشرقين حول القرآن ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

(٢) راجع : تفسير المنار ، ج ١ ، ص ٣٤٠ ؛ وتفسير الميزان للطباطبائي ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

(٣) البقرة ٢ : ٦٣ و ٦٤ .

(٤) الأعراف ٧ : ١٧١ .

كان الصباح أنّه صارت رعود وبروق وسحاب ثقیل على الجبل وصوت بوق شديد جدّا ، فارتعد كلّ الشعب الذي في المحلّة. وأخرج موسى الشعب من المحلّة لملاقاة الله ، فوقفوا في أسفل الجبل. وكان جبل سيناء كلّه يدخن من أجل أنّ الربّ نزل عليه بالنار ، وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كلّ الجبل جدّا ، فكان صوت البوق يزداد اشتدادا جدّا. موسى يتكلّم والله يجيب بصوت. ^(١)

ثمّ جاء فيه بعد ذلك :

وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن ، ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد ، وقالوا لموسى : تكلم أنت معنا ، فنسمع ولا يتكلّم معنا الله لئلاّ نموت. ^(٢)

* * *

أمّا اقتلاع الجبل من أصله وبرقته ورفعته في السماء فوق رءوسهم فهذا ما لم يذكره القرآن ولا جاء في رواية معتمدة عندنا ، وإمّا هو شيء جاء في روايات إسرائيلية عاميّة اغترّ بها بعض المفسّرين من غير تحقيق ^(٣) ففي الدرّ المنثور : عن قتادة «وإذ نتقنا الجبل ...» قال : انتزعه الله من أصله ثم جعله فوق رءوسهم ، ثم قال : لتأخذنّ أمرى أو لأرمينكم به ...

قال محمّد رشيد رضا : شايع الاستاذ الإمام [محمّد عبده] المفسّرين على أنّ رفع الطور كان آية كونية ، أي أنّه انتزع من الأرض وصار معلّقا فوقهم في الهواء. وهذا هو المتبادر من الآية بمعونة السياق ، وإن لم تكن ألفاظها نصّا فيه.

وقال في وجه عدم نصيّة القرآن في ذلك : إنّ أصل النطق . في اللغة . الزعزعة والزلزلة وأمّا الظلّة فكلّ ما أظلك وأطلّ عليك سواء كان فوق رأسك أو في جانبك مرتفعا له ظلّ. فيحتمل أنّهم كانوا بجانب الطور رأوه منتوقا أي مرتفعا مزعزعا ، فظنّوا أن سيقع

(١) سفر الخروج ، إصحاح ١٩ / ١٥ - ١٩.

(٢) المصدر : ٢٠ / ١٨ - ١٩.

(٣) راجع : الدرّ المنثور ، ج ١ ، ص ١٨٤ ، وج ٣ ، ص ٥٩٦ ؛ وجامع البيان ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ، وج ٩ ، ص ٧٤ ؛ وتفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ، وغيرها من تفاسير معروفة. وراجع أيضا : التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ، ص ٤٢٧ ؛ والاحتجاج المنسوب إلى الطبرسي ، ج ٢ ، ص ٦٥.

بهم وينقضّ عليهم. ويجوز أنّ ذلك كان في أثر زلزال تزعزع له الجبل ... وإذا صحّ هذا التأويل لا يكون منكر ارتفاع الجبل في الهواء مكذباً للقرآن. ^(١)

* * *

كما ولم يأت في شيء من روايات صحيحة الإسناد إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام ما يدلّ على أنّ جبل الطور اقتلع من مكانه ورفع في السماء فوق رعوس القوم ، سوى ما جاء في تفسير مجهول منسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام من أنّ الله أمر جبرائيل فقطع بجناح من أجنحته من جبل من جبال فلسطين على قدر معسكر موسى عليه السلام وكان طوله في عرضه فرسخا في فرسخ ، ثم جاء به فوق المعسكر على رءوسهم ، وقال : إمّا أن تقبلوا ما آتاكم به موسى وإمّا وضعت عليكم الجبل فطحطحتكم تحته ...

وفي كتاب الاحتجاج (لم يعرف مؤلفه) روى مرسلًا عن أبي بصير قال : سأل طاوس اليماني الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام عن طائر طار مرّة ولم يطر قبلها ولا بعدها ، ذكره الله في القرآن ، ما هو؟ فقال : طور سيناء ، أطاره الله على بني إسرائيل حين أظلّهم بجناح فيه ألوان العذاب ، حتى قبلوا التوراة ... ^(٢)

* * *

إذن ، فالروايات من طرق الفريقين لا أساس لها ولا يمكن الاعتماد عليها في تفسير الذكر الحكيم. ولذا فمن الغريب ما نجده من لجنة علماء الأزهر اعتراضهم على الاستاذ النجّار في رفضه الأخذ بأقوال المفسّرين هنا. قالوا : لم يسع السيّد رشيدا ومؤلف هذا الكتاب (أي الاستاذ النجّار) ما وسع الاستاذ الإمام في موافقة جميع المفسّرين على أنّ رفع الطور آية كونية ، أي أنّه انتزع من الأرض وصار معلّقًا فوقهم في الهواء. مع اعتراف الأوّل (أي السيّد رشيد) بأنّه المتبادر من الآيتين بمعونة السياق. بل أبدى (رشيد والنجّار) احتمالًا مختزعا في الآيتين أخرجاهما عن إفادة تلك الآية الكونية ، بحجّة أنّ ألفاظهما

(١) تفسير المنار ، ج ١ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣.

(٢) راجع : تفسير البرهان للبحراني ، ج ١ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، رقم ٩ ، وج ٣ ، ص ٢٣٤ ، رقم ١.

ليست نصًا فيما أجمع عليه المفسرون ، وتبعهم عليه الاستاذ الإمام. ^(١)

وكذا قول سيدنا الطباطبائي : هذا التأويل وصرف الآية عن ظاهرها والقول بأنّ بني إسرائيل كانوا في أصل الجبل فزلزل وزعزع حتّى أطلّ رأسه عليهم فظنّوا أنّه واقع بهم فعبر عنها برفعه فوقهم أو نتقه فوقهم ، مبني على أصل إنكار المعجزات وخوارق العادات. ^(٢) وكلام سيدنا الطباطبائي هنا يشعر باعتياده للروايات المأثورة والاستناد إليها في تفسير القرآن بما لا صراحة فيه ، بل ولا ظهوراً قوياً يمكن الاعتماد عليه. وليس ذلك سوى تفسير القرآن بالروايات الضعيفة ، الأمر الذي يبدو خلاف مسلكه في التفسير ... ولا سيّما إذا لم يكن للروايات أصل معتمد في أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام.

قال . في غير هذا الموضوع . : إنّ أخبار الآحاد لا حجّة فيها في غير الأحكام الشرعية ، فإنّ حقيقة الجعل التشريعي (الحجّة التعبدية لخبر الواحد) معناه : ترتيب أثر الواقع على الحجّة الظاهرية ، وهو متوقّف على وجود أثر عملي للحجّة ، كما في الأحكام والتكاليف ، وأمّا غير ذلك فلا أثر فيه حتّى يترتب على جعل الحجّة. مثلاً : إذا وردت الرواية بأنّ البسملة جزء من السورة كان معنى ذلك وجوب الإتيان بها في القراءة في الصلاة. وأمّا إذا ورد . مثلاً . أنّ السامري كان رجلاً من بلدة كذا ، وهو خير ظنيّ ، كان معنى جعل حجّيته أن يجعل الظنّ بمضمونه قطعاً ، وهو حكم تكويني ممتنع وليس من التشريع في شيء. ^(٣)

قلت : والأمر في الآية هنا أيضاً كذلك ، لأنّ المسألة مسألة فهم المعنى من ظاهر اللفظ ، أي إدعان النفس بذلك ، الأمر الذي لا مجال للتعبّد فيه. حيث الآية في سورة الأعراف استعملت لفظ التتوق مصحوباً بالتشبيه بالظلمة ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾. ثم أردفه بقوله : ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾.

ونتق الجراب أي نفضه بمعنى : حرّكه ليزول عنه الغبار ونحوه. ونتق الشيء : فتقه ،

(١) هامش قصص الأنبياء للنّجار ، ص ٢٣١.

(٢) الميزان ، ج ١ ، ص ٢٠٠.

(٣) الميزان ، ج ١٤ ، ص ٢٢٢.

زعزعه ، رفعه ، بسطه. ومنتقت المرأة أو الناقة : كثر ولدها فهو يعطي معنى البسط والكثرة والانتشار والتوسّع وإذ كان هناك بسط وتوسّع في أعالي الجبل كان ذلك رفعا أي ارتفاعا بالشيء وتعاليا به ، وليس قلعا من مكانه وانتقالا له إلى محلّ آخر في السماء ، كما زعم.

قال الراغب : نتق الشيء : جذبه ونزعه حتّى يسترخي ، كنتق عرى الحمل. قال تعالى : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾.

وهذا يعطي معنى : التزعزع في قلل الجبل وانتزاع صخور عظيمة منها وتدليلها جانبا مطلّة على القوم وهم في أسفل ، وكانت كأظلة مطلّة عليهم ، والأظلة كما تصلح من علوّ كذلك تصلح من جانب ، وفي كلتا صورتين تصدق الفوقية.

وبذلك اتّضح معنى قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ أي رفعناه جانبا ، لا شيء سواه.

قصة داود وامرأة أوريا

جاء في «صموئيل الثاني» الإصحاح ١١ :

كان داود أقام في أورشليم ، وكان في وقت المساء ، قام وتمشّى على سطح البيت ، فرأى امرأة تستحمّ ، وكانت جميلة جدّا. فسأل عنها ف قيل له : إنّها بثشبع بنت اليعام امرأة أوريا الحثّي. فأرسل داود إليها وأخذها واضطجع معها فحبلت منه. فكتب داود إلى يوّاب قائد معسكره ، وأرسله بيد أوريا ، وكتب فيه أن اجعلوا أوريا في مقدّمة الجيش ليقتل. ففعل يوّاب ما أمره داود وقتل أوريا. فلمّا سمعت امرأة أوريا بموت زوجها ناحت عليه. وبعد انقضاء أيّام النياحة أرسل داود فضمّها إلى بيته ، وجعلتها مع نسائه فولدت له ابنا ، ومات ذلك الولد ... وأمّا الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الربّ.

وفي الإصحاح ١٢ :

وعزّى داود بثشبع بموت ولدها ، واضطجع معها ثانية فولدت له ابنا فدعا اسمه سليمان ، فكان سليمان قد ولد من امرأة اغتصبها داود من زوجها ، وتآمر على قتله!

وفي الإصحاح ١٣ و ١٤ و ١٥ :

وجرى بعد ذلك أنّه كان لأبشالوم بن داود اخت جميلة اسمها تامار ، فعشقها أخوها من غير أمّها اسمه أمنون بن داود ، فاحتال عليها ، فتمارض وطلب منها ان تمارضه ، فلما دخلت عليه اضطلع معها. ثمّ إنّ أخاها أبشالوم تمكّن بعد سنتين أن يثب على أخيه أمنون فيقتله. وبعد مدّة ثار على أبيه داود ، فطارده بجيش عظيم ، وفرّ داود من وجهه. ومّا ارتكبه أبشالوم من الشنائع أن دخل على سراري أبيه أمام جميع إسرائيل.

هكذا لعبت اليهود بقداسة نبيّ الله داود ﷺ فوصموه وأهل بيته بأفضع وصمات منافية للشرف والعقّة ، فجعلوا منهم اسرة تعيث في الخطايا والدنس بكلّ ألوانه!

أمّا القرآن فجاء ليظهر ساحة الأنبياء فيصوّر من داود قديسا وعبدا منيبا إلى الله ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ. إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمَسِ وَالْطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ. وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾. (١)

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. (٢)

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. (٣)

وقد ذكرنا حديث اختبار داود ﷺ بما يبرئ ساحته الزهية عن أمثال تلك الخرافات الإسرائيلية ، عند الكلام عن تنزيه الأنبياء. (٤)

القرآن والأناجيل

زعم «تسدال» أنّ النصرانيّة كانت أحد المصادر التي أخذ منها القرآن ، في حين أنّ من هذه المصادر ما لم تكن موثوقة بل كانت لفرق شاذّة لها أساطير غريبة اعتمدها القرآن.

وزعم أنّ قصّة مريم وابنها المسيح ﷺ لم ترد في كتب النصرانية المعتمدة ،

(١) ص ٣٨ : ١٧ - ٢٠.

(٢) ص ٣٨ : ٣٠.

(٣) سبأ ٣٤ : ١٣.

(٤) في الجزء الثالث من التمهيد.

واعتبرها خرافة وهمية. وحيّثه في ذلك عدّة شبه في ذهنه :

١ . أنّ ولادتها لعيسى ، حسبما جاءت في القرآن ، أشبه ما يكون بأسطورة «ميلاد بده» عند الهنود ، حيث ولد «بده» من عذراء لم يمستّها رجال.

٢ . خدمتها للهيكل ، مع أنّ هذا لا يجوز للنساء.

٣ . ذكر القرآن أنّها اخت هارون أخي موسى بن عمران . على حدّ فهمه . واعتبر ذلك من الخطأ التاريخي في القرآن. وهكذا أنكر كلام عيسى في المهد ، وكذا المعجزات التي ظهرت على يده ممّا ذكره القرآن ، مثل صنعه من الطين طيرا ثمّ يكون طيرا بإذن الله. وقصّة المائدة التي نزلت من السماء. وصلب عيسى ﷺ حيث نفاه القرآن ، في حين قد أثبتته الكتاب المقدّس. ومثل : نزول عيسى في آخر الزمان. ومسألة التبشير بمقدم نبي الإسلام حسبما ذكره القرآن ، ولم يأت في الإنجيل ... ونحو ذلك من امور سردها «تسدال» بهذا الشأن سرد عاجز سقيم.^(١)

الصديقة مريم ﷺ

أنكر «تسدال» قصّة الصديقة مريم ﷺ أن تكون وردت بهذا الشكل في كتب النصرانية المعتمدة ، واعتبرها خرافة. قال الدكتور رضوان : هذه القصّة من الشهرة والانتشار والبداهة في الوسط المسيحي بمكان ، حتّى أنّ فرقة «البربرانية»^(٢) منهم أهّوها وابنها المسيح ﷺ نظرا لولادتها لابنها بطريقة خارقة للعادة ، وقد أشار القرآن الكريم لقضية تأليههم لهما ﷺ .^(٣) أمّا زعم «تسدال» أنّ القصّة غير موجودة في الكتاب المقدّس فيردّه ما ورد في

(١) راجع : آراء المستشرقين حول القرآن الكريم ، ج ١ ، ص ٢٩٠ و ٢٩٦ .

(٢) جاء في «الفصل في الملل والنحل» لابن حزم ، ج ١ ، ص ٤٨ : ومنهم . طوائف النصارى . البربرانية ، وهم يقولون : إنّ عيسى وأمه إلهان من دون الله عزّ وجلّ ، وهذه الفرقة قد بادت .

(٣) في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ المائدة ٥ : ١١٦ .

إنجيل «لوقا» ونصّه : «... ارسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة ، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف ، واسم العذراء مريم. فدخل إليها الملاك وقال : سلام لك أيتها المنعم عليها ، الربّ معك ، مباركة أنت في النساء. فلمّا رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية؟! فقال لها الملاك : لا تخافي يا مريم ، لأنك قد وجدت نعمة عند الله ، وها أنت ستحبلين وتلدن ابنا وتسمّينه يسوع. هذا يكون عظيما ، وابن العليّ يدعى ، ويعطيه الربّ الإله كرسيّ داود أبيه ، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد. ولا يكون ملكه نهاية. فقالت مريم للملاك ، كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا؟ فأجاب الملاك وقال لها : الروح القدس يحلّ عليك ، وقوّة العليّ تظللّك ، فلذلك أيضا القدّوس المولود منك يدعى ابن الله.

وهو ذا «اليصابات»^(١) نسيبتك هي أيضا حبلى بابن في شيخوختها ، وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرا ، لأنّه ليس شيء غير ممكن لدى الله. فقالت مريم : هو ذا أنا أمة الربّ ، ليكن لي كقولك. فمضى من عندها الملاك.^(٢)

وجاء في إنجيل «متّى» : «أمّا ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا : لما كانت مريم أمّه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس. فيوسف رجلها إذ كان بارّا ولم يشأ أن يشهرها أراد تخليتها سراً. ولكن فيما هو متفكّر في هذه الامور إذا ملاك الربّ قد ظهر له في حلم قائلا : يا يوسف بن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك ، لأنّ الذي جبل به فيها هو من الروح القدس ، فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع ، لأنّه يخلص شعبه من خطاياهم».^(٣)

وفي إنجيل برنابا . في الفصل الأول . ما نصّه : «لقد بعث الله في هذه الأيام الأخيرة بالملاك جبرائيل إلى عذراء تدعى مريم من نسل داود من سبط يهوذا. بينما كانت هذه

(١) هي امرأة زكريّا ، حملت بيهي على أثر دعاء زوجها (إنجيل لوقا ، الإصحاح ١ / ١٢ - ٢٥). وجاء ذلك في القرآن في سورة آل عمران ٣ : ٣٨ ؛ ومريم ١٩ : ٧ ؛ والأنبياء ٢١ : ٨٩ . وكانت اليصابات خالة مريم. (قصص الأنبياء للنّجار ، ص ٣٧٥).

(٢) إنجيل لوقا ، الإصحاح ١ / ٢٦ - ٣٨.

(٣) إنجيل متّى ، الإصحاح ١ / ١٨ - ٢١.

العدراء . العائشة بكلّ طهر بدون أدنى ذنب ، المنزهة عن اللوم ، المثابرة على الصلاة مع الصوم . يوما ما وحدها وإذا بالملاك جبرائيل قد دخل مخدعها وسلّم عليها قائلا : ليكن الله معك يا مريم . فارتاعت العدراء من ظهور الملاك ، ولكن الملاك سكن روعها قائلا : لا تخافي يا مريم ، لأنّك قد نلت نعمة من لدن الله الذي اختارك لتكوني أمّ نبيّ يبعثه إلى شعب إسرائيل ، ليسلكوا في شرائعه بإخلاص . فأجابت العدراء : وكيف ألد بنين وأنا لا أعرف رجلا؟! فأجاب الملاك : يا مريم إنّ الله الذي صنع الإنسان من غير إنسان لقادر أن يخلق فيك إنسانا من غير إنسان ، لأنّته لا محال عنده . فأجابت مريم : إني لعالمة أنّ الله قدير ، فلتكن مشيئته . فقال الملاك : كوني حاملا بالنبيّ الذي ستدعيه يسوع . فامنعيه الخمر والمسكر وكلّ لحم نجس ، لأنّ الطفل قدّوس الله . فانحنت مريم بضعة قائمة : ها أنا ذا أمة الله ، فليكن بحسب كلمتك. ^(١)

* * *

قلت : ما جاء في إنجيل برنابا أسلم وأوفق بالاعتبار ممّا جاء في إنجيلي لوقا ومتّى .
 أولا : جاء في إنجيل لوقا : «القدّوس المولود منك يدعى ابن الله». ^(٢)
 وفيه أيضا : أنّ مريم لما أتت خالتها «اليصابات» باركتها ووصفتها بأنّها أمّ ربّها : «وقالت : أنت مباركة في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك . فمن أين لي هذا أن تأتي أمّ ربي إليّ». ^(٣)
 وهذا شيء غريب ، كيف يكون المولود من امرأة ابنا لله ، بحجة أنّه لم يولد من أب؟! إذن لكان الأولى أن يكون آدم ابنا لله ، حيث لم يلد له أب ولا أمّ .
 ثم كيف أصبح هذا المولود من غير أب إلها من دون الله؟! الأمر الذي يرفضه العقل الرشيد .

(١) راجع : قصص الأنبياء للنّجار ، ص ٣٧٧ .

(٢) إنجيل لوقا ، الإصحاح ١ / ٣٥ .

(٣) إنجيل لوقا ، الإصحاح ١ / ٤٢ و ٤٣ .

قال صاحب كتاب «الفارق بين المخلوق والخالق» : ما جاء في إنجيل لوقا (ص ١ : ٣٢) : «وابن العليّ يدعى». هذه الجملة منتزعة من قول زكريّا ٤:١٣ في ابنه يحيى : «وأنت أيتها الصّبيّ نبّيّ العليّ تدعى» (لوقا ١ ص ١ : ٧٦) ، فحرّفت في حقّ عيسى ٤:١٣ إلى قول لوقا على لسان الملك : «وابن العليّ يدعى» ليوهموه الناس أنّ المسيح إله ابن إله. (١)

وثانيا : قوله : «هذا يكون عظيما ، وابن العليّ يدعى ، ويعطيه الربّ الإله كرسي داود أبيه ، ويملك على بيت يعقوب ولا يكون ملكه نهاية» ... قال الاستاذ النجّار : إنّ هذه العبارات تفرّد بها لوقا ، ولم يذكرها أحد من كتّاب الأناجيل سواه ، ونحن لا نقول بأنّ الإلهام قصّر معهم . وفيهم أصحاب المسيح المشاهدون لأحواله العالمون بشأنه . وأفاض على لوقا الذي ليس تلميذا ولا من الاثني عشر ، بل رجل دخل في الدين متأخرا وصار تلميذا لبولس الذي لم ير المسيح ولم يعاشره . فهذه العبارة ممّا جاء به ليزيّن أمر المسيح ويدخل على الناس تعظيمه ، والمسيح ليس في حاجة إلى ذلك .

وقد طعن صاحب كتاب «الفاروق» على هذه الجملة «ويعطيه الإله كرسي داود أبيه» بوجهين وجيهين : الأول : أنّ عيسى ٤:١٣ من أولاد الملك «يهوياقيم» (٢) ولا يصلح أن يجلس على كرسيّ داود ، لأنّه لما أحرق الصحيفة التي كتبها «بارخ» من فم النبيّ «أرمياء» نزل الوحي : «قال الربّ عن يهوياقيم (يواقيم) ملك يهوذا ، لا يكون له جالس على كرسيّ داود». (٣) الثاني : أنّ المسيح . مع كونه لم يجلس على كرسيّ داود . أمر «بيلاطس» بضربه وإهانته ، وسلّمه إلى اليهود . كما يزعمه النصارى . ففعلوا به ما فعلوا وصلبوه .

على أنّه يبدو من إنجيل يوحنا (١ ص ٦) أنّه كان هاربا من قومه عند ما أرادوا أن

(١) راجع : قصص الأنبياء للنجّار ، ص ٣٧٨ .

(٢) في إنجيل متى : الإصحاح الأوّل : إنّ من ذرّيّة «أليافين» . وقد غيّر فرعون مصر اسمه إلى «يهوياقيم» . (قاموس الكتاب المقدّس ، ص ٩٨٦) . وراجع : سفر الملوك ٢ ، إصحاح ٢٣ / ٣٤ .

(٣) كتاب أرمياء ، إصحاح ٣٦ / ٣٠ .

يجعلوه ملكا ولا يعقل أن يهرب من أمر بعثه الله لأجله ، على ما بثّر جبرائيل أمّه العذراء قبل ولادته. ومعلوم أنّه لم يملك بيت يعقوب ساعة فضلا عن الأبد. ^(١)

يا اخت هارون؟

ويقول القاضي عبد الجبار في كتابه «تنزيه القرآن عن المطاعن» : وربما قيل في قوله تعالى : ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ : كيف يصحّ أن يقال لها ذلك وبينها وبين هارون أخي موسى الزمان الطويل؟ وجوابنا أنّه ليس في الظاهر أنّه هارون الذي أخو موسى ، بل كان لها أخ يسمّى بذلك ، واثبات الاسم واللقب لا يدلّ على أنّ المسمّى واحد. وقد قيل : كانت من ولد هارون ، كما يقال للرجل من قريش يا أخا قريش. ^(٢)

ويشرح المبشّرون هذه الناحية ويقولون : ورد في سورة مريم : ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْيًّا﴾. ^(٣) يبدو من هذه الآية أنّ محمّدا كان يرى أنّ مريم كانت أخت هارون أخي موسى. وممّا يزيد هذا الأمر وضوحا وجلاء ما ورد في سورة التحريم ونصّه : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾. ^(٤) وفي سورة آل عمران : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾. ^(٥) فلا شكّ أنّ محمّدا توهم أنّ مريم أخت هارون التي كانت أيضا ابنة عمران (عمرام) هي مريم نفسها التي صارت أمّ يسوع (المسيح عيسى) بعد ذلك بنحو ألف وخمسمائة وسبعين سنة. وهذا خطأ جسيم ، لأنّه لم يقل أحد من اليهود أنّ مريم اخت هارون وابنة عمران بقيت على قيد الحياة إلى أيّام المسيح. ^(٦) هكذا وهم تسدال ومن حذا حذوه من المبشّرين! لكنّه وهم فاحش ، إذ كيف يمكن أن يخفى مثل هذا الفصل البين بين موسى والمسيح ﷺ على العرب العائشين في

(١) قصص الأنبياء للنجار ، ص ٣٧٧ . ٣٧٨ .

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار ، ص ٢٤٧ .

(٣) مريم ١٩ : ٢٧ . ٢٨ .

(٤) التحريم ٦٦ : ١٢ .

(٥) آل عمران ٣ : ٣٥ .

(٦) مصادر الإسلام ، ص ١٠٢ . ١٠٤ ؛ والفنّ القصصي ص ٥٧ . ٥٨ .

جوار اليهود وبين أظهرهم طيلة قرون ، وكذا مراودتهم مع نصارى نجران والأحباش ، فضلا عن نبي الإسلام النابه البصير ، ليتصوّر من مريم أمّ المسيح هي مريم أخت موسى وهارون!

إذ من يعرف أنّ لموسى وهارون أختا اسمها مريم ، لا يمكنه الجهل بهذا الفصل الزمني بين مريمين!

ثمّ كيف يسكت اليهود . وهم ألّد أعداء الإسلام . على هذا الخطأ التاريخي الفاحش ولم يأخذوه شناعة على القرآن والإسلام؟

هذا وقد وقع التساؤل عن هذا التشابه على عهد الرسول ﷺ على ما نقله السيّد رضيّ الدين ابن طاوس عن كتاب «غريب القرآن» لعبد الرحمن بن محمد الأزدي الكوفي (من كبار رجال القرن الثالث) بإسناده إلى المغيرة بن شعبة ، قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران ، فقالوا : أرايت ما تقرأون «يا أخت هارون» ، وهارون أخو موسى ، بينه وبين عيسى المسيح بكذا وكذا؟ قال : فرجعت وذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : ألا أخبرتهم (أو قلت لهم) أنّهم كانوا يسمّون بالأنبياء والصالحين قبلهم! ^(١)

وهكذا أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن المغيرة بن شعبة ... الحديث. ^(٢)

نعم وهمت عائشة أنّها أخت هارون أخي موسى ، فنّبّتها كعب الأحبار بأنّها غيرها ، والفصل الزمني بينهما كبير. وإنّما هو من تشابه الأسماء ، فرجعت عن زعمها. ^(٣)

وذكر كعب أنّ الفصل الزمني بينهما ستّمائة سنة. ولعلّه من حذف الألف في نقل الرواة.

إذن لم يكن ذلك خافيا على أهل النباهة ذلك العهد وهكذا طول عهد الإسلام ،

(١) سعد السعود ، ص ٢٢١.

(٢) الدرّ المنثور ، ج ٥ ، ص ٥٠٧.

(٣) فيما رواه ابن سيرين. راجع : الدر المنثور ، ج ٥ ، ص ٥٠٧.

حتى يأتي تسدال وأضرابه من أهل السفاسف في مؤخّرة الزمان ليجعلوه شنعة على القرآن الكريم!!
والخلاصة ، أنّ التسمية باسم الآباء والأُمّهات تشريفاً بهم ، شيء معروف كما جاء في كلام الرسول ﷺ ولا سيّما وهارون كان سيّد قومه مهابا عظيما له شأن في بني إسرائيل. وهو أوّل رأس الكهنة الذي ترأّس في اللاويين أكبر قبائل بني إسرائيل. ^(١)
أضف إليه أنّ أمّ مريم . وهي أخت اليصابات أمّ يحيى . كانت من سبط لاوى من نسل هارون. ^(٢) فهي من جهة الأمّ منتسبة إلى هارون ، فالتعبير بأخت هارون ، معاتبة لها ، حيث علم أخذها بحرمة هذا النسب العالي. وهذا كما يقال للتميمي : يا أخا تميم ، وللهاشمي : يا أخا هاشم ... روي ذلك (انتسابها إلى هارون) عن السدّي. ^(٣)

وهذا لا ينافي أن تكون مريم من جهة الأب منتسبة إلى داود من سبط يهوذا. ^(٤) لأنّ العقاب إنما يقع بأشرف الأبوين.
وهناك احتمال : أنّها شبّهت بمريم أخت هارون وموسى ، لمكان قداستها وكانت ذات وجهة عند قومها. وكانت تدعى أيضا بأخت هارون. ويعبّر عنها بالنبية كهارون أخيها. ^(٥) وكانت أكبر من موسى بعشر سنين ، وهي التي قالت لها أمّها : قصّيه ، عند ما قذفت بتابوت موسى في النيل.
والمعنى : أنّك تماثلين الصديقة مريم اخت موسى وهارون ، فكان جديرا بك المحافظة على هذا المقام. ^(٦)

ابنة عمران؟

لم تذكر التوراة عن والد مريم شيئا سوى أنّها من سبط يهوذا من نسل داود. ولا بعد أن يكون اسم والدها عمران (عمرام) وكانت التسمية بهذا الاسم شائعة في بني

(١) راجع : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٩١٦ .

(٢) المصدر : ص ٧٩٥ .

(٣) مجمع البيان ، ج ٦ ، ص ٥١٢ .

(٤) المصدر : ص ٧٩٤ . ٧٩٥ .

(٥) راجع : سفر الخروج ، إصحاح ١٥ / ٢٠ .

(٦) راجع : تفسير نمونه ، ج ١٣ ، ص ٥١ .

إسرائيل. وكان في حشد عزرا من كان يسمّى بهذا الاسم. ^(١) كما لم ينكر هذا الانتساب منذ العهد الأول فيالآن ، دليلا على صحّة الانتساب. وعلى أيّ حال فلا غرو أن يأتي القرآن بحديث لم يأت مثله في كتب الأقدمين ولا عرفه أصحاب الديانات المعاصرة لنزول القرآن. وقد تبّهنا أنّ القرآن يأتي بالصفو الصحيح من آثار الأنبياء والصدّيقين ، بما أعجب وأبهر ، ولذلك يقول سبحانه : بشأن قصص الصديقة مريم : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾. ^(٢)

إذ جاءت قصّتها في كتب السابقين مشوّهة محرّفة ، ولكّنها في القرآن نقيّة زاكية.

تأليه الصديقة مريم!

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾. ^(٣) وهذا تعريض بفرقة من فرق النصارى قالوا بألوهية المسيح وأمه ... الأمر الذي انكرته فرق النصارى اليوم ، بحجّة أنّه لم توجد فرقة تعتقد ألوهية مريم العذراء! لكن التاريخ يشهد بوجود فرقة أو فرق من المسيحيين الأوائل كانوا يعتقدون بألوهيتها إلى جنب ألوهية المسيح : يقول عنهم ابن البطريق . الطبيب المؤرّخ المسيحي (٢٦٣ . ٣٢٨ هـ / ٨٧٧ . ٩٤٠ م) : ^(٤) «وكانوا مختلفين في الآراء والأديان. فمنهم من كان يقول : إنّ المسيح وأمه إلهان من دون الله. وهم «البربرانية» ... ويسمّون «الريمّتين» (المريمانيّة). ومنهم من كان يقول : إنّ المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها. وهي مقالة «سابليوس» وشيعته. ومنهم من كان يقول : لم تحبل به مريم تسعة

(١) راجع : عزرا ، إصحاح ١٠ ، عدد ٣٤.

(٢) آل عمران ٣ : ٤٤.

(٣) المائدة ٥ : ١١٦.

(٤) هو سعيد بن البطريق من أهل مصر. ولد بفسطاط واقيم بطريقا في الإسكندرية وسمّي أنتيشيوس (suihcytnE) سنة ٣٢١ هـ ق. له كتب في الطب والتاريخ ولا سيما تاريخ المسيحيّة. كتب عن فرق النصارى وما بينهم من شقاق وخلاف. راجع : الوافي بالوفيات للصفدي (٧٦٤ هـ) ، ج ١٥ ، ص ١٢٧ ، رقم ٤٨٥٨ ؛ والأعلام للزركلي ، ج ٣ ، ص ١٤٤.

أشهر ، وإنما مرّ في بطنها كما يمرّ الماء في الميزاب ، لأنّ الكلمة دخلت في اذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها. وهي مقالة «إليان» وأشياعه. ومنهم من كان يقول : إنّ المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منّا في جوهره ، وأنّ ابتداء الابن من مريم ، وأنّه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الإنسي ، صحبته النعمة الإلهية ، وحلّت فيه بالحبّة والمشيمة ، ولذلك سمّي «ابن الله». ويقولون : إنّ الله جوهر قديم واحد ، وأقنوم واحد. ويسمّونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس. وهي مقالة «بولس الشمشاطي» بطريرك أنطاكية وأشياعه وهم «البوليقانيون». ومنهم من كان يقول : إنّهم ثلاثة آلهة لم تزل : صالح وطالح وعدل بينهما ، وهي مقالة «مرفيون» وأصحابه ، وزعموا أنّ «مرفيون» هو رئيس الحواريين وأنكروا بطرس. ومنهم من كان يقول بالوحيّة المسيح. وهي مقالة «بولس» الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا ...

ولتصفية هذه الخلافات اجتمع في عام ٣٢٥ ميلاديّة «مجمع نيقية» عند الملك «قسطنطين» وبدعوة منه ، فاجتمع ألفان وثمانية وأربعون أسقفا ، ودارت البحوث ، وقد اختار الإمبراطور الروماني (قسطنطين) . الذي كان قد دخل في النصرانيّة من الوثنية منذ عهد قريب ولم يكن يدري من النصرانية شيئا . هذا الرأي الأخير (رأي بولس الرسول) وسلّط أصحابه على مخالفيهم ، وشرد أصحاب سائر المذاهب ، وبخاصّة القائلين بالوحيّة الأب وحده ، وناسوتيّة المسيح! ^(١)

وهكذا يقول ابن حزم الأندلسي (٣٨٣ . ٤٥٦ هـ) وهو قريب عهد بابن البطريق . بعد شرح الخلافات بين طوائف النصارى أيام قسطنطين وكان أوّل من تنصّر من ملوك الروم. فكان ممّا عدّ من تلك المذاهب والفرق : البربرانيّة. قال : «ومنهم البربرانيّة ، وهم يقولون إنّ عيسى وأمّه إلهان من دون الله عزّوجلّ : قال : وهذه الفرقة قد بادت ...». ^(٢)

(١) راجع ما كتبه سيد قطب بهذا الشأن (في ظلال القرآن ، ج ٦ ، ص ١١٧ . ١٢١ ، المجلّد الثاني ، ص ٦٨٥ . ٦٨٩) نقلا عن كتاب محاضرات في النصرانيّة للشيخ محمد أبو زهره. وعن كتاب تاريخ الامة القبطية وغيره من مراجع.

(٢) الفصل في الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٤٨.

ويكلم الناس في المهد وكهلا؟

جاء في القرآن في ثلاثة مواضع ، تكلم المسيح في المهد :

- ١ . في سورة آل عمران (الآية : ٤٦) : ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.
- ٢ . في سورة المائدة (الآية : ١١٠) : ﴿إِذْ أَيْدَتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.
- ٣ . في سورة مريم (الآية : ٢٩) : ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

ذكر الرازي أنّ النصارى أنكرت كلام المسيح في المهد ، بحجة أنّه لم يثبت عندهم وكانوا هم أولى بنقله لو كان ، لأنّه حادث عجيب وبرهان ساطع على صدق نبوّته. ولشهادته جم غفير ونقل بالتواتر لتوقّر الدواعي عليه ، بما لا يمكن خفاؤه لكي يظهر على يد نبيّ الإسلام فحسب! ^(١) لكن هذا الاعتراض إنّما كان يرد لو كان أبناء المسيحية قد احتفظوا بمسنداتهم الدينيّة طول عهد التاريخ ولم يضيّعوها ولم يدعوها على ذمّة التحريف والخلط والتبديل. على أنّهم منذ البدء لم يأخذوا ديانتهم عن أصل وثيق ولا عرفوا شيئاً من حياة صاحب الرسالة إلّا أقاويل وأساطير ، فقد ضاعت عنهم كلّ معالم الشريعة والصحيح من سيرة المسيح منذ بداية الأمر ...

تلك الأناجيل الأربعة ، ثلاثة منها (متى. مرقس ، لوقا) لم تحتفظ على معاجز المسيح (الثلاث والثلاثون معجزة) سوى معجزة واحدة. وإنجيل يوحنا لم تذكر منها سوى سبع معاجز ^(٢) فأين الباقي؟

على أنّ هذه الأناجيل بينها اختلاف كبير وهي قريبة العهد بالتدوين. والعمدة أنّها كتبت في عهد متأخّر (بعد انتهاء أمر المسيح) فخلطت الحابل بالنابل وكان فيها الغث والسمين ، وبعد أن أفاق المسيحيّون من الاضطهادات التي كانت تتوالى عليهم نظروا في

(١) التفسير الكبير ، ج ٨ ، ص ٥٢.

(٢) راجع : قاموس الكتاب المقدّس ، ص ٩٦٧.

تلك الأساطير واختارت الكنيسة من بينها تلك التي لا تتعارض مع نزعتهما وجعلتها رسميّة ولم تكثرث لما بين مضامينها من التخالف والتناقض ما دام ذلك لا يخالف المنزع العام الذي قصده الكنيسة. والأنجيل جميعها منقطعة السند ، ولا توجد نسخة إنجيل بخطّ تلميذ من تلاميذ ذلك المؤلّف ولا ما يضمن شبهة صحّة فيها. ^(١)

من ذلك الخلط الفاحش ، إسناد «لوقا» التكلّم في المهدي إلى يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريّا) بدل المسيح (عيسى بن مريم) ، ^(٢) وسكت عنه سائر الأنجيل.

جاء في إنجيل لوقا : كان في أيّام هيروديس ملك اليهود (٤ . ٤٠ . ق م) كاهن اسمه زكريّا وامرأته من بنات هارون واسمها «اليسابات» وكانت عاقرا ... فبينما زكريا يكهن في نوبة فرفته أمام الله ، إذ ظهر له ملاك الرّب فبشّروه بيحيى ... ولما حبلت اليسابات أخفت نفسها خمسة أشهر ، وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل إلى مدينة ناصرة إلى العذراء مريم ليبشّرها بعيسى وقال لها : ها هي خالتك اليسابات أيضا حبلت بابن في شيخوختها. وفي تلك الأيام ذهبت مريم إلى مدينة يهوذا ودخلت على اليسابات وسلّمت عليها ، وظلّت عندها ثلاثة أشهر ثم عادت إلى بيتها في الناصرة. ولما تمّ زمان حمل اليسابات ولدت ابنا وسمّع الجيران والأقرباء وفرحوا بذلك ، وفي اليوم الثامن جاءوا ليختنوه وسمّوه يحيى . بإشارة من أبيه . وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلّم وبارك الله ... فتعجّب الجميع من ذلك الحادث الغريب؟!

(١) راجع : قصص الأنبياء للنّجار ، ص ٣٩٩.

(٢) كان لوقا طبيبا من أهل أنطاكيّة ولم ير المسيح أصلا وقد لقّن النصرانيّة عن «بولس». وبولس هذا كان يهوديّاً متعصّبا على المسيحيّة ولم ير المسيح في حياته وكان يسيء إلى النصارى إساءات متواصلة ، ولما رأى أنّ اضطهاده للنصرانيّة لا يجدي عمداً من طريق الحيلة إلى الدخول فيها وإظهار الاعتقاد بالمسيحيّة وادّعى أنّه صرع وفي حال صرعه لمسه المسيح وزجره عن الإساءة إلى متابعيه ، ومن ذلك الوقت آمن وأرسله المسيح ليبشّر بإنجيله (نظير ما اختلقه كعب الأخبار . الكاهن اليهودي . تعليلا لإسلامه أيام عمر بن الخطاب) وانطلت حيلته على الكنيسة ، وهو الذي جعل النصارى يرقون من واجبات الناموس الذي جاء المسيح لتأييدها ، فأباح لهم أكل الميتة وشرب الخمر وأنّ الإيمان وحده كان في النجاة بدون عمل ... قصص الأنبياء للنّجار ، ص ٤٠٠ . وكان تأليف لوقا إنجيله بإيحاءات من شيخه بولس هذا الذي حاول التشويه في شريعة المسيح والخطّ من قداسته ، ومن ذلك نسبة الكلام في المهدي . وهي نفحة قدسيّة . إلى يحيى قبل أن يأتي عيسى المسيح . الأمر الذي اغترّ به أتباع المسيح من غير دراية.

وأما مريم العذراء فلما تمّ أيام حملها ولدت ابنا فقمتّطته وأضجعتته في المذود ... ولما تمتّ ثمانية أيّام جاءوا ليختنوا الصّبيّ وسمّوا يسوع ...^(١) ولنتساءل كاتب الإنجيل : هل كانت هناك ضرورة تدعو إلى تكلم يحيى في اليوم الثامن من ولادته؟ (مع العلم أنّ المعجزات خوارق للعادات لا تظهر على يد أولياء الله إلّا حينما تدعو الضرورة إليه!).
والصحيح أنّه من سهو الكاتب إن لم يكن هناك عمد؟!

* * *

هذا ، وليس في القرآن تصريح بأنّ المسيح تكلم في المهد حال رضاعه وقبل أوان الكلام ، ذلك أنّ الله امتنّ على المسيح إذ أيّده بروح القدس ومنح له عقلا وافرا يكلّم الناس . بكلام معقول . منذ طفولته فيلى أوان كهولته . فكان ﷺ منذ صغره زكّيا بارعا وافر العقل ، ينطق كما ينطق الرجل الخبير . وسنذكر محاجّته مع العلماء في أورشليم مذ بلغ من العمر اثنتي عشرة سنة بحيث أعجب الجميع كلامه . فخافت مريم عليه وعنّفته على ذلك.^(٢)
وهذا هو الظاهر من قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.^(٣)

أخرج الطبري بإسناده إلى سعيد بن جبير عن قتادة قال : يكلّمهم صغيرا وكبيرا . وهكذا أخرج بإسناده إلى الربيع بن أنس . وعن ابن جريج قال : كَلّمهم صغيرا وكبيرا وكهلا ...^(٤)
وهذا كقولهم : «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» أى منذ الصغر فيلى نهاية الكبر . والمهد كناية عن حالة الصبي في نعومة أظفاره ورخاوة هندامه ، فيضطجع فيما مهّد له من مضجع ناعم فاره .

(١) إنجيل لوقا ، إصحاح ١ ، و ٢ .

(٢) قصص الأنبياء للنّجار ، ص ٣٨٧ . وسنذكر الحديث بتفصيله .

(٣) المائدة ٥ : ١١٠ .

(٤) جامع البيان ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

مريم تعود بابنها وقد جاوز سنّ الرضاعة

على أنّ مريم لما جاءت بالمسيح كان قد تجاوز دور الرضاعة الأولى بعد مدّة طويلة من ولادته. جاء في إنجيل متى : ولما ولد يسوع في بيت لحم في أيام هيروديس الملك ، جاءت جماعة من المجوس ليقدّسوه وعلم الملك بذلك واستفسر الكهنة عن مولده فأنبئوه بمكان ولادته وكان قد همّ بقتله ، وقال للمجوس إذا عرفتموه فأخبروني لكي اقدّسه معكم. أمّا المجوس فوجدوه في بيت لحم مع أمّه مريم فخرّوا وسجدوا له وقدموا هداياهم ورجعوا منصرفين على غير طريق الملك. وبعد ما انصرفوا إذا ملاك الرّبّ قد ظهرها ليوسف خطيب مريم في حلم وأمّره أن يهرب بالصبي إلى مكان بعيد لا يعرفونه ، خوفاً على الصبي من السلطان. فلمّا مات الملك ألهم يوسف بأن يرجع مع الصبي إلى أرض إسرائيل. وقد كان «أرخيلاوس» ملك اليهود ، فخاف يوسف وعرج على نواحي الجليل وسكن في مدينة يقال لها ناصرة. ^(١)

وفي إنجيل برنابا نفس العبارة مع شيء من التوضيح :

«ولما مات هيروديس ظهر ملاك الرّبّ في حلم ليوسف قائلاً : عد إلى اليهوديّة ، لأنّه قد مات الذين كانوا يريدون قتل الصّبي. فأخذ يوسف الطفل ومريم . وكان الطفل بالغاً سبع سنين من العمر . وجاء إلى اليهوديّة ، حيث سمع أنّ أرخيلائوس بن هيروديس صار حاكماً فيها. فذهب إلى الجليل لأنّه خاف البقاء في اليهودية (أورشليم) فذهبوا ليسكنوا في الناصرة.

وهكذا يبدو من ظاهر تعبير القرآن : قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً. فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً. فَأَرْسَلْنَا

إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيّاً﴾ ...

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ...﴾

(١) إنجيل متى ، إصحاح ١ و ٢ .

﴿فَحَمَلْنَاهُ فَاِنتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا. فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا. فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهَئِذَا إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَفَرِّجِي عَيْنًا. فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا. فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ. قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا...﴾^(١)
﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ. قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا. قَالَ إِنَّي عَبْدُ اللَّهِ...﴾^(٢)

يبدو من هذه الآيات أنّ مريم اختارت لعبادتها أرضاً غير أهلة بعيدة عن مساكن أهلها لتختلي بعبادة ربّها دون أعين الناظرين. وفي هذا الدور جاءها ملاك الربّ ليبشّرها بالمسيح. ولما حملت به أخذت تبتعد أكثر خوف الفضيحة. وكان هناك (في المكان القصيّ) نخل ومعين ماء ، فوضعت حملها هناك بعيداً عن الناس كافة. وأمرها الملاك أن لا تتكلّم مع أحد يمرّ عليها أو تمرّ عليه بحجّة أنّها صائمة صوم صمت. فكانت مختلية بنفسها وولدها يعيشان في هدوء وفراغة بال. بعيداً عن هرج العائمة. ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً. وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾^(٢).
وكم عاشا هناك في خلأ من الناس؟

يبدو أنّها لم تعش هناك سوى سنتين أو ثلاث ، لأنّها حين رجعت إلى قومها كانت تحمل طفلها ، ولا بدّ أنّ الطفل عند ما يبلغ مثل هذا السنّ قادر على التكلّم ، وليس ذلك بغريب. أمّا قولهم : ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ فلعلّه من جهة أنّهم استغربوا أنّها جاءت بولد وهي غير متزوّجة ، فلا بدّ أنّها هي المجيبة على ذلك ، وليس الطفل . الذي هو نتاج الحمل . بمسئول ولا قادر على حلّ الإشكال. فالطفل غير عارف بسبب هذا الإنتاج ، فلا معنى للسؤال منه!

لكنّهم عند ما واجهوا كلام المسيح في رزانة وتعقّل متين ، عرفوا أنّ ذلك آية من آيات الله ، فلا موضع للاستغراب!

(١) مريم ١٩ : ١٦ - ٣٠.

(٢) المؤمنون ٢٣ : ٥٠.

هذا ولم يتكلّم من أصحاب الأناجيل عن الحمل بالمسيح وولادته شيئا يذكر سوى ما جاء . باختصار وإجمال . في متى (١ ص ١ : ١٨) ولوقا (١ ص ١ : ٢٧ - ٣٢).

عيسى يحاجّ العلماء في سنّ مبكّر

جاء في إنجيل برنابا (١ ص ٢ : ١٥ - ١) : «ولما مات هيروديس ظهر ملاك الربّ في حلم ليوسف قائلا : عد إلى اليهوديّة (أورشليم) لأنّه مات الذين كانوا يريدون موت الصبي. فأخذ يوسف الطفل ومريم . وكان الطفل بالغا سبع سنين من العمر . وجاء إلى اليهوديّة . حيث سمع أنّ أرخيلالوس بن هيروديس كان حاكما في اليهوديّة. فذهب إلى الجليل ، لأنّه خاف أن يبقى في اليهوديّة. فذهبوا ليسكنوا في الناصرة. فنما الصبي في النعمة والحكمة أمام الله والناس.

ولما بلغ يسوع اثنتي عشرة سنة من العمر صعد مع مريم ويوسف إلى أورشليم ، ليسجد هناك حسب شريعة الربّ المكتوبة في كتاب موسى. ولما تمّت صلواته انصرفوا بعد أن فقدوا يسوع ، لأنّهم ظنّوا أنّه عاد إلى الوطن مع أقربائهم ولذلك عادت مريم ويوسف إلى أورشليم ينشدان يسوع بين الأقرباء والجيران.

وفي اليوم الثالث وجدوا الصبي في الهيكل وسط العلماء يحاجّهم في أمر الناموس. وأعجب كلّ أحد بأسئلته وأجوبته ، قائلا : كيف اوتي مثل هذا العلم وهو حدث ولم يتعلّم القراءة؟! فعنّفته مريم قائلة : يا بنيّ ما ذا فعلت بنا ، فقد نشدتك وأبوك ثلاثة أيّام ونحن حزينا. فأجاب يسوع : ألا تعلمين أنّ خدمة الله يجب أن تقدّم على الأب والأمّ. ثمّ نزل يسوع مع أمّه ويوسف إلى الناصرة. وكان مطيعا لهما بتواضع واحترام ...^(١) ولعلّ هذا هو المراد بتكلّمه مع الناس صغيرا وكبيرا (في المهد وكهلا) ... والله العالم.

الكهولة هو تخطّي الثلاثين

قال الراغب : الكهل من وخطه الشيب ،^(٢) أي خالط سواد شعره ، وهو الذي تخطّى الشباب وحانت مشيئته.

(١) قصص الأنبياء للنجار ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧.

(٢) المفردات للراغب الأصبهاني ، مادة «كهل».

والمعروف أنّ المسيح ﷺ أرسل إلى الناس عند ما بلغ ثلاثين سنة ، ورفع إلى السماء بعد ثلاث سنين. ^(١)
 لكن الشباب قبل بلوغ ثلاثين عاما ، وعنده يأتي دور الكهولة حتّى نهاية الأربعين.
 قال الجوهرى . في الصحاح . : الكهل من الرجال الذي جاوز الثلاثين وخطه الشيب . وقال ابن الأثير . في النهاية . : الكهل من الرجال من زاد على ثلاثين سنة إلى أربعين . فما بين الثلاثين والأربعين هي سنّ الكهولة.
 ويبدو من كلام أهل اللغة أنّ الكهولة هي السنّ التي تجتمع فيها القوى ، ويكون المرء في أجمع قواه ما بين سنّ الثلاثين إلى أربعين.
 قال ابن فارس : الكاف والهاء واللام أصل يدلّ على قوّة في الشيء أو اجتماع جبلة . من ذلك الكاهل : ما بين الكتفين ، سمّي بذلك لقوّته . ويقولون للرجل المجتمع إذا خطه الشيب : كهل وامرأة كهلة. ^(٢) قال أبو منصور الثعالبي : يقال للرجل إذا اجتمعت لحيته وبلغ غاية شبابه : مجتمع. ^(٣)

التبشير بمقدم رسول الإسلام محمد ﷺ

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾. ^(٤)
 أنكروا وجود هذه البشارة في بشائر المسيح ﷺ بحجّة خلوّ الأناجيل عنها!!
 لكن البشارة موجودة ، والقوم حرّفوها في التراجم تحريفاً.
 جاء التبشير بمقدم سيّدنا محمد ﷺ في وصايا المسيح ﷺ للحواريّين والذين اتّبعوه بلفظة تدلّ على وصف المبشّر به بأنّه «كثير المحمّدة» المنطبقة مع لفظة «أحمد» وهو أفعّل التفضيل من الحمد.

(١) تفسير آلاء الرحمن للبلاغي ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، ج ٥ ، ص ١٤٤ .

(٣) فقه اللغة وسرّ العربية للثعالبي ، ص ١١١ .

(٤) الصفّ ٦١ : ٦ .

وكانت لغة المسيح التي بشر بها هي العبرانية ، وهي لغة إنجيل يوحنا الذي جاء فيه هذا التبشير ، لكنّها ترجمت إلى اليونانية ، ولم يعرف المترجم ، ولا سبب الترجمة إليها ... وضاع الأصل ، ولم يعد له وجود حتّى الآن.

والتراجم الموجودة حاليّا هي تراجم عن النسخ اليونانية .. والبشارة في اليونانية كانت بلفظة «بيركلوطوس» ومعناها : «الذي له حمد كثير». لكن القوم حرّفوا اللفظة إلى «باراكلي طوس» لتترجم إلى المبشّر أو المسلّي أو المعزّي. ^(١) وجاء تعريبها «فارقليطا» كما هو معروف.

* * *

يقول الأستاذ النجّار : كنت في سنة ١٨٩٣ . ١٨٩٤ ميلادية طالبا بدار العلوم في السنة الاولى ، وكان يجلس بجاني . في درس اللغة العربية . العلامة الكبير الدكتور «كارلونينو» المستشرق التلياني ، وكان يحضر درس اللغة العربية بتوصية من الحكومة الإيطالية . فانعقد أواصر الصحبة المتينة بيني وبينه ، وكان المرحوم «أحمد بك نجيب» يعطي محاضرات في الانفتياتر والعمومي ، وكنا نحضرها ونعطي ملازم من كتابه «الأثر الجليل في قدماء وادى النيل». ففي ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٣١١ خرجنا بعد المحاضرة وسرنا في «درب الجماميز» فقال لي الدكتور «نلليينو» : هذه الليلة ليلة المعراج؟ قلت : نعم. فقال : وبعد ثلاثة أيام عيد السيّدة زينب؟ فقلت : نعم ...

ثم قلت له . وأنا أعلم أنّه حاصل على شهادة الدكتوراة في آداب اليهود اليونانية القديمة . : ما معنى «بيريكلتوس»؟ فأجابني بقوله : إنّ القسس يقولون : إنّ هذه الكلمة معناها «المعزّي». فقلت : إيّ أسأل الدكتور «كارلونينو» الحاصل على الدكتوراة في آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيسا! فقال : إنّ معناها : «الذي له حمد كثير». فقلت :

(١) جاء في إنجيل يوحنا ، إصحاح ١٥ / ٢٦ و ٢٧ : ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحقّ الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معي من الابتداء. وفي إصحاح ، ١٦ / ٧ : لكّي أقول لكم الحقّ ، إنّ خير لكم أن أنطلق ، لأنّه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. وفي النسخة الفارسية جاءت عبارة «تسلّي تسلّي دهنده» : أي المسلّي.

هل ذلك يوافق أفعال التفضيل من حمد؟ فقال : نعم! فقلت : إنّ رسول الله ﷺ من أسمائه «أحمد». فقال : يا أخى أنت تحفظ كثيرا ... وقد ازددت بذلك تثبتا في معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح : ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾. ^(١)

وقال الحجّة البلاغي : الكلمة في الأصل اليوناني «بيركلوطوس» الذي تعريبه «فيرقلوط» بمعنى «كثير المحمّدة» الموافق لاسم «أحمد» و «محمّد». لكنّهم صحّحوه . حسب زعمهم . إلى «بيراكلي طوس» ويعزّون عنه ب «فارقليط» كما عن التراجم المطبوعة بلندن سنة (١٨٢١ و ١٨٣١ و ١٨٤١ م) ومطبوعة وليم بلندن (١٨٥٧ م) على النسخة الرومية المطبوعة سنة (١٦٦٤ م) والترجمة العبرية المطبوعة سنة (١٩٠١ م). لكن أبدله بعض المترجمين إلى لفظة «المعزّي» أو «المسلّي» وشاع ذلك. ^(٢)

* * *

وذكر محمّد بن إسحاق المؤرخ الإسلامي المعروف صاحب السيرة النبوية المتوفّي سنة (١٥١ هـ) نقلا عن إنجيل يوحنا أن كلمة البشارة كانت بالسريانية «المنحمتا» ، وهي بالرومية «البرقليطس» ، ^(٣) يعني : محمّدا ﷺ قال : وقد كان فيما بلغني عمّا كان وضع عيسى بن مريم فيما جاءه من الله في الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله ﷺ ممّا أثبت لهم «يحنس» الحواري ^(٤) لهم حين نسخ لهم الإنجيل عن عهد ^(٥) عيسى بن مريم ﷺ في رسول الله ﷺ أنّه قال : «من أبغضني فقد أبغض الربّ ، ولو لا أنّي صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي ما كانت لهم خطيئة. ولكن من الآن بطروا وظنّوا أنّهم يعزّونني ، ^(٦) وأيضا للربّ. ولكن لا بدّ من أن تتمّ الكلمة التي في الناموس : أنّهم أبغضوني مجّانا ^(٧) أي باطلا. لو

(١) هامش قصص الأنبياء للنجّار ، ص ٣٩٧ . ٣٩٨ ، والآية ٦ من سورة الصفّ.

(٢) راجع : الرحلة المدرسية للبلاغي ، ج ٢ ، ص ٣٣.

(٣) ولعلّه يقصد بالرومية اليونانية ، حيث اتصال العرب باليونان يوم ذاك كان عن طريق الروم الشرقية.

(٤) ولعلّه محرّف «يوحنا» ، حيث البشارة بذلك موجودة في إنجيل يوحنا ، إصحاح ١٥ / ٢٦.

(٥) ظاهر العبارة أنّ هذا الإنجيل كتب متأخرا عن عهد المسيح عليه السلام وهو كذلك ، لأنّ الأساقفة اجتمعوا عند يوحنا سنة ٩٦ وقيل : ٦٥ والتمسوا منه أن يكتب لهم عن المسيح وينادي بإنجيل ممّا لم يكتبه أصحاب الأناجيل الأخر. (راجع : قصص الأنبياء للنجّار ، ص ٤٠١).

(٦) أي يغلبوني.

(٧) وجاءت عين العبارة في إنجيل يوحنا ، إصحاح ١٥ / ٢٣ . ٢٥ هكذا : «الذي يبغضني يبغض أبي أيضا. لو لم أكن قد .

قد جاء «المنحمنّا» هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الربّ روح القدس ، وهذا الذي من عند الربّ خرج ، فهو شهيد عليّ وأنتم أيضا ، لأنّكم قدما كنتم معي. في هذا قلت لكم لكيما لا تشكّوا. ^(١)

وهذه العبارة الأخيرة أيضا جاءت في إنجيل يوحنا ، هكذا : ومتى جاء «المعرّي» الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الذي من عند الأب ينبثق ، فهو يشهد لي ، وتشهدون أنتم أيضا ، لأنّكم معي في الابتداء. ^(٢)

قال ابن إسحاق : والمنحمنّا بالسريانيّة : محمّد. وهو بالروميّة : البرقليس عليه السلام .

انظر إلى هذه التطابق مع إنجيل يوحنا قبل اثني عشر قرنا ، وكيف حصل التحريف في لفظه إلى «المعرّي» وغيره.

قصة الصّلب

جاءت قصة صلب المسيح عليه السلام والأسباب التي دعت إلى صلبه في الأناجيل مختلفة أشدّ الاختلاف ، فلا تكاد جزئية من الجزئيات في أحدها تتحد مع الجزئية نفسها في إنجيل آخر.

ولما كانت هذه الأناجيل من تأليف أناس يدّعي المسيحيّون لهم الإلهام ويعتقدون خلوّها من الخطأ كان ينبغي أن تكون كتابهم في مثل هذه الحادثة المهمة . التي هي مناط النجاة ودعائه الإيمان في نظرهم . متطابقة متوافقة ، بحيث لا يكون فيها اختلاف أصلا ، إذ النفس لا تطمئنّ إلى الأخذ بروايات جاءت بشأن قضية واحدة ، إذا اختلفت وتضارب بعضها مع البعض . الأمر الذي ينبئ عن عدم أمانة الراوي كلّ الأمانة ، وتزول الثقة بروايته ، فلم يجز التصديق بها في نظر الاعتبار.

. عملت بينهم أعمالا لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطيئة. وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي. لكن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم : إثم أبغضوني بلا سبب ...».

(١) راجع : سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٤٨ ؛ والروض الأنف ، ج ١ ، ص ٢٦٤.

(٢) إصحاح ١٥ / ٢٦ . ٢٧.

وقد فصل الكلام الاستاذ النجار عن هذا الاختلاف الفاحش ، وأبان مواضع التناقض والتهافت بين الأناجيل بشأن قصة الصلب ، قال : لم تختلف الأناجيل الأربعة في مسألة من المسائل كاختلافها في تفصيل مسألة صلب المسيح وقتله. ^(١)

قال : إن أدنى نظر يهدي إلى أنّ عبارات هذه الأناجيل الأربعة متخالفة وشهادتها لا تصلح أن تكون مستندا يثبت به أمر له من الأهمية مثل ما لمسألة صلب المسيح التي يدعيها المسيحيون ويجعلونها أساس إيمانهم :

١ . أنّ «متّى» يقول : إنّ يسوع جاء مع تلاميذه إلى قرية «جثيماني». ووافقه «مرقس». وخالفهما «لوقا» وقال : إلى جبل الزيتون. وقال «يوحنا» : عبر وادي «قدرون».

٢ . وقال «متّى» : ثم أخذ معه «بطرس» وابني «زبدى» وابتدأ يحزن ويكتئب. ووافقه «مرقس». وخالف «لوقا» في ذلك وذكر أنّه انفصل عنهم رمية حجر وصار يصلي. وأسقط «يوحنا» هذه العبارة.

٣ . ذكر «متّى» أنّه قال لمن معه : «نفسى حزينة حتى الموت ، امكثوا هاهنا واسهروا معي» ثم راجعهم فوجدهم نياما وهكذا للمرّة الثانية والثالثة فأنبأهم للمرّة الثالثة أنّ «ابن الإنسان» . يعني نفسه . سلم إلى أيدي خطاة. ثم قال : قوموا نتطلق هو ذا الذي يسلمني قد اقترب. وعبارة «مرقس» توافق عبارة «متّى» في المعنى.

وأما «لوقا» فزاد : أنّ ملكا من السماء نزل إلى المسيح يقويه ، وأنّه كان يصلي بأشدّ لاجحة وصار عرقه كقطرات دم. وأسقط مجيئه إلى التلاميذ للمرّة الثالثة.

وأما «يوحنا» فقد أسقط ذلك كلّ ولم يذكر شيئا منه. وهو أحد الثلاثة الذين انفرد بهم يسوع عن سائر التلاميذ ، وهو دليل على عدم حصول شيء من ذلك.

٤ . قال «متّى» : وفيما هو يتكلّم إذا يهوذا أحد الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخهم وشيوخ الشعب. والذي سلّمه أعطاهم علامة قائلا : هو هو امسكوه. فللوقت تقدّم إلى يسوع وقال : السلام عليك يا سيدي وقبّله ،

(١) راجع : قصص الأنبياء للنجار ، ص ٤٣٣ . ٤٥٢ .

فقال يسوع : يا صاحب لما ذا جئت؟ حينئذ تقدّموا وألقوا الأيدي على يسوع وأمسكوه.

وافق «مرقس» «متّى» في المعنى. وقال «لوقا» : إنّ المسيح قال : يا يهوذا أبقبله تسلم ابن الإنسان؟! بدل قوله «يا صاحب لما ذا جئت». وزاد : إنّ المسيح خرج إليهم وقال : من تطلبون؟ قالوا : يسوع الناصري ، فقال لهم : أنا هو ، فرجعوا إلى الورا وسقطوا على الأرض. ثم أعاد سؤاله وأعادوا الجواب ، ثم قال : فإن كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء يذهبون.

٥ . ذكر «متّى» أنّهم قبضوا على يسوع ، ثمّ إنّ بطرس استلّ سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع اذنه ، حينئذ تركه التلاميذ كلّهم وهربوا. أمّا «مرقس» فلم يذكر هرب التلاميذ. وأمّا «لوقا» فانفرد عن الجميع بأنّ المسيح لمس اذن العبد وأبرأها.

٦ . يقول «متّى» : إنّ الذين أمسكوا يسوع مضوا به إلى «قيافا» رئيس الكهنة. وأمّا «يوحنا» فقال : إنّهم أوثقوه وذهبوا إلى «حنّان» حما «قيافا».

٧ . ذكر «متّى» أنّ رؤساء الكهنة والشيوخ والجمع كلّ كانوا يطلبون شهادة زور على يسوع فلم يجدوا ، ومع أنّه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا. قال الاستاذ النجّار : انظروا إلى هذا الكلام الغلق المتناقض كلّ التناقض ، إذا كانوا طلبوا شهود زور فلم يجدوا فيكف يقول بعد ذلك : «ومع أنّه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا»؟!

٨ . المفهوم صراحة من عبارة «متّى» و «مرقس» أنّ المحاكمة كانت ليلا عقب القبض على المسيح ووصوله إلى دار رئيس الكهنة. ولكن «لوقا» و «يوحنا» جعلوا المحاكمة صباحا.

٩ . قال «يوحنا» : وكانت واقفات عند صلب المسيح أمّه واخت أمّه وكلّم المسيح مع أنّه. وقد انفرد «يوحنا» يذكر هذه العبارة. وأمّا «لوقا» فلم يذكر قرب أحد من معارفه إليه ولم يشر إليهم بكلمة ولم يذكر «مرقس» أحدا من معارفه نظر حادثة الصلب من قريب.

١٠ . ذكر «متى» أنّ حجاب الهيكل قد انشقّ إلى نصفين اثنين من فوق إلى أسفل حين أسلم المسيح الروح ، والأرض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتّحت ، وقام كثير من أجساد القديسين الأموات. وأمّا «مرقس» فقد أهمل هذا القول كلّه ولم يذكر منه شيئاً. وقال «لوقا» : واطلمت الشمس وانشقّ حجاب الهيكل ، ولم يذكر زلزلة الأرض ولا غير ذلك ممّا ذكره «متى».

وعدّد الاستاذ النجّار أكثر من ثلاثين موضعاً خالفت فيها الأناجيل ، وعقبها بقوله : أراني قد مللت جدّاً من إيراد الأقوال المتخالفة بهذا الشأن ، وأظنّ أن القارئ قد سئم كما سئمت ، ولو ذهبت في هذا الشوط أعدّد هذا التضادّ بين الأناجيل لأضعت وقتاً ثميناً.

قال : وبعد ذلك فهل يظنّ ظانّ أنّ محمداً ﷺ هو الذي ابتدع مسألة نفي صلب المسيح؟^(١) وإذا نظرنا إلى مسألة صلب المسيح وقتله لم نجد لها عند المسيحيّين إجماعية ، بل وجد من طوائف المسيحيّين من ينفي الصلب والقتل. منهم : «الساطرينوسيون» و «الكاربوكراتيون» و «المركيون» و «البارديسيانيون» و «التاتيانسيون» و «البارسكالينيون» و «البوليسيون» ... وهؤلاء مع كثيرين غيرهم لم يسلّموا بوجه من الوجوه : أنّ المسيح سمّر فعلاً ومات على الصليب.

وما ذكرنا هنا مقررّ في تاريخهم الذي يدرّس في مدارس اللاهوت الإنجيليّة باسم «موسى هيم». وهناك شهادات من علماء النصرانية تفيد المطلع بصيرة :

١ . قال المسيو «ارادوارسيوس» الشهير . أحد أعضاء «الانستودي فرانسى» في باريس والمشهور بمعارضة المسلمين . في كتابه «عقيدة المسلمين في بعض مسائل النصرانية ، ص ٤٩» : إنّ القرآن ينفي قتل عيسى وصلبه ، ويقول بأنّه شبهه على غيره فغلط اليهود فيه وظنّوا أنّهم قتلوه. قال : وما قاله القرآن موجود عند طوائف من المسيحيّين ، منهم «الباسيليديون» كانوا يعتقدون أنّ عيسى وهو ذاهب لحلّ الصلب ألقى الشبه على

(١) بل لم يكن له غاية من هذا النفي ، ولعلّ إثباته أنفع له ، حيث اليهود الّذين واجههم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حقّ. فكانت حادثة صلب المسيح على أيديهم ادّلىّ على هذا المدّعى ، الأمر الذي يدلّ على أنّ محمداً ﷺ كان على وضع بيان الحقيقة لا غير.

«سيمون» السيرناي تماما ثم أخفى نفسه. ومنهم : «السرنتيون» فإنّهم قرّروا أنّ أحد الحواريين صلب بدل المسيح. وقد عثر على فصل من كلام الحواريين ، وإذا كلامه كلام «الباسيليديين» قد صرّح إنجيل القدّيس «برنابا» باسم الذي صلب بدل عيسى أنّه «يهوذا».

٢ . وقال «الهرارنست دي بونس» الألماني في كتابه «الإسلام أي النصرانية الحقّة» في ص ١٤٣ ما معناه : إنّ جميع ما يختصّ بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات «بولس» ومن شاخه من الذين لم يروا المسيح ، وليس من اصول النصرانية الأصيلة.

٣ . قال «ملمن» في الجزء الأول من كتابه «تاريخ الديانة النصرانية» : إنّ تنفيذ الحكم كان في وقت الغلس وإسدال ثوب الظلام ، فيستنتج من ذلك إمكان استبدال المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا في سجون القدس منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم ، كما اعتقد بعض الطوائف المسيحية ، وصدّقهم القرآن. ^(١)

* * *

وللشيخ محمد عبده أيضا بحث مذيّل حول مسألة الصلب والفداء ، وأنها عقيدة وثنية ، ورثتها المسيحية من الهنود. ويتعرّض لشبهات أثارها المسيحيّون بشأن إنكار الصلب. وكانت الشبهة الثانية : أنّ قصة الصلب متواترة متّفق عليها بين طوائف النصارى.

لكنّها شبهة إنّما تعبّر على من يجهل تاريخ المسيحية ، أمّا من يطّلع على تاريخهم فالإجابة على هذه الشبهة يسيرة عليه ، حيث هناك فرق منهم أنكروا الصلب ، كفرقة «السيرنسيين» و «التاتيانوسيين» أتباع «تاتيانوس» تلميذ «يوستينوس» الشهير. وقال «فوتيوس» أنّه قرأ كتابا يسمّى «رحلة الرسل» فيه أخبار «بطرس» و «يوحنّا» و «اندراس» و «توما» و «بولس». ومّا قرأه فيه : «أنّ المسيح لم يصلب ، ولكن صلب غيره. وقد ضحك بذلك من صالبيه». وأنّ مجامع المسيحيّين حينذاك قد حرّمت قراءة

(١) راجع : الفارق بين الخالق والمخلوق ، ص ٢٨١ . ٢٨٢ ؛ وقصص الأنبياء للتجّار ، ص ٤٤٧ . ٤٤٩ .

أمثال هذه الكتب التي تخالف الأناجيل الأربعة والرسائل التي اعتمدتها الكنيسة. فجعلوا يحرقون تلك الكتب ويحرقونها ... وقد سلمت بعض تلك الكتب كإنجيل برنابا ، وهو ينكر الصلب. ^(١)

وسنذكر أنّ جماعة اعتقدوا تظاهر المسيح بالموت ، في تواطؤ مع أحد تلاميذه يوسف وساعده الوالي بيلاطس بتحريض من امرأته ، حدّثته أن يمسن الرجل البارّ بسوء. ^(٢)

* * *

إذن ، ليس الأمر كما زعمه النصارى ، أنّ المسيح قد صلب وقتل يقيناً ، بل الأمر كان مشكوكاً لديهم ، منذ بداية الأمر وإن اتفقوا بعد ذلك على عقيدة الصلب والفداء ، وهي بدعة ورثوها من عبدة الأوثان.

ومن ثمّ ، فالحقّ ما صرّح به القرآن الكريم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. ^(٣) قال تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. ^(٤)

مسألة التوفي

قد عرفت تصريح القرآن الكريم بأنّ الأمر قد شُبِّهَ لهم ، وما قتلوه وما صلبوه ، بل رفعه الله إليه. وكان القوم من أوّل أمرهم على شكّ من ذلك ، وكان هناك أقوام أنكروا وقوع القتل على شخص المسيح ، وكان اختلاف الأناجيل الأربعة في سرد القضية تأييداً لهذا الشكّ والترديد.

(١) تفسير المنار ، ج ٦ ، ص ٣٤ - ٣٥.

(٢) قصص الأنبياء للنجّار ، ص ٤٢٩.

(٣) فصلت ٤١ : ٤٢.

(٤) النساء ٤ : ١٥٧ - ١٥٨.

غير أنّ هنا سؤالاً : هل المسيح رفع بروحه وجسده إلى السماء وهو حيّ يرزق حتى يرجع إلى الأرض في آخر الزمان كما في كثير من روايات إسلامية؟ أم رفع بروحه دون جسده وأنّ الله توفّاه أي أماته وقبض روحه؟

يقول البعض من علماء الغرب : ليس في القرآن نصّ على بقاء المسيح حيّاً يرزق في السماء ، بل التصريح بموته ، وأنّ الله توفّاه : ^(١)

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ خُذْ هَذَا الصَّلَافَ وَارْفَعْكَ إِلَى مِثْرَةِ الْعَرْشِ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾. ^(٢)

وهذا يدلّ على أنّه تعالى أماته ثم رفع بروحه إلى السماء ...

وهكذا قوله : ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾. ^(٣)

ولكنّ التوفية : أخذ الشيء أخذا مستوفى ، أي بكماله وتماحه ، ومنه : وفاء الدين. وليس دليلاً على الموت صرفاً. ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا

وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ، ^(٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾. ^(٥)

على أنّ الأناجيل متّفقة على أنّ المسيح ﷺ قام من القبر وذهب إلى حيث لم يره أحد غير تلاميذه ، وافتقدوا جسده فلم يجدوه. فلعلّه لم يموت حين الصلب وإنّما ذهب وعيه ، ثمّ رجع إليه بعد وضعه في القبر. حيث لم يهالوا عليه التراب . حسبما نصّت عليه الأناجيل . وإنّما وضع على القبر حجر فوجدوا الحجر مدحرجاً عن القبر .

وجاء في إنجيل «متّى» : إنّ ملاك الربّ نزل من السماء وجاء ودحرج الحجر عن الباب ، وقال للمرأتين اللتين جاءتا لتنظرا القبر : لا تخافا ، إنّّي أعلم أنّكما تطلبان يسوع المصلوب. ليس هو هاهنا. لأنّه قام كما قال. هلّمّا انظرا الموضع الذي كان الربّ مضطجعاً فيه. واذهبا سريعا وقولا لتلاميذه : إنّّه قام من الأموات. ها هو يسبقكم إلى الجليل. هناك ترونه.

فخرجتا سريعا من القبر بخوف وفرح عظيم راكضتين لتخبرا تلاميذه. فيما هما

(١) عيسى والقرآن ، ص ٢٠٧ ، ترجمة وتحقيق الاستاذ محسن بينا.

(٢) آل عمران ٣ : ٥٥.

(٣) المائدة ٥ : ١١٧.

(٤) الزمر ٣٩ : ٤٢.

(٥) الأنعام ٦ : ٦٠.

منطلقتان إذا يسوع قال لهما : سلام لكما. فتقدّمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له ، فقال لهما يسوع : لا تخافا ، اذهبا قولاً لإخوتي أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يرونني. وأمّا التلاميذ فانطلقوا إلى الجليل حيث أمرهم يسوع. ولما رأوه سجدوا له ولكن بعضهم شكّوا. فتقدّم يسوع وكلّمهم قائلاً : دفع إليّ كلّ سلطان في السماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتلمّذوا جميع الأمم. وعلمّوهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به ، وها أنا معكم كلّ الأيام إلى انقضاء الدهر ، آمين. ^(١)

وفي إنجيل لوقا : إنّ ^(٢) دخلن القبر ولم يجدن جسد يسوع. وفيما هنّ متحيّرات إذ وقف بهنّ رجلان بثياب بَرّاقة ، وقالاً لهنّ : لما ذا تطلبنّ الحيّ بين الأموات ، وإنّه في الجليل.

وإنّ التلاميذ لما وجدوا المسيح نفسه في وسطهم هناك وقال لهم سلام لكم فجزعوا وخافوا وظنّوا أنّهم نظروا روحاً ، فقال لهم : ما بالكم مضطربين؟ انظروا يديّ ورجليّ إنّّي أنا هو ، جسّوني فإنّ الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي. فطلب منهم طعاماً ، فناولوه جزءاً من سمك مشويّ وشيئاً من شهد عسل ، فأخذ وأكل قدّامهم ، ثمّ أوصاهم بوصايا ، ثمّ رفع يديه إلى السماء وباركهم ، وفيما هو يباركهم انفرد عنهم واصعد إلى السماء. ^(٣) وقريب من ذلك جاء في إنجيل يوحنا. ^(٤)

وفي إنجيل «مرقس» : ثمّ إنّ الربّ بعد ما كلّمهم ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله ... ^(٥) ومن هنا يعتقد البعض أنّ قوله تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ^(٦) بمعنى أنّ صلبه لم يؤدّ إلى قتله ، ولكن شبّه لهم أنّه قتل على خشبة الصليب ، ولم يكونوا على يقين من أنّه مات حقيقة وذلك معنى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾. ^(٧)

(١) إنجيل متى ، إصحاح ٢٨ / ١ - ٢٠.

(٢) ذكر مرقس ولوقا : أنّ ثلاث من النساء ذهبن ليفتّشن عن القبر .

(٣) إنجيل لوقا ، إصحاح ٢٤ / ١ - ٥٣.

(٤) إنجيل يوحنا ، إصحاح ٢٠ و ٢١.

(٥) إنجيل مرقس ، إصحاح ١٦ / ١٩.

(٦) النساء ٤ : ١٥٧.

(٧) النساء ٤ : ١٥٧.

وذلك أنّ «بيلاطس» كان يعتقد براءة المسيح من كلّ ما يرميه به اليهود. كما أنّ امرأته أيضا كانت عاطفة على يسوع ، مهتمة بأمره ، حريصة على أنّه لا يمسّ بسوء ، وقد أوصت زوجها بذلك ...

ففي إنجيل متى : وإذ كان جالسا على كرسيّ الولاية ، أرسلت إليه امرأته قائلة : إياك وذلك البارّ ، لأنّي اليوم تألّمت كثيرا في حلم من أجله. ^(١) ومن ثمّ نرى أنّ المسيح لم يمكث على خشبة الصليب طويلا ، ولم تكسر رجلاه كما كسرت رجلا المصلوبين الآخرين. بل جاء يوسف . وهو أحد تلاميذ المسيح . وتسلمّ الجسد ، وتعجبوا من موته سريعا ، فلّقه في كفن ووضعه في قبر له كان هناك.

ولا سبب لذلك إلّا العناية الخاصّة التي كانت تحوط المسيح من ناحية الوالي بيلاطس وزوجته ويوسف ونيقوديموس ...
فلهذه الاعتبارات جعلوا يقولون : إنّ المسيح تظاهر بالموت وحسبه الناس ميّتا ، ولم يكن قد مات. والذي تولّى إنزاله رجل من تلاميذه في الحقيقة ، وكان ذلك التظاهر بإيحاء منه وساعده الوالي على ذلك بأن سلّم له في إنزاله عن الخشبة ، واليهود في غفلة عمّا بينه وبين المسيح من العلاقة. ولّقه في كفن ووضعه في القبر وأجاف على الباب حجرا. ^(٢)

* * *

هذا ، ولم يصحّ القرآن بنوعية الشبهة. وقصّة إلقاء الشبه على «يهوذا الأسخريوطي». جاءت في إنجيل برنابا وبعض المصادر النصرانية. ^(٣) ولعلّه الأصل في شيوع ذلك بين مفسّري العامّة ، وعمدّهم : وهب بن منبّه ^(٤) الذي اشتهر بكثرة النقل عن أهل الكتاب ولا سيّما نصارى نجران ^(٥) ولم يؤثر عن أئمة أهل البيت عليه السلام شيء من ذلك في تفاسيرنا القديمة المعتمدة ^(٦) سوى ما جاء في التفسير المنسوب إلى عليّ بن إبراهيم

(١) إنجيل متى ، إصحاح ٢٧ / ١٩ .

(٢) راجع : قصص الأنبياء للنّجار ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٣) المصدر : ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٤) راجع : جامع البيان ، ج ٦ ، ص ١٠ - ١٢ ؛ ومجمع البيان ، ج ٣ ، ص ١٣٦ .

(٥) راجع : الإسرائيليات والموضوعات لأبي شعبة ، ص ١٠٥ ؛ ومعجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٦٧ .

(٦) راجع : تفسير العياشي ، ج ١ ، ص ١٧٥ و ٢٨٣ ؛ وتفسير التبيان ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ و ج ٣ ، ص ٣٨٣ ؛ ومجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٤٤٩ و ج ٣ ، ص ١٣٥ ؛ وتفسير أبو الفتح الرازي ، ج ٣ ، ص ٥٥ و ج ٤ ، ص ٦١ .

القمي^(١) ولم يثبت انتساب هذا التفسير إلى عليّ بن إبراهيم ، وإنما هو من صنع أحد تلامذته المجهولين. ^(٢) ومن ثمّ لا يعتمد بما تفرّد به هذا التفسير ما لم يدعمه شواهد توجب الاطمئنان.

والمهمّ : أنّ الأناجيل وإن ذكرت قصّة الصلب لكن ليس فيها تصريح بموت المسيح بذلك. وقد عرفت عبارة «لوقا» : «لما ذا تطلبنّ الحيّ بين الأموات» ^(٣) الأمر الذي يلتزم واشتباه اليهود في زعمهم أنّهم قتلوا المسيح بالصلب.

والقرآن مصرّح بأنّ الأمر قد اشتبه عليهم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ... وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾^(٤).

وأيضاً فإنّ الأناجيل متّفقة على أنّ المسيح رفع بجسمه وروحه ، وهذا هو ظاهر تعبير القرآن الكريم أيضاً : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ...﴾.

ومن ثمّ لم يعهد للمسيح عليه السلام قبر ، لا عند المسيحيّين ولا عند غيرهم.

نعم زعم «غلام أحمد القادياني» أنّ المسيح أنجاه الله من كيد اليهود ، فذهب إلى بلاد الهند ، واستقرّ في بلاد كشمير . شمال الهند . بسفح الجبل (جبال هماليا) وأقام هناك.

إلى أن وافاه أجله ، ودفن في تلك البلاد قرب بلدة «سرنجار» وقبره معروف هناك.

قال الاستاذ النجّار : كنت مسافراً في رحلة إلى «اسطنبول» في سنة ١٩٢٤ م وكان في السفينة الاستاذ الشيخ أبو الوفاء الشرقاوي ، فسألته : هل سمع حين كان في «سرنجار» بكشمير عن قبر بقربها يقال له : قبر النبيّ الأمير . حسب تعبير القادياني . يعنى المسيح؟ فقال : نعم ، سمعت بذلك وأنّه في الصحراء.

والقادياني في زعمه هذا حاول إثبات كونه هو المسيح الموعود بمجيئه في آخر الزمان ، ولكن كيف يكون هو المسيح وهو معروف النسب بين قومه؟! فذهب إلى تأويل الأمر على أنّ المسيح مات ولا يمكن أن يعود بشخصه. ولكنّه يعود في شخصية اخرى.

(١) تفسير القمي ، ج ١ ، ص ١٠٣.

(٢) راجع : صيانة القرآن من التحريف ، ص ٢٢٩ ، طبع ١٤١٨.

(٣) إنجيل لوقا ، إصحاح ٢٤ / ٥.

(٤) النساء ٤ : ١٥٧.

فقال : إني أنا هو المسيح. آت بهداه وتعاليمه من بثّ السلام والرحمة والتعاطف والمحبة ... وله كلام طويل في كتبه ومجلّته التي كان يصدرها في حياته ، ولا يزال جماعته في نشاط من التبشير بمسيحيّته ... والدولة الإنكليزية . في وقته . كانت تؤيّدهم ، لأنّهم كانوا يقولون أنّ مسيحهم أبطل الجهاد وكان مغرماً بالكافر المستعمر ويمدح حكمهم في البلاد ويراه نعمة على أهل الهند. ^(١)

بقي الكلام حول قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ ^(٢) إلى م يعود الضمير من قوله «قبل موته»؟ فيه قولان :

أحدهما : أنّه يعود إلى المسيح ، ويكون دليلاً على أنّه عَلَيْهِ السَّلَام لم يمّت . وتضافرت الروايات بأنّه ينزل في آخر الزمان ليكون مؤيّداً للمهديّ المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف ، فهناك يبدو الحقّ وتتجلّى الحقيقة لدى أبناء كلّ من اليهود والنصارى ، أمّا اليهود فيبدو لهم خطأهم في إنكار نبوّته ، وأمّا النصارى ففي زعمهم أنّه إله .

قال عليّ بن إبراهيم القمي : حدّثني أبي عن القاسم بن محمّد عن سليمان بن داود المنقري عن أبي حمزة عن شهر بن حوشب ، قال : قال لي الحجاج : إنّ آية في كتاب الله قد أعيتني! قلت : آية آية هي؟ قال : قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ وإني لأمر باليهودي والنصراني فيضرب عنقه ، ثم أرمقه بعيني فما أراه يحرك شفّتيه حتّى يحمد! فقلت : ليس على ما تأوّلت ، قال : كيف هو؟ قلت : إنّ عيسى ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا ، فلا يبقى أهل ملّة يهودي ولا نصراني إلّا آمن به قبل موته ، ويصلّي خلف المهديّ. قال : ويحك أتّى لك هذا؟ ومن أين جئت به؟ فقلت : حدّثني به محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال : جئت بها والله من عين صافية. ^(٣)

وأخرج ابن المنذر عن شهر بن حوشب مثله ، فقال الحجاج : من أين أخذتها؟ فقلت : من محمّد بن عليّ قال : لقد أخذتها من معدنّها. وفي رواية أخرى : يعني

(١) راجع : قصص الأنبياء للنجار ، ص ٤٢٧ .

(٢) النساء ٤ : ١٥٩ .

(٣) تفسير القمي ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

ابن الحنفية^(١).

وأخرجه كبار المفسرين ، قال الشيخ أبو جعفر الطوسي : ذهب إلى هذا القول ابن عباس وأبو مالك والحسن وقتادة وابن زيد ، واختاره الطبري ، قال : والآية خاصة لمن يكون في ذلك الزمان^(٢) وهو الذي ذكره علي بن إبراهيم في تفسير أصحابنا. وذكر الحديث عن شهر بن حوشب عن محمد بن علي ابن الحنفية. وذكر البلخي مثل ذلك.

قال : وضعف هذا الوجه الزجاج وقال : الذين ييقون إلى زمن نزول عيسى من أهل الكتاب قليل ، والآية تقتضي عموم إيمان أهل الكتاب أجمع.
(٣)

وهكذا الطبرسي في مجمع البيان.^(٤)

وذكر الإمام الرازي حديث شهر بن حوشب ، قال : فاستوى الحجاج جالسا . حين ذكرت له ذلك . وقال : عمّن نقلت هذا؟ فقلت : حدثني به محمد بن علي ابن الحنفية. فأخذ ينكت في الأرض بقضيب ، ثم قال : لقد أخذتها من عين صافية.^(٥)
والقول الثاني : أن يعود الضمير إلى الكتابي ، ومعناه : لا يكون أحد من أهل الكتاب حين يخرج من الدنيا عند الموت إلّا ويؤمن بالمسيح ، وذلك عند زوال التكليف ومعاينة الموت ، حيث الحقيقة تنكشف لدى حضور الموت.

قال الطبرسي : وذهب إليه ابن عباس في رواية أخرى ومجاهد والضحاك وابن سيرين وجوير ، قال : ولو ضربت رقبتك لم تخرج نفسك حتى يؤمن.^(٦)
قال الشيخ محمد عبده : ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي قبل موت ذلك الأحد ، الذي هو نكرة في سياق النفي فيفيد العموم. وحاصل المعنى : أن كلّ أحد من أهل الكتاب عند ما يدركه الموت ينكشف له الحق في أمر عيسى وغيره من أمر الإيمان ، فيؤمن بعيسى إيمانا صحيحا ، فاليهودي يعلم أنّه رسول صادق غير دعي ولا كذاب. والنصراني يعلم أنّه عبد الله ورسوله فلا هو إله ولا ابن الله.

(١) الدر المنثور ، ج ٢ ، ص ٧٣٤.

(٢) راجع : جامع البيان ، ج ٦ ، ص ١٦.

(٣) تفسير التبيان ، ج ٣ ، ص ٣٨٦.

(٤) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ١٣٧.

(٥) التفسير الكبير ، ج ١١ ، ص ١٠٤.

(٦) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ١٣٧.

ورجّح هذا المعنى على المعنى الأوّل باحتياج ذلك إلى تأويل النفي العامّ هنا بتخصيصه بمن يكون منهم حيّا عند نزول عيسى. قال : والمتبادر من الآية هو المعنى الذي اختاره ، وهذا التخصيص لا دليل عليه ، وهو مبنيّ على شيء لا نصّ عليه في القرآن حتّى يكون قرينة له. قال : والأخبار التي وردت فيه لم ترد مفسّرة للآية. أمّا المعنى المختار الذي هو الظاهر المتبادر من النظم البليغ فيؤيّد ما ورد من اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم في الآخرة. قال : ومّا يؤيّد هذه الحقيقة النصّ في سورة يونس على تصريح فرعون بالإيمان حين أدركه الغرق. ^(١)

غير أنّ سياق الآية يرجّح القول الأوّل ، حيث وقع هذا التعبير عقيب ردّ مزعومة اليهود : أنّهم صلبوه وقتلوه ، بل شبّه لهم الأمر وما قتلوه يقينا. فمعناه : أنّه لم يقتل ولم يمت ، وأنّه حيّ يرزق ، وما من أحد من أبناء اليهود والنصارى ليؤمننّ به إيماننا بنبوّته الصادقة قبل أن يموت المسيح ، فالكلام هنا كلام عن موت المسيح ، وأنّه مات بالصلب وقتل أم لا ، فالآية تنكر ذلك ، وتنصّ على أنّه لم يمت ، فكان قوله تعالى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ إشارة الى موت المسيح ﷺ .

لسيّدنا العلامة الطباطبائي رحمه الله هنا نظرة دقيقة في دلالة سياق الآية على عود الضمير في ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ إلى المسيح ﷺ وذلك حيث قوله تعالى . عقيب ذلك . : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾. فإنّه يدلّ على أنّه ﷺ يشهد يوم القيامة بشأن من آمن به في حياته قبل موته. أمّا فترة التوفيّ ورفعته إلى السماء فكان الشاهد عليهم هو الله سبحانه ، كما جاءت في سورة المائدة : ١١٧ . ^(٢)

وأما مسألة تخصيص العموم فليس من التخصيص حقيقة ، وإنّما هو من باب التسامح والتوسعة في التعبير ، فخوطف الآباء بما يفعله الأبناء ، كما عوتب الأبناء بما فعله الآباء في كثير من مواضع القرآن.

(١) تفسير المنار ، ج ٦ ، ص ٢١٠ - ٢٢٠ .

(٢) راجع : تفسير الميزان ، ج ٥ ، ص ١٤٢ .

الباب الثاني

القرآن وثقافات عصره!

هل تأثر القرآن بثقافات كانت ساطية على البيئة العربية آنذاك؟

القرآن جاء ليؤثر ويظهر على الأعراف كلّها

لا ليتأثر ويخضع لرغبات الطواغيت!

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾

التأثر بالبيئة!

هل تأثر القرآن بثقافات عصره؟

جاء القرآن ليؤثر ويكافح عادات جاهلية بائدة لا ليتأثر ويخضع لأعراف كانت جافية إلى حدّ بعيد. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(١) ومن أمعن النظر في تعاليم القرآن الرشيدة . يجدها بحق نابية عن التشابه لأعراف كانت نائية فكيف بالتأثر بها.

ولكن هناك من زعم أنّ في القرآن كثيرا من تعابير توائم أعراف العرب يوم ذاك ممّا ينبو عنها أعراف متحضّرة اليوم. وأخذوا من وصف نعيم الآخرة والخور والقصور ممّا يلتئم وعيشة العرب القاحلة حينذاك ، شاهدا على ذلك. وكذا الإشارة إلى أمور خرافة كانت تعتنقها العرب ولا واقع لها اليوم دليل آخر. والعمدة أنّ التكلّم بلسان قوم ليستدعي الاعتراف بما تحمله الكلمات من معاني عندهم لاحظوها عند الوضع فلا بدّ أنّها ملحوظة أيضا لدى الاستعمال.

هكذا زعم القوم ولكّنه وهم توهموه محضا ، وإليك التفصيل.

ولنمهد قبل ذلك مقدّمات تنفعنا في صميم البحث :

(١) تكرر هذا المقطع من الآية في القرآن ثلاث مرّات (التوبة ٩ : ٣٣ ؛ الفتح ٤٨ : ٢٨ ؛ الصفّ ٦١ : ٩) دليلا على التأكيد البالغ.

١ . مجارة في الاستعمال

هل كان التكلم بلسان قوم يستدعي الاعتراف بما تحمله لغتهم من ثقافات؟ أم كان لا يعدو سوى المجارة معهم في الاستعمال؟
الثاني هو الصحيح الواقع. ذلك أنّ المحاورة لأجل التفاهم في أيّ لغة لا يستدعي سوى العلم بمعاني الكلم الإفرادية والجمالية في الاستعمال الدارج فعلياً لدى القوم ، فكان ينبغي المماشة معهم ومجاراتهم في تبادل المفاهيم حسبما يتعاهدونه الآن ، من غير نظر إلى أصل الوضع والدواعي التي دعت إلى وضع كلّ لفظة لمعنى خاصّ. فإنّ هذه الدواعي كانت ملحوظة لدى الوضع ولا تلحظ حين الاستعمال ، وربما كان مستعملو اللفظة في ذهول عن الأسباب الداعية للأوضاع الخاصة الأولى.

خذ مثلاً لفظة «المجنون» وضعت للمصاب بداء توّثر الأعصاب ، وكان السبب الداعي لهذا الوضع في حينه اعتقاد أنّه أصيب بمسّاس الجنّ ، ومن ثمّ كانوا في العهد القديم يعالجون المصابين بهذا الداء بالرقى والتعاويد لغرض إبعاد الجنّ عنهم فيما زعموا. واليوم أصبحت هذه العقيدة خرافة ، غير أنّ أبناء اللغة لا يزالون يتداولون اللفظة لغرض التفاهم مع بعضهم ، حيث اللفظة أصبحت مجرد علامة للدلالة على هذا المعنى بمفهومه الجديد لا الخرافة البائدة ، وإن كانت هي السبب للوضع في وقته ، غير أنّه غير ملحوظ بل مرفوض في الاستعمال حالياً.

والصحراء القاحلة سمّيت «مفازة» تفاعلاً ، وتتداول التسمية من غير أن تلحظ فيها ذاك التفاعل الملحوظ عند الوضع. أو من سمّى ابنه جميلاً لما يرى عليه مسحة جمال ، وغيره ممّن يستعمل اللفظة إنّما يستعملها لأنّها علم عليه ، رغم عدم لحاظ جمال فيه أو كان يرى العكس. ذلك لأنّ التسمية تحقّقت وأصبح الاسم علماً له من غير أن يحمل مفهومه الملحوظ عند التسمية.

وعليه ، فالاستعمالات الدارجة تابعة لمدايل الألفاظ كعلائم على المعاني محضاً ، ولا تلحظ الدواعي والمناسبة الأولى التي لاحظها الواضع حين الوضع.

فلنفرض أنّ لفظة «الخلق» إنّما وضعت للصفات والملكات النفسية لما كانت جاهليّة العرب تعتقد أنّ للصفات النفسية منشأ في الخليقة الاولى ، والإنسان مجبول عليها ومسيّر في حياته وفق ما فطر عليه. تلك عقيدة جاهلية بادت ولكّن التسمية دامت. والمستعملون اليوم لا يريدون هذا المعنى قطعياً. وهكذا فيما جاء استعماله في القرآن ، فإنّما مجارة في الاستعمال وليس اعترافاً بما تحمله اللفظة من مفهومها الأوّل البائد.

٢ . خطاب القرآن عامّ

القرآن وإن كان واجه العرب في وقته لكنّه خاطب الناس عامّة عبر الأجيال. فقد واجه العرب وخاطبهم بلسانهم وعلى أساليب كلامهم المعهودة لديهم وذلك لغرض التفاهم معهم حينذاك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾. ^(١) لكن هذا لا يعني الاختصاص بعد أن كانت الرسالة عامّة والخطابات شاملة.

جاءت في القرآن تعابير قد يبدو من ظاهرها الاختصاص لكن في طيّها مفاهيم عامّة تشمل جميع الناس في جميع الأزمان. الأمر الذي جعل من القرآن دستورا عامّا لكافة الامم وفي كلّ الأدوار. وكذا الأمثال والحكم الواردة في القرآن لا تتركّز على ذهنيّات العرب خاصّة وإنّما على ذهنيّات يتعاهدها جميع الامم عبر الأيّام ، حتّى في مثل «الإبل» جعلت عبرة لا للعرب خاصّة وإنّما هي للعموم بعد أن كانت منبّهة على وجه الأرض يعرف عجائبها كلّ الناس.

وهكذا جاءت أوصاف نعيم الآخرة وشديد عقوباتها على معايير يتعاهدها الجميع وليس عند العرب خاصّة ، حسبما نبّين.

قال رسول الله ﷺ : «ما من آية في القرآن إلّا ولها ظهر وبطن». سئل الإمام الباقر عليه السلام عن ذلك ، فقال : ظهره تنزيله وبطنه تأويله. ^(٢) وعنى

بالتنزيل : ظاهر الآية حيث

(١) إبراهيم ١٤ : ٤ .

(٢) تفسير العيّاشي ، ج ١ ، ص ١١ .

نزلت بشأن خاصّ. وبالتأويل : المفهوم العامّ المنتزع من الآية وهو شامل يجاري الأيام والليالي أبداً. وأضاف **عليه السلام** : أنّ العبرة بهذا المفهوم العامّ الذي ضمن خلود القرآن ، وإلاّ فلو كانت العبرة بظاهر التعبير الخاصّ إذن لكان القرآن قيد التاريخ في حقله القصير وذهب بهلاك تلکم الأقوام! وسنفصل الكلام عن ذلك في مجالات متناسبة.

٣ . حقيقة لا تخيل

ما يأتي به القرآن من عبر وضرب الأمثال فإنّها جميعاً حكاية عن أمر واقع ، إمّا حقيقة ثابتة في الأعيان ، أو تصوير لحالة راسخة في القلوب. وهكذا فيما أخبر عن عالم وراء عالم الشهود ، ليست تصوّرات وهميّة وإنّما هي حقائق راهنة في أصقاعها المتناسبة. فعبر التاريخ يتمثّل بها القرآن لها واقعية يأخذها القرآن عبرة ، وإلاّ فلا عبرة بالأوهام! وكذلك الصور التخيلية لحالات وهواجس نفسية يضرب بها الأمثال لها واقع مرّ صوّرها القرآن وألبسها ثوب الحياة في أبدع تصوير. أمّا الحكاية عن مغيّبات ما وراء الستار فهي حقائق ثابتة مثّلها القرآن في قالب الاستعارة والتشبيه ، فيتنبّه النابه لوجه الاستعارة والتشبيه ولا مجال للإنكار بعد عدم الدليل على الامتناع. فهؤلاء ملائكة الرحمن لها أجنحة مثنى وثلاث ورباع. ^(١) ذكرها القرآن تعبيرا عن مختلف مدارج القوى والطاقات تملكها ملائكة السماء المدبّرات أمرا حسب وظائفها في التدبير المخوّل إليها. والتعبير عن القدر والقوى بالأجنحة شائع وليس المراد أجنحة كأجنحة الطيور. وهكذا في سائر الموارد عمد القرآن إلى التشبيه والتمثيل حكاية عن أمر واقع وليس مجرّد تصوير وتخيل.

(١) وهو قوله تعالى : ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ...﴾ ، فاطر ٣٥ : ١ .

ثقافات جاهليّة كافحها الإسلام

كان المجتمع العربي إبان ظهور الاسلام أهلاً بثقافات هي ضلالات وجهالات ، وكان الفساد والفحشاء قد غطّ البلاد. وكفى شاهداً على ضخامة هذا الظلام ما رسمه القرآن عن منكرات كانت قد عمّت الجزيرة هي من الفضاة بمكان. فجاء الإسلام لينقذهم من الجهالة وحيرة الضلالة وليضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وقد نجح بالفعل في خطوات واسعة ، حيث جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً.

إذن ، جاء القرآن ليتحف البشرية جمعاء والعرب خاصّة بمعلم حضارة زاهية ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾. ^(١) فقد جاء ليؤثّر لا ليتأثّر ، ومن الجفاء زعم العكس فيما حسبه المتشاكسون.

ودليلاً على ذلك نأتي بعبادات ورسوم جاهلية خاطئة عارضها الإسلام وغلب عليها ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾. ^(٢) و ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. ^(٣)

ولنبداً بشئون المرأة وقد سحقت كرامتها الإنسانية في ذلك الجوّ الحالك ، فجاء الإسلام وأخذ بيدها ليرفعها إلى حيث مستواها الكريم.

المرأة وكرامتها في القرآن

للمرأة كرامتها الإنسانية في القرآن ، وقد جعلها الله في مستوى الرجل في الخطوة الإنسانية الرفيعة ، حينما كانت في كلّ الأوساط المتحضّرة والجاهلة مهانة وضيعة القدر ، لا شأن لها في الحياة سوى كونها لعبة الرجل وبلغته في الحياة. فجاء الإسلام وأخذ بيدها وصعد بها إلى حيث مستواها الرفيع الموازي لمستوى الرجل في المجال الإنساني الكريم ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾. ^(٤) ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. ^(٥)

(١) يوسف ١٢ : ٢١.

(٢) الصافات ٣٧ : ١١٦.

(٣) المجادلة ٥٨ : ٢١.

(٤) النساء ٤ : ٣٢.

(٥) البقرة ٢ : ٢٢٨.

القرآن عند ما يتحدث عن الإنسان . وليس في حقيقة الإنسانية ذكورة ولا أنوثة . إنما يتحدث عن الجنس ذكرا وأنثى على سواء . وعند ما يتحدث عن كرامة الإنسان وتفضيله على كثير ممن خلق ^(١) وعن الودائع التي أودعها هذا الإنسان ^(٢) وعن نفخ روحه فيه ^(٣) وعند ما يبارك نفسه في خلقه لهذا الإنسان ^(٤) إنما يتحدث عن الذات الإنسانية الرفيعة المشتركة بين الذكر والأنثى من غير فرق . هو عند ما يقول : ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ^(٥) وعند ما يقول : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ ^(٦) وإلى أمثالها من تعابير لا يفرق بين ذكر وأنثى : ﴿أَيُّ لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ ^(٧) . لا ميز بينهما ولا تفارق فيما يمتاز به الإنسان في أصل وجوده وفي سعيه وفي البلوغ إلى مراتب كماله . ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ^(٨) . وقد جاء قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...﴾ ^(٩) دليلا قاطعا على موازنة الأنثى مع الذكر في أصالة النوع البشري ، ولا تزال هذه الأصالة محتفظا بها عبر تناسل الأجيال .

نعم ، هناك خصائص نفسية وعقلية ميّزت أحدهما عن الآخر في تكوينهما الذاتي ممّا أوجب تفارقا في توزيع الوظائف التي يقوم بها كلّ منهما في حقل الحياة ، توزيعا عادلا يتناسب مع معطيات ومؤهلات كلّ من الذكر والأنثى ، الأمر الذي يؤكّد شمول العدل في التكليف والاختيار . ولننظر في هذه الفوارق الناشئة من مقام حكمته تعالى في الخلق والتدبير .

(١) الإسراء ١٧ : ٧٠ .

(٢) الأحزاب ٣٣ : ٧٢ .

(٣) السجدة ٣٢ : ٩ .

(٤) المؤمنون ٢٣ : ١٤ .

(٥) النجم ٥٣ : ٣٩ .

(٦) الحجرات ٤٩ : ١٣ .

(٧) آل عمران ٣ : ١٩٥ .

(٨) الأحزاب ٣٣ : ٣٥ .

(٩) الحجرات ٤٩ : ١٣ .

وللرجال عليهنّ درجة

هنا وقفة قصيرة عند ما نلاحظ أنّ القرآن فضّل الرجال على النساء بدرجة!

فهل في ذلك حطّ من قدر المرأة؟ أو كمال حظي به الرجل دونها؟

ليس من هذا أو ذاك في شيء ، وإتّما هي مرافقة مع ذات الفطرة التي جبل عليها كلّ من الرجل والمرأة.

إنّ معطيات الرجل النفسية والخلقية تختلف عن معطيات المرأة ، كما تختلف طبيعتها الانوثيّة المرفهة الرقيقة عن طبيعة الرجل الصلبة الشديدة ، كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «المرأة ريحانة وليست بقهرمانة».^(١) فنعمومة طبعها وظرافة خلقها تجعلها سريعة الانفعال تجاه مصطدمات الامور ، على خلاف الرجل في تربّته ومقاومته عند مقابلة الحوادث.

فالمرأة في حقوقها ومزاياها الإنسانية تعادل الرجل **﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾**.^(٢) هذا في أصل خلقتها لتكون للرجل زوجا من نفسه أي نظيره في الجنس ، فيتكافلان ويتعاونان معا في الحياة الزوجية على سواء ، فلها مثل الذي عليها من الحقّ المشترك ، وهذا هو التماثل بالمعروف أي التساوي فيما يعترف به العقل ولا يستنكره.

لكنّ الشطر الذي يتحمّله الرجل في الحياة الزوجية ، هو الشطر الأثقل الأشقّ ، فضلا عن القوامة والحماية التي تنقل عبء الرجل في مزاولة الحياة. الأمر الذي استدعى شيئا من التمايز في نفس الحقوق الزوجية ، ممّا أوجب للرجل امتيازاً بدرجة **﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾**.^(٣)

وهذا التفاضل في الذات والمعطيات هو الذي جعل من موضع الرجل في الاسرة موضع القوامة. **﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾**.^(٤)

(١) نهج البلاغة ، الكتاب رقم ٣١ ، ص ٤٠٥ .

(٢) البقرة ٢ : ٢٢٨ .

(٣) البقرة ٢ : ٢٢٨ .

(٤) النساء ٤ : ٣٤ .

إنّ الأسرة هي المؤسسة الأولى في الحياة الإنسانية ، وهي نقطة البدء التي تؤثر في كلّ مراحل الطريق ، والتي تزاوّل إنشاء وتنشئة العنصر الإنساني ، وهو أكرم عناصر هذا الكون في تصوّر الإسلام. وإذا كانت المؤسسات . التي هي أقلّ شأنًا وأرخص سعرا كمؤسسات المالية والصناعية والتجارية وما إليها . لا توكل أمرها عادة إلّا للأكفاء من المرشّحين لها ممّن تخصّصوا في هذا الفرع علميا ودرّبوا عليه عمليًا فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعية للإدارة والقوامة ، فالأولى أن تتبّع هذه القاعدة في مؤسسة الاسرة التي تنشئ وتنشأ أثمن عناصر الكون ، ذلك هو العنصر الإنساني.

والمنهج الربّاني يراعي هذا ، ويراعي به الفطرة والاستعدادات الموهبة لشطري النفس . العقلاني والجسماني . لأداء الوظائف المنوطة بهما معا ، كما يراعي به العدالة في توزيع الأعباء على شطري الاسرة الواحدة ، والعدالة في اختصاص كلّ منهما بنوع الأعباء المهيّأ لها ، المعان عليها من فطرته واستعداداته المتميّزة المتفرّدة.

والمسلّم به ابتداءً أنّ الرجل والمرأة كلاهما من خلق الله ، وأنّه تعالى لا يريد ظلما بأحد من خلقه ، وهو يهيّئ ويعدّه لوظيفة خاصّة ، ويمنحه الاستعدادات اللازمة لإحسان هذه الوظيفة. وقد خلق الله الناس ذكرا وأنثى زوجين على أساس القاعدة الكلّية في بناء هذا الكون. وجعل من وظائف المرأة أن تحمل وتضع وترضع وتكفل ثمرة الاتّصال بينها وبين الرجل. وهي وظائف ضخمة وخطيرة وليست هيّنة ولا يسيرة ، بحيث يمكن أن تؤدّي بدون إعداد عضويّ ونفسيّ وعقليّ عميق غائر في كيان الانثى. فكان جديرا أن ينوط بالشطر الآخر . الرجل . توفير الحاجات الضرورية ، وتوفير الحماية كذلك للانثى كي تتفرّغ لأداء وظيفتها الخطيرة. ولا يحمل عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل ثم هي التي تعمل وتكدّ وتسهر ليلا وتجهّد نهارا لحماية نفسها وكفالة ولدها في آن واحد! فكان عدلا كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضويّ والعصبيّ والعقليّ والنفسيّ ما يعينه على أداء وظائفه هذه الخطيرة أيضا. وكان هذا فعلا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(١).

(١) الكهف ١٨ : ٤٩ .

ومن ثمّ زوّدت المرأة . فيما زوّدت به من الخصائص . بالرفقة والعطف والحنان ، وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة بغير وعي ولا سابق تفكير ، لأنّ الضرورات الإنسانية العميقة كلّها والملحة أحيانا . حتى في الفرد الواحد . قد لا تترك لأرجحية الوعي والتفكير وبطئه مجالا ، بل فرضت الاستجابة لها غير إرادية ، لتسهل تلبيتها فورا وفيما يشبه أن تكون قسرا ، ولكنه قسر داخلي غير مفروض من خارج النفس ، ويكون لذيذا ومستحبا في معظم الأحيان ، لتكون الاستجابة سريعة من جهة ومريحة من جهة اخرى ، مهما يكن فيها من المشقة والتضحية ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾. (١)

قال سيّد قطب : وهذه الخصائص ليست سطحية ، بل هي غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة. بل يقول كبار العلماء المختصين : إنّها غائرة في تكوين كلّ خلية ، لأنّها عميقة في تكوين الخلية الاولى ، التي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين ، بكلّ خصائصه الأساسية. (٢)

وكذلك زوّد الرجل . فيما زوّد به من الخصائص . بالمقاومة والصلاية ، وببطء الانفعال والاستجابة ، والتروّي واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة ، لأنّ وظائفه كلّها منذ بدء الحياة وممارسة التنازع في البقاء كانت تحتاج إلى قدر من التروّي قبل الإقدام ، وإعمال الفكر والبطء في الاستجابة بوجه عام. (٣) وكلّها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها. وهذه الخصائص تجعله أقدر على القوامه وأفضل في مجالها. كما أنّ تكليفه بالإنفاق . وهو فرع من توزيع الاختصاصات . يجعله بدوره أولى بالقوامه.

وهذان العنصران هما اللذان أبرزهما النصّ القرآني ، وهو يقرّر قوامه الرجال على

(١) النمل ٢٧ : ٨٨ .

(٢) تفسير في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص ٥٨ . ٥٩ ، المجلد الثاني ، ص ٣٥٤ . ٣٥٥ .

(٣) إنّ معدّل سعة الدماغ في الرجال ١٤٨٠ سم مكعب وفي النساء ١٣٠٠ سم مكعب ، ووزن دماغ الرجل ١٣٦٠ غم بينما وزن دماغ المرأة ١٢١٠ غم. إنّ هذا المعدّل يمثّل كافيّة شعوب البشر بصورة عامّة. كتاب الحيوان للدراسة الجامعية ، ص ٣٨٨ .

النساء في المجتمع الإسلامي. قوامه لها أسبابها وعللها من التكوين والاستعداد ، إلى جنب أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات ، الأمر الذي جعل من مرتبة الرجل أعلى من مرتبة المرأة بدرجة!

قال سيد قطب : إنّها مسائل خطيرة ، أخطر من أن تتحكّم فيها أهواء البشر ، وأخطر من أن تترك لهم يخطون فيها خبط عشواء. وحين تركت لهم ولأهوائهم في الجاهليات القديمة والجاهليات الحديثة هدّدت البشرية تهديدا خطيرا في وجودها ذاته ، وفي بقاء الخصائص الإنسانية التي تقوم بها الحياة الإنسانية وتتميّز.

ولعلّ من الدلائل التي تشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكّمها ، ووجود قوانينها المتحكّمة في بني الإنسان ، حتّى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتفكّرون لها ، لعلّ من هذه الدلائل ما أصاب الحياة البشرية من تحبّط وفساد ، ومن تدهور وانحيار ، ومن تهديد بالدمار والوبار ، في كلّ مرّة خولفت فيها هذه القاعدة. فاهتزّت سلطة القوامه في الاسرة ، أو اختلطت معالمها ، أو شدّت عن قاعدتها الفطرية الأصيلة.

ولعلّ من هذه الدلائل توقان نفس المرأة ذاتها إلى قيام هذه القوامه على أصلها الفطري في الاسرة ، وشعورها بالحرمان والنقص والقلق وقلة السعادة ، عند ما تعيش مع رجل لا يزاوّل مهامّ القوامه وتنقصه صفاتها اللازمة ، فيكل إليها هي أمر القوامه! وهي حقيقة ملحوظة تسلّم بها حتى المنحرفات الخابطات في الظلام.

ولعلّ من هذه الدلائل أنّ الأطفال الذين ينشئون في عائلة ليست القوامه فيها للأب ، إمّا لأنّه ضعيف الشخصية بحيث تبرز عليه شخصية الأمّ وتسيطر ، وإمّا لأنّه مفقود لوفاته أو لعدم وجود أب شرعي. فلمّا ينشئون أسوياء وقلّ أن لا ينحرفوا إلى شذوذ ما ، في تكوينهم العصبي والنفسي ، وفي سلوكهم العملي والخلقي.

فهذه كلّها بعض الدلائل التي تشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكّمها ، ووجود قوانينها المتحكّمة في بني الإنسان ، حتّى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكّرون لها. (١)

(١) في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص ٦٠ ، المجلّد الثاني ، ص ٣٥٦.

ونتيجة على ما سبق ، كان تفضيل الرجل على المرأة بدرجة ناظرا إلى جهة قوامته في الأسرة ، وهذه القوامه تعود إلى خصائص في تكوين الرجل ووظيفته التي خوّلها له عرف الحياة الزوجية. فنعود نقرأ الآية : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في تكوينه ﴿وَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ حسب وظيفتهم العائلية.

قال الشيخ محمد عبده : وأما قوله تعالى : ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فهو يوجب على المرأة شيئا وعلى الرجل أشياء. ذلك أنّ هذه الدرجة هي درجة الرئاسة والقيام على المصالح المفسرة بقوله تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وََمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ فالحياة الزوجية حياة اجتماعية ، ولا تقوم مصلحة هذه الحياة إلا برئيس مطاع ، والرجل أحقّ بالرئاسة لأنه أعلم بالمصلحة وأقدر على التنفيذ بقوّته وماله ، ومن ثمّ كان هو المطالب شرعا بحماية المرأة والنفقة عليها. (١)

وقد فسّر العلامة الطباطبائي «المعروف» في الآية (٢) بما عرفه الناس واستأنسوا به وفق فطرهم الأصيلة ، فكان من المعروف أيضا أن يتفاضل الرجل على المرأة بدرجة ، حسب ما منحت الفطرة لكلّ منهما من استعدادات وقوى وصلاحيات ووظائف في حياتهما الاجتماعية ... وشرح ذلك شرحا مستوفى على اصول متينة ، فراجع. (٣)

تفضيل البنين على البنات

قالوا : إنّ في القرآن كثيرا من تعابير جاء فيها التنويه بشأن البنين وتفضيلهم على البنات ، الأمر الذي يدلّ على تأثره بالبيئة العربية الجاهلة ، حيث كانوا يلدون البنات خشية العار. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. (٤)

نرى أنّ القرآن الكريم قد شتّع القوم على فكرتهم هذه الجاهلة ووجّهم في الفرق بين البنين والبنات أشدّ تشنيع وتوبيخ.

(١) تفسير المنار ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ ، وج ٥ ، ص ٦٧.

(٢) في قوله تعالى ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. البقرة ٢ : ٢٢٨.

(٣) تفسير الميزان ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ و ٢٧٣ . ٢٩١.

(٤) النحل ١٦ : ٥٨ و ٥٩.

ولكن مع ذلك قد نجد في القرآن مواضع فيها بعض المرافقة مع القوم؟!

فقد كانت العرب ترى من الملائكة إناثا وأهّ بنات الله سبحانه : ﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ بَلَدَ الْبَنَاتِ وَهُمْ الْبَنُونَ. أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ. أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. (١)

فجاء التشنيع في هذه الآيات من ناحيتين : أولا زعموا من الملائكة إناثا ، وثانيا أهّ بناته تعالى من صلبه وأنه تعالى ولدهن!

وجريا مع عادة العرب في الازدراء بشأن البنات يستنكر عليهم : كيف اصطفى البنات على البنين؟! ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (٢) أي قسمة غير عادلة ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ. وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. أَوْ مِنْ يُنْشَأُ فِي الْحُلِيِّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾. (٣)

وفي هذه الآية جاء الفارق بين الذكر والانثى ناشئا من جبلتهما ، لتكون المرأة بدافع من فطرتها الانوثية تنجذب إلى الزبارج أكثر من اهتمامها بواقعيّات الامور. ومن جانب آخر هي ذات طبيعة رقيقة لا تتقاوم تجاه الكوارث ، فتتفعل فور اصطدامها بمضطلمات الحوادث ، فهي بذات فطرتها ونشأتها. غير صالحة لمقابلة شدائد الحياة وعاجزة عن حلّ متشابك العضلات. فقد جمعت بين الظرافة والضعف ، على عكس الرجل الذي يملك صلابة وقوة إرادة.

ومن ثمّ تعقبت الآية بالاستنكار على مزعومتهم في الملائكة أنّهم إناث : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾. (٤)

وقد عبّر القرآن عن الملائكة بصفة الذكور : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ

(١) الصافات ٣٧ : ١٤٩ . ١٥٥ .

(٢) النجم ٥٣ : ٢١ و ٢٢ .

(٣) الزخرف ٤٣ : ١٦ . ١٨ .

(٤) الزخرف ٤٣ : ١٩ .

هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا... ﴿١﴾ والضمائر كلها جمع ذكور ، وهكذا في سائر مواضع القرآن. (٢)

ومن ثمَّ وجه إليهم التوبيخ اللاذع : ﴿أَفَأَصْنَأَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيِّنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾. (٣)

كلّ ذلك إن دلّ فإنّما يدلّ على ازدراء بشأن الأنثى ، جرى عليه العرب وجاراهم القرآن.

لكن ليس في شيء من هذه التعابير اللاذعة الموجهة للعرب أيّ تعبير أو شائنة بشأن المرأة في ذات نفسها ، لا تصرّحاً ولا تلويحاً. وإنّما توجّه التشنيع على العرب بالذات في نظرتهم الخاطئة بشأن الملائكة ، وأنّهم إناث ، وبنات لله سبحانه ﴿إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِنَّ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾. (٤) وأنّ ولده بنات. (٥) ومن ثمَّ يسمّون الملائكة تسمية الأنثى. (٦) الأمر الذي يدلّ على سفاهة عقولهم وغاية جهلهم بما وراء ستار الغيب. ذلك مبلغهم من العلم وإن هم إلّا يخرصون. والذي يبدو عليه أثر السفاهة أنّهم نسبوا إلى الله ما يكرهونه لأنفسهم ، فجعلوا لأنفسهم المفضّل من الولد ، وأنّما المشتّع فجعلوه لله سبحانه. وهي قسمة غير عادلة حتّى في غياهب أوهام الخيال.

فكان موضع التشنيع هو هذا التقسيم غير العادل حتّى في مفروض الأوهام ، الأمر الذي ليس فيه أيّ تقرير للتفضيل المزعوم أو اعتراف به في واقع الأمر! فلم تكن هناك مجارة ، وإنّما هي منابذة صريحة على اصول الجدل في محاوره الكلام.

* * *

(١) البقرة ٢ : ٣٠ - ٣٤.

(٢) وستكلّم عن مواضع جاء التعبير فيها بالتأنيث في مثل المدبّرات ونحوها.

(٣) الإسراء ١٧ : ٤٠.

(٤) الصافات ٣٧ : ١٥١ و ١٥٢.

(٥) الزخرف ٤٣ : ١٦ - ١٨.

(٦) النجم ٥٣ : ٢٧.

وأما التعبير بجمع المؤنث السالم (بالألف والتاء) في قوله تعالى : ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا. وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا. وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا. فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا. فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾^(١) وكذا قوله :

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ غُرَفًا﴾ إلى قوله : ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾^(٢) وقوله : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٣) بناء على أنَّ المراد هم الملائكة القائمة بهذه الأمور. فتأويل ذلك كله أنَّه باعتبار كون الموصوف هم الجماعات ، لأنَّ القائم بهذه الأمور هم جماعات الملائكة لا الآحاد ، فكما أنَّ الجماعة تجمع على الجماعات ، كذلك الجماعة النازعة تجمع على النازعات ، وهلمَّ جرًا. كما أنَّ الشخصية أيضا تجمع على الشخصيَّات ، وليس كلَّ جمع بالألف والتاء دليلا على تأنيث المفرد كما في جمع القياس على القياسات. وكل اسم مفرد. في المصدر قياسا وفي غيره سماعا. إذا جاوز ثلاثة حروف يجمع بالألف والتاء. كالتعريفات والامتيازات. ومن السماعي نحو السماوات وسرادقات وسجالات وغير ذلك. ومن ثمَّ عاد ضمير الجمع المذكور إلى المعقَّبات ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾. وهو دليل على عدم تحمُّ الجمع بالألف والتاء خاصًا بالإناث. ولأبي مسلم محمد بن بحر الأصفهاني هنا كلام. نقله الفخر الرازي. يرجَّح عدم كون هذه الجموع أوصافا للملائكة ، وإنَّما هي أوصاف للأيدي والسهام والخيول والابل في ساحة القتال ...^(٤).

للمذكر مثل حظَّ الانثيين

مما أثار النقاش حول نظرة الإسلام عن المرأة هي مسألة إرثها نصف إرث الرجل ، وربما كان الجدل عنيفا في أوساط اممية وفي مؤتمرات علمية حول قضية المرأة. ومما توافق عليه ممثلوا الدول الإسلامية مع خصومهم هو أنَّ الإسلام أقرَّ للمرأة ميراثها إجماليًا

(١) النازعات ٧٩ : ٥٠١.

(٢) المرسلات ٧٧ : ٥٠١.

(٣) الرعد ١٣ : ١١.

(٤) تفسير الكبير ، ج ٣١ ، ص ٣١ ؛ وتفسير أبي مسلم ، ص ٣٥١ - ٣٥٢.

تجاه الأنظمة القديمة وبعض الأنظمة القبائلية القائلة بحرماتها من الإرث رأسا واقتنعوا بهذا القدر من التوافق بشأن إرث المرأة ، مع الغضّ . حالّيا . عن المقدار وسائر الجوانب التي يفصلها الإسلام.

لكنّ الإسلام باعتباره شريعة الله الخالدة الجامعة الشاملة قد قال كلمته الأخيرة ولا مجال للمحاباة فيما حكم به الإسلام حكمه الباتّ الصريح الأبدي. ونحن نرى أيّ توافق يستلزم تنازلا ما عن الاسس الإسلامية ، مدهانة وتراجعا أمام هجمات العدوّ الجاهل ، الأمر الذي يبدو على محيّا الوهن والضعف المقيت.

إنّ البيئة التي يرسمها الإسلام للحياة الاجتماعية . سواء في صورتها الصغرى (الأسرة) أو الكبرى العامّة . تجعل من وظائف الرجل أثقل ، وإنّ مسؤوليّته في حمل أعباء الحياة أشمل ، حسبما أوتي من قدرة وتفكير أوسع ، فكان بطبيعة الحال أن يجعل نصيبه من الميراث أكثر.

إنّّه تعالى يرفض أولا تلك العادات الجاهلية التي كانت تحرم النساء عن الميراث ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾^(١). وبذلك أبطل عادة جاهلية كانت متحكّمة في نفوس أبناء الجزيرة ، بل وفي أوساط اممية كانت سائدة في أكثر أرجاء العالم المتحضّر يوم ذاك.

روي عن ابن عباس أنّه لما نزلت الآية ثقلت على نفوس جاهلة ، فجعلوا يتخافتون فيما بينهم أن اسكتوا عن هذا الحديث فلعلّ رسول الله ﷺ ينساه. أو نقول له فيغيّره. فجاء بعضهم إليه وقال : كيف تعطى الجارية من الميراث وهي لم تركب الفرس ولم تقاتل؟ وهم لا يعطونها ولا الأطفال الصغار إلا لمن استطاع الركوب والقتال!^(٢)

وبعد ذلك يأتي دور تعيين نصيبها من الميراث : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(٣). إنّ الله هو الذي يوصي ، وهو الذي يفرض ، فمن عند الله ترد التنظيمات

(١) النساء ٤ : ٧.

(٢) جامع البيان ، ج ٤ ، ص ١٨٥.

(٣) النساء ٤ : ١١.

والشرائع والقوانين ، وعن الله يتلقى الناس في أخصّ شئوهم في الحياة ، وهذا هو الدين . فليس هناك دين للناس إذا لم يتلقوا في شئون حياتهم كلّها من الله وحده ، وليس هناك إسلام إذا هم تلقوا في أيّ أمر من هذه الامور . جلّ أو حقر . من مصدر آخر . إنّما يكون الشرك أو الكفر ، وتكون الجاهليّة التي جاء الإسلام ليقتلع جذورها من حياة الناس . فليس للناس أن يقولوا : إنّما نختار لأنفسنا ولذريّاتنا ونحن أعرف بمصالحنا ... فهذا . فوق أنّه باطل . هو في الوقت ذاته توقّع وتبجّح وتعال على الله ، وادّعاء لا يزعمه إلّا متوقّع جهول .

وعليه ، فليس الأمر في هذا أمر محاباة لجنس على حساب جنس ، إنّما الأمر توازن وعدل بين أعباء الرجل وأعباء المرأة في التكوين العائلي وفي النظام الاجتماعي الإسلامي . فالرجل يتزوّج امرأة يكلف إعالتها وأبنائها منه في كلّ حالة ، وهي معه وهي معافاة من هذه التكاليف . أمّا هي فإنّما أن تقوم بنفسها فقط ، وأمّا أن يقوم بها رجل قبل الزواج وبعده سواء ، وليست مكلفة نفقة لزوج ولا للأبناء في أيّ حال . فالرجل مكلف . على الأقلّ . ضعف أعباء المرأة في التكوين العائلي وفي النظام الاجتماعي الإسلامي . أي النظام الذي رسمه لنا الإسلام . ومن ثمّ يبدو العدل كما يبدو التناسق بين الغنم والغرم في هذا التوزيع الحكيم . فما دامت الحياة التي نعيشها في ظلّ الإسلام مخطّطة وفق هذه الحكمة الرشيدة ، فهذا التوزيع يتطابق مع هذا المخطّط ما دمنا نعتز به ونستسلم لقيادته . ويبدو كلّ نقاش في هذا التوزيع جهالة من ناحية وسوء أدب مع الله من ناحية أخرى ، وزعزعة للنظام الاجتماعي والاسري ، لا تستقيم معها حياة حسب معتقدنا ونحن مسلمون . والتجربة العنيفة التي تجرّعتها سائر الامم ولا تزال هي خير شاهدة على اعتدال هذا النظام وانسجامه مع فطرة الإنسان وتكوينه في الحياة .

محاولات فاشلة

هنا وفي يومنا الحاضر نجابه محاولات يبدو الفشل في محيّاها بعد حيادها عن منهج فهم النصّ على ما رسمته طريقة الاستنباط من كتاب الله . فمن

قائل : إنّ النصّ الوارد

في القرآن الكريم جاء بلفظ التوصية : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ ^(١) ، والإيصاء ترغيب في الأمر وليس فرضا واجبا. ولعلّ الشرائط الزمنية حينذاك كانت تستدعي هذا التفاضل المندوب إليه ولكن في وقتها ، الأمر الذي لا يحتّم الحكم لا بصورة فرض ولا بشكل دائم على الإطلاق!

قالوا : واليوم ، حيث تغيّرت الشرائط وتبدّلت الأحوال البيئية والاجتماعية العامة فلا أرضيّة لهذا التفاضل ولا هو يتناسب مع الأوضاع الراهنة المتغيرة مع الوضع القديم. لا سيّما والأمر لم يكن فرضا بل مجرّد ندب ، فلا مقتضى في الوقت الحاضر للأخذ بهذا الأمر الذي كان راجحا في ظرفه ولا رجحان له اليوم!

وقائل آخر : إنّهُ على فرض إرادة الفريضة لكن التداوم لا مجال له بعد ملاحظة رهن أحكام الشريعة . في قسمها المتغيّر . بأوقاتها وظروفها الخاصّة حيث المصالح المقتضية حينذاك والمتنّفية في الحال الحاضر.

هذا القائل يرى من أحكام الشريعة على نوعين : ثابتة ومتغيّرة. فالثابتة هي التي أصدرها صاحب الشريعة بشكل عامّ شامل أبدي حيث ابتنائها على مصالح هي ثابتة لا تتغيّر مع الأبد وفي جميع الأحوال ومختلف الأوضاع ، وذلك في مثل العبادات. الأمر الذي يختلف الحال فيه في مثل المعاملات والانتظامات ، المتقيّدة بمصالح هي وقتيّة وفي تحوّل على مسرح الحياة. ففي هذا تكون الاصول ثابتة أمّا الفروع والتفاصيل فهي رهن شرائط الزمان ، فيجوز التصرّف فيها حسب مقتضيات المؤاتية ولكن في ضوء تلك الاصول ومع الحفاظ عليها جذريّا فحسب!

قلت : أمّا المزعومة الأولى فهي مخالفة صريحة لنصّ الكتاب العزيز. حيث تبتدئ آيات المواريث بلفظة الإيصاء ، وتنتهي بما يجعل من هذا الإيصاء فرضا من الله لا مجال للتخلّف عنه ﴿وَصِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ. تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ

(١) النساء ٤ : ١١ .

حُدُودُهُ يُدْخِلُهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ^(١).

يعنى : أنّ هذه الوصية من الله نافذة لا مجال للتخلف عنها ، لأنها تبيين لحدود الله التي من تعدّاها فسوف يدخله نارا وله عذاب مهين. والعذاب المهين هنا إشارة إلى أنّ المتجاوز لحريم الشريعة قد أطاح بكرامة نفسه وسقط حيث مستوى المهانة الفظيعة.

أبعد هذا التأكيد على الأخذ بما أوصى الله بشأن الميراث يتجرّأ ذو مسكة على التلاعب بنصّ الكتاب ، اللهمّ إلا إذا فقد وعيه.

ثم الذي يفضح من موضع هذه المزعومة ، أنّ لفظة الإيصاء بتصاريفها كلّها جاءت في القرآن بمعنى الإلزام والإيجاب. ^(٢) قال ابن منظور : وقوله عَزَّوَجَلَّ : **﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾** معناه : يفرض عليكم ، لأنّ الوصية من الله إنّما هي فرض. والدليل على ذلك قوله تعالى : **﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾** ^(٣) وهذا من الفرض المحكم علينا. ^(٤)

وأما المزعومة الأخيرة فهي بمكان الوهن ، بعد أن كان الأصل في التشريع هي الأبدية والشمول ، أخذاً بعموم الخطاب وشمول إطلاقه لجميع الأجيال والأحوال والأزمان ، وهي قاعدة اصولية مطّردة. وإلى ذلك ينظر قوله ﷺ : «حلال محمد حلال أبدا إلى يوم القيامة ، وحرامه حرام أبدا إلى يوم القيامة». ^(٥) اللهمّ إلا إذا ثبت بدليل خاصّ أنّ الحكم الذي أصدره النبي ﷺ كان لمصلحة استدعاها سياسة التدبير الحاضرة حينذاك فيبقى قيد تلك الشرائط ولا يعمّ ولا يستديم على الإطلاق. وهذا بحاجة إلى دليل قاطع يخرججه عن عموم الأصل المتقدّم. على أنّ ذلك خاصّ بالأحكام الصادرة عن مقام السياسة النبوية وتكون من سننه ، لا من فرائض الله الناصّ عليها في الكتاب. فالذي جاء

(١) النساء ٤ : ١٢ - ١٤.

(٢) راجع : البقرة : ١٣٢ ، الشورى : ١٣ ، الأنعام : ١٥١ - ١٥٣ ، النساء : ١٣١ ، الأحقاف : ١٥ ، وغيرها.

(٣) الأنعام ٦ : ١٥١.

(٤) لسان العرب لابن منظور ، ج ١٥ ، ص ٣٩٥.

(٥) راجع : الكافي ، ج ١ ، ص ٥٨ ، رقم ١٩.

في القرآن من الفرائض والأحكام هي من الثابتات مع الأبد بإجماع الأمة وإطباق كلمات العلماء جميعا. فقد اتفقت كلمتهم على أنّ ما جاء في القرآن من تشريع وفرائض وأحكام هي أبدية مسجلة على كاهل الدهر مع الأبد.

وعليه ، فمن كان يحمل في طيّه العقيدة بأنّ القرآن كلام سماويّ نزل من عند الله وأنّ ما فيه ، هي أحكام وفرائض فرضها الله تعالى للبشريّة جمعاء على طول الدهر ، فلا مجال له أن يحدّث نفسه بما شاء. وأمّا إذا لا يعتقد ذلك ويرى أنّها أحكام صادرة من عقلية بشرية أرضية لفقتها . والعياذ بالله . ذهنية محمد ﷺ حسبما رآه في وقته وإن كان نسبها إلى الله في ظاهر تعبيره كما يراه هؤلاء المتحزلقون ، فليتحذّثوا بما شاءوا إلى ما لا نهاية من هراءات. ولا كلام لنا معهم ونذرهم في طغيانهم يعمهون.

دية المرأة على النصف!

واذ قد عرفنا موضع كلّ من الرجل والمرأة في الحياة العائلية وفق ما رسمها الإسلام ، نعرف مبلغ الخسارة التي تتحمّلها العائلة على أثر فقدان عضوها من ذكر أو انثى. إنّها إذا افتقدت أنثى فقد خسرت كافلة العائلة ومربيّتها التي تفيض عليها بالعطف والحنان وفي رفق ومدارة. أمّا إذا افتقدت ذكرا فقد خسرت حاميتها وكافل مئونها ، وخسرت أضعاف ما خسرت عند فقدان انثى.

والدية جبران للخسارة إلى حدّ ممكن ومعقول ، ومن ثمّ تحاسب على قدر ما خسره المجنى عليه عرفيًا ، وقد قدّره الشارع الحكيم بمقادير هو أعلم بتكافئها مع مقادير الخسارة الواردة. فليس هناك تفضيل وإتّما هو تدبير إله حكيم.

والمزعومة في حديث المواريث جرت هنا أيضا وهي كاختها مرفوضة ولا سيّما على وجه التنبيه الأخير.

والغريب . هنا . ما شدّد عن بعض المعاصرين من القول بتساوي دية المرأة مع الرجل إطلاقا ، سواء كان في النفس أو الطرف ، نظرا لإطلاق أدلّة

الدية وعدم دليل معتبر

على التفريق فيما حسب. وهكذا زعم التساوي في القصاص من غير ردّ التفاضل ، ^(١) وهو خلاف إجماع الفقهاء عامتهم وخاصّتهم : قال ابن رشد الأندلسي : واتفقوا على أنّ دية المرأة نصف دية الرجل في النفس. واختلفوا في الشجاج وأعضائها ، فقال جمهور فقهاء المدينة : تساوي المرأة الرجل في عقلها من الشجاج والأعضاء إلى أن تبلغ ثلث الدية ، فإذا بلغت ثلث الدية عادت ديتها إلى النصف من دية الرجل ، أعني دية أعضائها من أعضائه. ومثال ذلك أنّ في كلّ إصبع من أصابعها عشرة من الإبل ، وفي اثنين منها عشرون ، وفي ثلاثة ثلاثون ، وفي أربعة عشرون. وقال بعض الفقهاء : على النصف مطلقا قياسا. وسأل ربيعة بن أبي عبد الرحمن . المعروف بريعة الرأي . سعيد بن المسيّب : كم في أربع من أصابعها؟ قال : عشرون. قال ربيعة : قلت : حين عظم جرحها واشتدّت بليّتها نقص عقلها (أي ديتها)! قال سعيد : أعراقي أنت؟ [حيث تقيس] قلت : بل عالم متنبّت أو جاهل متعلّم ، فقال سعيد : هي السنّة. ^(٢)

رووا عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : أنّ دية المرأة على النصف من دية الرجل.

وروا عن رسول الله صلى الله عليه وآله : المرأة تعاقل الرجل إلى ثلث الدية. ^(٣)

قال عميد الطائفة الشيخ المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان : والمرأة تساوي الرجل في ديات الأعضاء والجوارح حتّى تبلغ ثلث الدية ، فإذا بلغت رجعت إلى النصف من ديات الرجال. مثال ذلك : أنّ في إصبع الرجل إذا قطعت عشرة من الإبل ، وكذلك في إصبع المرأة سواء. وفي الإصبعين منهما عشرون ، وفي ثلاث أصابع منهما ثلاثون ، وفي أربع أصابع الرجل أربعون من الإبل ، وفي المرأة عشرون ، لأنّها زادت على الثلث فرجعت بعد الزيادة إلى أصل دية المرأة. وهي النصف من ديات الرجال . ثمّ على الحساب كلّما زادت أصابعها وجوارحها وأعضاؤها على الثلث رجعت إلى النصف ... قال :

(١) منتخب الأحكام ليوسف الصانعي ، ص ٢٤٩ ، م ٧٩٧.

(٢) بداية المجتهد لابن رشد ، ج ٢ ، ص ٤٦٠.

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري ، ج ٥ ، ص ٣٧١.

وبذلك ثبتت السنّة عن نبيّ الهدى ﷺ وبه تواترت الأخبار عن الأئمة من آلِهِ ﷺ. (١)

وبذلك صرّحت صحيحة أبان عن الصادق عليه السلام وقد أجاب الإمام في دفع استغراب أبان ما أجاب سعيد بن المسيب لربيعه الرأي. قال عليه السلام : يا أبان ، إنك أخذتني بالقياس ، والسنّة إذا قيسست بحق الدين. (٢)

وقال شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي : دية المرأة نصف دية الرجل ، وبه قال جميع الفقهاء. وقال ابن عليّة والأصم . من العامّة . : هما سواء في الدية. قال : دليلنا إجماع الفرقة. وأيضا روي عن النبي ﷺ ذلك. وروى معاذ نحو هذا عن رسول الله ، وهو إجماع الاثمة. وروى ذلك عن علي عليه الصلاة والسلام.

قال : المرأة تعاقب الرجل إلى ثلث ديتها في الأروش المقدّرة ، فإذا بلغت على النصف ... قال : دليلنا إجماع الفرقة وأخبارهم. وفسّر السنّة في كلام سعيد بسنّة النبي ﷺ وإجماع الصحابة والتابعين. (٣)

وقال السيّد العاملي : وإجماعنا محصّل ومحكي في كلام جماعة ، وفي الرياض : أنّ حكايته مستفيضة حدّ الاستفاضة مضافا إلى الصحاح المستفيضة وغيرها من المعتبرة التي كادت تكون متواترة. ولم ينقل الخلاف عن أحد من علماء المسلمين سوى ما عن ابن عليّة والأصمّ على ما حكاه الشيخ. (٤)
أما الروايات عن أئمة أهل البيت عليه السلام فبالغة حدّ التواتر وفيها الصحاح وذوات الاعتبار على حدّ الاستفاضة كما ذكره السيّد الطباطبائي صاحب الرياض.

روى محمد بن يعقوب الكليني بإسناده الصحيح عن الإمام الصادق عليه السلام قال : ودية المرأة نصف دية الرجل. (٥)

وأیضا بإسناده الصحيح عنه عليه السلام في رجل قتل امرأة متعمّدا ، قال : إن شاء أهلها أن

(١) المقنعة للمفيد ، ص ٧٦٤ ؛ ووسائل الشيعة ، ج ٢٩ ، ص ٣٥٣.

(٢) وسائل الشيعة ، ج ٢٩ ، ص ٣٥٢ ، باب ٤٤ من أبواب ديات الأعضاء.

(٣) كتاب الخلاف للطوسي ، ج ٢ ، ص ٣٩٠ . ٣٩١ ، مسألة ٦٣ و ٦٤ .

(٤) مفتاح الكرامة للسيّد العاملي ، ج ١٠ ، ص ٣٦٨ .

(٥) الكافي ، ج ٧ ، ص ٢٩٨ ، رقم ١ ؛ ووسائل الشيعة ، ج ٢٩ ، ص ٢٠٥ ، باب ٥ من أبواب الديات.

يقتلوه ويؤدّوا إلى أهله نصف الدية ، وإن شاءوا أخذوا نصف الدية : خمسة آلاف درهم. ^(١)

وفي الصحيح أيضا : سئل عن رجل قتل المرأة خطأ ، قال : عليه الدية خمسة آلاف درهم. ^(٢)

وروى الشيخ بإسناد صحيح عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام في الرجل يقتل المرأة ، قال : إن شاء أولياؤها قتلوه وغرموا خمسة آلاف درهم لأولياء المقتول ، وإن شاءوا أخذوا خمسة آلاف درهم من القاتل. ^(٣)

وأورد الحرّ العاملي في الباب ٥ من أبواب الديات ^(٤) والباب ٣٣ من أبواب القصاص في النفس ^(٥) أحاديث متظافرة جلّها صحاح في أنّ دية المرأة نصف دية الرجل سواء في الخطأ أو العمد ، وكذلك في ردّ التفاضل إذا كان القاتل رجلا.

وأورد في الباب ٤٤ من أبواب ديات الأعضاء ^(٦) والباب ٣ من أبواب ديات الشجاج والجراحات ^(٧) أنّ المرأة تعاقب الرجل إلى أن تبلغ ثلث الدية فإذا جاوزت الثلث رجعت إلى النصف. حديث متظافر بل متواتر.

وعليه ، فلا مجال للتشكيك في المسألة من الناحية الفقهيّة حسب ضوابط الأصول.

المرأة في مجال الشهادة

قال تعالى : ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾. ^(٨)

كانت شهادة رجل واحد تعادل شهادة امرأتين ، ولما ذا؟
وجاء التعليل في الآية بأنّ إحداها قد تضلّ فيما تحمّلته حين الأداء ، فكانت

(١) الكافي ، ص ٢٩٩ ، رقم ٤.

(٢) المصدر : رقم ٥.

(٣) تهذيب الأحكام للطوسي ، ج ١٠ ، ص ١٨٢ ، رقم ٧١٣.

(٤) وسائل الشيعة ، ج ٢٩ ، ص ٢٠٥ . ٢٠٦ وفيه أربعة أحاديث ، ط آل البيت.

(٥) المصدر : ص ٨٠ . ٨٧ وفيه ٢١ حديثا.

(٦) المصدر : ص ٣٥٢ . ٣٥٣ وفيه ثلاثة أحاديث.

(٧) المصدر : ص ٣٨٣ . ٣٨٤ وفيه حديثان.

(٨) البقرة ٢ : ٢٨٢.

الأخرى هي التي تذكرها ما غاب عنها. فكانت شهادة المرأتين بتذكر إحداها للآخرى ، بمنزلة شهادة رجل واحد. وذلك أنّ المرأة أكثر عرضة للنسيان فيما لا يعود إلى شئون نفسها بالذات ممّا لا يهتمّها في حياتها الانوثية. فرمّا لا تضبط تفاصيل ما تحمّلتها بجميع خصوصيّاته وجزئياته ولا سيّما إذا بعد عهد الأداء عن عهد التحمّل. فكانت كلّ واحدة منهما تذكر الأخرى ما ضلّ عنها ، وبذلك تكمل شهادتهما معا كشهادة واحدة بتلفيق بعضها مع بعض وضمّ بعضها إلى بعض ، بتفاعل الذاكرتين وتعاملهما بعضا إلى بعض. الأمر الذي لا يجوز في شهادة الرجال ، فلو اختلفت الشهادات ولو في بعض الخصوصيات فقدت اعتبارها. ومن ثمّ جاز التفريق في شهادة الشهود لغرض الاستيثاق.

قال الشيخ محمد عبده : إنّ الله تعالى جعل شهادة المرأتين شهادة واحدة ، فإذا تركت إحداها شيئا من الشهادة كأن نسيته أو ضلّ عنها تذكرها الأخرى وتتمّ شهادتهما. وللقاضي بل عليه أن يسأل إحداها بحضور الأخرى ويعتدّ بجزء الشهادة من إحداها وبباقيها من الأخرى. قال : هذا هو الواجب وإن كان القضاة لا يعملون به جهلا منهم. وأمّا الرجال فلا يجوز له أن يعاملهم بذلك ، بل عليه أن يفرّق بينهم ، فإن قصر أحد الشاهدين أو نسي فليس للآخر أن يذكره ، وإذا ترك شيئا تكون الشهادة باطلة ، يعني إذا ترك شيئا ممّا يبيّن الحقّ فكانت شهادته وحده غير كافية لبيانه فإنّه لا يعتدّ بها ولا بشهادة الآخر وإن بيّنت. ^(١)

وقالوا في سبب ذلك : إنّ المرأة ليس من شأنها الاهتمام بالامور المالية ونحوها من المعاولات ، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة ، ولا تكون كذلك في الامور المنزلية التي هي شغلها فإنّها فيها أقوى ذاكرة من الرجل ، يعني أنّ من طبع البشر . ذكرانا وإناثا . أن يقوى تذكرهم للامور التي تهتمّهم ويكثر اشتغالهم بها. ولا ينافي ذلك اشتغال بعض نساء الأجانب في هذا العصر بالأعمال المالية ، فإنّه قليل لا يعوّل عليه. والأحكام العامة إنّما تناط بالأكثر في الأشياء والأصل فيها. ^(٢)

(١) تفسير المنار ، ج ٣ ، ص ١٢٥ .

(٢) المصدر : ص ١٢٤ .

نعم ، المرأة إنّما تهتمّ اهتمامها البالغ بما يعود إلى ذات نفسها وإلى ما يرتبط وشئونها الانوثية وزبارج الحياة ، ولا تعير بشئون خارج حياتها الانوثية الزخرفية ذلك الاهتمام. وتبعا لذلك يكون عمل ذاكرتها . على غرار سائر قواها العقلانية والجسمانية . في هذا الجانب ينمو ويشتدّ ، وبنفس النسبة يأخذ في الضعف والوهن في الجانب الآخر. وفي دراسة عميقة بشأن حالة المرأة النفسية جاءت في آية أخرى : ﴿أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾^(١) . وهو من أدقّ التعابير في معرفة النفس بشأن المرأة : إنّها ترى كمالها في جمالها ، وترى جمالها في زبارج حليّها من ذهب وفضة وأحجار كريمة. ومن ثمّ فهي في مظطلمات الحياة ومصطدماتها تظلّ حائرة وربما تضيق عليها الحال فلا يمكنها الإعراب عمّا في ضميرها أو تتلجلج ويضطرب لها المقال. ولذلك نرى الشريعة قد أفسحت لها المجال واكتفت بشهادتهنّ لوحدتهنّ في امور تخصّ شئون النساء . في مثل الولادة والحمل والحيض وما شابه . ممّا ليس للرجال فيها شأن.

* * *

وهكذا ذكر سيّد قطب في تفسير الآية ، قال : إنّما دعا الرجال لأنّهم هم الذين يزاولون الأعمال عادة في المجتمع المسلم السويّ الذي لا تحتاج المرأة فيه أن تعمل لتعيش ، وتهدر جانب أمومتها وأنوثتها وواجبها في رعاية أئمن الأرصدة الإنسانية . وهي الطفولة الناشئة الممثلة لجيل المستقبل . في مقابل لقيمات أو دربهات تنالها من العمل ، كما تضطرّ إلى ذلك المرأة في المجتمع النكد المنحرف الذي نعيش فيه اليوم!

ولكن لما ذا امرأتان؟ إنّ النصّ لا يدعنا نخدس ، ففي مجال التشريع يكون النصّ محدّدا واضحا معلّلا ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾. والضلال هنا ينشأ من أسباب كثيرة. فقد ينشأ من قلة خبرة المرأة بموضوع التعاقد ، ممّا يجعلها لا تستوعب كلّ دقائقه وملابساته بحيث تؤدي عنه شهادتها دقيقة عند الاقتضاء ، فتذكّرها الأخرى بالتعاون معا على تذكّر ملابسات الموضوع كلّ. وقد ينشأ من طبيعة المرأة الانفعالية ،

(١) الزخرف ٤٣ : ١٨ .

فإنَّها بوظيفتها الاموميَّة شديدة الاستجابة الوجدانية الانفعالية لتلبية مطالب طفلها بسرعة وحيويَّة لا ترجع فيهما إلى تفكير بطيء. وهذه الطبيعة لا تتجزَّأ ، فالمرأة شخصية موحَّدة ، هذا طابعها حين تكون امرأة سوية. بينما الشهادة على التعاقد بحاجة إلى تجرّد كبير من الانفعال ، ووقوف عند الوقائع بلا تأثر ولا إيجاء. ووجود امرأتين فيه ضمانات أن تذكّر إحداها الاخرى. إذا جرفها الانفعال . فتتذكّر وتفي إلى الوقائع المجردة. ^(١) ويعود السرّ في ذلك كلّ ، إلى نقص الضبط فيهنّ ، لأسباب ترجع إلى طبيعتها الانثوية. قال الطبرسي : لأنّ النسيان يغلب على النساء أكثر ممّا يغلب على الرجال. ^(٢) أي في مثل الامور التي لا تمسّ شئونها البيئية وتربية الأولاد.

نكتة أدبيّة في الآية

أما لما ذا تكرّرت لفظة «إحداها»؟ أما كان يكفي أن يقول : ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾؟ لكن نظرا لفحوى الآية كان هذا التعبير غير واف بمفادها ، إذ هذا التعبير إنّما يعني : أنّ إحداها إذا نسيت شيئا ممّا تحمّلته فإنّ الاخرى تذكّرها. وهذا ليس مقصود الآية. بل المقصود : أنّ كليتهما عرضة للخطأ والنسيان ، فتقوم كلّ واحدة منهما بتتّمين أو تكميل ما نقص من شهادة صاحبتها. فهذا التعامل والتفاعل في شهادتهما وتكامل شهادة كلّ منهما بشهادة الاخرى تعدّ شهادة واحدة كاملة في مقابل شهادة الرجل الكاملة بوحدها. ومن ثمّ وجب إعادة «إحداها» . بلفظه لا بضميره . لإفادة هذا المعنى. ^(٣) وذكر الطبرسي وجها آخر نقله عن الوزير الأديب الحسين بن علي المغربي وهو أنّ المعنى : أن تضلّ إحدى الشهادتين عن إحدى المرأتين فتذكّرها بها المرأة الاخرى. فجعل «إحدى» الاولى للشهادة والثانية للمرأة. قال : معناه أن تضلّ إحدى الشهادتين أي

(١) راجع : في ظلال القرآن لسيد قطب ، المجلد الأوّل ، ص ٩٣ مع اختزال يسير.

(٢) راجع : مجمع البيان ، ج ١ ، ص ٣٩٨ ؛ وتفسير القاسمي ، ج ١ ، ص ٦٣٥.

(٣) راجع : تفسير المنار لمحمد عبده ، ج ٣ ، ص ١٢٣.

تضيع بالنسيان ، فتذكر إحدى المرأتين الأخرى ، وبذلك لم يتكرر اللفظ.

وأئده الطبرسي بأن نسيان الشهادة لا يسمى ضلالاً ولا يسمى ناسي الشهادة ضالاً لأنّ الضلال معناه الضياع ، والمرأة لا تضيع ، ويقال للشهادة ضلّت إذا ضاعت. كما قال سبحانه : ﴿قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾^(١) أي ضاعوا منّا. ^(٢) ومثله ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾^(٣).

لكن الزمخشري فسر الآية على ظاهرها ، قال : ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ أن لا تهتدي إحداها للشهادة بأن تنساها ، من قولهم : ضلّ الطريق ، إذا لم يهتد إليه. ^(٤) فيكون الضلال هنا بمعنى عدم الاهتداء.

وقوله تعالى : ﴿صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ أي ذهبوا عنّا وافتقدناهم. فلا يقدرّون على الدفع عنّا وبطلت عبادتنا إيّاهم. ^(٥) وقوله : ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي لا يذهب عليه شيء ، ^(٦) بمعنى : لا يفقده ولا يغيب عنه.

وقد فسّر الراغب «الضلال» في الآية بمعنى النسيان. ^(٧)

المرأة في مجال القضاء

القضاء باعتباره منصبا رسمياً لفصل الخصومات في النظام الإسلامي الحاكم وهو منصب خطير وذو مسئولية جسمية فإنّه لا يصلح للمرأة . وهي ذات نفسية مرهفة . أن تتصدى له ، على غرار سائر المسئوليات الخطيرة ممّا هو من شئون الولاية العامة ، الخاصة بوليّ أمر المسلمين.

وبذلك اتّفقت كلمة الفقهاء على أنّ القضاء من شئون الولاية الكبرى الخاصة بإمام المسلمين ، ^(٨) وكلّ شأن من شئون الولاية الكبرى في الحكم الإسلامي لا يجوز إيكاله إلى

(١) الأعراف ٧ : ٣٧.

(٢) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٣٩٨.

(٣) طه ٢٠ : ٥٢ . والآية ذكرها الشيخ محمد عبده تأييدا للطبرسي حسب الظاهر.

(٤) الكشاف ، ج ١ ، ص ٣٢٦.

(٥) مجمع البيان ، ج ٤ ، ص ٤١٦.

(٦) المصدر : ج ٧ ، ص ١٣.

(٧) أي في قوله تعالى : ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾. البقرة ٢ : ٢٨٢.

(٨) قال الشهيد السعيد أبو عبد الله محمد بن مكي العاملي : وهو (القضاء) ولاية شرعية على الحكم في المصالح العامة من قبل الإمام. الدروس الشرعية ، ص ١٦٨.

امرأة ولا تصلح لحمل عبئه الثقيل. وقد أنكر النبي ﷺ على قوم (يريد بهم الفرس يوم ذاك) ^(١) ولّوا أمرهم امرأة وأنذرهم بعدم الفلاح. قال : «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة». ^(٢)

وقد أوصى النبي إلى علي عليه السلام ومن جملتها ما جاء بشأن النساء : «ولا تولّى القضاء». ^(٣) وفي حديث عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام : «ولا تولّى المرأة القضاء ولا تولّى الإمارة». ^(٤) والعمدة إجماع الفقهاء على ذلك لم يخالف فيه أحد. ^(٥)

وعلّل ذلك بما ورد في القرآن في وصف شأنهنّ بأنهنّ مرهفات الحال ، رقيقات البال ، فاقدات تلك الصلابة التي تتناسب ومنصب القضاء. قال تعالى : ﴿أَوَمَنْ يُنَشِّئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾. ^(٦) إنّها لنعمومة بالها ورقة خاطرها سريعة الانفعال ، تحنّ إلى العطف والحنان أكثر ممّا تحنّ إلى الحزم والعقل الرشيد. ولذلك قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فيما كتبه إلى ابنه الحسن عليه السلام : «ولا تملّك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها ، فإنّ المرأة ريحانة وليست بقهرمانة» ^(٧) إشارة إلى ما جاء في الآية الكريمة من نعمومة حال المرأة بما يفقدها صلاحية التصلّب أمام فصل الخصومات. وللبحث هنا جوانب حقّقناها في دراستنا الفقهيّة بشكل مستوعب ، فليراجع هناك.

المرأة في مجال الحضانة

اشتهر القول بأنّ حقّ حضانتها بشأن ولدها البنين ينتهي بانتهاء أمد الرضاعة وهي السنتان. أمّا في البنات فبانقضاء سبع سنين.

لكن أبا جعفر الصدوق جعل أمد حضانتها ما لم تتزوّج ، من غير فرق بين البنين

(١) حيث ولّوا أمرهم حينذاك امرأة (پوراندهخت) هي ابنة خسرو پرويز.

(٢) سنن البيهقي ، ج ١٠ ، ص ١١٨ ؛ ومسنند أحمد بن حنبل ، ج ٥ ، ص ٣٨ و ٤٣ و ٤٧ و ٥١ بالفاظ وتعابير متقاربة.

(٣) من لا يحضره الفقيه للصدوق ، ج ٤ ، ص ٢٦٣.

(٤) بحار الأنوار ، ج ١٠٠ ، باب جوامع أحكام النساء ، ص ٢٥٤ ، رقم ١.

(٥) لذلك شرح طويل عرضناه في مجال الفقه.

(٦) الزخرف ٤٣ : ١٨ .

(٧) نهج البلاغة ، كتاب رقم ٣١ ، ص ٤٠٥ .

والبنات. ^(١) وذكر في جامعه حديثا عن الإمام الصادق عليه السلام سئل عن رجل طلق امرأته وبينهما ولد ، أيهما أحقّ به؟ قال : المرأة ما لم تتزوج ^(٢) والولد يطلق على الذكر والأنثى.

وذكر ابن الجنيد الإسكافي (ت ٣٨١). وكان معاصرا للصدوق . : أنّ الأمّ أحقّ بالصبي إلى سبع سنين ، فلو جاوزها ولم يبلغ رشد عقله بقي على حضانة الأمّ حتّى يرشد. وأمّا البنت فالأمّ أحقّ بها من غير تحديد بالسنّ ، ما لم تتزوج الأمّ. ^(٣)

وقال شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠) في المبسوط : الطفل ما لم يميّز يكون في حضانة الأمّ والنفقة على أبيه. فإذا ميّز فيما إذا بلغ سبع أو ثماني سنين فما فوقها إلى البلوغ ، فإن كان ذكرا فالأب أحقّ به ، وإن كانت أنثى فالأمّ أحقّ بها أيضا ما لم تتزوج الأمّ. واستند في ذلك إلى روايات الأصحاب ، وهكذا ذكر في كتاب الخلاف. ^(٤)

وذكر قريبا منه القاضي ابن البراج الطرابلسي (ت ٤٨١) ^(٥) وهو من أعلام فقهاء الإمامية المرموقين. والرواية الوحيدة ذات السند الصحيح في الباب وقد عمل بها الأصحاب هي ما رواه الصدوق بإسناده إلى عبد الله بن جعفر الحميري عن أيوب بن نوح. كوفي ثقة . قال : كتب إليه (الإمام موسى بن جعفر عليه السلام) بعض أصحابه : أنّه كانت لي امرأة ولي منها ولد وخليت سبيلها ، فكتب عليه السلام في جوابه : المرأة أحقّ بالولد إلى أن يبلغ سبع سنين ، إلّا أن تشاء المرأة. ^(٦)

وهكذا ابن إدريس في المستطرفات بالإسناد إلى أيوب ، قال : كتبت إليه : جعلت فداك ، رجل تزوج امرأة فولدت منه ثمّ فارقتها ، متى يجب له أن يأخذ ولده؟ فكتب عليه السلام إذا صار له سبع سنين ، فإن أخذه فله وإن تركه فله. ^(٧)

هاتان روايتان صحيحتا الإسناد ، جعلنا حقّ الحضانة للأمّ بشأن ولدها إلى سبع

(١) ذكره العلامة في المختلف ، ج ٧ ، ص ٣٠٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ باب ١٢٧ ، رقم ٢.

(٣) المختلف للعلامة ، ج ٧ ، ص ٣٠٧.

(٤) المبسوط للطوسي ، ج ٦ ، ص ٣٩ ؛ والخلاف ، كتاب النفقات ، ج ٢ ، ص ٣٣٥ ، مسألة ٣٦.

(٥) راجع : كتابه المهذب ، ج ٢ ، ص ٣٥٢.

(٦) وسائل الشيعة ، ج ٢١ ، ص ٤٧٢ ، رقم ٦ و ٧.

(٧) المصدر : رقم ٦ و ٧.

سنين ، ذكرأ أو انثى. ولا معارض لهما ولا تقييد ، فالعمل بهما متعين.
ولذلك قال السيّد محمد العاملي صاحب المدارك : والذي يقتضيه الوقوف مع الرواية الصحيحة أنّ الامّ أحقّ بالولد إلى أن يبلغ سبع سنين مطلقا.
(١)

ومن الفقهاء المعاصرين سيّدنا الاستاذ الإمام الخوئي طاب ثراه اختار هذا الرأي وجعل حقّ الحضانة للامّ إلى سبع سنين سواء في البنين والبنات. (٢)
وهذا هو أيضا مقتضى قوله تعالى : ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا﴾ (٣) بعد أن كان ذلك حكما عاقا يشمل جميع أنحاء الإضرار بها من جانب ولدها ،
إذا فصل عنها بعد الفطام. وقد فصلنا الكلام عن ذلك في مجال الفقه.

الطلاق والعدّة والعدد

مما اخذ على الإسلام وعلى القرآن بالذات إطلاق سراح الرجل بشأن المرأة في الطلاق والإمساك وإعضالها عن أن تملك نفسها إلّا حيث شاء الزوج ، حقّا قانونيا له دونها ، الأمر الذي يجعلها مهانة لا وزن لها في الحياة الزوجية ما دامت لا تعدو متعة للرجل يعبت بها حسبما شاء!
وهذا من الأثر المتبقّى من أعراف جاهليّة أولى ، قام الإسلام بتعديلها وربما أخذها بجانبها ولكن في شيء يسير لم يرفعها إلى حيث كرامتها الإنسانية العليا!

قال الشيخ محمد عبده : كان للعرب في الجاهلية طلاق ومراجعة في العدّة ، ولم يكن للطلاق حدّ ولا عدد. فإن كان لمغاضبة عارضة عاد الزوج واستقامت عشرته ، وإن كان لمضارة المرأة راجع قبل انقضاء العدّة واستأنف طلاقا ، ثمّ يعود إلى ذلك المرّة بعد المرّة أو يفيء ويسكن غضبه ، فكان المرأة العوبة بيد الرجل يضارّها بالطلاق ما شاء أن يضارّها ، فكان ذلك ممّا أصلحه الإسلام من امور الاجتماع. (٤)

(١) نهاية المرام للعاملي ، ج ١ ، ص ٤٦٨.

(٢) منهاج الصالحين ، ج ٢ ، ص ٣٢١ ، مسألة ٩ ، فصل ٩ في أحكام الأولاد.

(٣) البقرة ٢ : ٢٣٣.

(٤) راجع : تفسير المنار ، ج ٢ ، ص ٣٨١.

وذكر في سبب نزول الآيات ٢٢٨ - ٢٣٢ من سورة البقرة بهذا الشأن : أنّ الرجل كان يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة وإن طلقها مائة مرة وأكثر ، حتّى قال رجل لامرأته : والله لا أطلقك فتبيني ، ولا آويك أبدا! قالت : وكيف ذلك؟ قال : أطلقك ، فكلّما همت عدّتك أن تنقضي راجعتك. فذهبت المرأة حتّى دخلت على عائشة فأخبرتها ، فصبرت عائشة حتّى جاء النبي ﷺ فأخبرته بذلك ، فسكت النبيّ هنيئة حتّى نزل القرآن : ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِنْ سَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ ... فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ...﴾ إلى آخر الآيات. ^(١)

حاول بعض الكتّاب العصريّين أن يجعل من التشريعات الإسلاميّة متأثرة بعض التأثير بتقاليد كانت سائدة ذلك العهد ، فهو وإن كان قام بتعديلات خطيرة في تقاليد العرب لكنّه مع ذلك اضطرّ إلى الرضوخ لبعض تقاليدهم جريا مع مقتضيات الزمان ، ومنها أمر الطلاق حيث جعله بيد الرجل وفقا مع عرف القوم السائد! قال : ولا سيّما إذا ما لاحظنا أنّ التشريعات الإسلامية في مثل هذه الشؤون إمضائية وليست تأسيسية كما هو معروف. ^(٢)

* * *

ولنا أن نتساءل : هل تنازل الإسلام في تشريعاته الاولى . ولو في جوانب منها . إلى حيث مستوى ثقافة ذلك العهد وتلاؤما مع مقتضيات عصره حتّى تصبح صالحة للتغيير مع تطوّر الزمان؟

الجواب : كلاً ، ولا سيّما التشريعات التي جاءت نصّا في القرآن الكريم.

الإسلام جاء بثقافة جديدة شاملة ليرفض كلّ تقاليد جاهلية كانت سائدة ذلك اليوم ، وألبسها ثوب الخلود «حلال محمّد حلال أبدا إلى يوم القيامة وحرامه حرام أبدا إلى يوم القيامة». ^(٣) إلّا ما كان من قبيل التدبير في الشؤون السياسية لإدارة البلاد وفق شرائط الزمان على ما أسلفنا. ومن ثمّ كانت التشريعات الإسلامية منذ البدء تنقسم إلى قسمين

(١) الدرّ المنثور ، ج ١ ، ص ٦٦٢ ؛ ومجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ .

(٢) الدكتور حسين مهريور أخصائي في الحقوق ، مجلّة «نامة مفيد» ، العدد ٢١ ، ص ١٦١ .

(٣) راجع : صحيحة زارة في الكافي ، ج ١ ، ص ٥٨ ، رقم ١٩ .

أساسيين : ثابتة ومتغيرة. أمّا الثابتة فهي التي شرّعت وفق مصالح عامّة عموماً يشمل الأجيال والأزمان مدى الدهر ، وهي الأصل في التشريع حسب ظاهره الأولي ، إلّا إذا دلّت القرائن على أنّها من المتغيّرات ، وهي التي شرّعت لمصالح وقتية تنوط ببقاء تلك المصالح وتذهب بزوالها. وهذا في جانب الأحكام السياسية الصادرة من أولي الأمر نجده بكثير. وقد فصلنا الكلام في ذلك وذكرنا المعايير التي يمكن التمييز بين القسمين ، والأصل المرجع عند الشكّ. (١)

أمّا القول بالتنازل والمداهنة أو المجاملة مع القوم فهي عقيدة باطلة يرفضها أصالة التشريع الإسلامي المستند إلى وحي السماء ، ويأبى الله ورسوله ذلك. ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. (٢)

* * *

وسؤال آخر : هل كان الطلاق والرجوع في العدة . بذلك الشكل الفطيع . عادة جاهلية ليكون موضع الإسلام منها تعديلها إلى وجه صحيح؟ قال الشيخ محمّد عبده : كان للعرب في الجاهليّة طلاق ومراجعة في العدة ، ولم يكن للطلاق حدّ ولا عدد ... فكان ذلك ممّا أصلحه الإسلام. في حين أنّ جواز الرجوع في العدة . في الطلاق الرجعي . وكذا تشريع العدة للطلاق أمر لم يكن للعرب ولا لسائر الأمم عهد بذلك من ذي قبل ، وإمّا هو من مبدعات الإسلام ، وتشريعاته التأسيسية الحكيمة. حتّى أنّ الإمام عبده استشهد بقضية وقعت في عهد متأخّر في المدينة ، حيث جاءت المرأة وشكت عند عائشة لترفع أمرها إلى النبي ﷺ ونزلت آيات من اخريات سورة البقرة ، ولعلّها في العام السادس أو السابع للهجرة! وقد صرح الطبري بأنّه كان على عهد النبيّ ، وكان رجلا من الأنصار. (٣)

(١) تجد جانباً من ذلك في رسالتنا «ولاية الفقيه» الفارسيّة ص ١٧٢ - ١٧٤.

(٢) البقرة ٢ : ١٢٠. وفي آية أخرى : ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾. البقرة ٢ : ١٤٥. وفي ثالثة : ﴿وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. الأنعام ٦ : ١١٦.

(٣) جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٧٦.

هذا ، وقد أخرج أبو داود وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن أسماء بنت يزيد الأنصارية ، قالت : طَلَّقت على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن للمطلقة عدّة ، فأَنزل الله . حين طَلَّقت . العدة للطلاق ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(١) . فكانت أوّل من انزلت فيها العدّة للطلاق . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : كان أهل الجاهلية يطلق أحدهم ليس لذلك عدّة^(٢) . وأمّا الرواية الاخرى عن قتادة بأنّ الطّلاق لم يكن له في الجاهليّة عدد وكانوا يراجعون في العدّة^(٣) . فلعلّ الذيل زيادة من الراوي أو بيان للمراجعة بعد تشريع العدّة في الإسلام ، إذ لا تقاوم هذه الرواية ما تقدّمها من روايات مستفيضة.

* * *

وسؤال ثالث : هل الطلاق بيد الرجل ورهن إرادته على الإطلاق؟ ذهب المشهور إلى ذلك استنادا إلى قوله ﷺ : «إِنَّمَا الطَّلَاقُ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ»^(٤) . والحديث كما رواه ابن ماجة في السنن عن ابن عباس أنّ رجلا أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنّ سيدي زوجني أمته وهو يريد أن يفرّق بيني وبينها . فصعد النبي ﷺ المنبر فقال : أيّها الناس ، ما بال أحدكم يزوّج عبده أمته ثمّ يريد أن يفرّق بينهما؟! إنّما الطلاق لمن أخذ بالساق . والحديث وإن كان بمختلف طرقه ضعيف الإسناد إلّا أنّ الفقهاء تسالموا على الاستناد إليه ، حتّى أنّ صاحب الجواهر عبّر عنه بالنبويّ المقبول وذكر أنّ الحكم إجماعي ، وقد أرسل المحقّق حكمه باختصاص الطلاق بمالك البضع إرسال المسلّمات^(٥) .

(١) البقرة ٢ : ٢٢٨ .

(٢) الدرّ المنثور ، ج ١ ، ص ٦٥٦ ؛ وسنن أبي داود ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ ، رقم ٢٢٨١ ؛ وسنن البيهقي ، ج ٧ ، ص ٤١٤ كتاب العدد .

(٣) جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٤) سنن ابن ماجة ، ج ١ ، ص ٦٤١ ، باب ٦٦٧ ، طلاق العبد ، رقم ٢١٠٧ ؛ وفي كنز العمال ، ج ٩ ، ص ٦٤٠ ، رقم ٢٧٧٧٠ نقله عن الجامع الكبير للطبراني ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ، ج ٤ ، ص ٣٣٤ وعن عصمة ... الخ ، وقال : فيه الفضل بن المختار وهو ضعيف . (هامش الكنز) . أمّا عن ابن عباس . كما في سنن ابن ماجة والطبراني . ففي طريقه ابن لهيعة . قال في الزوائد : وهو ضعيف . (هامش ابن ماجة) .

(٥) جواهر الكلام ، ج ٣٢ ، ص ٥ .

وعليه ، فلا شأن للمرأة في أمر الطلاق والفراق ، وإنما هو رهن إرادة الرجل حسب مشيئته الخاصة.

* * *

غير أنّ المسألة بحاجة إلى دقة ونظرة فاحصة :

الطلاق . وهو الفراق بين المتآلفين . لا بدّ أن يكون عن كراهية معقّدة لا يمكن حلّها إلّا بالمفارقة . والكراهية إمّا من الزوج فالطلاق رجعي ، إذا كان عن دخول بها ولم تكن التطليقة الثالثة ، ولم تكن المرأة يائسة ، وشرائط اخر مذكورة في محلّها . وإمّا من الزوجة ، فالطلاق خلعي ، لأنّها تبذل مهرها لتخلع أي تتخلّص بنفسها وتنفلت عن قيد الزوجية . وإمّا من الطرفين ، ويعبّر عن ذلك في مصطلحهم بالمباراة ، من المباراة وهي التخلّص والفصل بين الشريكين أو المتزاجين . يقال : بارأ شريكه : فاصله وفارقه . وتبارأ الزوجان : تفارقا .

فالطلاق في الصورة الاولى عن رغبة الزوج ، وفي الصورة الثانية عن رغبة الزوجة ، وفي الصورة الثالثة عن رغبتهما معا . فهل الطلاق في جميع هذه الصور بيد الرجل محضا ورهن إرادته ، إن شاء فارقتها وخلّى سبيلها ، وإن شاء أمسكها إضرارا بها؟ ولا شأن للمرأة في ذلك ولا لوليّ الأمر إطلاقا!؟

وإليك بعض الكلام حول هذه المسألة الخطيرة الشأن :

جاء في الحديث النبويّ المستفيض : أنّ امرأة . ولعلّها جميلة بنت أبيّ بن سلول . تزوّجها رجل دميم (كريه المنظر) وأصدقها حديقة ، فلمّا رآها كرهته كراهة شديدة ، فجاءت إلى رسول الله ﷺ وأبدت كراهتها له وقالت : إيّ لأكرهه لدمامته وقبح منظره حينما رأيته . وزادت : إيّ لو لا مخافة الله لبصقت في وجهه . قالت : إيّ رفعت الخباء فرأيتّه مقبلا في عدّة ، فإذا هو أشدّهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهها . قالت : والله ، لا يجمع

رأسي ورأسه شيء. فقال لها رسول الله ﷺ : أتردّين عليه حديقته؟ قالت : نعم ، وأزيدة. قال لها النبي : لا ، حديقته فقط. فردّت عليه حديقته ، ففرّق بينهما رسول الله ﷺ .

ويبدو أنّ ذلك كان بمغيب عن الرجل ، وذلك لأنّ الرواية ذكرت أنّه لما بلغه قضاء رسول الله وحكمه بالفراق بينهما قال : قد قبلت قضاء رسول الله. قال ابن عباس : وكان أول خلع وقع في الإسلام. ^(١)

وظاهر الحديث : أنّه في صورة كراهة الزوجة ترفع أمرها إلى وليّ الأمر (الحاكم الشرعي) وهو الذي يتولّى شأنها ويقضي بفراقها. وليس للزوج الامتناع. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. ^(٢)

والمراد بقضاء الله والرسول أن يكون قضاء النبي وفق شريعة السماء ، ولا يكون إلّا كذلك. وعليه فقبول الرجل كان فرضا عليه ولم يكن له الرّد. وهكذا جاء في أحاديث أئمة أهل البيت عليه السلام :

روى الشيخ بإسناده إلى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : لا يكون الخلع حتّى تقول : لا أطيع لك أمرا ولا أبرّ لك قسما ولا اقيم لك حدّا فخذ مّيّ وطلّقني ، فإذا قالت ذلك فقد حلّ له أن يخلعها بما تراضيا عليه من قليل أو كثير ، ولا يكون ذلك إلّا عند سلطان. فإذا فعلت ذلك فهي أملك بنفسها من غير أن يسمّى طلاقا. ^(٣)

وروى بإسناده عن ابن بزيع قال : سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن المرأة تباري زوجها أو تختلع منه بشهادة شاهدين على غير طهر من غير جماع ، هل تبين منه بذلك؟ أو هي امرأته ما لم يتبعها بطلاق؟ فقال : تبين منه. قال : إنّه روي لنا أنّها لا تبين منه حتّى يتبعها بطلاق! قال عليه السلام : ليس ذلك إذن خلع ، فقال : تبين منه؟ قال عليه السلام : نعم. ^(٤)

وقد أفتى بذلك الشيخ وجماعة من كبار الفقهاء وأوجبوا على الزوج الإجابة على طلبها من غير أن يكون له الامتناع.

(١) راجع : سنن البيهقي ، ج ٧ ، ص ٣١٤ ؛ وسنن ابن ماجه ، ج ١ ، ص ٦٣٣ ، باب ٦٥٨ ؛ والدرّ المنثور ، ج ١ ، ص ٦٧٠ - ٦٧٢ وقد نقلنا النصّ بصورة ملفقة والأكثر للدرّ.

(٢) الأحزاب ٣٣ : ٣٦.

(٣) تهذيب الأحكام ، ج ٨ ، ص ٩٨ - ٩٩ ، رقم ٣٣١.

(٤) المصدر : رقم ٣٣٢.

قال الشيخ في النهاية : وإنما يجب الخلع إذا قالت المرأة لزوجها : إني لا أطيع لك أمرا ولا أقيم لك حداً. فمتى سمع منها هذا القول أو علم من حالها عصيانه في شيء من ذلك وإن لم تنطق به وجب عليه خلعها. ^(١)

قال العلامة في المختلف : وتبعه أبو الصلاح الحلبي والقاضي ابن البراج في الكامل وعلي بن زهرة الحلبي. ^(٢)

قال أبو الصلاح (ت ٤٤٨) : فإذا قالت ذلك فلا يحلّ له إذ ذاك إمساكها. ^(٣)

وقال ابن زهرة (ت ٥٨٥) : وأما الخلع فيكون مع كراهة الزوجة خاصّة الرجل ، وهو مخير في فراقها إذا دعت إليه حتى تقول له : لئن لم تفعل لأعصين الله بترك طاعتك ، أو يعلم منها العصيان في شيء من ذلك ، فيجب عليه والحال هذه طلاقها. ^(٤)

فإذا كان ذلك واجبا عليه ولم يكن له الامتناع عند ذلك لزمه طلاقها ، أو يلزمه السلطان (وليّ الأمر - الحاكم الشرعي) أو يتولّى الحاكم ذلك بنفسه حسبما تقدّم في ظاهر الحديث النبوي.

على أنّ ذلك هو لازم اشتراط أن يكون بمحض السلطان ، كما اشترطه أبو علي ابن جنيد الإسكافي ، استنادا إلى حديث زرارة عن أبي جعفر عليه السلام الآنف. ولقوله تعالى : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾. ^(٥) وهذا خطاب للحاكم. ^(٦)

فإن مقتضى هذا الاشتراط أن يقوم الحاكم بتنفيذ الأمر حسبما يراه من مصلحتهما ، إن إلزاما للزوج أو التولّي بنفسه.

وقد ناقش صاحب الجواهر القول بوجوب خلعها على الرجل بعدم الدليل على الوجوب ، إذ ليس في شيء من الروايات أمر بذلك وبعدم تمامية كونه ردعا عن المنكر. مضافا إلى كونه منافيا لاصول المذهب! ^(٧)

(١) النهاية في مجرد الفقه والفتاوي للطوسي ، ص ٥٢٩.

(٢) المختلف ، ج ٧ ، ص ٣٨٣.

(٣) الكافي في الفقه للحلي ، ص ٣٠٧.

(٤) غنية النزوع لابن زهرة ، ج ١ ، ص ٣٧٤ . ٣٧٥.

(٥) البقرة ٢ : ٢٢٩.

(٦) المختلف ، ج ٧ ، ص ٣٨٨.

(٧) جواهر الكلام ، ج ٣٣ ، ص ٤٠٣.

لكن جانب الإضرار بالمرأة . إذا لم تطق الصبر معه . يرفع سلطة الرجل على الطلاق حتى في هذه الصورة ، إذ «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام» .^(١) بمعنى : أنه لم يشترع في الإسلام أيّ تشريع . سواء أكان تكليفا أم وضعيا . إذا كان موارده ضرورياً . وهذه القاعدة حاکمة على جميع الأحكام الأولية في الشريعة المقدسة ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ .^(٢) ولا شك في أنّ الحكم باختيار الرجل بشأن الطلاق . حتى في صورة كون الزوجية أو تداومها حرجاً على المرأة وضاراً بها . حكم ضرري ، فهو مرفوع ، فعموم سلطة الرجل على أمر الطلاق مخصص بغير هذه الصورة .

وهكذا ورد صحيحاً عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام فيمن كانت عنده امرأة ولا يقوم بنفقتها ... قال : كان حقاً على الإمام أن يفرق بينهما .^(٣) على أنّ دليل عموم سلطة الرجل على الطلاق ضعيف ، بعد كون مستنده الحديث النبوي المعروف «إنما الطلاق لمن أخذ بالساق» . وهذا الحديث بمختلف طرقه ضعيف الإسناد على ما تقدّم عن الهيئتي في مجمع الزوائد .^(٤)

وعمدته ما استدللّ به صاحب الجواهر على ذلك هو الإجماع ،^(٥) ولم يكن دليلاً لفظياً ليكون له إطلاق أو عموم . إذن ، فمستند العموم ضعيف الشمول .

وبعد ، فإذا لم يكن لعموم سلطة الرجل على الطلاق دليل قاطع وشامل وكان أمر الخلع منوطاً بالترافع لدى السلطان كان مقتضى ذلك هو إمكان إلزام الزوج بالطلاق إذا كانت المصلحة قاضية بذلك ، ومدعماً بحديث «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام» .

وهناك بعض الشواهد عليه في بعض النصوص ، كما في حديث حمran عن الصادق عليه السلام وفي آخره : «والطلاق والتخيير من قبل الرجل ، والخلع والمباراة يكون من قبل المرأة» .^(٦)

(١) وسائل الشيعة ، باب ١ من أبواب موانع الإرث ، حديث ١٠ ، ج ١٧ ، ص ١١٨ .

(٢) الحجج ٢٢ : ٧٨ .

(٣) وسائل الشيعة : باب ١ من أبواب النفقات ، ج ٢١ ، ص ٥٠٩ ، رقم ٢ و ٦ و ١٢ .

(٤) راجع : هامش كنز العمال ، ج ٩ ، ص ٦٤٠ ؛ وهامش ابن ماجه ، ج ١ ، ص ٦٤١ ؛ ومجمع الزوائد ، ج ٤ ، ص ٣٣٤ .

(٥) جواهر الكلام ، ج ٣٢ ، ص ٥ .

(٦) وسائل الشيعة ، ج ٢٢ ، ص ٢٩٢ ، رقم ٤ ، باب ٦ من كتاب الخلع .

وهذا يعني : أنَّ أمر الخلع منوط بمصلحة المرأة واختيارها ، ولا خيار للزوج فيه . مضافا إلى ما فعله النبي ﷺ بشأن المختلعة .

إذن فطريق الخلاص للمرأة . إذا لم تطق الصبر مع زوجها . منفتح ، وليست أسيرة رهن إرادة الرجل محضا .

بقي هنا شيء وهو كلام صاحب الجواهر بالمنافاة مع أصول المذهب! ولم نتحققه ، كيف وقاعدة لا ضرر ولا حرج هما اللذان يشكّلان قواعد المذهب ، والعلم عند الله .

والسؤال الأخير : ما هو سبب الفرق بين الرجل والمرأة ، حيث كان الرجل مطلق السراح بشأن طلاق زوجته ، وأمّا المرأة فبعد مراجعة الحاكم الشرعي ورهن تصميمه في الأمر؟!

وهذا يعود إلى ما بين الرجل والمرأة من فرق في طبيعتهما ، حيث هي مرهفة الطبع ، رقيقة النفس ، ذات عواطف جيّاشة ، تثار لأيّ مؤشّر وتنبري لأيّ وخزة ، وكلّ أمر إذا انيط بجانب العاطفة السريعة التأثر ربّما أوجد مشاكل ومضاعفات لا يحمد عقباها . أمّا الرجل فبطبيعته الهادئة المتريّنة ، وهو الذي تحمّل تكاليف هذا الازدواج ، ولا يمكن أن يتغافل عن عواقب سوء سوف تترتّب على الفراق أحيانا ، ويكون عباء ثقلها على عاتقه في الأغلب ، فإثّه بذلك ولغيره من الجهات لا يتسرّع في الأمر مهما بلغ به الغضب أو ثارت ثائرتّه في حينه ، ما دام لم ينظر في عاقبته الأمر وما يترتّب عليه من أثر! ومع ذلك ، فإنّ القوانين المدنية الحاكمة اليوم في البلاد الإسلامية تفرض على الرجل تريّنه المضاعف ومراجعة المحاكم الصالحة ، من غير أن يكون مطلق السراح .

ونحن الآن . في ظلّ ولاية الفقيه . نرى مشروعية هذه القوانين المحدّدة من تصرّفات الرجل العابثة . وهذا من الآثار الإيجابية لسيطرة ولاية الفقيه على القوانين الحاكمة في البلاد .

* * *

ونجد هناك بعض المحاولات لسدّ هذه الثغرة عن طريق الاشتراط على الزوج . في عقد النكاح أو ضمن عقد آخر لازم . بأن يوكل الزوج زوجته في طلاق نفسها متى

شاءت أو مشروطا بعدم إمكان المؤالفة ونحو ذلك فتقوم المرأة بتطبيق نفسها وكالة عن زوجها.

وبهذا النحو من العلاج أفق سيّدنا الأستاذ الإمام الخميني . طاب ثراه . إجابة على استفتاء قدّمته إليه جماعة النسوة المناضلة في إيران عام ١٣٥٨ هـ. ش. (١)

وقد كان هذا الاشتراط على الزوج في صالح الزوجة رائجا في أوساطنا منذ القديم ، لكن على النحو المشروط ، أمّا بصورة الإطلاق ومتى شاءت فقد اختصّ الإمام الراحل عليه السلام بالإفتاء به.

وإليك نصّ العبارة . مترجمة . بعد البسملة.

قد سهّل الشارع المقدّس طريقة معيّنة للنساء ، كي يستطعن تولّي الطلاق بأنفسهنّ ، وذلك بأن تشترط المرأة في ضمن عقد النكاح أن تكون وكيلة عن الزوج في الطلاق بصورة مطلقة ، أي متى شاءت أن تطلّق نفسها فعلت حسب مشيئتها ، أو بصورة مشروطة ما إذا تخلّف الزوج عن بعض وظائفه الزوجية أو أراد أن يتزوّج امرأة أخرى ، ونحو ذلك ، فهي مختارة . حسب وكالتها عن الزوج . في تطبيق نفسها . قال : وبهذا النحو من العلاج تنحل مشكلة أمر الطلاق . (روح الله الموسويّ الخميني)

لكن الظاهر أنّ هذا ليس بالعلاج الحاسم ، والمشاهد أنّ الأزواج لا يوافقون على هذا النحو من الاشتراط ولا سيّما صورة إطلاقه . وليس الرجل . مهما كانت المرأة بالملتزم بها . بهذا النحو من الرضوخ لإرادتها الخاصّة . طول حياتهما الزوجية . لا سيّما وتضخّم عدد النساء الطالبات للزواج بلا شرط ولا قيد!

إنّ للرجل . في طبيعته الرجولية . أنفة وشموخا لا يستسلم لقيادة المرأة مهما كانت فائقة ، إلّا إذا بلغ به الذلّ والهوان ما يجعله خاضعا لهذا الرضوخ.

على أنّ هنا حديثا عن الإمام الصادق عليه السلام في رجل جعل أمر امرأته بيدها! قال :

(١) راجع : صحيفة النور ، ج ١٠ ، ص ٧٨ ؛ ومجّلة «نامه مفيد» ، العدد ٢١ ، ص ١٦٨ .

«ولى الأمر من ليس أهله ، وخالف السنّة ، ولم يجز النكاح». (١)

وفي رواية أخرى في رجل قال لامرأته : أمرك بيدك! قال : «أتى يكون هذا ، والله يقول ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾؟» (٢) ليس هذا بشيء. (٣)
وأيضاً هنا كلام عن هذه الوكالة . وهي عقد جائز ، متى شاء الموكل عزل الوكيل . هل تصبح لازمة باشتراطه في ضمن عقد النكاح أو أيّ عقد لازم؟ وهل الشرط ضمن عقد لازم يغيّر من ماهيّة المشروع؟

وأخيراً ، فإنّ الشيخ ذكر في كتابه «المبسوط» قال : وإن أراد [الرجل] أن يجعل الأمر إليها فعندنا لا يجوز على الصحيح من المذهب. وفي أصحابنا من أجازها. (٤)

ومن ثمّ فإنّ المسألة ليست بهيئة ، لا سيّما وخطورة أمر البضع المقتضية للاحتياط فيه. كما وقد رجّح صاحب الجواهر جانب الاحتياط. قال : وعلى كلّ حال فالاحتياط لا ينبغي تركه. (٥)

واضربوهن!

قال تعالى : ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ. فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾. (٦)

قالوا : في هذه الآية أيضاً مهانة بشأن المرأة ، ممّا يتناسب وذلك العهد الجاهلي الذي كان موضع المرأة فيه موضع الضعة والصغار!
لكن بأدنى مراجعة لكتب التفسير والسير وكلمات الفقهاء في ذلك يتّضح أنّ الأمر ليس بتلك الحدة التي كانت تتصوّر عن العصر الجاهلي المظلم وإمكان تأثيره على التشريعات الإسلامية الناصعة البيضاء والسهلة السمحاء.

(١) تهذيب الأحكام ، ج ٨ ، ص ٨٨ ؛ والاستبصار ، ج ٣ ، ص ٣١٣ ؛ والكافي ، ج ٦ ، ص ١٣٧ ، رقم ٤.

(٢) النساء ٤ : ٣٤.

(٣) وسائل الشيعة ، ج ٢٢ ، ص ٩٣ - ٩٤ ، رقم ٥ و ٦ ، باب ٤١ من أبواب مقدّمات الطلاق.

(٤) المبسوط للطوسي ، ج ٥ ، ص ٢٩.

(٥) جواهر الكلام ، ج ٣٢ ، ص ٢٥.

(٦) النساء ٤ : ٣٤.

كانت المرأة في العصر الجاهلي في مستوى هابط جدًّا ، وجاء الإسلام ليأخذ بيدها ويرفعها إلى حيث مستواها الإنساني الرفيع ، ولكن هذا التحوّل الجذري بشأنها هل أمكن حصوله بصورة فجائية وبلا تمهيد مقدّمات؟ أم كان بحاجة إلى مهل وبصورة تدريجية لقلب تلك الغلظة المتوهّجة إلى رقة ورأفة هادئة؟ الأمر الذي يستدعي المسايمة مع القوم بعض الشيء في هذا الطريق الوعر ليتمكن إيقافهم أو تمهيد أسباب هذا الإيقاف فيمكن إرجاعهم إلى حيث فطرهم الإنسانية الأصيلة!

وهكذا جرى الإسلام العرب في بادئ الأمر في قسم من عاداتهم . كانت متحكّمة عليهم تحكّمًا وثيقًا . وفي أثناء هذه المجازاة والمسايرة ، أخذ ينفث في روعهم روح الملازمة وإبعاد الخشونة لتلين قلوبهم ويهتدوا إلى وجه الصواب ، فيرتدعوا بأنفسهم شيئًا فشيئًا عن الأخطاء التي كانت تجذبهم بقوة ذلك العهد.

وهذا النحو من سياسة التدبير نرى الإسلام قد اتّخذها بشأن لفيف من عادات جاهلية لم تكن متحكّمة على العرب وحدهم ، بل على سائر الأمم على وجه العموم . ومن ثمّ كان قلع جذورها بحاجة إلى مهلة وفرصة زمنية ، قصيرة أو طويلة ، وتمهيد مقدّمات أصولية تمهّد هذا السبيل . ويمكننا التمثيل لذلك بمسألة الرقيّة التي جاراها الإسلام ، حيث تحكّمها على العالم كلّ يوم ذاك ، وكانت سلعة تجارية ضخمة ، لا يمكن مجابقتها بلا تمهيد مقدّمات ، فقد قام الإسلام في وجهها ، لكن لا بشكل علنيّ صريح ، ولكن أعلن مخالفته لمنشئ الاسترقاق الذي كان عليه جمهور الأمم ذلك العصر ، وسدّ طريقه . شرعيًّا . ما عدا حالة الاستيلاء على المحاربين في ميدان القتال . الأمر الذي كان يخصّ الرجال المحاربين ضدّ الإسلام دون غيرهم ، ولا النساء ولا الأطفال والشيوخ ، ورفض رفضا باتًا إمكان الاسترقاق بأيّ وجه كان .

ثمّ إنّ مع ذلك جعل الطريق لتحرّره فسيحًا وفي أنحاء وأشكال ، حسبما نذكره .

واتخاذ مثل هذه الاجراءات لقطع جذور عادة جاهلية ساطية ، قد اصطلحنا عليه

بالنسخ التدريجي المسيّر مع الزمان ، ممّا قد مهّدت أسبابه منذ البدء وعلى عهد صاحب الشريعة.

ومن هذا القبيل مسألة قوامة الرجل على المرأة بشكلها العامّ ، بحيث تشمل ضربها مبرّحا موجعا! فلو كان قد نزل به الوحي ، ولكن جاء تفسيره على لسان صاحب الشريعة بما يجعله هيّنا في وقته ، وتمهيدا لقلع جذوره على مدى الأيام :

أوّلا : جاء تفسير الضرب بكونه غير مبرّح ، أي غير شديد ولا مؤلم ، فيكون ضربا خفيفا لا يؤلم. والضرب إذا لم يكن مؤلما لا يكون ضربا في الحقيقة ، وإنّما هو مسح باليد مسحاً في ظرافة! ومن ثمّ جاء تقييده بأن لا يكون بسوط ولا خشب أو آلة غيرها ، ما عدا عودة السواك التي يستاك بها الرجل!

الأمر الذي يجعل من ظاهر دلالة الآية عقيمة ، ويرفض سلطة الرجل على إيلاام زوجته بالضرب والأذى على كلّ حال.

أخرج ابن جرير عن عكرمة ـ في الآية ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «اضربوهنّ إذا عصيكنم في المعروف ، ضربا غير مبرّح». ورواه أيضا بإسناده عن حجاج مضيفا إليه تفسيره «غير مبرّح» بغير مؤثّر. يعني : لا يؤثّر في تغيير لون البشرة ، حتّى الحمرة.

وعن عطاء قال : قلت لابن عبّاس : ما الضرب غير المبرّح؟ قال : بالسواك ونحوه.

وعن قتادة : ضربا غير مبرّح أي غير شائن. ^(١)

والشين : العيب ، أي لا يوجب عيبا.

ومن ثمّ قال الشيخ أبو جعفر الطوسي رحمه الله : وأما الضرب فإنّه غير مبرّح ، بلا خلاف. ^(٢) قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام : هو بالسواك. ^(٣)

قال القاضي ابن البرّاج الطرابلسي رحمه الله : وأما الضرب فهو ضرب تأديب ، كما يضرب

(١) جامع البيان ، ج ٥ ، ص ٤٤ ؛ والدّر المنثور ، ج ٢ ، ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣.

(٢) وهذا يعني أنّ هذا التفسير «ضربا غير مبرّح» مجمع عليه عند الفقهاء.

(٣) تفسير التبيان ، ج ٣ ، ص ١٩١.

الصبيان على الذنب ، ولا يضربها ضربا مبرّحا ولا مزمنا ولا مدميا ويفرقه على بدنها ويتقي وجهها. وإذا ضربها كذلك فليكن بالمسواك. وذكر بعض الناس (من فقهاء العامة) أنه يكون بمنديل ملفوف أو درّة ، ولا يكون بخشب ولا سوط. ^(١)

المبرّح : الشديد الموجه. والمزمن : من الزمانة ، وهي العاهة ، أي العيب والنقص. والمدمي : المؤثر في ظهور الدم على البشرة ولو بالخرش. والدرة : نوع من السياط ، لا توجع ولا تؤلم. وتصنع من الخرق. وهي تشبه المنديل الملفوف. وقال في موضع آخر : وإذا نشزت المرأة على زوجها ، جاز له أن يهجرها في المضاجع وفي الكلام ، ويضربها ولا يبلغ بضربها حدّا ولا يكون ضربا مبرّحا ، ويتوقّى وجهها. ولا يهجرها بترك الكلام أكثر من ثلاثة أيّام. ^(٢) جاء في فقه الرضا : والضرب بالسواك وشبهه ضربا رفيقا ^(٣) أي برفق.

وفي جامع الأخبار للصدوق عن النبي ﷺ : «إني أتعجب ممّن يضرب امرأته وهو بالضرب أولى. لا تضربوا نساءكم بالخشب فإنّ فيه القصاص ، ولكن اضربوهنّ بالجوع والعري ، حتّى تريجوا في الدنيا والآخرة». وجاء في آخر الحديث : «احفظوا وصيّتي في أمر نساءكم حتّى تنجوا من شدّة الحساب ، ومن لم يحفظ وصيّتي فما أسوأ أحواله بين يدي الله. ^(٤)

وفي هذا الحديث صراحة بأنّ المراد من الضرب في الآية هو التأديب ، ولكن لا بالعصا والسوط. كما يفعل مع البهائم. ولكن بالتضييق في المطعم والملبس ونحوهما. وهذا أوفق بتعديل المعيشة معها.

وثانيا : النهي عن ضربهنّ ، والتشديد على المنع ، منعا يجعل المتخلّف من شرار الامة وليس من خيارهم!

(١) المهذّب ، ج ٢ ، ص ٢٦٤.

(٢) المصدر : ص ٢٣١.

(٣) بحار الأنوار ، ج ١٠١ ، ص ٥٨ ، رقم ٧ ، باب النشوز والشقاق.

(٤) المصدر : ج ١٠٠ ، ص ٢٤٩ ، رقم ٣٨ عن جامع الأخبار ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ، طبع النجف.

جاء في الحديث : إنّ نساء كثيرا من أزواج أصحاب رسول الله ﷺ أطافن ببيوت آل الرسول يشكين أزواجهنّ . حيث رأوا إباحة ضربهنّ . فقال رسول الله : «ليس أولئك خياركم».^(١)

وأخرج ابن سعد والبيهقي بالإسناد إلى أمّ كلثوم بنت أبي بكر قالت : كان الرجال نھوا عن ضرب النساء ، ثمّ شكوهنّ إلى رسول الله ﷺ فأجاز لهم ضربهنّ ، ولكنّه ﷺ أضاف قائلا : «ولن يضرب خياركم».^(٢)

وفي رواية ابن ماجه : ... فلمّا أصبح رسول الله ﷺ قال : «لقد طاف بآل محمّد سبعون امرأة ، كلّ امرأة تشتكي زوجها! فلا تجدون أولئك خياركم».^(٣)

وأخرج عبد الرزاق عن عائشة عن النبي ﷺ قال : «أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ، يضربها أوّل النهار ثم يضاجعها آخره».^(٤)

قالت عائشة : ما ضرب رسول الله ﷺ خادما له ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئا.^(٥)
ولم يؤثر عن أحد من الأئمة المعصومين ﷺ الأطهار ولا من الصحابة الأخيار والتابعين الأبرار أن واجهوا نساءهم بغضاضة فضلا عن الضرب واللطم. بل كانت شيمتهم العفو والغفران ، كما مرّ في حديث الإمام الصادق عن أبيه الإمام الباقر ﷺ.^(٦)
وثالثا : التوصيات الأكيدة بشأن المرأة والتحفظ على كرامتها والأخذ بجانبها في عطف وحنان ورأفة ورحمة ، بعيدا عن الغلظة والشدّة ، بل حتّى مؤاخذتها على ما فرط منها ما سوى العفو والغفران.

جاء في رسالة الإمام أمير المؤمنين ﷺ إلى ابنه الحسن ﷺ : «.. فإنّ المرأة ربحانة وليست بقهرمانة ، ولا تعد بكرامتها نفسها...».^(٧) أي خذ بكرامتها ، ولا تجعلها بحيث تضطرّ إلى أن تستشفع بآخر ، فلتكن كرامة نفسها لديك هي الشفاعة لها دون غيرها. وجاء في

(١) الدرّ المنثور ، ج ٢ ، ص ٥٢٣.

(٢) المصدر.

(٣) سنن ابن ماجه ، ج ١ ، ص ٦١٢ ، باب ٦٢٥ ، رقم ٢٠١٠.

(٤) الدرّ المنثور ، ج ٢ ، ص ٥٢٣.

(٥) أخرجه ابن ماجه ، ج ١ ، ص ٦١٢ ، رقم ٢٠٠٩.

(٦) الكافي ، ج ٥ ، ص ٥١٠ ، رقم ١.

(٧) نهج البلاغة ، باب الكتب ، رقم ٣١ ، ص ٤٠٥.

رواية الكليني : «واغضض بصرها بسترک ، واكففها بحجابك ، ولا تطمعها أن تشفع بغيرها ...»^(١) .
وروى الكليني بإسناده إلى الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام فيما ذكر من حقوق المرأة على زوجها قال : «وإن جهلت غفر لها» وزاد : «كانت امرأة عند أبي (الإمام الباقر عليه السلام) تؤذيه فيغفر لها»^(٢) .
وفي وصية الإمام لابنه محمد ابن الحنفية ما يشبه وصيته لابنه الحسن ، وزاد : «فدارها على كل حال وأحسن الصحبة لها ليصفوا عيشك»^(٣) .
وأوصى الإمام الصادق عليه السلام يونس بن عمار بالإحسان إلى زوجته ، فسأله : وما الإحسان؟ قال : «... واغفر ذنبها ...»^(٤) . وفي حديث : «داووا عيّن بالسكوت»^(٥) . وفي لفظ آخر : «استروا العي بالسكوت»^(٦) .
وقال : قال رسول الله ﷺ : «ما زال جبرائيل يوصيني بالمرأة ، حتى ظننت أنه لا ينبغي طلاقها إلا من فاحشة مبيّنة»^(٧) .
وروى الصدوق بإسناده إلى الصادق عليه السلام قال : «رحم الله عبدا أحسن فيما بينه وبين زوجته ، فإن الله عزّ وجلّ قد ملّكه ناصيتها وجعله القيم عليها»^(٨) . وجاء في الحديث السابق تفسير الإحسان بالغض عنها والستر عليها.
وقد فسّر القاضي ابن البراج القيمومة هنا بالقيام بحقوقها التي فرض الله لها على الزوج. قال : وقال تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾^(٩) . يعني : أنهم قوامون بحقوق النساء التي لهنّ على الأزواج^(١٠) .

(١) الكافي ، ج ٥ ، ص ٥١٠ ، رقم ٣ وصحّحناه على النهج.

(٢) المصدر : رقم ١.

(٣) من لا يحضره الفقيه ، ج ٣ ، ص ٣٦٢ ، رقم ١٣ / ١٧٢٤ ، باب ١٧٨ (النوادر).

(٤) الكافي ، ج ٥ ، ص ٥١١ ، رقم ٤.

(٥) بحار الأنوار ، ج ١٠٠ ، ص ٢٥١ ، رقم ٤٨ عن أمالي الشيخ الطوسي ، ج ٢ ، ص ١٩٧.

(٦) المصدر : ص ٢٥٢ ، رقم ٥٠ عن الأمالي للطوسي ، ج ٢ ، ص ٢٧٦.

(٧) المصدر : ص ٢٥٣ ، رقم ٥٨.

(٨) من لا يحضره الفقيه ، ج ٣ ، ص ٢٨١ ، رقم ١٣٣٨.

(٩) النساء ٤ : ٣٤.

(١٠) المهذب ، ج ٢ ، ص ٢٢٥.

وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. ^(١) ويتأكد بقوله تعالى : ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. ^(٢) قال ابن البراج : يعني أنّ لكل واحد منهما ما عليه لصاحبه ، يجمع بينهما من حيث الوجوب. ^(٣)

وقد لعن رسول الله ﷺ من ضيّع حقوق امرأته ولم يراع جانبها. قال : «ملعون ملعون من يضيّع من يعول». ^(٤) وفي حديث آخر : «كفى بالمرء هلاكاً أن يضيّع من يعول». ^(٥) وقال ﷺ «خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي». ^(٦)

وقال : «خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي». ^(٧)

وأخرج الترمذي وصحّحه والنسائي وابن ماجّة عن عمرو بن الأحوص ، أنّه شهد حجّة الوداع مع رسول الله ﷺ قام وخطب ، وفيما قال في خطبته : «ألا واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنّما هنّ عوان عندكم ، ليس تملكون منهنّ شيئاً غير ذلك إلّا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فاهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ ضرباً غير مبرّح». ^(٨)

قوله : «عوان عندكم» يعني : إنّهنّ قد قضين عندكم عمراً وفقدن ريعان شبابهنّ عندكم.

قال رسول الله ﷺ : «خيركم خياركم لنسائهم». ^(٩) وقال : «ومن اتّخذ زوجة فليكرمها». ^(١٠)

وفي رواية أبي القاسم بن قولويه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : «من اشتدّ لنا حبّاً اشتدّ للنساء حبّاً». ^(١١)

(١) النساء ٤ : ١٩ .

(٢) البقرة ٢ : ٢٢٨ .

(٣) المهذب ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٤) من لا يحضره الفقيه ، ج ٣ ، ص ١٠٣ ، رقم ٤١٧ .

(٥) دعائم الإسلام للقاضي نعمان المصري ، ج ٢ ، ص ١٩٣ ، رقم ٦٩٩ .

(٦) من لا يحضره الفقيه ، ج ٣ ، ص ٣٦٢ ، رقم ١٧٢١ .

(٧) المصدر : ص ٢٨١ ، رقم ١٣٣٩ ؛ ووسائل الشيعة ، ج ٢٠ ، ص ١٦٧ . ١٧١ ، باب ٨٦ و ٨٧ و ٨٨ من أبواب مقدّمات النكاح .

(٨) الدرّ المنثور ، ج ٢ ، ص ٥٢٣ .

(٩) بحار الأنوار ، ج ١٠٠ ، ص ٢٢٦ ، رقم ١٥ عن كتاب الأمالي للطوسي ، ج ٢ ، ص ٦ .

(١٠) مستدرک الوسائل ، ج ١٤ ، ص ٢٥٠ ، رقم ٢ ، باب ٦٦ من أبواب مقدّمات النكاح .

(١١) السرائر لابن إدريس ، ج ٣ ، ص ٦٣٦ . وراجع : البحار ، ج ١٠٠ ، ص ٢٢٧ ، رقم ٢٠ .

وفي كتاب النوادر للراوندي : قال رسول الله ﷺ : «اعطينا أهل البيت سبعة لم يعطهن أحد كان قبلنا . وعدّ منها . : والمحبة للنساء».

وفيه أيضا : قال رسول الله ﷺ : كلما ازداد العبد إيمانا ازداد حبا للنساء. (١)

والمراد بالحبّ في مثل هذه الأحاديث : الإشفاق والإرفاق والمواودة والتحفظ على كرامة المرأة على مستواها الإنساني الرفيع ، وليس النظر إلى جانب الشهوة ، كلّا وحاشا.

وفي حديث الحولاء جاءت إلى النبي ﷺ تسأله عن حقّ الرجل على المرأة ، وعن حقّ المرأة على الرجل . إلى أن قالت : . فما للنساء على الرجال؟ قال رسول الله ﷺ : «أخبرني أخي جبرائيل ، ولم يزل يوصيني بالنساء حتى ظننت أن لا يحلّ لزوجها أن يقول لها : أفّ! يا محمد ، اتّقوا الله عَجَّلَ في النساء ، فإنّهنّ عوان بين أيديكم ، أخذتموهنّ على أمانات الله . إلى أن قال . فاشفقوا عليهنّ وطيبوا قلوبهنّ حتى يقفن معكم ، ولا تكرهوا النساء ولا تسخطوا بهنّ». (٢)

وروى الصدوق في كتابه «علل الشرائع» و «الأمالي» بالإسناد إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال : «فداروهنّ على كلّ حال ، وأحسنوا لهنّ المقال ، لعلهنّ يحسنّ الفعال». (٣)

وعن الصادق عن أبيه عليه السلام : «من اتخذ امرأة فليكرمها ، فإنما امرأة أحدكم لعبة ، فمن اتخذها فلا يضيّعها». (٤)

* * *

وبعد ، فإنّ المتحصّل من تلكم الأحاديث المتوقّرة أنّ للمرأة كرامتها الإنسانية الرفيعة ، وعلى المرء أن يحافظ على كرامتها ولا يشينها ولا يهينها ، ويحسن المعاشرة معها ، ويجعل نفسه ونفسها شريكين متوازيين في إدارة شئون الحياة العائلية ، بتوزيع

(١) نوادر الراوندي ، ص ١١٤ .

(٢) مستدرک الوسائل ، ج ١٤ ، ص ٢٥٢ ، رقم ٢ ، باب ٦٨ من أبواب مقدّمات النكاح.

(٣) بحار الأنوار ، ج ١٠٠ ، ص ٢٢٣ ، رقم ١ . عن علل الشرائع ، ص ٥١٣ ؛ والأمالي للصدوق ، ص ٢٠٦ .

(٤) المصدر : ص ٢٢٤ ، رقم ٥ .

المسئوليات توزيعاً عادلاً ، ولا يكرهها على شيء ، بل يستميل خاطرها ويستميح جانبها ، ويعاشرها برفق ومدارة ، فإنَّها ربحانة وليست بقهرمانة. وإذا رأى منها زلَّةً غضَّ بصره عنها ، وإذا أحسَّ الشقاق واللجاج أحسن المدارة معها ليستميح خاطرها المرهف الرقيق. فلا يغلظ ولا يحتدَّ معها ، فإنَّه عوان (خاضعات) لكم ، فاشفقوا عليهنَّ وطيبوا قلوبهنَّ ، حتَّى يقفن معكم ، ولا تكرهوهنَّ ولا تسخطوهنَّ. كما مرَّ في الحديث النبوي . فداروهنَّ على كلِّ حال ، وأحسنوا لهنَّ المقال ، لعلَّهنَّ يحسنَّ الفعال . كما مرَّ في كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام . فمن اتَّخذ زوجة فليكرمها ، فإنَّما هي لعبة ، فمن اتَّخذها فلا يضيِّعها كما قال الإمام الصادق عليه السلام .

وأما الضرب ، فقد منع منه منعاً باتاً ، إلَّا إذا كان غير مبرَّح ولا شائن ، والأولى أن يكون تأديباً عن طريق التضييق عليها في الإنفاق ، لا الضرب باليد ولا بالعصا.

والأولى من ذلك ترك الضرب البتة اقتداء بالنبيِّ الأكرم والأئمة المعصومين عليهم صلوات المصلِّين. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾. (١)

ومن ترك هذه الاسوة الحسنة لم يكن متَّبعا لنبيِّ الإسلام. ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾. (٢) وخياركم خياركم لنسائهم ، والنبيِّ خير الناس لنسائه. ألا ومن ضرب امرأته أو لطمها فهو أحقُّ بالضرب واللطم ، ولم يكن من خيار الامة ، ولعلَّه من شرارهم ، والعياذ بالله.

ذلك أمَّا إذا فعلت أمراً فلعلَّها من جانب غلبة العاطفة عليها ، وهي جيّاشة. أمَّا الرجل فلما ذا يسترسل قيادته لأحاسيس عابرة ، ولا يستسلم للعقل الرشيد ، فهو أولى بالضرب والتأديب. وعلى أي حال فهو ليس من خيار الامة ، ممَّن ترَبَّوا على منهج التربية الإسلامية الرفيعة. ونتيجة على ذلك : كانت الآية بظاهرها المطلق منسوخة نسخاً تمهيدياً ، كان

(١) الأحزاب ٣٣ : ٢١.

(٢) آل عمران ٣ : ٣١.

الناسخ لها تلك التوصيات الأكيدة بشأن المرأة ، والأخذ بجانبها والحفاظ على كرامتها. وكذا المنع عن ضربها على أيّ نحو كان إلّا ما لا يعدّ ضربا ، وهو بالعطف والحنان أشبه منه إلى الإسلام. وهكذا عمل الرسول وكبراء الأئمة ، ممّن امرنا باتّباعهم على كلّ حال.

إذن ، فالأخذ بظاهر إطلاق الآية أخذ بظاهر منسوخ ، ومخالفة صريحة لمنع الرسول وتوصياته البالغة ، وكذا الأئمة الطاهرين من بعده.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾^(١)

لحجاب المرأة. في الإسلام. مكانة رفيعة ، تصوّنها عن الابتذال وتحفظ على كرامتها دون الانحطاط. إنّها محترمة احترام إنسان كريم لها عزّها وشرفها التليد وليس بطارف ، ولم يكن فرض الحجاب عليها إلّا صيانة لهذا الشرف وحفاظا على ذاك العزّ ،^(٢) فلا تسترسل حيث ساقها أهل الاستهواء.

هذا فضلا عن أنّ الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف ، لا تهاج فيه الشهوات في كلّ لحظة ولا تستثار فيه دفعات البدن في كلّ حين. فعمليّات الاستشارة المستمرة تنتهي إلى سعار شهواني لا ينطفئ ولا يرتوي. والنظرة الخائنة ، والحركة المثيرة ، والزينة المتبرّجة ، والجسم العاري ... كلّها لا تصنع شيئا إلّا أن تهيج ذلك السعار الحيواني المجنون ، وإلّا أن يفلت زمام الأعصاب والإرادة. فإمّا الإفشاء الفوضوي الذي لا يتقيّد بقيد ، وإمّا الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة! وهي تكاد أن تكون عملية تعذيب.

وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف هي الحيلولة دون هذه الاستشارة ، وإبقاء الدافع الفطري العميق بين الجنسين سليما وبقوّته الطبيعية ، دون استشارة مصطنعة ، وإثما تصريفه في موضعه المأمون النظيف.

(١) النور ٢٤ : ٣١.

(٢) كما يبدو من أحاديث جواز النظر إلى شعور نساء أهل الذمّة لعدم حرمتهم. وسائل الشيعة ، ج ٢٠ ، ص ٢٠٥ ، باب ١١٢ من أبواب مقدّمات النكاح.

ففي الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام فيما كتبه جواباً عن مسائل محمد بن سنان : «وحرّم النظر إلى شعور النساء المحجوبات بالأزواج وإلى غيرهنّ من النساء لما فيه من تهيج الرجال وما يدعو إليه التهيج من الفساد والدخول فيما لا يحلّ ولا يجمل...»^(١).

قال سيّد قطب : ولقد شاع : أنّ النظرة المباحة ، والحديث الطليق ، والاختلاط الميسور ، والدعابة المرحّة بين الجنسين والاطّلاع على مواضع الفتنة المخبوءة ... شاع أنّ كلّ هذا تنفيس وترويح ، وإطلاق للرغبات الحبيسة ، ووقاية من الكبت ، ومن العقد النفسية ، وتخفيف من حدّة الضغط الجنسي ، وما وراءه من اندفاع غير مأمون ... إلخ.

شاع هذا على أثر انتشار بعض النظريّات الماديّة القائمة على تجريد الإنسان من خصائصه التي تفرّقه من الحيوان ، والرجوع به إلى القاعدة الحيوانية الغارقة في الطين ... ولكن هذا لم يكن سوى فروض نظرية ، رأيت بعيني في أشدّ البلاد إباحية وتفلّتاً من جميع القيود الاجتماعية والأخلاقية والدينية والإنسانية ، ما يكذبها وينقضها من الأساس.

نعم ، شاهدت في البلاد التي ليس فيها قيد واحد على الكشف الجسدي والاختلاط الجنسي بكلّ صوره وأشكاله أنّ هذا كلّ لم ينته بتهذيب الدوافع الجنسية وترويضها. إنّما انتهى إلى سعار مجنون لا يرتوي ولا يهدأ إلّا ريثما يعود إلى الظمأ والاندفاع. وشاهدت الأمراض النفسية والعقد التي كان مفهومها أنّها لا تنشأ إلّا من الحرمان وإلّا من التلهّف على الجنس الآخر المحجوب. شاهدتها بوفرة ومعها الشذوذ الجنسي بكلّ أنواعه ، ثمرة مباشرة للاختلاط الكامل الذي لا يقيده قيد ولا يقف عند حدّ ، وللصداقات بين الجنسين تلك التي يباح معها كلّ شيء ، وللأجسام العارية في الطريق ، وللحركات المثيرة والنظرات الجاهرة ، واللفتات الموقظة ...^(٢) كلّ ذلك لما يدلّ بوضوح

(١) وسائل الشيعة ، ج ٢٠ ، ص ١٩٣ . ١٩٤ ، رقم ١٢ ، باب ١٠٤ من أبواب مقدّمات النكاح.

(٢) راجع كتابه «أمريكا التي رأيت» وفيه التفصيل وعرض الحوادث والشواهد. وراجع أيضاً كتاب (الإنسان بين الماديّة والإسلام» لمحمد قطب ، فصل «المشكلة . الجنسية» فقد توسّع في هذا المجال.

على ضرورة إعادة النظر في تلك النظريات التي كذّبتها الواقع المشهود. ^(١)

إنّ الميل الفطري بين الرجل والمرأة ميل عميق في التكوين الحيوي ، لأنّ الله قد ناط به امتداد الحياة في هذه الأرض ، وتحقيق الخلافة لهذا الإنسان فيها. فهو ميل دائم يسكن فترة ثم يعود. وإثارته في كلّ حين تزيد من عرامته ، وتدفع به إلى الإفضاء المادّي للحصول على الراحة. فإذا لم يتمّ هذا انحارت الأعصاب المستثارة ، وكان هذا بمثابة عملية تعذيب مستمرة! ... والنظرة تنير! والحركة تنير! والضحكة تنير! والدعابة تنير! والنبرة المعبرة عن هذا الميل تنير! ... والطريق المأمون هو تقليل هذه المثيرات ، بحيث يبقى هذا الميل في حدوده الطبيعية ، ثم يلبي تلبية طبيعية. وهذا هو المنهج الذي يختاره الإسلام ، مع تهذيب الطبع ، وشغل الطاقة البشرية بمموم أخرى في الحياة ، غير تلبية دافع اللحم والدم ، فلا تكون هذه التلبية هي المنفذ الوحيد.

وفي القرآن إشارة إلى نماذج من تقليل فرص الاستثارة والغواية والفتنة من الجانبين الرجل والمرأة : قال تعالى : ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. ^(٢)

قال سيّد قطب : وغضّ البصر من جانب الرجال أدب نفسي ، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطّلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام. كما أنّ فيه إغلاقاً للنافذة الاولى من نوافذ الفتنة والغواية ، ومحاولة عمليّة للحيلولة دون وصول السهم المسموم!

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : «النظرة سهم من سهام إبليس مسموم ، وكم من نظرة أورثت حسرة طويلة». قال : «من تركها لله عزّ وجلّ لا لغيره أعقبه الله أمناً وإيماناً يجد طعمه». وقال : «النظرة بعد النظرة تزرع في القلب الشهوة ، وكفى بها لصاحبها فتنة». ^(٣)

وأما حفظ الفرج فهو الثمرة الطبيعية لغضّ البصر ، أو هو الخطوة التالية لتحكيم

(١) راجع : في ظلال القرآن ، تفسير سورة النور ، ج ١٨ ، ص ٩٣ ، المجلّد السادس.

(٢) النور ٢٤ : ٣٠.

(٣) وسائل الشيعة ، ج ٢٠ ، ص ١٩١-١٩٢ ، رقم ١ و ٥ و ٦ ، باب ١٠٤ من أبواب مقدّمات النكاح.

الإرادة ويقظة الرقابة والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى. ومن ثمّ يجمع بينهما في آية واحدة ، بوصفهما سببا ونتيجة ، أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع ، كلتاها قريب من قريب.

قال رسول الله ﷺ : «لكم . أي يغفر لكم . أول نظرة إلى المرأة فلا تتبعوها نظرة أخرى واحذروا الفتنة». (١)

﴿ذَلِكَ أَزْكَى هُمْ﴾ فهو أطهر لمشاعرهم وأضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوية في غير موضعها المشروع النظيف ، وعدم ارتكاسها إلى الدرك الحيواني الهابط. وهو أطهر للجماعة وأصون لحرمتها وأعراضها وجوّها الذي تتنفس فيه. قال الإمام الصادق عليه السلام : «ما يأمن الذين ينظرون في أدبار النساء أن ينظر بذلك في نسائهم؟!». (٢)

والله الذي يأخذهم بهذه الوقاية ، وهو العليم بتركيبهم النفسي وتكوينهم الفطري ، الخبير بحركات نفوسهم وحركات جوارحهم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. (٣)

روى الإمام جعفر بن محمد الصادق عن آبائه عن رسول الله ﷺ قال : «من ملأ عينيه من حرام ملأ الله عينيه يوم القيامة من النار إلا أن يتوب ويرجع ... ومن صافح امرأة تحرم عليه فقد باء بسخط من الله عزّ وجلّ . ومن التزم امرأة حراما قرن في سلسلة من نار مع شيطان فيقذفان في النار». (٤)

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ فلا يرسلن بنظراتهنّ الجائعة المتلصّصة أو الهاتفة المثيرة تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال. ولا يبحن فروجهنّ إلّا في حلال طيّب ، يلبي داعي الفطرة في جوّ نظيف ، لا يخجل الأطفال الذين يجيئون عن طريقه ، عن مواجهة المجتمع والحياة!

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾. والزينة : كلّ ما يفتتن به من المرأة ويثير الرغبة فيها ممّا يوقرّ في جمالها. وبذلك عمّت الحلى وغيرها من مفاتن جسدها المهيجّة ، كلّ

(١) المصدر : ص ١٩٤ ، رقم ١٥ .

(٢) المصدر : ص ١٩٩ ، باب ١٠٨ ، رقم ١ .

(٣) النور ٢٤ : ٣٠ .

(٤) المصدر : ص ١٩٦ ، باب ١٠٥ ، رقم ١ .

ذلك زينة لها يجب عليها التستر عن الأجانب ، وحتى المحارم فيما سوى الزوج ، ومن ثمَّ عقَّبها بقوله : ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾^(١) فتسدل الخمار على صدرها حتى يستر مفاتن جيدها وأطراف صدرها.

نعم سوى مواضع لا يمكن سترها وهي تزاول التعامل في مسرح الحياة ، كالوجه والكفين ، في غير ما ربية. وفي صحيحة الفضيل بن يسار عن الإمام الصادق عليه السلام سألته عن الذراعين من المرأة ، هما من الزينة التي قال الله : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ...﴾؟ قال : «نعم ، وما دون الخمار من الزينة. وما دون السوارين». ^(٢)

وفي حديث عبد الله بن جعفر عن الصادق عليه السلام وقد سئل عن الزينة الظاهرة ، قال : الوجه والكفان. ^(٣)

تعدد الزوجات

وأيضاً كان الجدل عنيفاً حول مسألة «تعدد الزوجات». كانت عادة جاهلية ومهينة بموضع المرأة في الحياة الاجتماعية والاسرية ، حينما نجد الإسلام قد أقرها ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾. ^(٤)

غير أنَّ الآية نزلت في ظروف خاصّة وعلاجاً لمشكلة اجتماعية كانت تقتضيها طبيعة الاسلام الحركية ولا تزال ، وهو دين كفاح ونضال مستمرّ مع خصوم الإنسانية عبر الأجيال.

كان الإسلام من أوّل يومه نهضة إنسانية دفاعاً عن حريم الإنسان وكسراً لشوكة خصومه الألداء. ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَتَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. ^(٥) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾. ^(٦) فلا يزال الإسلام في كفاح مستمرّ مع المستكبرين في الأرض وفي صالح

(١) النور ٢٤ : ٣١.

(٢) المصدر : ص ٢٠٠ . ٢٠١.

(٣) المصدر : ص ٢٠٢ ، رقم ٥.

(٤) النساء ٤ : ٣.

(٥) القصص ٢٨ : ٥ و ٦.

(٦) الأنبياء ٢١ : ١٠٥.

المستضعفين ، حتى يتحقق هذا الهدف المقدس ويتمكن الصالحون من الحكم على أرجاء العالم المعمور .

ولا شك أنّ دينا كان ذلك منهجه وهذا دأبه كانت المشاكل الاجتماعية التي تستعقبها هذا المنهج الحركي حليفته عبر الأيام ، فلا بدّ هناك من وضع برامج لمعالجتها علاجا حاسما دون تعقّد العراقيل .

ومن المشاكل هذه مشكلة الأيتام القصّر وأموالهم إلى جنب الأرامل الشابات ، التي تخلفها الحروب وهي تلتهم الشبان من الرجال . فلا بدّ من قيمومة بشأن القصّر وعلاج مشكلة الأرامل دون تفشّي الفساد .

كان المسلمون بدورهم آنذاك موظّفين بكفالة الأيتام والقيام بشئونهم دون ضياع أموالهم . وربما كان بعضهم يتحرّجون من ذلك خشية قصور أو تقصير بشأن اليتامى . وهكذا كانت مشكلة الأرامل حقيقة واقعة لا مهرب منها . سوى الترخيص في الزواج معهنّ من قبل رجال أكفاء ، وكان في ذلك رعاية لكلا الجانبين : عدم التحرّج في التصرف في أموال اليتامى حسب مصالحهم وهم رباب ، والحنول دون تفشّي الفساد والفحشاء ما دامت المرأة تجد نفسها في حماية رجل مؤمن كفي . والآية في وقتها نزلت بهذا الشأن .

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا. وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾^(١) .

انظر إلى التناسب القريب بين قوله تعالى : ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ وقوله : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي الأرامل الشابات ، وهذا التفريع بالفاء ممّا ينبؤك على هذا الترابط بين الأمرين بوضوح .

فلنفرض أنّ مؤسسات خيرية قامت بشئون اليتامى ، ولكن ما هو العلاج الحاسم

(١) النساء ٤ : ٢ و ٣ .

. الدائم مع دوام حركية الإسلام . بشأن الأرملة ، فيما سوى ترخيص التعدد في الزواج ، وعلى شريطة التعادل في حمايتهنّ وفق موازين الشريعة بشأن الأزواج؟!

من ثمّ كانت قضية الترخيص في تعدد الزوجات . مع ملاحظة هذه الشروط والظروف والملابسات . قضية حاسمة لمشكلة اجتماعية هي من أهمّ المشاكل التي قد تعرقل في سبيل الحركة الإصلاحية ، وهي فريضة إسلامية عامة شاملة ودائمة.

هذا بالنظر إلى النصّ القرآني الوارد بشأن تشريع تعدد الزوجات في حالات اضطرارية وظروف حرجة ومشاكل لا يحلّها سوى هذا التشريع العادل. وكم من مفاسد اجتماعية فظيعة قاستها أمم إثر حروب عارمة التهمت عامة الرجال وبقيت النساء الأرملة يتبعين حماية رجال أكفاء فلا يجدن ، ثمّ سادت الفحشاء وراج الابتذال الخلقي لا في النساء فقط بل في الأطفال الضيّع الصغار أيضا.

وهذه الحرب العالمية الثانية كم خلّفت من مساوئ ومفاسد عمّت أرجاء البلاد الأوروبية ولا سيّما القطر الألماني الذي تألب عليه حشد المحاربين من كلّ الجهات : حلفاء الدول الأوروبية وأمريكا والسوفييت في تحالف ثلاثي ضدّ الألمان المنكسر بعد ذلك التهاجم العنيف.

ثمّ مع قطع النظر عن شأن نزول الآية نرى إنّ في هذا التشريع إجابة لواقع الإنسان في فطرته وصيانة للمجتمع دون تفشّي الفساد فيه ، تشريعا في ظروف خاصّة وفي ظلّ شرائط محدّدة ، فقد جاء الإسلام ليحدّد لا ليطلق ويترك الأمر لهوى الرجل ، فقد قيّد التعدّد بالعدل وإلا امتنعت الرخصة. ولكن لما ذا أباح هذه الرخصة؟ إنّ الإسلام نظام للإنسان ، نظام واقعي إيجابي يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه ويتوافق مع واقعه وضروراته ويتوافق مع ملابس حياته المتغيّرة في شتى البقاع وشتّى الأزمان والأحوال. إنّ نظام واقعي إيجابي يلتقط الإنسان من واقعه الذي هو فيه ومن موقفه الذي هو عليه ، ليرتفع به في المرتقى الصاعد إلى القمّة السامقة ، في غير إنكار لفطرته أو تنكّر ، وفي غير إغفال لواقعه أو إهمال ، وفي غير عنف في دفعه أو اعتساف.

إنّ نظام لا يقوم على الخذلقة الجوفاء ، ولا على التطرّف المائع ، ولا على المثالية الفارغة ، ولا على الامنيّات الحاملة التي تصطدم بفطرة الإنسان وواقعه وملايسات حياته ثمّ تتبحّر في الهواء.

وهو مع ذلك نظام يرعى خلق الإنسان ونظافة المجتمع ، فلا يسمح بإنشاء واقع مادّي من شأنه انحلال الخلق وتلوّث المجتمع تحت مطارق الضرورة التي تصطدم بذلك الواقع. بل يتوخّى دائما أن ينشئ واقعا يساعد على صيانة الخلق ونظافة المجتمع مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبدله المجتمع. فإذا استصبحنا معنا هذه الخصائص الأساسية في النظام الإسلامي ونحن ننظر إلى مسألة تعدّد الزوجات فما ذا نرى؟ نرى أنّ هناك حالات واقعية في مجتمعات كثيرة. تاريخية وحاضرة. تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج ، على عدد الرجال الصالحين للزواج. فكيف نعالج هذا الواقع الذي يقع ويتكرّر وقوعه بنسب مختلفة؟ هذا الواقع الذي لا يجدي فيه الإنكار ، أنعالجه بهزّ الكتفين؟ أو نتركه يعالج نفسه بنفسه حسب الظروف والمصادفات؟! إنّ هزّ الكتفين لا يحلّ مشكلة! كما أنّ ترك المجتمع ليعالج هذا الواقع حسبما اتّفق لا يقول به إنسان جادّ يحترم نفسه ويحترم الجنس البشري. فلا بدّ إذن من نظام ، ولا بدّ إذن من إجراء.

وعندئذ نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات :

١. أن يتزوَّج كلّ رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج ثمّ تبقى واحدة أو أكثر. حسب درجة الاختلال الواقعة. بدون زواج ، تقضى حياتها. أو حياتهنّ. لا تعرف الرجال الأكفاء.
٢. أن يتزوَّج كلّ رجل صالح للزواج واحدة فقط زواجا شرعيّا نظيفا ، ثمّ يخادن أو يسافح واحدة أو أكثر من هؤلاء اللواتي ليس لهنّ مقابل كفؤ من الرجال ، فيعرفن الرجل خدينا أو خليلا في الحرام والظلام.^(١)

(١) وقد عالجت فرنسا هذه المشكلة بإباحة اتخاذ الخلية قانونيا إلى جنب الزواج الشرعي. ولكن المشكلة لم تقف عند .

٣. أن يتزوج الرجال الصالحون .كلّهم أو بعضهم . أكثر من واحدة. وأن تعرف المرأة الاخرى الرجل ، زوجة شريفة في وضح النور لا خدينة ولا خلية في الحرام والظلام.

الاحتمال الأوّل ضدّ الفطرة وضدّ طبيعة المرأة في شعورها الانوثي ، إذ ليس الاشتغال بالاكْتساب والعمل ممّا يسدّ حاجة المرأة في الحياة ، فإنّ المسألة أعمق بكثير ممّا يظنّه هؤلاء المتحدلقون السطحويّون. فكما أنّ الرجل يكتسب ويعمل ولكن هذا لا يكفيه فيروح يسعى للحصول على العشير ، كذلك المرأة ، فهما من نفس واحدة على سواء.

والاحتمال الثاني ضدّ الاتجاه الاسلامي النظيف وضدّ قاعدة المجتمع الإسلامي العفيف وضدّ كرامة المرأة الإنسانية المترقّعة عن الابتذال. والاحتمال الثالث هو الذي يختاره الإسلام ، يختار في إطار محدود وعلى شرائط عادلة ، وهو العلاج النافع لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وللسيد قطب هنا بحث مذيّل ومستوف بجوانب الموضوع ، وكذلك صاحب تفسير المنار ، والعلامة الطباطبائي في الميزان ، وغيرهم من أعلام. ^(١) ثمّ لم يكن هذا التشريع تشريعا مطلقا بل متقيّدا برعاية العدل وفي رقابة من تقوى القلوب. نعم إنّ هذه الأرض لا تصلح بالتشريعات والتنظيمات ما لم يكن هناك رقابة من التقوى في الضمير ، وهذه التقوى لا تجيش إلّا حين يكون التشريع صادرا من الجهة المطلّعة على السرائر الرقيبة على الضمائر. عندئذ يحسّ الفرد . وهو يهّم بانتهاك حرمة القانون . أنّه يخون الله ويعصي أمره ويصادم إرادته ، وأنّ الله مطّلع على نيّته هذه ومملى فعله هذا ، وعندئذ تنزل أقدامه وترتجف مفاصله وتخور قواه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ

. هذا الحدّ ، حيث هناك مشكلة أعمق هي مشكلة نتاج هذه الخليفة من أولاد ، هل يعتبرون أولادا شرعيّين أم ما ذا؟ ولذلك طالبت الحكومة الفرنسيّة أخيرا من الحكومات الإسلامية أن ترفع إليها أطروحة تعدّد الزوجات ، لعلّها تجد فيها حلا لمشكلتها القانونية في هذا الجانب من الحياة العائلية العويصة.

(١) راجع : في ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ٢٤٠ . ٢٤٥ ، المجلّد الثاني ؛ وتفسير المنار ، ج ٤ ، ص ٣٥٧ . ٣٦٢ ؛ والميزان ، ج ٤ ، ص ١٩٥ . ٢٠٧ .

رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾. ﴿٢﴾ ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. ﴿٣﴾ ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾. ﴿٤﴾ ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. ﴿٥﴾ هذه هي الرقابة الداخلية التي يحسّ بها كلّ إنسان صاحب ضمير.

إنّ الله أعلم بعباده وأعرف بفطرتهم وأخبر بتكوينهم النفسي والعاطفي . وهو خلقهم . ومن ثمّ جعل التشريع تشريعه والقانون قانونه والنظام نظامه ، ليكون له في القلوب وزنه وأثره ومخالفته ومهابته . وإنّ الناس مهما أطاعوا أمثالهم تحت تأثير البطش والإرهاب والرقابة الظاهرية التي لا تطلّع على الأفئدة فإنّهم لا بدّ متفلّتون منها كلّما غافلوا الرقابة وكلّما واتتهم الحيلة.

ومن ثمّ قال تعالى : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ... ذَلِكَ أَذْنُ أَلَّا تَعُولُوا﴾^(٦) أي لا تعدلوا وتميلوا على الحقّ إلى الجور . فهذه المسألة . مسألة إباحة تعدّد الزوجات بذلك التحفّظ الذي قرّره الإسلام . يحسن أن تؤخذ بيسر ووضوح وحسم ، وأن تعرف الملابسات الحقيقية والواقعية التي تحيط بها . فالإسلام نظام يراعي خلق الإنسان ونظافة المجتمع ، فلا يسمح بإنشاء واقع مادّي ملوّث ، من شأنه انحلال الخلق وتلويث المجتمع ، تحت مطارق الضرورة التي تصطدم بذلك الواقع . بل يتوخّى دائما أن ينشئ واقعا يساعد على صيانة الخلق ونظافة المجتمع مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبذله المجتمع.

تعدّد زوجات النبيّ

هناك مسألة اخرى ناسب التعرض لها ، فيما رخص النبيّ ﷺ لنفسه اختيار تعدّد الزوجات فوق الأربع ، الأمر الذي لم يرخسه لأمته . وقد اثير حولها عجاج عارم ، محاولة للنيل من قداسة مقامه الكريم . لقد قام المستشرقون وقعدوا وصاحوا صيحاتهم قصدا إلى

(١) النساء ٤ : ١ .

(٢) الأحزاب ٣٣ : ٥٢ .

(٣) ق ٥٠ : ١٨ .

(٤) ق ٥٠ : ٤ .

(٥) الكهف ١٨ : ٤٩ .

(٦) النساء ٤ : ٣ .

تشويه سمعة صاحب الرسالة ليصوّره رجل شهوة منهمكا في غرامه للنساء انهماك الملوك المترفين. وقد حاكوا أقاصيص حول تزويج النبيّ بعدّة زوجات . بعد تجاوزه العقد الخامس من عمره الكريم ، السنّ التي تفتّر بعدها رغبة الرجال في النساء ، وجعل يكرّرها ويردّدها أمثال «موير» و «أرفنج» و «سيرنجر» و «فيل» و «درمنجم» و «لامنس»^(١) وغيرهم ممّن تناولوا كتابة حياة محمد ﷺ لكنها شهوة التبشير المكشوف تارة ، والتبشير باسم العلم اخرى. والخصومة القديمة للإسلام خصومة تأصّلت في النفوس منذ الحروب الصليبيّة التي تملّى على هؤلاء جميعا ما يكتبون ويسطّرون ، وتجعلهم في أمر زواج النبيّ ﷺ فيمن تزوّج ، يتجنّون على التاريخ ويحاولون قلب الحقيقة من واقعها الناصع النزيه إلى ظاهرة مشوّهة كريهة. أمّا الحقيقة فهي تشهد بوضوح أنّ محمدا ﷺ لم يكن رجلا يأخذ بعقله الهوى ، وهو لم يتزوّج من تزوّج من نسائه بدافع من شهوة فائضة أو غرام عارم. وإذا كان بعض الكتّاب المسلمين في بعض العصور قد أباحوا لأنفسهم أن يقولوا هذا القول وأن يقدّموا لخصوم الإسلام . عن حسن نيّة . هذه الحجّة فذلك لأنهم انحدر بهم التقليد إلى المادّية ، فأرادوا أن يصوّروا محمّدا عظيما في كلّ شيء ، عظيما حتّى في شهوات الدنيا. وهذا تصوّر خاطئ ينكره تاريخ حياته الكريمه أشدّ إنكار ، وتأبى مشيته الزهية . التي عاشها في ذلك الجوّ الحالك . أن تقرّه وتشهد به.

فهو قد تزوّج من خديجة . وهي أكبر منه بسنين . وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، وهو في شرخ الصبا وريعان الفتوة ووسامة الطلعة وجمال القسمات وكمال الرجولية. مع ذلك ظلّت خديجة وحدها زوجته ثمانيا وعشرين عاما حتّى تخطّى الخمسين. هذا على حين كان تعدّد الزوجات أمرا شائعا بين العرب ذلك الحين ، وعلى حين كان لمحمد مندوحة في التزويج على خديجة أن لم يعيش له منها ذكر ، في وقت

(١) راجع : حياة لمحمد حسين هيكل : ص ٢٩٣ .

كانت توأد فيه البنات. وقد ظلَّ محمد ﷺ مع خديجة ﷺ سبع عشرة قبل بعثته إحدى عشرة سنة بعدها ، وهو لا يفكر قطّ في أن يشرك معها غيرها في فراشه. كما لم يعرف عنه في حياة خديجة ولم يعرف عنه زواجه منها أنّه كان ممّن تغريهم مفاتن النساء في وقت لم يكن فيه على النساء حجاب ، وكانت النساء متبرّجات ، يبدن من زينتهنّ ما حرّمه الإسلام من بعد. فمن غير الطبيعي أن نراه . وقد تخطّى الخمسين . ينقلب فجأة هذا الانقلاب الذي يجعله ما يكاد يرى بنت جحش وعنده نساء خمس حتّى يفتن بها وتأخذ تفكيره ليله ونهاره حسبما سطره.

ومن غير الطبيعي أن نراه . وقد تخطّى الخمسين . يجمع في خمس سنوات أكثر من سبع زوجات ، وفي سبع سنوات تسع زوجات ، وذلك كلّ بدافع من الشهوة الملحة والرغبة العارمة في النساء . والعياذ بالله . رغبة صوّرها بعض الكتّاب المسلمين وحذا الافرنج حذوهم تصويرا لا يليق في ضعته برجل مادّي ، بله الرجل العظيم الذي استطاعت رسالته أن تنقل العالم وأن تغير مجرى التاريخ وما تزال على استعداد لأن تنقل العالم مرّة أخرى وتغير مجرى التاريخ طورا جديدا ، وهو على وشك التحقق ونحن على طلائعه بحوله تعالى وقوّته إن شاء الله.

وإذا كان هذا عجيبا وكان غير طبيعي فمن العجيب كذلك أن نرى محمدا ﷺ تلد له خديجة ما ولدت وهو ما قبل الخمسين ، وأنّ مارية تلد له إبراهيم وهو حوالي الستين. ثم لا تلد له نساؤه غير هاتين ، وهنّ بين شابة في مقتبل العمر وبين من كملت انوثتها بين الثلاثين والأربعين وبعضهنّ كنّ ذوات ولد من قبل. فكيف تفسّر هذه الظاهرة الغريبة في حياة النبي؟ هذه الظاهرة التي لا تخضع للقوانين الطبيعية في تسع نسوة جميعا! هذا وقد كان محمد ﷺ قد كانت نفسه كإنسان تهفو من غير ريب إلى أن يكون له ولد!

ثمّ إنّ التاريخ ومنطق حوادثه أصدق شاهد يكذب مزعومة المبشرين والمستشرقين في شأن تعدّد زواج النبي ، فهو لم يشرك مع خديجة امرأة مدى ثمان وعشرين عاما عاش معها. فلما توفيت لستين قبل الهجرة تزوّج سودة بنت زمعة وكانت

قد توفي عنها زوجها بعد الرجوع من هجرة الحبشة الثانية ، ولم يرو راو أنها كانت ذات جمال أو ثروة أو مكانة بما يجعل لمطمع من مطامع الدنيا أثرا في هذا الزواج. وإنما كان زوجها من الرجال السابقين الأولين الذين احتملوا الأذى في سبيل الإسلام وكان ممن هاجر إلى الحبشة بأمر النبي عبر البحر إليها ، وكانت سودة هاجرت معه وعانت من المشاق ما عانى ولقيت من الأذى ما لقي. فإذن تزوجها النبي بعد ذلك ليعولها ويرتفع بمكانتها إلى امومة المؤمنين. وكان زواجه مع عائشة بعد شهر وهي لم تبلغ مبلغ النساء ،^(١) وبقيت سنتين قبل أن يني بها ، فليس من العقل أو يرضاه المنطق أن يكون قد علق قلبه بها وهي في هذه السن الصغيرة.

قال الأستاذ هيكل^(٢) : يؤيد ذلك زواجه مع حفصة بنت عمر . بعد وفاة زوجها خنيس بدر . في غير حب ، بشهادة أبيها عمر ، قال لها ، عند ما آذت هي وعائشة رسول الله : والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولو لا أنا لطلقك. ^(٣) قال : أفرأيت إذن أن محمدا ﷺ لم يتزوج من عائشة ولم يتزوج من حفصة لحب أو لرغبة ، وإنما تزوج منهما ليمتن أواصر هذه الجماعة الإسلامية الناشئة. كما تزوج من سودة ليعلم المجاهدون من المسلمين أنهم إذا استشهدوا في سبيل الله فلن يتركوا وراءهم نسوة وذرية ضعافا يخافون عليهم عيلة. وهكذا في زواجه من زينب بنت خزيمة ومن أم سلمة. فقد كانت زينب زوجا لعبيدة بن الحارث الذي استشهد يوم بدر ولم تكن ذات جمال ، وإنما عرفت بطيبتها وإحسانها حتى لقيت أمنا لمساكين ، وكانت قد تخطت الشباب ، فلم تك إلا سنة أو سنتين ثم قبضها الله. أمنا أم سلمة فكانت زوجا لأبي سلمة وكان لها منه أبناء عدة. فلما توفي زوجها على أثر جراحة أصابته في أحد ففغرت عليه ولحق بجوار ربّه. وبعد أربعة أشهر وعشر من وفاته طلب النبي إلى أم سلمة يدها فاعتذرت بكثرة العيال وبأنها تخطت الشباب ، فما زال بها حتى تزوج منها وحتى أخذ نفسه بالعناية لها وتنشئة أولادها.

(١) قال ابن هشام : تزوجها من رسول الله أبوها أبو بكر ولها سبع سنين وبنى بها بالمدينة ولها تسع أو عشر. (سيرة ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٢٩٣)

(٢) حياة محمد ، ص ٢٨٨.

(٣) الدرّ المنثور : ج ٨ ، ص ٢٢١.

أفيزعم المبشرون والمستشرقون بعد ذلك أنّ أمّ سلمة كانت ذات جمال وهو الذي دعا محمّدا إلى التزوّج منها؟! إن يكن ذلك فقد كانت غيرها من بنات المهاجرين والأنصار من تفوقها جمالا وشبابا وثروة ونضرة ، ومن لا يبهظه عبء عيالها. لكنّه إنّما تزوّج منها لهذا الاعتبار السامي الذي دعاه ليتزوّج زينب بنت خزيمة ^(١) نظير الذي دعاه للتزوّج من حفصة بنت عمر حسبما عرفت.

ما ذا يستنبط التمحيص التاريخي النزيه من ذلك؟ يستنبط أنّ محمّدا ﷺ نصح بالزوجة الواحدة في الحياة العادية ، وقد دعا إلى ذلك بمثله الذي ضربه في حياته الزوجية مع خديجة ، وبه نزل القرآن الكريم ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾. ^(٢) ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾. ^(٣) ولقد نزلت هذه الآيات في اخريات السنة الثامنة للهجرة بعد أن كان قد بنى بأزواجه جميعا ، ونزلت لتحديد عدد الزوجات بأربع وقد كان إلى حين نزولها لا حدّ له ، ممّا يسقط قول القائلين : إنّ محمّدا أباح لنفسه ما حرّم على الناس!

على أنّه رأى في ظروف حياة الجماعة الاستثنائية إمكان الحاجة للتعدد إلى أربع على شرط العدل ، وهو قد دعا إلى ذلك بمثله الذي ضرب أياّم غزوات المسلمين واستشهاد من استشهد منهم.

ولعمرك هل تستطيع أن تقطع بأنّ الاقتصار على الزوجة الواحدة حين تحصد الحروب أو الأوبئة أو الثورات ألوف الرجال وملايينها ، خير من هذا التعدّد الذي ابيح على طريق الاستثناء؟ ^(٤)

* * *

أما قصّة زينب بنت جحش . وما أضفى بعض الرواة وأضفى المستشرقون والمبشرون عليها من أستار الخيال حتّى جعلوها قصّة غرام وو له .. فالتاريخ

الصحيح

(١) حياة محمّد ، ص ٢٨٩ .

(٢) النساء ٤ : ٣ .

(٣) النساء ٤ : ١٢٩ .

(٤) وقد حصدت الحرب الصّدّامية الاستعمارية ضدّ الجمهورية الإسلامية أكثر من مائتي ألف شهيد وهم من خيرة شبّان المسلمين على وجه الأرض.

يحكم بأنّها من مفاخر نبيّ الإسلام ومواقفه الحاسمة في مكافحة رسوم جاهلية بائدة ، وأثّه . وهو المثل الأعلى للإيمان . قد طبّق فيها حديثه الذي معناه : لا يكمل إيمان المرء حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه . وقد جعل نفسه أوّل من يضرب المثل لما يضع من تشريع يمحو به تقاليد الجاهلية وعاداتها ، ويقرّر به النظام الجديد الذي أنزله الله هدى ورحمة للعالمين .

ويكفي لهدم كلّ القصّة . حسبما سطرّوها . أن تعلم أنّ زينب بنت جحش هذه هي ابنة اميمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ ، وأنّها تربّت بعينه وعنايته ، وكان يعرفها ويعرف أهلي ذات محاسن أم لا قبل أن تتزوّج بزيد ، وأثّه هو الذي خطبها على زيد مولاه . وكان أخوها يأبى من أن تتزوّج قرشية هاشمية من عبد رقّ اشتترته خديجة وأعتقته لرسول الله ، فكان يرى في ذلك عارا على زينب اخته ، كما هو عار عند العرب . لكنّ النبيّ ﷺ يريد أن نزول مثل هذه الاعتبارات القائمة في النفوس على العصبية الجاهلة ، وأن لا فضل لعربيّ على أعجميّ إلّا بالتقوى . وهو يرى أن يضحّي من قبيله في كسر شوكة جاهلية ، فلتكن زينب بنت عمّته . وهي امرأة صالحة مطيعة لربّها خاضعة لصالح الإسلام . هي التي تحتل هذا الخروج على تقاليد العرب وهذا الهدم لعاداتها الجاهلة ، مضحية في ذلك بما يقول الناس عنها ممّا تخشى سماعه .

فاستسلمت هي لما فاتحها الرسول بشأن مكافحة عملية ، ابتغاء مرضاة الله . وفي ذلك نزلت الآية : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ .^(١) لم يبق أمام عبد الله واخته زينب بعد نزول هذه الآية إلّا الإذعان والاستسلام ، فقالا : رضينا يا رسول الله . فلمّا سارت زينب إلى زوجها لم يتلاءم خلقها مع زيد ، ولعلّه لأسباب ترجع إلى أعراف شبّ عليها كلّ منهما وعادات وراثتها من أصل نشأتها . وربّما كانت تفخر عليه أو تحتقره حسب فطرتها فلم يكن زيد يتحمّلها واشتكى إلى النبيّ غير مرّة من سوء معاملتها إيّاه واستأذنه غير مرّة في

(١) الأحزاب ٣٣ : ٣٦ .

تطليقها ، فكان النبي يجيبه : ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾. ^(١) ولعلّه أيضا كان يشيء إليها في معاشرته معها غير المتناسبة لشأنها ، الأمر الذي يشي إليه الأمر بتقوى الله. لكنّ زيدا لم يطق الصبر معها حيث بعد الشقة بين خلقهما فطلقها.

وكان النبي ﷺ يعلم بهذه العاقبة ، وأنّ وراءها حكمة اخرى يجب تنفيذها لإبطال عادة جاهلية اخرى كان عليها العرب. كانوا يدينون بشأن الأدياء أنّ لهم اتصالا بالأنساب من إعطائهم جميع حقوق الأبناء وإجراء أحكامهم عليهم حتّى في الميراث وحرمة النسب. أمّا الإسلام فلم يكن يرى للمتبيّ واللصيق سوى حق المولى والأخ في الدين لا أكثر ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ. ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾. ^(٢)

فهنا يأتي دور إبطال هذه العادة الجاهلية إبطالا عمليًا ، والمترشّح لهذه التفدية أو التضحية هو نفس النبي الكريم عليه وعلى آله أفضل صلوات المصلّين ، إذ لم يكن من العرب من يستطيع أن يقوم بهذه التضحية وينقض بها تقاليد الأجيال السالفة! سوى محمد نفسه الذي كان على قوّة عزيمة وعميق إدراك لحكمة الله.

هذا ما كان النبي يعرفه بقوّة فطنته ، وأن سيؤول إلى ذلك ، ولكن كان كلّما يراجع زيدا بشأن تطليق زينب يوصيه بالإمساك بزوجه ، وهو يدري في قرارة نفسه أنّه يطلقها لا محالة ، وأن سوف يؤمر بالتزوّج منها ، وكان يخفي ذلك في نفسه وما كان يبيده ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ. وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي سوف يبدو أنّ وراء هذه التطليقة حكمة اخرى يجب إجراؤها. ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ في إبداء ما يكتنه صدرك من معرفة حكمة الله. ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾. ^(٣)

(١) الأحزاب ٣٣ : ٣٧.

(٢) الأحزاب ٣٣ : ٤ و ٥.

(٣) الأحزاب ٣٣ : ٣٧.

والآيات التالية لها توضّح من هذه الحكمة أكثر توضيحاً :

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا. الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا. مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾. ^(١)

ونلفت النظر هنا نكتتان : الاولى : أنّ الذي كان يخفيه النبيّ في نفسه وأبداه الله ، كان علمه ﷺ بمآل الأمر وأنّ هذا الزواج سينتهي إلى الفراق ، تمهيدا لتحقيق حكمة اخرى دبرها الله تعالى في تحكيم شريعته في الأرض.

والنكتة الثانية : كانت خشيته ﷺ هي خوف أن تثور ثائرة الجاهلية الاولى ، فلا تتحمّل العرب نقض عاداتها الموروثة واحدة تلو اخرى ، وكانت ضربة قاضية على عاداتها التي جرت عليها آباؤهم الأولون. ومن ثمّ طمأنه تعالى ووعدّه بظهور دينه وهيمنته على كلّ طريقة أو عادة تكاد تعرقل سبيله إلى شريعة الله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. ^(٢) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. ^(٣) ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَبَقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾. ^(٤) ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. ^(٥)

تحرير الرقيق تدريجياً

وهكذا الأمر بشأن ملك اليمين ، أقرّه الإسلام في ظاهر الحال ، ولكن قرينا مع تمهيدات تزعزع من دعائمه وتجعله على شرف الانهيار. جاء الإسلام ، والرّق نظام معترف به في جميع أنحاء العالم ، بل كان عملة اقتصادية واجتماعية متداولة ، لا يستنكرها أحد ، ولا يفكر في إمكان تغييرها أحد. لذلك كان تغيير هذا النظام أو محوه أمراً يحتاج إلى تدرّج شديد وزمن طويل. وقد احتاج إبطال الخمر إلى

(١) الأحزاب ٣٣ : ٣٨ - ٤٠.

(٢) التوبة ٩ : ٣٣ ؛ الصفّ ٦١ : ٩ ؛ الفتح ٤٨ : ٢٨ ؛ والسور الثلاث مدنيّات ، وفي الأخيرة : وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا.

(٣) الحجر ١٥ : ٩.

(٤) النحل ١٦ : ١٢٧ ؛ وفي سورة النمل ٢٧ : ٧٠ : «ولا تكن ...».

(٥) المائدة ٥ : ٦٧.

بضع سنوات. والخمر عادة شخصية قبل كل شيء ، وإن كانت ذات مظاهر اجتماعية ، وكان بعض العرب أنفسهم في الجاهلية يتعقون عنها ، ويرون فيها شرًا لا يليق بذوي النفوس العالية. والرّق كان أعمق في كيان المجتمع ونفوس الأفراد ، لاشتماله على عوامل شخصية واجتماعية واقتصادية. ولم يكن أحد يستنكره كما أسلفنا. لذلك كان إبطاله في حاجة إلى زمن أطول مما تتسع له حياة الرسول ، وهي الفترة التي كان ينزل فيها الوحي بالتنظيم والتشريع. فلو كان الله يعلم أنّ إبطال الخمر يكفي فيه إصدار تشريع ينفذ لساعته ، لما حرّمها في بضع سنوات. ولو كان يعلم أنّ إبطال الرّق يكفي له مجرد إصدار «مرسوم» بالغائه ، لما كان هناك سبب لتأخر هذا المرسوم!

كان الرقيق في عرف الرومان . وهم الأصل في استرقاق الأناسي . يعدّ «شيئًا» لا «بشرًا» (شخصًا إنسانيًا)! شيئًا لا حقوق له البتة . كالبهائم والأمتعة . وإن كان عليه كلّ ثقل من الواجبات.

ولنعلم أولًا : من أين كان يأتي هذا الرقيق؟ كان يأتي من طريق الغزو والنهب والأسر ، ولم يكن الغزو لفكرة ولا لمبدأ ، وإنما كان سببه الوحيد شهوة الاستيلاء والاستثمار واستعباد الآخرين وتسخيرهم لمصلحة المترفين. فلكي يعيش الروماني عيشة البرزخ والترف ، يستمتع بالحمامات الباردة والساخنة ، والثياب الفاخرة ، وأطائب الطعام من كلّ لون ، ويغرق في المتاع الفاجر من خمر ونساء ورقص وحفلات ومهرجانات ، كان لا بدّ لكلّ هذا من استعباد الشعوب الأخرى وامتصاص دمائها في سبيل هذه الشهوة الفاجرة كان الاستعمار الروماني ، وكان الرّق الذي نشأ من ذلك الاستعمار.

أما الرقيق فقد كانوا . كما ذكرنا . أشياء ليس لها كيان البشر ولا حقوق البشر. كانوا يعملون في الحقول وهم مصفّدون في الأغلال الثقيلة التي تكفي لمنعهم من الفرار ، ولم يكونوا يطعمون إلّا إبقاء على وجودهم ليعملوا ، لا لأنّ من حقّهم . حتّى كالبهائم والأشجار . أن يأخذوا حاجتهم من الغذاء . وكانوا . في أثناء العمل . يساقون بالسوط ، لغير شيء إلّا اللذة الفاجرة التي يحسبها السيّد أو وكيله في تعذيب المخلوقات. ثمّ كانوا

ينامون في «زنزانات» مظلمة كريهة الرائحة تعيث فيها الحشرات والفئران ، فيلقون فيها عشرات عشرات قد يبلغون خمسين في الزنزانة الواحدة . بأصفادهم . فلا يتاح لهم حتى الفراغ الذي يتاح بين بقرة وبقرة في حظيرة الحيوانات.

ذلك كان الرقيق في العالم الروماني. ولا نحتاج أن نقول شيئاً عن الوضع القانوني للرقيق عندئذ ، وعن حق السيّد المطلق في قتله وتعذيبه واستغلاله دون أن يكون له حقّ الشكوى ، ودون أن تكون هناك جهة تنظر في هذه الشكوى أو تعترف بها ، فذلك لغو بعد كلّ الذي سردناه.

ولم تكن معاملة الرقيق في فارس والهند وغيرها ، تختلف كثيرا عما ذكرنا من حيث إهدار إنسانية الرقيق إهدارا كاملا ، وتحمله بأثقل الواجبات دون إعطائه حقًا مقابلها ، وإن كانت تختلف فيما بينها (الرومان والفرس والهند) قليلا أو كثيرا في مدى قسوتها وبشاعتها.

وإذا كان هذا شأن الرقيق في بلاد متحضرة ، فكيف يا ترى شأنه في أوساط متأخرة ، في مثل الجزيرة المتوغلة في جهالة العماء والغبي والفساد. كان يعيش أحدهم على حساب دمار الآخرين وكان ذلك مفخرا لهم. يقول أحدهم :

أُجَنِّدُكَ حَيَّهِمْ قَتْلًا وَأَسْأَلُكَ عَدِي الشَّيْطَانَ وَالظُّفْلَ الصَّغِيرَ!

وكفى لشناعة حالتهم الاجتماعية ، وأد البنات ^(١) وقتل الأولاد مخافة الإملاق ، ^(٢) وأشنع من الجميع : التعيش على حساب بغاء الفتيات. ^(٣)

ففي مثل هذا المجتمع الذي يعيش الأسىءاء على حساب إكراء الفتيات (الأرقاء) على البغاء وارتكاب الفحشاء ، جاء الإسلام ليكافح ، فمن أين يكافح ، وكيف يكافح؟

جاء الإسلام ليردّ هؤلاء البشر إنسانيّتهم المغتصبة منذ عهد سحيق!

جاء ليقول للسّادة عن الرقيق : أنتم وهم سواء ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾. (٤) وقال يوم الفتح

(١) التكوير ٨١ : ٨.

(٢) الأنعام ٦ : ١٥١ ؛ الإسراء ١٧ : ٣١ .

(٣) النور ٢٤ : ٣٣.

(٤) وردت الآية بشأن نكاح الإمام في عرض نكاح : الحرائر. (النساء ٤ : ٢٥).

بمكة : «أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ ^(١) وَتَعَاضَمَهَا بِآبَائِهَا. فَالنَّاسُ رَجُلَانِ : بَرٌّ تَقِيٌّ ، كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ. وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ ، هَيْنٌ عَلَى اللَّهِ. وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تَرَابٍ. قَالَ اللَّهُ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. ^(٢)

ومعنى ذلك أنَّ الناس كلَّهم . الأسياد والعبيد . إخوة من ولد أب واحد وأمَّ واحدة. ولا فضل فيمن أصله من تراب إلَّا بالأحساب. جاء في رسالة الحقوق التي بعثها الإمام زين العابدين عليه السلام إلى بعض أصحابه : «وَأَمَّا حَقُّ مَمْلُوكِكَ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّه خَلَقَ رَبُّكَ وَابْنُ أَيْيِكَ وَأَمْلَكَ وَلِحْمَكَ وَدَمَكَ ...». ^(٣)

وفي ذلك فرض الأخوة . الأصيلة . بين السيّد وعبد المملوك له. الأمر الذي لم يكن يطيقه منطق البشريّة آنذاك ، لكن الإسلام فرضه فرض حتم. جاء في مسائل على بن جعفر عن أخيه موسى عليه السلام : الرجل يقول لمملوكه : يا أخي ويا ابني ، أيسلح ذلك؟ قال عليه السلام : لا بأس. ^(٤) أي لا حزاة بعد فرض المساواة في أصل النسب!

وزيادة في رعاية مشاعر الرقيق يقول الرسول الكريم : «لا يقل أحدكم : هذا عبيدي وهذه أمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي». ^(٥) وعلى ذلك يستند أبو هريرة فيقول لرجل ركب وخلفه عبده يجري : «احمله خلفك ، فإنّه أخوك وروحه مثل روحك». ^(٦) وقد فرض الإسلام على السّادة أن يساوا بين أنفسهم والعبيد من غير أن يتفاضلوا عليهم.

(١) العبيّة ، النخوة والكبر والمفاخرة بالأنساب.

(٢) الحجرات ٤٩ : ١٣. راجع : جامع الترمذي ، ج ٥ ، ص ٣٨٩ ، رقم ٣٢٧٠ ؛ ومسنند احمد ، ج ٢ ، ص ٣٦١.

(٣) بحار الأنوار ، ج ٧١ ، ص ٥ و ١٤ . ١٥ ؛ والحصال للصدوق (ابواب الخمسين وما فوقه ، رقم : ١) ص ٥٦٧ . ٥٦٨.

(٤) بحار الأنوار ، ج ١٠ ، ص ٢٨٦ ؛ ومسائل على بن جعفر ، ص ١٨٨ ، برقم ٣٧٩ ؛ ووسائل الشيعة ، الحديث ٧ ، من الباب ٥ ، من أبواب التدبير ، ج ٢٣ ، ص ١٢٤.

(٥) رواه أحمد في مسنده ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ وفي غير موضع ، والبخاري ومسلم وغيرهما.

(٦) إحياء علوم الدين ، للغزالي ، ج ٢ ، ص ٢٢٠.

قال المعرور بن سويد الأسدي الكوفي . من كبار التابعين . : دخلنا على أبي ذرّ بالرّبذة ، فإذا عليه برد ، وعلى غلامه مثله . فقلنا : لو أخذت برد غلامك إلى بردك ، كانت حلّة ، وكسوته ثوبا غيره! قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه ممّا يأكل ، وليكسه ممّا يلبس ، ولا يكلفه ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه. ^(١)

وروى إبراهيم بن محمّد الثقفى في كتاب الغارات بإسناده إلى مختار التمار قال : أتى أمير المؤمنين عليه السلام سوق الكرابيس ، فاشترى ثوبين أحدهما بثلاثة دراهم ، والآخر بدرهمين . فقال : يا قنبر ، خذ الذي بثلاثة! قال : أنت أولى به يا أمير المؤمنين ، تصعد المنبر وتخطب الناس . قال : يا قنبر ، أنت شابّ ولك شره الشباب ، وأنا أستحيي من ربّي أن أتفضّل عليك ، لأنيّ سمعت رسول الله ﷺ يقول : ألبسوهم ممّا تلبسون ، وأطعموهم ممّا تأكلون. ^(٢) وكان من مكارم أخلاقه عليه السلام الأكل مع العبيد ، وليكون سنّة من بعده ، أي التنازل مع الأرقاء ، لغرض الترفيع بهم. ^(٣) وكان يجيب دعوة المملوك على خبز الشعير ، ولا يترقّع عليه. ^(٤)

وفي كتاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى ابنه الحسن : «وأحسن للمماليك الأدب ...». ^(٥) وهكذا كان يفعل ذريّته الأطياب : كان الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إذا خلا جمع حشمه كلّهم الصغير والكبير فيحدّثهم ويأنس بهم ويؤنسهم. وكان إذا جلس على المائدة لا يدع صغيرا ولا كبيرا حتّى السائس والحجّام إلّا أقعده معه على مائدته. ^(٦) وفي حديث آخر : كان إذا خلا ونصبت مائدته ، أجلس معه على مائدته مماليكه

(١) بحار الأنوار ، ج ٧١ ، ص ١٤١ ، رقم ١١ .

(٢) المصدر : ص ١٤٣ . ١٤٤ ، رقم ١٩ .

(٣) المصدر : ص ١٤٠ .

(٤) المصدر : ج ١٦ ، ص ١٩٩ و ٢٢٢ ، رقم ١٩ .

(٥) المصدر : ج ٧٤ ، ص ٢١٦ و ٢٣٣ .

(٦) عيون أخبار الرضا للصدوق ، ج ٢ ، ص ١٥٧ ، باب ٤٠ ، رقم ٢٤ .

ومواليه ، حتّى البوّاب والسائس. ^(١)

ومن هنالك لم يعد الرقيق شيئاً . كما حسبه الرومان . وإنما صار بشراً له روح كروح السّادة ، وقد رفعه الإسلام إلى مستوى الأخوة الكريمة ، لا في عالم المثال والأحلام فحسب ، بل في عالم الواقع كذلك.

* * *

وكان ﷺ يشدّد النكير على من أساء بعبده ويؤكّد على وجوب الرفق معهم. قال رسول الله : ألا أنبئكم بشرّ الناس : من سافر وحده. ومنع رفته. وضرب عبده. ^(٢)

قال أبو مسعود الأنصاري : كنت أضرب غلاماً ، فسمّعتني من خلفي صوتاً : اعلم أبا مسعود ، اعلم أبا مسعود ، إنّ الله أقدر عليك منك عليه ، فالتفت فإذا هو النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ﷺ هو حرّ لوجه الله. فقال : أما لو لم تفعل للفتك النار. ^(٣)
قال الصادق عليه السلام : من افتري على مملوك عزّ ، لحرمة الإسلام. ^(٤)

وروى قتادة عن الحسن بن سمرة بن جندب ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من قتل عبده قتلناه ، ومن جدد عبده جدعناه ، ومن أخصى عبده أخصيناه». ^(٥)

وروى الشيخ بإسناده الصحيح إلى السكوني عن الصادق عن آبائه عن علي عليه السلام أنّه قتل حرّاً بعبد قتله عمداً. ^(٦)

(١) المصدر : ج ٢ ، ص ١٨٣ ، باب ٤٤ ، رقم ٧.

(٢) بحار الأنوار ، ج ٧١ ، ص ١٤١.

(٣) المصدر : ص ١٤٢.

(٤) المصدر : ج ٧٦ ، ص ١١٩ ، رقم ١٥.

(٥) رواه النسائي في باب القود بين الأحرار والمماليك (المجتبى ، ج ٨ ، ص ١٩). وابن ماجه في الباب ٩٢٢ (ج ٢ ، ص ١٤٦). وأبو داود في السنن في كتاب الدييات ، رقم ٤٥١٥ (ج ٤ ، ص ١٧٦) والدارمي في سننه (ج ٢ ، ص ١٩١). وأحمد في مسنده (ج ٥ ، ص ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٨). والترمذي في الجامع ، رقم ١٤١٤ (ج ٤ ، ص ٢٦) قال : هذا حديث حسن غريب ، لأنّه برواية سمرة وحده وهو مطعون فيه عندنا. ومن ثمّ لم يخرجّه الشيخان ، وأخرجه الحاكم في المستدرک (ج ٤ ، ص ٣٦٧ . ٣٦٨) وصحّحه على شرط البخاري. وقالوا : إنّ الحسن نفسه لم يأخذ بهذا الحديث وذهب إلى أنّ الحرّ لا يقاد بالعبد. ومن الأئمة الأربعة ذهب أبو حنيفة لوحده إلى الاقتصاص للعموم ولأنّ المسلمين تتكافأ دماؤهم. النسائي ، ج ٨ ، ص ١٨ ؛ والفقهاء على المذاهب الأربعة ج ٥ ، ص ٢٨٧ . ٢٨٨.

(٦) تهذيب الأحكام ، ج ١٠ ، ص ١٩٢ ، رقم ٧٥٧ ؛ والاستبصار ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، رقم ١٠٣٥ ؛ ووسائل الشيعة ، ج ٢٩ ، ص ٩٨ ، رقم ٩ ، وحمله الشيخ على متعوّد القتل. وفي الخلاف (ج ٢ ، ص ٣٤٢) كتاب الجنائيات ، مسألة ٤ : لا يقتل حرّ بعبد ، وذلك إجماع الأصحاب.

وروى أنّ علي بن الحسين عليه السلام ضرب مملوكا ثمّ دخل إلى منزله فأخرج السوط ، ثمّ تجرّد له ، قال : اجلد علي بن الحسين فأبى ، فأعطاه خمسين دينارا. ^(١)

وبذلك قد أصبح الرقيق كائنا إنسانيًا له كرامة يحميها القانون ، ولا يجوز الاعتداء عليها بالقول ولا بالفعل. فأما القول فقد نهى الرسول ، السّادة عن تذكير أرقائهم بأنهم أرقاء وأمرهم أن يخاطبوهم بما يشعروهم بمودّة الأهل ، وينفي عنهم صفة العبوديّة ، وقال لهم في معرض هذا التوجيه : «إنّ الله ملككم إياهم ، ولو شاء لملكهم إياكم». ^(٢) فهي إذن مجرّد ملابسات عارضة جعلت هؤلاء رقيقا ، وكان من الممكن أن يكونوا سادة لمن هم اليوم سادة! وبذلك يغضّ من كبرياء هؤلاء ، ويردّهم إلى الآصرة البشريّة التي تربطهم جميعا ، والمودّة التي ينبغي أن تسود علاقات بعضهم ببعض. وأما الاعتداء الجسدي فعقوبته الصريحة هي المعاملة بالمثل ، «من افترى على مملوك عزّر ..» و «من جدد عبده جدعناه ...». وهو مبدأ صريح الدلالة على المساواة الإنسانيّة الكاملة بين الرقيق والسّادة ، وصريح في بيان الضمانات التي يحيط بها حياة هذه الطائفة من البشر . التي لا يخرجها وضعها العارض عن صفتها البشريّة الأصيلّة . وهي ضمانات كاملة ووافية. تبلغ حدّا عجيبا لم يصل إليه قطّ تشريع آخر من تشريعات الرقيق في التاريخ كلّ ، لا قبل الإسلام ولا بعده ، إذ جعل مجرّد ضرب العبد . في غير التأديب . ^(٣) مبرّرا قانونيًا لتحرير الرقيق!! ^(٤)

(١) بحار الأنوار ، ج ٧١ ، ص ١٤٣ ، رقم ١٦ .

(٢) ذكره أبو حامد الغزالي في كتاب «إحياء علوم الدين» (ج ٢ ، ص ٢١٩) في الكلام عن حقوق المملوك. وراجع : المحجّة البيضاء للفيض الكاشاني ، ج ٣ ، ص ٤٤٤ .

(٣) وللتأديب حدود مرسومة لا يتعدّاها ، ولا يتجاوز على أيّ حال ما يؤدّب السيّد أبناءه. قال زرارّة بن أعين : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : أصلحك الله ، ما ترى في ضرب المملوك؟ قال : ما أتى فيه على يديه . أي من غير تقصير . فلا شيء عليه . وأما ما عصاك فيه فلا بأس . فقلت : كم أضربه؟ قال : ثلاثة ، أربعة ، خمسة . رواه البرقي في المحاسن ، ج ٢ ، ص ٤٦٥ ، باب ١١ ، رقم ٢٦١٣ / ٨٦ ؛ والبحار ، ج ٧١ ، ص ١٤١ ، رقم ١٠ .

(٤) قال أبو جعفر الباقر عليه السلام : إنّ أبي (علي بن الحسين عليه السلام) ضرب غلاما له قرعة واحدة بسوط وكان بعثه في حاجة فأبطأ عليه ، فبكى الغلام وقال : الله يا علي بن الحسين ، تبعثني في حاجتك ثمّ تضربي؟ قال : فبكى أبي وقال [لي] : يا بني ، اذهب إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فصلّ ركعتين ثمّ قل : اللهم اغفر لعليّ بن الحسين خطيئته يوم الدين. ثمّ قال للغلام : .

بل ورفع من مكانتهم حتى أجاز الائتنام بهم في الصلاة . وهي أفضل عبادات الإسلام .. جاء في «قرب الإسناد» للحميري عن الإمام الصادق عن آبائه عن علي عليه السلام قال : «لا بأس بأن يؤم المملوك إذا كان قارئاً» .^(١)

وليكون ذلك دليلاً على صلاحيتهم لتصدّي جميع المناصب الرسميّة وغير الرسميّة في النظام الإسلامي وأن لا فرق بينهم وبين الأحرار في ذات الأمر . وهذا من المساواة في أفخم وأضخم شكلها المعقول . ولذلك نرى الرسول صلى الله عليه وآله قد أمر زيدا موله على رأس جيش فيه كبار الأنصار والمهاجرين . فلمّا قتل زيد ولى ابنه اسامة قيادة الجيش وفيهم أبو بكر وعمر فلم يعط الرقيق بذلك مجرّد المساواة الإنسانيّة ، بل أعطاه حقّ القيادة والرئاسة على الأحرار . فأعطى العبيد بذلك الحق في أرفع مناصب الدولة كلّها .

وقد وصل الإسلام في حسن المعاملة وردّ الاعتبار الإنساني للرقيق إلى درجة عجيبة ، حتى ولقد آخى الرسول صلى الله عليه وآله بين بعض العبيد وبعض أكابر الأصحاب من سادة العرب ، فأخى بين بلال بن رباح وأبي رويحة الخثعمي ، وبين موله زيد وعمّه حمزة ،^(٢) وكانت هذه المؤاخاة صلة حقيقيّة تعدل رابطة الدم والنسب .

كما وزّج بنت عمته زينب بنت جحش من موله زيد . والزواج مسألة حسّاسة جدّاً وخاصّة من جانب المرأة ، فهي تأبى أن يكون زوجها دونها في الحسب والنسب والثراء ، وتحسّ أنّ هذا يحطّ من شأنها ويغضّ من كبريائها . ولكن الرسول كان يهدف إلى

. اذهب ، فأنت حرّ لوجه الله . قال أبو بصير : فقلت له : جعلت فداك ، كان العتق كفارة الضرب؟ فسكت! البحار ، ج ٧١ ، ص ١٤٢ ، رقم ١٢ . وكان رجل من بني فهد يضرب عبدا له وهو يستعيذ بالله ولم يقلع عنه حتى إذا أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله استعاذ به فأقلع عنه . فقال له النبي : يتعوّذ بالله فلا تعيده ، ويتعوّذ بمحمد فتعيده؟! والله أحقّ أن يجار عائذه من محمد! فقال الرجل : هو حرّ لوجه الله . فقال النبي صلى الله عليه وآله : والذي بعثني بالحق نبيا لو لم تعتقه لسفعت وجهك حرّ النار . بحار الأنوار ، ج ٧١ ، ص ١٤٣ ، رقم ١٥ ؛ وإحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ . وقال الزهري : متى قلت لمملوكك : أخراك الله ، فهو حرّ . المصدر : ج ٢ ، ص ٢٢٠ . والآثار من هذا القبيل كثير .

(١) بحار الأنوار ، ج ٨٥ ، ص ٤٣ ، نقلا عن قرب الإسناد ، ص ٩٥ ، ط نجف . وللمجلسي هنا (ص ٤٥) بيان واف .

(٢) راجع : السيرة لابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٥١ - ١٥٣ .

معنى أسمى من كل ذلك ، وهو رفع الرقيق من الوهدة التي دفعته إليها البشريّة الظالمة ، إلى حيث مستوى أعظم سادة العرب من قريش.

* * *

كلّ ذلك هي خطرات واسعة لتحرير الرقيق روحياً ، برّده إلى الإنسانيّة ، ومعاملته على أنّه بشر كريم ، لا يفترق عن السادة من حيث الأصل ، وإتّما هي ظروف عارضة حدّت من الحرّيّة الخارجية للرقيق في التعامل المباشر مع المجتمع ، وفيما عدا هذه النقطة كانت للرقيق كلّ حقوق آدميين.

ولكن الإسلام لم يكن ليكتفي بهذا المقدار ، لأنّ قاعدته الأساسيّة العظمى هي المساواة الكاملة بين البشر ، وهي التحرير الكامل لكلّ بشر! وكلّ الذي تقدّم كان تمهيداً للبلوغ إلى هذه الغاية ، والتي كان النبيّ ﷺ يتربّها ، إمّا في حال حياته أو فيما بعد ، تربّياً غير بعيد.

قال ﷺ : «ما زال جبرائيل يوصيني بالمماليك حتّى ظننت أنّه سيجعل لهم وقتاً إذا بلغوا ذلك الوقت أعتقوا». ^(١)

وبالفعل جعل وسيلتين كبيرتين : هما العتق والكتابة إلى التحرّر التام. هذا فضلاً عن رفض مطلق لأسباب الاسترقاق . والتي كانت متفشّية وعن طرق معادية . والنهب والأسر والإغارة الغاشمة. كان الإسلام يرفضها رفضاً باتاً. وبذلك انسدّ . شرعيّاً . باب الاسترقاق نهائياً منذ ذلك الحين.

ويكفيك نموذجاً عن شناعة نظام الاسترقاق في العصر الجاهلي ، حادث استرقاق زيد بن حارثة الذي تبّناه الرسول الأعظم ﷺ :

كانت أمّه سعدى بنت ثعلبة من بني معن من طيء ، أرادت أن تزور قومها فاصطحبت ابنها زيدا وهو لم يبلغ الثمانية من عمره ، فما أن وردت القوم إلّا وأغار عليهم خيل بني القين ، فنهبوا وسلبوا وأسروا ، ومن جملة الاسارى زيد ، فقدموا به سوق

(١) أورده الصدوق في الأمالي ، المجلس السادس والستون ، ص ٣٨٤ ؛ وفي كتابه «من لا يحضره الفقيه» ، ج ٤ ، ص ٧.

عكاظ ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد. فوهبته خديجة للنبي ﷺ بمكة قبل البعثة ، وكان زيد قد بلغ الثمانية.
وكان أبوه قد وجد لفقده وجدا شديدا ، قال فيه :

أحيي يرحمى أم أتى دنه الأجل	بكيت على زيد ولم أدر ما فعل
أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل	فو الله ما أدري وإن كنت سائلا
فحسبي من الدنيا رجوعك لي علل	فيا ليت شعري هل لك الدهر رجعة
ويعرض ذكره إذا قارب الطفل	تذكرني به الشمس عند طلوعها
فيا طول ما حزني عليه ويا وجل	وان هبت الأرواح هيّجن ذكره
ولا أسأ التطفوف أو تسأ الأم البـل	سأعمل نص العيش في الأرض جاهدا
وكل امرئ فـان وإن غره الأمل	حياتي أو تأتي علي مني تي

... إلى آخر أبيات له تنبؤك عن شديد حزنه الذي لم يزل يكابده ...

ثم إن أناسا من كلب (قوم زيد) حجوا فأروا زيدا فعرفهم وعرفوه وقال لهم : أبلغوا عتي أهلي هذه الأبيات ، فإني أعلم أنهم جزعوا علي فقال :

أحزن إلى قومي وإن كنت نائيا	فإني قعيد البيت عند المشاعر
فكفوا من الوجد الذي قد شجاكم	ولا تعملوا في الأرض نص الأباعر
فإني بحمد الله في خير أسرة	كرام معد كابر بعـد كابر

فانطلق الكلبيون فأعلموا أباه ووصفوا له موضعه وعند من هو ، فخرج حارثة وأخوه كعب لفدائه فقدموا مكّة فدخلوا على النبي ﷺ فقالا : يا ابن عبد المطلب ، يا ابن هاشم ، يا ابن سيّد قومه ، جئناك في ابننا عندك فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه! فقال : من هو؟ قالا : زيد بن حارثة. فدعاه وخيّرهُ فاختار البقاء في كنف رسول الله ﷺ ورضيا بذلك.

وكان ﷺ قد عزم على تبنيهِ ، فتبناه على ملاء من قريش ، فأصبح مولاه عن رضا نفسه. ^(١) فيا ترى هل من المعقول أنّ شريعة -كشريعة الإسلام الداعية إلى تحرّر الإنسانية- تقرّر من رقيّة مثل زيد ، بهذا الشكل الفضيع المشجى الذي تمجّه النفوس الأبيّة فضلا عن العقول الحكيمة!؟

كلّا ، لا يقرّره أبداً ، ما عرفنا من الإسلام دين الفطرة ، دين الإنسانية المتحرّرة ، الذي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. ^(٢) قالوا :

وهنا يخطر السؤال الحائر على الأفكار والضمائر : إذا كان الإسلام قد خطا هذه الخطوات كلّها نحو تحرير الرقيق ، وسبق بها العالم كلّها متطوّعا غير مضطّرّ ولا مضغوط عليه ، فلما ذا لم يخط الخطوة الحاسمة الباقية؟ فيعلن في صراحة كاملة إلغاء الرّق من حيث المبدأ ، وبذلك يكون قد أسدى للبشريّة خدمة لا تقدّر ، ويكون هو النظام الأكمل الذي لا شبهة فيه ، والجدير حقّا بأن يصدر عن الله الذي كرّم بني آدم ، وفضّلهم على كثير ممّن خلق!؟ ^(٣) قلت : ليس يخفى على ذوي اللب أنّ الإسلام قد جفّف منابع الرّق كلّها. كما

(١) راجع : تمام القصّة في أسد الغابة لابن الأثير في ترجمة زيد ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٢) من الآية (١٥٧) من سورة الأعراف.

(٣) سؤال طرحه سيد قطب وأجاب عليها بما جاء ملخصا هنا. (شبهات حول الإسلام ، ص ٣٩).

ذكرنا . فيما عدا منبعاً واحداً لم يكن من المصلحة تخفيفه آنذاك ، وذلك هو رِقّ الحرب ، لملايسات سوف نذكرها . وعليه فقد أعلن . لكن في غير صراحة . إلغاء نظام الرّق من حيث المبدأ ، وإن كان التشديد عليه بحاجة إلى توفر شرائط لم تكن مؤاتية حينذاك ، كما أشرنا إليه وسنشير . وينبغي أن ندرك حقائق اجتماعية وسيكولوجية وسياسية أحاطت بموضوع الرّق ، وأخرت هذا الاعلان (الصريح) المرتقب . وإن كان ينبغي أن ندرك أنه تأخر في الواقع كثيراً جداً عما أراد له الإسلام ، وعمّا كان يمكن أن يحدث لو سار الإسلام في طريقه الحق ، ولم تفسده الشهوات والانحرافات .

يجب أن نذكر أولاً أنّ الإسلام جاء والرّق نظام معترف به في جميع أنحاء العالم كما أسلفنا ، وكان إبطاله في حاجة إلى زمن . ويكفي الإسلام على أيّ حال أن يكون هو الذي بدأ حركة التحرير في العالم ، وأنه في الواقع جفّف منابع الرّق القديمة ، لو لا منبع جديد ظلّ يفيض بالرّق من كلّ مكان ، ولم يكن بوسع الإسلام يومئذ القضاء عليه ، لأنّه لا يتعلّق به وحده ، وإنما يتعلّق بأعدائه الذين ليس له عليهم سلطان ، ذلك هو رِقّ الحرب . فقد كان العرف السائد يومئذ هو استرقاق أسرى الحرب أو قتلهم . وكان هذا العرف قديماً جداً موغلاً في ظلمات التاريخ يكاد يرجع إلى الإنسان الأوّل ، ولكنّه ظلّ ملازماً للإنسانية في شتى أطوارها .

وجاء الإسلام والناس على هذا الحال ، ووقعت بينه وبين أعدائه الحروب ، فكان الأسرى المسلمون يسترقّون عند أعداء الإسلام ، فتسلب حرّياتهم ، ويعامل الرجال منهم بالعسف والظلم الذي كان يومئذ يجري على الرقيق . وتنتهك أعراض النساء ... عندئذ لم يكن في وسع الإسلام أن يطلق سراح من يقع في يده من أسرى الأعداء . فليس من حسن السياسة أن تشجّع عدوك عليك بإطلاق أسراه ، بينما أهلك وعشيرتك وأتباع دينك يسامون الخسف والعذاب عند هؤلاء الأعداء . والمعاملة بالمثل هنا هي أعدل قانون تستطيع استخدامه ، أو هي القانون الوحيد .

ومّا هو جدير بالإشارة هنا أنّ الآية الوحيدة التي تعرّضت لأسرى الحرب : ﴿فَإِمَّا

مَنْ بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴿١﴾ ، لم تذكر الاسترقاق للأسرى ، حتى لا يكون هذا تشريعاً دائماً للبشرية ، وإنما ذكرت الفداء أو إطلاق السراح بلا مقابل ، لأنّ هذا وذاك هما القانونان الدائمان ، اللذان يريد القرآن للبشرية أن تقصر عليها معاملتها للأسرى في المستقبل القريب أو البعيد. وإنما أخذ المسلمون بمبدأ الاسترقاق ، خضوعاً لضرورة قاهرة لا فكاً منها ، وليس خضوعاً لنصّ في التشريع الإسلامي. إذن فلم يلجأ الإسلام إلى هذا الطريق ، ولم يسترقّ الأسرى لمجرد اعتباره أنّهم ناقصون في آدميتهم. وإنما لجأ إلى المعاملة بالمثل فحسب ، فعلق استرقاقه للأسرى على اتفاق الدول المتحاربة على مبدأ آخر غير الاسترقاق ، ليضمن فقط ألا يقع الأسرى المسلمون في ذلّ الرّق بغير مقابل. ومع هذا فلم يكن تقليد الإسلام الدائم هو استرقاق الأسرى ، فحيثما أمن لم يسترقّهم. وقد أطلق الرسول بعض الأسرى بلا فداء ، كما وأخذ من نصارى نجران جزية وردّ إليهم أسراهم ولم يعهد أنّه ﷺ استرقّ الأسرى. كما كان عليه عرف ذلك اليوم. وليضرب بذلك المثل لما يريد أن تهتدى إليه البشرية في مستقبلها ، حين تتخلّص من وراثتها الكريهة ، وتستطيع أن تستعيد إلى حظيرتها أصالتها الكريمة.

خرافات جاهليّة بائدة

قالوا : هناك خرافات جاهليّة بائدة جاءت في القرآن جرياً مع ثقافة العصر الذي عاشه ، ومتأثراً بما ممّا يتنافى وكونه كلام عليم خبير. من ذلك الكلام عن الجنّ والسحر وإصابة العين ومسّ الجنّ! غير أنّ هذه النسبة الظالمة نشأت عن مزايع الفهم لمعاني القرآن ومزالق الوهم عند مواجهة تعابيره القويمة. أمّا الجنّ فحقيقة ثابتة لا تنكر ، وقد بدت طلائعها منذ عهد غير بعيد. وليس كلّ ما

(١) محمّد ٤٧ : ٤ .

لا يدرك بالحواس الظاهرة محكوما عليه بالرفض وعدم الوجود ، بعد أن لم تكن الحواس الظاهرة هي لوحدها المقياس للرد والقبول . كما نبهنا . ولم يكن العلم يوما ما معترفا بهذه الكلية المنهارة الأساس . فهناك الكثير من أمور لا تقع تحت معيار الحس ولكنها ثابتة بدليل الوجدان الذاتي وبرهان العقل الحكيم . وأما السحر فلم يعترف به القرآن في شيء بل رفض إمكان تحققه بمعنى تأثيره في قلب الحقائق ، وإنما هي شعوذة وحيل ووساوس خبيثة لا أكثر . وأما إصابة العين فلم يتعرض لها القرآن في شيء من تعابيره ، سواء أكانت لها حقيقة أم لم تكن . وكذا مس الجن وما أشبه مما نعرضه بتفصيل :

الجن في تعابير القرآن^(١)

من الغريب أن نرى بعض الكتاب الإسلاميين يلهجون بما لا كنه المستشرقون الأجانب من فرض التعابير الواردة في القرآن بشأن الجن ، تعابير مستعارة من العرب توافقا معهم جدلا كعامل تنفيذ في أوساطهم على سبيل المماشة ، لا على سبيل الحقيقة المعترف بها . إذ يبعد اعتراف القرآن بما لا يعترف العلم التجري بوجوده أو سوف ينتهي إلى إنكاره رأسا . لكن ذلك لا يوهن شأن القرآن بعد أن كان تعبيره بذلك ظاهريا ومجارة مع القوم . وهكذا تعبيره عن السحر وإصابة العين تعبير ظاهري وليس على حقيقته .

قالوا : وهذا نظير تأثره ظاهرا بالنظام الفلكي البطلميوسي والطب الجالينوسي القديمين ، وقد رفضهما العلم الحديث .

قلت : أما اعتراف القرآن بوجود الجن إلى جنب الإنس واشتراكهما في الخلق والتكليف وفي نهاية المطاف ، فمما لا يعتريه شك ، ولا يسوغ لمسلم يرى من القرآن وحيا من السماء أن يرتاب في ذلك ، فإن هناك وراء عالم الشهود كائنات ملكوتية أعلى تسمى بالملائكة ، واخرى أدنى تسمى بالجن . الأمر الذي صرح به القرآن الكريم بما لا يدع

(١) جاء التعبير بالجن في ٢٢ موضعا . والجان (جمع الجن) في ٧ مواضع . والجنة في ٥ مواضع .

مجالاً للريب فيه أو احتمال التأويل. ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾. ^(١) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. ^(٢) ويبدو أنّ خلق الجنّ كان قبل الإنسان ، حيث أمر إبليس وكان من الجنّ ^(٣) أن يسجد مع الملائكة لآدم ، بعد أن خلقه من طين فأبى واستكبر وكان من الكافرين. ^(٤) وأما العلم التجري فلا متّسع له في هذا المجال ، بعد أن كان سلطانه مهيمنا على عالم الحسن ، ومحدودا بأفائه من غير أن يمكنه لمس ما وراء ستار الغيب فكيف يجوز له بالنسبة إلى أمر خارج عن سلطانه أن يحكم عليه بنفي أو إثبات أو يجعله موضع رفض أو قبول؟! نعم ، هناك لأصحاب المذاهب العقلية من علماء المسلمين وغيرهم من المعتنقين بوحى السماء كلام عن مدى مقدرة هذا الكائن الغيبي ، وهل له سلطان على التدخّل في شئون الإنسان أو يمسه بسوء؟ الأمر الذي أنكروه أشدّ الإنكار ، على خلاف أصحاب التزمّت في الرأي ممّن ركضوا وراء أهل البداوة في التفكير ، واتّبعوا خرافاتهم الأساطيرية البائدة. فالاعتراف بوجود الجنّ شيء ، ورفض مقدرتهم على التدخّل في شئون الإنسان شيء آخر ، والرفض في هذا الأخير لا يستدعي رفضا في أصل الوجود.

ذهب أصحاب القول بالعدل ^(٥) إلى أنّه لا يجوز في حكمته تعالى أن يتسلّط كائن غيبي على كائن عيني فيتلاعب بنفسه وبمقدّراته وهو لا يستطيع الذبّ عن نفسه حيث لا يراه. وكلّ ما قيل في مسّ جنون وما شابه ، فهو حديث خرافة ومن مزاعم باطلة تفنّده الحكمة الرشيدة. نعم سوى بعض الوسوس (إيحاءات مغرية) يلقيها شياطين الجنّ على شاكلتها من الإنسان ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾. ^(٦) ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ

(١) الرحمن ٥٥ : ١٥ .

(٢) الذاريات ٥١ : ٥٦ .

(٣) الكهف ١٨ : ٥٠ .

(٤) البقرة ٢ : ٣٤ .

(٥) راجع في ذلك : التفسير الكبير ، ج ٧ ، ص ٨٨ .

(٦) الأنعام ٦ : ١١٢ .

إلى أوليائهم». ^(١) ويقول الشيطان لما قضي الأمر : ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. ^(٢)

وزعم الإمام الرازي أنّ ظاهر المنقول عن أكثر الفلاسفة إنكار وجود الجنّ ، استنادا إلى كلام الشيخ الرئيس ابن سينا في رسالته في حدود الأشياء ، حيث يقول : الجنّ حيوان هوائي متشكّل بأشكال مختلفة. ويعقبه بقوله : وهذا شرح للاسم. قال الرازي : وهذا يدلّ على أنّ هذا الحدّ شرح للمراد من هذا اللفظ ، وليس لهذه الحقيقة وجود في الخارج. ^(٣)

وقد أخذت دائرة المعارف الإسلامية المترجمة إلى العربيّة هذا الاستظهار من الرازي مستندا لتنسب إلى الشيخ الرئيس إنكاره الباتّ لحقيقة الجنّ. جاء فيها : ولكنّ ابن سينا عند تعريفه لكلمة «جنّ» أكّد في غير مؤاربة أنّه ليست هناك حقيقة واقعة وراء هذه الكلمة. ^(٤)

غير أنّ ذاك الاستظهار من الرازي خطأ ، وكانت عبارة الشيخ الرئيس تعني : أنّ هذا التعريف للجنّ ليس حدّا تامّا. حسب مصطلحهم. وإمّا هو رسم ناقص لا يعدو شرح الاسم ، كما في قولهم : سعدانة نبت ، إذ ليس فيه ذكر لذاتيّات المعرّف (الجنس القريب والفصل القريب) ، ومن ثمّ فهو تعريف ببعض اللوازم والآثار وليس بالجنس والفصل القريين.

إذن ، فنسبة إنكار حقيقة الجنّ إلى مثل الشيخ الرئيس . كبير الفلاسفة الإسلاميين ومن ذوي العقول الراجحة المعتقدة بالإسلام والقرآن . جفاء يشبه الافتراء. ومن الغريب أنّ الإمام الرازي يعقب ذلك ، بقوله : وأمّا جمهور أرباب الملل والمصدّقين للأنبياء فقد اعترفوا بوجود الجنّ : يا ترى أليس شيخ الفلاسفة الإسلاميين من المصدّقين للأنبياء ولا سيما نبيّ الإسلام والقرآن العظيم؟!

وبعد ، فإذا لم يعد البحث عن حقيقة الجنّ إلى مسألة فلسفية بحثة ولا إلى فرضية

(١) الأنعام ٦ : ١٢١.

(٢) إبراهيم ١٤ : ٢٢.

(٣) التفسير الكبير ، ج ٣٠ ، ص ١٤٨.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٧ ، ص ١١٣.

علمية محضّة ، وإتّما هو إخبار غيبي لا مصدر له سوى وحي السماء ، وقد أكّدت عليه جميع الكتب السماوية واعتقدته أصحاب الملل ممّن صدّق برسالات الله في الأرض ، من غير خلاف بينهم في أصل وجوده ، إذن فلا مجال للتراجع تجاه إيهام أن سوف يرفضه العلم ، مع فرض أن لا متّسع للعلم في هكذا مجالات هي وراء ستار الغيوب!

وللشيخ محمّد عبده كلام تفصيلي حول الملائكة والجنّ والشياطين ، له وجه وجيه لمن تدبّره بإمعان ، وعبثا حاول بعضهم الإنكار عليه ورّما رمية بالخروج عن مظاهر الدين ، وما هذه الهجمة إلّا جفاء بشأن عالم مجاهد في سبيل الإسلام خبير. ^(١)

كلام عن مسّ الجنّ

وأما الكلام عن مسّ الجنّ وأنّ الجنون داء عارض من مسّه فيعالج باللجوء إلى الرقي والتعويدات ودمدمة الكهنة وأصحاب التسخيرات وما إلى ذلك من خرافات بائدة. فالذي يمكننا القول فيه : أن ليس في القرآن شيء من ذلك ، حتّى ولا إشارة إليه ، إذ لا شكّ أنّ الجنون داء عصبيّ وله أنحاء. بعضها صالح للعلاج بأسباب عادية ذكرها الأطباء في كتبهم قديما وحديثا ، وهناك مراكز لمعالجة هذه الأمراض أو التخفيف من وطئتها بالأساليب العلاجية الطبيعية المتعارفة وليست بالأساليب الغريبة.

وليس في القرآن ما يبدو منه أنّ صاحب هذا الداء إنّما يصاب على أثر مسّ الجنّ له. نعم سوى استعماله لهذه اللفظة (الجنون) في أحد عشر موضعا. ^(٢)

وكذا التعبير بمن به جنّة في خمسة مواضع. ^(٣) وهذا من باب المجازة في الاستعمال ^(٤). كما تّبّنها . حيث كان التفاهم بلسان

(١) راجع ما كتبه بهذا الشأن في تفسير المنار ، ج ١ ، ص ٢٦٧-٢٧٣ ، وج ٣ ، ص ٩٦ . وراجع أيضا : الميزان ، للسيد الطباطبائي ، ج ٢ ، ص ٤٣٣-٤٣٩ .

(٢) الحجر ١٥ : ٦ ؛ الشعراء ٢٦ : ٢٧ ؛ الصافات ٣٧ : ٣٦ ؛ الدخان ٤٤ : ١٤ ؛ الذاريات ٥١ : ٣٩ و ٥٢ ؛ الطور ٥٢ : ٢٩ ؛ القمر ٥٤ : ٩ ؛ القلم ٦٨ : ٢ و ٥١ ؛ التكويد ٨١ : ٢٢ .

(٣) الأعراف ٧ : ١٨٤ ؛ المؤمنون ٢٣ : ٢٥ و ٧٠ ؛ سبأ ٣٤ : ٨ و ٤٦ .

(٤) أي من تسمّونه بهذا الاسم. أو تسمّونه بهذه السمة في استعمالكم المتعارف عندكم.

القوم. وليس عن اعتراف بمنشأ هذه التسمية اللغوية. ولا يزال الأطباء المعالجون . قديما وحديثا . يعبرون عن المصاب بهذا الداء بالجنون وعن نفس الداء بالجنون ، مجارة مع لغة العامة ، ولا يعني ذلك اعتقادهم بمسّ الجنّ إياه حتميًا. وتلك دور المجانين معدّة لمعالجة المصابين بهذا الداء أو للحراسة عنهم مرسوم عليها نفس العنوان وليس إلّا لأجل التفاهم مع العرف الدارج لا غير.

وأما قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^(١) فالمراد من المساس هنا هو مسّ وساوسه الخبيثة المغرية ، والتي هي عبارة عن استحواذه على عقلية اهل المطاعم ليتيه بهم الدرب ويجعلهم في السعي وراء مطاعمهم يتخبّطون خبط عشواء وفي غياهب غيهم يعمهون. وهذا إنّما يعني استيلاء الشيطان على شراشر وجودهم فعموا وصمّوا ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾.^(٢) ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.^(٣) قال تعالى . حكاية عن نبيّ الله أيّوب عليه السلام . : ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أِنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.^(٤) أي مسّني ضرّ وساوسه ودسائسه الخبيثة في سبيل إيقاع أولياء الله في النصب ومكابدة الآلام ، كما في قوله : ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ أِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.^(٥) فمسّ الشيطان هو مسّ ضرّه على أثر دسائسه الخبيثة ، لا الإضرار مباشرة.^(٦)

التشبيه في رءوس الشياطين

قال تعالى : ﴿أَذَلِّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ. إِنَّمَا شَجَرَةُ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ. فَإِنَّهُمْ لَا كِلُونَ مِنْهَا فَمَالُؤُنْ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾.^(٧)

وهذا أيضا أخذوه على القرآن ، حيث التعبير برءوس الشياطين جاء على

(١) البقرة ٢ : ٢٧٥.

(٢) الأنعام ٦ : ٧١.

(٣) المجادلة ٥٨ : ١٩.

(٤) ص ٣٨ : ٤١.

(٥) الأنبياء ٢١ : ٨٣.

(٦) راجع : التفسير الكبير ، ج ٧ ، ص ٨٩ ؛ والميزان ، ج ٢ ، ص ٤٣٦.

(٧) الصافات ٣٧ : ٦٢ - ٦٦.

ما توهمته العرب أنّ للشياطين رؤوسا على غرار ما توهموه في الغول. جاء في شعر امرئ القيس : «ومسنونة زرق كأنياب أغوال». غير أنّ الشيطان في اللغة من أوصاف المبالغة مأخوذ من شاط يشيط إذا اشتدّ غيظا وغضبا. يقال : تشييط إذا احترق غيظا واشتاط اشتياطا عليه إذا التهب غضبا. وكذا قولهم : اشتشاط عليه أي احتدّ عليه غضبا. واشتشاط الحمام : نشط. واشتشاط من الأمر : خفّ له. واشتشاط فلان أي استقتل وعرض نفسه للقتل. وأصله من شاط الشيء إذا احترق.

قال ابن فارس : الشيط من شاط الشيء إذا احترق. ومنه اشتشاط الرجل إذا احتدّ غضبا. قال ومن هذا الباب الشيطان. ^(١) ويطلق على كلّ متمرد عات من الجنّ والإنس والدّوابّ ، فهو فعلاّن ، لتكون الألف والنون زائدتين ، كما في عطشان وغضبان ورحمان. أمّا القول. بأنّه من شطن ليكون على وزن فيعال فهو غريب ، إذ لم يعهد مثل هذا الوزن في صيغ المبالغة ، وإن قال به الخليل.

وهكذا الراغب رجّح كون النون أصلية بدليل جمعه على شياطين! ^(٢)

وعلى أيّ حال فهو وصف يطلق على كلّ متمرد عات بالغ في شططه كالمستشيط غضبا أو الملتهب غيظا. قال جرير :

أَيّام يــــدعونني الشــــيطان مــــن غــــزلي وهــــنّ يهــــوينني إذ كنــــت شــــيطانا

وقال آخر : لو أنّ شيطان الذئب العسلّ ... قال الراغب : جمع العاسل وهو الذي يضطرب في عدوه ، واختصّ به عسلان الذئب. قال : وممي كل خلق ذميم للإنسان شيطانا. فقال عليه السلام : «الحسد شيطان والغضب شيطان». فليس الشيطان اسما لإبليس ولا خاصّا بجنوده الأبالسة. وإنّما أطلق عليه كإطلاقه على سائر ذوي الشرور. قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَبَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾. ^(٣)

(١) معجم مقاييس اللغة ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ و ١٨٥ .

(٢) المفردات ، ص ٢٦١ ؛ ولسان العرب ، ج ١٣ ، ص ٢٣٨ .

(٣) الأنعام ٦ : ١١٢ .

والشيطان . أيضا . اسم لحيّة لها عرف ، وهي لحمة مستطيلة فوق رأسها شبه عرف الديك قال الزجاج : تسمّي العرب بعض الحيات شيطانا . قيل : هو حيّة لها عرف قبيح المنظر .^(١) وأنشد الرجل (هو الراجز)^(٢) يذمّ امرأة له كانت سليطة :

عنجد تحلف حلفين أحلف
كمشّل شيطان الحمّاط أعرف^(٣)
وقال آخر يصف ناقته في المسير :

تلاعـب مثـني حـضـرمي كائنـه تعمّـج شـيطان بـذي خـروع قـفر^(٤)

والشيطان في هذين البيتين هي الحيّة المهيبة يتنقّر منها ، لها عرف كتاج الديك قبيح المنظر . فقد شبّه الشاعر في البيت الأوّل امرأته العجوز السليطة بشيطان الحمّاط القبيح المهيّب . وهي الحيّة ذات عرف يكثر وجودها تحت شجر الحمّاط في الصحراء القاحلة .

وفي البيت الثاني شبّه الشاعر زمام ناقته في تلويّيه بسبب مشية الناقة بتلويّ حيّة قبيحة الهيئة تلتوي في بيدااء قفر .^(٥) وعليه ، فالتشبيه في الآية الكريمة وقع على الواقع المشهود ، هي رءوس الحيات القبيحة المنظر الهائلة على حدّ تعبير الزمخشري في الكشف ، ووافقه اللغة والعرف العامّ حسبما عرفت . وليس مجرّد تخيّل أو تقليد لما توهّمته العرب كما زعمه الزاعمون!

وهكذا جاء في «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة قال : والعرب تقول إذا رأت منظرا قبيحا : كأنّه شيطان الحمّاط ، يريدون حيّة تأوي في الحمّاط ، كما تقول : أيم الضالّ ،

(١) قال الزمخشري : قيل : الشيطان ، حيّة عرفاء لها صورة قبيحة المنظر هائلة جدّا . الكشف ، ج ٤ ، ص ٤٦ .

(٢) راجع : تفسير أبي الفتوح الرازي ، ج ٩ ، ص ٣١٣ .

(٣) العنجد : المرأة السليطة الطويلة اللسان الصخّابة ، وجاء البيت في تأويل مشكل القرآن ، ص ٣٨٩ : «عجّيز» بدل «عنجد». والحمّاط . جمع حمّاطة . شجر تنبت في البراري شبيهة التينة ، تكثر حولها الحيات . والأعراف : ذو العرف ، هي اللحمية شبه التاج تكون في أعلى رأس بعض الحيات مثل تاج الديك ، وهي من أشدّ الحيات تنقرا .

(٤) المثنى : زمام الناقة . والحضرمي منسوب إلى حضرموت . والخروع : شوك لا يرعى لغلظته ينبت في الفلوات القفر . راجع : لسان العرب ، ج ١٣ ، ص ٢٣٨ . ٢٣٩ ؛ وراجع أيضا : معاني القرآن للقرّاء ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ .

(٥) تفسير أبي الفتوح الرازي ، ج ٩ ، ص ٣١٣ .

وذئب الغضى ، وأرنب خلّة ، وتيس حلّب ، وقنفذ برقة. ^(١)

قال الشيخ أبو الفتوح الرازي : وهذا كتشبيهه تعالى عصا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التي انقلبت حيّة تسعى بالجانّ ، وهو أيضا اسم للحيّة السريعة التلوي في حركتها. ^(٢)

قال ابن منظور : والجانّ ، ضرب من الحيات أكحل العينين يضرب إلى الصفرة لا يؤذي. وهو كثير في البيوت. قال سيبويه : والجمع جنّان ، وأنشد بيت الخطفي جدّ جرير يصف إبلا :

أعناق جنّان وهام رَجَفًا وعنقًا بعد الرسيم خيطفًا

وفي الحديث : أنّه نهي عن قتل الجنّان. قال : هي الحيات تكون في البيوت ، واحدها جانّ ، وهو الدقيق الخفيف.

قال الأزهري في التهذيب في قوله تعالى : ﴿هَتَرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ ^(٣) : الجانّ حيّة بيضاء. قال أبو عمرو : الجانّ حيّة ، وجمعه جوائّ.

قال الزجاج : المعنى أنّ العصا صارت تتحرّك كما يتحرّك الجانّ حركة خفيفة. قال : وكانت في صورة ثعبان ، وهو العظيم من الحيات. ونحو ذلك

قال أبو العباس المبرد. قال : شبّهها في عظمها بالثعبان وفي خفّتها (خفّة حركتها) بالجانّ. ولذلك قال تعالى مرّة ﴿فَإِذَا هِيَ تُعْبَانُ﴾ ^(٤) ومرّة ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾. ^(٥)

قال الشيخ أبو الفتوح الرازي. في وجه التشبيه بالجانّ مرّة وبالثعبان اخرى. : إنّ التشبيه الأول وقع في بدء بعثته عَلَيْهِ السَّلَامُ عند الشجرة. قال تعالى في

سورة النمل : ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا هَتَرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ

(١) تأويل مشكل القرآن ، ص ٣٨٩. والأيم. بسكون الياء وتشديدها. : الحيّة الأبيض اللطيف. والضالّ : نوع من الشجر ينبت في السهول والوعور له شوك ، ويقال : هو السدر من شجر الشوك ، وألفه منقلبة عن الياء. والغضى : نوع من الشجر يأوي إليه أبحث الذئاب. والخلّة : نبات فيه حلاوة. والحلبّ : بقلة جعدة غبراء في خضرة تنبسط على الأرض ، يسيل منها اللبن إذا قطع منها شيء. يقال : أسرع الظباء تيس حلب ، لأنّه قد رعى الربيع. والبرقة : أرض غليظة مختلطة بحجارة ورمل. ويقال : قنفذ برقة كما يقال : ضبّ كدية ، وهي الأرض الصلبة الغليظة.

(٢) تفسير أبي الفتوح الرازي ، ج ٩ ، ص ٣١٣.

(٣) النمل ٢٧ : ١٠.

(٤) الأعراف ٧ : ١٠٧.

(٥) راجع : لسان العرب ، ج ١٣ ، ص ٩٧.

إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾ وفي سورة القصص : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٢﴾.

أما التشبيه بالثعبان فكان عند لقاء فرعون وملئه ، وقوله لهم : إِنِّي قد جئتكم ببينة ، قالوا : فانت بها إن كنت من الصادقين ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣﴾.

ولعلّ عند ما ألقى عصاه لأوّل مرّة عند الشجرة كان لفت نظره وأرهبه أنّ العصا . وهي عودة . تتحرّك وتهتزّ كما تسعى الحيّة ، فولّى مدبرا ولم يعقب .

أما الذي أتى به معجزا وبينة من ربّه فهو قلب العصا ثعبانا وهي حيّة عظيمة هائلة ، فاسترهبوه وحاولوا مقابلته بالمثل فجمعوا السحرة وجاءوا بسحر عظيم. فألقى موسى عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤﴾.

فالتشبيه بالجآن مرّة وبالثعبان اخرى كان باعتبارين وفي موقفين مختلفين. قال الشيخ الرازي : لا يمتنع أن تنقلب العصا إلى صورتين مختلفتين باختلاف الموردين. (٥)

* * *

وختاما ، فقد جاء في المعجم الزولوجي الحديث تأليف الأستاذ محمّد كاظم الملكي النجفي : أنّ الشيطان أيضا اسم لنوع من السمك الضخم يبلغ وزنه نحو طنين يوجد في المياه المحيطة في الشمال الغربي لآستراليا ، له وجه كره كآته صنم من الأصنام القديمة وعلى رأسه قرنان يزيدان في كراهة منظره. (٦)

أوصاف جاءت على مقاييس عامّة

هناك أوصاف عن نعيم الآخرة أو عن جحيمها جاءت على مقاييس عامّة ، لا على مقاييس العرب خاصّة! وقد وهم من زعمها أنّها أوصاف تعرفها العرب لوحدهم أو هي

(١) النمل ٢٧ : ٩ و ١٠ .

(٢) القصص ٢٨ : ٣٠ و ٣١ .

(٣) الأعراف ٧ : ١٠٧ ؛ الشعراء ٢٦ : ٣٢ .

(٤) الأعراف ٧ : ١١٧ و ١١٨ .

(٥) تفسير أبي الفتوح الرازي ، ج ٨ ، ص ٣٧٨ .

(٦) المعجم الزولوجي ، ج ٤ ، ص ٧١ - ٧٢ .

عند رغبتهم المملحة التي تستدعيها عيشتهم تلك الجافية وفي وسط تلك الصحراء القاحلة ، ممّا لا يستلفت رغبات العائشين في أوساط خصبة فارهين. وذلك في مثل وصف الجنان بظلّ الأشجار ومجاري الأنهار والخور والقصور. ومثلها نعوت هي أوصاف جمال عند العرب وليس عند غيرهم. لكنّه وهم نشأ من سوء التدبّر وعدم الإحاطة بدقائق اللغة التي خاطب بها القرآن العرب وسائر العالمين جميعاً. ولنأت بأمثلة ممّا أوقعهم في هذا الوهم :

الحور العين

عين : جمع عيناء وهي المرأة ذات الأعين الوسيعة والمتناسبة مع تقاسيم وجهها الوسيم. كما يقال للبقر الوحش : عين ، لحسن عينها في سعة متناسبة.

حور : جمع حوراء. زعموا أنّها المرأة ذات الأعين السود في حدقتها ، وهو وصف جمال عند العرب بالذات ممّا قد يخالف الجمال في بنات الروم في عيونهنّ الزرق! ويعدّ ذلك عيبا عند العرب ، ومن ثمّ جاء وصف المجرمين بأنّهم يحشرون يوم القيامة زرقا. (١)

فجاء كلا الوصفين . جمالا وعيبا . على مقاييس العرب محضا.

غير أنّ الخطأ هنا جاء من قبل تفسير الحور بالسواد ، في حين أنّه البياض اللّامع لشدّة ابيضاضه. فالحور شدّة بياض العين بما يوجب شدة بريق سواد حدقتها. والحواريّات : النساء البيض. قال الأزهري : لا تسمّى المرأة حوراء حتّى تكون مع حور عينيها بضاء لون الجسد. قال الكميت :

ودامت قـدورك للسـاعـي
ن في المحـل غـرغـرة واحـرورا

قال ابن منظور : أراد بالغرغرة صوت الغليان ، وبالأحورار بياض الإهالة والشحم.

والأعراب تسمي نساء الأمصار حواريات لبياضهنّ وتباعدهن عن قشف

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ، طه ٢٠ : ١٠٢ .

سمي العطاش وردا لأنهم يردون الشريعة لطلب الماء. ^(١)

ملحوظة

قد يحسب البعض - باعتبار كون الحور جمعا للأحور والحواء معا ، وكذا العين جمعا للأعين والعيناء - أن يكون هناك في الجنة حور عين ، ذكور وإناث!

غير أن القرآن وصفهن بوصف الإناث محضا ، في مثل قوله تعالى : ﴿وَكَوَاعِبُ أُنثَىٰ﴾ ^(٢) والكواعب : الناهدات الثدي. وقوله : ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ^(٣) والجمع بالألف والتاء يخص الإناث دون الذكور. وكذا ضمير الجمع المؤنث. والطمث : افتضاض بكاره المرأة. لأنه يوجب الطمث وهو الدم الخارج من فرجها. وقوله : ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا. غُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ^(٤) والمرأة العروبة هي العفيفة تحب زوجها لا تهوى سواه. إلى غيرها من آيات جاء فيها وصف الحور بخيار أوصاف النساء المترفعات دون المبتذلات.

ولعلك تتساءل : فما حظ النساء المؤمنات من هذا النعيم في الآخرة؟

وإجابة على هذا السؤال جاء في أحاديث مأثورة : أنّ الله تعالى سوف يجعلهن حوريات ، ويكن الدّ على أزواجهن من حوريات الجنان. فعن ابن عباس . في تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ ^(٥) . : أنّ الآية بشأن الإنسيات يبدلهن الله حورا عينا في الجنان. ^(٦) قال تعالى : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ^(٧) . ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ^(٨) . وهناك كلام عن نعيم الآخرة (ما سنخها؟) لعلنا نفصل القول فيه إن شاء الله.

(١) مجمع البيان ، ج ٧ ، ص ٢٩ وج ٦ ، ص ٥٣١.

(٢) النبأ : ٧٨ : ٣٣.

(٣) الرحمن ٥٥ : ٥٦.

(٤) الواقعة ٥٦ : ٣٦ و ٣٧.

(٥) الواقعة ٥٦ : ٣٥ و ٣٦.

(٦) مجمع البيان ، ج ٩ ، ص ٢١٩.

(٧) الرعد ١٣ : ٢٣.

(٨) الزخرف ٤٣ : ٧٠.

الأشجار والأنهار

ليس وصف النعيم بظلال الأشجار ومجاري الأنهار ممّا يستلقت رغبة العائشين في البوادي الجرداء والصحاري القفار فحسب ، وإنما هي رغبات عامة حتّى للمنعمين بخصوبة البلاد وخضرة الهضبات والوهاد.

الناس في كافّة بقاع الأرض يرتادون لمنتزهاتهم أماكن تظّلها أشجار وتبلّها أنهار ، على ما جاء في وصف القرآن الكريم :

﴿مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْنَابِ﴾ سرر مزيّنة فاخرة.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا﴾ لا يحسّون لدغ حرارة لافحة ، ولا لدغ برودة قارصة. مرتاحين في مهبّ نسيم ولطف نعيم.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أشجار بسطت أغصانها المتدانية ، مستديرة الأطراف شبه مظلات مخيّمه بروح أظلتّها.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾^(١) ثمار متدنّية يسهل قطوفها ﴿وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾.^(٢)

والدّ المنتزه وأطيبه ما كان على ضفاف الأنهر ومتفجّرات العيون ، على حدّ تعبير القرآن :

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.^(٣) ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنّاتِ النَّعِيمِ﴾.^(٤)

نعم ، إنّها رغبات عامة يبتغيها كلّ منعم ومعدم وفي كلّ بقاع الأرض ، مشارق الأرض ومغاربها ، العامرة منها والباطرة. وليست ممّا تحفو إليها نفوس مكدودة فحسب. وتلك قصور شامخات ومصايف زاهرات تزدهم بأصحاب النعم ومرفّهي الأحوال ، أنشئت على شواطئ البحار وضفاف الأنهار في كلّ أرجاء المعمورة. وحسبك شواهد على أنّها رغبات تحفو إليها نفوس جميع أبناء البشر في كلّ البلاد ، ولدى جميع الأجيال والأمم ، وليس العرب وحدهم.

(١) الإنسان ٧٦ : ١٣ و ١٤ .

(٢) الدخان ٤٤ : ٢٧ .

(٣) الإنسان ٧٦ : ٦ .

(٤) يونس ١٠ : ٩ .

ابيضاض الوجوه واسودادها

قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ^(١)

قالوا : إنّ في هكذا تعابير إزرء بشأن ملوئي البشرة ، حيث أصبح ابيضاض الوجه رمزا للفوز والسعادة ، واسوداده رمزا للحرمان والشقاء! في حين أنّ اللون مهما كان فهو أمر طبيعي لا غضاضة في لون دون آخر. كما لا مساس له بمسألة السعادة والشقاء ولا استيعاب مدح أو قدح. الأمر الذي اخذ على القرآن ، حيث استجوابه لمزاعم كانت عند العرب في أمثال هذه التعابير!

لكنّ السواد . في هكذا تعابير قرآنية أو في غيرها . لا يراد به ذات اللون الخاصّ ، وإنّما المراد هو كدرة الظلام المعبر عنه بالسواد في الاستعمال الدارج ، في مقابلة فلقة الضياء المعبر عنه بالبياض. كما في قوله تعالى : ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾. ^(٢) أي حتى يبدو فلق الصباح عن ظلمة الليل.

ونظيره قول الشاعر . وهو عمرو بن أبي ربيعة المخزومي . :

إذا اسودّ جــــــــــــنح الــــــــــــليل فلتــــــــــــأت ولــــــــــــتكن خطــــــــــــاك خفــــــــــــافا إنّ حراســــــــــــنا اســــــــــــدا

فالاسوداد كناية عن اشتداد ظلام الليل ، وليس المراد ذات اللون الخاصّ.

فالتعبير باسوداد الوجه كناية عن كدرته كأنها ظلمة تعتريه على أثر الانقباض الحاصل فيه والتقطيب ، والناشئ من فزع نفسي وسوء وحشته. كما قال تعالى . حكاية عن حالة نفسيّة رديئة كان يبدو أثرها كظلمة تعلو وجه أحدهم إذا بشّر بالانثى . : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾. ^(٣) فهو يحاول كظم غيظه. ولكن بشرة وجهه المظلمة هي التي تفضحه بما تكنّه نفسه من ألم وسوء حال.

(١) آل عمران ٣ : ١٠٦ و ١٠٧ .

(٢) البقرة ٢ : ١٨٧ .

(٣) النحل ١٦ : ٥٨ ؛ الزخرف ٤٣ : ١٧ .

وعليه جاء قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾. ^(١) أي مغبرة ومنقبضة من هول المطلع في مقابلة وجوه الصالحين المسفرة المنبسطة.

يقول تعالى : ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾. ^(٢) فالوجوه المسفرة هي الوجوه المفتحة المشرقة المضيئة ، لأنها ضاحكة مستبشرة ، حيث سرورها وبهجتها بما تعينه من ثواب ربّها. ووجوه عليها غبرة (غبرة الظلام) على أثر كآبة الهمّ وهول المطلع. ترهقها قترة (انقباض وتقطيب) وهذا تفسير لغبرة الوجه ، أي تملوه كدرة الغمّ وقطوب الانقباض. والقترة هي بنفسها الغبرة ، أي كدورة الغبار التي تذهب بصفاء بشرة الوجه. وعن زيد بن أسلم : الغبرة ، الغبار ينحطّ من العلوّ ، والقترة ، الغبار يرتفع من الأرض. ^(٣) قال تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمَثُلُهَا. وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ^(٤) ففي هذه الآية جاء التعبير بعشيان وجوههم قطع من الليل مظلمًا بدل التعبير بسواد الوجه.

وفي آية أخرى : ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ. وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٍ. تَطْنُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾. ^(٥) فالوجوه الناصرة هي المبتهجة المسرورة ، تنبسط وتشرق إشراقًا لامعًا. حيث لمست لذّة الحضور وأحسّت بسعادة البقاء ، تنتظر ثواب ربّها ورحمته. ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾. ^(٦) ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾. ^(٧)

(١) الزمر ٣٩ : ٦٠.

(٢) عبس ٨٠ : ٣٨ - ٤٢.

(٣) مجمع البيان ، ج ١٠ ، ص ٤٤١.

(٤) يونس ١٠ : ٢٦ و ٢٧.

(٥) القيامة ٧٥ : ٢٥ - ٢٢.

(٦) الإنسان ٧٦ : ١١.

(٧) المطففين ٨٣ : ٢٤.

أما الوجوه الباسرة فهي الكالحة العابسة. يعلوها ظلام وكدره من سوء الوحشة وشدة الفزع ، حيث «تظنّ . أي تخشى . أن يفعل بها فاقرة» وهي الداهية ، تفقر الظهر أي تقصمه.

وعليه ، فالتعابير الواردة في القرآن بهذا الشأن أربعة :

﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

وجوه ناضرة ووجوه باسرة.

وجوه مسفرة ووجوه مغبرة.

وجوه تغشاها قطع من الليل مظلمًا.

فلا سوداد والبسور والاغبرار وغشاء الظلام ، كلّها تعابير تنمّ عن معنى واحد وهو كدره وظلمة تعلو الوجه على أثر الانقباض والتقطيب. وليس المراد ذات اللون كما حسبه المعارض!

كلام عن السحر في القرآن

هل اعترف القرآن بتأثير السحر تأثيرا وراء مجاري الطبيعة ، حسبما يزعمه أهل السحر والنقّاثات في العقد؟

ليس في القرآن ما يشي بذلك سوى بيان وهن مقدرتهم وفضح أساليبهم بأنّها شعوذة وتخييلات مجرّدة لا واقعية لها. يقول بشأن سحرة فرعون :

﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾. ^(١) فكان الرائي يتخيّل أنّ تلك الحبال والعصيّ تسعى ، أي تنزو وتقفز وتلتوي على أنحاء

الحركات التي كان الناظرون يحسبونها حركات حياتية وأنّها حيّات ثعابين متهيجّة. قال الطبرسي : لأنّها لم تكن تسعى حقيقة ، وإنّما تحرّكت لأنّهم جعلوا في أجوافها الزئبق ، فلمّا حميت الشمس تمدّدت الزأبق فحصلت على أثره

(١) طه ٢٠ : ٦٦.

تلك التحركات ، وظنَّ أنَّها تسعى. ^(١)

وذلك أنَّهم أخذوا مصارين أو آدم مصنوعة على صور الحيات والأفاعي ، وجعلوا في أجوافها زأبق وتركوها بصورة العصي والحبال في ساحة بعيدة عن متناول الناس ومشاهدتهم القريبة. وكانت الساحة قد حفرت تحتها أسراب وأشعلوا فيها نارا فأثّرت حرارتها من تحت وحرارة الشمس من فوق ، فجعلت الزأبق تتمدد وتقلص ، وتراءى للناس أنَّها تسعى. ومن ثمّ قال تعالى : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾. ^(٢) وما هي إلا شعوزة لا واقع لها سوى تخيل ظاهريّ مجرّد.

قال الطبرسي : احتالوا في تحريك العصي والحبال بما جعلوا فيها من الزئبق حتّى تحركت بحرارة الشمس وغير ذلك من الحيل وأنواع التمويه والتلبيس ، فخيّل إلى الناس أنَّها تتحرك على ما تتحرك الحية. وإنّما سحروا أعين الناس ، لأنّهم أروهم شيئا لم يعرفوا حقيقته وخفي ذلك عليهم لبعده منهم ، فإنّهم لم يدعوا مجالا للناس كي يدخلوا فيما بينهم [خوف فضح أمرهم].

قال : وفي هذا دلالة على أنّ السحر لا حقيقة له ، لأنّما لو صارت حيات حقيقة لم يقل الله سبحانه : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ بل كان يقول : فلمّا ألقوا صارت حيات. وقد قال سبحانه أيضا : ﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾. ^(٣)

واقنا وصف سحرهم بالعظمة ، فلأجل استعظام الناس ذلك المشهد الرهيب.

يقول الرازي في ذيل هذه الآية : واحتجّ به القائلون بأنّ السحر محض التمويه. قال القاضي : لو كان السحر حقّا لكانوا قد سحروا قلوبهم لا أعينهم ، فثبت أنّ المراد أنَّهم تخيّلوا أحوالا عجيبة مع أنّ الأمر في الحقيقة ما كان على وفق ما تخيّلوه. قال الواحدي : بل المراد ، سحروا أعين الناس أي قلبوها عن صحّة إدراكها بسبب تلك التمويهات. وقيل : إنّهم أتوا بالحبال والعصي ولطّخوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا الزئبق في دواخل العصي ،

(١) مجمع البيان ، ج ٧ ، ص ١٨ .

(٢) الأعراف ٧ : ١١٦ .

(٣) مجمع البيان ، ج ٤ ، ص ٤٦١ .

فلما أثر تسخين الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض وكانت كثيرة جدًّا ، فالناس تحيلوا أنّها تتحرك باختيارها وقدرتها. ^(١)

قال الإمام الجصاص : ومتى اطلق السحر فهو اسم لكلّ أمر موه باطل لا حقيقة له ولا ثبات. قال الله تعالى : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ يعني موهوا عليهم حتّى ظنّوا أنّ حبالهم وعصيهم تسعى. وقال : ﴿يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى﴾ فأخبر أنّ ما ظنّوه سعيًا منها لم يكن سعيًا وإنّما كان تخيلاً. وقد قيل : إنّها كانت عصيًا مجوّفة قد ملئت زئبقًا وكذلك الحبال كانت معمولة من آدم ^(٢) محشوة زئبقًا وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابًا وجعلوا أزاجًا ^(٣) وملئوها نارا. فلما طرحت عليه وحمي الزئبق حرّكها ، لأنّ من شأن الزئبق إذا أصابته [حرارة] النار أنّ يطير. فأخبر الله أنّ ذلك كان موهًا على غير حقيقة. والعرب تقول لضرب من الحليّ مسحور ، أي موه على من رآه مسحور به عينه. ^(٤)

وهكذا ذهب الإمام محمد عبده في تفسيره قال . بعد نقل كلام الجصاص . : فعلى هذا يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية ، إذا صحّ الخبر . ويحتمل أن يكون بحيلة أخرى كإطلاق أبخرة أثّرت في الأعين فجعلتها تبصر ذلك. أو يجعل العصيّ والحبال على صورة الحيات وتحريكها. بمحرّكات خفيفة سريعة لا تدركها أبصار الناظرين. وكانت هذه الأعمال من الصناعات وتسمّى السيمياء ^(٥) وهي لغة يونانية تعني الشعوذة والنيرنج. ^(٦) هي عبارة عن مزاولة أعمال خفيفة سريعة تتراءى للناظرين أشكالًا على غير واقعها ، وربّما باستعمال موادّ كيميائية تخفى على الناظرين. ^(٧) وهو متعارف حتّى اليوم لغاية إلهاء الناس في مجالس اللهو والسرور ومناسبات الأعياد والأفراح.

(١) التفسير الكبير ، ج ١٤ ، ص ٢٠٣ .

(٢) جمع أديم وهي الجلدة المدبوغة.

(٣) جمع أزج وهو البيت بيني طولًا يشبه الاتن : مواعد نار الحمام.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ، ج ١ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٥) تفسير المنار ، ج ٩ ، ص ٦٧ .

(٦) معرّب نيزنگ. الشعوذة معرّب شعبة ، كلاهما بمعنى ، وهو نوع من الحيل الخفيفة فيها مهارة وسرعة عمل تخطف من أبصار الناظرين وتؤثّر في تحيلهم.

(٧) قال العلامة الطباطبائي : وهو (السيمياء) العلم الباحث عن تمزيج القوى الإرادية مع القوى الخاصّة المادّية للحصول على غرائب التصرف في الأمور الطبيعية. ومنه التّصرف في الخيال

المسمّى بسحر العيون ، وهذا الفنّ من أصدق مصاديق السحر. الميزان ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

قال الزمخشري : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أروها بالحيل والشعوذة وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه. ^(١) إذن ، فلم يثبت من هذه الآية اعتراف للقرآن بحقيقة السحر سوى الشعوذة والتوسل بالحيل للتمويه على أعين الناس ، هذا فحسب. وهناك آيات اخر استندوا إليها لهذا الاعتراف المزعوم ، كآيات الواردة بشأن سحرة بابل في سورة البقرة. وكذا سورة الفلق ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾. وستكلم عن ذلك أيضا بعد الكلام عن أقسام السحر ورأي علماء المسلمين فيه. وسيبدو بعون الله تعالى أنّ تلكم الآيات أيضا بعيدة كلّ البعد عمّا رامه الزاعمون وأن ليس في القرآن ما يشي باعترافه بحقيقة السحر بتاتا.

أقسام السحر

السحر بحسب اللغة : ما لطف ودقّ مأخذه في التأثير ، ومن ثمّ فإنّ من البيان لسحرا. وقسمه الإمام الرازي بحسب المصطلح إلى أنواع ثمانية : النوع الأوّل : الاستعانة بالكواكب ، زعما أنّها هي المدبّرة لهذا العالم. نسب ذلك إلى الكلدانيين كانوا يعبدون الكواكب ، فكانوا يستعينون بها على سدّ مآربهم والقضاء على مناوئتهم. وأهل العدل والتنزيه من متكلمي المسلمين (الإماميّة والمعتزلة) أنكروا صحّة ذلك ، بل جواز الاعتقاد به قد يؤدّي إلى الشرك بالله العظيم. وقامت الأشاعرة بوجههم فأجازوه باعتبارها أسبابا وعللا طبيعية كانت تحت إرادته تعالى. النوع الثاني : سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، فهناك لأرباب النفوس القوية تأثير كبير في إلقاءاتهم على ذوي النفوس الضعيفة. والنفوس إذا تأثّرت بما القي إليها توهمته قطعيا وانفعلت به وانجذبت إليه انجذابا. الأمر الذي قام به أكثر أصحاب المقدرات القوية فسحّرت زرافات من ذوي الأنفس الضعيفة السريعة الانخداع.

(١) الكشف ، ج ٢ ، ص ١٤٠.

النوع الثالث : الاستعانة بالأرواح الأرضية الخبيثة ، ممّا عبّروا عنها بتسخير شياطين الجنّ. الأمر الذي يقوم به أصحاب الرقى والدخن والتعويد والطلسمات. ولعلّ لهذا النوع سوقا رائجة في أوساط هابطة ولا سيّما العجائز من النساء وذوي العقول الساذجة.

النوع الرابع : التخيلات والأخذ بالعيون. وهذا النوع مبني على أخطاء البصر والانصرافات الذهنية التي يستخدمها السحرة من هذا النمط. ويسمّى بالشعوذة على ما مرّ تفصيله.

النوع الخامس : استعمال آلات وأدوات صناعية وتركيبها تراكيب غريبة في أشكال وصور هندسيّة تستجلب أنظار الحاضرين وتوجب إعجابهم والضحك والسرور ، وهو لعب على اصول رياضية وهندسية ملهية ، تتداول في مجالس الأفراح.

النوع السادس : الاستعانة بخواصّ الأدوية ، مثل أن يجعل في طعامه بعض الأدوية المبلّدة أو المزيّلة للعقل والدخن المسكّرة ونحو ذلك.

النوع السابع : تعليق القلب ، حيث يجد الساحر ضعيف العقل قليل التمييز ، فيلقي عليه أنّه يعرف الاسم الأعظم أو أنّ الجنّ يطيعونه ، فيصدّقه الضعيف ويتعلّق قلبه بما قال. وربّما استخفّ الساحر من عقله فيتمكّن من تنفيذ ما أرادته في نفسه. ومثل هذه الانفعالات النفسية مجال متّسع لتجوال أهل الشعوذة والتزوير والنفوذ في الشعور.

النوع الثامن : السعي بالنميمة والتضريب من وجوه خفيفة لطيفة ، بما يؤثر حبّا أو بغضا أو تأليفا أو تفريقا بين الزوجين أو المتحابّين وهو شائع كثير. ^(١)

وإذ قد عرفت أنواع السحر المعروفة عند العرب وعند الناس في مختلف الأجيال تجد أن ليس له واقع في جميع أنواعه ، بمعنى : التأثير في تغيير اتجاه المسير الذي جرت عليه الطبيعة تأثيرا خارقا للعادة. ومن ثمّ فقد أنكرته أصحاب المذاهب العقلية من علماء الإسلام ، ولم يعتبروه شيئا وراء التمويه والشعوذة والتخييل ، لأجل التلاعب بعقول السدّج الضعفاء.

(١) التفسير الكبير ، ج ٣ ، ص ٢٠٦-٢١٣.

قال الرازي : أما المعتزلة فقد أنكروا السحر فيما عدا التمويه والشعوذة ، ولعلهم كَفَرُوا معتقد تأثير الكواكب وتسخيرها أو تسخير الجن وما شاكل مما ينافي التوحيد في الربوبية أو يخالف حكمته تعالى في الخلق والتدبير .

قال : وأما أهل السنة فقد جَوَّزُوا ذلك ، بأن يطير إنسان في الهواء بلا سبب طبيعي أو يحوّل إنسانا إلى حمار أو حمارا إلى إنسان ، الأمر الذي لا يتنافى وربوبيته تعالى حيث جرت سنته على إقدار الساحر في تأثير سحره عند ما يقرأ رقى أو يزمزم وردا. ^(١) واستندوا في ذلك إلى روايات واهية تزعم أنّ اليهود سحرت النبي ﷺ فكان يتخيّل أنّه فعل شيئا ولم يفعله ، وما إلى ذلك من أكاذيب فاضحة ، زيفناها مسبقا.

وأفطع من الكلّ تعاليق ابن المنير الإسكندري على الكشف بهذا الشأن ، منها قوله . عند كلام الزمخشري ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي أروها بالحيل والشعوذة وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه . : هذا الإنكار معتقد المعتزلة ، ومعتقد أهل السنة الإقرار بوجود السحر ، ولا يمنع عند أهل السنة أن يرقى الساحر في الهواء ويستدقّ فيتولّج في الكوة الضيقة. ولا يمنع أن يفعل الله عند إرشاد الساحر ما يستأثر الاقتدار عليه. وذلك واقع بقدرة الله عند إرشاد الساحر. هذا هو الحقّ والمعتقد الصدق. قال : وإمّا أجريت هذا الفصل لأنّ كلام الزمخشري لا يخلو من رمز إلى إنكاره ، إلّا أنّ هذا النصّ القاطع بوقوعه يلجمه عن التصريح بالدفاع وكشف القناع ، ولا يدعه التصميم على اعتقاد المعتزلة من التنفيس عمّا في نفسه ، فيسمّيه شعوذة وحيلة. وبالقطع يعلم أنّ الشعوذة لا تعمل في يد ابن عمر حتّى بكوعها ولا تؤثّر في سيّد البشر حتّى يخيّل إليه أنّه يأتي نساءه وهو لا يأتيهنّ. وقد ورد ذلك وأمثاله مستفيضا واقعا. والعمدة أنّ كلّ واقع بقدرة الله تعالى. ^(٢)

وهذا الذي ذكره ابن المنير ونسبه إلى أهل السنة إمّا هو مذهب الأشعري البائد ، أمّا علماء أهل السنة اليوم فقد واكبوا إخوانهم من أهل التحقيق في النظر ، ولم يعيروا لما يذكره أهل السفساف اهتماما ولم يعتبروا من مزاعمهم في السحر وزنا سوى تمويه مجرّد

(١) المصدر : ص ٢١٣.

(٢) هامش الكشف ، ج ٢ ، ص ١٤٠.

وتخييل كاذب أو مشيئ في النميمة وبثّ روح الفرقة أو ألعيب تقام بها في الأفراح.

قال الشيخ محمّد عبده : السحر عند العرب كلّ ما لطف مأخذه ودقّ وخفي ... وقد وصف الله السحر في القرآن بأنّه تخييل يخدع الأعين فيريها ما ليس بكائن كائنا . ثمّ يذكر الآيات ويقول : . ومجموع هذه النصوص يدلّ على أنّ السحر إمّا حيلة وشعوذة ، وإمّا صناعة علمية خفيّة يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكثرون فيسمّون العمل بها سحرا لحفاء سببه ولطف مأخذه. ويمكن أن يعدّ منه تأثير النفس الإنسانية في نفس أخرى لمثل هذه العلّة. وقد قال المؤرّخون : إنّ سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصيّ بصور الحيات والثعابين وتخييل أنّها تسعى. وقد اعتاد الذين اتخذوا التأثيرات النفسية صناعة ووسيلة للمعاش أن يستعينوا بكلام مبهم وأسماء غريبة اشتهر عند الناس أنّها من أسماء الشياطين وملوك الجنّ وأنهم يحضرون إذا دعوا بها ويكونون مسخّرين للداعي. ولمثل هذا الكلام تأثير في إثارة الوهم ، عرف بالتجربة. وسببه اعتقاد الواهم أنّ الشياطين يستجيبون لقارئه ويطيعون أمره. ومنهم من يعتقد أنّ فيه خاصيّة التأثير وليس فيه خاصيّة. وإمّا تلك العقيدة الفاسدة تفعل في النفس الواهمة ما يغني منتحل السحر عن توجيه همّته وتأثير إرادته ، وهذا هو السبب في اعتقاد الدّهاء ^(١) أنّ السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب. ^(٢)

وقد اقتفى أثره الشيخ المراغي في عبارة اختصرها من كلام استاذه الشيخ محمّد عبده. ^(٣)

وقال سيّد قطب . عند تفسير سورة الفلق . : والسحر لا يغيّر من طبيعة الأشياء ، ولا ينشئ حقيقة جديدة لها ، ولكنّه يخيّل للحواسّ والمشاعر بما يريده الساحر. وهذا هو السحر كما صوّره القرآن الكريم في قصّة موسى عليه السلام من سورة طه ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾. وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيّهم حيّات فعلا ، ولكن

(١) جمع الدهيم وهو الأحق السفيه.

(٢) تفسير المنار ، ج ١ ، ص ٤٠٠.

(٣) تفسير المراغي ، ج ١ ، ص ١٨٠ . ١٨١ .

خيّل إلى الناس أنّها تسعى. وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسلّم بها ، وهو بهذه الطبيعية يؤثر في الناس وينشئ لهم مشاعر وفق إيحائه ، مشاعر تخيفهم وتؤذيههم وتوجّههم الوجهة التي يريدّها الساحر ، وهو شرّ يستعاذ منه بالله ويلجأ منه إلى حماه. ^(١) وقد أعرب شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي رحمته الله عن معتقد أهل الحقّ في السحر وأن لا حقيقة له ، قال : ذكروا للسحر معاني أربعة :

أحدها : أنّه خدع ومخاريق وتمويهات لا حقيقة لها ، يخيّل إلى المسحور أنّ لها حقيقة.

الثاني : أنّه أخذ بالعين على وجه الحيلة.

الثالث : أنّه قلب الحيوان من صورة إلى أخرى ، وإنشاء الأجسام على وجه الاختراع ، فيمكن الساحر أن يقلب الإنسان حمارة وينشئ أجساما.

الرابع : أنّه ضرب من خدمة الجنّ.

قال : وأقرب الأقوال هو الأول ، لأنّ كلّ شيء خرج عن مجرى العادة فإنّه سحر [في مزعومهم] لا يجوز أن يتأتّى من الساحر ، ومن جوّز شيئا من هذا فقد كفر. لأنّه لا يمكن مع ذلك ، العلم بصحّة المعجزات الدالّة على النبوّات ، لأنّه أجاز مثله على جهة الحيلة والسحر. ^(٢)

وهكذا ذهب إلى إنكاره في كتاب الخلاف. ^(٣)

وقال الطبرسي : السحر والكهانة والحيلة نظائر. ومن السحر ، الأخذة التي تأخذ العين حتّى يظنّ أنّ الأمر كما ترى وليس الأمر كما ترى. والجمع ، الاخذ. فالسحر عمل خفيّ لخباء سببه ، يصوّر الشيء بخلاف صورته ويقبله عن جنسه في الظاهر ولا يقبله عن جنسه في الحقيقة ، ألا ترى إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾؟ ^(٤)

(١) في ظلال القرآن ، المجلّد ٨ ، ص ٧٠٩ ، ج ٣٠ ، ص ٢٩١.

(٢) تفسير التبيان ، ج ١ ، ص ٣٧٤.

(٣) نقل عن أبي جعفر الأسترابادي أنّه لا حقيقة له وإنّما هو تخييل وشعبذة ، وبه قال المغربي من أهل الظاهر. ثم قال : وهو الذي يقوى في نفسي. راجع : الخلاف ، ج ٢ ، ص ٤٢٢ ، مسألة ١٤ ، من كتاب كفارة القتل.

(٤) مجمع البيان ، ج ١ ، ص ١٧٠.

وقال المجلسي العظيم . في كلام له عن السحر ناظر إلى ما نقله عن ابن خلدون . : وأما ما يذكر من بلاد الترك أنهم يعملون ما يحدث به السحب والأمطار فتأثير أعمال هؤلاء الكفرة في الآثار العلوية وما به نظام العالم مما تأبى عنه العقول السليمة والأفهام القويمة. ولم يثبت عندنا بخبر من يوثق بقوله. (١)

والعجب من بعض الكتّاب العصريين جنح إلى ترجيح الرأي القائل بحقيقة السحر وأنّ له واقعا يؤثّر في قلب الواقعية حقيقة ، واقتفى في ذلك بعض أقوال القدماء فيما نقلوه من حكايات هي أشبه بالخرافات منها بالواقعيات.

هذا الاستاذ محمد فريد وجدي ينقل أولاً عن مقدّمة ابن خلدون اعترافه بحقيقة السحر ، ثم يعقبه باستنكار الغربيين ويحمل عليهم بأنهم قاصرو النظر في إطار من المادّيات ويجعلون العالم كلّه في دائرة أضيق من سمّ الخياط. وأخيراً يرجّح أنّ له حقيقة ويذكر له شاهداً في قصّة خيالية. وإليك بعض كلامه ونقله عن ابن خلدون وغيره :

قال ابن خلدون في مقدّمته : السحر ، علم بكيفية الاستعدادات تقتدر النفوس البشرية به على التأثيرات في عالم العناصر إمّا بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية. والأول هو السّحر ، والثاني هو الطّلسمات. قال : ولنقدّم هنا مقدّمة يتبيّن بها حقيقة السحر ، وذلك أنّ النفوس البشرية وإن كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواصّ. فنفس الأنبياء لها خاصيّة تستعدّ بها للمعرفة الربّانية ومخاطبة الملائكة. وما يتّسع في ذلك من التأثير في الأكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرّف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية. فأما تأثير الأنبياء فمدد إلهي وخاصيّة ربّانية ، ونفوس الكهنة لها خاصيّة الاطّلاع على المعيّات بقوى شيطانية ، وهكذا كلّ صنف مختصّ بخاصيّة لا توجد في الآخر. والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث ، فأولها المؤثّرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين ، وهذا هو الذي يسمّيه الفلاسفة السحر. والثاني بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواصّ الأعداد ، ويسمّونه الطّلسمات ، وهو أضعف رتبة من الأوّل. والثالث تأثير في القوى

(١) بحار الأنوار ، ج ٦٠ ، ص ٤١ - ٤٢.

المتخيّلة ، يعمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخيّلة فيتصرّف فيها بنوع من التصرّف ويلقي فيها أنواعا من الخيالات والمحاكاة وصورا ممّا يقصده من ذلك ، ثمّ ينزلها إلى الحسّ من الرّائين بقوة نفسه المؤثّرة فيه ، فينظر الرّاءون كأثّما في الخارج وليس هناك شيء من ذلك كما يحكى عن بعضهم أنّه يري البساتين والأثمار والقصور ، وليس هناك شيء من ذلك. ويسمّى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبة.

قال : ثمّ هذه الخاصيّة تكون في الساحر بالقوّة شأن القوى البشريّة كلّها ، وإثّما تخرج من القوّة إلى الفعل بالرياضة ، ورياضة السحر كلّها إثّما تكون بالتوجّه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلويّة والشيّاطين ، بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلّل ، فهي لذلك وجهة إلى غير الله وسجود لغير الله ، والوجهة إلى غير الله كفر ، فلهذا كان السحر كفرا والكفر من موادّه وأسبابه.

قال : واعلم أنّ وجود السحر لا مريّة فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه ، وقد نطق به القرآن ، قال الله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. ^(١) وسحر رسول الله ﷺ حتّى كان يخيّل إليه أنّه يفعل الشيء ولا يفعله. وجعل سحره في مشط ومشاقة وجفّ طلعة ، ودفن في بئر ذروان. فأنزل الله عليه ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾. ^(٢) قالت عائشة : كان لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها إلّا انحلت.

قال : ورأينا بالعيان من يصوّر صورة الشخص المسحور بخواصّ أشياء مقابلة لما نواه وحاوله ، موجودة بالمسحور ، وأمثال تلك المعاني من أسماء وصفات في التّأليف والتفريق ، ثمّ يتكلّم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عينا أو معنى ، ثمّ ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء ويعقد ذلك المعنى في سبب أعدّه لذلك تفاؤلا بالعقد والالزام واخذ العهد على من أشرك به

(١) البقرة ٢ : ١٠٢ .

(٢) الفلق ١١٣ : ٤ .

من الجنّ في نفثه في فعله ذلك استشعارا للعزيمة بالعزم. ولتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلّقة بريقه الخارج من فيه بالنفث ، فتنزّل عنها أرواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر!

قال : وشاهدنا أيضا من المنتحلين للسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلد ويتكلّم عليه في سرّه ، فإذا هو مقطوع متخرّق. ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج (أي شقّ البطن) فإذا أمتعّاها ساقطة من بطونها إلى الأرض.

وسمعا أنّ بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فيتحنّت (أي يتفتت ويتساقط) قلبه ويقع ميتا ، وينقلب عن قلبه فلا يوجد في حشاه. ويشير إلى الرّمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء.

قال : وكذلك سمعنا أنّ بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة. وكذلك رأينا من عمل الطّلسمات عجائب من الأعداد المتحابّة ... ونقل أصحاب الطّلسمات أنّ لتلك الأعداد أثرا في الالفة بين المتحابين واجتماعهما إذا وضع لهما مثالان أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شرفها ناظرة إلى القمر نظر مودّة وقبول. ^(١)

ثمّ يذكر الاستاذ وجدي ما شاهده الغريّبون في تجوالهم القارّات من غرائب صدرت على أيدي كهنة القبائل ، ولكنّهم جرّبوها بأنفسهم فوجدوها ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾. ^(٢) فأروها لا تؤثّر أدنى تأثير ، فزالت جميع الأوهام التي كان الأقدمون يحيطون بها من الكيمياء والنجامة ، وتولّد من الاولى الكيمياء الحقيقية ، ومن الثانية علم الفلك الصحيح.

قال الاستاذ وجدي : وقد ذكر القرآن الكريم السحر في مواضع كثيرة. وقد مضى متقدّموا الأمة معتقدين وجوده وأنّه من العلوم السريّة التي يتحصّل عليها بالرياضة

(١) راجع : المقدمة لابن خلدون ، الفصل ٢٢ ، ص ٤٩٦ - ٤٩٩.

(٢) النور ٢٤ : ٣٩.

وغيرها. ومال بعضهم وكثير من المتأخرين إلى زعم أنّ السحر سرعة اليد وصناعة في التمويه ، وليس له دليل يسنده. قال : ولكن دليلنا نصّ القرآن وما نقرأه في كتب الخوارق التي ظهرت في اوروبا منذ تسعين سنة باسم «الاسبرترزم» وغيره ممّا يرينا جليّا أنّ هنالك عالما روحانيّا وفيه من الكائنات ما لا تتصوّره وأنّنا نستطيع أن نناجي تلك الكائنات وتناجينا. ومتى كان هذا ممكنا وتقرّر أنّ الوجود عامر بالآيات المعيّبة فلا يبعد أن يكون السحر تابعا لقوى روحانية وأنّه ليس بمجرّد صناعة أو سرعة يد الساحر.

ل : حكى لي والدي عن محمّد وجيهي بيك العمري محافظ دمياط سابقا ، وكان رجلا صدوقا تقيا ، قال : إنّّه كان له قريب في بغداد اسمه عزّت باشا وكان شجاعا مقداما لا يهاب المخاوف ، وكان به غرام لرؤية الأسرار والعجائب ، فكان لذلك يتحرّى ملاقاته الدراويش ويتصيّد لهم لأنّ منهم من يتفق أن يكون على شيء ممّا يتحرّى رؤيته ، فعثر يوما بدرويشين غريبين كان من شأنهما أنّ أحدهما يعزم ثمّ يقول بغمه : هف ، فتفتتح جميع نوافذ البيت على سعته مهما كانت مغلقة محكمة الإغلاق ، ثمّ يقول : هف ، فتقفل جميعها دفعة واحدة. وأراه عجائب اخرى. فسأله عزّت باشا عن السرّ الذي يحدث به ذلك ، فقال : إنّّه مستخدم إبليس نفسه. فطلب منه أن يراه ، فقال له : لا تقوى على رؤيته. فقال : تقويان أنتما على رؤيته وأضعف أنا عن ذلك؟! مع أنّي كم جبت المخاوف وولجت المعاطب! فقالا : ذلك شيء وهذا شيء آخر. فألحّ عليهما ، فانقادا له فجلسا في الظلمة وأخذ أحدهما يعزم مدّة ، فانشقّ السقف وظهرت النجوم ثمّ تدلّت منه صورة لا يتصوّر الوهم أفضع منها ، فما أن وقع عليها بصره حتّى قام مدعورا وتلمّس الباب حتّى وجده وصعد إلى أهله فجمعهم حوله ، وما زال مضطربا من الذعر حتّى أصبح وبقي بعدها أربعين يوما لا يمشي خطوة حتّى يستصحب معه بعض أهله من شدّة ما لحقه من الخوف. ^(١)

ولعلّ صاحبنا الاستاذ وجدي فريد وسط زملائه المتنوّري الفكر في قبوله ما يرفضه العقل الرشيد فضلا عن العلم والحكمة القويمة. إنّنا لا ننكر أنّ هناك نفوسا قوية

(١) دائرة معارف القرن العشرين ، ج ٥ ، ص ٥٥ . ٦٧ .

من أصحاب التمايم والزمائم يؤثرون بقوة إرادتهم في وهم ضعفاء النفوس فيخيّلون إليهم صورا وأشكالاً حسبما يشاءون ، والغالب أنّ أمثال هؤلاء المدّعين للسحر وتقليب الحقائق هم اناس مفاليس يستدّرون أموال ذوي العقول السدّج لأجل تأمين معيشتهم الحقيرة ، وهو أحد طرق الاستجداء ، فلو كانوا أصحاب قدر خارقة لعالجوا لأنفسهم ما يسدّ حاجتهم عن الاستجداء لا العيش على فضلة الآخرين وعلى طريقة التدليس والتزوير ، الأمر الذي يكون من أردأ أنحاء المعيشة في الحياة! إنهم لا يملكون سدّ رمقهم فكيف بالتسخير للأرواح المدبّرات!

يقول ابن خلدون . الذي حفل بهذه المزعومة في حفاوة وتفصيل . : إنّ التأثير الذي لهم إنّما هو فيما سوى الإنسان الحرّ من المتاع والحيوان والرقيق . ويعبّرون عن ذلك بقولهم : إنّما نفعل فيما تمشي فيه الدراهم ، أي ما يملك ويبيع ويشترى ... قال : ومن هؤلاء من يسمّى بالبعّاجين ، يشيرون إلى بطن الغنم فتنبعج . لأنّ أكثر ما ينتحل من السحر بعج الأنعام يرهبون بذلك أهلها ليعطوهم من فضلها وهم مستترون بذلك في الغاية خوفاً على أنفسهم من الحكّام. ^(١)

مساكين! لا يمكنهم الدفاع عن أنفسهم فكيف القدرة على قهر الطبيعة وقلبها؟!
والعجب من الاستاذ وجدي أصاخ بكلّ مسامعه واستسلم لما سطره ابن خلدون من قدرة الساحر على تسخير الكائنات وسلطته على الأفلاك . وحسبها ذوات أنفس وأجرام. ^(٢) والكواكب . حسبها ذوات عقول ومدبّرات لما يجري على الأرض . والجنّ والقوى الروحانية ، فسخرها جمع للتأثير على قلب عناصر المادّة والتصرّف في العالم العلوي والعالم السفلي جميعاً . يا لها من مخزقة وإن شئت فسّمها مهزلة!! وهناك حكايات وروايات أكثرها تنمّ عن قوّة التخيل أو هي أكاذيب وأباطيل . وأمّا أصحاب التمايم

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٠٠ . ٥٠١ .

(٢) وهي دوائر وهمية يرسمها العقل لكلّ نقطة دائرة ترسيما في فرض لا في واقع الأمر . نعم ذهب جمع من الأقدمين إلى فرض الأفلاك أجراما شاعرة ذوات عقول ونفوس . ولها شأن في تدبير العوالم السفلى تدبيرا عن علم وإرادة ، ومن ثمّ جاز تسخيرها في جهة مقاصد السوء!!

والنفث في العقد فإثما هم أصحاب النمائ وإيحاء الوسوس للفرقة بين الزوجين أو المتحابين ، ولا يتأتى منه غير الإفساد في الأرض ، فيتعمّلون ما يضرهم من غير أن ينفعهم شيئا حسبما وصفهم القرآن الكريم.

نعم هنا شيء لا ننكره تبهنا عليه ، وهو : أنّ للنفوس البشرية قدرة خارقة يمكن تنميتها بالارتياض إما في وجهة رحمانية رفيعة أو في وجهة أرضية هابطة. والاولى رياضة النفس يقوم بها الأنبياء والأولياء والصلحاء فيفوزون بمقامات عالية ، وربما تتسخر لهم الكائنات. وأمّا الوجهة الاخرى الهابطة فيقوم بها أصحاب الارتياض بترك المشتبهات ولذائذ الحياة في أشقّ الأحوال وأصعب الأعمال التي لم يأت بها الله من سلطان ، ولكتهم قهروا أنفسهم على نبد الشهوات واللذائذ واخلعوا عن زخارف الحياة. وهو عمل له قيمته ووزنه في ترك الدنيا الدنية ، وحيث لم يكن لهم نصيب في الحياة الاخرى الخالدة فقد يمنحه تعالى منحة تقتنع أنفسهم بها تجاه ما تحمّلوا من مشاقّ الحياة. الأمر الذي قد نشاهده من خوارق على يد مرتاض الهند وغيرها من بلاد ، ولكن في إطار محدود وعلى شريطة أن لا يزاوئوها عن جهة الفساد في الأرض ، وإلا فيؤخذ منهم فور إرادة السوء. نظير ما قيل بشأن «بلعام بن باعورا». قيل : كان رجلا صالحا من قوم موسى ، وقد منحه الله استجابة دعائه ، فحاول تقرّبا إلى بعض الأمراء أن يدعو على قوم مؤمنين ، فسلبه الله المنحة وظلّ خاسرا دينه ودنياه. قيل : والآية التالية ناظرة إلى هذا الحادث : ﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾^(١).

أمّا العامل بالشرط ولم يتجاوز حدوده المضروبة فستدوم له منحة ما دام باقيا على عهده ، أو يسلم فتدّخر له مثوبته في الدار العقبى مثوبة باقية. روي أنّ شيخا من الأكابر رأى في طريقه لمة مجتمعة حول رجل فسأل عنه ، قيل له : إنّ يعلم الغيب. فأتاه وسأله عن شيء أخفاه في كفه فأخبره به. فسأله الشيخ عن أيّ

(١) راجع : جامع البيان ، ج ٩ ، ص ٨٢ . ٨٤ والآية ١٧٥ و ١٧٦ من سورة الأعراف.

ارتياض بلغت هذا المقام؟ قال : بمخالفة النفس ، لقد دأبت أن اخالف كلّ ما تشتهي نفسي وتهواه. قال له الشيخ : هذا عمل جسيم ، ولكن هل عرضت على نفسك الإسلام؟ . وكان الرجل من براهمة الهند . قال : لا. قال له الشيخ : أعرضه على نفسك ثم انظر هل توافقك عليه أم تخالفك؟ فعرض الرجل الإسلام على نفسه وأبدى أنّ نفسه ترفضه! فقال له الشيخ : إذن خالف هوى نفسك ، على دأبك القديم! فقبل الرجل واعتنق الإسلام. وعندئذ سأله الشيخ عن شيء أخفاه في كَفِّه ، فلم يستطع الرجل أن يخبر عنه وزال عنه علمه بالغيب وتعجّب الرجل من ذلك! قال له الشيخ : لا تعجب ، إنّك كنت على أمر عظيم ، وحيث لم يكن لك نصيب في العقبي جازاك الله بطرف من عنايته عليك في هذه الحياة. فلما أسلمت ادّخر الله لك ذلك مثوبة عظمت في الآخرة.

ولبراهمة الهند المرتاضين قضايا عجيبة وتصرفات خارقة تعود إلى مقدرتهم النفسية الفائقة ، الحاصلة على أثر ترك الملاذّ وتحمل المشاقّ ، فمنحوا شيئا من إمكان التصرفات الخارقة مقتنعين بذلك تمام الاقتناع ، حيث لا خلاق لهم في الآخرة.

جاء في مذكرات مرافق الملك جورج السادس عاهل الحكومة البريطانية في سفرته إلى الهند أيام الاحتلال مشاهد عجيبة بهذا الشأن. يقول : وقف القطار في إحدى المحطّات لخزن الماء ، فنزل الملك وجعل يتمشّى وإذا بمرتاض قابع في ناحية وجده في غاية الوساخة فنصحه أن يهتمّ بنظافة جسمه وثيابه وحاول مساعدته ، وإذا بالمرتاض اغتاض لذلك ولم يجبه بشيء. فانصرف الملك وركب القطار ، وإذا بالقطار لا يتحرّك. فقام المهندسون بالفحص من غير أن يجدوا فيه نقصا. وكان مع الملك ضبّاط هنود. ورأوا المرتاض القابع في زاوية ، فسألوا الملك : هل قال للمرتاض شيئا يغيظه؟ فأفصح الملك بما دار بينه وبين المرتاض من غير أن يسيء إليه بكلام أو غيره. قال الضباط : لعلّ سخط عليك وحسبه تجاسرا عليه وهو الذي أوقف القطار. فجاء الملك واستماح من المرتاض واعتذر منه لو غاظه كلامه. فرفع المرتاض رأسه . يبدو في وجهه الرضا . وأشار إلى القطار فتحرك لساعته.

وجاء فيها أيضا أنهم قصدوا زيارة كبير المرتاضين وكان مقره في غابة ملؤها حشرات وبعوض ضارية ، ولما أن اقتربوا من مقر المرتاض بكليومتات وإذا الفضاء صحو لا حشرة فيه ولا بعوضة. فتعجبوا من ذلك وسألوا المرتاض عن السر ، قال : إننا لا نمنح لها بالاقتراب من حرمنا! كل ذلك إن دلّ فإمّا يدلّ على قدرة نفسية كبيرة حظي بها هؤلاء المرتاضون على أثر رياضتهم ونبذ المشتبهيات ، وليس من السحر في شيء. أضف إلى ذلك أنّ النفس بذاتها ذات قدرة جبّارة بها يتمكّن الإنسان من التغلب على الطبيعة ، من غير أن يستعين بقدرة خارجة عن إطار نفسه. لكن إذا عرف من نفسه هذه القدرة واستعملها بقوة وعزيمة راسخة.

قرأت في تاريخ ثورة فرنسا الكبرى عن شخصية «ميرابو» الرجل السياسي الكبير من أركان الثورة (١٧٤٩ . ١٧٩١ م) على عهد الملك لويس الخامس عشر. كان نائبا في مجلس النيابة وكان ذا منطق قويّ جبّار بحيث كان يرضخ له المؤالف والمخالف لقوة خطابه. يحكى عن مقدرته النفسية الخارقة قضايا ، منها ما ذكره أحد زملائه وكان يرافقه في قصده لزيارة قبر والدته ، وإذا بكلب هارش هجم عليهما وكان ضاريا شديدا البأس. فأخذ صاحبه يتوحّش ويلتمس الفرار ، لكن ميرابو في هدوء وطمأنينة وأخذ يهدئ من روعة صاحبه قائلا : لا تستوحش أنا أكفيك. فجعل يتحدّق النظر في عيني الكلب وإذا به يهدأ حتى افترش بذراعيه على الأرض كالخاشع أمام ميرابو! ينقل بشأنه من أمثال هذه القضايا كثير.

شهدت إحدى الاحتفالات في مراسم العزاء على سيّد الشهداء ليلة الحادي عشر من محرم الحرام بكريلاء المقدّسة عام (١٣٧٠ هـ. ق) وكان الاحتفال بشأن دخول النار المتوهّجة كما هو مرسوم عند الهنود. وقد توقّدت النار في حطب ضخّم حوالي ساعات حتّى صارت جمرات متوهّجة في حفرة مستطيلة الشكل مترين في ثلاث أو أربع مترات في عمق ثلاثين سانتيمترا ملؤها الجمرات المتوقّدة. فجاء هنود أربعة مسلمون وجعلوا

يلطمون على صدورهم لظما خفيفا هادئاً ويترنمون بـ «يا حسين يا حسين» وكشفوا عن ساقهم وهم حفاة ، ومن ورائهم صبي على هياتهم ربما كان عمره عشر سنوات ونحو ذلك ، فدخلوا الحفرة مستقبليين القبلة بهدوء وطمأنينة بلا تهيج ولا اضطراب واجتازوا الحفرة وخرجوا من الجانب الآخر بسلام لم يمسهم أثر من الحريق. هذا ما شاهدته بعيني وكثير من وجوه السادة الأجلاء بكربلاء حضور يرون المشهد الرهيب بكل إعجاب وإكبار! واستمعت إلى الإذاعات هذه الأيام أنّ هذه عادة جارية بين الهنود ، من مسلمين وغير مسلمين ، وأنها تمسّ عزيمة النفس القوية بأنّها قاهرة تغلب على تأثير النار في أجسامهم ، الأمر الذي يشكّل ركيزة السرّ في تغلبهم على توهج النار الملهبة ، ويحضر المراسم كثير من الخلائق المجتمعة من حول العالم ليروا المشهد عن كثب بما لا يدع مجالاً للاستنكار.

وهناك نفوس قدسية أكبر قدرة على التغلب على نوااميس الطبيعة بفضل اعتلاء قدرتهم النفسية الإلهية.

تلك السيّدة زينب الكبرى بنت الإمام أمير المؤمنين (عليه وعلى آله أفضل صلوات المصلّين) عند ما حاولت أن تخطب خطبتها المعروفة في سوق الكوفة وهي رهن إسمارها إلى يزيد الطاغية. فأشارت إلى الجمع أن اسكتوا ، قال الراوي : فعند ذلك سكنت الأنفاس وهدأت الأجراس ، وجعلت تخطب في جوّ ملؤه الهدوء حتّى من صفير الأجراس! إنّ هذه قوّتها النفسية الخارقة أثّرت حتى في الجمادات!

وكان لنا صديق يعمل في تجهيز الأدوات الكهربائية ، فرأيتّه وهو يمسك على سلك كهربائي مجرّد عن الغلاف ويعمل في مزاولته لتجهيز حفلة كبيرة بمناسبة ميلاد الإمام المنتظر الحجّة بن الحسن (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ليلة النصف من شعبان. فتعجّبت منه وهو ماسك على السلك المجرّد يعمل به ، واقتربت منه ، فقال : لا تمسني وكلّ جسدي ملؤه الكهرباء. فقلت له : وكيف أنت وقد مسكت السلك؟! قال : أنا أتغلب على الكهرباء وأضغط عليه بكلّ قوّة فلا يغلبني ، وهذا عملي المستمرّ يوميّاً ، أغلب على القوّة

الكهربائية ولا تغلبني ، بفضل قدرتي على التغلب عليها في صلابة قوية! فتعجبت من صنيعه ، ولكن لا عجب بعد أن كانت النفس البشرية ذات قوة قاهرة جبارة ...

وعلى أي حال ، فهذا من قدرة النفس الجبارة ، وأين هذا من السحر ، على ما حسبه صاحبنا وجدي ومن قبله ابن خلدون؟! تلك مشاهد بل حقائق لا يمكن إنكارها ، إذا ما لاحظنا قدرة الإنسان النفسية الخارقة ، الذي تسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعا ، بفضل منه تعالى. «والنفس في وحدتها كل القوى».

أتزعـم أنـك جـرم صـغير وفيـك انطـوى العـالم الأكـبر
هذا من جانب ، ومن جانب آخر لا ننكر أن وراء هذا العالم المحسوس عالم أرقى ملئ بالكائنات العاقلة (ذوات الشعور) من ملك أو جنّ أو أرواح طيبة أو خبيثة. ولكن أتى هؤلاء الصعاليك (سحرة الأرض) الهيمنة على تلك الكائنات المتعالية ذوات القدر الجبارة. إنهم أعلى كعبا من أن تنالها أيد شلاء قاصرة. وقد قامت الشواهد المستوعبة على وجود عالم الغيب وراء عالم الشهود. لكن هل بإمكان العائشين على الأرض التغلب والسيطرة (تسخير) تلك الكائنات المنبثة وراء ستار الغيب؟ وقد دلت الشواهد على أنهم أعجز من ذلك ، اللهم إلا بعض الإحياءات الخبيثة تلقيها الشياطين على شاكلتهم في الأرض ﴿إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾^(١). فهم الذين وقعوا في فخ الشياطين وحسبوا أنها مسخرة لهم ، يا لها من مهزلة تنبؤك عن سفاهة في ذوي العقول الضعيفة. وقد استوفينا الكلام عن ذلك في رسالة كتبناها عن الأرواح.

وبعد ، فإذا لم تثبت حقيقة للسحر بمعنى التأثير في قلب الطبيعة وتسخير الكائنات ، نعم سوى تمائم هي نمائم ووساوس ينفثونها لفكّ العقد وفصم الروابط والأواصر بين المتحابين ، ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢). ومن ثم لا تأثير لدسائسهم في

(١) الأنعام ٦ : ١٢١.

(٢) البقرة ٢ : ١٠٢.

نفوس متّكلة على الله قويمة بعنايته تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾. ^(١) فكان ما تعلّموه ضرر عليهم ولا ينفعهم شيئا. الأمر الذي جعلهم عجزة ومساكين وعائشين على فضلة الأثرياء أو الضعفاء الأغنياء. قال تعالى بشأنهم : ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾. ^(٢)

وهذا طابع وسمهم به القرآن الكريم. حيث يقول . موجهًا خطابه إلى المشركين في زعمهم أنّ النبي جاء بسحر . : ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾. ^(٣) دليلا على أنّ الذي جاء به نبيّ الإسلام لا صلة له بالسحر ، حيث قد توفّق في تبليغ دعوته والتأثير بشريعته تأثيرا في واقع الحياة. الأمر الذي لا يتلاءم وسحر السحرة غير المفلحين ولا موقّفين في مسيرتهم المنحرفة بل مكدودين عاجزين أذلاء ومساكين حقراء.

هذا هو منطق القرآن ونظرته القاطعة بشأن السحر والسحرة ، لا واقع له ولا تأثير خارج إطار الدسائس الخبيثة. وأن لا قدرة لساحر ولا هيمنة على سكّان الأرض السفلى فكيف بالسلطة على سكّان السماوات العلى. فلا نجاح لهم في عمل ولا حظّ لهم في سعادة الحياة.

* * *

ثمّ فلنفرض أنّ جاهلية العرب كانت تعتقد بحقيقة السحر عقيدة جاهلية بائدة ، لكن هل هناك شاهد على أنّ القرآن وافقهم أو جاراهاهم على تلك العقيدة الباطلة؟ فلننظر في الموارد التي أخذوها شواهد على زعم الموافقة أو المجارة ، وهي ثلاثة موارد : سحرة فرعون ، سحرة بابل ، النفّاثات في العقد. نبحت عنها على الترتيب :

سحرة فرعون

مّا أخذوه شاهدا على ذلك سحرة فرعون ، حيث يقول عنهم القرآن : ﴿وَجَاؤُا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾. ^(٤)

(١) الحجر ١٥ : ٤٢ ؛ الإسراء ١٧ : ٦٥ .

(٢) طه ٢٠ : ٦٩ .

(٣) يونس ١٠ : ٧٧ .

(٤) الأعراف ٧ : ١١٦ .

وقد عرفت أنّ سحرهم كانت شعوذة والأخذة بالعين لا غير. فقد ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾^(١) وكانت ﴿جِبَاهُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَهَّا تَسْعَى﴾^(٢). فقد كان مجرّد تلبّيس وتمويه في الأمر وأروهم ما كان الواقع خلافه.

وإذا كان هذا (مجرّد التخيل والتمويه) سحرا عظيما. والسحر ما لطف ودقّ مأخذه. فكيف بغير العظيم الذي هو أخفّ وزنا وأردأ شأنًا. هذا ما يرسمه لنا القرآن من واقع السحر ، وأنّه يخالف تماما ما كانت العرب تعتقده بشأن السحر وتأثيره في قلب الواقع ، فكيف يا ترى مزعومة من زعم أنّ القرآن وافق العرب في عقيدتها أو جاملهم وتماشى معهم في أمر باطل؟!

قال سيّد قطب : وحسبنا أن يقرّر القرآن أنّه سحر عظيم ، لنذكر أيّ سحر كان. وحسبنا أن نعلم أنّهم سحروا أعين الناس وأثاروا الرهبة في قلوبهم ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ لتتصوّر أيّ سحر كان. ولفظ «استرهب» ذاته لفظ مصوّر ، فهم استجاشوا إحساس الرهبة في الناس وقسروهم عليه قسرا. ثمّ حسبنا أن نعلم من النصّ القرآني . في سورة طه . أنّ موسى عليه السلام قد أوجس في نفسه خيفة لتتصوّر حقيقة ما كان. ولكن مفاجأة أخرى تطالع فرعون وملأه ، وتطالع السحرة الكهنة ، وتطالع جماهير الناس في الساحة الكبرى التي شهدت ذلك السحر العظيم : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾^(٣).

إنّ الباطل ينتفش ، ويسحر العيون ، ويسترهب القلوب ، ويحيل إلى الكثير أنّه غالب ، وأنّه جارف ، وأنّه محيق! وما هو إلّا أن يواجه الهادئ الواصل ، حتّى ينفث كالفقاعة ، وينكمش كالقنفذ ، وينطفئ كشعلة المهشيم! وإذا الحقّ راجح الوزن ، ثابت القواعد ، عميق الجذور. والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال ، وهو يصوّر الحقّ واقعا ذا ثقل «فوقع الحق» ... وثبت ، واستقرّ ... وذهب ما عداه فلم يعد له وجود : ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١) الأعراف ٧ : ١١٦.

(٢) طه ٢٠ : ٦٦.

(٣) الأعراف ٧ : ١١٧-١١٩.

وغلب الباطل والمبطلون وذُلُّوا وصغروا وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهز العيون : ﴿فَعَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾^(١).
 قال : فالسحر لا يغيّر من طبيعة الأشياء ، ولا ينشئ حقيقة جديدة لها. ولكنّه يخيّل للحواسّ والمشاعر بما يريده الساحر. وهذا هو [واقع] السحر
 كما صوّره القرآن الكريم في قصّة موسى عليه السلام فلم تنقلب حبالهم وعصيّهم حيّات فعلا ، ولكن خيّل إلى الناس أنّها تسعى. وهذه هي طبيعة السحر كما
 ينبغي لنا أن نسلّم بها. وهو بهذه الطبيعة يؤثّر في الناس ، وينشئ لهم مشاعر وفق إيجائه. مشاعر تخيفهم وتؤذّيهم وتوجّههم الوجهة التي يريدها الساحر.
 قال : وعند هذا الحدّ نقف في فهم طبيعة السحر والنفث في العقد. وهي شرّ يستعاذ منه بالله ويلجأ إلى حماه.^(٢)

سحرة بابل

كان المجتمع البابلي . على عهد الكلدانيين . مجتمعا فاسدا شاعت فيه الفحشاء والمنكرات وراج الفساد والإفساد في الأرض ، وكان من أساليب
 إفسادهم ارتكاب الحيل الماكرة والدسائس الخادعة لإيجاد البغضاء والشحناء بين الناس ، وبثّ روح سوء الظنّ بين المؤمنين : بين المرء وزوجته. بين الوالد
 وولده. بين الأخوين. بين الشريكين في صنعة أو تجارة. وذلك عن طريق الوسائس والدسائس والخدع والنيروجات ، وكان السبب يعود إلى هيمنة الحسد
 على الناس حينذاك ، بما جعلهم يبغض بعضهم بعضا ويعمل بعضهم ضدّ البعض في أساليب وحيل خداعة كلّ يوم في شكل من أشكالها ، ويتعاون
 بعضهم مع بعض في تخطيط هذه الأساليب وتنويعها ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾^(٣). وإلى ذلك تشير سورة الناس : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ
 النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَهِ النَّاسِ. مِنْ شَرِّ

(١) في ظلال القرآن ، المجلّد ٣ ، ص ٦٠٤ ، ج ٩ ، ص ٣٨.

(٢) المصدر : المجلّد ٨ ، ص ٧٠٩ ، ج ٣٠ ، ص ٢٩١.

(٣) الأنعام ٦ : ١١٢.

الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿١﴾. الخنس : العمل في خفاء وعن وحشة الافتضاح ، ومن ثمّ إذا أحسن بالفضح خنس أي انقبض وتحفّى بسرعة. فكان الخناس هو الذي يعمل في خبث ولؤم وعن وحشة خشية الافتضاح. فهو يعمل في خبث معه ضعف وجبن ووهن في مقدرة الماكرة.

فأنزل الله الملكين هاروت وماروت ببابل ينبّهان الناس على إفشاء تلك الأساليب الماكرة ويعلمّانهم طرق التخلّص منها والنقض من أثرها. غير أنّ بعض الخبثاء كانوا يتعلّمون ما يضرّهم دون ما ينفعهم. ليفترقوا بين المرء وزوجته. سوى أنّ الله غالب على أمره وما تشاءون إلّا أن يشاء الله.

يقول الله عن سوء تصرف بني إسرائيل : ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ. وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

لقد تركوا ما أنزل الله ونبدوه وراء ظهورهم ، وراحوا يتتبعون ما كان يقصّه الشياطين . والشيطان وصف لكلّ خبيث سيّئ السريرة . على عهد سليمان وأساليب تضليلهم للناس من دعاو مكذوبة عن سليمان حيث كانوا يقولون إنّّه كان ساحرا وإنّهُ سحّر ما سحّر بسحره. والقرآن ينفي عنه ذلك ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ باستعمال السحر الذي هو في حدّ الكفر بالله العظيم. ولكن الشياطين (خبثاء الجن والإنس) كفروا يعلمون الناس السحر (طرق الإضلال وأساليب التضليل).

ثمّ ينفي أنّ السحر منزل من عند الله على الملكين : هاروت وماروت ، اللذين كان مقرهما بابل. ويبدو أنّه كانت هناك قصّة معروفة عنهما وكان اليهود أو الشياطين يدّعون أنّهما كانا يعرفان السحر ويعلمانه للناس. فنفي القرآن هذه الفرية ، ويبيّن الحقيقة ، وهي أنّ

(١) البقرة ٢ : ١٠٢ .

هذين الملكين كانا هناك فتنة وابتلاء للناس ، كانا يقولان لكل من يأتيهما طالبا منهما معرفة طريق التخلص من براثن الشياطين السحرة : لا تكفر باستخدام تلك الأساليب الماكرة. وقد كان بعض الناس يصّر على تعلّم السحر لغرض خبيث على الرغم من تحذيره وتبصيره ، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾. وهنا يبادر القرآن فيقرر كلية التصوّر الإسلامي الأساسية ، وهي أنّه لا يقع شيء في هذا الوجود إلا بإذن الله ورعاية مصلحته وحكمته. فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها وتنشأ آثارها وتحقق نتائجها وإن كانت عاقبة السوء تعود على الزائعين الذين ينحرفون عن الطريق السوي والصراط المستقيم الذي رسمه لهم ربّ العالمين.

ثمّ يقرر القرآن حقيقة ما يتعلّمونه بغية إيقاع الشرّ بالآخرين ، إنّ شرّ عليهم وليس خيرا لهم ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾. وربما يكفي أن يكون هذا الشرّ هو الكفر والخسران في الآخرة ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾. فمن تعلّم شرّا وحاول الإضرار به يعلم أن لا نصيب له في العاقبة ، فهو حين يختاره ويشتره يفقد كلّ رصيد له في الآخرة سوى العقاب. فما أسوأ ما باعوا به أنفسهم وأضاعوا خيرات كانت لهم في عقبى الدار. ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لو كانوا يفقهون ويعون واقع الأمر.

﴿النَّفَّاثَاتُ فِي الْعَقَدِ﴾^(١)

النفث ، قذف القليل من الريق شبيه بالنفخ ، وهو أقلّ من التفل. ونفث الراقي أو الساحر أن ينفث بريقه في عقد يعقدها بعد كلّ زمزمة يتزمزم بها ليسحر بها فيما زعموا. والمراد به هنا هي النميمة ينفثها النمامون في العقد أي في الروابط الودّية ليبدّدوا شمل الالفّة بين المتحابّين : المرء وزوجته ، الوالد وولده ، الأخوين ، المتشاركين في صناعة أو تجارة أو زراعة وغير ذلك ممّا يرتبط وأواصر الودّ بين شخصين أو أكثر. والعرب تسمّي

(١) الفلق ١١٣ : ٤ .

الارتباط الوثيق بين شيئين أو شخصين عقدة ، كما جاء التعبير عن الارتباط بين الزوجين «عقدة النكاح» قال تعالى : ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾. ^(١)

﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾. ^(٢) ومعنى الآية : ومن شرّ النّمامين الذين يحاولون بوساوسهم الخبيثة قطع الأواصر بين المتحابّين. وهذا من التشبيه في الجمل التركيبية ، نظير التشبيه في سورة المسد بشأن أمّ جميل امرأة أبي لهب ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ^(٣) أي النّمامة. حيث النّمام يحمل على عاتقه حطب النفاق والتفرقة بين المتحابّين. وجاء مناسبا مع تكّي زوجها بأبي لهب. فهي تحمل حطب هذا اللهب. فكما أنّها لم تكن تحمل حطبا حقيقة. كما زعمه بعضهم. لأنّها بنت حرب أخت أبي سفيان وكذا زوجها أبو لهب ، كانا من أشرف قريش الأثرياء ، غير أنّهما كانا يميلان خبثا ولؤما بالعين.

فالنميمة تحوّل ما بين الصديقين من محبة إلى بغضاء بالدسائس وهي وسائل خفيّة تشبه السحر الذي هو ما لطف ودقّ مأخذه. فالنّمام يأتي بكلام يشبه الصدق ويؤثّر في خلدك كما يفعل الساحر المشعوذ إذا أراد أن يحلّ عقد المحبة والوداد بين كلّ متحابّين. إذ يتزمزم بألفاظ ويعقد عقدة وينفث فيها ، ثمّ يحلّها إيهاما للعامة أنّ هذا حلّ للعقدة بين الزوجين أو غيرهما. فهو من التشبيه المحض وليس المقصود ما تفعله السحرة بالذات. الأمر الذي يتناسب مع سائر آيات سورة الفلق : ﴿مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾. أي ومن شرّ الليل إذا دخل وغمر كلّ شيء بظلامه. والليل إذا كان على تلك الحال كان مخوفا باعثا على الرهبة والوحشة ، لأنّه ستار يختفي في ظلامه ذوو الإجرام إذا قصدوك بالأذى ، وعون لأعدائك إذا قصدوا بك الفتك ... وهكذا قوله : ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ يعني : شرّ حاسد إذا حاول إنفاذ حسده بالسعي والجدّ في إزالة نعمة من يحسده. فهو يعمل الحيل وينصب شبائكه لإيقاع المحسود في فخّ الضرر والأذى ، يعمل ذلك بأدقّ الوسائل لتنفيذ مكايده.

(١) البقرة ٢ : ٢٣٥.

(٢) البقرة ٢ : ٢٣٧.

(٣) المسد ١١١ : ٤.

فكما أنّ الآيتين (السابقة واللاحقة) استعازة بالله من مكاييد أهل الزيغ والإفساد ، كذلك هذه الآية (النقّاثات في العقد) هي مكاييد يرتكبها أهل النمائ لإيقاع الأذى. شبّهوا بالسّاحرات ينفثن في العقد.

فالاستعازة منهم جميعا إلى الله المستعان لإحباط مساعيهم وردّ مكائدهم في نخورهم ، وهو الملجأ والمعين.

قال سيّد قطب : والنقّاثات في العقد : السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواسّ ، وخداع الأعصاب ، والإيحاء إلى النفوس والتأثير في المشاعر. وهنّ يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء. قال : والسحر لا يغيّر من طبيعة الأشياء ، ولا ينشئ حقيقة جديدة لها. ولكنّه يخيّل للحواسّ والمشاعر بما يريده الساحر. ^(١)

قال شيخ الطائفة أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي رحمته الله : ولا يجوز أن يكون النبي صلّى الله عليه وآله سحر ، على ما رواه القصّاص الجهّال ، لأنّ من يوصف بأنّه مسحور فقد خبل عقله ، وقد أنكر الله تعالى ذلك في قوله : ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾. ^(٢)

وهكذا قال العلامة الطبرسي في تفسيره للسورة عند الكلام عن شأن النزول. ^(٣)

وقال الاستاذ محمّد عبده : قد رووا هنا أحاديث في أنّ النبي صلّى الله عليه وآله سحره لبید بن الأعصم ، وأثر سحره فيه حتّى كان يخيّل إليه أنّه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، أو يأتي شيئا وهو لا يأتيه. وأنّ الله أنبأه بذلك ، واخرجت موادّ السحر من بئر ، وعوفي ممّا كان نزل به من ذلك ونزلت هذه السورة!

ولا يخفى أنّ تأثير السحر في نفسه عليه الصلاة والسلام ماسّ بالعقل آخذ بالروح. فهو ممّا يصدّق قول المشركين فيه : ﴿إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾.

والذي يجب علينا اعتقاده أنّ القرآن المتواتر جاء بنفي السحر عنه عليه الصلاة

(١) في ظلال القرآن ، المجلّد ٦ ، ص ٧٠٩ ، ج ٣٠ ، ص ٢٩١. وقد نقلنا تمام كلامه آنفا.

(٢) تفسير التبيان ، ج ١٠ ، ص ٤٣٤ ، والآية ٨ من سورة الفرقان ؛ وفي سورة الإسراء ١٧ : ٤٧ : ﴿وَإِذْ هُمْ نَجَوْا إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾.

(٣) مجمع البيان ، ج ١٠ ، ص ٥٦٨.

والسلام ، حيث نسب القول بإثبات حصوله له إلى المشركين ووجههم على ذلك.

والحديث . على فرض صحته . من أحاديث الآحاد التي لا يؤخذ بها في العقائد ، وعصمة الأنبياء عقيدة لا يؤخذ فيها إلا باليقين.

على أن سورة الفلق مكية نزلت بمكة في السنين الأولى ، وما يزعمونه من السحر إنما وقع في المدينة في السنين الأخيرة حيث اشتدّ العداء بين اليهود والمسلمين فهذا مما يضعف الاحتجاج بالحديث ويضعف التسليم بصحته. ^(١)

قال سيّد قطب : هذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ ، ولا تستقيم مع الاعتقاد بأنّ كلّ فعل من أفعاله ﷺ وكلّ قول من أقواله سنّة وشريعة. كما أنّها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول ﷺ أنّه مسحور ، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدّعون من هذا الإفك. ومن ثمّ نستبعد هذه الروايات ، وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة ، والمرجع هو القرآن. والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في اصول الاعتقاد ، وهذه الروايات ليست من المتواتر ، فضلا عن أنّ نزول هاتين السورتين في مكة هو الراجح ، ممّا يوهن أساس الروايات الاخرى. ^(٢)

وقد استوفينا الكلام حول مزعومة سحر النبي ﷺ وتنفيذ رواياته بصورة مستوعبة ، فراجع. ^(٣)

ظواهر روحية غريبة

إنّ ما يزال مشاهدا في كلّ وقت أنّ بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم عن حقيقتها بعد. لقد سمّي بعضها بأسماء من غير أن يحدّد كنهها ولا معرفة طرقها. هذه ظاهرة «التيليپاثي» . التخاطر من بعيد . ما هو؟ وكيف يتم؟ كيف يملك إنسان أن يتلقّى فكرة من إنسان آخر على أبعاد وفواصل لا رابط بينهما سوى هذا الاتّصال الروحي

(١) ملخص كلامه على ما جاء في تفسير المراغي ، ج ١٠ ، ص ٢٦٨ ؛ وراجع : تفسير جزء عمّ لمحمد عبده ، ص ١٨١ . ١٨٣ .

(٢) في ظلال القرآن ، المجلّد ٨ ، ص ٧١٠ ، ج ٣٠ ، ص ٢٩٢ .

(٣) في الجزء الاول من التمهيد.

الغريب؟! وربما تتلقّى الفكرة من كائن حيّ وراء ستار الغيب ، إمّا فكرة طيّبة . وهي نفثة روح القدس . أو فكرة خبيثة تنبثها شياطين الجنّ . وإلى هذا الأخير جاءت الإشارة في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ .^(١) وهكذا تتبادل الأفكار الذميمة بين شياطين الجنّ والإنس : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ .^(٢)

وهذا السبات المغناطيسي «هبنوتزم» أو التنويم الصناعي يتمّ بسيطرة إرادة إنسان على إرادة آخر كان قد نوّمه بطريقة غير عادية . قالوا : إنّ في الإنسان سيّلا مغناطيسيا لا يعرف كنهه ينبعث منه بالإرادة ويؤثر على الأشياء أو الأشخاص تأثيرا خاصا . فقد يلقّنه بأن يوقع في وهمه فيقتنع هذا اقتناعا تاما . أو استخراج الروح من الجسد ليأخذ بالتجول والاطّلاع على غيوب . وربما استخدم هذا السيّال المغناطيسي في الطبّ وفي معالجة قسم من الأمراض المستعصية . لكن لم يحدّد إلى اليوم ما هو؟ وكيف يتمّ؟ وكيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة؟ أو يفعل شيء بتأثير قوّة الإرادة؟ وهكذا تحضير الأرواح . حسبما يسمّونه اليوم . يقوم على أساس اتصال روحيّ بكائنات حيّة وراء ستار الغيب . أمّا ما هذه الكائنات الحيّة؟ وكيف يتمّ هذا الاتصال؟

وهل هو اتصال بأرواح فارقت أجسادها بالمولت أم هي غيرها؟ الأمر الذي بقي مجهولا لم يقطع بشيء منه .
حكى لي زميلنا العلامة الشيخ مهدي الأصفي أنّ جماعة من مزاولي هذا الفنّ طلبوا إليه أن يشهد جلسة يتمّ فيها هذا العمل ، قال : وبعد أعمال وأطوار قاموا بها طلبوا إليّ رغبتني في إحضار روح من الأرواح ، فرغبت أن يحضر روح الشيخ الأعظم المحقّق الأنصاري رحمته الله فلما حضر . وفق إخبارهم . قالوا : ما ذا تبتغي السؤال منه؟ فطلبت إليهم أن يسألوه عن مسألة أصولية عريقة كان الشيخ هو مبدعها وهي مسألة «الحكومة والورود» في دلائل الأحكام . فرغبت أن يشرحها بنفسه حيث الاختلاف كثير في تفسيرها . وعند

(١) الأنعام ٦ : ١٢١ .

(٢) الأنعام ٦ : ١١٢ .

ذلك قالوا : إنّ الروح قد سخط من هذا السؤال وترك الجلسة وذهب مغضبا!

نعم ، لا ننكر إمكان ذلك إجماليا ، ولكن هل هذا الأمر يتمّ بهذه التوسعة؟ وهل هذه الأرواح هي أرواح الأموات أم غيرها؟ الأمر الذي لا يمكن البتّ فيه. غير أنّ هذه وأمثالها مظاهر روحية غريبة ، وهي في جميع أنحاء وأشكالها لا تمسّ قضية السحر حسبما كان يزعمه الأقدمون . من الاستعانة بأرواح الأفلاك والكواكب وتسخيرها . أو حسبما راج عند أوساط السدّج الأوهام اليوم وربّما بعد اليوم ما دام لم تكتمل العقول. ^(١)

كلام عن إصابة العين

قالوا : ومّا نجد القرآن متأثرا بالبيئة العربية الجاهلة اعترافه بإصابة العين في مواضع :

الأول : قوله تعالى . حكاية عن يعقوب عليه السلام : ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. ^(٢) قيل : خاف عليهم إصابة العين لأنهم كانوا ذوي جمال وهيبة وكمال وهم إخوة أولاد رجل واحد. ^(٣)

الثاني : قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ. وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾. ^(٤) قيل : يزلقونك بمعنى يصيبونك بأعينهم. قال الطبرسي : والمفسّرون كلّهم على أنّه المراد من الآية. ^(٥)

الثالث : قوله تعالى : ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. ^(٦) قيل : أي من شرّ عينه. ^(٧) وعن ابن أبي عمير رفعه قال : أما رأيته إذا فتح عينيه وهو ينظر إليك هو ذاك. ^(٨)

والكلام هنا من جهتين ، الأولى : هل القرآن تعرّض لتأثير العين ، سواء كان حقّا أم

(١) راجع في ذلك كلّ : الإنسان روح لا جسد ، للاستاذ رءوف عبيد ، في ثلاث مجلّدات ضخام ، وغيره ممّن كتبوا في هذا الشأن وهي كثيرة جدّا.

(٢) يوسف ١٢ : ٦٧.

(٣) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٢٤٩.

(٤) القلم ٦٨ : ٥١ . ٥٢.

(٥) مجمع البيان ، ج ١٠ ، ص ٣٤١.

(٦) الفلق ١١٣ : ٥.

(٧) مجمع البيان ، ج ١٠ ، ص ٥٦٩.

(٨) معاني الأخبار للصدوق ، ص ٢١٦ ، طبع النجف.

باطلا؟ الثانية : هل للعين تأثير سوء ذاتيا مع قطع النظر عمّا جاء في القرآن؟

أمّا الجهة الاولى فليس في ظاهر تعبير القرآن ما يدلّ على ذلك :

أمّا قوله يعقوب لبنيه : ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ...﴾ فإنّما كانت في عودتهم إلى مصر بعد سفرتهم الاولى التي رجعوا منها خائبين. فلو كان يخاف عليهم العين لأمرهم بذلك في المرّة الاولى بل وفي كلّ سفرة وحلّ وارتحال ، فيمنعهم أن يترافقوا في الأسفار على الإطلاق ، ولا خصوصية لهذه المرّة من الدخول على يوسف.

قيل : إنّما قال لهم ذلك . في هذه المرّة . ليستخبر من حالة العزيز حين يدخل عليه كلّ أخ له ، فيستعلم من تأثير كلّ واحد عند الدخول عليه حالته الخاصّة وما يظهر على أسارير وجهه وحركات عينيه حين رؤية شقيقه من أمّه بنيامين. ^(١) ولعلّ يعقوب استشعر من ردّ العزيز لإخوته ليأتوا بأخ آخر لهم من أبيهم ، أنّه هو يوسف. فحاول بهذه التجربة معرفة شخصية العزيز ولعلّه يوسف نفسه. الأمر الذي لا يعلم إذا دخلوا عليه كلّهم جماعة واحدة. ومن ثمّ لما دخل عليه أخوه بنيامين آواه وأفشى نفسه لديه. الأمر الذي يدلّ على دخوله عليه لوحده. فقد تحقّق تدبير يعقوب في تفرّسه.

وهذا يدلّ على فراسة يعقوب القوية ، حيث يقول عنه تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ ^(٢) أي ذو فراسة قوية.

قال إبراهيم النخعي . وهو تابعي كبير . : إنّ يعقوب عليه السلام كان يعلم بفراسته بأنّ العزيز هو ابنه يوسف إلّا أنّ الله لم يأذن له في التصريح بذلك فلمّا بعث أبنائه إليه أوصاهم بالتفرقة عند الدخول وكان غرضه أن يصل بنيامين وحده إلى يوسف في خلوة من سائر إخوته. ^(٣)

وقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ ^(٤) يعني : إنّ هذا التدبير الذي قام به يعقوب لم يكن يغيّر

من المصلحة التي رعاها الله بشأنه ،

(١) راجع : تفسير المراغي ، ج ١٣ ، ص ١٦ .

(٢) يوسف ١٢ : ٦٨ .

(٣) راجع : التفسير الكبير ، ج ١٨ ، ص ١٧٤ ؛ والدرّ المنثور ، ج ٤ ، ص ٥٥٧ .

(٤) يوسف ١٢ : ٦٨ .

ولكن كانت تلك بغية أمل في نفس يعقوب ، قضاها الله رعاية لجانبه العزيز على الله .
ومّا يبعد إرادة إصابة العين . إضافة على ما ذكرنا . أنّ التحرّز من ذلك لا يتوقّف على الدخول من أبواب متفرّقة ، بل يكفي الدخول متعاقبين وفي فترات . ثمّ إنهم كانوا يدخلون مصر في جمع غفير من رفقة القافلة الحاشدة بالأحمال والأثقال ، فكيف يعرف الناس أنّ هؤلاء إخوة من أب واحد؟ وكذا قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ...﴾.

الزلق : الزلّة . وأزلقه : أزلّه ونحّاه عن مكانه . والمزلق : المكان الذي ينزلق عليه ولا يمكن الثبات عليه .
والإزلاق بالأبصار ، تحديق النظر إليه نظر ساخط شديد السخط بحيث يكون مرعبا يوجب الوحشة والتراجع عمّا هو فيه خوفا من إيقاع الأذى به .

و «إن» محقّقة من المثقلة . أي كاد أن يزّلوك عن موضعك بشدّة السخط والإرعاب والإرهاب ، البادي ذلك من تحديق نظرهم المغضب إليك .
أي إنهم لشدّة عداوتهم وبغضائهم ينظرون إليك نظرا شزرا ^(١) حتّى ليكادون يزّلون قدمك بغضا فتصدع حين سمعوك تتلو كتاب الله وتنبذ أصنامهم .
(٢)

وهذا نظير قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِؤُنَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ . ^(٣) يقال : فزّه واستفزّه أي أزعجه .
فهذه النظرات الشدرة تكاد تؤثّر في موقف الرسول الصلب فتجعله يزّلّ ويزلق ويفقد توازنه وثباته على الأمر . وهو تعبير فائق عمّا تحمله هذه النظرات العدائية من غيظ وحنق وشرّ ونقمة وضغن ، وحمى وسمّ ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ . مصحوبة هذه النظرات المسمومة المحمومة بالسبّ القبيح والشتّم البذيء والافتراء الذميمة ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ . ^(٤)

ويدلّنا على عدم إرادة إصابة العين في هذه الآية الكريمة بالذات أنّ إصابة العين

(١) يقال : شزر إليه أي نظر إليه بجانب عينه مع إعراض أو غضب .

(٢) راجع : تفسير المراغي ، ج ٢٩ ، ص ٤٧ .

(٣) الإسراء ١٧ : ٧٦ .

(٤) في ظلال القرآن ، المجلّد ٨ ، ص ٢٤٣ ، ج ٢٩ ، ص ٦٧ .

إنما تكون عند الإعجاب بشيء لا عند التنقّر والانزجار. والآية تصرّح بأنهم كادوا يزلقونه لما سمعوا الذكر ، ماقتين عليه نافرين منه. فجعلوا يسلقونه بالسباب والشتم ويرمونهم بالجنون. فكيف الحال هذه يحسدونه فيصيبونه بأعينهم؟! الأمر الذي لا يلتئم وسياق الآية الكريمة.

قال الزجاج : معنى الآية ، أنهم ينظرون إليك عند تلاوة القرآن والدعاء إلى التوحيد نظر عداوة وبغض وإنكار لما يسمعون وتعبّج منه ، فيكادون يصرعونك بحدة نظرهم ويزيلونك عن موضعك. وهذا مستعمل في الكلام ، يقولون : نظر إليّ فلان نظرا يكاد يصرعني ونظرا يكاد يأكلني فيه. وتأويله كلّ أنّه نظر إليّ نظرا لو أمكنه معه أكلني أو يصرعني لفعل. ^(١)

وهكذا قال الجبائي : إنّ القوم ما كانوا ينظرون إلى النبي ﷺ نظر استحسان وإعجاب بل نظر مقت ونقص. ^(٢) وهكذا قوله : ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ^(٣). في سورة الفلق . أي إذا حاول السعي وراء حسده لغرض إيقاع الأذى والضرر بالمحسود. أي استعد بالله من شرّ الحاسد إذا حاول إنفاذ حسده ، بالسعي والجدّ في إزالة نعمة من يحسده ، فهو يعمل الحيل وينصب شبائكه لإيقاع المحسود في الضرر والخسران ، وربما بأدق الوسائل والذرائع ، وليس في الاستطاعة الوقوف على ما يدبره من مكائد إلّا أن يستعان عليه برّب الفلق أي مسبّب الفرج والخلاص من كيد الكائدين ، والإحباط من مساعيهم الخبيثة. ^(٤)

نظرة فاحصة عن إصابة العين

أمّا الجهة الاخرى . وهو البحث عن إصابة العين ومدى تأثيرها السيئ في النفوس والأموال . فقد شاع الإشفاق منها في أوساط بدائية وربما في أوساط متحضّرة أيضا ،

(١) مجمع البيان ، ج ١٠ ، ص ٣٤١.

(٢) بحار الأنوار ، ج ٦٠ ، ص ٣٩.

(٣) الفلق ١١٣ : ٥.

(٤) راجع : تفسير المراغي ، ج ٣٠ ، ص ٢٦٨ . ٢٦٩ ؛ وتفسير جزء عمّ للشيخ محمد عبده ، جزء عمّ ، ص ١٨٣ . ١٨٤.

وفي ذلك نوع من الاعتراف بحقيقته إجماليا. وربما علّوه بتعاليل تبدو طبيعية ترجع إلى نفس العائن. قالوا : هي تشعشعات تمّوجية تنبعث من عين الرائي الذي أعجبه شيء على أثر انفعاله النفسي الخاصّ والأكثر إذا كان عن حسد خبيث ، وربما من غير شعور بهذا الانفعال النفسي المفاجئ في غالب الناس. وهي خاصية غريبة قد توجد شديدة في البعض وخفيفة في الآخرين.

وهذه التشعشعات السامة تشبه التيارات الكهربائية تؤثر في المتكهرب بها تأثيرا بالفعل ، الأمر الذي يكون طبيعيا وليس شيئا خارقا ، وإن كان لم يعلم كنهها ولا عرفت حدودها ومشخصاتها ولا إمكان مقابلتها بمقابلة علمية فيما سوى الدعاء والصدقة والتوكّل على الله تعالى.

قال الشيخ ابن سينا : إنّ لبعض النفوس تأثيرا في الخارج من بدنه بتعلّق روحاني كتعلّقه ببدنه. ^(١)

وقال أبو عثمان الجاحظ : لا ينكر أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن أجزاء لطيفة متّصلة به وتؤثّر فيه ، فيكون هذا المعنى خاصية في بعض الأعين كالخواصّ للأشياء. ^(٢)

قال . في كتاب الحيوان بصدّد التحرّز من أعين ذوي الشره والحرص ونفوسهم . : كان علماء الفرس والهند وأطباء اليونان ودهاة العرب وأهل التجربة من نازلة الأمصار وحدّاق المتكلّمين يكرهون الأكل بين يدي السباع ، يخافون نفوسها وعيونها ، للذي فيها من الشره والحرص والطلب والكلب ، لما يتحلّل عند ذلك من أجوافها من البخار الرديء ، وينفصل من عيونها من الامور المفسدة ، ما إذا خالطت طبائع الإنسان نقضته. ولذلك كانوا يكرهون قيام الخدم بالمذاب (مطرودة الذباب) والأشربة على رؤوسهم وهم يأكلون ، مخافة النفس والعين. وكانوا يأمرّون بإشباعهم قبل أن يأكلوا ، وكانوا يقولون في السنّور

(١) في النمط الأخير من كتاب الإشارات (هامش مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٢٤٩).

(٢) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٢٤٩ ، تفسير سورة يوسف. ولعلّه أخذه من الشريف الرضي في كتابه المجازات النبوية ، ص ٣٦٩ ، بتغيير يسير سوف ننقله.

والكلب إما أن تطرده قبل أن تأكل وإما أن تشغله بشيء يأكله ولو بعظم يطرح له.

قال : ورأيت بعض الحكماء وقد سقطت من يده لقمة ، فرفع رأسه فإذا عين غلام تحدّق نحو لقمته ، وهو يزدرد ريقه لتحلّب فمه من الشهوة ، وكان ذلك الحكيم جيّد اللقم طيّب الطعام ، ويضيّق على غلمانة.

وقالت الحكماء : إنّ نفوس السباع وأعينها في هذا الباب أردأ وأخبث لفرط شرهها وشرّها. قال الجاحظ : بين هذا المعنى وبين قولهم في إصابة العين الشيء العجيب المستحسن شركة وقاربة. ذلك أنّهم قالوا : قد رأينا أناسا ينسب إليهم ذلك ، ورأيانهم وفيهم من إصابة العين مقدار من العدد ، لا نستطيع أن نجعل ذلك النسق من باب الاتفاق. وليس إلى ردّ الخبر «العين حقّ» سبيل ، لتواتره وترادفه. ولأنّ العيان قد حقّقه والتجربة قد ضمّت إليه. قالوا : ولو لا فاصل ينفصل من عين الرائي المعجب إلى الشيء المعجب به . حتّى يكون ذلك الداخل عليه هو الناقض لقواه . لما جاز أن يلقي المصاب بالعين مكروها من قبل العائن ، من غير تماسّ ولا تصادم ولا رابط يربط أحدهما بالآخر.

قال الأصمعي : رأيت رجلا عيونا (الشديد الإصابة بالعين) كان يذكر عن نفسه أنّه إذا أعجبه الشيء وجد حرارة تخرج من عينه. ^(١) وأضاف الجاحظ . ردّا على من زعم أن الاعتراف بصحّة إصابة العين ينافي التوحيد . : أنّ الاعتراف بالطبائع اعتراف بسنّة الله الجارية في الخلق والتدبير ، وليس أمرا خارجا عن طوع إرادته تعالى. قال : ومن زعم أنّ التوحيد لا يصحّ إلّا بإبطال حقائق الطبائع فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد. وإنّما يأنس منك الملحد إذا لم يدعك التوفّر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع ، لأنّ في رفع أعمالها رفع أعيانها. وإذا كانت الأعيان هي الدالّة على الله فرفعت الدليل فقد أبطلت المدلول عليه. ^(٢)

(١) الحيوان للجاحظ ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ . ٢٦٩ ، تحقيق يحيى الشامي ، مع بعض التعديل حسب نقل ابن أبي الحديد في شرح النهج ، ج ١٩ ، ص ٣٧٦ . ٣٧٧ .

(٢) المصدر : ص ٢٦٦ .

وللسيد الشريف الرضي رحمه الله كلام لطيف عند شرحه لقول النبي ﷺ : «العين حقّ ستنزّل الحالق».^(١) قال : وهذا مجاز ، والمراد أن الإصابة بالعين من قوة تأثيرها وتحقق أفاعيلها كأثما تستهبط العالي من ارتفاعه ، وتستقلق (أي تزحزح) الثابت بعد استقراره. والحالق ، المكان المرتفع من الجبل وغيره. فجعل عليه الصلاة والسلام العين كأثما تحطّ ذروة الجبل من شدة بطشها وحدة أخذها. وقد تناصرت (تضافرت) الأخبار بأن الإصابة بالعين حقّ.^(٢) والذي يقوله أصحابنا : إنّ الله سبحانه يفعل المصالح بعباده على حسب ما يعلمه من الصلاح لهم في تلك الأفعال التي يفعلها والأقذار التي يقدّرها. وإذا تقرّرت هذه القاعدة ، فغير ممتنع أن يكون تغييره تعالى نعمة زيد مصلحة لعمره ، وإذا كان تعالى يعلم من حال عمرو أنّه لو لم يسلب زيدا نعمته ويخفض منزلته أقبل على الدنيا بوجهه ونأى عن الآخرة بعطفه وأقدم على المغاوي وارتكس في المهاوي ، وإذا سلب سبحانه نعمة زيد للعلّة التي ذكرناها عوّضه عنها وأعطاه بدلا منها عاجلا أو آجلا. وإذا كان ذلك كما قلنا . وقد روي عنه ﷺ ما يدلّ على أنّ الشيء إذا عظم في صدور العباد وضع الله قدره وصعّر أمره .^(٣) لم ينكر تغيير حال بعض الأشياء عند نظر بعض الناظرين إليه واستحسانه له وعظمه في صدره وفخامته في عينه. كما روي أنّه ﷺ قال . لما سبقت ناقته العضباء^(٤) وكانت إذا سوبق بها لم تسبق . : «ما رفع العباد من شيء إلّا وضع الله منه».^(٥)

(١) حديث متواتر ، رواه الفريقان بعدة أسانيد وفي مختلف الألفاظ والعبارات. راجع : مسند أحمد ، ج ١ ، ص ٢٧٤ ، وسائر المسانيد الست ؛ وبحار الأنوار ، ج ٦٠ ، ص ٢٥-٢٦ ، وسائر الكتب الحديثية المعتمدة.

(٢) وقد عقد العلامة المجلسي في بحاره بابا في ذلك ، راجع : ج ٦٠ ، كتاب السماء والعالم.

(٣) إشارة إلى ما رواه أحمد في مسنده الآتي وفي النهج : «ما قال الناس لشيء طوبى له إلّا وقد خبأ الدهر له يوم سوء». قصار الحكم ، رقم ٢٨٦ ، ص ٥٢٦. وفي نوادر الراوندي ، ص ١٢٨ : «ما رفع الناس أبصارهم إلى شيء إلّا وضعه الله» وراجع : بحار الأنوار ، ج ٦٠ ، ص ٢٧.

(٤) العضباء : الناقة المشقوقة الاذن. وكان هذا الاسم لقبا لناقة رسول الله صلى الله عليه وآله ولم تكن مشقوقة الاذن. قال الزمخشري : ناقة عضباء ، قصيرة اليد.

(٥) روى أحمد في مسنده ، ج ٣ ، ص ١٠٣ و ٢٥٣ وغيره أنّ رسول الله ﷺ كانت له ناقة تسمّى العضباء ، وكانت لا تسبق في مسابقة ، حتّى جاء أعرابيّ على قعود (ما اعدّ للحمل والركوب من الدواب ومن الإبل ما تجاوز السنتين ولم يبلغ الست) فسبقها ، فشقّ ذلك على المسلمين ، فلما رأى ما في وجوههم قال : إنّ حقّا على الله أن لا يرفع شيئا في الدنيا إلّا وضعه. والحديث منقول في الكتب بألفاظ مختلفة.

فيمكن أن يتأول قوله عليه الصلاة والسلام : «العين حق» على هذا الوجه. ويجوز أن يكون ما أمر به المستحسن للشيء عند رؤيته له من إعادته بالله والصلاة على رسول الله ^(١) قائما في المصلحة مقام تغيير حالة الشيء المستحسن ، فلا تغير عند ذلك ، لأنّ الرائي قد أظهر الرجوع إلى الله سبحانه والإخبار له ، وأعاد ذلك المرئي به ، فكأنّه غير راكن إلى الدنيا ولا مغترّ بها ولا واثق بما يرى عليه أحوال أهلها.

قال : ولعمرو بن بحر الجاحظ في الإصابة بالعين مذهب انفراد به ، وذلك أنّه يقول :

إنّ لا ينكر أن يفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن أجزاء لطيفة فتؤثّر فيه وتجنّي عليه. ويكون هذا المعنى خاصا ببعض الأعين كالخواصّ في الأشياء. قال : وعلى هذا القول اعتراضات طويلة وفيه مطاعن كثيرة ... ^(٢)

وهذا الكلام نقلناه بطوله لما فيه من فوائد جمّة وتنبيه على أنّ من حكمته تعالى القيام بمصالح العباد ، فرما يحطّ من هيمنة المعيون كي لا يطغو العائن فيخرج عن حدّه ، ثمّ إنّ تعالى يعوّض المعيون بما يسدّ خلّة الضرر الوارد به. وقد يكون ذلك في مصلحة المعيون لتكون كفارة لما فرط منه من الغلو أو التفريط بشأن العائن. لكن هذا لا ينافي ما علّل به ابن سينا أو الجاحظ في بيان السبب الطبيعي الواقع تحت إرادة الله الحكيم.

وهكذا ذهب المتأخرون في بيان التعليل الطبيعي لإصابة العين وفق ما أودع الله من خصائص في طبيعة الأشياء.

قال سيّد قطب : والحسد انفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمّني زوالها. وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيط ، أو وقف عند حدّ الانفعال النفسي ، فإنّ شرا يمكن أن يعقّب هذا الانفعال.

قال : ونحن مضطرون أن نطامن من حدّة النفي لما لا نعرف من أسرار هذا الوجود وأسرار النفس البشرية وأسرار هذا الجهاز الإنساني. فهناك وقائع كثيرة تصدر عن هذه الأسرار ، ولا نملك لها حتّى اليوم تعليلا. هنالك مثلا التخاطر على البعد ، وكذلك التنويم

(١) قال رسول الله ﷺ : «من أعجبه من أخيه شيء فليذكر الله في ذلك ، فإنّه إذا ذكر الله لم يضرّه». والأحاديث بهذا المعنى كثيرة. راجع : بحار الأنوار ، ج ٦٠ ، ص ٢٥.

(٢) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي ، ص ٣٦٧ . ٣٦٩ ، رقم ٢٨٥.

المغناطيسي. وقد أصبح الآن موضعا للتجربة المتكررة المثبتة ، وهو مجهول السرّ والكيفيّة. وغير التخاطر والتنويم كثير من أسرار الوجود وأسرار النفس وأسرار هذا الجهاز الإنساني.

فإذا حسد الحاسد ووجه انفعالا نفسيًا معينا إلى المحسود فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أنّ ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار لا تصل إلى سرّ هذا الأثر وكيفيته ، فنحن لا ندري إلّا القليل في هذا الميدان ، وهذا القليل يكشف لنا عنه مصادفة في الغالب ، ثمّ يستقرّ واقعة بعد ذلك. فهنا سرّ يستعاذ منه بالله. ^(١)

هل تأثر القرآن بالشعر الجاهلي؟

من طريف ما يذكر بهذا الشأن ما زعمه بعض المستشرقين الأجانب أنّ القرآن ضمّن بعض آياته تعابير اقتبسها من أبيات شعريّة جاهليّة! فالدكتور «سنكلر تسديل eladsuhT» صاحب كتاب «مصادر الإسلام» يروي شبّهات الناقدين للقرآن الكريم. ومنها هذه الأبيات :

دنت السّاعة وانشقّ القمر ^(٢)	عن غزال صّاد قلبي ونفّر
أحور قد حرت في أوصافه	ناعس الطرف بعينه حور
مرّ يوم العيد في زينته	فرماني فتعاطى فعقر ^(٣)
بسهم من لحاظ فاتك	تركتني كهشيم المحتظر ^(٤)

ويتخذ منها قرينة على اقتباس القرآن بعض الآيات من أشعار الجاهليين! ويضيف إلى هذه الأبيات أبياتا أخرى كقول القائل :

أقبل والعشّاق من خلفه	كأهمّ من حذب ينسلون ^(٥)
وجاء يوم العيد في زينة	لمثل ذا فليعلم العااملون ^(٦)

(١) في ظلال القرآن ، المجلّد ٨ ، ص ٧١٠ . ٧١١ ، ج ٣٠ ، ص ٢٩٢ . ٢٩٣ .

(٢) مقتبس من سورة القمر ٥٤ : ١ .

(٣) مقتبس من سورة القمر ٥٤ : ٢٩ .

(٤) مقتبس من سورة القمر ٥٤ : ٣١ .

(٥) مقتبس من سورة الأنبياء ٢١ : ٩٦ .

(٦) مقتبس من سورة الصافات ٣٧ : ٦١ .

قال : ومن الحكايات المتداولة في عصرنا الحاضر أنّه لما كانت فاطمة بنت محمد ﷺ تتلو هذه الآية وهي ﴿اَفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ سمعتها بنت امرئ القيس وقالت لها : إنّ هذه القطعة من قصائد أبي أخذها أبوك وادّعى أنّ الله أنزلها عليه. ^(١)

لكنّ الذي يكذب هذه الأسطورة أنّ امرئ القيس مات سنة ٥٤٠ م أي قبل مولد النبيّ (٥٧٠ م) بثلاثين سنة. فلو كنّا نعلم أنّ فاطمة عليها السلام ولدت بعد البعثة (٦٠٩ م) بخمس سنين (٦١٤ م) نعرف مدى خرافة هذه الأكذوبة! إذ لا بدّ لفاطمة لو فرض أنّها أرادت قراءة القرآن في محفل عامّ أن تبلغ عشر سنين مثلاً. فلو فرضنا أنّ بنت امرئ القيس عند وفاة أبيها كانت بلغت عشر سنين أيضاً فيكون عمرها عند سماع قراءة بنت النبي ﷺ قد بلغ أربع وتسعين سنة!! إذ ولادتها حينئذ تكون سنة ٥٣٠ م وعام سماعها ٦٢٤ م. وقلّ من يعيش في هذه السنّ من نساء الجاهليّة؟! والمرجح أنّ هذا التضمين الشعري مقتبس من القرآن على يد بعض أهل المجون ، وكم له من نظير. ويشهد لذلك ذكر العيد في هذه الأبيات الخاص بالعهد الإسلامي المتأخّر ، ولا سابق له قبل الإسلام. ^(٢)

وللاقتباس عرض عريض سواء في الشعر أم النثر ، وهو إمّا مقبول أو مردود على الشرح التالي :

الاقتباس

الاقتباس تضمين الشعر أو النثر بعض القرآن ، لا على أنّه منه ، بأن لا يقال فيه : قال الله تعالى ونحوه. وقد شاع الاقتباس منذ الصدر الأوّل وراج بين من تأخّر عنهم وعدّ من المحسنات البديعية. وفي كثير من الخطب والأدعية فضلاً عن الشعر تضمينات مقتبسة من القرآن الكريم ، لها رواء وبهاء وارتفاع شأن الكلام.

(١) كتاب «مصادر الإسلام» لتسديد ، ص ٢٥ . ٢٩ ، من ترجمته العربية.

(٢) كما ولم يذكره صاحب ديوان امرئ القيس.

وفي شرح بديعية ابن حجة : الاقتباس ثلاثة أقسام : مقبول ومباح ومردود. فالأول ما كان في الخطب والمواعظ والعهود. والثاني ما كان في القول والرسائل والقصص والثالث على ضربين :

أحدهما : ما نسبته الله إلى نفسه. ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه ، كما قيل عن أحد بني مروان أنه وقّع على مطالعة فيها شكاية عمّاله : ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾! ^(١) والآخر : تضمين آية في معنى هزل. ونعوذ بالله من ذلك ، كقوله :

أوحى إلى عشتاقه طرفه ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ ^(٢)
وردفه ينطوق من خلقه «لثقل ذا فليعلم لعل العاملون» ^(٣)

قلت : والأبيات التي ذكرها «تسديل» من هذا القبيل. أي القسم الممنوع من الاقتباس.

ومن القسم الجائز ما رواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن شيخه أبي عبد الرحمن السلمي قال : أنشدنا أحمد بن محمد ابن يزيد لنفسه :

سئل الله من فضله وأتقنه فإنّ التقى خير مما تكتسب
ومن يتق الله يصنع له * ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ^(٤) وذكر الزركشي للطروشني :

رحل الظاعنون عنك وأبقوا في حواشي الأحشاء وجداء مقيما
قد وجدنا السلام بـردا سـلاما إذ وجدنا النوى عذابا أليما
قال : وثبت للشافعي :

أنلني بالذي استقرضت خطّا وأشهد معشرا قد عاينوه
فإنّ الله خلّاق البرايا عننت لجلال هيئته الوجوه

(١) الغاشية ٨٨ : ٢٥ و ٢٦.

(٢) المؤمنون ٢٣ : ٣٦.

(٣) مقتبس من سورة الصافات ٣٧ : ٦١. راجع : الإتيان للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٣١٤ . ٣١٥.

(٤) الطلاق ٦٥ : ٣. راجع : الإتيان ، ج ٢ ، ص ٣١٦.

يقول ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ * إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾^(١) وذكر السبكي في طبقاته في ترجمة أبي منصور البغدادي من كبار الشافعية قوله :
 يا مــــن عــــدى ثم اعتــــدى ثم اقــــترف ثم انتهــــى ثم ارعــــوى ثم اعــــترف
 أبشــــر بــــقول الله في آياتــــه : ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾^(٢)
 قال جلال الدين السيوطي : هذا وما قبله ليس من الاقتباس ، للتصريح بأنّه قول الله.^(٣)

هل في القرآن تعابير جافية؟

زعموا أنّ في القرآن تعابير جافية لا تتناسب وأدب الوحي الرفيع ؛ وذلك في مثل التعبير بالفرج وهو اسم لسوأة المرأة. والتعبير بالخيانة بشأن أزواج أنبياء الله ، وهو فضح امرأة تكون في حصانة زوج كريم. والتعبير باخسئوا والتشبيه بالحمار والكلب ، وكذا سائر التعابير الغليظة الجافة في مثل «تَبَّتْ» ،^(٤) و ﴿امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ،^(٥) والدعاء بالشرّ ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ﴾^(٦) ... ومن أمثال هذا القبيل قد توجد في القرآن ممّا لا يوجد نظيره في غيره من الكتب ذات الأدب الرفيع.

لكنّه زعم فاسد ناش عن الجهل بمصطلح اللغة ذلك العهد وخلط القديم بالجديد من الأعراف ، وإليك تفصيل الكلام عن ذلك :

﴿الَّتِي أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا﴾

جاء هذا التعبير في القرآن في موضعين^(٧) فعابوا التصريح بسوأة المرأة!
 لكنّه تعبير كنائي وليس بصريح ، حيث المراد من الفرج هنا هو خصوص جيب

(١) البقرة ٢ : ٢٨٢. راجع : البرهان للزركشي ، ج ١ ، ص ٤٨٢ . ٤٨٣ .

(٢) الأنفال ٨ : ٣٨ .

(٣) الإنشقاق ، ج ١ ، ص ٣١٥ . ٣١٦ .

(٤) المسد ١١١ : ١ .

(٥) المسد ١١١ : ٤ .

(٦) التوبة ٩ : ٣٠ ، المنافقون ٦٣ : ٤ .

(٧) في سورة الأنبياء : ٩١ : ﴿وَالَّتِي أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾. والتحرير : ١٢ : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾.

القميص وهو خرق مطوّق في أسفله.

قال ابن فارس : الفاء والراء والجيم. أصل صحيح يدلّ على تفتّح في الشيء. من ذلك : الفرجة في الحائط وغيره والشقّ. والفروج : الثغور التي بين مواضع المخافة. ^(١)

قال : والجيب ، جيب القميص ^(٢) وهو خرق مستطيل في قدامه. يقال : جبت القميص ، قوّرت جيبه وهو خرقة من وسطه خرقة مستديرا. وفي القرآن : ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ ^(٣) وهو خرق في صدر القميص. ويقال : فلان ناصح الجيب أي أمينه. ^(٤) ويقال : طاهر الجيب أي نزيهه. فالفرج في هكذا تعابير هي فرجة القميص أي جيبه ، وهو عبارة عن خرق مطوّق في أسفله ، حسب العادة في قمصان العرب. فإحصان الفرج عبارة عن طهارة الذيل أي نزاهته عن دنس الفحشاء. ^(٥)

وهو استعمال على الأصل العربي القديم والذي جرى عليه القرآن الكريم على المصطلح الأول ، أمّا أخيرا فغلب استعماله في سوءة المرأة وهو استعمال مستحدث ، لا يحمل القرآن عليه. قال تعالى : ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾. ^(٦) ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ ... وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ ^(٧) كلّ ذلك كناية عن التحفظ على نزاهة الذيل عن دنس الفحشاء ، وليس اسما خاصا للسوءة ولا سيّما سوءة المرأة.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾

قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾. ^(٨)

(١) معجم مقاييس اللغة ، ج ٤ ، ص ٤٩٨.

(٢) المصدر : ج ١ ، ص ٤٩١ و ٤٩٧.

(٣) النور ٢٤ : ٣١.

(٤) لسان العرب ، ج ١ ، ص ٢٨٨.

(٥) ونظيره جاء التعبير في الفارسية ب «پاکى دامن».

(٦) الأحزاب ٣٣ : ٣٥.

(٧) النور ٢٤ : ٣٠ و ٣١.

(٨) التحريم ٦٦ : ١٠.

عابوا فضح امرأة هي زوجة عبد صالح!

لكن التعبير بالخيانة هنا لا يراد بها ارتكاب الفحشاء ، كلاً! وإنما هو مجرّد مخالفة الزوج وإنكار رسالته. قال الفيض الكاشاني : فخانتها بالنفاق والتظاهر على الرسولين. ^(١)

وهو تعريض ببعض أزواج النبي ﷺ بإفشاء سرّه والتظاهر عليه. كما جاء في صدر السورة. ومن ثمّ فهو خطاب وعتاب مع تلك الأزواج : ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾. ^(٢)

قال ابن عباس : لم أزل حريصاً أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي اللتين قال الله بشأهما : ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا...﴾ حتى حجّ عمر وحججت معه ، فلمّا كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة فتبرّز ثم أتى فصببت على يديه فتوضّأ فقلت : يا أمير المؤمنين ، من المرأتان من أزواج النبي اللتان قال الله بشأهما ذلك؟ فقال : وا عجباً لك يا ابن عباس ، هما عائشة وحفصة ، ثم أنشأ يحدثني بحديثهما في ذلك. ^(٣)

(١) تفسير الصافي ، ج ٢ ، ص ٧٢٠.

(٢) التحريم ٦٦ : ٤.

(٣) راجع : الدرّ المنثور ، ج ٨ ، ص ٢٢٠.

الباب الثالث

مَوْهَمُ الْاِخْتِلَافِ وَالتَّنَاقُضِ

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء ٤ : ٨٢)

كلام عن موهم الاختلاف في القرآن

قال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١) تلك ميزة قرآنية : لا يوجد فيه اختلاف ، حيث صنعه تعالى القويم. يفترق عما يصنعه البشر ذا نقص وعيب ، إذ كلّ يعمل على شاكلته. وقد أخذه الله تعالى دليلا على الإعجاز الخارق!

وهناك من قديم من كان يزعم أنّ في القرآن اختلافا ويرجع عهده إلى الصدر الأول حيث روي أنّ سائلا سأل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك ، فأجابه الإمام في رحابة صدر وحلّ إشكاله ، واستبصر على يديه.

روى أبو جعفر الصدوق بإسناده المتصل إلى أبي معمر السعدي قال : إنّ رجلا أتى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّني شككت في كتاب الله المنزل قال عليه السلام : وكيف شككت في كتاب الله؟! قال لأني وجدت الكتاب يكذب بعضه بعضا فكيف لا أشكّ فيه؟! فقال الإمام : إنّ كتاب الله ليصدق بعضه بعضا ولا يكذب بعضه بعضا ، ولكنك لم ترزق عقلا تنتفع به ، فهات ما شككت فيه. فجعل الرجل يسرد آيات زعمه متهافتات

(١) النساء ٤ : ٨٢.

ويجب عليهنّ الإمام علي ما سنذكر. ^(١)

وهكذا روى صاحب كتاب الاحتجاج : أنّ بعض الزنادقة جاء إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقال له : لو لا ما في القرآن من الاختلاف والتناقض لدخلت في دينكم. فقال له : وما هو؟ فجعل يسرد آيات بهذا الشأن ليأخذ جوابه الوافي ، وشكره أخيرا ودخل في حظيرة الإسلام. ^(٢)

وروى عبد الرزاق في تفسيره بإسناده إلى سعيد بن جبیر قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : رأيت أشياء تختلف عليّ من القرآن! فقال ابن عباس : ما هو؟ أشك؟! قال : ليس بشك ، ولكنّه اختلاف! قال : هات ما اختلف عليك من ذلك. فجعل الرجل يذكر موارد الاختلاف حسب زعمه ويحييه ابن عباس تباعا ، على ما سنورده. ^(٣)

وحثّ أئمّ زعموا أنّ ابن عباس توقّف عن الإجابة في بعض هذه الموارد. روى أبو عبيدة بإسناده عن أبي مليكة قال : سألت رجلا من بني عباس عن قوله تعالى : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ^(٤) وقوله : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ^(٥) فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه! الله أعلم بهما! ^(٦)

لكن ابن عباس قد أجاب عن ذلك إجابة إجمالية. وأئمّما يومان لا يوم واحد ليكون قد عبّر عنهما باختلاف المقدار. ولعلّه لم يهتد إلى تعيين أحدهما عن الآخر وسنذكر تفصيل البيان فيه.

ويظهر من أحاديث صدرت عن أئمة السلف أنّ حديث التناقض في أي القرآن كان متفشّيا ذلك العهد ، ومن ثمّ ورد ذمّه والذبّ عن سلامة القرآن على لسان الأئمة عليهم السلام قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ذمّ اختلاف العلماء في الفتيا :

(١) راجع : كتاب التوحيد ، للصدوق ، ص ٢٥٥ ، رقم ٥ ، باب الردّ على الثنوية والزنادقة ؛ وأورده المجلسي في كتاب القرآن من البحار ، ج ٩٠ ، ص ١٢٧ . ١٤٢ .

(٢) راجع : الاحتجاج للطبرسي ، ج ١ ، ص ٣٥٨ . ٣٥٩ ؛ وأورده المجلسي في البحار ، ج ٩٠ ، ص ٩٨ . ١٢٧ .

(٣) راجع : الإتقان ، ج ٣ ، ص ٧٩ ، النوع ٤٨ .

(٤) السجدة ٣٢ : ٥ .

(٥) المعارج ٧٠ : ٤ .

(٦) الإتقان ، ج ٣ ، ص ٨٣ .

«والله سبحانه يقول ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾»^(١) وفيه تبيان لكل شيء. وذكر أنّ الكتاب يصدّق بعضه بعضا. وأنّه لا اختلاف فيه...». (٢)

وروى الصدوق بإسناده إلى الإمام أبي عبد الله الصادق عن أبيه أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : «ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلّا كفر». (٣)
ولأبي علي محمد بن المستنير البصري المشتهر بقطرب (ت ٢٠٦). النحوي اللغوي الأديب البارع تلميذ سيبويه ومن أصحاب الإمام الصادق والرواة عنه . كتاب أفردّه بالتصنيف في موهم الاختلاف والتناقض في آيات الذكر الحكيم.
قال الزركشي : وقد رأيت لقطرب في ذلك تصنيفا حسنا. جمعه على السور. (٤) وكتابه هو المسمّى بالردّ على الملحدين في تشابه القرآن ، ذكره القفطي. (٥)

وهكذا في منتصف القرن الثالث أتيّام الإمام أبي محمّد الحسن بن علي العسكري عليه السلام (٢٦٠) نجد فيلسوف العراق ابن إسحاق الكندي (٦) قام بتأليف رسالة يجمع فيها تناقض القرآن ، لو لا أنّ الإمام العسكري قام في وجهه وأفحم حجّته فتركها.
روى أبو القاسم الكوفي (٧) في كتابه «التبديل» أنّ ابن إسحاق الكندي أخذ في تأليف تناقض القرآن وشغل نفسه بذلك وتفرّد به في منزله. وأنّ بعض تلامذته دخل يوما على الإمام الحسن العسكري ، فقال له أبو محمّد : أما فيكم رجل رشيد يردع استاذكم الكندي

(١) الأنعام ٦ : ٣٨.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٨ ، ص ٦١.

(٣) معاني الأخبار ، ص ١٨٣ ، طبعة النجف الأشرف.

(٤) راجع : البرهان ، ج ٢ ، ص ٤٥ ؛ والإتقان ، ج ٣ ، ص ٧٩.

(٥) انظر : إنباء الرواة ، ج ٣ ، ص ٢١٩.

(٦) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق من ولد محمد بن الأشعث بن قيس الكندي فيلسوف العرب في وقته (١٨٣ . ٢٦٠) كان رأسا في حكمة الأوائل ومنطق اليونان والهيئة والنجوم والطب وغير ذلك ، وكان له باع أطول في الهندسة والموسيقى. وكان متّهما في دينه ، قال له أصحابه : لو عملت لنا مثل القرآن ، فأجابهم على ذلك ، فغاب عنهم أتيّاما ثم خرج إليهم وأذعن بالعجز ، قال : والله لا يقدر على ذلك أحد. قال الذهبي : وكان متّهما في دينه ، بخيلا ، ساقط المروءة ، وله نظم جيّد وبلاغة وتلامذة هم بأن يعمل شيئا مثل القرآن ، فبعد أيام أذعن بالعجز. راجع : سير أعلام النبلاء للذهبي ، ج ١٢ ، ص ٣٣٧ ؛ ولسان الميزان لابن حجر ، ج ٦ ، ص ٣٠٥ ؛ ودائرة المعارف للقرن العشرين لمحمد فريد وجدي ، ج ١٠ ، ص ٩٤٤ . ٩٥٣ ؛ والمنجد في الأعلام ، ص ٥٩٥.

(٧) هو أبو القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي صاحب كتاب تفسير فرات ، كان من أعلام الغيبة الصغرى (٢٦٠ . ٣٢٩). وفي النسخة إسقاط «ابن» فصحّحناها بدلائل القرائن.

عمّا أخذ فيه من تشاغله بالقرآن؟! فقال التلميذ : نحن من تلامذته ، كيف يجوز منّا الاعتراض عليه في هذا أو في غيره؟! فقال له أبو محمد : أتؤدّي إليه ما ألقى عليك؟ قال : نعم ، قال : فصر إليه وتلطّف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله ، فإذا وقعت الانسة في ذلك فقل له : قد حضرني مسألة أسألك عنها؟ فإنّه يستدعي ذلك منك. فقال له : إن أتاكَ هذا المتكلّم بهذا القرآن ، هل يجوز أن يكون مراده بما تكلمّ منه غير المعاني التي قد ظننت أنّك ذهبت إليها؟ فإنّه سيقول لك : إنّ من الجائر ، لأنّه رجل يفهم إذا سمع. فإذا أوجب ذلك فقل له : فما يدريك لعلّه قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه فتكون واضعا لغير معانيه. فصار الرجل إلى الكندي وتلطّف إلى أن ألقى عليه هذه المسألة ، فقال له الكندي : أعد عليّ ، فأعاد عليه. فتفكّر في نفسه ورأى ذلك محتملا في اللغة وسائعا في النظر. فقال : أقسمت عليك إلّا أخبرني من أين لك؟ فقال : إنّ شيء عرض بقلبي فأوردته عليك. فقال : كلاً ، ما مثلك من اهتدى إلى مثل هذا ، ولا ممّن بلغ هذه المنزلة ، فعرفني من أين لك هذا؟ فقال : أمرني به أبو محمد ، فقال : الآن جئت به ، وما كان ليخرج مثل هذا إلّا من ذلك البيت. ثمّ إنّ دعا بالنار وأحرق جميع ما كان ألفه في ذلك.^(١)

ولابن قتيبة (٢١٣ . ٢٧٦) كلام مسهب في الردّ على الطاعنين في القرآن على جهة زعم الاختلاف تعرّض له في كتابه الشهير «تأويل مشكل القرآن» في شرح وتفصيل.

وللشريف الرضي (٣٥٩ . ٤٠٦) بحث لطيف في ذلك عنوانه باسم «حقائق التأويل في متشابه التنزيل».

وهكذا القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت ٤١٥) فصل الكلام في «تنزيه القرآن عن المطاعن».

ولقطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣) في كتابه «الخرائج والجرائح» باب عقده للردّ على مطاعن المخالفين في القرآن.^(٢)

(١) المناقب لابن شهر آشوب ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ ؛ وأورده المجلسي في بحار الأنوار ، ج ٥٠ ، ص ٣١١ في تاريخ حياة الإمام العسكري عليه السلام .

(٢) الخرائج والجرائح لقطب الدين الراوندي ، ج ٣ ، ص ١٠١٠ .

ولابن شهر آشوب المازندراني (ت ٥٨٨) كتاب قيم في «متشابهات القرآن ومختلفه».

ولمحمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٦) رسالة شريفة أجاب عن ألف ومأتي مسألة حول شبهات القرآن.

ولجلال الدين السيوطي (ت ٩١١) في كتابه «الإتقان» . نوع ٤٨ . بحث مستوف عن مشكل القرآن وموهم الاختلاف والتناقض فيه.

وللمولى محمد باقر المجلسي (١٠٣٧ - ١١١١) في موسوعته القيمة (بحار الأنوار ، ج ٨٩ ، ص ١٤١ ؛ وج ٩٠ ، ص ٩٨ - ١٤٢) استيعاب شامل لسفاسف أهل الزيغ والباطل حول القرآن الكريم ، والردّ عليها فيما ورد في كلام المعصومين والعلماء الأعلام. جزاه الله عن الإسلام والقرآن خيرا.

وأخيرا ، قام الاستاذ الشيخ خليل ياسين بتأليف كتاب يحتوى على ١٦٠٠ سؤال وجواب حول مشكل القرآن ، أسماه «أضواء على متشابهات القرآن».

وللعلامة الاستاذ الشيخ جعفر السبحاني تأليف لطيف في التفسير الصحيح لمشكل آيات القرآن الحكيم.

تلك مواقف مشهودة في الدفاع عن قدسية القرآن الكريم قام بها جهابذة الفنّ والعمدة من العلماء الأعلام ، شكر الله مساعيهم وأجزل لهم المثوبة وحسن مأب.

السلامة من الاختلاف إعجاز!

وقد أخذه تعالى دليلا على كون القرآن وحيا من السماء وليس من صنع البشر ، وإلا لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

ذلك أنّ طبيعة مثل القرآن . وقد نزل تدريجا طوال عشرين عاما في مناسبات مختلفة وفترات متفاوتة ثمّ جمع في مكان . أن يقع فيه بعض الاختلاف

، لو كان من عند غير الله ... حيث يعسر الضبط على البشر في مثل تلك المدة الطويلة في مثل القرآن

المتناثر آيه طول سنين. وربما يختلف النظر لو كان صادرا من إنسان ، وهو آخذ في التكامل طول هذه المدّة ، فطبيعي أن يقع فيه اختلاف ، لكن عدم الاختلاف دليل قاطع على أنّه من عليم خبير ، هو محيط بعلمه ولا يعزب عن علمه شيء ، كما لا يتجدّد له رأي أو يبدو له نظر غير رأيه القديم. وللعلمة السيّد هبة الدين الشهرستاني هنا كلام غريب ، قال : إنّ جماعة من المفسّرين قد التبس عليهم أمر المانع بالسبب ، فعّدوا سلامة القرآن من التنافي والتنافر ، من وجوه إعجازه ، في حين أنّ وجود التنافي والتنافر من موانع الإعجاز ، وليس انعدامهما والسلامة منهما من أسباب الإعجاز. ^(١) ولعلّه ﷺ عدّ السلامة من الاختلاف أمرا عديما ، فجعل التنافي والتنافر ، وهما أمران وجوديّان ، من المانع. في حين أنّ السلامة هنا بمعنى الائتلاف وحسن الوفاق والمؤكّد للانسجام بين آياته وتعاييره في كافّة السور مكينتها ومدنيّتها بوثام وانسجام.

الأسباب الموهمة للاختلاف

ذكر الإمام بدر الدين الزركشي للاختلاف أسبابا :

الأوّل : وقوع المخبر به على أحوال مختلفة وتطويرات شتّى ، كقوله تعالى في خلق آدم مرّة : ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾. ^(٢) وأخرى : ﴿مِنْ حَمِإٍ مَسْنُونٍ﴾. ^(٣) وثالثة : ﴿مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾. ^(٤) ورابعة : ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾! ^(٥) وهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها في أحوال مختلفة ، لأنّ الصلصال غير الحمأ ، والحمأ غير التراب ، إلّا أنّ مرجعها كلّها إلى جوهر وهو التراب ، ومن التراب تدرّجت هذه الأحوال.

(١) المعجزة الخالدة للشهرستاني ، ص ٤٢.

(٢) آل عمران ٣ : ٥٩.

(٣) الحجر ١٥ : ٢٦.

(٤) الصافات ٣٧ : ١١.

(٥) الرحمن ٥٥ : ١٤.

ومنه قوله تعالى : ﴿فَإِذَا هِيَ تُعْبَانُ مُبِينٌ﴾. ^(١) وفي موضع : ﴿مَتَنَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ﴾. ^(٢) والجآن الصغير من الحيات ، كان ذلك في ابتداء بعثته ﷺ والثعبان الكبير منها ، وكان ذلك لما ألقى عصاه تجاه فرعون وقومه ، فاختلف الأحوال.

السبب الثاني : لاختلاف الموضوع ، كقوله تعالى : ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ ، ^(٣) وقوله : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾. ^(٤) مع قوله : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾. ^(٥)

قال الحلبي : فتحمل الآية الاولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل ، والآية الأخيرة على ما يستلزم الإقرار بالنبوات من شرايع الدين وفروعه. وحمله غيره على اختلاف الأماكن (أي المواقف على ما أوضحناه) فموضع يسأل ويناقش. وموضع آخر يرحم ويلطف. وموضع يعنف ويوبخ ، وموضع لا يعنف ...

الثالث : لاختلافهما في جهتي الفعل ، كقوله تعالى : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾. ^(٦) أضيف القتل إليهم على جهة المباشرة ، ونفاه عنهم باعتبار التأثير. ولهذا قالوا : إنّ الأفعال مخلوقة لله تعالى وإن كانت منتسبة إلى الآدميين على جهة الإرادة والاختيار. فنفي الفعل بإحدى الجهتين لا يعارضه إثباته بالجهة الأخرى.

وكذا قوله : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ ^(٧) أي ما رميت تأثيرا إذ رميت مباشرة.

الرابع : لاختلافهما في الحقيقة والمجاز ، كقوله : ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾ ^(٨) أي سكارى من الأهوال مجازا ، لا من الشراب حقيقة. وقوله : ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾. ^(٩) فقد وافته المنية فكان كالأموات وإن لم يميت حقيقة.

(١) الشعراء ٢٦ : ٣٢.

(٢) القصص ٢٨ : ٣١.

(٣) الصافات ٣٧ : ٢٤.

(٤) الأعراف ٧ : ٦.

(٥) الرحمن ٥٥ : ٣٩.

(٦) الأنفال ٨ : ١٧.

(٧) الأنفال ٨ : ١٧.

(٨) الحج ٢٢ : ٢.

(٩) إبراهيم ١٤ : ١٧.

ومثله في الاعتبارين قوله : ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾. ^(١) وقوله : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾. ^(٢) وقوله : ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْتَظِرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. ^(٣)
الخامس : بوجهين واعتبارين ، وهو الجامع للمفترقات ، كقوله : ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. ^(٤) وقال : ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الدُّلِّ يَنْتَظِرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾. ^(٥)

قال قطرب : «فبصرك» أي علمك ومعرفتك بها قوية ، من قولهم : «بصر بكذا وكذا» أي علم. وليس المراد رؤية العين.
قال الفارسي : ويدلّ على ذلك قوله : ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾.
وكقوله تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ ، ^(٦) مع قوله : ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾. ^(٧)
فيجوز أن يكون قد اعتقد من نفسه أنّه الربّ الأعلى وسائر الآلهة تحته وملكا له.
وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ ، ^(٨) مع قوله : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. ^(٩) فقد يظنّ أن الوجل خلاف الطمأنينة. وجوابه : أنّ الطمأنينة إنّما تكون بانسراح الصدر بمعرفة التوحيد. والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى فتوجل القلوب لذلك. وقد جمع بينهما في قوله : ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾. ^(١٠) فإنّ هؤلاء قد سكنت نفوسهم إلى معتقدتهم ووثقوا به ، فانفتق عنهم الشكّ. ^(١١)
وبعد فإليك مواضع من القرآن زعموا فيها اختلافا :

(١) البقرة ٢ : ٨.

(٢) الأنفال ٨ : ٢١.

(٣) الأعراف ٧ : ١٩٨.

(٤) ق ٥٠ : ٢٢.

(٥) الشورى ٤٢ : ٤٥.

(٦) الأعراف ٧ : ١٢٧.

(٧) النازعات ٧٩ : ٢٤.

(٨) الرعد ١٣ : ٢٨.

(٩) الأنفال ٨ : ٢.

(١٠) الزمر ٣٩ : ٢٣.

(١١) راجع : البرهان ، ج ٢ ، ص ٥٤ . ٦٥ مع تصريف وتلخيص.

هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين

سؤال :

قال تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾. ^(١)
وهذا عام. لكن ورد في كثير من الآيات ما يبدو منه التخصيص ، كقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. ^(٢) وقوله : ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. ^(٣) وقوله : ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. ^(٤) قوله : ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. ^(٥) وقوله : ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. ^(٦) وقوله : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾. ^(٧) وقوله : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُحْسِنِينَ﴾. ^(٨) إلى غيرها من آيات تنم عن اختصاص هدى القرآن بفئات من الناس دون الجميع ، فما وجه التوفيق؟

جواب :

هناك فرق بين اللام للغاية كما في الآية الاولى ، ولام العاقبة وهي التي جاءت في سائر الآيات هنا.
لا شك أنَّ القرآن نزل لغاية هي هداية الناس أجمع. غير أنَّ الذين ينفعهم ويتنفعون به في عاقبة الأمر هم المتقون المتعهدون في ذات أنفسهم ، فكأنهم هم الغاية دون أولئك الغوغاء من الناس الهمج غير المباليين ممن يقضون حياتهم في غفلة وعمه وعماء.
قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾. ^(٩) ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾. ^(١٠)

(١) البقرة ٢ : ١٨٥.

(٢) البقرة ٢ : ٢.

(٣) المائدة ٥ : ٤٦.

(٤) الأعراف ٧ : ٢٠٣.

(٥) يوسف ١٢ : ١١١.

(٦) الجاثية ٤٥ : ٢٠.

(٧) النحل ١٦ : ٨٩.

(٨) لقمان ٣١ : ٢ و ٣.

(٩) البقرة ٢ : ١٢١.

(١٠) النساء ٤ : ١٦٢.

وقال : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ^(١) ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ^(٢) ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾. ^(٣) ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ^(٤)
ومن ثم فإن القرآن جاء ببيان للناس أجمع ، غير أن الذين تقع بهم النصيحة هم المتقون ، كما قال تعالى : ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾. ^(٥)
﴿وَلَا تَرِزْ وَاِزْرَةً وِرَزَّ أُخْرَى﴾

سؤال :

قال تعالى : ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَرِزْ وَاِزْرَةً وِرَزَّ أُخْرَى﴾. ^(٦)
وقال : ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَرِزْ وَاِزْرَةً وِرَزَّ أُخْرَى﴾. ^(٧)
وقال : ﴿وَلَا تَرِزْ وَاِزْرَةً وِرَزَّ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾. ^(٨)
وقال : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى. أَلَّا تَرِزْ وَاِزْرَةً وِرَزَّ أُخْرَى. وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾. ^(٩)
الأمر الذي يرتضيه العقل الرشيد وتقتضيه الحكمة البالغة : «لا يؤخذ الجار بذنب الجار»! ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾. ^(١٠) ﴿هَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾. ^(١١) ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾. ^(١٢)
لكن مع ذلك ورد ما يناقضه ظاهرا في قوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ

(١) الأنفال ٨ : ٥٥.

(٢) يونس ١٠ : ٣٣.

(٣) النحل ١٦ : ٢٢.

(٤) الأنعام ٦ : ١٢ و ٢٠.

(٥) آل عمران ٣ : ١٣٨.

(٦) الأنعام ٦ : ١٦٤.

(٧) الإسراء ١٧ : ١٥.

(٨) فاطر ٣٥ : ١٨.

(٩) النجم ٥٣ : ٣٧ - ٣٩.

(١٠) المدثر ٧٤ : ٣٨.

(١١) البقرة ٢ : ٢٨٦.

(١٢) النور ٢٤ : ١١.

الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بَغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ»^(١).

كما أنّ التناقض باد على ظاهر قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَاهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾^(٢).

فكيف التوفيق؟

جواب :

حمل الوزر إنّما هو بتخفيف كاهل صاحبه ، فمن يحمل من أوزار أحد إنّما يخفف من ثقل كاهله. هذا هو معنى حمل الوزر ، أمّا إذا لم يخفف فلا تحمّل من الوزر شيئاً.

وصريح القرآن أنّ كل إنسان إنّما يتحمّل مسؤولية نفسه ولا يتحمّل مسؤولية غيره فيما عمل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ. إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣).

لكن هناك في الدعاة إلى حقّ أو باطل شأن آخر ، فهم شركاء فيما عمل المتأثرون بالدعوة ، إن خيراً أو شراً ، مثوبة أو عقوبة. روى الصدوق بإسناده إلى الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : «إنما عبد من عباد الله سنّ سنة هدى كان له أجر مثل أجر من عمل بذلك من غير أن ينقص من أجورهم شيء. وإنما عبد من عباد الله سنّ سنة ضلال كان عليه مثل وزر من فعل ذلك من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(٤). قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : «إذا مات المؤمن انقطع عمله إلّا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له»^(٥). فلا يحمل أحد ذنب غيره ولا يخفف عليه من وطئته وإن كان يشركه فيما عمل وفيما يترتب عليه من المثوبة أو الإثم من غير أن ينقصه شيئاً.

(١) النحل ١٦ : ٢٥.

(٢) العنكبوت ٢٩ : ١٢ و ١٣.

(٣) المائدة ٥ : ١٠٥.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق ، ص ١٣٢.

(٥) عوالي اللآلي لابن أبي جمهور الأحسائي ، ج ٢ ، ص ٥٣ ، رقم ١٣٩.

فمعنى ﴿لِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أَثْمٌ يحملون أثقال أنفُسهم مع أثقال اخر ، وهي مثل أوزار ما عمل التابعون وليست نفس أوزارهم ، إذ لا ينقص من وزر الآثم شيء ، وكلّ إنسان رهين بما اكتسب .
وكذا قوله : ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ﴾ أي من مثل أوزارهم وليست نفس أوزارهم ، إذ لكلّ امرئ ما اكتسب من الإثم ، ولا موجب للتخفيف عنه ما دام آثما مبعوضا عليه .

﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

سؤال :

قال تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...﴾. ^(١)
فقد جاء النهي صريحا عن موادة من حادّ الله ورسوله ولو كان أحد الوالدين أو الأقربين ، الأمر الذي يتنافى وترخيص مصاحبة الوالدين المشركين مصاحبة بالمعروف في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾. ^(٢)

جواب :

هناك فرق بائن بين الموادة التي هي عقد القلب على المحبة والوداد الذاتي وبين المصاحبة بالمعروف التي هي المداراة والمجاملة الظاهرية في حسن المعاشرة مع الوالدين ، وربما كانت عن كراهة في القلب. فمن أدب الإسلام أن يأخذ الإنسان بجرمة والديه وكذا سائر الأقربين وإن كان يخالفهم في العقيدة. فحسن السلوك شيء والرباط النفسي شيء آخر. فربما لا رباط بين الإنسان وغيره نفسيا وإن كان يداريه في حسن المعاشرة. أدبا إسلاميا ، إنسانيا شريفا. وليس مع الأقرباء فحسب بل مع الناس أجمع ، الأمر الذي يؤكّد عليه جانب تأليف القلوب ، مشروعا عاقما.

(١) المجادلة ٥٨ : ٢٢ .

(٢) لقمان ٣١ : ١٥ .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾

سؤال :

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾. ^(١) كيف يلتئم مع قوله : ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾؟! ^(٢)

جواب :

في الآية الثانية تقدير ، أي أمرناهم بالصالح والرشاد فعصوا وفسقوا عن أمر ربهم. وهذا كما يقال : أمرته فعصى ، أي أمرته بما يوجب الطاعة لكنه لم يطع وتمرد عن امتثال الأمر وعن الطاعة.

وإليك الآية بكاملتها :

قال تعالى . بشأن الامم الذين عوقبوا بسوء أعمالهم . : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾. ^(٣) تلك سنة الله جرت في الخلق : أن لا عقوبة إلا بعد البيان ، ولا مؤاخذه إلا بعد إتمام الحجّة. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ^(٤) ... ثم جاءت تلك الآية ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ ...﴾ تفريعا على هذه الآية ، لتكون دليلا على أنّ العقوبة إنما تقع بعد البيان.

فمعنى الآية . على ذلك . : أنّ كل قرية إذا حقّ عليها العذاب فإنما هو بسبب طغيانهم وعصيانهم بعد البيان وبعد أمرهم بما يسعدهم لكنهم بسوء اختيارهم شقوا وعصوا ، فجاءهم العذاب على أثر الطغيان والفسوق والعصيان.

وإنما ذكر المترفون بالخصوص لأنهم رأس الفساد والاسوة التي تقتدي بها العامة في سوء تصرفاتهم في الحياة.

قال الطبرسي . في أحد وجوه تفسير الآية . : إنّ معناه : وإذا أردنا أن نهلك أهل قرية . بعد قيام الحجّة عليهم وإرسال الرسل إليهم . أمرنا مترفيها أي

رؤساءها وساداتها

(١) الأعراف ٧ : ٢٨ .

(٢) الإسراء ١٧ : ١٦ .

(٣) الإسراء ١٧ : ١٦ .

(٤) الإسراء ١٧ : ١٥ .

بالطاعة واتباع الرسل ، أمرا بعد أمر ، نكّره عليهم ، وبيّنة بعد بيّنة ، نأتيهم بها إعدارا للعصاة وإنذارا لهم وتوكيدا للحجّة ، ففسقوا فيها بالمعاصي وأبوا إلّا تماديا في العصيان والكفران.

قال : وإّما خصّ المترفون وهم المنعمون والرؤساء بالذكر لأنّ غيرهم تبع لهم ، فيكون الأمر لهم أمرا لأتباعهم.

قال : وعلى هذا ، فيكون قوله : ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ جوابا ل «إذا» ، وإليه يؤول ما روي عن ابن عباس وسعيد بن جبیر : أنّ معناه : أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا. ومثله : أمرتك فعصيتني. ويشهد بصحّة هذا التأويل الآية المتقدّمة عليها ، وهي قوله : ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. (١)

ألف سنة أو خمسون ألف سنة

سؤال :

قال تعالى : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾. (٢) وقال : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. (٣)

ما هذا اليوم؟ وما مقداره ، ألف سنة أو خمسون ألف سنة؟

جواب :

قال القمي في تفسير الآية الاولى : يعني الأمور التي يدبّرها والأمر والنهي الذي أمر به وأعمال العباد ، كلّ ذلك يظهر يوم القيامة فيكون مقدار ذلك اليوم ألف سنة من سنّي الدنيا. (٤)

وروى الكليني في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام : «إنّ للقيامة خمسين موقفا ، كلّ موقف مقام ألف سنة» ثم تلا الآية الثانية. (٥)

(١) مجمع البيان ، ج ٦ ، ص ٤٠٦.

(٢) السجدة ٣٢ : ٥.

(٣) المعارج ٧٠ : ٤.

(٤) تفسير القمي ، ج ٢ ، ص ١٦٨.

(٥) تفسير الصافي ، ج ٢ ، ص ٧٤٣.

إذن ، فلا منافاة بين الآيتين ، فإنّ أعمال العباد وكلّ شئون الحياة الدنيا بما فيها من تدابير إلهية وأمر ونهي وتشريع وما عمل العباد من خير وشرّ فإنّها تظهر يوم القيامة في أوّل موقف من مواقفها ، ومقداره ألف سنة ممّا يعدّون. أمّا كل شئون الحياة في عالم الوجود فإنّها تظهر في طول أمد القيامة ومقداره خمسون ألف سنة حسب مواقفها الخمسين.

وبذلك صحّ المأثور عن ابن عباس : أنّهما يومان من أيام الله. أي برهتان من الزمان برهة أولى في ألف سنة ، وبرهة أخرى شاملة في خمسين ألف سنة. ^(١)

خلق السماوات والأرض في ستة أيام

سؤال :

قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ... وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ... ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ... فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ...﴾. ^(٢)

وقال : ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ... وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾. ^(٣)

وقال : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. ^(٤) وقد تكرّر ذلك في سبع مواضع من القرآن.

والسؤال هنا من وجهين :

الأول : دلّت الآية الاولى على أنّ الأرض خلقت قبل السماء ، في حين أنّ الآية الثانية نصّت على أنّ الأرض بعد ذلك دحاهها.

الثاني : ظاهر دلالة الآية الاولى هو أنّ خلقة السماوات والأرض وما فيها وقعت في ثمانية أيام ، في حين أنّ الآية الأخيرة ونظيراتها دلّت على وقوع

ذلك في ستّة أيام ، فكيف التوافق؟

(١) الإتيقان ، ج ٣ ، ص ٨٣.

(٢) فصلت ٤١ : ١٢ . ٩ .

(٣) النازعات ٧٩ : ٢٧ . ٣٠ .

(٤) السجدة ٣٢ : ٤ .

جواب :

دلّت الآية على أنّ الأرض ذاتها خلقت قبل السماء وإن كان دحوها أي بسطها وتسطيح قشرتها قد تأخّر بعد ذلك بأيّام. وهذه الأيام هي من أيّام الله التي يعلم هو مداها ، وليست من أيّام الناس. وقد خلقت الأرض في يومين ، وجعل فيها الرواسي وقدّر فيها الأقوات أيضا في يومين ، فهذه أربعة أيّام ، تمّت بها خلقة الأرض وما فيه من جبال وأرزاق وبركات. ثم استوى إلى السماء فخلقهنّ في يومين. فتلك ستة أيّام على ما جاء في آيات أخرى.

وهذا كما يقال : سرت من البصرة إلى الكوفة في يومين ، وإلى بغداد في أربعة أيّام ، أي من البصرة إلى بغداد ، باندراج اليومين اللذين سار فيهما إلى الكوفة.

وهناك تفسير آخر للآية لعلّه أدقّ ، يجعل الأربعة الأيام ظرفا لتقدير الأقوات إشارة إلى فصول السنة الأربعة ، حيث فيها تتقدّر أرزاق الخلائق والأنعام والبهائم والدوابّ. ذكره عليّ بن إبراهيم القمي في تفسيره للآية. قال : يعني في أربعة أوقات ، وهي التي يخرج الله فيها أقوات العالم من الناس والبهائم والطير وحشرات الأرض وما في البرّ والبحر من الخلق والثمار والنبات والشجر وما يكون فيه معاش الحيوان كلّّه ، وهو الربيع والصيف والخريف والشتاء ... ثم جعل يذكر كيفية تقدير هذه الأقوات في كلّ من هذه الفصول. ^(١)

وقد ارتضاه العلامة الطباطبائي واعتمده في تفسيره. ^(٢)

فمعنى الآية - على ذلك - : أنّ الله خلق الأرض في دورتين ، وجعل فيها رواسي وبارك فيها ، وقدّر أقواتها حسب فصول السنة. وهكذا قضى السماوات سبعا في دورتين. فهذه أربعة أدوار ذكرتهنّ الآية : دورتان لخلقة الأرض ، ودورتان لجعل السماوات سبعا. وبقيت دورتان لخلقة أصل السماء وما بينها وبين الأرض من أجرام كانت الآية ساكنة عنهما ومن ثمّ فهي لا تتنافى وآيات أخرى ذكرن ستة أدوار لخلقة الأرض والسماء وما بينهما.

(١) تفسير القمي ، ج ٢ ، ص ٢٦٢.

(٢) الميزان ، ج ١٧ ، ص ٣٨٧.

تساؤل بعضهم بعضا

سؤال :

قال تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾. ^(١)

وقال : ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾. ^(٢)

وقال : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾. ^(٣)

وقال : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ. فَعَمِيَّتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾. ^(٤)

وقال : ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ. وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾. ^(٥)

هذا مع قوله : ﴿وَقُفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾. ^(٦)

وقوله : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾. ^(٧)

وقوله : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ^(٨)

وقوله : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ. قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ. قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. ^(٩)

وقوله : ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾. ^(١٠)

فهل يسألون عن ذنب أو لا يسألون؟ وهل يتساءلون فيما بينهم ويتعارفون أم لا يتساءلون؟ فكيف التوفيق؟!

جواب :

هناك في الوقفة الاولى يوم الحشر تكون الوقعة شديدة ﴿يَوْمَ تَرَوْهَا تَدْهَلُ كُلُّ

(١) الرحمن ٥٥ : ٣٩.

(٢) القصص ٢٨ : ٧٨.

(٣) المؤمنون ٢٣ : ١٠١.

(٤) القصص ٢٨ : ٦٥ و ٦٦.

(٥) المعارج ٧٠ : ٨ - ١٠.

(٦) الصافات ٣٧ : ٢٤.

(٧) الأعراف ٧ : ٦.

(٨) الحجر ١٥ : ٩٢ و ٩٣.

(٩) الصافات ٣٧ : ٢٧ - ٢٩.

(١٠) يونس ١٠ : ٤٥.

مُرْضِعَةً عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿١﴾

فهناك الناس ذهول ، وعميت عليهم الأنباء. ولا يسأل حميم حميما ، ولا يتساءلون فيما بينهم ، وهكذا لا يسأل أحد أحدا عن ذنبه وعن شأنه الذي هو فيه.

أما وبعد أن أخرجت الأرض أثقالها ووضعت الزلزلة أوزارها وعاد الناس على حالتهم العادية وتفرّغوا للحساب فهناك السؤال والمؤاخذه ، والتساؤل والتعارف ، فاختلف الموقفان.

وهناك بعد انقضاء الحساب ودخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار ، يقع التساؤل والتعارف بينهم.

يقول تعالى عن المجرمين : ﴿اٰخٰشِرُوْا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا وَاَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوْا يَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ فَاَهْدُوْهُمْ اِلٰى صِرَاطِ الْجَحِيْمِ . وَقَفُوْهُمْ اِنَّهُمْ مَّسْئُوْلُوْنَ . مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُوْنَ . بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُوْنَ . وَاَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلٰى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُوْنَ . قَالُوْا اِنْكُمُ كُنْتُمْ تَاْتُوْنَنَا عَنِ الْيَمِيْنِ . قَالُوْا بَلْ لَمْ تَكُوْنُوْا مُؤْمِنِيْنَ . وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طٰغِيْنَ . فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا اِنَّآ لَذٰئِقُوْنَ . فَاَعْوَيْنَاكُمْ اِنَّا كُنَّا غٰوِيْنَ . فَاِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُوْنَ . اِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِيْنَ ۝﴾ (٢)

ويقول عن الصالحين : ﴿... اِلَّا عِبَادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِيْنَ . اُولٰٓئِكَ هُمْ رَزَقُوْا مَعْلُوْمٌ . فَوَاكِهَ وَهُمْ مُكْرَمُوْنَ . فِيْ جَنَّٰتٍ النَّعِيْمِ . عَلٰى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِيْنَ ... فَاَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلٰى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُوْنَ ... ۝﴾ (٣)

﴿اِلَّا اَصْحٰبَ الْيَمِيْنِ . فِيْ جَنَّٰتٍ يَتَسَاءَلُوْنَ . عَنِ الْمُجْرِمِيْنَ . مَا سَلَكَكُمْ فِيْ سَقَرٍ . قَالُوْا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّيْنَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِيْنَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخٰٓئِصِيْنَ . وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّيْنِ . حَتّٰى اَتٰنَا الْيَقِيْنُ . فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشّٰفِعِيْنَ ۝﴾ (٤)

(١) الحج ٢٢ : ٢.

(٢) الصافات ٣٧ : ٢٢ - ٣٤.

(٣) الصافات ٣٧ : ٤٠ - ٥٠.

(٤) المدثر ٧٤ : ٤٨ - ٣٩.

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾

سؤال :

قال تعالى : ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ .^(١) والبلد هو البلد الأمين مكة المكرمة . وقد أقسم به في سورة التين : ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ .^(٢) فكيف التوفيق؟

جواب :

قالوا بزيادة «لا» هنا ليكون معنى الكلام إثباتا لا نفيا ، وأن العرب قد تدخل «لا» في أثناء كلامها وتلغي معناها ، وأنشدوا في ذلك أبياتا . ونحن قد فندنا ذلك وذكرنا أن لا شاهد عليه في كلام العرب ، فراجع .^(٣)

والصحيح أن يقال : إنّ مورد الآيتين مختلف ، فمرة لا يقسم ومرة يقسم باختلاف الموارد ... إذ ليس المعنى في سورة البلد أنّه تعالى لا يقسم أبدا بهذا البلد ، بل لا يقسم في مورد خاصّ . لوضوحه . وهو أنّ الإنسان خلق في كبد ... أمّا المعنى في سورة البلد فهو على القسم حيث أهمية المورد (المقسم عليه) وهو أنّ الإنسان خلق ليكون رفيعا لكنّه بيديه حطّ من شأن نفسه فارتدّ أسفل سافلين بسوء تدبيره وسوء عمله .

وهنا جواب آخر لعلّه أدقّ وهو : أن ليس المراد (في آية البلد) نفي الإقسام على الإطلاق ، ليكون متنافيا مع الآية الاخرى (في سورة التين) . بل هو نوع من القسم على الشكل السلبي ، حيث عدم الحاجة إليه بعد وضوح الأمر وظهوره ، وهو أكد في إثبات المطلوب بشكل أدبيّ رائع .

والمعنى : إنّ لا أحلف ، إذ لا حاجة إليه بعد وضوح الأمر . وهذا يعني أنّ الأمر متأكّد الثبوت بذاته واضحا جليّا من غير حاجة إلى إقامة حجة ودليل .

فهو في حقيقته قسم ، لكن بصورة سلبية هي أكد من صورة الإيجاب .

(١) البلد ٩٠ : ١ و ٢ .

(٢) التين ٩٥ : ١ - ٣ .

(٣) وللعلامة البلاغي تحقيق مستوف في ذلك : تفسير آلاء الرحمن ، ج ١ ، ص ٣٨ - ٤١ .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾

سؤال :

قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. ^(١)

ضمن تعالى أن لا يعذب العرب على قيد أحد شرطين : حضور النبي بين أظهرهم ، أو استغفارهم هم. ومن ثم قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «كان في الأرض أمانان من عذاب الله ، وقد رفع أحدهما ، فدونكم الآخر فتمسكوا به. أمّا الأمان الذي رفع فهو رسول الله ﷺ وأمّا الأمان الباقي فالاستغفار». ثم تلا الآية. ^(٢)

لكن يتعقب الآية ما ينافي ذلك ظاهرا ، وهو قوله : ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَفَقُونَ﴾. ^(٣)

فكيف التوفيق؟

جواب :

إنّ سياق الآيتين يدلنا على اتصاهما ونزولهما معا إحداها تلو الاخرى مباشرة ، الأمر الذي يستدعي وثاهما طبعاً وعدم تنافيهما ، حيث المتكلم النابه . فضلاً عن الحكيم . لا يتناقض في كلامه قيد تكلمه. فزاعم التناقض واهم في حدسه البتة.

على أنّه لا تحافت بين الآيتين حتّى بحسب الظاهر أيضاً ، حيث الآية الاولى إنّما تنفي فعلية العذاب وأنّه لا يقع لوجود المانع. أمّا الآية الثانية فناظرة إلى جهة الاقتضاء وأصل الاستحقاق ، فهم مستحقون للعذاب لتوقّر المقتضي فيهم. بصدّهم عن المسجد الحرام وليسوا بأوليائه ، وإن كانوا لا يعدّون فعلاً ما دام وجود المانع وهما الشرطان أو أحدهما. فلا منافاة بين وجود المقتضي ونفي الفعلية لمكان المانع ، كما لا يخفى.

وقد ذكر الطبرسي في جواب المسألة وجوها ثلاثة :

أحدها : أنّ المراد بالأوّل (نفي التعذيب) عذاب الاستئصال والاصطلام ، كما وقع

(١) الأنفال ٨ : ٣٣.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم ، رقم ٨٨ ، ص ٤٨٣.

(٣) الأنفال ٨ : ٣٤.

بشأن الامم الماضية. وبالثاني (وقوع التعذيب) عذاب القتل بالسيف والأسر بأيدي المؤمنين . كما في يوم بدر وغيره وأخيرا يوم الفتح . ولكن بعد خروج المؤمنين من بين أظهرهم.

ثانيها : أنه أراد : وما لهم أن لا يعدّهم الله في الآخرة. ويريد بالأوّل عذاب الدنيا. قاله الجبائي.

ثالثها : أنّ الأوّل استدعاء للاستغفار. يريد أنه لا يعدّهم بعذاب دنيا ولا آخرة إذا استغفروا وتابوا ، فإذا لم يفعلوا عدّوا . وفي ذلك ترغيب لهم في التوبة والإنبابة . ثمّ إنه بيّن وجه استحقاقهم للعذاب بصّد الناس عن المسجد الحرام. ^(١)

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾

سؤال :

قال تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾. ^(٢)
وقال : ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

(٣)

وقال : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾. ^(٤)

وقال : ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾. ^(٥)

هذا مع قوله تعالى بشأن المؤمنين : ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. ^(٦)

(١) مجمع البيان ، ج ٤ ، ص ٥٤٠.

(٢) الأنبياء ٢١ : ٤٧.

(٣) الأعراف ٧ : ٨ و ٩.

(٤) الانشقاق ٨٤ : ٧ و ٨.

(٥) البقرة ٢ : ٢٨٤.

(٦) غافر ٤٠ : ٤٠.

وقوله : ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١).

وقوله بشأن الكافرين : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾^(٢).

فكيف التوفيق؟

جواب :

ليس في القرآن ما ينفي المحاسبة وموازنة الأعمال ، والآيات المستند إليها إنما تعني شيئاً آخر وهو : الرزق والأجر بما يفوق الحساب. وكذا الذي حبطت أعماله ، لا وزن له عند الله ولا مقدار.

قال الطبرسي . عند قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣) . : فيه أقوال :

أحدها : أنَّ معناه يعطيهم الكثير الواسع الذي لا يدخله الحساب من كثرته.

ثانيها : أنَّه تعالى لا يرزق الناس في الدنيا على مقابلة أعمالهم وإيمانهم وكفرهم ، وكذا في الآخرة لا يثيبهم على قدر أعمالهم بل يزيدهم فضلاً منه وإنعاماً.

ثالثها : أنَّه تعالى يعطي العطاء لا يؤاخذه عليه أحد ولا يسأله عنه سائل ، ولا يطلب عليه جزاء ولا مكافأة.

رابعها : أنَّه يعطي العدد من الشيء الذي لا يضبط بالحساب ولا يأتي عليه العدد ، لأنَّ ما يقدر عليه غير متناه ولا محصور ، فهو يعطي الشيء لا من عدد أكثر منه فينقص منه ، كمن يعطي الألف من الألفين ، والعشرة من المائة ، قاله قطرب.

خامسها : أنَّ معناه يعطي أهل الجنة ما لا يتناهى ولا يأتي عليه الحساب.

ثمَّ قال ﷺ : وكلّ هذه الوجوه جائز حسن.^(٤)

وقال الزمخشري . في تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ

(١) الزمر ٣٩ : ١٠.

(٢) الكهف ١٨ : ١٠٥.

(٣) البقرة ٢ : ٢١٢.

(٤) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ . ٣٠٦ .

ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴿١﴾ : «ضلَّ سعيهم» ضاع وبطل ... وعن أبي سعيد الخدري : يأتي ناس بأعمال يوم القيامة ، هي عندهم في العظم كجبال تامة ، فإذا وزنها لم تزن شيئا. ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ فنزدري بهم ولا يكون لهم عندنا وزن ولا مقدار. (٢)

وقال الطبرسي : أي لا قيمة لهم عندنا ولا كرامة ، ولا نعتدّ بهم ، بل نستخفّ بهم ونعاقبهم. تقول العرب : ما لفلان عندنا وزن أي قدر ومنزلة. ويوصف الجاهل بأنّه لا وزن له لخفّته. بسرعة بطشه وقلة تثبّته. وروي في الصحيح : أنّ النبي ﷺ قال : إنّ ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة. (٣)

قال العلامة الطباطبائي : والوزن هنا هو الثقل في العمل في مقابلة الخفة في العمل ، وربما تبلغ إلى مرتبة فقد الوزن رأسا. وقال . في قوله تعالى : ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ (٤) . : المراد أنّ الوزن الذي توزن به الأعمال يومئذ إنّما هو الحقّ. فبقدر اشتغال العمل على الحقّ يكون اعتباره وقيّمته ، والحسنات مشتملة على الحقّ ، فلها ثقل ، كما أن السيئات ليست إلّا باطلة فلا ثقل لها. والله سبحانه يزن الأعمال يومئذ بالحقّ ، فما اشتمل عليه العمل من الحقّ فهو وزنه وثقله. (٥)

مواطن القيامة متفاوتة

سؤال :

هناك آيات تنصّ على أنّهم لا يتكلّمون إلّا صوابا (٦) ونحو أن يتخاصموا (٧) بل وختم

(١) الكهف ١٨ : ١٠٣-١٠٦.

(٢) الكشاف ، ج ٢ ، ص ٧٤٩.

(٣) مجمع البيان ، ج ٦ ، ص ٤٩٧.

(٤) الأعراف ٧ : ٨.

(٥) الميزان للطباطبائي ، ج ٨ ، ص ٩٠٨.

(٦) وهو قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ، النبأ ٧٨ : ٣٨.

(٧) وهو قوله تعالى : ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ ، ق ٥٠ : ٢٨.

على أفواههم لتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون. ^(١)

الأمر الذي يتنافى وقوله تعالى فيهم بأنهم قالوا والله ما كنّا مشركين ^(٢) فإنه قول كذب بل ويمين كاذبة وقد أذنوا بالتكلم به!

وكذا مع قوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ ^(٤) فقد تخاصموا لديه

تعالى رغم منعه سبحانه من ذلك! ثم كيف يلتئم ذلك مع الختم على الأفواه؟!

جواب :

أولا : إنّ من يتكلم بالصواب في الآية الاولى هم الملائكة أو المؤمنون ، والكلام الصواب هنا هي الشفاعة بالحقّ على ما ذكره المفسّرون. وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام وقد سئل عن هذه الآية قال : نحن والله المأذون لهم يوم القيامة ، والقائلون صوابا : نمجّد ربّنا ونصلّي على نبيّنا ونشفع لشيعتنا. ^(٥)

وثانيا : مواطن القيامة متفاوتة ومواقفها متنوّعة. فقولته ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ...﴾ ^(٦) خطاب إلى الكفّار العنيد وقرينه الشيطان الذي أغواه ، حيث يقول الشيطان : ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ^(٧) ويحاول الكافر أن يجعل اللّوم على الذي أغواه ، فكان النهي موجّها إليهم : لا تختصموا لديّ بل اجعلوا بأسكم بينكم فليس منعا عن التخاصم على الإطلاق.

غير أنّ هذا التخاصم والتشاجر والمنع منه لديه سبحانه إنّما هو بعد الفراغ من الحساب وفي مقام الاعتذار بعد الاعتراف بالاقتراف. أمّا الختم على الأفواه فهو عند الحساب وفي أثنائه حيث يحاولون الإنكار رأسا ، فتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما

(١) وهو قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ، يس ٣٦ : ٦٥ .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ. ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ، الأنعام ٦ : ٢٢ - ٢٣ .

(٣) ص ٣٨ : ٦٤ .

(٤) العنكبوت ٢٩ : ٢٥ .

(٥) رواه العيّاشي حسبما ذكره الطبرسي في مجمع البيان ، ج ١٠ ، ص ٤٢٧ .

(٦) ق ٥٠ : ٢٨ .

(٧) ق ٥٠ : ٢٧ .

اقتطفوه. فالمواطن مختلفة والمواقف متعددة :

فالموطن الأول : موطن المداقة في الحساب. (يحتتم على أفواه أهل الإلحاد والإنكار).

والموطن الثاني : موطن الفراغ من الحساب. (يتخاصم فيه أهل النار).

والموطن الثالث : موطن الشفاعة لأهل الإيمان. (موطن النطق بالصواب).

ولكل موطن مناسبتة وشأنه.

هكذا يحمل على اختلاف المواطن ما ورد من قوله : ﴿لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾. ^(١) مع قوله : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾. ^(٢) وقوله :

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ﴾. ^(٣)

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾

سؤال :

قال تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾. ^(٤)

وقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾. ^(٥)

وقال : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾. ^(٦)

وقال : ﴿تَوَفَّيْتُهُ رُسُلَنَا﴾. ^(٧)

وقال : ﴿تَتَوَفَّاكُم الْمَلَائِكَةُ﴾. ^(٨)

جواب :

الله خالق الموت والحياة. وملك الموت هو الأمر الأول ، والملائكة أعوانه المباشرون. ^(٩)

(١) الرسائل ٧٧ : ٣٦.

(٢) غافر ٤٠ : ٥٢.

(٣) الروم ٣٠ : ٥٧.

(٤) الزمر ٣٩ : ٤٢.

(٥) الأنعام ٦ : ٦٠.

(٦) السجدة ٣٢ : ١١.

(٧) الأنعام ٦ : ٦١.

(٨) النحل ١٦ : ٢٨.

(٩) راجع : البرهان ، ج ٢ ، ص ٦٤.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾

سؤال :

قال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾. ^(١)
فقد أخبر تعالى عنهم بأنهم لا يكتُمون لديه حديثا ... وهذا يتنافى ظاهرا وقوله في موضع آخر : ﴿لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ^(٢) فقد كنتموا إشراكهم!

الجواب عن ذلك من وجهين :

الأول : أن قوله ﴿لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ داخل في التمني ، أي يودّون لو كانوا لم يكتُموا حديثا في الدنيا بشأن الرسالة والإسلام. أو لم يكتُموا في الآخرة كفرهم في الدنيا. حيث قولهم : ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وذلك باختلاف الموقف ، ففي الوهلة الاولى كنتموا ، وفي الثانية تمّنوا لو لم يكتُموا ... الثاني : أنهم لا يستطيعون الكتمان ، حيث تشهد عليهم أرجلهم وأيديهم بما كانوا يكسبون.

مضاعفة العذاب

سؤال :

قال تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾. ^(٣)
لكنّه في موضع آخر قال : ﴿بُضَاعَفُ هُمُ الْعَذَابُ﴾ ^(٤) !؟...

جواب :

المجازاة بالمثل خاصّة بالدنيا في مثل القصاص والعقوبات الجزائية. والآية الاولى واردة بهذا الشأن.

(١) النساء ٤ : ٤٢ .

(٢) الأنعام ٦ : ٢٣ .

(٣) الشورى ٤٢ : ٤٠ .

(٤) هود ١١ : ٢٠ .

أما مضاعفة العذاب ففي الآخرة على حسب مراتب الكبيرة التي ارتكبها أهل الكبائر. والآثار التي خلفتها تلك الكبيرة الموبقة في الأوساط الاجتماعية حين الارتكاب وبعدها. ومورد الآية هم الذين كانوا يصدّون عن سبيل الله ويغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ومن ثمّ يضاعف لهم العذاب.

التكليم من وراء حجاب

سؤال :

قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾. ^(١)
كيف يلتئم وقوله : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾. ^(٢) وقوله : ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ ^(٣) حيث وقع التكليم مباشرة؟!

جواب :

لم تنف الآية الاولى التكليم رأسا ، وإنما نفتته على الطريقة المعهودة بين الناس حيث يقع مشافهة. نعم تكليمه تعالى يقع على طرائق ثلاث :

١ . إقنا وحيا وهو النفث في الروح ، فيتلقّى النبي بشخصيته الباطنة ما يلقيه إليه وحي السماء ، وهو نوع من الإلهام خاصّ بالأنبياء والرسل.

٢ . أو بإسماع الصوت من غير أن يرى شخص المتكلّم ، كأنّه يتكلّم من وراء حجاب. وهذا بخلق التمّوج الصوتي في الهواء ليقرّع مسامع النبي فيستمع إليه ، ولكنّه لا يرى المتكلّم وإن كان يسمع صوته ، ومن ثمّ وقع التشبيه بمن يتكلّم من وراء حجاب. وهذا هو الذي وقع مع موسى النبي ﷺ .

٣ . أو بإرسال رسول . ملك الوحي . وهو جبرائيل ﷺ ، فيلقي ما تلقّاه وحيا على

(١) الشورى ٤٢ : ٥١ .

(٢) النساء ٤ : ١٦٤ .

(٣) الأعراف ٧ : ٢٢ .

النبي ﷺ . والأكثر ولعلّه الشامل من الوحي القرآني هذا النوع الأخير .

والتكليم والنداء في الآيتين هما من النوع الثاني أي التكليم من وراء حجاب ، إذن فلا منافاة.

نظرة أو انتظار

؟ سؤال :

قال تعالى : ﴿وَجُودٌ يُؤْمِنُ نَاصِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾. ^(١) وقال : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾. ^(٢)
قالوا : كيف يلتئم ذلك مع قوله : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. ^(٣) وقوله : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾. ^(٤) في حين أنّ من رأى الشيء وحدّق النظر إليه فقد أدركه ببصره وأحاط به علمه؟!

جواب :

هناك فرق بين نظر رؤية ونظر انتظار وتوقع. فيومئذ تكون الأنظار إليه سبحانه لكنّها نظرة توقع وانتظار عميم رحمته ، ولا نظر إلّا إليه «عظمت آلاؤه». فالنظر إنّما هو إلى ربّهم كيف يشيهم وإلى ما وعدهم من المثوبة في جنّة عدن.
قال الزمخشري : و «الناظرة» من نضرة النعيم. ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ تنظر إلى ربّها خاصّة ولا تنظر إلى غيره. والمراد : نظر توقع ورجاء ، كقولك : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي ، تريد معنى التوقع والرجاء ، ومنه قول القائل :
وإذا نظرت إليك من ملـك والبحر دونك زدتنـي نعمـا
قال : وسمعت سرورية مستجدية بمكة وقت الظهيرة حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم تقول : عيني نويظرة إلى الله وإليكم ، أي رجائي إلى الله وإليكم.

فمعنى الآية : أنّهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلّا من ربّهم ، كما كانوا في الدّنيا لا يخشون ولا يرجون إلّا إيّاه. ^(٥)

(١) القيامة ٧٥ : ٢٢ و ٢٣ .

(٢) النّجم ٥٣ : ١٣ و ١٤ .

(٣) الأنعام ٦ : ١٠٣ .

(٤) طه ٢٠ : ١١٠ .

(٥) الكشّاف ، ج ٤ ، ص ٦٦٢ بتصرّف.

وأما الآية من سورة النجم فالمراد : رؤية جبرائيل على صورته الأصلية ، حيث وقعت لمحمد ﷺ مرتين ، مرة عند التبشير بنبوته ، ومرة أخرى في المعارج عند سورة المنتهى .

التناسي أو النسيان

سؤال :

قال تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾. ^(١) وقال : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾. ^(٢) كيف يلتزم ذلك مع قوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾. ^(٣) وقوله : ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾؟! ^(٤)

جواب :

النسيان في الآيتين الأوليتين هو التناسي والتغافل. أمّا المنفي في الآيتين الأخيرتين فهي الغفلة والنسيان حقيقة. والنسيان - بمعنى التناسي - في القرآن كثير ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ ^(٥) أي تناسى العهد ولم يأخذ بجده. إذ لو كان نسي حقيقة لكان معذورا ، إذ لا مؤاخذه على التناسي عقلا ولا لوم عليه. وقوله : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ ^(٦) أي تغافلوا حضوره تعالى في الحياة ومن ثمّ تغافلوا أنفسهم ولم يأخذوا كرامة الإنسان بجده.

فقوله تعالى : ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ ^(٧) يعني نبذت آياتنا وراء ظهرك ولم تأخذها بجده ، فكذلك اليوم تنسى ولا تشملك العناية الإلهية.

كما في قوله تعالى : ﴿فَنَبِّدُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَزُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ^(٨) أي استهانوا بشأن الكتاب واستعاضوا به متاع الحياة الدنيا القليل. وهو من التغافل في الأمر والتساهل فيه وليست حقيقة الغفلة.

(١) الأعراف ٧ : ٥١ .

(٢) التوبة ٩ : ٦٧ .

(٣) مريم ١٩ : ٦٤ .

(٤) طه ٢٠ : ٥٢ .

(٥) طه ٢٠ : ١١٥ .

(٦) الحشر ٥٩ : ١٩ .

(٧) طه ٢٠ : ١٢٦ .

(٨) آل عمران ٣ : ١٨٧ .

وهكذا جاء في الجواب فيما نسب إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال :
 «أما قوله : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(١) فإنما يعني : نسوا الله في دار الدنيا ، لم يعملوا بطاعته ، فنسيهم في الآخرة أي لم يجعل لهم في ثوابه شيئاً ، فصاروا منسيين من الخير. وقد يقول العرب : قد نسينا فلان فلا يذكرنا ، أي إنه لا يأمر لنا بخير ولا يذكرنا به.
 وأما قوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^(٢) فإن ربنا تبارك وتعالى ليس بالذي ينسى ولا يغفل بل هو الحفيظ العليم.^(٣)

كسب التأنيث والتذكير

سؤال :

قال تعالى : ﴿وَقِيلَ لَهُمْ دُوفُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾^(١).
 وقال : ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا دُوفُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾^(٢).
 كيف جاء الوصف وكذا الضمير في الآية الاولى مذكراً ، وفي الآية الثانية مؤنثاً في حين وحدة السياق؟!

جواب :

المضاف إلى مؤنث إن كان يجوز حذفه ولا يخلّ حذفه بمفاد الكلام يجوز في وصفه التذكير والتأنيث. قال ابن مالك :
 ورَبَّمَا أَكْسَبَ ثَانِ أَوَّلًا تَأْنِيثًا إِنْ كَانَ لِحَذْفِ مَوْهَلَا
 فإنّ المضاف المذكّر قد يكتسب التأنيث من المضاف إليه المؤنّث بشرط جواز حذفه من غير احلال بمفاد الكلام ، كما قال الأعشى :
 وتشـرقـ بالـقـول الـذي قـد أذـعـتـه كـمـا شـرقت صـدر القـنـاة مـن الـدم
 فتأنيث الفعل (شرقت) المسند إلى «صدر» إنّما هو باعتبار كسبه التأنيث من

(١) كتاب التوحيد للصدوق ، ص ٢٥٩ . ٢٦٠ .

(٢) السجدة ٣٢ : ٢٠ .

(٣) سبأ ٣٤ : ٤٢ .

المضاف إليه. فلو قدّر حذفه لم يختلّ مفاد الكلام.

وجاء عكسه في قول الآخر :

رؤيـة الفـكـر مـا يـؤول لـه الأـمر مـعـيـن عـلـى اجـتـنـاب التـواـني
وقال غيره :

إنارة العقـل مـكـسـوف بـطـوع هـوى وعقـل عاصـي الهـوى يـزـداد تنـويـرا
فالضمائر الراجعة إلى المضاف . وهو مؤنث . في البيتين ، إنما روعي فيها جانب المضاف إليه المذكّر ، باعتبار أنّ حذف المضاف في مثل هذا الكلام غير محلّ بمفاده.

وهكذا في الآية الكريمة يجوز في وصف العذاب المضاف الى النار مراعاة التذكير على الأصل ، كما في الآية من سورة السجدة. وكذا مراعاة التأنيث باعتبار إضافته إلى النار ، كما في الآية من سورة سبأ.

وكلا الأمرين جائز ، كما قال ابن مالك : «وربّما أكسب ثان أولا تأنيثا ...» ، وليس دائما ولا ضرورة.

* * *

هذا بناء على كون الوصف نعتا للمضاف في كلتا الآيتين ، نظرا لوحدة السياق فيهما.

وربما فرّقوا بين الآيتين فجعلوا الوصف نعتا للمضاف في الآية الأولى ، وللمضاف إليه في الآية الثانية. وعلّلوا ذلك باختلاف الموجب :

قال الزركشي : جاء في سورة السجدة بلفظ «الذي» على وصف العذاب ، وفي سورة سبأ بلفظ «التي» على وصف النار. وذلك لوقوع «النار»

في سورة السجدة موقع الضمير الذي لا يوصف. وإثما وقعت موقع الضمير لتقدّم إضمارها في قوله : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ

يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ ...﴾^(١).

(١) السجدة ٣٢ : ٢٠.

فحقّ الكلام أن يقال : وقيل لهم ذوقوا عذابها ... فلما وضعها موضع المضر الذي لا يقبل الوصف عدل إلى وصف العذاب. وأما في «سبأ» فوصفها لعدم المانع من وصفها. ^(١)

* * *

وربما ذهبوا إلى أنّه وصف للنار في كلتا الآيتين ، وجاء التذكير في سورة السجدة على معنى «الجحيم» أو «الحريق». ^(٢) وهنا وجوه استحسانية لا تطيل بذكرها فليراجع مظاهها. ^(٣)

فرعون يقتل أبناء إسرائيل قبل بعثة موسى أم بعدها؟

جاء في آيات من سورة غافر ^(٤) وسورة الأعراف ^(٥) ما يدلّ على أنّ فرعون همّ بقتل أبناء إسرائيل واستحياء نسائهم بعد أن بعث موسى ﷺ ودعاه إلى الإيمان.

وفي سورة القصص ^(٦) وسورة طه ^(٧) وإبراهيم ^(٨) والأعراف ^(٩) والبقرة ^(١٠) ما يدلّ على أنّ ذبح الأبناء واستحياء النساء كان قد وقع من قبل؟ كان فرعون قد أمر بقتل الذكور من مواليد بني إسرائيل من قبل ، خوفا من ظهور نبيهم موسى ﷺ وقد خاب ظنه. لكنّه بعد أن ظهرت نبوته وقام في وجهه مهددا له

(١) البرهان ، ج ٢ ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢) إملاء ما منّ به الرحمن لأبي البقاء العكبري ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

(٣) ذكر الزركشي وجوها أربعة ، وقد ذكرنا اثنين منها. راجع : البرهان ، ج ٢ ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٤) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ غافر ٤٠ : ٢٣ - ٢٥ .

(٥) ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِنُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾. الأعراف ٧ : ١٢٧ .

(٦) ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُم طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾. القصص ٢٨ : ٤ .

(٧) ﴿أَنِ افْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَافْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾. طه ٢٠ : ٣٩ .

(٨) ﴿إِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾. إبراهيم ١٤ : ٦ .

(٩) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾. الأعراف ٧ : ١٤١ .

(١٠) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾. البقرة ٢ : ٤٩ .

. ولا سيّما بعد أن آمن السحرة . خاف ازدياد قوّة موسى وقومه والنجدة بالأبناء ، فحاول كسر شوكتهم بالقتل في الأبناء واستعباد النساء ، لكنّه لم يساعده الحظّ ، حيث أهلكهم الله.

قال الطبرسي عند تفسير الآيات من سورة غافر : امروا بقتل الذكور من قوم موسى لئلاّ يكثر قومه ولا يتقوى بهم وباستبقاء نسائهم للخدمة. وهذا غير القتل الأوّل ، لأنّه أمر بالقتل أولا لئلاّ ينشأ منهم من يزول ملكه على يده ، ثمّ ترك ذلك لما أن تيقن ولادة موسى ، ولا فائدة في ذبح الأبناء. لكنّه بعد أن ظهرت نبوّة موسى وقام في وجهه مهّددا له حاول العود إلى القتل ثانيا حتى لا تكون فيهم نجدة وقوّة. لكنه تعالى حال دون بلوغ أمنيّته وأخذهم بالبلاء والعذاب. ^(١)

التقدير أزلا أم في ليلة القدر؟

قد يزعم البعض أنّ في ذلك تناقضا في القرآن ، فتارة يرى من تقدير الامور مثبتا في اللوح المحفوظ ﴿فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾. ^(٢) واخرى تقديرها في ليلة القدر لكلّ عام ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾. ^(٣)

قلت : ليس التقدير ممّا يختلف وإنّما يختلف العلم به. فالّذي يعلم تقدير الأمور ومجاريها أزلا وفي اللوح المحفوظ هو الله وحده لا شريك له. وأمّا الذي يتنزّل به ويطلع أوليائه عليه فهو في ليلة مباركة هي ليلة القدر من شهر رمضان من كلّ عام. يتنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كلّ أمر. يتنزّلون بتقادير الأمور على الحجّة القائم من أوليائه ليطلعه على مجاري الامور عامه ذلك. وبذلك تواترت روايات أئمة أهل البيت الصادقين عليهم السلام ومن ثمّ فإنّ علمهم الحتم بمجاري الامور محدود بعامهم ، دون علم الله المحيط الشامل. ^(٤)

(١) راجع : مجمع البيان ، ج ٤ ، ص ٤٦٥ ؛ وج ٨ ، ص ٥٢٠.

(٢) الحديد ٥٧ : ٢٢.

(٣) الدخان ٤٤ : ٤ . راجع : هاشم العربي في ملحق ترجمة كتاب الإسلام ، ص ٣٨٤ - ٣٨٥.

(٤) راجع : الكافي ، ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٥٣.

والدليل على ذلك أنّ الوارد في سورتي الدخان والقدر هو النزول والتفريق ، وليس أصل التقدير ، فتدبر جيّداً.
فالله تبارك وتعالى يعلم تقدير الامور حسب مجاريها علما في الأزل ، لكنّه تعالى ينزل بهذا التقدير في كلّ ليلة قدر بشأن تفريقه طول ذلك العام ،
الأمر الذي لا يبدو عليه أيّ شبهة تناقض.

متى وقع التقدير؟ وهل لا يتنافى التقدير مع الاختيار؟

جاء في سورة الدخان أنّ التقدير إنّما يقع في كلّ ليلة قدر من شهر رمضان في كلّ سنة ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾. ^(١) وقد وردت روايات أيضا بأنّ ما يقع في تلك السنّة إنّما يقدر في ليلة القدر.

هذا ، في حين كثرة الآيات والروايات بأنّ التقدير إنّما وقع في الأزل ، وتجري الأمور حسبما قدرّت في اللّوح المحفوظ من غير تحلّف ولا تبديل. ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾. ^(٢) ﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾. ^(٣)
على أنّ هذه الآيات ترمي إلى سلب مسئولية الإنسان عمّا يفعله ، حيث إنّّه كان مقدّرا له من قبل. وهذا يتنافى وقوله تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾. ^(٤)

أمّا المسألة الأولى فقد سبق البحث عنها في مسألة البداء وأنّ هناك تقديرين ، تقدير ظاهري حسب مجاري الأمور الطبيعية من علل وأسباب تتفاعل حسب طبيعتها الاولى ، وهي السنن الساطية على الكون. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾. ^(٥)
وهذه السنن ليست حتمية ، في حين كونها هي الغالبة ، حيث احتمال مفاجأة امور

(١) الدخان ٤٤ : ٤ .

(٢) الحديد ٥٧ : ٢٢ .

(٣) فاطر ٣٥ : ١١ .

(٤) الإسراء ١٧ : ١٣ .

(٥) القمر ٥٤ : ٤٩ .

طارئة من خارج مدارات السنن فتغيّر من اتجاهاتها أحيانا. الأمر الذي لا يعلمه إلا الله وكان مقدّرا أي معلوما لديه تعالى في الأزل ، خافيا عن أعين الخلائق إلا من علّمه الله. وهذا هو التقدير المكنون في اللوح المحفوظ. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾. (١)

فالأجل الأول هو الذي تقتضيه مجاري الأمور الطبيعية حسب السنن الجارية في الخلق ، وهذا ليس بحتم. أمّا الأجل الآخر الحتمي فهو الذي علمه الله في الأزل حسب الأسباب الطارئة الخافية عن غيره تعالى. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُوهُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. (٢)

روى الصدوق بإسناده إلى الإمام الصادق عليه السلام قال : وهل يحو الله إلا ما كان؟ وهل يثبت إلا ما لم يكن؟ (٣)

فهناك تغيير وتبديل على خلاف مجاري الامور ، لا يعلمه إلا الله علما كائنا في الأزل.

قال الإمام الباقر عليه السلام : من الأمور أمور موقوفة عند الله ، يقدّم منها ما يشاء ويؤخّر منها ما يشاء ويثبت منها ما يشاء. (٤) أي : من الأمور ما هي موقوفة . في جريانها حسب العادة الطبيعيّة . على شرائط ، إن وجدت جرت ، وإلا تخلّفت . فحصول هذه الشرائط في وقتها أو عدم حصولها شيء لا يعلمه إلا الله .

فالعلم بالتقادير الحتمية الأزلية خاصّ بالله تعالى. أمّا غيره تعالى من الملائكة المقرّبين والمدبّرات أمرا وكذا المصطفون من عباد الله المكرمين فلا علم لهم بسوى مقتضيات السنن الطبيعية في مجاري الأمور ، والتي هي بمعرض البداء والتبديل ، أمّا حتميّيّتها فهذا شيء إمّا يعرفونه في كلّ ليلة قدر من كلّ سنة وفي محدودة عامها فحسب.

قال الإمام الصادق عليه السلام : «إنّ لله علمين ، علم مكنون مخزون لا يعلمه إلا هو ، من

(١) الأنعام ٦ : ٢ .

(٢) الرعد ١٣ : ٣٨ و ٣٩ .

(٣) كتاب التوحيد للصدوق ، ص ٣٣٣ ، رقم ٤ .

(٤) بحار الأنوار ، ج ٤ ، ص ١١٦ . ١١٧ ، رقم ٤٤ .

ذلك يكون البدء. وعلم علمه ملائكته ورسله وأنبياءه ، فنحن نعلمه». ^(١) وقد عني بهذا العلم الذي تعلمه الملائكة والأنبياء والأئمة هو العلم وفق مجاري الأمور الطبيعية ، والتي يمكن التخلف فيها. ومن ثم قال الإمام امير المؤمنين عليه السلام : والله لو لا آية في كتاب الله لحدثتكم بما يكون إلى يوم القيامة ، وهي قوله تعالى : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. ^(٢)

* * *

وأما المسألة الثانية : هل لا يتنافى التقدير مع الاختيار؟ فقد استوفينا الكلام عنها عند البحث عن مسألة الاستطاعة والاختيار ، وتبين أن التقدير السابق لا يعدو سوى العلم بما سيقع وتقديره حسبما يقع ، من غير أن يكون العلم السابق ذا أثر في تحقق المعلوم. فإنّ للظواهر الكونية عللا وأسبابا تكوينية هي التي تؤثر في الفعل والانفعال التكوينيّين. كما أنّ للأفعال الاختيارية الصادرة من الفاعل المختار (الحيوان والإنسان) سببا مباشرا هي إرادته بالذات وليس مقهورا فيها.

فإذا كان الله يعلم . ألا . ما ذا سيقع وسيتحقق عبر الأبد ثمّ قدّر مجاريها ودبّر من شئونها بما يتواءم ونظام الكون فهذا لا يعني الإجبار ، ولا سيّما فيما يعود إلى أعمال يقوم بها الإنسان حسب إرادته واختياره. وليس من المنطق أن يفرض العلم بأمر علّة لوجوده. والتقدير السابق ، إنّما هو العلم بالأسباب والمسببات . كما هي . ثمّ تدبير مجاريها حسب نظام الكون. فلا هناك جبر ولا سلب للمسؤولية فيما يمسّ أفعال العباد الاختيارية.

﴿إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾

قال تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾. ^(٣) والخطاب عامّ يشمل

(١) الكافي للكليني ، ج ١ ، ص ١٤٧ ، رقم ٨.

(٢) بحار الأنوار ، ج ٤ ، ص ٩٧ ، رقم ٤ و ٥ ، والآية ٣٨ من سورة الرعد.

(٣) مريم ١٩ : ٧١.

المؤمن والكافر. وبدليل ما بعد الآية : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِّيًّا﴾. ^(١) حيث قوله : ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾. أي الجميع يردونها فيخرج المؤمن ويترك الظالم بحاله.

الأمر الذي يتناقى وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾. ^(٢) فكيف الوثام؟! وقد ذكر المفسرون هنا وجوها ، أوجهها . ما عن ابن مسعود والحسن وقتادة واختاره أبو مسلم . أنه بمعنى الإشراف عليها ليشهدوا ذلك العرض الرهيب. فالمؤمنون يجوزونها ويدنون منها ويمرّون بها وهي تتأجج وتتميّز وتتلمّظ ، ويرون العتاة ينزعون فيقذفون فيها.

قال تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَهُمْ﴾ لن يكونوا لوحدهم بل ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ الذين هم قادتهم ، وبينهما صلة التابع والمتبوع والقائد والمقود. ﴿ثُمَّ لَنُخْصِرَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ جاثين على ركبهم في ذلّ وفزع. ﴿ثُمَّ لَنُنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾. فلا يؤخذ أحد جزافاً من تلك الجموع المتكاثفة. ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ ليكونوا طليعة المقذوفين فيها.

وبعد ، فيأتي دور المؤمنين الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، فيأتي زرافات منهم ، يمرّون بهذا المشهد الرهيب ، فيزحزون عنها وفي منجاة منها يجوزونها ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي نجعلهم في منجاة منها ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِّيًّا﴾ ^(٣) أي ندعهم جاثمين على ركبهم على شفا جرف هار لينهار بهم في نار جهنّم.

فقد كان المراد بالورود هنا هو الإشراف عليها ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾. ^(٤) وقوله : ﴿فَارْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دُلْوَهُ﴾. ^(٥) إذ ليس المراد من الورد هنا الدخول ، بل الدنو والاقتراب. قال الراغب : الورد ، أصله قصد الماء ، ثم يستعمل في غيره. ^(٦) قوله : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي قصده واقترب منه. والوارد : الذي

(١) مريم ١٩ : ٧٢.

(٢) الأنبياء ٢١ : ١٠١ و ١٠٢.

(٣) مريم ١٩ : ٦٨ . ٧٢.

(٤) القصص ٢٨ : ٢٣.

(٥) يوسف ١٢ : ١٩.

(٦) المفردات ، ص ٥١٩.

يتقدّم القوم ليرد الماء ويسقي لهم. قوله : ﴿فَارْسُلُوا أَرْدَهُمْ﴾ أي ساقبهم من الماء المورد. قال : ويقال لكلّ من يرد الماء وارد ، وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾^(١) . ومنه : ورد ماء كذا أي حضره.^(٢)

وفي أمثال العرب : «أن ترد الماء بماء أكيس». ^(٣) أي من الكياسة والاحتياط أن يكون وارد الماء مستصحبا معه شيئا من الماء ، ولعلّه يرد الماء فلا يجده.

قال زهير . شاعر الجاهلية . :

فلَمَّا وردن الماء زرقاء جمامه وضعن عصيّ الحاضر المتخيم^(٤)

أراد : فلما بلغن الماء أقمن عليه.

قال الزّجاج : والحجّة القاطعة على أنّهم لا يدخلونها هي قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.^(٥)

وللطبرسي هنا كلام مذيّل ونقل آراء ، اقتصرنا على الأرجح منها ، فليراجع.^(٦)

ولابن شهرآشوب توجيه لطيف بإرجاع ضمير الخطاب إلى منكري الحشر على طريقة الالتفات.^(٧)

فتبارك الله أحسن الخالقين

جاء التعبير بأنّه تعالى أحسن الخالقين في موضعين من القرآن^(٨) ممّا يشيء بأنّ هناك خالقين سوى الله ليكون هو أحسنهم!! في حين أنّه تعالى ينفي بكلّ شدّة أن يكون خالق غيره إطلاقاً وأنّه خالق كلّ شيء ولا خالق سواه ، فما وجه التوفيق؟

(١) مريم ١٩ : ٧١.

(٢) المصدر.

(٣) مجمع الأمثال للميداني ، ج ١ ، ص ٣٢ ، رقم ١٢٩.

(٤) هذا البيت من معلّفته المشهورة. يقول : فلما بلغت الضغائن الماء وقد اشتدّ صفاء ما جمع منه في الآبار والحياض عزم على الإقامة فوضعن العصيّ وعمدن إلى نصب الخيام كما في المتحضر. والزرقه : شدّة الصفاء. والجمام : جمع جمّ الماء وجمّته. ووضع العصيّ كناية عن الإقامة ، لأنّ المسافر إذا عزم على الإقامة بمكان وضع عصاه. والتخيم : نصب الخيام. (شرح المعلقات السبع للزوزني ، ص ٧٧)

(٥) الأنبياء ٢١ : ١٠١ و ١٠٢.

(٦) مجمع البيان ، ج ٦ ، ص ٥٢٥ . ٥٢٦.

(٧) متشابهات القرآن لابن شهرآشوب ، ج ٢ ، ص ١٠٧.

(٨) المؤمنون ٢٣ : ١٤ ؛ والصافات ٣٧ : ١٢٥.

غير أنّ الخلق بمعنى الإبداع وإيجاد الصورة بالتركيب الصناعي أمر يعمّ. فقد حكى الله تعالى عن المسيح : ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. ^(١) وقوله : ﴿وَإِذْ نَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾. ^(٢) والخلق . في كلام العرب . ابتداع الشيء ، وإنّما يخصّه تعالى إذا كان إنشاء لا على مثال سبقه . وكلّ شيء خلقه الله فهو مبتدؤه على غير مثال سبق إليه . ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾. ^(٣)

قال ابن الأنباري : الخلق في كلام العرب على وجهين : أحدهما الإنشاء على مثال أبدعه ، والآخر التقدير . وقوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ^(٤) معناه : أحسن المقدّرين . وكذلك قوله تعالى : ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ ^(٥) أي تقدّرون كذبا .

قال ابن سيده : خلق الله الشيء يخلقه خلقا : أحدثه بعد أن لم يكن .

قال ابن منظور : والخلق التقدير . وخلق الأديم يخلقه خلقا : قدّره لما يريد قبل القطع ، وقاسه ليقطع منه مزادة أو قربة أو خفّا . قال زهير بن أبي أسلمي يمدح رجلا :

ولأنّـت تفـري مـا خلقت وبـع ض القـوم يـخلـق ثم لا يفـري

يعني : أنت إذا قدّرت أمرا قطعته وأمضيته ، وغيرك يقدّر وليس بماضي العزم . ^(٦)

عبس وتولّى

ومّا جعله أهل التبشير المسيحي ذريعة للحطّ من كرامة القرآن . بزعم وجود التناقض فيه . ما عاتب الله به نبيّه ﷺ بشأن عبوسه في وجه ابن أم مكتوم المكفوف ، جاء ليتعلّم منه ملحا على مسألته ، وهو لا يعلم أنّه منشغل بالكلام مع شرفاء قريش . فساء النبيّ إلحاحه ذلك فأعرض بوجهه عنه كالحا متكثّرا . الأمر الذي يتنافى وخلقه العظيم الذي وصفه الله به في وقت مبكّر !

جاء قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ في سورة القلم ، ثانية السور النازلة بمكة .

(١) آل عمران ٣ : ٤٩ .

(٢) المائدة ٥ : ١١٠ .

(٣) الأعراف ٧ : ٥٤ .

(٤) المؤمنون ٢٣ : ١٤ .

(٥) العنكبوت ٢٩ : ١٧ .

(٦) لسان العرب ، مادة «خلق» .

أما سورة عبس فهي الرابعة والعشرون.

جاء في أسباب النزول : أنّ رسول الله ﷺ كان يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعبّاس بن عبد المطلب وأبيّ وامية ابني خلف يدعوهم إلى الله ويرجو إسلامهم. وفي هذه الحال جاءه عبد الله ابن أمّ مكتوم ^(١) ونادى : يا رسول الله ، أقرّني وعلمني ممّا علّمك الله ، فجعل يناديه ويكرّر النداء ، ولا يعلم أنّه مشغول ومقبل على غيره ، حتّى ظهرت آثار الكراهة على وجه رسول الله ، لقطعه كلامه!

قالوا : وقال في نفسه : يقول هؤلاء الصناديد : إنّما أتباعه العميان والعبيد ، فأعرض عنه وأقبل على القوم الذين كان يكلمهم ، فنزلت الآيات. وكان رسول الله بعد ذلك يكرمه ويقول إذا رآه : مرحبا بمن عاتبني فيه ربّي. واستخلفه على المدينة مرّتين. ^(٢)

قال الشريف المرتضى : ليس في ظاهر الآية دلالة على توجّها إلى النبي ﷺ بل هو خبر محض لم يصحّ بالمخبر عنه ، وفيها ما يدلّ على أنّ المعنيّ بها غيره ، لأنّ العبوس ليس من صفات النبيّ مع الأعداء المنابذين فضلا عن المؤمنين المسترشدين. ثمّ الوصف بأنّه يتصدّى للأغنياء ويتلهّى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة. وقد قال تعالى في وصفه : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. ^(٣) وقال : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾. ^(٤) فالظاهر أنّ قوله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ^(٥) المراد به غيره. ^(٦)

وهكذا ورد قوله تعالى : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. ^(٧) وقوله : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ

(١) هو : عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصمّ القرشي. قيل : أنّ اسمه الحصين ، سمّاه النبيّ عبد الله. قال ابن حبان : كان أهل المدينة يقولون : اسمه عبد الله ، وأهل العراق يقولون : اسمه عمرو. قال ابن خالويه : كان أبوه يكتب أبا السرج (على ما ذكره الشيخ في تفسير التبيان ، ج ١٠ ، ص ٢٦٨). وكان مؤدّنا للنبي ﷺ بعد هجرته من مكّة. واسم أمّه عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة. وهو (ابن أمّ مكتوم) ابن خال خديجة أمّ المؤمنين ﷺ ، فإنّ أمّ خديجة اخت قيس بن زائدة واسمها فاطمة. أسلم في السابقين إلى الإسلام بمكّة وكان من المهاجرين الأوّلين ، قيل : قدم المدينة قبل النبيّ ، وقيل : بعده بقليل ، ومات في أيام عمر ، وقيل : استشهد بالقادسية. راجع : الإصابة لابن حجر ، ج ٢ ، ص ٥٢٣.

(٢) مجمع البيان ، ج ١٠ ، ص ٤٣٧.

(٣) القلم ٦٨ : ٤.

(٤) آل عمران ٣ : ١٥٩.

(٥) عبس ٨٠ : ١.

(٦) تنزيه الأنبياء للسيد المرتضى ، ص ١١٨ - ١١٩ بتلخيص يسير.

(٧) الحجر ١٥ : ٨٨. مكّيّة ، رقم نزولها : ٥٤.

اتَّبِعْكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾. وغيرهما من آيات مكية جاء الدستور فيها بالخفض واللين والرافة مع المؤمنين ، فكيف يا ترى يتغافل النبي عن خلق كريم هي وظيفته بالذات ، ولا سيما مع السابقين الأولين من المؤمنين ، وبالأخص مع من ينتمي إلى زوجته الوفية خديجة الكبرى أم المؤمنين. (٢)

وقال الشيخ أبو جعفر الطوسي : ما ذكره سببا لنزول الآيات إنما هو قول لفيث من المفسترين وأهل الحشو في الحديث ، وهو فاسد ، لأن النبي ﷺ قد أجل الله قدره عن هذه الصفات ، وكيف يصفه بالعبوس والتقطيب وقد وصفه بالخلق العظيم واللين وأنه ليس بفظ غليظ القلب؟! وكيف يعرض النبي عن مسلم ثابت على إيمانه جاء ليتعلم منه ، وقد قال تعالى : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾؟! (٣) ومن عرف النبي وحسن أخلاقه وما خصه الله تعالى به من مكارم الأخلاق وحسن الصحبة ، حتى قيل : إنه لم يكن يصفح أحدا قط فينزع يده من يده حتى يكون ذلك هو الذي ينزع يده. فمن هذه صفته كيف يقطب وجهه في وجه أعمى جاء يطلب زيادة الإيمان. على أن الأنبياء ﷺ منزّهون عن مثل هذه الأخلاق وعمّا دونها ، لما في ذلك من التنفير عن قبول دعوتهم والإصغاء إلى كلامهم. ولا يجوز مثل هذا على الأنبياء من عرف مقدارهم وتبين نعتهم.

نعم ، قال قوم : إنّ هذه الآيات نزلت في رجل من بني امية كان واقفا إلى جنب النبي ، فلما أقبل ابن أم مكتوم تقدّر وجمع نفسه وعبس وتولّى. فحكى الله ذلك وأنكره معاتباً له. (٤)

قال الطبرسي : وقد روي عن الصادق عليه السلام : أنّها نزلت في رجل من بني امية كان عند النبي ، فجاء ابن أم مكتوم ، فلما رآه تقدّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه ، فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه.

قال : ولو صحّ الخبر الأوّل لم يكن العبوس ذنباً ، إذ العبوس والانبساط مع الأعمى

(١) الشعراء ٢٦ : ٢١٥ ، مكية ، رقم نزولها : ٤٧ .

(٢) تقدّم قريباً أنّه كان ابن خال خديجة رضوان الله عليها.

(٣) الأنعام ٦ : ٥٢ .

(٤) تفسير التبيان ، ج ١٠ ، ص ٢٦٨ . ٢٦٩ بتصرف يسير .

سواء ، إذ لا يرى ذلك فلا يشقّ عليه. فيكون قد عاتب الله سبحانه نبيّه بذلك ، ليأخذه بأوفر محاسن الأخلاق ، وينبّهه على عظيم حال المؤمن المسترشد ، ويعرّفه أنّ تأليف المؤمن ليقيم على إيمانه أولى من تأليف المشرك طمعا في إيمانه.

قال : وقال الجبائي : في هذا دلالة على أنّ الفعل إنّما يكون معصية فيما بعد لا في الماضي ، فلا يدلّ على أنّه كان معصية قبل النهي عنه. ولم ينهه ﷺ إلا في هذا الوقت.

وقيل : إنّ ما فعله الأعمى كان نوعا من سوء الأدب ، فحسن تأديبه بالإعراض عنه.

إلا أنّه كان يجوز أن يتوهم أنّه أعرض عنه لفقره ، وأقبل عليهم لرئاستهم تعظيما لهم ، فعاتبه الله على ذلك.

قال : وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : كان رسول الله ﷺ إذا رأى عبد الله بن أمّ مكتوم قال : مرحبا مرحبا ، لا والله لا يعاتبني الله فيك أبدا ، وكان يصنع به من اللطف حتى كان (ابن أمّ مكتوم) يكفّ عن النبيّ ممّا يفعل به ، ^(١) أي كان يمسك عن الحضور لديه استحياء منه.

قلت : الأمر كما ذكره هؤلاء الأعلام ، من أنّها فعلة لا تتناسب ومقام الأنبياء ، فكيف بنبيّ الإسلام المنعوت بالخلق العظيم؟! فضلا عن أنّ سياق السورة يأبى إرادة النبيّ في توجيه الملامة إليه. ذلك : أنّ التعابير الواردة في السورة ثلاثة «عبس» ، «تولّى» ، «تلهّى». الأوّلان بصيغة الغياب والأخيرة خطاب. على أنّ الأولين (عبس وتولّى) فعلاّن قصديّان (يصدران عن قصد وإرادة وعن توجّه من النفس). والأخير (تلهّى) فعل غير قصديّ (صادر لا عن إرادة ولا عن توجّه من النفس). فإنّ الإنسان إذا توجّه بكلّيّته إلى جانب فإنّه ملته عن الجانب الآخر ، على ما تقتضيه طبيعة النفس الإنسانية المحدودة ، لا يمكنه التوجّه إلى جوانب عديدة في لحظة واحدة! إنّما هو الله ، لا يشغله شأن عن شأن!

وهذا الفعل الأخير كان قد توجّه الخطاب . عتابا . إلى النبيّ ، لانشغاله بالنجوى مع القوم وقد ألماه ذلك عن الإصغاء لمسألة هذا الوارد ، من غير أن يشعر به.

فهذا ممّا يجوز توجيه الملامة إليه ﷺ : كيف يصرف بكلّ همّه نحو قوم هم ألداء ،

(١) مجمع البيان ، ج ١٠ ، ص ٤٣٧.

بحيث يصرفه عمّن يأتيه بين حين وآخر ، وهو نبيّ بعث إلى كافّة الناس.

وهو عتاب رقيق لطيف يناسب شأن نبيّ هو ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾. (١)

أمّا الفعلان الأوّلان فقد صدرا عن قصد وإرادة ، كانا قبيحين إلى حدّ بعيد. الأمر الذي يتناسب مع ذلك الأموي المترفع بأنفه المعتزّ بثروته وترفه في الحياة. وكان معروفاً بذلك.

وعليه فلا يمكن أن يكون المعنيّ بالفعل الثالث (غير العمدي) هو المعنيّ بالفعلين الأوّلين (العمديّين).

أسئلة مع أجوبتها لابن قتيبة

لأبي محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦) في كتابه «تأويل مشكل القرآن» عرض عريض لأسئلة طرحها من أهل الشبه وأجاد في أكثر أجوبته عليها بصورة فنيّة دقيقة ، رأينا إيرادها مع شيء من التوضيح وربما أضفنا من كلمات الآخرين لمزيد الفائدة.

عقد في كتابه بابا عنوانه «الحكاية عن الطاعنين» وجعله على ثلاثة فصول على حسب تنوّع الشبه ، وهي :

١ . شبهة وجوه القراءات هل توجب اختلافا في القرآن؟

٢ . دعوى وجود اللحن في القرآن.

٣ . موهم التناقض والاختلاف في القرآن.

وجعل الشبه كلّها في مقدّمة الباب ، ثم عبّها بالأجوبة والحلول على الترتيب. وقد رجّحنا تعقيب كلّ نوع شبهة بحلّها الوافي مباشرة ، لئلا يطول

على القارئ تلقّي الجواب عن شبهة عرضت عليه.

(١) التوبة ٩ : ١٢٨.

اختلاف القراءة هل يوجب اختلافًا في القرآن؟

قالوا : وجدنا الصحابة ومن بعدهم يختلفون في الحرف (أي القراءة) :

فابن عباس يقرأ «وَأَذْكُرْ بَعْدَ أَمَةٍ» ، وغيره يقرأ ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾. ^(١)

وعائشة تقرأ : ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ ، وغيرها يقرأ : ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾. ^(٢)

وأبو بكر يقرأ : «وجاءت سكرة الحق بالموت» ، والناس يقرءون : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾. ^(٣)

وقرأ بعض القرءاء (هو الأعرج) : «وأعتدت لهنّ متكاً» ، وقرأ الناس : ﴿وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَكًا﴾. ^(٤)

وكان ابن مسعود يقرأ : «إن كانت إلّا زقية واحدة» ويقرأ : «كالصوف المنفوش». والناس يقرءون : ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ^(٥) و ﴿كَالْعِهْنِ

الْمَنْفُوشِ﴾. ^(٦) مع أشباه لهذا كثيرة يخالف فيها مصحفه المصاحف القديمة والحديثة. وكان يحذف من مصحفه «أمّ الكتاب» ويمحو «المعوذتين» ويقول :

لم تزيدون في كتاب الله ما ليس فيه؟!

وابنّ يقرأ : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ (من نفسي فكيف أظهركم عليها). ^(٧) ويزيد في مصحفه افتتاح «دعاء القنوت» إلى قول الداعي :

«إِنَّ عَذَابَكَ بِالْكَافِرِينَ مُلْحَقٌ» ويعده سورتين من القرآن!

والقرءاء يختلفون ، فهذا يرفع ما ينصبه ذاك ، وذاك يخفض ما يرفعه هذا ... وأنتم تزعمون أنّ هذا كلّه كلام ربّ العالمين ، فأبّي شيء بعد هذا

الاختلاف تزيدون؟! ^(٨)

وهذا الإشكال بعينه أورده المستشرق الألماني «إجنتس جولد تسيهر». قال : «فلا

(١) يوسف ١٢ : ٤٥. انظر : شواذّ القراءات لابن خالويه ، ص ٦٤.

(٢) النور ٢٤ : ١٥. انظر : الشواذّ ، ص ١٠٠.

(٣) ق ٥٠ : ١٩. انظر : الشواذّ ، ص ١٤٤.

(٤) يوسف ١٢ : ٣١. انظر : الشواذّ ، ص ٦٣.

(٥) يس ٣٦ : ٢٩. انظر : الشواذّ ، ص ١٢٥.

(٦) القارعة ١٠١ : ٥. انظر : الشواذّ ، ص ١٧٨.

(٧) طه ٢٠ : ١٥. انظر : الشواذّ ، ص ٨٧.

(٨) راجع : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، ص ٢٤ . ٢٥.

يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافا عقديا على أنه نصّ منزل أو موحى به يقدم نصّه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات كما نجد في نصّ القرآن»^(١).

القرآن شيء والقراءات شيء آخر

هناك فرق فارق بين القرآن والقراءات ، حيث القرآن هو النصّ الموحى به من عند ربّ العالمين نزل به الروح الأمين على قلب سيّد المرسلين ، وهو الذي تعاهده المسلمون جيلا بعد جيل ، تلقّوه من الرسول تلقّيا مباشرا ، وتداولوه يدا بيد حتى حدّ التواتر المستفيض. لا اختلاف فيه ولا اضطراب منذ يومه الأوّل في مدى العصور وتعاقب الدهور. وهم على قراءة واحدة كان يقرأها النبيّ الكريم ﷺ وتداوله الأصحاب والتابعون لهم بإحسان وعلى أثرهم سائر الناس أجمعون.

أمّا القراءات فهي اجتهادات من القراء للوصول إلى ذلك النصّ الموحد ، ولكن طرائقهم هدّتهم إلى مختلف السبل فضلا على تنوّع سلاّتهم في سلوك المنهج القويم. فذهبوا ذات اليمين وذات الشمال ، كلّ يضرب على وتره.^(٢)

قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام : «القرآن واحد ، نزل من عند واحد. ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة»^(٣) يعني : أنّ الاختلاف حادث على أثر اختلاف نقلة النصّ وهم القراء.

ومن ثمّ قال الإمام بدر الدين الزركشي : القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان. فالقرآن هو الوحي المنزل على محمّد ﷺ ، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور ،

(١) راجع : مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسيهر تعريب عبد الحليم النجار ، ص ٤.

(٢) عدلنا عمّا ذكره ابن قتيبة بهذا الشأن ، لذهابه إلى جواز القراءة بكلّ هذه الوجوه ، استنادا إلى حديث الأحرف السبعة ، وقد نهّنا على أنّ الحديث إنّما يعني اللهجات دون القراءات السبع التي هي اجتهادات من القراء والتي توسّمت برسميتها بعد ثلاثة قرون. راجع : التمهيد ، ج ٢.

(٣) الكافي ، ج ٢ ، ص ٦٣٠ ، رقم ١٢.

في كتبة الحروف أو كيفيَّتها ^(١) أي الاختلاف الحاصل فيما بعد ، في كيفية كتابته أو كيفية قراءته.

* * *

على أنّ هذه الآثار إنّما نقلت نقلا بالإرسال ، وعلى فرض الإسناد وصحة السند فهي أخبار آحاد لا يثبت به القرآن ، المعتمد فيه النقل المتواتر القطعي نقلا على سعة الآفاق. وليس في سوى قراءة حفص ذات الإسناد الذهبي إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد ملأت الخافقين.

أما المنقول عن ابن عباس فلم يثبت وحاشاه أن يتعدّى قراءة شيخه ومولاه إمام المتّقين.

والمنقول عن عائشة لا اعتبار به. وهكذا جاءت قراءة أبي بكر قبيل وفاته في سكرة الموت. روى القرطبي بإسناده إلى مسروق ، قال : لما احتضر أبو بكر أرسل إلى عائشة ، فلمّا دخلت عليه قالت : هذا كما قال الشاعر :

لعمرك ما يغني الثراء ولا الغنى إذا حشـرجت يوما وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر : هلاّ قلت كما قال الله : «وجاءت سكرة الحقّ بالموت ذلك ما كنت منه تحيد».

قال القرطبي : هذه الرواية مرفوضة تجرى مجرى النسيان منه إن كان قالها ، أو الغلط من بعض من نقل الحديث. ^(٢)

وقراءة الأعرج شاذّة لا اعتداد بها.

وكان ابن مسعود يرى جواز تبديل النصّ بالأجلى من غير أن يجعله قرآنا أو يعتقدّه نصّا موحى به. وكان عمله هذا مرفوضا لدى المحقّقين.

والمنقول عن أبي ومثله عن ابن مسعود أيضا هي زيادات تفسيرية لغرض الإيضاح من غير أن يكون زيادة في النصّ أو تغيير في لفظ القرآن.

(١) البرهان ، ج ١ ، ص ٣١٨.

(٢) راجع : تفسير القرطبي ، ج ١٧ ، ص ١٢-١٣.

على أنّه لا حجّية في مزاعم اناس . مهما كانوا . ما لم تقع موضع قبول عامّة المسلمين فضلا عن رفضهم إيّاها ، كما وقع بالفعل .
قال ابن قتيبة : وأما نقصان مصحف عبد الله بحذفه «أمّ الكتاب» و «المعوذتين» ، وزيادة «إي» بسورتي القنوت ، فإنّنا لا نقول : إنّ عبد الله و أبيّا أصابا ، وأخطأ المهاجرون والأنصار . ولكن عبد الله ذهب فيما يرى أهل النظر إلى أنّ المعوذتين كانتا كالعوذة والرقية وغيرهما ، وكان رسول الله ﷺ يعوذ بهما الحسن والحسين ، ^(١) كما كان يعوذ ب «أعوذ بكلمات الله التامة» . ^(٢) فظنّ أنّهما ليستا من القرآن . وأقام على ظنّه وعلى مخالفة الصحابة جميعا ، كما في مواضع اخر خالف فيها جميع الأصحاب .

وإلى نحو هذا ذهب ايّ في دعاء القنوت ، لأنّه رأى رسول الله ﷺ يدعو به في الصلاة دعاء دائما ، فظنّ أنّه من القرآن ، وأقام على ظنّه وعلى مخالفة الصحابة .

قال : وأما «فاتحة الكتاب» فإنّي أشكّ فيما روي عن عبد الله من تركه إثباتها في مصحفه ، فإن كان هذا محفوظا فليس يجوز لمسلم أن يظنّ به الجهل بأنّها من القرآن . وكيف يظنّ به ذلك وهو من أشدّ الصحابة عناية بالقرآن؟!

ولكنّه ذهب فيما يظنّ أهل النظر ، إلى أنّ القرآن إنّما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشكّ والنسيان والزيادة والنقصان . ورأى ذلك لا يجوز على سورة الحمد لقصرها ولأنّها تنثني في كلّ صلاة . ولا يجوز لأحد من المسلمين ترك تعلّمها وحفظها . ^(٣)

قال سيّدنا الاستاذ طاب ثراه : إنّ تواتر القرآن لا يستلزم تواتر القراءات ، لأنّ الاختلاف في خصوصيات حادثة تاريخية . كالهجرة مثلا . لا ينافي تواتر نفس الحادثة . على أنّ الواصل إلينا بتوسّط القراء إنّما هو خصوصيات قراءاتهم ، وأما أصل القرآن فهو واصل إلينا بالتواتر بين المسلمين وينقل الخلف عن السلف وتحقّظهم عليه في الصدور

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، ج ٥ ، ص ١٣٠ ، من حديث زرّ بن حبیش .

(٢) أخرجه البخاري ، ج ٤ ، ص ١٧٩ ، في كتاب الأنبياء من حديث ابن عباس . وراجع : صحيح مسلم ، ج ٤ ، ص ٢٠٨٠ - ٢٠٨١ في كتاب الذكر والدعاء والاستغفار ، باب التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء . وسنن الدارمي ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ في الاستئذان . وسنن الترمذي ، ج ٤ ، ص ٣٩٦ ، في الطبّ . وسنن ابن ماجه ، ج ٢ ، ص ٣٥٩ ، باب ١٢٨٩ ، رقم ٣٥٨٦ . ومسند أحمد ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ، ص ٤٢ - ٤٩ .

وفي الكتابات ، ولا دخل للقراء بخصوصهم في ذلك أصلاً. ولذلك فإنّ القرآن ثابت بالتواتر ، حتّى لو فرضنا أنّ هؤلاء القراء لم يكونوا في عالم الوجود. إنّ عظمة القرآن ورفعة مقامه أعلى من أن تتوقّف على نقل أولئك النفر المحصورين.^(١)

موهم الاختلاف والتناقض زيادة على ما سبق

أورد ابن قتيبة قسماً من آيات نحلوا فيها التناقض والاختلاف ، ممّا قدمنا الكلام فيها والإجابة عليها ، وأضاف : قوله تعالى : ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ،^(٢) وهو يقول في موضع آخر : ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ. وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلٍ﴾.^(٣) وأجاب : إنّ في النار دركات ، والجنّة درجات ، وعلى قدر الذنوب والحسنات تقع العقوبات والمثوبات. فمن أهل النار من طعامه الرّقوم ، ومنهم من طعامه غسيل ، ومنهم من شربه الحميم ، ومنهم من شربه الصديد.

والضريع : نبت يكون بالحجاز ، يقال لوطبه : الشبرق ، لا يسمن ولا يشبع. قال امرؤ القيس :

فأتبعتهم طــــــرقي وقد حــــال دونهم غــــوارب رمل ذي ألاء وشــــبرق^(٤)

والعرب تصفه بذلك.

وغسلين : فعلين من غسلت ، كأنّه الغسالة. قال بعض المفسّرين : هو ما يسيل من أجساد المعدّين (كالقيح).

وهذا نحو قوله : ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ﴾.^(٥) وقرأ عيسى : سراويلهم من قطر آن.^(٦) والقطر : النحاس. والآن : الذي بلغ منتهى حرّه. (وقيل المذاب). كأنّ قوما يسربلون هذا ،

(١) البيان في تفسير القرآن للإمام الخوئي ، ص ١٧٤.

(٢) الغاشية ٨٨ : ٦.

(٣) الحاقة ٦٩ : ٣٥ و ٣٦.

(٤) ألاء . بوزن علاء . : شجر حسن المنظر مرّ الطعم دائم الاخضرار ، ينبت في الرمل والأودية ؛ ورقه وحمله دباغ.

(٥) إبراهيم ١٤ : ٥٠. والقطران : سيّال دهني يتقاطر من بعض الأشجار كالصنوبر.

(٦) شواذ ابن خالويه ، ص ٧٠.

وقوما يسريلون هذا ، ويلبسون هذا تارة ، وهذا تارة. ^(١)

وأما قولهم : «كيف يكون في النار نبت وشجر والنار تأكلهما؟!» فإنه لم يرد فيما يرى أهل النظر . والله أعلم . أنّ الضريع بعينه ينبت في النار ، ولا أتهم يأكلونه. والضريع من أقوات الأنعام لا من أقوات الناس . وإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع وهلكت هزلا . قال الهذلي . يذكر إبلا لم تشبع وهلكت هزلا . :
وحبســــن في هــــزم الضــــريع فكلّــــها حــــدباء داميــــة اليــــدين حــــرود ^(٢)

فأراد تعالى أنّ هؤلاء قوم يقتاتون ما لا يشبعهم وضرب الضريع مثلاً . أو يعدّون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع .
وقد يكون الضريع وشجرة الزقوم نبتين من النار ، أو من جوهر لا تأكله النار . وكذلك سلاسل النار وأغلالها وأنكالها وعقاربها وحيّاتها ، لو كانت كما نعلم لم تبق على النار . وإمّا دلّنا الله سبحانه على الغائب عنده بالحاضر عندنا . فالأسماء متّفقة للدلالة ، والمعاني مختلفة .
وما في الجنّة من شجرها وثمرها وفرشها وجميع آلاتها على مثل ذلك .

* * *

وقولهم : وأين قوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ من قوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؟ ^(٣) أيّ
رابطة بين الصبور الشكور وجريان الفلك في البحور؟

لكن لم يرد الله في هذا الموضع معنى الصبر والشكر خاصّة ، وإمّا أراد : إنّ في ذلك لآيات لكلّ مؤمن ، والصبر والشكر أفضل ما في المؤمن من
خلال الخير ، فذكره الله عزّجلّ في هذا الموضع بأفضل صفاته . وقال في موضع آخر : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

(١) هذا بناء على مذهبه في حجّية مختلف القراءات استنادا إلى حديث الأحرف السبع .

(٢) وفي اللسان : «حدباء بادية الضلوع حرود» . هزم الضريع : ما تكسّر منه . والحرود : التي لا تكاد تدرّ لبنا . وفي مقاييس اللغة مادة «ضرع» : «وتركن في هزم الضريع» .

(٣) لقمان ٣١ : ٣١ .

وقالوا في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ﴾ : (١) استثناءه المشيئة من الخلود يدلّ على الزوال ، وإلا فلا معنى للاستثناء. ثم قال : ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ﴾ أي غير مقطوع! وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٢) أي غير مقطوع ومن غير أذى ، فكيف التوفيق؟! قال ابن قتيبة في الإجابة على ذلك : إنّ للعرب في معنى «الأبد» ألفاظا يستعملونها في كلامهم ، يقولون : لا أفعل ذلك ما اختلف الليل والنهار ، وما طمى البحر أي ارتفع ماؤه وامتلاً ، وما أقام الجبل ، وما دامت السماوات والأرض ، في أشباه لهذا كثيرة ، يريدون : لا أفعله أبدا ؛ لأنّ هذه المعاني عندهم لا تتغيّر عن أحوالها أبدا ، فخطبهم الله بما يستعملونه ، فقال : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي مقدار دوامهما ، وذلك مدّة العالم.

وللسماء والأرض وقت يتغيّران فيه عن هيئتهما ، يقول الله تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾. (٣) ويقول : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾. (٤)

أراد أنّهم خالدون فيها مدّة العالم ، سوى ما شاء الله أن يزيدهم من الخلود على مدّة العالم. و «إلا» في هذا الموضع بمعنى «سوى». ومثله في الكلام : لأسكننّ في هذه الدار حولا إلا ما شئت ، تريد : سوى ما شئت أن أزيد على الحول. قال : هذا وجه. ووجه آخر ، وهو : أن يجعل دوام السماء والأرض بمعنى الأبد ، على ما تعرف العرب وتستعمل ، وإن كانتا قد تتغيّران. وتستثنى المشيئة من دوامهما ؛ لأنّ أهل الجنّة وأهل النار قد كانوا في وقت من أوقات دوام السماء والأرض في الدنيا ، لا في الجنّة. فكأثّه قال : خالدين في الجنّة وخالدين في النار دوام السماء والأرض ، إلا ما شاء ربك من تعميرهم في الدنيا قبل ذلك.

(١) هود ١١ : ١٠٨.

(٢) فصلت ٤١ : ٨.

(٣) إبراهيم ١٤ : ٤٨.

(٤) الأنبياء ٢١ : ١٠٤.

وفيه وجه ثالث ، وهو : أن يكون الاستثناء من الخلود مكث أهل الذنوب من المسلمين في النار ، حتّى تلحقهم رحمة الله وشفاعة رسوله ، فيخرجوا منها إلى الجنة. فكأنّه قال سبحانه : خالدين في النار ما دامت السماوات والأرض إلّا ما شاء ربك من إخراج المذنبين من المسلمين إلى الجنة وخالدين في الجنة ما دامت السماوات والأرض ، إلّا ما شاء ربك من إدخال المذنبين النار مدّة من المدد ثم يصيرون إلى الجنة. ^(١)

هذا ما ذكره ابن قتيبة بهذا الشأن ، والآيتان من مشكل القرآن ، على حدّ تعبير المفسّر الكبير أبي علي الطبرسي. وأفاد هو هنا وجوها لحلّ الإشكال نذكرها بالتالي ، ولنبدأ بالآيتين. بكاملتهما :

* * *

قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ. خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ. وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُوذٍ﴾. ^(٢)

فقد وقع الاستثناء بشأن كلّ من الأشقياء والسعداء ، أمّا الاستثناء بشأن الأشقياء فلا موضع للكلام فيه ، نظرا لأمرين :

أحدهما : أنّ هذا الاستثناء لم يقع بشأن المجموع من حيث المجموع ، بل بشأن الجميع حسب الأفراد ، فالجميع محكومون بالخلود في جهنّم إلّا ما شاء ربك بشأن بعضهم ، ولعلّهم الأكثر حسب مقتضى الذنوب التي ارتكبوها ولعلّها تقع موضع عفو ربهم الكريم.

ثانيهما : أنّ الشقاء إنّما هو في مرتبة الاقتضاء للخلود ، وليس علّة تامة. ومن ثمّ صحّ الاستثناء حسب مشيئة الربّ إذا تحققت أسبابه في حين.

هذا فضلا عن أنّ مخالفة الوعيد لا ضير فيه ولا حزاة فيه على الكريم.

(١) تأويل مشكل القرآن ، ص ٧٦ - ٧٨.

(٢) هود ١١ : ١٠٥ - ١٠٨.

إنما الكلام والإشكال وقوع الاستثناء بشأن السعداء حيث وعدهم بالخلود ، والكريم لا يخلف الميعاد.
قال الطبرسي : اختلف العلماء في تأويل هذا في الآيتين ، وهما من المواضع المشككة في القرآن. والإشكال فيه من وجهين : أحدهما : تحديد الخلود بمدة دوام السماوات والأرض. والآخر : معنى الاستثناء بقوله : ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.
فالأول فيه أقوال :
أحدها : أنَّ المراد ما دامت السماوات والأرض مبدلتين. أي ما دامت سماء الآخرة وأرضها ، وهما لا يفنيان إذا أعيدا بعد الإفناء. عن الضحَّاك والجبَّائي.

وثانيها : أنَّ المراد ما دامت سماوات الجنة والنار وأرضهما. وكلَّ ما علاك سماء وكلَّ ما استقرَّ عليه قدمك أرض. وهو قريب من الأول.
وثالثها : أنَّ المراد ما دامت الآخرة ، وهي دائمة أبدا. كما أنَّ دوام السماء والأرض في الدنيا قدر مدة بقائها. عن الحسن.
ورابعها : أنَّه لا يراد به السماء والأرض بعينهما ، بل المراد التباعد. فإنَّ للعرب ألفاظا للتباعد في معنى التأييد. يقولون : لا أفعل ذلك ما اختلف الليل والنهار ، وما دامت السماء والأرض ، وما نبت النبت ، وما أطَّت الإبل ، وما اختلف الجرَّة والدرة ، وما ذرَّ شارق ، وفي أشباه ذلك كثرة ، ظنَّا منهم أنَّ هذه الأشياء لا تتغيَّر ، ويرون بذلك التأييد لا التوقيت. فخطبهم الله سبحانه بالمتعارف من كلامهم على قدر عقولهم وما يعرفون.
قال عمرو بن معديكرب :

وكلَّ أخ مفارقةً له أخوه لعمري أبيعك إلا الفرقـدان
وقال زهير :

ألا لا أرى عـلَّ الحـوادث باقيةـا ولا خالـدا إلا الجبـال الرواسـيا
وإلا السـماء والنـجوم وربـتـها وأيـامنا معـدودة واللياليـا

لأنَّه توهم أنَّ هذه الأشياء لا تفنى ، وتخلد.
قلت : وهذا الوجه الرابع هو الرأي السديد حسب الظاهر.

وأما الكلام في الاستثناء فقد اختلف فيه أقوال العلماء على وجوه :

أحدها : أنه استثناء في الزيادة من العذاب لأهل النار ، والزيادة من النعيم لأهل الجنة . والتقدير : إلا ما شاء ربك من الزيادة على هذا المقدار (أي المضاعفة في العقوبة والمثوبة ، إضافة إلى جانب الخلود ، من أنواع العقوبة والنعيم).

وهذا كما يقول الرجل لصاحبه : لي عليك ألف دينار إلا الألفين اللذين أقرضتكهما وقت كذا . فالألفان زيادة على الألف بغير شك ، لأن الكثير لا يستثنى من القليل . عن الزجاج والفراء وعلي بن عيسى وجماعة .

وعلى هذا فيكون «إلا» بمعنى «سوى» . أي سوى ما شاء ربك . كما يقال : ما كان معنا رجل إلا زيد ، أي سوى زيد .

وثانيها : أن الاستثناء واقع على مقامهم في المحشر والحساب ، لأنهم حينئذ ليسوا في جنة ولا نار ، ومدة كونهم في البرزخ الذي هو ما بين الموت والحياة ، لأنه تعالى لو قال «خالدين فيها أبدا» ولم يستثن لظن الظان أنهم في النار والجنة من لدن نزول الآية أو من انقطاع التكليف . فحصل للاستثناء فائدة . عن المازني وغيره . واختاره البلخي .

فإن قيل : كيف يستثنى من الخلود في النار ما قبل الدخول فيها؟ فالجواب : أن ذلك جائز إذا كان الإخبار به قبل دخولهم فيها .

وثالثها : أن الاستثناء الأول يتصل بقوله : ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ . وتقديره : إلا ما شاء ربك من [سائر] أجناس العذاب الخارجة عن هذين الضربين ، ولا يتعلّق الاستثناء بالخلود . وفي أهل الجنة يتصل بما دلّ عليه الكلام ، فكأنه قال : لهم فيها نعيم إلا ما شاء ربك من أنواع النعيم . وإنما دلّ عليه قوله : ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ . عن الزجاج .

ورابعها : أن يكون «إلا» بمعنى الواو ، أي : وما شاء ربك من الزيادة . عن الفراء .

واستشهد على ذلك بقول الشاعر :

وأرى لها دارا بأغـدرة السـمـي	دان لم يـدرس لها رسـم
إلا رمـادا هامـدا رفـعت	عنـه الـرياح خوالـد سـحم ^(١)

(١) أغدرة السيدان : موضع . والحوالد : الأثافي ، وهي الأحجار الثلاثة التي يوضع عليها القدر . والسحم : السود .

قال : والمراد ب «إلا» هاهنا «الواو» ، وإلا كان الكلام متناقضا. وهذا الوجه قد ضعفه المحققون من النحاة.

وخامسها : أنّ المراد ب «الذين شقوا» من ادخل في النار من أهل التوحيد ، الذين ضمّوا إلى إيمانهم وطاعتهم ارتكاب المعاصي. فقال سبحانه :
 إنهم معاقبون في النار إلا ما شاء ربك من إخراجهم إلى الجنة وإثابتهم على الطاعات. ويجوز أن يريد ب «الذين شقوا» جميع الداخلين إلى جهنم ، ثمّ استثنى بقوله : ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أهل الطاعات. وقد يكون «ما» بمعنى «من» أي : إلا من شاء ربك.

وأما في أهل الجنة فهو استثناء بحسب ما تقدّمه في التّار. وتكون «ما» بمعناها ويكون الاستثناء من الزمان ، بخلاف الأول الذي كان استثناء من الأعيان. ويكون ﴿الَّذِينَ شَقُّوا﴾. بناء على هذا القول . هم الذين سعدوا بأعيانهم ، وإنّما أجرى عليهم كلّ لفظ في الحال التي تليق به. فإذا ادخلوا في النار وعوقبوا فيها فهم أهل الشقاء ، وإذا نقلوا منها إلى الجنة فهم أهل السعادة. وهذا قول ابن عباس وجابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وقتادة والسدي والضحاك وجماعة من المفسرين.

وروى أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس قال : ﴿الَّذِينَ شَقُّوا﴾ ليس فيهم كافر ، وإنّما هم قوم من أهل التوحيد يدخلون النار بذنوبهم ثمّ يتفصّل الله عليهم فيخرجهم من النار إلى الجنة ، فيكونون أشقياء في حال ، سعداء في حال أخرى.

قال الطبرسي : وهذا القول هو المختار المعوّل عليه.

وسادسها : أنّ تعليق ذلك بالمشيئة ، على سبيل التأكيد للخلود والتباعد للخروج ، لأنّ الله تعالى لا يشاء إلاّ تخليدهم على ما حكم به ، فكأنّته تعليق لما لا يكون بما لا يكون ، لأنّه لا يشاء أن يخرجهم منها.

وسابعها : أنّ الله سبحانه استثنى ثم عزم بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أنّه أراد أن يخلدهم. قاله الحسن.

وقريب منه ما قاله الزجاج وغيره : إنَّه استثناء تستثنيه العرب وتفعله ، كما تقول : والله لأضربنّ زيدا إلّا أن أرى غير ذلك ، وأنت عازم على ضربه. والمعنى في الاستثناء على هذا : أيّ لو شئت أن لا أضربه لفعلت.

وثامنها : أنّه يعني بقوله : ﴿إِلّا ما شاء ربُّك﴾ ما سبقهم به الذين دخلوا قبلهم من الفريقين. قاله يحيى بن سلام البصري ، واحتجّ بقوله تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾. ^(١) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾. ^(٢) قال : إنّ الزمرة تدخل بعد الزمرة ، فلا بدّ أن يقع بينهما تفاوت في الدخول. والاستثناء ان على هذا من الزمان.

وتاسعها : أنّ المعنى : خالدون في النار ، دائمون فيها مدّة كونهم في القبور ، ما دامت السماوات والأرض في الدنيا ، وإذا فنيّا وعدمنا انقطع عقابهم إلى أن يبعثهم الله للحساب ، وقوله : ﴿إِلّا ما شاء ربُّك﴾ استثناء وقع على ما يكون في الآخرة. أورده الشيخ أبو جعفر قدس الله روحه وقال : ذكره قوم من أصحابنا في التفسير.

وعاشرها : أنّ المراد : إلّا ما شاء ربك أن يتجاوز عنهم. والاستثناء يكون على هذا من الأعيان. وقال في الذين سعدوا : يتأتّى فيهم جميع الوجوه التي ذكرت في أهل الشقاء إلّا ما ذكره من جواز إخراج بعض الأشقياء من تناول الوعيد لهم وإخراجهم من النار. فإنّ ذلك لا يتأتّى هنا ، لإجماع الامة على أنّ من استحقّ الثواب فلا بدّ أن يدخل الجنة ولا يخرج منها بعد الدخول ، لقوله تعالى : ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ﴾ أي غير مقطوع. ^(٣)

* * *

قلت : والذي يترجّح في النظر أنّ مثل هذا التعليق على المشيئة في كلامه تعالى أمر عاديّ إذا ما لاحظنا شيمة الأكابر حيث لا يحتّمون على أنفسهم أمرا ليكون لزاما عليهم فيطالبوا بإنجازه وإن كانوا يوفون بما وعدوا كرامة وفضلا لا تكليفا وإلزاما. ومن ثمّ ترى

(١) الزمر ٣٩ : ٧١.

(٢) الزمر ٣٩ : ٧٣.

(٣) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ١٩٤ . ١٩٦ مع تصرّف يسير.

أنّ أكثر وعوده تعالى التي جاءت في القرآن كانت بصورة خلق الرجاء في نفوس الموعود لهم ، مبدوءة بلفظة «لعلّ» و «عسى» ونحوهما ، ممّا يجعل الإنجاز معلّقا على مشيئته واقتضاء حكمته وليس حتما عليه في ظاهر الوعد وإن كان الله يفي بما وعد فضلا ومنّة ولا يخلف الميعاد.

يقول تعالى مخاطبا لنبيّه : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى. إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. ^(١) فقد تلقاه النبيّ وعدا حتما وإن كان بصورة التعليق على المشيئة.

وقال : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾. ^(٢) فهو وعد بمقام الشفاعة ، ولسوف يعطيه ربّه فيرضى. ^(٣) وإن

كان الوعد وقع ظاهرا بصورة خلق الرجاء.

وقال بشأن المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا : ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً﴾. ^(٤) فأولئك معفو

عنهم لا محالة ، ومن ثمّ جاء التعقيب بأنّه تعالى عفو غفور. غير أنّ الوعد وقع ظاهرا بصورة خلق الرجاء دون الحتم الإلزامي.

وقال : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. ^(٥) لا شكّ أنّه تعالى سيرحم أولئك الذين اتّبعوا الكتاب واتّقوا ، لكنّ الوعد

وقع بغير صورة الحتم عليه تعالى. والآيات من هذا القبيل كثيرة.

* * *

والتعليق على المشيئة بشأن خلود الأشقياء في النار والسعداء في نعيم الجنان من هذا القبيل ، حتّى لا يكون لزاما عليه تعالى فيما أوعد أو وعد ،

ومن ثمّ عبّ المشيئة بشأن الأشقياء بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَاعِلٌ لِمَا يُرِيدُ﴾. يعني : وإن كان الإيعاد بالخلود وقع بشأنهم حسب

(١) الأعلى ٨٧ : ٦ و ٧.

(٢) الإسراء ١٧ : ٧٩.

(٣) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى الضحى ٩٣ : ٥.

(٤) النساء ٤ : ٩٩.

(٥) الأنعام ٦ : ١٥٥.

اقتضاء حالتهم هم ولكن الله يفعل ما يشاء حسب حكمته وإرادته وليس شيء حتما عليه ما دامت الحكمة هي الحاكمة على فعاله تعالى وتقدّس ، وإرادته تعالى هي الساطية على تدبير عالم الوجود دنيا وآخره ، لا رادّ لقضائه.

وبذلك أشار في قوله تعالى : ﴿قَالَ النَّارُ مُنْوَكُمُ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾^(١) فأوعدهم بالخلود. لكنّ الوعيد ليس لازما عليه ما دام الله يفعل ما يشاء وفق حكمته وعلمه القديم.

لكنّه تعالى أكّد وعده بشأن السعداء أن سيدوم لهم النعيم ولو تغيّرت المشيئة بالبقاء في الجنّة فرضا ليطمئنّوا على ثقة من دوام عنايته تعالى بهم أبدا. فهؤلاء واولئك خالدون حيث هم ، ما دامت السماوات والأرض . وهو تعبير يلقي في الذهن صفة الدوام والاستمرار حسب الاستعمال الدارج.^(٢) وقد علّق السياق هذا الاستمرار بمشيئة الله في كلتا الحالتين. وكلّ قرار وكلّ سنّة معلّقة بمشيئة الله في النهاية. فمشيئة الله هي التي اقتضت السنّة وليست مقيدة بها ولا محصورة فيها. إنّما هي طليقة تبدّل هذه السنّة حين يشاء الله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وزاد السياق في حالة الذين سعدوا ما يطمئنّهم إلى أنّ مشيئة الله اقتضت أن يكون عطاؤه لهم غير مقطوع ، حتّى على فرض تبديل إقامتهم في الجنّة. وهو مطلق فرض يذكر لتقرير حرّية المشيئة بعد ما يوهم التقييد.^(٣)

* * *

وقوله تعالى : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾.^(٤) «إلا» هو بمعنى «سوى» مثلها في قوله : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.^(٥) يريد سوى ما سلف في الجاهلية قبل النهي. فالمعنى في الآية الاولى : أنّهم لا يذوقون الموت بعد موتهم

(١) الأنعام ٦ : ١٢٨.

(٢) وللتعبيرات ظلال ، وظلّ هذا التعبير هنا هو المقصود.

(٣) راجع : في ظلال القرآن ، المجلّد ٤ ، ص ٦٢٧ ، ج ١٢ ، ص ١٤١.

(٤) الدخان ٤٤ : ٥٦.

(٥) النساء ٤ : ٢٢.

الأول. (١)

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾. (٢) قالوا : ليس الودّ ممّا يجعل ، وإنما هو شيء يحصل في القلب. فلا يقال : يجعل لك حبّا ، بل يقال : يحبّك.

والجواب : أنّ المراد جعل الودّ أي خلقه في قلوب المؤمنين. قال ابن قتيبة : فإنّه ليس على تأوّلهم ، وإنما أراد أنّه يجعل لهم في قلوب العباد محبة. فأنت ترى المخلص المجتهد محبّا إلى البرّ والفاجر ، مهيبا مذكورا بالجميل. ونحوه قوله تعالى في قصّة موسى عليه السلام : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾. (٣) لم يرد في هذا الموضع أيّ أحببتك وإن كان يحبه. وإنما أراد أنّه حبّه إلى القلوب وقربه من النفوس. فكان ذلك سببا لنجاته من فرعون ، حتّى استحياه في الوقت الذي كان يقتل فيه ولدان بني إسرائيل. (٤)

* * *

وقالوا في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾. (٥) السبات هو النوم ، فكيف يجعل نومنا نومًا؟

لكن السبات هاهنا ليس بمعنى النوم ، بل هو بمعنى الراحة ، أي جعلنا النوم راحة لأبدانكم. ومنه قيل : يوم السبت ، لأنّ الخلق اجتمع في يوم الجمعة ، وكان الفراغ منه يوم السبت. فقيل لبني إسرائيل : استريحوا في هذا اليوم ولا تعملوا شيئا ، فسُمّي يوم السبت أي يوم الراحة. وأصل السبت التمديد ، ومن تمّدّد فقد استراح. ومنه قيل : رجل مسبوت. ويقال : سببت المرأة شعرها : إذا نقضته من العقص وأرسلته. قال أبو وجزة السعدي :

وإن سببتّه مــــال جــــثلا كأثــــه ســــدى وأثــــلات مــــن نواســــج خثعمــــا (٦)

(١) تأويل مشكل القرآن ، ص ٧٨.

(٢) مريم ١٩ : ٩٦.

(٣) طه ٢٠ : ٣٩.

(٤) تأويل مشكل القرآن ، ص ٧٩.

(٥) النبأ ٧٨ : ٩.

(٦) الجثل هنا بمعنى : المنثور المتفتّت ، من جثلته الريح : إذا استخففته فنثرته. والسدى : خيوط تنسجها النساء بالمغزل. والوائلات : الناسجات. تأويل مشكل القرآن ، ص ٨٠.

مطاعن ردّ عليها قطب الدين الراوندي^(١)

عقد في كتابه القيم «الخرائج والجرائح» باباً ردّ فيه على مطاعن المخالفين في القرآن ، ^(٢) وهو بحث موجز لطيف وتحقيق واف دقيق ذو فوائد جمّة نوره هنا بالمناسبة : قالوا : إنّ في القرآن تفاوتاً ، كقوله : ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾. ^(٣) ففي هذا تكرير بغير فائدة فيه ، لأنّ قوله «قوم من قوم» يغني عن قوله : «نساء من نساء». فالنساء يدخلن في قوم. يقال : هؤلاء قوم فلان ، للرجال والنساء من عشيرته!

الجواب : إنّ «قوم» لا يقع في حقيقة اللغة إلّا على الرجال. ولا يقال للنساء التي ليس فيهنّ رجل : هؤلاء قوم فلان. وإتّما سمّي الرجال قوماً ، لأنّهم القائمون بالأمور عند الشدائد. ويدلّ عليه قول زهير :

ومــــا أدري وســــوف إــــخــــال أدري أقــــوم آل حصــــن أم نســــاء

وقالوا في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾^(٤) تفاوت (أي تهافت) كيف تكون العيون في غطاء عن الذكر؟ وإتّما المناسب أن تكون الأسماع في غطاء عن الذكر!

الجواب : إنّ الله أراد بذلك عميان القلوب ، وعمى القلب كناية عن عدم وعي الذكر ، يقال : عمى قلب فلان ، وفلان أعمى القلب ، إذا لم يفهم ولم يع ما يلقي إليه من الذكر الحكيم. ومن ثمّ جاء تعقيب الآية بقوله : ﴿وَكَانُوا لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا﴾.

قال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا

(١) هو أبو الحسن سعيد بن هبة الله المشتهر بالقطب الراوندي ، نسبتا إلى راوند من قرى كاشان قائمة إلى اليوم. عالم متبحر ومحدّث فقيه من أعظم علماء الإمامية في القرن السادس (توفي سنة ٥٧٣) هو من مشايخ ابن شهر آشوب وغيره من أكابر أعيان العلماء في وقته. له مصنّفات جليلة ، منها : الخرائج والجرائح. وقصص الأنبياء ، ولبّ اللباب ، وشرح نهج البلاغة ، وبحقّ أسمائه «منهاج البراعة».

(٢) أورده بكامله المجلسي في البحار ، ج ٨٩ ، ص ١٤١ . ١٤٦ .

(٣) الحجرات ٤٩ : ١١ .

(٤) الكهف ١٨ : ١٠١ .

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿١﴾ .

فأعين القلب إذا كانت في غطاء فإنّ الآذان حينذاك لا تسمع والأبصار لا تبصر ، لأنّ القلب لا يعي .

بصر القلوب وعمائها هو المؤثّر في باب الدين ، إمّا وعيا أو غلقا . قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ . (٢) والأكنّة : الأغطية .

فكان غطاء التعامي في القلوب هو العامل المؤثّر في عدم سماع الآذان وعدم إبصار العيون .

وقالوا في قوله تعالى : ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ : (٣) ما نسبة الكتاب من علم الغيب؟. ثم إنّ فريش كانوا أمّيين فكيف فرضهم يكتبون؟

الجواب : إنّ معنى الكتابة هنا الحكم . يريد : أعندهم علم الغيب فهم يحكمون . ومثله قول الجعدي :

ومــال الــولاء فمــلــتم ومــا ذاك حــكم الله إذ هــو يــكتب

(أي يحكم) . ومثله قوله الآخر . على ما استشهد به الجوهري في الصحاح :

يا ابنــة عمــي كــتاب الله أخــرجني عــنكم وهــل أمــنعنّ الله مــا فــلا

وقال ابن الأعرابي : الكاتب عندهم ، العالم . قال تعالى : ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ أي يعلمون . (٤)

وقالوا في قوله تعالى : ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ. كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ : (٥) كيف هذا التنظير ولا تناسب بين

الكلامين ، ولا وجه شبه لهذا التشبيه؟! وهكذا في قوله تعالى : ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ. كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ . (٦) ما وجه هذا التشبيه؟

(١) الحجّ ٢٢ : ٤٦ .

(٢) الأنعام ٦ : ٢٥ .

(٣) الطور ٥٢ : ٤١ ، القلم ٦٨ : ٤٧ .

(٤) راجع : الصحاح للجوهري ، مادّة «كتب» ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(٥) الحجر ١٥ : ٨٩ . ٩١ .

(٦) الأنفال ٨ : ٤ و ٥ .

وكذا قالوا في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾. ^(١)

الجواب : إنّ القرآن نزل على لسان العرب ، وفيه حذف وإيماء ، ووحى وإشارة. فقولهُ : ﴿أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ فيه حذف ، كأنّه قال : أنا النذير المبين عذابا ، مثل ما أنزل على المقتسمين. فحذف العذاب ، إذ كان الإنذار يدلّ عليه. كقولهُ في موضع : ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. ^(٢)

وأما قوله : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ فإنّ المسلمين يوم بدر اختلفوا في الأنفال ، وجادل كثير منهم رسول الله ﷺ فيما فعله في الأنفال. فأنزل الله سبحانه : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (يجعلها لمن يشاء) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (أي فرقوها بينكم على السواء) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (فيما بعد) ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. ^(٣)

ثم يصف المؤمنين ، ويعدّه يقول : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾. يعني : إنّ كراهِتهم الآن في الغنائم ككراهِتهم يوم ذاك في الخروج معك.

وأما قوله : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. كَمَا أَرْسَلْنَا...﴾ ، فإنّه أراد : ولأتمّ نعمتي عليكم كإرسالي فيكم رسولا أنعمت به عليكم بيّن لكم ... ^(٤)

* * *

سألوا عن قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾. ^(٥) وهم لم يقولوا بذلك!؟

الجواب : إنّها نسبة تشريفيّة تفخيما لمقامهما وتعظيما لشأهما لديه تعالى. فإذا كان العبد منعما بتربية صالحة ومورد عناية بالغة منه تعالى شاع في الأوائل نسبة بنوّته له سبحانه ، كما هي العادة عند العرب في المترّي تربية صالحة نسبته إلى المرّي نسبة الولد إلى والده الكريم.

(١) البقرة ٢ : ١٥٠ و ١٥١.

(٢) فضّلت ٤١ : ١٣.

(٣) الأنفال ٨ : ١.

(٤) الخرائج والجرائح ، ج ٣ ، ص ١٠١٠-١٠١٣ بتصرف وتوضيح.

(٥) التوبة ٩ : ٣٠.

قالوا : الآباء ثلاثة : أب ولَدك ، ^(١) وأب زَوْجك ، وأب علّمك.

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بشأن محمّد بن أبي بكر : محمّد ابني من صلب أبي بكر. أي تربيته وخاصّتي.

ويقال : لكلّ منتسب إلى شيء : ابنه. كما في أبناء الدنيا ، وأبناء بلد كذا ، وهكذا أبناء الإسلام وأبناء الحمية ونحو ذلك ممّا هو متعارف.

وقال سحيم بن وثيل الرياحي :

أنا ابن جــــــــــــــــلا وطــــــــــــــــلاع الثــــــــــــــــايا مــــــــــــــــتى أضــــــــــــــــع العمامــــــــــــــــة تعرفــــــــــــــــوني

ينتسب إلى جلاء الامور والكشف عن خباياها ، والتطلّع على الجبال والتلال ..

وفي خطبة الإمام السجّاد عليه السلام بجامع دمشق : «أيها النّاس ، أنا ابن مكّة ومنى ، أنا ابن زمزم والصفاء...». ^(٢)

وكذا فيما حكاه الله تعالى عن اليهود والنصارى في قولهم : ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾. ^(٣) أي أخصّاءه والمتقرّبون لديه.

قال الراوندي : وإنّما خصّصوا عزيزا بكونه ابن الله لأنّه هو الذي أعاد عليهم الحياة الدينية بعد خلاصهم من أسر بابل ، وكتب لهم التوراة بعد ضياعها

في كارثة بخت نصر ، فكان موضعه لدى اليهود موضع نبيّ الله موسى عليه السلام ، ولولاه لصاعت شريعة اليهود وذهبت معالم إسرائيل أدراج الرياح.

وعزير هذا هو : عزرا بن سرايا بن عزريا بن حلقيا. ^(٤) وقد صغّره العرب وعزّيته على عادتهم في تعريب الأسماء وتغييرها ، كما غيّروا «يسوع»

بعيسى .

كان «عزرا» معاصرا للملك الهخامنشي «أرت خستر اردشير أوّل» الملقّب ب «دراز دست» والذي تزعم الملك بعد أبيه «خشيارشا» سنة ٤٦٥

ق. م. ^(٥) وفي السنة السابعة لملكه (٤٥٨ ق. م) بعث الكاتب المضطلع «عزرا» مع جماعة من اليهود ، الذي اطلقوا من ذي قبل من أسر بابل ، إلى

«أورشليم» وجّهّزهم بالمال والعتاد ، وأمره أن يعمر

(١) ولّده . بتشديد اللام . رتاه . وبالتخفيف : كان سبب ولادته.

(٢) بحار الأنوار ، ج ٤٥ ، ص ١٣٨.

(٣) المائدة ٥ : ١٨.

(٤) راجع : سفر عزرا ، إصحاح ٧.

(٥) تاريخ إيران لحسن بيژنيا ، ص ٩٩.

البيت ويحيي شريعة الله من جديد. وأرسل معه كتابا فيه الدستور الكامل لإعادة شريعة بني إسرائيل وإحياء مراسيم شعائهم ، وأن يعيّن حكّاما وقضاة ، ويعمر البلاد حسب شريعة السماء. ^(١)

جاء في دائرة المعارف اليهودية الإنجليزية (طبعة ١٩٠٣ م) أنّ عصر عزرا هو ربيع التاريخ للامة اليهودية الذي تفتّحت فيه أزهاره وعبق شذا أوراده ، وأنّه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة لو لم يكن جاء بها موسى. فقد كانت نسيت ولكن عزرا أعادها وأحيّاها. ^(٢) ولذلك يقول «عزرا» شاكرًا لله تعالى : «مبارك الربّ إله آبائنا الذي جعل مثل هذا في قلب الملك لأجل تزيين بيت الربّ الذي في اورشليم ، وقد بسط عليّ رحمة أمام الملك ومشيريه وأمام جميع رؤساء الملك المقتدرين ...». ^(٣) الأمر الذي جعل من «عزرا» مكانته الشاحنة في بني إسرائيل ، ولقبوه بابن الله ، تكريما لمقامه الرفيع.

وجملة القول : أنّ اليهود وما زالوا يقدّسون «عزيرا» هذا ، وأدّى هذا التقديس إلى أن يطلقوا عليه لقب «ابن الله» تكريما. ولعلّه وفي الأدوار اللاحقة زعم بعضهم أنّه لقب حقيقي ، كما نقل عن فيلسوفهم «فيلو» . وهو قريب من فلسفة وثنيي الهند التي هي أصل عقيدة النصارى . كان يهوديًا من الإسكندرية ومعاصرا للمسيح عيسى عليه السلام . كان يقول : إنّ الله ابنا هو كلمته التي خلق منها الأشياء. ومنه اتخذ النصارى هذا اللقب للمسيح عيسى عليه السلام .

قال الشيخ محمد عبده : فعلى هذا لا يبعد أن يكون بعض المتقدمين على عصر البعثة المحمّدية قد قالوا : إنّ عزيرا ابن الله بهذا المعنى. ^(٤)

قال الطبرسي : قيل : وإنّما قال ذلك جماعة من قبل وقد انقرضوا. ^(٥) وهكذا قال الراوندى : قالت طائفة من اليهود : عزير ابن الله. ولم يقل ذلك كلّ اليهود. وهذا خصوص خرج مخرج العموم. ^(٦)

(١) راجع : سفر عزرا ، إصحاح ٧ / ٢٦-٨.

(٢) تفسير المنار ، ج ١٠ ، ص ٣٢٢.

(٣) سفر عزرا ، إصحاح ٧ / ٨-٧.

(٤) تفسير المنار ، ج ١٠ ، ص ٣٢٦ و ٣٢٨.

(٥) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٢٣.

(٦) الخرائج والجرائح ، ج ٣ ، ص ١٠١٤.

وقد روي عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك بن الصيف . من وجوه يهود المدينة . فقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ولا ترى عزيرا ابنا لله وقد أعاد علينا التوراة بعد الاندراش وأحيا شريعتنا بعد الانطماس؟! ^(١) ومع ذلك : فإنّ القرآن ينسب إليهم هذا القول تعنتا وجدلا منهم ، وليس على حقيقته : ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾. ^(٢) حيث نسبوا إلى الله البنات وزعموا أنّ الملائكة إناثا ، قولاً بلا هوادة ، وعقيدة من غير مستند.

قال محمد عبده : وقد جرى اسلوب القرآن على أن ينسب إلى أمة أو جماعة أقوالا وأفعالا مستندة إليهم في جملتهم ، وهي ممّا صدر عن بعضهم. والمراد من هذا الأسلوب تقرير أنّ الأمة تعدّ متكافلة في شئونها العامة ، وأنّ ما يفعله بعض الفرق أو الجماعات أو الزعماء يكون له تأثير في جملتها ، وأنّ المنكر الذي يفعله بعضهم إذا لم ينكر عليه جمهورهم ويزيلوه يؤاخذون به كلّهم. قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾. ^(٣) وهذا من سنن الاجتماع البشري أنّ المصائب والرزايا التي تحلّ بالأمم بفشوّ المفاسد والرذائل فيها لا تختصّ الذين تلبّسوا بتلك المفاسد وحدهم ، كما وأنّ الأوبئة التي تحدث بكثرة الأقدار في الشعب وغير ذلك من الإسراف في الشهوات تكون عامّة أيضا. ^(٤)

* * *

قال الراوندي : وسألوا عن قوله تعالى : ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾. ^(٥) قالوا : كيف جمع الله بينه وبين قوله : ﴿لَوْ لَا أَنْ تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾؟ ^(٦) وهذا خلاف الأوّل ، لأنّه قال أولا : «نبدناه» مطلقا ، ثمّ قال : «لو لا أن تداركه لنبد بالعراء» فجعله شرطا!

(١) جاء ذلك في حديثين عن ابن عباس ، نقلهما الطبري في التفسير ، ج ١٠ ، ص ٧٨.

(٢) التوبة ٩ : ٣٠.

(٣) الأنفال ٨ : ٢٥.

(٤) تفسير المنار ، ج ١٠ ، ص ٣٢٦ . ٣٢٧.

(٥) الصافات ٣٧ : ١٤٥.

(٦) القلم ٦٨ : ٤٩.

الجواب : معنى ذلك : لو لا أنّا رحمناه بإجابة دعائه لنبذناه حين نبذناه بالعراء مذموما ... فالآية الثانية لا تنفي النبذ بل تنفي النبذ في حالة كونه مذموما. فلا تنافي بين الآيتين.

قال : وسألوا عن قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ﴾. ^(١) في حين أنّ اسم أبيه في التوراة تارح. قال : والصحيح أنّ آزر ما كان أبا لإبراهيم. وقد ذكرنا في موضعه أنّ آزر كان عمّا له ، ويقال : إنّهُ تزوّج بأمّ إبراهيم بعد موت أبيه تارح ، فكان إبراهيم ربيبه وابن أخيه. واستعمال الأب في مثل هذا متعارف.

قال : وسألوا عن قوله : ﴿وَلْيُتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾. ثمّ قال : ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾. ^(٢) وهذا يدلّ على أنّ غيره لا يعلم بمدة لبثهم ، في حين أنّه أعلمنا بذلك في الآية الاولى!

الجواب : أنّ هذا ردّ على اختلافهم في مدّة اللبث حيث لا علم لهم بذلك. ولذلك بيّنها وأعلمهم بها. وهذا يدلّ على حصر العلم بذلك على الله لا غيره. (وسوف نذكر أنّ الآية نقل لقولهم ، فهو مقول لهم وليس منه تعالى).

قال : وسألوا عن قوله تعالى : ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾. ^(٣) ولم يكن لها أخ بهذا الاسم! وقد استوفينا الكلام في ذلك ، وأنّه لم يرد الاخوة في النسب ، بل الانتساب إلى قبيل هارون ، حيث كانت من أحفاده ، كما يقال : يا أختا كليب. وهو متعارف.

قال : وسألوا عن التكرار في سورتي الرحمن والمرسلات ، وكذا التكرار في بعض القصص التي جاءت في القرآن. قالوا : أليس التكرار يخلّ بفصاحة الكلام؟

لكن التكرير ، سواء أكان في المعنى ، نحو : أطعني ولا تعصني. أم في اللفظ والمعنى معا نحو : عجل عجل ، فإنّما هو للتأكيد والمبالغة. وقد يزيد تزيينا في الكلام وروعة بالغة. وإنّما ذمّ أهل البلاغة التكرار الواقع فضلا في الكلام ممّا لا فائدة فيه ، فهو من اللغو الذي يتحاشاه الكلام البليغ.

(١) الأنعام ٦ : ٧٤.

(٢) الكهف ١٨ : ٢٥ و ٢٦.

(٣) مريم ١٩ : ٢٨.

انتهى ما أردنا نقله من كتاب الخرائج والجرائح للراوندي ، وربما عمدنا إلى النقل بالمعنى أو مع يسير من إضافات أو تغييرات للاستزادة من الإيضاح.^(١)
أما التكرار في القصص فقد ذكرنا : ^(٢) أنها في كلّ مرّة تهدف نكتة غير التي جاءت في غيرها. ومن ثمّ فإنّها ليست بتكرار في حقيقتها.

(١) الخرائج والجرائح ، ج ٣ ، ص ١٠١٤-١٠١٧. وراجع : البحار ، ج ٨٩ ، ص ١٤١-١٤٦.

(٢) راجع : التمهيد ، ج ٥.

الباب الرابع

هل هناك في القرآن مخالفات

مع العلم أو التاريخ أو الأدب؟

حاشاه :

﴿فَرَأَيْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ الزمر : ٢٨

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ الكهف : ٥

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ البقرة : ١٧٦

مخالفات علمية؟!

هل هناك في القرآن ما يخالف العلم؟

﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾. ^(١)

زعموا أنّ في القرآن ما يخالف العلم واتّخذوه شاهدا على أنّه ليس من كلام الله العالم بحقائق الامور ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾. ^(٢)
ولنضع اليد على موارد زعموا فيها الخلاف :

ومن كلّ شيء خلقنا زوجين

قالوا : ومن الأحياء ما ليس له زوج كالحلّايا والحيوانات الابتدائية والديدان تتكاثر من غير ما حصول لقاح جنسي ، وهكذا بعض الثمار تنعقد من غير لقاح ومن غير أن يكون فيها ذكر وأنثى!
لكنّها شبهة فارغة وحسبان عقيم :

(١) الجاثية ٤٥ : ٢٤ .

(٢) النساء ٤ : ١٦٦ .

أولاً : ليست في الآية صراحة بمسألة الزوجية من ذكر واثني (اللقاح الجنسي) حسب المتبادر إلى الأذهان. فلعلّ المراد : التزاوج الصنفي أي المتعدّد من كلّ صنف ، كما في قوله تعالى : ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾^(١) أي صنفان كناية عن التعدّد من أصناف متماثلة ، ذلك لأنّ الفاكهة ليس فيها ذكر واثني وليس فيها لقاح. إنّما اللقاح في البذرة لا الثمرة.

ومثله قوله تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾. ^(٢) أي صنفين متماثلين. والثمرة نفسها ليس فيها تزاوج جنسي. وكذلك الآية : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾^(٣) لعلّها كاختيها أريد بها الصنفان من كلّ نوع ، كناية عن التماثل في تعدّد الأشكال والألوان. كما في قوله سبحانه : ﴿الرَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾^(٤) أي متماثلاً وغير متماثل.

وإطلاق لفظ التزاوج وإرادة التماثل والتشاكل في الصنف أو النوع غير عزيز. قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾^(٥) أي من كلّ نوع متشاكل. وقوله : ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾. ^(٦) قال الراغب : أي أنواعاً متشابهة. وقوله : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾^(٧) أي أصناف.

وقد يراد بالزوج القرين أي المصاحب المرافق في أمر له شأن. قال الراغب : يقال لكلّ قرينين في الحيوانات المتزاوجة وغيرها : زوج. ولكلّ ما يقتن باخر مماثلاً له أو مضاداً : زوج. قال تعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾^(٨) أي قرناءهم ممّن تبعوهم. ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾^(٩) أي أشباهها وقرناء. ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً﴾^(١٠) أي قرناء ثلاثة. وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾^(١١) فقد قيل في معناه : قرن كلّ شيعة بمن شايعهم. ^(١٢)

-
- (١) الرحمن ٥٥ : ٥٢ .
 (٢) الرعد ١٣ : ٣ .
 (٣) الذاريات ٥١ : ٤٩ .
 (٤) الأنعام ٦ : ١٤١ .
 (٥) الشعراء ٢٦ : ٧ .
 (٦) طه ٢٠ : ٥٣ .
 (٧) الزمر ٣٩ : ٦ .
 (٨) الصافات ٣٧ : ٢٢ .
 (٩) الحجر ١٥ : ٨٨ .
 (١٠) الواقعة ٥٦ : ٧ .
 (١١) التكوير ٨١ : ٧ .
 (١٢) المفردات ، ص ٢١٥ و ٢١٦ .

وهكذا ذكر المفسرون القدامى وهم أعرف وأقرب عهدا بنزول القرآن ومواقع الكلام الذي خاطب به العرب آنذاك.
قال الحسن . في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ . : السماء زوج والأرض زوج ، والشتاء زوج والصيف زوج ، والليل زوج والنهار زوج ، حتى يصير إلى الله الفرد الذي لا يشبهه شيء. (١)

وعن قتادة . في قوله تعالى : ﴿قُلْنَا اِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ . (٢) قال : من كل صنف اثنين.
قال الطبري : وقال بعض أهل العلم بكلام العرب من الكوفيين : الزوجان . في كلام العرب . الاثنان . قال : ويقال : عليه زوجا نعال إذا كانت عليه نعلان . ولا يقال : عليه زوج نعال . وكذلك : عنده زوجا حمام ، وعليه زوجا قيود . قال : ألا تسمع إلى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (٣) فإثما هما اثنان .

قال : وقال بعض البصريين من أهل العربية . في قوله : ﴿قُلْنَا اِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ . : جعل الزوجين الضربين الذكور والإناث . قال : وزعم يونس أن قول الشاعر :

وَأَنْتِ امْرُؤٌ تَعْدُو عَلَى كُلِّ غُرَّةٍ فَتَخْطُ فِيهِمَا مَرَّةً وَتَصِيبُ (٤)

يعني به (بالمرء) الذئب . وهذا أشد من ذلك (أي إطلاق المرء على الذئب أشد من إطلاق الزوج على كل ذي صنف).

وقال آخر : الزوج اللون ، وكل ضرب يدعى لونا ، واستشهد بيت الأعشى :

وَكُلَّ زَوْجٍ مِّنَ الدِّيَاجِ يَلْبَسُهُ أَبُو قَدَامَةَ مُحِبُّوْ بِذَلِكَ مَعَا (٥)

وقال لبيد :

وَذِي بَهْجَةٍ كَمَقَانِيبِ صَوْتِهِ وَزَيْتُهُ أَزْوَاجُ نَمَرٍ مَشْرَبٍ (٦)

(١) جامع البيان ، ج ١٢ ، ص ٢٦ ذيل الآية ﴿قُلْنَا اِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ هود ١١ : ٤٠ .

(٢) هود ١١ : ٤٠ .

(٣) النجم ٥٣ : ٤٥ .

(٤) خطاب إلى الذئب . في استعارة تخیيلية . بأنه يحمل على ما تغافل من صيد فقد يصيبه وقد لا يصيبه .

(٥) أي وكل صنف من الدياج . الثوب المنسوج من الحرير . يلبسه ويحتجى به .

(٦) جامع البيان ، ج ١٢ ، ص ٢٥ - ٢٦ . ومعنى البيت : أن أصوات المقانب وهي جماعة الخيل تجتمع للغارة ، كن المقانب :

قال ابن منظور : والزوج ، الصنف من كل شيء. وفي التنزيل ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾. ^(١) قيل : من كل لون أو ضرب حسن من النبات. وفي التهذيب : والزوج اللون. وقوله تعالى : ﴿وَأَخْرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ ^(٢) معناه : ألوان وأنواع من العذاب ، ووصفه بالأزواج لأنه عني به الأنواع من العذاب والأصناف منه. ^(٣)

وأما لفظة «اثنين» فلا يراد بها العدد وإنما هو التكثر محضاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ ^(٤) أي كرّة بعد أخرى ، وهكذا. وجاءت لفظة «اثنين» تأكيداً على هذا المعنى. كما في قوله تعالى : ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ^(٥) . خطاباً مع المشركين. أي لا تتخذوا مع الله آلهة أخرى ، ومن ثمّ عقبه بقوله : ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾. فهو كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ^(٦) أي آلهة أخرى كما في قوله : ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً﴾ ^(٧) فهو نهي عن التعدّد في الآلهة ، صيغت في قالب التثنية.

قال أبو علي : الزوجان . في قوله تعالى : ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ...﴾ . يراد به الشيعاء من جنسه ولا يراد عدد الاثنين. كما قال الشاعر :

فاعمدا لما يعلو فمال لك بالذي لا تسطيع من الأمور يمدان

يريد : الأيدي والقوى الكثيرة كي يستطيع التغلب على الأمور.

قال : ويبيّن هذا المعنى أيضاً قول الفرزدق :

وكل رفيقني كل رحل وإن هما تعاطى القنا قومهما أحوان ^(٨)

إذ رفيقان اثنان لا يكونان رفيقي كل رحل ، وإنما يريد الرفقاء كل واحد مع صاحبه يكونان رفيقين. ^(٩)

. سترت أي فاقت صوته. وكان ممّا يزيّنه الأزواج من النور جمع نوار وهي البقرة تنفر من الفحل. والمشرّب : ما ارتوى من الحيوان.

(١) الحجّ ٢٢ : ٥.

(٢) ص ٣٨ : ٥٨.

(٣) لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٢٩٣.

(٤) الملك ٦٧ : ٤.

(٥) النحل ١٦ : ٥١.

(٦) الإسراء ١٧ : ٣٩.

(٧) مريم ١٩ : ٨١.

(٨) تعاطى ، مخفّف تعاطيا ، حذف اللام للضرورة. جامع الشواهد ، ص ٣٢٤.

(٩) راجع : مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ١٦١.

وعليه ، فالزوجان في الآية لعلّه اريد بهما الصنفان المتماثلان أو المتقابلان . كما فهمه المفسّرون القدامى . فلا موضع فيها للاعتراض كما زعمه الزاعم.

وهكذا على التفسير الآخر ، قال به بعض القدامى ، قالوا بالتركيب المزدوج في ذوات الأشياء حسبما قرّرتة الفلسفة : إنّ كلّ شيء متركّب في ماهيّته من جوهر وعرض وفي وجوده من مادّة وصورة ، وهكذا.

قال الراغب . في قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) . وقوله : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾^(٢) . : تنبيه أنّ الأشياء كلّها مركّبة من جوهر وعرض ومادّة وصورة ، وأنّ لا شيء يتعرّى من تركيب يقتضي كونه مصنوعاً وأنّه لا بدّ له من صانع ، تنبيه أنّ تعالى هو الفرد.

وقوله : ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ، بيّن أنّ كلّ ما في العالم زوج من حيث أنّ له ضدّاً أو مثلاً أو تركيباً ما ، بل لا ينفكّ بوجه من تركيب . قال : وإنّما ذكر هاهنا زوجين تنبيهاً أنّ الشيء وإن لم يكن له ضدّ ولا مثل فإنّه لا ينفكّ من تركيب جوهر وعرض ، وذلك زوجان.^(٣)

ثانياً : فلنفرض إرادة اللقاح الجنسي بين ذكر واثني في عامّة الأشياء ، كما فهمه المتأخّرون ، وليكون ذلك دليلاً على الإعجاز العلمي في القرآن ، فلا دليل على عدم الاطراد حسبما زعمه المعترض . فإنّ اللقاح التناسلي ظاهرة طبيعية مطّردة في عامّة الأحياء نباتها وحيوانها وحتىّ الديدان والحيوانات الأولى بصورة عامّة على ما أثبتته علم الأحياء.

قال المراغي . في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾^(٤) . : أي وجعل فيها من كلّ أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكراً واثني حين تكوّنها . فقد أثبت العلم حديثاً أنّ الشجر والزرع لا يولّدان الثمر والحبّ إلّا من اثنين ذكر واثني . وعضو التذكير قد يكون في شجرة وعضو التأنيث في شجرة اخرى كالنخل ، وما كان العضوان فيه في شجرة واحدة ، إمّا أن يكونا معا في زهرة واحدة كالقطن ، وإمّا أن يكون كلّ منهما في زهرة

(١) يس ٣٦ : ٣٦ .

(٢) الذاريات ٥١ : ٤٩ .

(٣) المفردات ، ص ٢١٦ .

(٤) الرعد ١٣ : ٣ .

وحدها كالقرع مثلا. ^(١) وهكذا ذكر الطنطاوي في تفسيره ^(٢) وغيره.

قال العلامة الطباطبائي : ما ذكره وإن كان من الحقائق العلمية التي لا غبار عليها إلا أنه لا يساعد عليه ظاهر الآية من سورة الرعد. نعم يتناسب مع ما في سورة يس من قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا...﴾ والآية ١٠ من سورة لقمان. والآية ٤٩ من سورة الذاريات. ^(٣)

قال سيّد قطب : وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض . وربما في هذا الكون. إذ أنّ التعبير لا يخصّص الأرض . قاعدة الزوجية في الخلق. وهي ظاهرة في الأحياء. ولكن كلمة «شيء» تشمل غير الأحياء أيضا. والتعبير يقرّر أنّ الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية.

وحين نتذكّر أنّ هذا النصّ عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا وأنّ فكرة عموم الزوجية . حتّى في الأحياء . لم تكن معروفة حينذاك فضلا على عموم الزوجية في كلّ شيء ، حين نتذكّر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم ، وهو يطلّنا على الحقائق الكونية في هذه الصورة العجيبة المبكّرة كلّ التكبير!

كما أنّ هذا النصّ يجعلنا نرجّح أنّ البحوث العلمية الحديثة سائرة في طريق الوصول إلى الحقيقة ، وهي تكاد تقرّر أنّ بناء الكون كلّه يرجع إلى الدّرة ، وأنّ الدّرة مؤلّفة من زوج من الكهرباء : موجب وسالب. فقد تكون تلك البحوث إذن على طريق الحقيقة في ضوء هذا النصّ العجيب. ^(٤)

وجاء في مجلّة عالم الفكر الكويتية العدد الثالث (ج ١ ، ص ١١٤) : ممّا يستوقف الذهن إشارة القرآن أنّ أصل الكائنات جميعا تتكوّن من زوجين اثنين ... وقد اكتشف العلم الحديث وحدة التركيب الذريّ للكائنات على اختلافها وأنّ الدّرة الواحدة تتكوّن من إلكترون وبروتون ، أي من زوجين ...

(٥)

(١) تفسير المراغي ، ج ١٣ ، ص ٦٦.

(٢) تفسير الجواهر للطنطاوي ، ج ٧ ، ص ٨٠.

(٣) تفسير الميزان ، ج ١١ ، ص ٣٢١.

(٤) في ظلال القرآن ، ج ٢٧ ، ص ٢٤ ، مجلّد ٧ ، ص ٥٨٧ . ٥٨٨.

(٥) بنقل مغنية في تفسيره المبين ، ص ٦٩٥ ذيل الآية ٤٩ من سورة الذاريات.

وقد أثبت علم الأحياء الحديث أنّ الأحياء برمتها إنّما تتوالد وتتكاثر بالازدواج التناسلي ، وحتىّ في الحيوانات الابتدائية ذوات الخليّة الواحدة (أميبا) والديدان أيضا.

ففي مستعمرة الفلّفس (مجموعة خلايا كثيرة تتألّف من نحو ١٢٠٠٠ خليّة مرتبطة ببعضها بواسطة خيوط بروتوبلازمية فيتمّ بذلك الاتصال الفسلجي بين الوحدات) تظهر خلايا التناسل الذكورية والانثوية بشكل حجيرتين : إحداها حجيرة تناسل ذكرية ، والاخرى حجيرة تناسل انثوية. ^(١) وهكذا تحتوي كلّ دودة على أعضاء تناسل ذكرية وأنثوية نامية ويتمّ الإخصاب داخل جسم الدودة فتخرج البيوض مخصّبة لتعيد دورة حياة جديدة. ^(٢) وفي مثل الديدان التي تتكاثر بالانقسام فإنّ جهاز التناسل توجد في نفس الحيوان بشكل أعضاء تناسلية ذكرية وأنثوية. على ما شرحه علم الأحياء. ^(٣)

﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾! ^(٤)

كانت العرب ولعلّ البشرية جمعاء ترى من القلب . ومحلّ الصدر . مركزا للتعقّل والإدراك وكذا سائر الصفات النفسية ، وذلك باعتبار كونه منشأ الحيوية في الإنسان. فمن القلب تنبث الحياة وتزدهر الحيوية في الإنسان ، ومنها النشاط الفكري وتجوال الخواطر وسائر أحوال النفس من حبّ وبغض وابتهاج وامتعاض!

هذا مع العلم بأنّ البشرية عرفت . منذ ألاف السنين . أنّ مركز الإدراك هو المخّ ومحلّ الدماغ من الرأس ، ومنه اشتقاق الرئاسة لمركزية التدبير . إذن لم تكن مركزية الدماغ للإدراك ممّا تجهله العرب وسائر الناس ، فما وجه التوفيق؟
وقد رجّح ابن سينا أن يكون المدرك هو القلب وأنّ الدماغ وسيلة للإدراك. فكما أن الإبصار والسمع يحصلان في مراكزهما من المخّ وتكون العين والاذن وسطا لهذا الحصول

(١) راجع : كتاب الحيوان للدراسات العليا في جامعة بغداد ، ص ٣٩ ، الشكل ١٤ .

(٢) المصدر : ص ٨٦ .

(٣) المصدر : ص ١٠٥ .

(٤) الحجّ ٢٢ : ٤٦ .

كذلك الدماغ وسط للإدراك والتفكير. ^(١) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. ^(٢)

وبذلك يتلخّص الإنسان . في نشاطه الفكري والعلمي . في قلبه ، ويتّحد القلب مع النفس والروح في التعبير عن حقيقة الإنسان ذاته. ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ^(٣) أي نفسي.

قال العلامة الطباطبائي : لما شاهد الإنسان أنّ الشعور والحسّ قد يبطل في الحيوان أو يغيب عنه بإغماء أو صرع ونحوهما ولا تبطل الحياة ما دام القلب نابضا ، قطع بأنّ منشأ الحياة هو القلب وسرت منه إلى سائر الأعضاء. وأنّ الآثار الروحية وكذا الأحاسيس المتواجدة في الإنسان . من مثل الشعور والإرادة والحبّ والبغض والرجاء والخوف . كلّها للقلب ، بعناية أنّه أوّل متعلّق للروح. وهذا لا ينافي كون كلّ عضو من الأعضاء مبدءا لعمل يخصّه ، كالدماغ للفكر والعين للبصار والاذن للسمع والرئتين للتنفّس ونحو ذلك ، فإنّها جميعا بمنزلة الآلات والوسط إلى ذلك.

قال : ويتأيد ذلك بما وجدته التجارب العلمية في الطيور ، لا تموت بفقد الدماغ ، سوى أنّها تفقد الشعور والإحساس ، وتبقى على هذه الحال حتّى تموت بفقد الموادّ الغذائية وإيقاف نبضات القلب.

والبحوث العلمية لم توفّق لحدّ الآن للعثور على مصدر الأحكام الجسدية أعني عرش التدبير في البدن. إذ أنّها في عين التشتّت والتفرّق في بنيتها ونوعية عملها ، هي مجتمعة تحت لواء واحد ومؤتمرة بأوامر أمير واحد ، وحدة حقيقية من غير انفصام.

وليس ينبغي زعم التغافل عن شأن الدماغ وما يخصّه من أمر الإدراك. وقد تنبّه الإنسان لما عليه الرأس من الأهميّة في استواء الجسد منذ أقدم الزمان ، وقد جرى على ألسنتهم التشبيه بالرأس والاشتقاق منه حيثما يريدون التعبير بالمبدئية في أيّ شيء.

(١) راجع : تفسير الميزان ، ج ٢ ، ص ٢٣٦.

(٢) ق ٥٠ : ٣٧.

(٣) البقرة ٢ : ٢٦٠.

ولكن مع ذلك نراهم ينسبون الإدراك والشعور وكذا صفات النفس . ممّا للشعور فيه حظّ . إلى القلب المراد به الروح الساطية على البدن والمدبّرة له ، كما ينسبونها إلى النفس بمعنى الذات . فلا فرق بين أن يقال : هواك قلبي أو هوتك نفسي . فاطلق القلب واريد به النفس ، باعتبار كونه مبدأ جميع الإدراكات (العقلية) والصفات (النفسية) . وفي القرآن الشيء الكثير من ذلك : قال تعالى : ﴿يُشْرِخُ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ ^(١) ﴿يَصِيْقُ صَدْرُكَ﴾ ^(٢) . ﴿بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ ^(٣) . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ^(٤) . إلى غيرها من آيات . ^(٥)

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾

قال تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ مُمْلَّةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ ^(٦)

أفهل تتكلّم النمل؟ وكيف يستمع سليمان إلى كلامها؟!

والنملة وكذا سائر الحشرات ليس لها صوت وإنما تتبادل أخبارها وتتفاهم بعضها مع بعض عن طريقة إشعاع أمواج لاسلكية ، وهكذا تتلقّى الأخبار وكذا عن طريقة الشمّ ، ممّا لا صلة له بالكلام الصوتي .

لكن العمدة أنّ للحيوانات برمتها منطقاً أي طريقة خاصّة للتفاهم مع بعضها ، سواء أكان ذلك عن طريقة إيجاد أصوات خاصة كما في الدوابّ والطيور أم بطريقة أخرى (إشعاع أمواج لا لاسلكية) كما في الحشرات ، الأمر الذي يمكن الوقوف عليه بطريقة ما ، وبالفعل قد عرف شيء من منطق البهائم وحتى بعض الحيتان في البحار . ولا يستحيل في قدرة الله تعالى أن يعلم نبيّه منطق الطير وسائر الحيوان . يقول تعالى . حكاية عن سليمان . : ﴿عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ^(٧) .

(١) الأنعام ٦ : ١٢٥ .

(٢) الحجر ١٥ : ٩٧ .

(٣) الأحزاب ٣٣ : ١٠ .

(٤) المائدة ٥ : ٧ .

(٥) تفسير الميزان ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ . ٢٣٥ .

(٦) النمل ٢٧ : ١٨ و ١٩ .

(٧) النمل ٢٧ : ١٦ .

يقول الاستاذ الطنطاوي : ويعتقد بعض العلماء اليوم أنّ تبادل الخواطر هو مستوى القوّة التي تمكّن الشخص من نقل آرائه إلى شخص آخر بدون أيّة واسطة مادّية أو ظاهرية ، فهل هذا الرأي ممكن أو محتمل الوقوع؟ وإجابة على ذلك يقول العالم الإنجليزي «برسي» : إنّ نقل الأفكار قد يحدث في أوقات شاذّة وحالات خاصّة ، وذلك ما لا يعارض فيه أحد من الباحثين ، ولكنّه لا ينطبق على الحالات العاقّة ، وذلك التبادل قد يرى بوضوح بين الحشرات والحيوانات قد اقتربت حشرة من أخرى. قال : وبذلك نعرف أنّ الحيوانات تكلم بعضها بنقل الخواطر ، والنمل من هذا القبيل ، وأنّ الإنسان مستعدّ لذلك لأنّه من جملة مواهبه ، ولكن هذه الموهبة تجيء تارة بطريق الوحي الخارق للعادة وتارة بالتمرين.^(١)

﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾؟

زعموا أنّ القرآن ذكر مراحل تكوين الجنين فيما يخالف العلم الثابت اليوم! ففي قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.^(٢) جاء في تفسير الجلالين : «علقة» دما جامدا. «مضغة» لحمه قدر ما يمضغ.^(٣)

وهكذا جاء في تفسير المراغي^(٤) وغيره من المتأخرين. ومعنى ذلك : أنّ النطفة تحوّلت دما متخثرا ، وتحول الدم إلى مضغة أي لحمه شبه ممضوغة أو بقدرها ، ثمّ تحوّلت اللحم إلى العظام. الأمر الذي يتنافى مع العلم القائل بأنّ اللحم ينبت على العظام بعد خلقها ، كما هو صريح القرآن أيضا ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾! وهذا يبدو متناقضا!!

(١) تفسير الجواهر ، ج ١٣ ، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٢) المؤمنون ٢٣ : ١٢ - ١٤.

(٣) تفسير الجلالين ، ج ٢ ، ص ٤٤.

(٤) تفسير المراغي ، ج ١٨ ، ص ٨.

غير أنّ هذه الشبهة نشأت من خطأ هؤلاء المفسّرين وليست واردة على القرآن. فقد كان تعبير القرآن أنّ النطفة . وهي خلية الذكر تمتزج ببويضة المرأة . تتحوّل إلى علقة : كرة جرثوميّة لها خلايا آكلة وقاضمة تعلّق بواسطتها وبواسطة حمالات دقيقة بجدار الرحم ، تتغذى بدم المرأة. وهذه النقطة الصغيرة العالقة تشبه دودة العلقة التي تمتصّ الدم. ثمّ إنّ هذه العلقة تتحوّل إلى كتلة غضروفية تشبه ممضوغة العلك في الفم ، وتكون منشأ لتكوين العظام ثمّ تكوين العضلات بعد بضعة أيّام ، لتكسو العظام أي تغطّيها وتلتحم معها.

ومعنى ذلك : أنّ العظام تسبق العضلات ، ثمّ تكسو العضلات العظام ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾.

قال سيّد قطب : وهنا يقف الإنسان مدهوشاً أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقّة إلّا أخيراً بعد تقدّم علم الأجنّة التشريحي. ذلك أنّ خلايا العظام غير خلايا اللحم (العضلات). وقد ثبت أنّ خلايا العظام هي التي تتكوّن أولاً في الجنين ، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلّا بعد ظهور خلايا العظام وتنام الهيكل العظمي للجنين ، وهي الحقيقة التي يسجلها النصّ القرآني. ^(١) وقد أشبعنا الكلام في ذلك عند الكلام عن إعجاز القرآن العلمي في الجزء السادس من التمهيد.

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾

يبدو من ظاهر تعبير آيات قرآنية أنّ النجوم جعلت شهبا يرمى بها الشياطين. قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا

لِلشَّيَاطِينِ﴾^(٢)

وقال : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ . لَا يَسْمَعُونَ إِلَى

(١) في ظلال القرآن ، ج ١٨ ، ص ١٦٠-١٧٠.

(٢) الملك ٦٧ : ٥٠.

- الْمَلَاِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُخُوراً وَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ» (١).
- وقال سبحانه : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهْباً وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ (٢).
- وقال عزّ من قائل : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ (٣).

غير خفيّ أنّ الشهب والنيازك إنّما تحدث في الغلاف الغازي (الهواء) المحيط بالأرض وقاية لها ، وقدّر سمكه بأكثر من ثلاثمائة كيلومتر. وذلك على أثر سقوط أحجار هي أشلاء متناثرة في الفضاء المتبقية من كواكب اندثرت تعوم عبر الفضاء ، فإذا ما اقتربت من الأرض انجذبت إليها بسرعة هائلة ما بين ٥٠ و ٦٠ كيلومترا في الثانية ، تخترق الهواء المحيط بالأرض ، ولاحتكاكها الشديد بالهواء من جهة ولتأثير الغازات الهوائية من جهة اخرى تخترق وتلتهب شعلة نار لتتحوّل إلى ذرات عالقة في الهواء مكوّنا منها الغبار الكوني. وهي في حال انقضاها . وهي تشتعل نارا. ترى بصورة نجمة وهّاجة ذات ذنب مستطيل تدعى الشهب والنيازك.

فليست الشهب سوى أحجار ملتهبة في الهواء المحيط بالأرض ، قريبة منها! فما وجه فرضها نجوما في السماء يرجم بها الشياطين الصاعدة إلى الملاء الأعلى؟!

لكن يجب أن نعلم قبل كلّ شيء أنّ التعابير القرآنية . وهي آخذة في الحديث عن كائنات ما وراء المادّة . ليس ينبغي الأخذ بظاهرها اللفظي ، حيث الأفهام تقصر عن إدراك ما يفوق مستواها المادّي المحدود ، والألفاظ أيضا تضيق عن الإدلاء بتلك المفاهيم الرقيقة البعيدة عن متناول الحسّ. وبتعبير اصطلاحي : إنّ الأفهام وكذا الألفاظ محدودة في إطار المادّة الكثيفة ، فلا تنال المجرّدات الرقيقة.

(١) الصافات ٣٧ : ١٠ - ٧.

(٢) الجنّ ٧٢ : ٨ و ٩.

(٣) الحجر ١٥ : ١٦ - ١٨.

وعليه ، فكلّ تعبير جاء بهذا الشأن إنّما هو مجاز واستعارة وتمثيل بلا ريب .
فلا تحسب من المألّ الأعلى عالما يشبه عالمنا الأسفل ، سوى أنّه واقع في مكان فوق أجواء الفضاء ، لأنّه تصوّر مادّي عن أمر هو يفوق المادّة ومتجرّد عنها . وعليه ، فقس كلّ ما جاء في أمثال هذه التعابير .

فلا تتصوّر من الشياطين أجساما على مثال الأناسي والطيور ، ولا رجمها بمثل رمي النشّاب إليها ، ولا مرودها بمثل نفور الوحش ، ولا استماعها في محاولة الصعود إلى المألّ الأعلى بالسارق المتسلّق على الحيطان ، ولا قذفها بمثل قذف القنابل والبندقيات ، ولا الحرس الذين ملئوا السماء بالجنود المتصاكّة في القلاع . ولا رصدها بالكمين لها على غرار ميادين القتال ... إذ كلّ ذلك تشبيه وتمثيل وتقريب في التعبير لأمر غير محسوس إلى الحسّ لغرض التفهيم ، فهو تقريب ذهني ، أمّا الحقيقة فالبون شاسع والشقّة واسعة والمسافة بينهما بعيدة غاية البعد .

قال العلامة الطباطبائي : إنّ هذه التعابير في كلامه تعالى من قبيل الأمثال المضروبة ، ليتصوّر بها الأمور الخارجة عن محدودة الحسّ في صور المحسوسات للتقريب إلى الأذهان . وهو القائل عَزَّجَل : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(١) [أي لا يتعقّلها ولا يعرف مغزاها إلّا من عرف أنّها أمثال ظاهرية ضربت للتقريب محضاً] .

قال : وأمثال هذه التعابير كثير في القرآن كالحديث عن العرش والكرسي واللوح والكتاب وغيرها .

قال : وعلى هذا ، فيكون المراد من السماء التي ملأها الملائكة : عالما ملكوتيّا هو أعلى مرتبة من العالم المشهود ، على مثال اعتلاء السماء الدنيا من الأرض . والمراد من اقتراب الشياطين إليها واستراق السمع والقذف بالشهب : اقترابهم من عالم الملائكة لغرض الاطّلاع على أسرار الملكوت ، وثمّ طردهم بما لا يطيقون تحمّله من قذائف النور .

(١) العنكبوت ٢٩ : ٤٣ .

أو محاولتهم لتلبس الحقّ الظاهر ، وثمّ دحّروهم ليعودوا خائبين. ^(١) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾. ^(٢)
والآيات من سورة الجنّ لعلّها إشارة إلى هذا المعنى ، حيث هي ناظرة إلى بعثة نبيّ الإسلام ، وقد أيس الشيطان من أن يعبد وعلا نفيّه.
قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ فقلت : يا رسول الله ، ما هذه الرنة؟ فقال : هذا الشيطان قد أيس من عبادته. ^(٣)

يقول تعالى في سورة الجنّ : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾. إلى قوله : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلْتَثَتٌ خَرْسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾. ^(٤) فهي حكاية عن حال حاضرة وجدتها الجنّ حينما بعث نبيّ الإسلام.

وبهذا يشير قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. ^(٥) وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. ^(٦)

نعم ، كانت تلك بغية إبليس أن يتلاعب بوحى السماء ولكن في خيبة آيسة : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ (ظهور شريعته) ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. ^(٧) أي حاول إبليس الحثول دون بلوغ أمانة الأنبياء ، فكان يندحر ويغلب الحقّ الباطل وتفشل دسائسه في نهاية المطاف.

أمّا عند ظهور الإسلام فقد خاب هو وجنوده منذ بدء الأمر وخسر هنالك المبطلون.

قال الإمام الصادق عليه السلام : «فلما ولد رسول الله ﷺ حجب (إبليس) عن السبع السماوات ورميت الشياطين بالنجوم...». ^(٨)

(١) تفسير الميزان ، ج ١٧ ، ص ١٣٠ نقلا مع تصرّف يسير.

(٢) الأنبياء ٢١ : ١٨.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة القاصعة ، ص ٣٠١.

(٤) الجنّ ٧٢ : ٩٠.

(٥) الحجر ١٥ : ٩.

(٦) الفتح ٤٨ : ٢٨.

(٧) الحجّ ٢٢ : ٥٢.

(٨) الأمالي للصدوق ، ص ٢٥٣ ، المجلس ٤٨ ؛ وبحار الأنوار ، ج ١٥ ، ص ٢٥٧.

وفي حديث الرضا عن أبيه الكاظم عن أبيه الصادق عليه السلام في جواب مسألة اليهود : «أَنَّ الجِنَّ كانوا يسترقون السمع قبل مبعث النبي ﷺ فمنعت من أوان رسالته بالرجوم وانتقضاض النجوم وبطلان [عمل] الكهنة والسحرة». (١)

وهكذا حاول الشيخ الطنطاوي تأويل ظواهر التعابير الواردة في هذه الآيات إلى إرادة التمثيل ، قال . ما ملخصه . : إِنَّ العلوم التي عرفها الناس تراءد لأمرين : إما لمعرفة الحقائق لإكمال العقول ، أو لنظام المعاش والصناعات لتربية الجسم. وإلى الأول أشار بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾. (٢) وإلى الثاني قوله : ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾. (٣) وكلّ من خالف هاتين الطريقتين فهو على أحد حالين : إما أن يريد ابتزاز أموال الناس بالاستعلاء بلا فائدة ، وإما أن يريد الصيت والشهرة وكسب الجاه. وكلاهما لا نفع في علمه ولا فضل له. فمن طلب العلم أو أكثر في الذكر ليكون عالة على الأمة فهو داخل في نوع الشيطان الرجيم ، مرجوم مبعد عن إدراك الحقائق ومعذب بالذل والهوان ، وهذا مثال قوله تعالى : ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ (فلا يعرفون حقائق الأشياء) ﴿وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُخُورًا﴾ بما ركّب فيهم من الشهوات وما ابتلوا من العاهات ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي في أمل متواصل ملازم لهم مدى الحياة. فلو حاول أن يخطف خطفة من الحقائق حالت دون بلوغه لها الأميال الباطلة ﴿فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾. (٤)

نعم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾. (٥) ولا شك أنّها كناية عن حرمانهم العناية الربانية المفاضة من ملكوت أعلى. الأمر الذي أنعم به الربانيون في هذه الحياة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾. (٦) فملائكة الرحمة تحبط إليهم وهم في مواضعهم آمنون مستقرّون سائرون في طريقهم صعدا إلى قمة الكمال.

(١) بحار الأنوار ، ج ١٧ ، ص ٢٢٦ عن قرب الإسناد للحميري ، ص ١٣٣ .

(٢) الحجر ١٥ : ١٦ .

(٣) الأعراف ٧ : ١٠ ، الحجر ١٥ : ٢٠ .

(٤) الصافات ٣٧ : ١٠ . راجع : تفسير الجواهر ، ج ٨ ، ص ١٣ ، وج ١٨ ، ص ١٠ .

(٥) الأعراف ٧ : ٤٠ .

(٦) فصلت ٤١ : ٣٠ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾. ^(١) أي أخذ في الصعود إلى سماء العزّ والشرف والسعادة. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾. ^(٢) فما هذا الصعود وهذا الرفع إلّا ترفيعا في مدارج الكمال. وهكذا جاء التعبير بفتح أبواب السماء كناية عن هطول المطر ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾. ^(٣) وأمثال هذا التعبير في القرآن كثير. ^(٤) والجميع مجاز وليس على الحقيقة سواء في المعنويّات أم الماديّات. فلو كان عيبا لعابه العرب أصحاب اللغة العرباء في الجزيرة ، لا أرباب اللغة العجماء من وراء البحار. وأمّا النجوم التي يرمم بها الشياطين (أبالسة الجنّ والإنس) فهم العلماء الرّبانيّون المتألّفون في افق السماء ، يقومون في وجه أهل الزيغ والباطل فيرجوهم بقذائف الحجج الدامغة ودلائل البيّنات الباهرة ، ويرموهم من كلّ جانب دحورا.

فسماء المعرفة ملئت حرسا شديدا وشهبا.

قال رسول الله ﷺ : «يحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين ...». ^(٥) وقد اطلق النجوم على أئمة الهدى ومصاييح الدجى من آل بيت الرسول ﷺ فقد روى عليّ بن إبراهيم في تفسير قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ^(٦) قال : النجوم آل محمد ﷺ. ^(٧)

وفي حديث سلمان الفارسي رضوان الله عليه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : معاشر الناس ، إيّي راحل عنكم عن قريب ومنطلق إلى المغيب. اوصيكم في عترتي خيرا وإيّاكم والبدع ، فإنّ كلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة أهلها في النار. معاشر الناس ، من افتقد الشمس فليتمسك بالقمر ، ومن افتقد القمر فليتمسك بالفرقدين ، ومن افتقد الفرقدين فليتمسك بالنجوم الزاهرة بعدي. أقول قولي واستغفر الله لي ولكم.

(١) إبراهيم ١٤ : ٢٤.

(٢) فاطر ٣٥ : ١٠.

(٣) القمر ٥٤ : ١١.

(٤) الأنعام ٦ : ٤٤ ، الأعراف ٧ : ٩٦ ، الحجر ١٥ : ١٤ ، النبأ ٧٨ : ١٩.

(٥) بحار الأنوار ، ج ٢ ، ص ٩٣ ، رقم ٢٢ من كتاب العلم.

(٦) الأنعام ٦ : ٩٧.

(٧) تفسير القميّ ، ج ١ ، ص ٢١١.

قال سلمان : فتبعته وقد دخل بيت عائشة وسألته عن تفسير كلامه فقال . ما ملخصه . : أنا الشمس وعليّ القمر . والفرقدان الحسن والحسين . وأما النجوم الزاهرة فالأئمة من ولد الحسين واحدا بعد واحد ... ^(١) كلما غاب نجم طلع نجم إلى يوم القيامة . كما في حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رحمة الله عليهما قاله في شأن أهل البيت عليهم السلام . ^(٢) وفي حديث أبي ذر رضوان الله عليه التعبير عنهم بالنجوم الهادية ^(٣) وأمثال ذلك كثير .

سبع سماوات علا

قال تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ . إلى قوله : . ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ . ^(٤) ظاهر التعبير أنّ السماوات السبع هي أجواء وأفضية متراكبة بعضها فوق بعض ، لتكون الجميع محيطة بالأرض من كلّ الجوانب ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ . ^(٥) حيث الفوقية بالنسبة إلى جسم كروي . هي الأرض . إنما تعني الإحاطة بها من كلّ جانب .

وأيضاً فإنّ السماء الدنيا . وهو الفضاء الفسيح المحيط بالأرض . هي التي تزينت بزينة الكواكب ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ . ^(٦) والظاهر يقتضي التركيز فيها ، وإن كان من المحتمل تجلّلها بما تشعّ عليها الكواكب من أنوار! ويبدو أنّ هذا الفضاء الواسع الأرجاء . بما فيه من أنجم زاهرة وكواكب مضيئة لامعة . هي السماء الاولى الدنيا ، ومن ورائها أفضية ستّ في أبعاد مترامية ، هي مليئة بالحياة لا يعلم بها سوى صانعها الحكيم . ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ . ^(٧) والعقل لا يفسح المجال لإنكار ما لم يبلغه العلم ، وهو في بدء مراحلہ الآخذة إلى الكمال .

(١) بحار الأنوار ، ج ٣٦ ، ص ٢٨٩ . عن كتاب كفاية الأثر للخزّار الرازي ، باب ما جاء عن سلمان في النصّ على الأئمة الاثني عشر ، ص ٢٩٣ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ٤٠ ، ص ٢٠٣ عن جامع الأخبار للصدوق ، ص ١٥ .

(٣) راجع : بحار الأنوار ، ج ٢٨ ، ص ٢٧٥ .

(٤) الملك ٦٧ : ٣ . ٥ .

(٥) النبأ ٧٨ : ١٢ .

(٦) ق ٥٠ : ٦ .

(٧) الإسراء ١٧ : ٨٥ .

نعم ، يزداد العلم يقينا .كلّما رصد ظاهرة كونية . أنّ ما بلغه ضئيل جدّا بالنسبة إلى ما لم يبلغه ، وتزداد ضآلة كلّما تقدّم إلى الأمام. حيث عظمة فسحة الكون تزداد أجهّة وكبرياء كلّما كشف عن سرّ من أسرار الوجود وربما إلى غير نهاية ، لا سيّما والكون في اتّساع مطّرد : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(١).

هذا وقد حاول بعضهم . في تكلف ظاهر . التطبيق مع ما بلغه العلم قديما وفي الجديد من غير ضرورة تدعو إلى ذلك. ولعلّ الأناة ، حتّى يأتي يوم يساعد التوفيق على حلّ هذا المجهول من غير تكلف ، كانت أفضل.

يقول سيد قطب : لا ضرورة لمحاولة تطبيق هذه النصوص على ما يصل إليه علمنا ، لأنّ علمنا لا يحيط بالكون حتّى نقول على وجه التحقيق : هذا ما يريده القرآن. ولن يصحّ أن نقول هكذا إلّا يوم يعلم الإنسان تركيب الكون كلّ علمنا يقينيّا ، وهيئات ...^(٢) وإليك بعض محاولات القوم : حاول بعض القدماء تطبيق التعبير الوارد في القرآن على فرضيّة بطلميوس لهيئة الأفلاك التي هي مدارات الكواكب فيما حسبه حول الأرض.^(٣) ولكن من غير جدوى. لأنّ الأفلاك في مزعومته تسعة ، ومن ثمّ أضافوا على

(١) الذاريات ٥١ : ٤٧.

(٢) في ظلال القرآن ، ج ٢٨ ، ص ١٥٢.

(٣) زعموا أنّ الأرض في مركز العالم ، وأنّ القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل سيّارات حولها ، في مدارات هي أفلاك متراكبة بعضها فوق بعض بنفس الترتيب. وكلّ واحد منها في فلك دائر حول الأرض من الغرب إلى الشرق في حركة معاكسة لحركتها اليومية من الشرق إلى الغرب على أثر تحريك الفلك التاسع ، المسمّى عندهم بفلك الأفلاك أو بالفلك الأطلس ، لعدم وجود نجم فيه وأما النجوم الثوابت فهي مركوزة في الفلك الثامن. فهذه تسعة أفلاك محيطة بالأرض بعضها فوق بعض. وهكذا جاء في إنجيل برنابا من كلام المسيح عليه السلام : أنّ السماوات تسع ، فيها السيّارات ، وتبعد إحداها عن الأخرى مسيرة خمسمائة عام. ولما ترجمت فلسفة اليونان إلى العربية ، ودرسها علماء الإسلام وثقوا بأنّ الأفلاك تسعة ، وقال بعضهم : هي سبع سماوات ، والكروني فللك الثوابت ، والعرش هو الفلك المحيط. والغريب أنّ مثل محيي الدين ابن عربي اغترّ بهذه الغريبة وحسبها حقيقة وبنى عليها معارفه الإشرافية فيما زعم. (راجع : الفتوحات المكية ، الباب ٣٧١ والفصل الثالث منه ، ج ٣ ، ص ٤١٦ و ٤٣٣. وكذا الفصّ الإدريسي من فصوص الحكم ، ج ١ ، ص ٧٥). وهكذا شيخنا العلامة بماء الدين العاملي في كتابه تشريح الأفلاك ، وهو عجيب! ولقد أعجبني كلام أبي الحسن علي بن عيسى الرّمثاني المعتزلي في تفسير الآية ، حيث أنكر إرادة الأفلاك البطلميوسيّة من السماوات السبع في القرآن ، محتجّا بأنّه تفسير يخالف ظاهر النصّ. راجع : تفسير التبيان للشيخ الطوسي ، ج ١ ، ص ١٢٧.

السموات السبع . الواردة في القرآن . العرش والكرسي ليكتمل التسع ويحصل التطابق بين القرآن وفرضية أساسها الحدس والتخمين المجرد .
وأما المحدثون فحاولوا التطبيق على النظرة الكوبرنيكية الحديثة ، حيث الشمس هي نواة منظومتها والكواكب دائرة حولها ومنها الأرض مع قمرها .^(١)
زعموا أنّ المراد بالسموات السبع ، هي الأجرام السماوية ، الكواكب الدائرة حول الشمس ، ترى فوق الأرض في أفقها . فالسموات . في تعبير القرآن على هذا الفرض . هي الأجرام العالقة في جو السماء . (وكان جديراً أن يقال . بدل السموات . السماويات) .
يقول الشيخ الطنطاوي : هذا هو الذي عرفه الإنسان اليوم من السموات . فقايس بين ما ذكره علماء الإسكندرية بالأمس ، وبين ما عرفه الإنسان الآن . إنّ عظمة الله تجلّت في هذا الزمان .. إذن فما جاء في إنجيل برنابا مبنياً على علم الإسكندريون أصبح لا قيمة له بالنسبة للكشف الحديث الذي يوافق القرآن .^(٢)

ويزداد تبجحاً قائلاً : إذن دين الإسلام صار الكشف الحديث موافقاً له . وهذه معجزة جديدة جاءت في زماننا .
ثمّ يورد أسئلة وجهت إليه ، منها : التعبير بالسبع . فيجيب : أنّ العدد غير حاصر ، فسواء قلت سبعا أو ألفاً فذلك كلّّه صحيح . إذ كلّ ذلك من فعل الله دالّ على جماله وكماله .

(١) جاءت النظرية على الأساس التالي :

- ١ . الشمس : نواة المنظومة .
- ٢ . نجمة فلكان : بعدها عن الشمس ١٣ مليون ميلا ، ودورها المحوري ١٨ ساعة ، ودورها حول الشمس ٢٠ يوما .
- ٣ . كوكب عطارد : بعدها ٣٥ مليون ميلا ، دورها المحوري ٢٤ ساعة و ٥ دقائق ، حول الشمس ٨٨ يوما .
- ٤ . الزهرة : بعدها ٦٦ مليون ميلا ، دورها المحوري ٢٣ ساعة و ٢٢ دقيقة ، حول الشمس ٢٢٥ يوما .
- ٥ . الأرض : بعدها ٩٣ مليون ميلا ، دورها المحوري ٢٤ ساعة ، حول الشمس ٣٦٥ يوما .
- ٦ . المريخ : بعدها ١٤٠ مليون ميلا ، دورها المحوري ٢٤ ساعة و ٣٨ دقيقة ، حول الشمس ٦٨٧ يوما .
- ٧ . المشتري : بعدها ٤٧٦ مليون ميلا ، دورها المحوري ١٠ ساعات ، حول الشمس ١٢ سنة .
- ٨ . زحل : بعدها ٨٧٦ مليون ميلا ، دورها المحوري ١٠ ساعات و ١٥ دقيقة ، حول الشمس ٢٩ سنة ونصفا .
- ٩ . اورانوس : بعدها ١٧٥٣ مليون ميلا ، دورها المحوري ١٠ ساعات ، حول الشمس ٨٤ سنة واسبوعا .
- ١٠ . نبتون : بعدها ٢٧٤٦ مليون ميلا ، دورها المحوري مجهول ، حول الشمس ١٦٤ سنة و ٢٨٥ يوما . راجع : الهيئة والإسلام للسيد هبة الدين الشهرستاني ، ص ٦١ . ٦٢ .

(٢) تفسير الجواهر ، ج ١ ، ص ٤٩ الطبعة الثانية .

وأخيرا يقول : إنّ ما قلناه ليس القصد منه أن يخضع القرآن للمباحث [العلمية] فإنّه ربّما يبطل المذهب الحديث كما بطل المذهب القديم ، فالقرآن فوق الجميع. وإنّما التطبيق كان ليأنس المؤمنون بالعلم ولا ينفروا منه لظاهر مخالفته لألفاظ القرآن في نظرهم. ^(١)

وللسيد هبة الدين الشهرستاني . علامة بغداد في عصره . محاولة اخرى للتطبيق ، ففرض من كلّ كرة دائرة حول الشمس ومنها الأرض أرضا والجو المحيط بها سماء. فهناك أرضون سبع وسموات سبع. الاولى في أرضنا وسماءها الغلاف الهوائي المحيط بها. والأرض الثانية هي الزهرة وسماءها الغلاف البخاري المحيط بها. والثالثة : عطارد وسماءها المحيط بها. الرابعة : المريخ وسماءها المحيط بها. الخامسة : المشتري وسماءها المحيط بها. السادسة : زحل وسماءها المحيط بها. السابعة : أورانوس وسماءها المحيط بها.

قال : ترتيبنا المختار تنطبق عليه مقالات الشريعة الإسلامية ويوافق الهيئة الكوبرنيكية.

وأسند ذلك إلى حديث عن الإمام الرضا عليه السلام سنوافيك به عند الكلام عن الأرضين السبع. ^(٢)

وذكر الحجّة البلاغي أنّ السماوات السبع لا يمتنع انطباقها على كلّ واحدة من الهيئتين القديمة والجديدة ، فيمكن أن يقال على الهيئة القديمة : إنّ السماوات السبع هي أفلاك السيّارات السبع ، وإنّ فلك الثوابت هو الكرسي في قوله تعالى : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. ^(٣)

وإنّ الفلك الأطلس المدير . على ما زعموا . هو العرش في قوله تعالى : ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾. ^(٤) ويمكن أن يقال على الهيئة الجديدة : إنّ السماوات السبع هي أفلاك خمس من السيّارات مع فلكي «الأرض» و «فلكان» والعرش والكرسي هما فلكا «نبطون» و «اورانوس». وأمّا الشمس في مركز الأفلاك. والقمر تابع للأرض وفلكه جزء من فلكها. ^(٥)

(١) المصدر : ص ٥٠ . ٥١ بتصرّف وتلخيص.

(٢) الهيئة والإسلام ، ص ١٧٧ . ١٧٩ .

(٣) البقرة ٢ : ٢٥٥ .

(٤) المؤمنون ٢٣ : ٨٦ .

(٥) الهدى إلى دين المصطفى للبلاغي ، ج ٢ ، ص ٧ .

قال : والحاصل أنّ كلاً من وضعي الهيئة القديمة والجديدة يمكن من حيث انطباق الحركات المحسوسة عليه. ولكنّه يمكن أن يتعدّاه التحقيق إلى وضع ثالث ورابع ، فلا يحسن الجزم بشيء ما لم يشاهد بالتفصيل أو بصراحة الوحي. لكنّ الحكمة تقتضي أن لا يتولّى الوحي بصراحته بالتفصيل. ^(١)

وبعد ، فالطريقة السليمة هي التي سلكها سيّدنا العلامة الطباطبائي ، يقول :

إنّ المستفاد من ظاهر الآيات الكريمة . وليست نصّاً . أنّ السماء الدنيا هي عالم النجوم والكواكب فوقنا. وأنّ السماوات السبع هي أجواء متطابقة أقربها منّا عالم النجوم. ولم يصف لنا القرآن شيئاً من الستّ الباقية سوى أنّها طباق. وليس المراد بها الأجرام العلوية سواء من منظومتنا الشمسية أو غيرها.

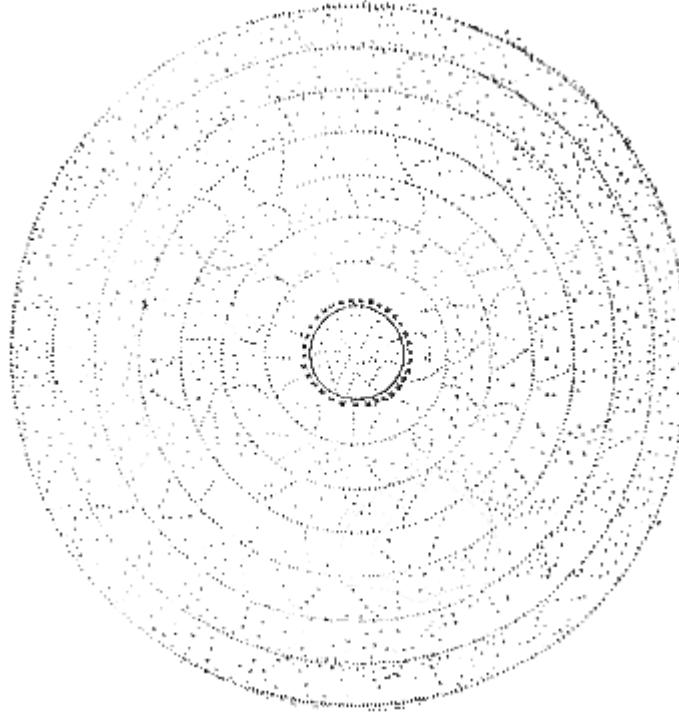
وما ورد من كون السماوات مأوى للملائكة يهبطون منها ويعرجون إليها ولها أبواب تفتّح لنزول البركات كلّ ذلك يكشف عن أنّ لهذه الامور نوع تعلّق بها لا كتعلّقها بالجسمانيات. فإنّ للملائكة عوالم ملكوتية مترتبة سمّيت سماوات سبعا ونسب ما لها من الآثار إلى ظاهر هذه السماوات بلحاظ ما لها من العلوّ والإحاطة والشمول ، وهو تسامح في التعبير تقريبا إلى الأذهان الساذجة. ^(٢)

ولبعض العلماء الباحثين في المسائل الروحية في إنجلترا . (هو : جيمس آرثر فندلاي من مواليد ١٨٨٣ م) . تصوير عن السماوات السبع يشبه تصويرنا بعض الشيء : يرى من كرة الأرض واقعة في وسط أبهاء وأفضية تحيط بها من كلّ الجوانب ، في شكل كرات متخلّلة بعضها بعضاً ومتراكبة إلى سبعة أطباق ، كلّ طبقة ذات سطحين أعلى وأسفل ملؤ ما بينهما الحياة النابضة. يسمّى المجموع العالم الأكبر الذي نعيش فيه ، نحن في الوسط على وجه الأرض. وهذه الأجواء المتراكبة تحيط بنا طباقاً بعضها فوق بعض إلى سبع طبقات ، وإن شئت فعبرّ بسبع سماوات ، لأنّها مبنية في جهة أعلى فوق رءوسنا. وإليك الصورة حسبما رسمها في كتابه «الكون المنشور» :

(١) المصدر : ج ٢ ، ص ٦.

(٢) تفسير الميزان ، ج ١٧ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣.

شكل الأرض في الوسط تحيط بها سبع أطباق هي سماوات على :



في هذا الشكل . كما رسمه «جيمس آرثر فندلاي» . نجد العالم الأكبر في صورة أبهاء متراكبة بعضها فوق بعض مملوءة بالحياة ، ويرى الحياة في حركتها إلى أعلى وأسفل في شكل خطوط منحنية على السطوح. وتمثل الصلبان الصغيرة الحياة على الأرض. أمّا النقاط فتمثل الحياة الأثيرية ويلاحظ أنّها ليست مقصورة على السطوح وحدها ، لأنّ الأفضية بين السطوح ملؤها الحياة ساجدة فيها! ^(١)

(١) راجع : ملحق كتابه «على حافة العالم الأثيري» ترجمة أحمد فهمي أبو الخير (ط ٣) ، ص ١٩٩ .

مسائل ودلائل

هنا عدة أسئلة تستدعي الوقوف لديها :

١ . ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. ^(١)

وقال : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. ^(٢)

هالا كان التعبير بالفلك متابعة لما حسبه بطليموس؟

قلت : لا ، لأنّ الفلك لفظة عربية قديمة يراد بها الشيء المستدير ، ومن الشيء مستداره. قال ابن فارس : الفاء واللام والكاف أصل صحيح ^(٣)

يدلّ على استدارة في شيء. من ذلك «فلكة المغزل» لاستدارتها. ولذلك قيل : فلك ثدي المرأة ، إذا استدار. ومن هذا القياس : فلك السماء. ^(٤)

إذن ، فكما أنّ السماء مستديرة حتّى في شكلها الظاهري ، فكلّ ما يسبح في فضاءها يسير في مسلك مستديرة. وبذلك صحّت استعارة هذا اللفظ.

والدليل على أنّها استعارة هو استعمال اللفظة بشأن الليل والنهار أيضا. أي أنّ لكلّ ظاهرة من الظواهر الكونية مجراها الخاصّ وفي نظام ترتيب لا

تجور ولا تجور.

٢ . ﴿فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾. ^(٥)

أو هل كانت الطرائق هنا هي مدارات الأفلاك البطلميوسية؟

قلت : كلاً ، إنّما الطرائق بمعنى مجاري الامور في التدبير والتقدير والتي هي محلّها السماوات العلى.

(١) الأنبياء ٢١ : ٣٣.

(٢) يس ٣٦ : ٤٠.

(٣) مقصوده من الأصل : كونها ذات أصالة عربية وليس مستعارة من لغة أجنبية.

(٤) معجم مقاييس اللغة ، ج ٤ ، ص ٤٥٢ . ٤٥٣.

(٥) المؤمنون ٢٣ : ١٧.

الطرائق : جمع الطريقة بمعنى المذهب والمسلک الفكري والعقائدي وليس بمعنى سبيل الاستطراق على الأقدام. ولم تستعمل في القرآن إلا بهذا المعنى : يقول تعالى . حكاية عن لسان الجن . : ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّاحُونَ وَمِنَّا ذُوْنَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾. ^(١) أي مذاهب شتى.

﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾. ^(٢) أي بمذهبكم القويم الأفضل.

﴿إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ طَرِيقَةٌ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾. ^(٣) وذاك يوم الحشر يتخافت المجرمون : كم لبثوا؟ فيقول بعضهم : عشرين. ويقول أعقلهم وأفضلهم بصيرة : ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾. ^(٤) أي الطريقة المثلى والمذهب الحق.

فالمقصود بالطرائق . في الآية الكريمة . هي طرائق التدبير والتقدير ، المتخذة في السماوات حيث مستقرّ الملائك المدبّرات أمرا والمقسّمات. ^(٥) ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾. ^(٦) ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. ^(٧) أي تقدير أرزاقكم وكلما قدر لكم من مجاري الامور. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾. ^(٨) ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾. ^(٩)

فالتدبير في السماء ثمّ التنزيل إلى الأرض ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾. ^(١٠) ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾. ^(١١) ومن ثمّ تعقب الآية بقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾. قال العلامة الطباطبائي : أي لستم بمنقطعين عنّا ولا بمعزل عن مراقبتنا وتديرونا لشئونكم ، فهذه الطرائق السبع إنّما جعلت ليستطرقها رسل ربّكم في التقدير والتدبير والتنزيل. ^(١٢)

(١) الجن ٧٢ : ١١ .

(٢) طه ٢٠ : ٦٣ .

(٣) طه ٢٠ : ١٠٤ .

(٤) الجن ٧٢ : ١٦ .

(٥) النازعات ٧٩ : ٥ . والذاريات ٥١ : ٤ .

(٦) السجدة ٣٢ : ٥ .

(٧) الذاريات ٥١ : ٢٢ .

(٨) يونس ١٠ : ٣ .

(٩) الحجر ١٥ : ٢١ .

(١٠) مريم ١٩ : ٦٤ .

(١١) القدر ٩٧ : ٤ .

(١٢) راجع : الميزان ، ج ١٥ ، ص ٢١ .

٣ . ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾^(١)

ما ذا يعنى بذات الحبك؟

الحبك : جمع الحبيكة بمعنى الطريقة المتخذة. قال الراغب : فمنهم من تصوّر منها الطرائق المحسوسة بالنجوم والمجرّات ، ومنهم من اعتبر ذلك بما فيه من الطرائق المعقولة المدركة بالبصيرة.

والحبك : المنعطفات على وجه الماء الصافي تحصل على أثر هبوب الرياح الخفيفة. وهي تكسّرات على وجه الماء كتجعّادات الشعر. ويقال للشعر المجعّد : حبك والواحد حباك وحبيكة. قاله الشيخ أبو جعفر الطوسي في التبيان.

من ذلك قول زهير يصف روضة :

مكلّل باصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحي مائه حبك

مراده بالنجم النبات الناعم. وشبّه تربية الرياح له بالنسج ، كأنّه إكليل (تاج مزين بالجواهر) نسجته الريح. ووصف الريح بالخريق ، وهو العاصف.

ثم وصف ضاحي مائه . وهو الصافي الزلال . بأنّ على وجهه قسّات وتعاريج على أثر مهبّ الرياح عليه ، وهو منظر بهيج.

فعلى احتمال إرادة التعرّجات المتأرجحة من الآية ، فهي إشارة إلى تلكم التمرّجات النورية التي تجلّل كبد السماء زينة لها وبهجة للناظرين ، فسبحان

الصانع العظيم!

٤ . ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾^(٢)

في هذه الآية توجّه الخطاب إلى عامّة الناس ولا سيّما الامم السالفة الجاهلة حيث لا يعرفون من أطباق السماء شيئاً ، فكيف يعرض عليهم دليلاً

على إتقان صنعه تعالى؟ (الآية في سورة نوح والخطاب عن لسانه موجّه إلى قومه).

(١) الذاريات ٥١ : ٧.

(٢) نوح ٧١ : ١٥.

وهكذا قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾. ^(١)

وقوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾. ^(٢)

قلت : هذا بناء على تفسير الطباق بذات الطبقات.

هكذا فسّره المشهور : طباقا ، واحدة فوق أخرى كالقباب بعضها فوق بعض. ^(٣)

لكنّ الطباق هو بمعنى الوفاق والتماثل في الصنع والإتقان ، بدليل تفسيره بقوله تعالى : ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾. أي كلّها في الصنع

والاستحكام متشاكل.

وقد أشرب هنا معنى الالتحام والتلاصق التامّ بين أجزائها مرادا به الانسجام في الخلق. بدليل قوله تعالى : ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ أي انشقاق وخلل

وعدم انسجام. وكذا قوله : ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ أي منفرجات وخلّات توجب فصل بعضها عن بعض بحيث تضادّ النظم القائم. الأمر الذي يستطيع كلّ

إنسان . مهما كان مبلغه من العلم . من الوقوف عليه إذا تأمّل في النظم الساطي على السماوات والأرض.

٥ . ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ^(٤)

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾. ^(٥) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾. ^(٦) أو هل تعني البروج

هذه ما تصوّره الفلكيّون بشأن البروج الاثني عشر في أشكال رسموها لرصد النجوم؟

قلت : المعنيّ بالبروج هذه هي نفس النجوم ، تشبيها لها بالقصور الزاهية والحصون المنيعة الرفيعة ، بدليل عطف السراج . وهي الشمس الوهاجة .

والقمر المنير عليها.

(١) ق ٥٠ : ٦ .

(٢) الملك ٦٧ : ٣ .

(٣) راجع : مجمع البيان ، ذيل الآية من سورة الملك والآية من سورة نوح ، ج ١٠ ، ص ٣٢٢ و ٣٦٣ ؛ وروح المعاني للآلوسي ، ج ٢٩ ، ص ٦ و ٧٥ ؛ وتفسير المراغي ، ج ٢٩ ، ص ٦ و ٨٥ ... وغيرها.

(٤) البروج ٨٥ : ١ .

(٥) الحجر ١٥ : ١٦ .

(٦) الفرقان ٢٥ : ٦١ .

ولا صلة لها بالأشكال الفلكية الاثني عشر.

البرج. في اللغة. بمعنى الحصن والقصر وكلّ بناء رفيع على شكل مستدير. فالنجوم باعتبار إنارتها تبدو مستديرة ، وباعتبار تألؤلؤها تبدو كعبابات تعوم على وجه السماء زينة لها ، وباعتبارها مراصد لحراسة السماء ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾^(١) هي حصون منيعة. فصَحَّ إطلاق البروج عليها من هذه الجوانب لا غيرها.

هذا ، وقد خلط على لفيف من المفسّرين فحسبوها منازل الشمس والقمر حسب ترسيم الفلكيّين.^(٢) وسيّدنا العلامة الطباطبائي وإن كان في تفسيره لسورتي الحجر والفرقان قد ذهب مذهب المشهور ، لكنّه ﷺ عدل عنه عند تفسيره لسورة البروج. قال : البروج ، جمع برج وهو الأمر الظاهر ويغلب استعماله في القصر العالي والبناء المرتفع على سور البلد ، وهو المراد في الآية. فالمراد بالبروج مواضع الكواكب من السماء. قال : وبذلك يظهر أنّ تفسير البروج [في الآيات الثلاث] بالبروج الاثني عشر المصطلح عليها في علم النجوم غير سديد.^(٣) وقال الشيخ محمّد عبده : وفُسّرت البروج بالنجوم وبالبروج الفلكيّة والقصور على التشبيه ، ولا ريب في أنّ النجوم أبنية فخيمة عظيمة ، فيصحّ إطلاق البروج عليها تشبيها لها بما يبنى من الحصون والقصور في الأرض.^(٤)

٦. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا. فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ. فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ

(١) الحجر ١٥ : ١٧.

(٢) تفسير القمي ، ج ١ ، ص ٣٧٣ ؛ والميزان ، ج ١٢ ، ص ١٤٣ و ١٥٤ ؛ وتفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٥٤٨ ؛ وروح المعاني ، ج ١٤ ، ص ٢٠.

(٣) تفسير الميزان ، ج ٢٠ ، ص ٣٦٨.

(٤) تفسير جزء عمّ لمحمّد عبده ، ص ٥٧.

يَكَاذُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ^(١).

«يزجي» : يسوق. «يؤلف بينه» : يؤلف بين متفرّقه. «يجعله ركاما» : متكاثفا. «فترى الودق» : قطرات المطر الآخذة في الهطول.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾؟

السؤال هنا : ما ذا يعني بالجبال هذه؟ وما ذا يكون المقصود من البرد وهو الماء المتجمّد على أثر ضغط البرد؟ وكيف يكون هناك في السماء جبال من برد؟

وقد مرّ عليها أكثر المفسّرين القدامى مرور الكرام ، وبعضهم أخذها على ظاهرها وقال : إنّ في السّماء جبلا من برد (من ثلج) ينزل منها المطر ، كما تنحدر المياه من جبال الأرض على أثر تراكم الثلوج عليها. عن الحسن والجبائي^(٢) وعن مجاهد والكلبي وأكثر المفسّرين : أنّ المراد بالسّماء هي المظلة وبالجبال حقيقتها. قالوا : إنّ الله خلق في السّماء جبلا من برد كما خلق في الأرض جبلا من صخر. قال الآلوسي : وليس في العقل ما ينفيه من قاطع. فيجوز إبقاء الآية على ظاهرها كما قيل.^(٣)

قال السيّد المرتضى : وجدت جميع المفسّرين على اختلاف عباراتهم يذهبون إلى أنّه تعالى أراد : أنّ في السّماء جبلا من برد. وفيهم من قال : من قدره قدر جبال. يعني مقدار جبال من كثرته.

قال : وأبو مسلم بن بحر الأصبهانيّ خاصّة انفرد في هذا الموضع بتأويل طريف ، وهو أن قال : الجبال ، ما جبل الله من برد ، وكلّ جسم شديد مستحجر فهو من الجبال ، ألم تر إلى قوله تعالى في خلق الأمم : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَةَ الْأُولَى﴾^(٤). والناس يقولون : فلان مجبول على كذا.

وأورد عليه السيّد أنّه يلزمه أنّ جعل الجبال اسما للبرد نفسه ، من حيث كان مجبولا مستحجرا! وهذا غلط ، لأنّ الجبال وإن كانت في الأصل مشتقّة من الجبل

(١) النور ٢٤ : ٤٣.

(٢) مجمع البيان ، ج ٧ ، ص ١٤٨.

(٣) روح المعاني ، ج ١٨ ، ص ١٧٢. وراجع : التفسير الكبير ، ج ٢٤ ، ص ١٤.

(٤) الشعراء ٢٦ : ١٨٤.

والجمع ، فقد صارت اسما لذي هيئة مخصوصة. ولهذا لا يسمّي أحد من أهل اللغة كلّ جسم ضمّ بعضه إلى بعض . مع استحجار أو غير استحجار . بأنّه جبل ، ولا يخصّون بهذا اللفظ إلّا أجساما مخصوصة ... كما أنّ اسم الدابة وإن كان مشتقا في الأصل من الديب فقد صار اسما لبعض ما دبّ ، ولا يعمّ كلّ ما وقع منه الديب.

قال : والأولى أن يريد بلفظة السماء . هنا . ما علا من الغيم وارتفع فصار سماء لنا ، لأنّ سماء البيت وسماواته ما ارتفع منه. وأراد بالجمال التشبيه ، لأنّ السحاب المتراكب المتراكم تشبّهه العرب بالجمال والجمال ، وهذا شائع في كلامها ، كأنّه تعالى قال : وينزل من السحاب الذي يشبه الجبال في تراكمه بردا.

قال : وعلى هذا التفسير تكون «من» الاولى والثانية لابتداء الغاية ، والثالثة زائدة لا حكم لها ، ويكون تقدير الكلام : وينزل من جبال في السماء بردا. فزادت «من» كما تزداد في قولهم : ما في الدار من أحد. وكم أعطيته من درهم ، وما لك عندي من حقّ ، وما أشبه ذلك.

وأضاف : إنّّه قد ظهر مفعول صحيح ل «نزل» ، ولا مفعول لهذا الفعل على سائر التأويلات. ^(١)

قلت : وهو تأويل وجيه لو لا جانب زيادة «من» في الإيجاب.

قال ابن هشام : شرط زيادتها تقدّم نفي أو نهي أو استفهام ولم يشترطه الكوفيّون واستدلّوا بقول العرب : قد كان من مطر. وبقول عمر بن أبي ربيعة :

وينمّي لها حبّها عندنا فـما قال من كاشح لم يضـرّ

أي فما قاله كاشح . وهو الذي يضر العداوة . لم يضرّ.

قال : وقال الفارسي في قوله تعالى : ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ : يجوز كون «من» الثانية والثالثة زائدتين. فجوّز الزيادة في الإيجاب. ^(٢)

(١) الأماي للسيد المرتضى علم الهدى ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ . ٣٠٦ .

(٢) مغني اللبيب لابن هشام ، حرف الميم ، ج ١ ، ص ٣٢٥ .

وقال الزمخشري : «من» الاولى لابتداء الغاية ، والثانية للتبعيض ، والثالثة للبيان. أو الاوليان للابتداء والآخره للتبعيض. ^(١) فالمعنى على الأول : وننزل من السماء شيئا من الجبال الكائنة من البرد. وعلى الثاني : وننزل من السماء من جبال فيها شيئا من البرد. فقدّر المفعول به ولم يجعل «من» زائدة. والذي ذكره الزمخشري أصحّ ، لأنّ التقدير شائع في كلام العرب ولا سيّما مع معلوميته كما هنا. قال ابن مالك : وحذف ما يعلم جائز. أمّا زيادة «من» في الإيجاب ، فعلى فرض ثبوته فهو أمر شاذّ ، ولا يجوز حمل القرآن عليه.

ومعنى الآية على ذلك : أنّه تعالى ينزل من السّماء ماء من جبال فيها . هي السحب الركامية ، وهي النوع الأهمّ من السحب ، لأنّها قد تمتدّ عموديًا عبر ١٥ أو ٢٠ كيلومترا ، فتصل إلى طبقات من الجوّ باردة جدّا تنخفض فيها درجة الحرارة إلى ٦٠ أو ٧٠ درجة مئوية تحت الصفر. وبذلك يتكوّن البرد (خيوط ثلجيّة) في أعالي تلك السحب ..

وقوله : «من برد» بيان لتكوّن تلك السحب الجبالية (الركامية) ولو باعتبار قممها المتكوّن فيها الخيوط الثلجية (البرد). والمعروف علميًا أنّ نموّ البرد في أعالي السحب الركامية يعطي انفصال شحنات أو طاقات كهربائية سالبة ، وأنّه عند ما يتساقط داخل السحابة ويصل في قاعدتها إلى طبقات مرتفعة الحرارة فوق الصفر يذوب ذلك البرد أو يتميّع ويعطي انفصال شحنات كهربائية موجبة. وعند ما لا يقوى الهواء على عزل الشحنة السالبة العليا عن الشحنة الموجبة في أسفل يحدث التفريغ الكهربائي على هيئة برق. وينجم عن التسخين الشديد المفاجئ الذي يحدثه البرق أن يتمدّد الهواء فجأة ويتمزّق محدثا الرعد. وما جلجلة الرعد إلّا عملية طبيعية بسبب سلسلة الانعكاسات التي تحدث من قواعد السحب لصوت الرعد الأصلي. ^(٢)

(١) الكشف ، ج ٣ ، ص ٢٤٦.

(٢) راجع ما سجلناه بهذا الصدد في حقل الإعجاز العلمي للقرآن في التمهيد ، ج ٦ .

وبذلك يبدو وجه مناسبة التعقيب بقوله تعالى : ﴿يَكَاذُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ وكذا عند الحديث عن السحاب الثقال. ^(١) فإنّ البرق وليد هكذا سحب ركاميّة ثقيلة (جبليّة).

قال سيّد قطب : إنّ يد الله تزجي السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان. ثمّ تؤلّف بينه وتجمعه ، فإذا هو ركام بعضه فوق بعض. فإذا ثقل خرج منه الماء والوبل الهاطل ، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة ، فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة ... ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها ، فإذا المشهد مشهد الجبال حقًا بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها. وإنّّه لتعبير مصوّر للحقيقة التي لم يرها الناس إلّا بعد ما ركبوا الطائرات. ^(٢) بل ويمكن مشاهدتها في الصحاري الواسعة عن بعد.

٧ . ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾

قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾. ^(٣)

ما تعني المثلية؟ هل هي في الصنع والإتقان؟ أم في العدد؟ وما هنّ على هذا الفرض؟

ولم تذكر الأرض في القرآن إلّا مفردة سوى في هذا الموضع ، حيث شبهة إرادة التعدّد إلى سبع أرضين ، كما جاء في الحديث ودار على الألسن! وفسّر التعدّد من وجوه :

١ . سبع قطاع من الأرض على وجهها من أقاليم أو قارّات.

٢ . سبع طباق من الأرض في قشرتها المتركبة من طبقات. ^(٤)

(١) الرعد ١٣ : ١٢ . والجمع في «ثقال» باعتبار كون «السحاب» اسم جنس يفيد الجمع ، واحدتها سحابة.

(٢) في ظلال القرآن ، ج ١٨ ، ص ١٠٩ - ١١٠ ، المجلّد ٦.

(٣) الطلاق ٦٥ : ١٢ .

(٤) راجع : الميزان ، ج ١٩ ، ص ٣٧٨ ؛ وتفسير نمونه ، ج ٢٤ ، ص ٢٦١ .

- ٣ . الكواكب السبع السيّارة ، كلّ كوكبة . ومنها أرضنا . أرض ، والغلاف الهوائي المحيط بها سماء. ^(١)
- ٤ . فوق كلّ سماء بعد أرضنا أرض وفوقها سماء. فهناك سبع أرضين بعضها فوق بعض لسبع سماوات. ^(٢)

تقاسيم الأرض

قسّم الأقدمون البلاد الآهلة من الربع المعمور في القطاع الشمالي إلى سبع مناطق جغرافية طولا. وجاء المتأخرون ليقسّموها تارة على حسب المناخ الطبيعي إلى سبعة أقاليم : واحدة استوائية ، واثنان حارّتان حتّى درجة ٥ / ٢٣ عرضا في جانبي خطّ الاستواء شمالا وجنوبا ، واثنان اعتداليتان ما بعد خطّ الميل الأعظم فيإلى مداري الخطّ القطبي ، والأخيرتان منطقتا القطبين الشمالي والجنوبي.

واخرى إلى قارات مألوفة ، خمسة منها ظاهرة : آسيا ، اروبأ ، إفريقيا ، استراليا ، أمريكا. واثنان هما قطبا الشمال والجنوب في غطاء من الثلوج.

محتملات ثلاثة

قال الحجّة البلاغي : يحتمل في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ وجوه ثلاثة :

الأوّل : أن يراد مثلهنّ في الطبقات ، باعتبار اختلاف طبقات الأرض في البدائع والآثار.

الثاني : أن يراد مثلهنّ في عدد القطع والمواضع المعتدّ بها كآسيا واوربا وإفريقيا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية واستراليا ، وأرض لم تكشف بعد أو لاشتتها الحوادث البحرية وفُتّتتها بالكلية أو بقي منها بصورة جزر متفرّقة صغيرة. أو هي تحت القطب الجنوبي على ما يظنّ البعض.

(١) راجع : تفسير الجواهر ، ج ١ ، ص ٤٩ .

(٢) راجع : الهيئة والإسلام ، ص ١٧٩ ؛ وتفسير الميزان ، ج ١٩ ، ص ٣٧٩ . ٣٨٠ .

الثالث : أن يراد بالمماثل للسموات هو غير أرضنا بل ما هو من نوعها ، فيراد منه ذات السيّارات على الهيئة الجديدة ، أو ما هو مسكون من الكواكب ولم يظهر للاكتشاف. ^(١)

أرضون لا تحصى

قال الشيخ الطنطاوي في تفسير الآية : أي وخلق مثلهنّ في العدد من الأرض. وهذا العدد ليس يقتضي الحصر ، فإذا قلت : عندي جوادان تركب عليهما أنت وأخوك ، فليس يمنع أن يكون عندك ألف جواد وجواد. هكذا هنا ، فقد قال علماء الفلك : إنّ أقلّ عدد ممكن من الأرضين الدائرة حول الشمس العظيمة التي نسمّيها نجوما لا يقلّ عن ثلاثمائة مليون أرض ... هذا فيما يعرفه الناس. وهذا القول من هؤلاء ظنّي ، فلم يدّع أحد أنّه رأى وقطع بشيء من ذلك ، اللهمّ إلّا علماء الأرواح ، فإنّهم لما سألوها قالت : عندنا كواكب أهلة بالسكّان لا يحصى عددها ، وفيها سكّان أنتم بالنسبة إليهم كالنمل بالنسبة للإنسان. وأتد ذلك بما نقل عن «غاليلو» عند ما حضرت روحه بعد الممات. ^(٢)

وهكذا ذكر الشيخ المراغي وعقبه بما روي عن ابن مسعود : أنّ النبي ﷺ قال : ما السماوات السبع وما فيهنّ وما بينهنّ والأرضون السبع وما فيهنّ وما بينهنّ في الكرسي إلّا كحلقة ملقاة بأرض فلاة. ^(٣)

وروي ابن كثير أحاديث تنمّ عن أرضين سبع أهلة بالسكّان ، وقد بعث إليهم أنبياء كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ. زعموا صحّة أسانيدها. ^(٤)

وهكذا رووا روايات هي أشبه بروايات إسرائيلية ، وفيها الغثّ والسمين. ^(٥)

وفي حديث زينب العطارّة عن رسول ﷺ : إنّ هذه الأرضين واقعة تحت الأرض التي نعيش عليها واحدة ، تحت أخرى كلّ واحدة بالنسبة إلى الأخرى التي تحتها كحلقة ملقاة في فلاة قفر ، حتّى تنتهي إلى السابعة ، والجميع على ظهر ديك ، له جناحان إلى

(١) الهدى إلى دين المصطفى ، ج ٢ ، ص ٨٠٧.

(٢) تفسير الجواهر ، ج ٢٤ ، ص ١٩٥.

(٣) تفسير المراغي ، ج ٢٨ ، ص ١٥١.

(٤) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٣٨٥.

(٥) راجع : الدرّ المنثور ، ج ٨ ، ص ٢١٠-٢١٢ ؛ وجامع البيان ، ج ٢٨ ، ص ٩٩.

المشرق والمغرب ورجلاه في التخوم! والديك على صخرة ، والصخرة على ظهر حوت ، والحوت على بحر مظلم ، والبحر على الهواء ، والهواء على الثرى ... (١)

وفي حديث الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام : هذه أرض الدنيا ، والسماء الدنيا فوقها قبة ، والأرض الثانية فوق السماء الدنيا ، والسماء الثانية فوقها قبة ، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية ، والسماء الثالثة فوقها قبة ... حتى الأرض السابعة فوق السماء السادسة ، والسماء السابعة فوقها قبة ، وعرش الرحمن فوق السماء السابعة ... فآلتي تحتنا هي أرض واحدة هي الدنيا ، وأنّ الستّ هُنَّ فوقنا. (٢)

وروا عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : أنّ لهذه النجوم التي في السماء مدنا مثل المدائن التي في الأرض ، مربوطة كلّ واحدة بالآخرى بعمود من نور طوله مسيرة مائتين وخمسين سنة. كما أنّ ما بين سماء وأخرى مسيرة خمسمائة عام. وأنّ هناك بين النجوم وبين السماء الدنيا بحارا تضرب الريح أمواجهها ، ولذلك تستبين النجوم صغارا وكبارا ، في حين أن جميعها في حجم واحد سواء. (٣)

وغالب الظنّ أنّها - أو جلّها - أساطير إسرائيلية تسرّبت إلى التفسير والحديث مضافا إليها وضع الأسناد!

المختار في تفسير «مثلهنّ»

ليس في القرآن تصريح بالأرضين السبع ، ولا إشارة سوى ما هنا من احتمال إرادة العدد في المثلية! لكن تكرر ذكر الأرض في القرآن مفردة إلى جنب السماوات جمعا ممّا يوهم جانب هذا الاحتمال.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾. (٤)

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا...﴾. (٥)

(١) تفسير نور الثقلين للحويزي ، ج ٥ ، ص ٣٦٤ . ٣٦٥.

(٢) تفسير البرهان ، ج ٨ ، ص ٤٦ .

(٣) بحار الأنوار ، ج ٥٥ ، ص ٩٠ . ٩١ .

(٤) فاطر ٣٥ : ١ .

(٥) فاطر ٣٥ : ٤١ .

- ﴿اللَّهُ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾. ^(١)
- ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾. ^(٢)
- ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ...﴾. ^(٣)
- ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ...﴾. ^(٤)
- ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾. ^(٥)
- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾. ^(٦)
- ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ...﴾. ^(٧)
- ﴿نَسِجَ لَهُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ...﴾. ^(٨)
- ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ... ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ.
- فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا...﴾. ^(٩)

إلى ما يقرب من مائتي موضع في القرآن ، جاء اقتران الأرض واحدة بالسماوات سبعا ...!

فيا ترى كيف يصحّ اقتران الفرد بالجمع . في هذا الحجم من التكرار . لو كانت الأرض مثل السماء في العدد السبع؟! ولا سيّما في آيات التكوين ،

ما المبرّر لذكر الأرض واحدة لو كانت سبعا؟!

على أنّ اللام في ﴿وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ للعهد ، أي الأرض المعهودة لدى المخاطبين وهم العرب يوم ذاك ، ولا يعرفون سوى هذه الأرض التي نعيش عليها! ^(١٠)

(١) النمل ٢٧ : ٢٥ .

(٢) لقمان ٣١ : ٢٠ .

(٣) الروم ٣٠ : ٢٦ .

(٤) النمل ٢٧ : ٨٧ .

(٥) الزمر ٣٩ : ٦٣ .

(٦) الشورى ٤٢ : ٢٩ .

(٧) الزخرف ٤٣ : ٨٢ .

(٨) الإسراء ١٧ : ٤٤ .

(٩) فصلت ٤١ : ٩ - ١٢ .

(١٠) وحتىّ البشريّة اليوم لا تعرف أرضاً بهذا الاسم سوى التي نعيش عليها . على أنّ الأرض اسم علم شخصي لهذه الكوكبة نظير أسامي سائر الكواكب ، وليست كالسماء اسم جنس عامّ . ومن ثمّ قالوا : كلّ ما علاك سماء وما تطؤه قدمك أرض! قال تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ، الرحمن ٥٥ : ١٠ .

فلا بدَّ أنَّ هذه الأرض خلقت مثل السماوات السبع ، مثلاً في الإبداع والتكوين.
 هذا ، بالإضافة إلى أنَّ التعبير بـ ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ . لو اريد العدد . ليستدعي أن يكون من هذه الأرض (نفس كرة الأرض التي نعيش عليها) جعلت سبعاً ، الأمر الذي يعني سبع قطاع منها وهي المناطق الكبرى المعمورة منها. وهذا هو المراد بالأرضين السبع الواردة في الأدعية الماثورة وفي الأحاديث ، ودارت على ألسن العارفين.
 وإطلاق الأرض على المعمورة منها شائع في اللغة ، وجاء في القرآن أيضاً حيث قوله تعالى . بشأن المفسدين . : ﴿أَوْ يُنْفَخُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾^(١) أي من البلاد العامرة حسبما فسره الفقهاء.

وكذا إطلاقها على مطلق البقاع ، كقوله تعالى : ﴿وَأَيَّةٌ هُمْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ .^(٢) والمراد البقعة الميتة منها.
 وبعد ، فإنَّ قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ظاهر كلِّ الظهور في إرادة سماوات سبع ، وجاءت بلفظ تنكير . وأرض واحدة جاءت بلفظ تعريف . وأنَّ المثلية تعني جانب الإبداع والتكوين ، وعلى فرض إرادة العدد فهي البقاع والمناطق المعمورة منها ومن ثمَّ جاء بلفظ «ومن الأرض...» أي وجعل من هذه الأرض أيضاً سبعاً حسب المناطق . وإلا فلو كان أراد سبع كرات من مثل كرة الأرض ، لكان الأولى أن يعبرَ بسبع سماوات وسبع أرضين ، وكان أخصر وأوفى بالمعنى.

٨ . ﴿وَجَدَهَا تُغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾

يقول تعالى عن ذي القرنين : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ .^(٣)

الحمأ : الطين النتن الذي تغيّر لونه إلى السواد ، يرسب تحت المياه الراكدة وعلى

(١) المائدة ٥ : ٣٣ .

(٢) يس ٣٦ : ٣٣ .

(٣) الكهف ١٨ : ٨٦ .

ضفافها ... وحماً مسنون : ^(١) منتن. وقرئ : «عين حامية» أي دافئة (حارة).

قال المفسرون : أراد ذو القرنين أن يبلغ بلاد المغرب. فاتبع طريقاً توصله إليها ، حتى إذا انتهى من جهة المغرب بحيث لم يستطع تجاوزه ووقف على حافة البحر الأطلنطي (المحيط الأطلسي) وجد الشمس تغرب في بحر خضم يضرب ماؤه إلى سواد الخضرة ، وكان معروفاً عند العرب ببحر الظلمات ، فقد سار إلى بلاد تونس ثم مراكش ووصل إلى البحر المحيط ، فوجد الشمس كأنها تغيب فيه وهو أزرق اللون يضرب إلى السواد ، كأنه حمئة. ^(٢) والمراد بالعين : لجة الماء ، حيث البحر الواسع الأرجاء لا ترى له نهاية.

قال سيّد قطب : والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار ، ^(٣) حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ. وتوجد البرك وكأنها عيون الماء ... فرأى الشمس تغرب هناك ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾. ^(٤)

قلت : وسوف يأتي عند الكلام عن ذي القرنين . وأنه كورش الهخامنشي على الأرجح . أنه في فتوحاته غرباً في آسيا الصغرى توقف على المنطقة التي تسمى باسم : إقليم أيونية ، وهو الإقليم الغربي من قارة آسيا الصغرى المطل على مضيق الدردنيل وبحر إيجه وما يلاصق الساحل من جزر وأشباه جزر . حين توقف كورش عند شواطئ بحر إيجه . وهي جزء من سواحل تركيا على البحر المتوسط . وجد الشاطئ كثير التعاريج . حيث تتداخل ألسنة البحر داخل اليابس ، ومن أمثلة هذه الألسنة البحرية خليج هرمس ومندريس الأكبر ومندريس الأصغر ... ويتعمق خليج «أزمير» إلى الداخل بمقدار ١٢٠ كم ، تحيط به الجبال البللورية من الغرب إلى الشرق على حافته ، بحيث يتخذ شكل العين ، ويصب فيه نهر «غديس» المياه العكرة المحملة بالطين البركاني والتراب الأحمر من فوق هضبة الأناضول ... وحين توقف كورش عند «سارد» قرب أزمير تأمل قرص

(١) في قوله تعالى : ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ ، الحجر ١٥ : ٢٨ . وراجع الآية ٢٦ و ٣٣ من نفس السورة.

(٢) راجع : تفسير المراغي ، ج ١٦ ، ص ١٦ .

(٣) واحد معاني العين ، مصب ماء القناة.

(٤) في ظلال القرآن ، ج ١٦ ، ص ٦ ، المجلد ٥ ، ص ٤٠٩ .

الشمس وهو يسقط عند الغروب في هذا الخليج الذي يشبه العين تماما ... واختلطت حمرة الغسق بالطين الأحمر والأسود الذي يلفظه نهر غديس في خليج أزمير ... ولعلّها هي العين الحمئة (الضاربة بالسواد) التي ذكرها القرآن. ^(١)

أخطاء تاريخيّة!

زعموا أنّ في القرآن أخطاء تاريخية تجعله بمعزل عن الوحي الذي لا يحتمل الخطأ! فحاولوا جهدهم أن يعثروا على بيّنة من ذلك ، ولكنّهم تعثّروا وفشلوا وخاب ظنّهم.

إذ ما حسبه شاهدا لا يعدو أوهاما تنبؤك عن مبلغ جهلهم بمفاهيم القرآن ومصطلحاته الخاصّة!

مشكلة هامان

فمن ذلك ما زعموه بشأن «هامان» الذي جاء ردفا لاسم فرعون في مواضع من القرآن باعتباره وزيرا له أو من كبار المسؤولين في بلاطه ، وقد أمره فرعون ببناء صرح . حسبه برج بابل . ليطلّع إلى إله موسى!

وقد أثارَت مسألة «هامان» جدلا كبيرا منذ قرون على يد أبناء إسرائيل ، وأخيرا على يد كبار المستشرقين أمثال «نولدكه» ازدراء بشأن القرآن العظيم.

جاء اسم «هامان» في القرآن في ستّ مواضع :

﴿وَمَكَّنَ لَهُمُ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾. ^(٢)

﴿فَالْتَفَتَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾. ^(٣)

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ... فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾. ^(٤)

(١) مفاهيم جغرافيّة ، ص ٢٤٣ . ٢٤٤ .

(٢) القصص ٢٨ : ٦ .

(٣) القصص ٢٨ : ٨ .

(٤) القصص ٢٨ : ٣٨ .

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾^(١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾^(٢).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى﴾^(٣).

يبدو من هذه الآيات أنّ «هامان» هو على الغالب وزير فرعون ، ولهذا أكّد المفسّرون أنّ هامان هذا كان وزير فرعون مصر الذي حكم في عهد موسى عليه السلام والمشكلة التي انصبتّ حوله ما إذا كان هامان قد بنى فعلا برج بابل عبر مسافات شاسعة في أرض العراق ممّا يلي الجانب الشرقي للفرات ، وقد بقيت آثاره لحدّ الآن على بعد أميال من مدينة الحلة الفيحاء.

والبعض يقول إنّه بناه فعلا وسخّر لذلك خمسين ألف عامل عكفوا على بنائه. وعند ما شيّده صعد فرعون إلى أعلاه ورمى بنشابة ناحية السماء ، فأراد الله أن يفتنهم فردّه إليهم ملطّخا بالدم ، وعندها قال فرعون : لقد قتلت إله موسى! والقصة طويلة سطرّها أصحاب الأساطير فيما لفقوه عن قصص الأنبياء.

غير أنّ المؤكّد أنّ برجاً لا يرتفع من الأرض سوى عدة عشرات الأمتار ، لا يمكن أن يبلغ به فرعون أسباب السماوات حتّى ولو صعد على أعالي الجبال الشاخحات التي يعدّ برج بابل تجاهها تلا صغيرا. ولهذا قال الفخر الرازي : لعلّ فرعون قد أوهم ببناء البرج لكنّه لم يفعل ، أو أنّه قال ذلك ساخرا وليبيّن أنّه لا يمكن إثبات إله في السماء إلّا بالصعود إليه.^(٤)

وهكذا قال المراغي : وقال فرعون يا هامان ابن لي قصرا منيفا عالي الذرا ، علّني

(١) العنكبوت ٢٩ : ٣٩.

(٢) غافر ٤٠ : ٢٣ و ٢٤.

(٣) غافر ٤٠ : ٣٦ و ٣٧.

(٤) التفسير الكبير ، ج ٢٤ ، ص ٢٥٣.

أبلغ أبواب السماء وطرقها ، حتّى إذا وصلت إليها رأيت إله موسى! لا يريد بذلك سوى الاستهزاء والتّهكّم وتكذيب دعوى الرسالة. ^(١)

قال سيّد قطب : هكذا يمّوه فرعون الطاغية ويحاوّر ويداور ، كي لا يواجه الحقّ جهره ولا يعترف بدعوة الوحدانية التي تمزّ عرشه وتهدّد الأساطير التي قام عليها ملكه. وبعيد عن الاحتمال أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه ، وبعيد أن يكون جاداً في البحث عن إله موسى على هذا النحو المادّي الساذج. إنّما هو الاستهتار والسخرية ... وكلّ ذلك يدلّ على إصراره على ضلاله وتبجّحه في جحوده ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ (ولكن) ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ ^(٢) صائر إلى الخيبة والدمار. ^(٣)

وعلى آية حال ، فليس في القرآن ما يشي بأنّه بنى الصرح وصعد ورمى بسهمه حسبما سطرّه أصحاب الأساطير. كلّ ذلك لم يذكره القرآن ولا جاء في التوراة ، ^(٤) ولم يعرف المصدر الذي اعتمده هؤلاء القصّاصون ومهنتهم الاختلاق.

* * *

وأما مسألة هامان فهل كان لفرعون وزير بهذا الاسم؟

قال الإمام الرازي : قالت اليهود : أطبق الباحثون عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون أنّ هامان لم يكن على عهد فرعون وموسى وإنّما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر ، فالقول بأنّ هامان كان وزيراً لفرعون ، خطأ في التاريخ. على أنّه لو كان لم يكن رجلاً خامل الذكر لم يسجله التاريخ ولا جاء ذكره في تاريخ حياة بني إسرائيل. ^(٥)

نعم ، جاء في العهد القديم سفر «أستير» الإصحاح الثالث : أنّ هامان بن همدان كان وزيراً للملك الفارسي «خشيارشا» الذي تصدّى الملك بعد أبيه «داريوش الكبير» سنة (٤٨٦ ق م) ^(٦) أي بعد فرعون موسى بعدّة قرون. وكان مقرّباً لديه ، ثمّ غضب عليه وصلبه

(١) تفسير المراغي ، ج ٢٤ ، ص ٧١.

(٢) غافر ٤٠ : ٣٧.

(٣) في ظلال القرآن ، المجلّد ٧ ، ص ١٨٣ - ١٨٤ ، ج ٢٤ ، ص ٧١ - ٧٢.

(٤) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجّار ، ص ١٨٦.

(٥) التفسير الكبير ، ج ٢٧ ، ص ٦٦.

(٦) راجع : تاريخ إيران ، ص ٩٢.

وجعل مكانه رجلا من اليهود اسمه «مردخاي» وكان عمّ الملكة أستير زوجة الملك. ^(١)

وهكذا زعم المستشرق الألماني «تئودور نولدكه» (ekedloNerodoehT) في مقال نشره أولا حوالي عام ١٨٨٧ م في دائرة المعارف البريطانية (الطبعة ٩). ^(٢) وأعاد نشره في كتابه تاريخ القرآن عام ١٨٩٢ م. ^(٣)

غير أن المصادر التاريخية - الإيرانية وغيرها - خلو عن ذكر رجل بهذا الاسم استوزره الملك «خشايارشا» ثم عزله وصلبه وأقام مكانه رجلا باسم «مردخاي». كما تقوله التوراة الإسرائيلية! وغالب الظنّ أنّه من أساطيرهم البائدة ولا واقع لها أساسا.

على أنّ «هامان» الذي جاء ذكره في القرآن - مردفا باسم فرعون وقارون - اسم معرّب قطعاً ، كما هي العادة عند العرب عند التلّجج بألفاظ أجنبية حتّى العبريّات حسب المعهود. فإبراهيم ، معرّب إبراهيم ، أصله أب رام أي الجدّ الأعلى. وموسى ، معرّب موسى أي المشال من الماء. وسامري ، معرّب شمروني حسبما نذكر وغير ذلك. وقد قيل : إنّ «هامان» معرّب «آمون» أو «أمانا» كان يلقّب به رؤساء كهنة معبد آمون كبير آلهة المصريّين في مدينة طيبة في أعالي النيل. ولا غرو فإنّ المنسوب إلى مكان مقدّس يحمل اسمه بالطبع ، كما أنّ فرعون هو لقب سلاطين مصر كان بمعنى البيت الأعظم ، نظير ما لقّب الخلفاء العثمانيون بالباب العالي. ^(٤)

وتمثّل بعض النقوش القديمة «البيت الأعظم» الذي يجلس فيه الملك للحكم والذي تتجمّع فيه دواوين الحكومة. وقد اشتقّت من اسم هذا البيت الأعظم الذي كان المصريّون يطلقون عليه لفظ «بيرو» والذي ترجمه اليهود إلى «فرعوه» أو «فرعون» ،

(١) العهد القديم ، ص ٧٨٢ ؛ وراجع : قاموس الكتاب المقدّس ، ص ٩١٨ .

(٢) راجع : p٥٩٧ ، ٩IVXemot.deeme ، acinatirB aideapolcycnE (دائرة المعارف البريطانية ، ص ٥٩٧ ، الطبعة التاسعة).

(٣) راجع : المقال في كتابه ٥٨ . ٢١ . pp ، ١٨٩٢ ، yrotsiH nreisaE morfsehtekS ehT (الدفاع عن القرآن ضدّ منتقديه ، ص ١٨٤).

(٤) راجع : قاموس الكتاب المقدّس ، ص ٦٤٩ ؛ والموسوعة المصرية ، ص ١٢٤ ؛ وفرهنگ معین ، قسم الأعلام ، ج ٥ ، ص ٦١ .

اشتقّ من اسمه لقب الملك نفسه. ^(١)

وهكذا عاد اسم «هامان» معرّب «آمون» اطلق على كبير كهنة معبد «آمون» الذي حاز منذ الاسرة التاسعة عشر مكانة كبيرة لدى فرعون ، لدرجة أنّه استولى على إقليم أعالي النيل وأصبح قائد كلّ الجيوش وكبير خزانة الإمبراطورية والمشرف الأعلى على معابد الآلهة. ^(٢) ولقد كان وزير فرعون يراقب فعلا كلّ أعمال البناء العموميّة والماليّة. ^(٣) وكان المشرف الأعلى على كلّ أعمال الملك. ^(٤) وبالتالي كان كبير كهنة «آمون» يشغل منصب وزير فرعون.

فاسم «هامان» في القرآن يمثّل اسم «آمون». ويسهل التقريب بين الاسمين عند ما نعرف أنّ «آمون» ينطق كذلك «أمانا» ويقصد منه بالاختصار «كبير كهنة» مثلما كان اسم فرعون . وهو اسم البيت الأعظم للحكومة . أصبح لقباً يلقب به ملوك مصر الذين يحكمون البلاد. فهامان لقب كبير كهنة «آمون» الذي كان يشغل منصب وزارة فرعون في الشئون المالية والعمرانية. ^(٥)

(١) راجع : قصة الحضارة لول ديورانت ، ج ٢ ، ص ٩٣ ؛ وترجمته الفارسية «تاريخ تمدّن» ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

(٢) راجع : تاريخ مصر لبرستيد ، ص ٥٢٠ .

(٣) راجع : ثقافة فراعين مصر لدوماس ، ١٩٦٥ م ، ص ١٥٨ (پاریس).

(٤) المصدر. وراجع : الدفاع عن القرآن ضدّ منتقديه لعبد الرحمن بدوي ، ص ١٨٦ .

(٥) انظر : ١٩٨٢ de ؛ ١. lloc ؛ ١. loc ، ٣٢١ p ، l ، acinatrB aidaepolcycnE (دائرة المعارف البريطانية ، ج ١ ، ص ٣٢١ ، العامود الأول ، طبع ١٩٨٢). جاء فيه : «مملكة مصر كانت في ذلك العهد (عهد الأسرتين التاسعة عشر والعشرين) تدار أمورها على كاهل الديانة. وكانت تحكم البلاد آلهة على وفق العقائد الرسمية السائدة. وهؤلاء الآلهة مثل : أمان تهي بزياى ميليوپولس.

كانوا يحكمون البلاد ، ويرسمون خطط الحكم للملك مصر ، وكانت السياسة الحاكمة هي التي تمليها ممثّلو كهنة معبد آمون . أي كبير الكهنة . الذي كان بدوره يحمل هذا اللقب. ولنفس السبب كانت فراعنة مصر قد أوكّلوا أمور السياسة وإدارة البلاد إلى هؤلاء الكهنة ، ومن ثمّ حصل هؤلاء . إلى جنب القداسة . على ثروات طائلة ...». وإليك نصّ العبارة بالإنجليزية :

The religion of ancient Egypt was static and traditional, urging that the gods had given a good order and that it was necessary for man to hold firmly to the order. When changes did occur, religion tried to incorporate them into the system as though they came from the

فأوقد لي يا هامان على الطين!

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ...﴾. ^(١)

أي فاصنع لي آجرًا ، واجعل لي منه قصرا شامخا وبناء عاليا ، كي أصعد وأرتقي إلى السماء فأطلع إلى إله موسى؟

هذا ... وقد لهج بعض من لا خبرة له : أن البناء بالآجر والجص لم يعهد ذلك الحين ، وإنما كانت البنايات بالأحجار والصخور كالأهرام والهيكل

الكبير ببعلبك والمسرح الروماني ببصرى وغيرها.

لكن ذهب عنه : أن صناعة الآجر واستخدامه في البنايات . وحتى الرفيعة . قد تقادم عهدها منذ بداية حياة الإنسان الحضارية ، بما يقرب من

خمسة آلاف سنة قبل الميلاد. وحتى في مصر القديمة عثروا على طوابيق (جمع طابوق معرب تاوه : الآجر الكبير) في حفريات في قاع النيل يعود تاريخها إلى

(٥٠٠٠ ق م). وهكذا وجدوا مقابر على ساحل النيل مبنية بالآجر ومغلقة بالأخشاب مما يعود تاريخها إلى (٣٠٠٠ ق م).

هذا فضلا عن بنايات آجرية في بلاد مجاورة كبرج بابل وكذا معابد آشور والسومريين (٢٥٠٠ ق م). وأخيرا فطاق كسرى من بنايات شاهپور الأول

(٢٤١ م).

creation. By the time Akhenaton took the throne as the fourth pharaoh named Amenhotep, the 18th dynasty (1539-1292 BC) had run for nearly 200 years, and there had been a century of imperial conquest and control of foreign lands. Egypt dominated Palestine, Phoenicia, and Nubia. The nation was powerful, rich, and courted by lesser princes. To maintain these gains, a military and political group controlled the culture. Since the Egyptian state had always been theocratic, ruled by a god or gods, according to traditional beliefs, this group interlocked with the priesthood. The richest and most powerful of the gods, such as Amon of Htebes or Re of Heliopolis, it was held, dictated the purpose of the state. The king had to apply to the gods for oracles directing his major activities. In return for wealth, elegance, and the role of the leading actor in a drama of imperial success, the pharaoh had relinquished his religious (and military) authority to others. (see also Index: New Kingdom).

(١) القصص ٢٨ : ٣٨.

وغير ذلك كثير وكان معروفاً ذلك العهد ، بل وقبله بكثير . وإليك بعض الحديث عن ذلك :

صناعة الآجر واستخدامه منذ عهد قديم!

لعلّ من أقدم صنائع الإنسان هي صناعة الآجر من الطين المشويّ بالنار . ابتدعها الإنسان منذ أن اكتشف النار وعرف مفعولها في التأثير على الطين اللازب في صناعة الخزف والآجر والفخار . واستخدم الآجر في بنايات ضخمة منذ عهد قديم ، قد يرجع إلى عهد الحجر منذ أكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد .

فقد عثروا في حفريّات من قاع النيل بمصر على قطع من الآجر المصنوع من وحل النيل ممزوجاً مع بعرات الإبل ، يعود تاريخها إلى أبعد من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد . وهكذا وجدت على ساحل النيل آثار مقابر سقوفها مبنية بالآجر ومغلّفة بالأخشاب . ويعود عهدها إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد .

وقد استعمل الآشوريّون الآجر والجصّ في بناياتهم التقليدية والأقواس الهلالية على الدروب والمحاريب في شماليّ العراق ، ويعود تاريخها إلى حدود ألفي عام قبل الميلاد .

يقول «ديورانت» : هناك حوالي مدينة «اور» عاصمة ملك السومريّين ، في سهول بين النهرين وعلى ضفاف مصبّ دجلة والفرات وشواطئ خليج فارس ، وجدت الكثير من آثار بنايات ضخمة مبنية بالآجر والجصّ ، وفي حجم وعلى أشكال مربّعة مسطّحة نظير ما يستعمل اليوم لكنّه أفخم وأمتن . ويعود تاريخها إلى أكثر من ألفين وخمسمائة عام قبل الميلاد .

ومدينة «بابل» وهي أقدم وأشهر وأكبر مدن الشرق القديم . قرب الحلّة وعلى مسافة ٨٠ كم من بغداد . العراق اليوم ، كانت بناياتها الفخمة والقصور وبيوت الأشراف مبنية بالآجر ، وكذا المعابد والأبراج العالية ، ومنها برج بابل المعروف مبنيّ بالآجر ، وقد استوعبت بناية البرج أكثر من خمسة وثمانين مليون آجرة ، منها البقايا المبعثرة هناك ،

وهي على شكل مربع مسطح متين جدًا ، كآته مصنوع اليوم. ويقال لها : الطابق . والمعروف بالعراق : الطابوق . ويعني الآجر الكبير ، معرّب «تاوه» الفارسيّة.

وهذه المدينة عريقة في القدم ، على ما جاء في وصف التوراة ، باعتبارها كتاب تاريخ ، ومن آثارها المتبقية : باب عشتار وبلاط نبوخذنصر والطريق الملوكي ، المفروش بالآجر الضخمة وملاطها القار ، حسب وصف التوراة ، وقد شاهدته بعين الوصف حينما زرت البرج بالعراق. جاء في سفر التكوين : أنّ الذرية من ولد نوح ارتحلوا شرقيّ الأرض حتّى أتوا أرض شنعار (سهول بين النهرين . العراق) وسكنوا هناك وبنوا مدينة فخمة بلبات مشويّة على النار شيّا ، قالوا : هلمّ بن لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسما ، فجعلوا مكان اللبن الآجر وبدل الجصّ القار. ^(١) وهكذا بنوا القصور والأبراج العالية يوم ذاك ، ويعود تاريخ أكثر البنايات المتبقية حتّى اليوم إلى أكثر من ألفين وخمسمائة عام قبل الميلاد. ^(٢)

قولة اليهود : يد الله مغلوله!

قال تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾. ^(٣) قال الشيخ محمد عبده : وقد جعل بعض أهل الجدل الآية من المشكلات ، لأنّ يهود عصره ينكرون صدور هذا القول عنهم ، ولأنّهم يخالف عقائدهم ومقتضى دينهم. ومّا قالوه في حلّ الإشكال : إنهم قالوا ذلك على سبيل الإلزام ، فإنهم لما سمعوا قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ ^(٤) قالوا : من احتاج إلى القرض كان فقيرا عاجزا مغلول اليدين. بل قالوا ما هو أبعد من هذا في تعليل قولهم والحرص في بيان مرادهم منه ،

(١) سفر التكوين ، إصحاح ١١ / ٢ . ٤.

(٢) راجع : دائرة المعارف الإسلامية الكبرى ، ج ١ ، ص ٣٧ . ٣٨ . وقصة الحضارة : الجزء الأول من المجلد الأول ، ص ٢٦ . ولغت نامه دهخدا . وفرهنگ معین . وتاريخ مصر القديمة (الموسوعة المصرية) : الجزء الأول ، المجلد الأول : وتاريخ إيران ، ص ١٨٢ . ١٨٤ .

(٣) المائدة ٥ : ٦٤ .

(٤) البقرة ٢ : ٢٤٥ ، الحديد ٥٧ : ١١ .

وما هو إلا غفلة عن جرأة أمثالهم في كلِّ عصر على مثل هذا القول البعيد عن الأدب بعد صاحبه عن حقيقة الإيمان ، ممَّن ليس لهم من الدين إلا العصبية الجنسية والتقاليد القشرية ، فلا إشكال في صدوره عن بعض المجازفين من اليهود في عصر النبي ﷺ وقد كان أكثرهم فاسقين فاسدين.

وطالما سمعنا ممَّن يعدُّون من المسلمين في عصرنا مثله في الشكوى من الله عزَّ وجلَّ والاعتراض عليه عند الضيق وفي إثبات المصائب.

وعبارة الآية لا تدلُّ على أنَّ هذا القول يقوله جميع اليهود في كلِّ عصر حتَّى يجعل إنكار بعضهم له في بعض العصور وجها للإشكال في الآية ، وإنَّما عزاه إلى جنسهم . في حين أنَّه قول بعضهم وهو «فنحاص» رأس يهود بني قينقاع وفي رواية : النباش بن قيس أحد رجالهم. وفي أخرى : أنَّه حيي بن أخطب . لأنَّه أثر ما فشا فيهم من الجرأة على الله وترك إنكار المنكر ، والمقرُّ للمنكر شريك الفاعل له. على أنَّ الناس في كلِّ زمان يعززون إلى الامة ما يسمعون من بعض أفرادها . ولا سيَّما إذا كان من أكابر القوم . إذا كان مثله لا ينكر فيهم . والقرآن يسند إلى المتأخِّرين ما قاله وفعله سلفهم منذ قرون ، بناء على قاعدة تكافل الامة وكونها كالشخص الواحد. ومثل هذا الاسلوب مألوف في كلام الناس أيضا. ^(١)

مقصوده من بعض أهل الجدل هو الإمام الرازي في تفسيره الكبير. ^(٢) لكن ليس يهود عصره هم الذين أنكروا صدور مثل هذا القول عن سلفهم ، بل حتَّى في زماننا هذا اعترضت الجالية اليهودية القاطنة في إيران وقدمت اعتراضها إلى المجمع الإسلامي مستعلمة منشأ انتساب هذا القول إليهم.

كما أنَّ ظاهر القرآن أنَّ هذا هو عقيدة أسلافهم باعتبارهم أمة ، لا بالنظر إلى آحاد عاصروا عهد الرسالة قالوها عن جهالة أو مجازفة عابرة ، الأمر الذي لا يستدعي نزول قرآن بشأنه!

(١) تفسير المنار ، ج ٦ ، ص ٤٥٣ .

(٢) راجع : ج ١٢ ، ص ٤٠ .

فلا بدّ هناك من منشأ يمسّ عقيدتهم بالذات عقيدة إسرائيلية عتيقة استدعت هذا الذمّ الشامل. وأكثر المفسّرين على أنّ هذا القول صدر عنهم على سبيل الإلزام (أي على طريقة الاستلزام) وهي طريقة جدلية يحاول فيها تبكيك الخصم بالأخذ عليه بما يستلزمه مذهبه ، أي لازم رأيه بالذات وإن لم يكن من عقيدة صاحب الحجّة. قالوا : لما كثرت الحثّ والترغيب على إقراض الله بالإنفاق في سبيله وبذل الصدقات . وجاء ذلك في كثير من الآيات . فعند ذلك جعلت اليهود تستهزئ بعقيدة المسلمين في ربّهم حيث فرضوه فقيرا محتاجا إلى الاستقراض ، وقالوا تهكّما وسخرا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾. ^(١) فمن كان فقيرا كان عاجزا مكتوف اليدين. ^(٢)

ويرى العلامة الطباطبائي أنّ هذا الوجه أقرب إلى النظر. ^(٣)

لكن في التفسير الوارد عن أئمة أهل البيت عليه السلام : أنّ قولتهم هذه تعني عقيدتهم بأنّ الله قد فرغ من الأمر فلا يحدث شيئا بعد الذي قدره الله في الأزل. «جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة» ^(٤) فلا تغيير بعد ذلك التقدير. تلك كانت عقيدة اليهود السائدة ، وتسربت ضمن الإسرائيليات إلى أحاديث العاقبة. فردّ الله عليهم بأنّ يديه مبسوطتان يتصرّف حيث يريد. ﴿يَمْخُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. ^(٥) ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. ^(٦) ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. ^(٧) ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ^(٨)

روى الشيخ بإسناده إلى هشام بن سالم عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ^(٩) قال : كانوا يقولون : قد فرغ من الأمر. ^(١٠)

وقال الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام لسليمان بن حفص المروزي ، متكلّم خراسان . وقد استعظم مسألة البداء في التكوين . : أحسبك ضاهيت اليهود في هذا

(١) آل عمران ٣ : ١٨١.

(٢) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٥٤٧.

(٣) تفسير الميزان ، ج ٦ ، ص ٣٢.

(٤) راجع : صحيح البخاري ، باب القدر ، ج ٨ ، ص ١٥٢.

(٥) الرعد ١٣ : ٣٩.

(٦) الرحمن ٥٥ : ٢٩.

(٧) هود ١١ : ١٠٧ ، البروج ٨٥ : ١٦.

(٨) فاطر ٣٥ : ١.

(٩) المائدة ٥ : ٦٤.

(١٠) بحار الأنوار ، ج ٤ ، ص ١١٣ ، رقم ٣٥.

الباب! قال : أعوذ بالله من ذلك ، وما قالت اليهود؟ قال : قالت اليهود : «يد الله مغلولة» يعنون أنّ الله قد فرغ من الأمر فليس يحدث شيئا. ^(١)
وروى الصدوق بإسناده إلى إسحاق بن عمار عمّن سمعه عن الصادق عليه السلام أنّه قال في الآية الشريفة : لم يعنوا أنّه هكذا (أي مكتوف اليد) ولكنهم قالوا : قد فرغ من الأمر فلا يزيد ولا ينقص. فقال الله جلّ جلاله تكذبا لقولهم : ﴿عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾. ^(٢) ألم تسمع الله عزّ وجلّ يقول : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. ^(٣)

قال عليّ بن إبراهيم . في تفسير الآية . : قالوا : قد فرغ من الأمر لا يحدث الله غير ما قدره في التقدير الأول ، بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء أي يقدّم ويؤخّر ويزيد وينقص وله البداء والمشیئة. ^(٤)

وهكذا روى العياشي في تفسيره عن حمّاد عن الصادق عليه السلام . ^(٥)

ورواياتنا بهذا المعنى متضافرة.

وقد تعرّض الراغب الأصفهاني لذلك أيضا قال : قيل : إنهم لما سمعوا أنّ الله قد قضى كلّ شيء قالوا : إذن يد الله مغلولة أي في حكم المقيد لكونها فارغة. ^(٦)

ويبدو من كثير من الآيات القرآنية التي واجهت اليهود بالذات دفعا لمزعمتهم أن لا تبديل بعد تقدير ، أنّ هناك عقيدة كانت تسود اليهود في عدم إمكان التغيير عمّا كان عليه الأزل. الأمر الذي يشي بجانب من قضية الجبر في الخلق والتدبير ممّا كانت عليه الامم الجاهلة ، ومنهم بنو إسرائيل. فهناك في حادث تحويل القبلة اعترضت اليهود على هذا التحويل ، فنزلت الآية ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. ^(٧) قال ابن عباس : إنّ اليهود استنكروا تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة.

(١) المصدر : ص ٩٦ ، رقم ٢. وراجع : عيون أخبار الرضا ، ج ١ ، ص ١٤٥ ، باب ١٣ ، رقم ١.

(٢) المائدة ٥ : ٦٤.

(٣) الرعد ١٣ : ٣٩. راجع : كتاب التوحيد للصدوق ، ص ١٦٧ ، باب ٢٥ ، رقم ١.

(٤) تفسير القمي ، ج ١ ، ص ١٧١.

(٥) تفسير العياشي ، ج ١ ، ص ٣٣٠ ، رقم ١٤٧.

(٦) المفردات ، ص ٣٦٣.

(٧) البقرة ٢ : ١١٥.

واختاره الجبائي أيضا. ^(١)

وبهذا الشأن أيضا نزلت الآية ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. ^(٢)

قال العلامة الطباطبائي : النسخ في الآية يعمّ التبديل في التشريع وفي التكوين معا وذلك نظرا لعموم التعليل في ذيل الآية ، حيث علّل إمكان النسخ . وهو مطلق إزالة الشيء عمّا كان عليه وتبديله إلى غيره . بعموم القدرة أولا ، وبشمول ملكه للكائنات السماوية والأرضية جميعا . قال : وذلك أنّ الإنكار المتوهم في المقام أو الإنكار الواقع من اليهود . على ما نقل في شأن نزول الآية بالنسبة إلى معنى النسخ . يتعلّق من وجهين :

الأول : أنّ الكائن . سواء في التشريع أم في التكوين . إذا كان ذا مصلحة ، فزواله يوجب فوات المصلحة التي كان يحتويها . الثاني : أنّ الإيجاد إذا تحقّق أصبح الموجود ضرورة لا يتغيّر عمّا وقع عليه . فهو قبل الوجود كان أمرا اختياريا ولكنّه بعد الوجود خرج عن الاختيار وأصبح ضرورة غير اختيارية .

قال : ومرجع ذلك إلى نفي إطلاق قدرته تعالى ، فلا تعمّ الكائن الحادث بعد حدوثه . وإمّا القدرة خاصّة بحال الحدوث ولا تشمل حالة البقاء . وهو كما قالت اليهود : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ .

قال : وقد ألمح سبحانه وتعالى إلى الردّ على الوجه الأوّل بقوله : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . فلا موضع لتوهم فوات المصلحة القديمة بعد إمكان التعويض عنها بمصلحة مثلها أو خير منها . وعن الوجه الثاني بقوله : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ أي له التصرف في ملكه حيثما يشاء ، وهو دالّ على عموم القدرة ، في بدء

(١) مجمع البيان ، ج ١ ، ص ١٩١ .

(٢) البقرة ٢ : ١٠٦ و ١٠٧ .

الحدوث وعبر البقاء جميعا. ^(١)

وعليه أيضا نزلت الآية : ﴿يَخُوعُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. ^(٢) أي يمكنه تعالى أن يزيل شيئا عمّا قدّر فيه ويبدّله إلى غيره ، حسب علمه تعالى في الأزل بالمصالح والمفاسد المقتضية في أوقاتها وظروفها الخاصة. فهو تعالى كلّ يوم في شأن. ^(٣)

ومثلها قوله تعالى : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ^(٤) وذلك أنّهم لفرط جهلهم أنكروا إمكان التبديل في الخلق والتدبير . سواء في التشريع والتكوين . حسبوا من التغييرات الحاصلة في طول التشريع أنّها افتراء على الله. الأمر الذي يدلّ على غباوتهم وجهلهم بمقام حكمته تعالى الماضية في الخلق والتدبير على طول خطّ الوجود.

وهذا المعنى هو المستفاد من عقيدتهم بأنّه تعالى بعد ما فرغ من خلق السماوات والأرض خلال الستة الأيّام استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت. جاء في سفر التكوين : «فأكملت السماوات والأرض وكلّ جندها ، وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل ، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل». ^(٥)

* * *

وقد يقال : إنّ هذا المعنى لا ينسجم مع ذيل الآية ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ، حيث يستدعي هذا التعبير أن يكون النظر في صدر الآية إلى أمر البخل والتقتير في الرزق. ^(٦)

غير أنّ ذكر الإنفاق كيف يشاء . في ذيل الآية . : جاء بيانا لأحد مصاديق بسط يده تعالى وشمول قدرته ، وليس ناظرا إلى الانحصار فيه. ولعلّ ذكر ذلك كان بسبب ما واجه المسلمين في إتيان أمرهم من الضيق وعدم التوفّر في تهيئة التجهيز الكافي والحصول على الإمكانيات اللازمة ، فأخذت اليهود في الطعن عليهم بأنّ ذلك هو المقدّر لهم ، وليس بوسعهم تعالى أن يفسح لهم المجال أو يوسع عليهم في المعاش.

(١) تفسير الميزان ، ج ١ ، ص ٢٥٣ . ٢٥٤ .

(٢) الرعد ١٣ : ٣٩ .

(٣) الرحمن ٥٥ : ٢٩ .

(٤) النحل ١٦ : ١٠١ .

(٥) سفر التكوين ، الإصحاح ٢ / ١ .

(٦) راجع : تفسير الميزان ، ج ٦ ، ص ٣١ .

والآ فوجهة الآية عامة كنظيراتها ، والعبرة بعموم اللفظ دون خصوص المورد.

قوله اليهود : عزيز ابن الله!!

قال تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَاتَّخَذَهُمُ اللَّهُ أَنْيُّ يُؤَفَّكُونَ﴾. (١)

عزيز . مصغراً . هو الذي يسمّيه أهل الكتاب «عزرا». قال الشيخ محمد عبده :
والظاهر أنّ يهود العرب هم الذين صغّروا بالصيغة العربية للتحييب وصرفوه. وعنهم أخذ المسلمون. والتصرّف في أسماء الأعلام المنقولة إلى لغة اخرى معروف عند جميع الامم. حتّى أنّ اسم «يسوع» قلبته العرب فقالت : «عيسى».
وعزرا هذا هو الذي أحيا شريعة اليهود بعد اندراسها وكتب أسفارهم من جديد بعد ضياعها لمُدّة تقرب من قرنين ، بعد كارثة بخت نصر الذي شتّت شملهم وأحرق كتبهم وأخرب معابدهم ، ووضع السيف في رقابهم وأسر الباقين إلى أرض بابل حتّى فرّج عنهم الملك داريوش عند ما فتح بابل ، وساعدهم على المراجعة إلى أرض فلسطين فيمن عزم على الرجوع إليها من اليهود وعلى رأسهم عزرا . وهو عجوز قد طعن في السنّ . فأعاد بناء الهيكل على حساب ملك فارس. وقام بإحياء الشريعة وكتابة الأسفار نحو سنة ٤٥٧ ق. م. (٢) جمعها من صدور الرجال والمحفوظ لديهم من بقايا آثار التوراة. فكانت له منزلة رفيعة عند اليهود ممّا يقرب مرتبه نبيّ الله موسى ﷺ لأنّه أحيا الشريعة الموسوية من جديد وأعاد حياتها بعد الضياع والاندراس. وهذا هو السرّ في تلقيبه بابن الله تشريفا بمقامه الرفيع عندهم. كما قالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾. (٣) أيّ مقرّبون لديه تعالى مقربة الولد من والده. ولعلّ تلقيب المسيح بابن الله أيضا من هذا الباب تشريفا بموضعه عند الله العزيز. وجملة القول : إنّ اليهود كانوا وما زالوا يقدّسون عزيزا هذا. حتّى أنّ بعضهم أو

(١) التوبة ٩ : ٣٠.

(٢) راجع : سفر عزرا ، الإصحاح السابع.

(٣) المائدة ٥ : ١٨.

جلّهم أطلق عليه لقب ابن الله. فهو تلقب تكريم كما في تلقب يعقوب بإسرائيل أي القدرة الغالبة الإلهية. وداود بمعنى المحبوب لدى الله. وجبرائيل أي الرجل الإلهي. وعزرائيل أي عزّته تعالى. كلّ هذه ألقاب تشريفية تكريماً بمقام المتلقّبين بها. لكن الفيلسوف اليهودي «فيلو» الاسكندري المعاصر للمسيح يقول : إنّ الله ابنا هو كلمته التي خلق بها الأشياء. فعلى هذا لا يبعد أن يكون بعض اليهود المتقدّمين على البعثة المحمّدية . على المبعوث وآله صلوات ربّ العالمين . قد قالوا إنّ عزيراً ابن الله بهذا المعنى ، كما شاع عند النصارى أن تلقب المسيح بابن الله هو من هذا الباب. ^(١)

قال اجعلني على خزائن الأرض

قالوا : لم يعهد من تاريخ مصر القديمة أنّ ملوكها استوزروا أجنب في سلطانهم ، فمن هذا الملك الذي استوزر يوسف العبراني لإدارة شؤون الاقتصاد في البلاد؟

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ (أي أجعله من خاصتي) ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ. قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. ^(٢) فأصبح يوسف عزيز مصر!

وتزحلق بعضهم القول بعدم معهودية التوزير من أبناء اليهود ^(٣) ولم يدر المسكين أنّ يوسف سبق اليهودية بقرون! وكان الذي حوّله إرادة شؤون الاقتصاد من الملوك الرعاة (الهكسوس) وهم أجنب ومن جالية الشعوب الهندية الاوروبية تغلبوا على الشعب المصري وحكموا البلاد قسراً. والذي بدأ حوالي سنة ١٨٠٠ ق.م. وهو العهد الذي يمثّل الاسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ثم السابعة عشرة في الشمال حتّى عام ١٥٧٠ ق.م ليقيم «أحمس الأول» في وجههم ويطردهم ويؤسّس الدولة الحديثة الاسرات من الثامنة عشرة إلى آخر العشرين. وكان إذ ذاك أوان خروج العبرانيّين من مصر

(١) راجع : تفسير المنار ، ج ١٠ ، ص ٣٢٢ . ٣٢٨ .

(٢) يوسف ١٢ : ٥٤ و ٥٥ .

(٣) شجاع الدين شفا في كتابه «تولّد ديكر» ، ص ٢٨٦ .

على عهد موسى وفرعون. (١)

عام فيه يغال الناس وفيه يعصرون

ويسترسل «نولدكه» في توهماتِه عن القرآن ، ليزعم أنّ هذا التعبير بشأن صعيد مصر الذي تشحّ فيه الأمطار ينمّ عن جهل بموضع هذا البلد الذي تعود خصوبته إلى فيضان النيل لا الأمطار. جاء في فقرة من كتابه (sehctekS... ص ٣٠ . ٣١) حول هامان ومريم : «بالإضافة إلى هذا التصوّر غير المعقول ، يوجد تحويرات مزاجية شتّى ، بعضها يدعو للسخرية وينسب إلى محمّد نفسه. والمثال على جهله لكلّ الامور خارج الجزيرة هو جعل الخصوبة في مصر . التي تشحّ فيها الأمطار . مرهونة بالأمطار وليس بفيضان النيل». (٢)

هذا الانتقاد في غاية الغباء وينمّ عن جهل «نولدكه» . المستشرق المشهور . للغة العربية وللشئون المصرية بالذات.

لقد جاء في الآية التي يستشهد بها ما يلي : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾. (٣)

وكلمة «يغال» تحتل أن تكون من «الغوث» . وهو النصرة . أو من «الغيث» أي المطر . ﴿فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ (٤) أي استنصره . ومن ثم جاء في تفسير الآية ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أي ينجى الناس من الجذب ومحنة القحط. قالوا : ويكون من قولهم : أغاثه الله ، إذا أنقذه من كرب أو غمّ. ومعناه : ينقذ الناس فيه من كرب الجذب. وقوله «وفيه يعصرون» أي يعصرون السمسسم دهننا والعنب خمرا والزيتون زيتا. وهذا يدلّ على ذهاب الجذب وحصول الخصب ووفور الخير. (٥)

(١) راجع : الموسوعة المصرية (تاريخ مصر القديمة) ، مجلّد أوّل ، الجزء الأوّل ، ص ٣٨ . ٤٢ ؛ وقاموس الكتاب المقدّس ، ص ٩٦٨ و ٩٦٩ ؛ وقصص الأنبياء للنّجار ، ص ١٤٩ .

(٢) راجع : الدفاع عن القرآن ، ص ١٨٦ .

(٣) يوسف ١٢ : ٤٩ .

(٤) القصص ٢٨ : ١٥ .

(٥) راجع : التفسير الكبير ، ج ١٨ ، ص ١٥١ .

أما لو اخذت من «الغيث» أي المطر فيكون المعنى : فيه يمطرون. غير أنّ بلاد مصر العليا تنعم بغزارة الأمطار في أربعة أشهر متتالية في فصل الشتاء. فالمصريّون الذين يعيشون في الدلتا يعلمون جيّدا أنّ الأمطار تتساقط بغزارة خلال فصل الشتاء أي خلال أربعة أشهر (من ديسمبر إلى مارس). وأنّ زراعة القمح والبرس والشعير والفلول وأمّثالها تعتمد أساسا على الأمطار التي تتساقط هذه الفترة. الأمر الذي يجهله أمثال «نولدكه» من المتخصّصين في الدراسات العربية الإسلامية ، وهو لم تطأ قدمه بعد البلدان الإسلامية ولم يغادر أوربا طوال عمره (١٨٣٦ - ١٩٣١ م). فلا غرو أن يخطأ «نولدكه» خطأ مزدوجا ، فهو لم يفهم النصّ العربي للآية. ثم إنّه يؤكّد أنّ المطر يكاد ينعدم في مصر ، وأهلها لم يشعروا أبدا باحتياجهم له! وهو الخطأ الذي لا يقع فيه أحد من صبية مصر! على حدّ تعبير الاستاذ البدوي.^(١)

والعجب أنّه لم يطّلع على ما كتبه «سال elS» في ترجمة القرآن التي أنجزها وانتشرت خلال القرن الثامن عشر. إنّه يترجم الآية هكذا :

"Then shall there come, after this a year wherein men shall have plenty of rain, and wherein they shall press wine and oil".

ونجده في ملاحظة سجّلها في أسفل الصفحة يقول : علينا أن نفنّد ما كتبه بعض المؤلّفين القدامى. فلقد كانت تمطر عادة في الشتاء خاصّة في الوجه البحري ، وقد لوحظ الثلج في الإسكندرية على نقيض ما يزعمه «aceneS» صراحة. فعلا تصبح الأمطار أكثر ندرة في الوجه القبلي في اتجاه شلالات النيل. وعلى أيّة حال فإنّنا نفترض أنّ الأمطار التي ذكرت هنا. في الآية. قصد بها تلك التي تسقط في «إثيوبيا» وتسبّب ارتفاع منسوب النيل.^(٢)

(١) معدّل الأمطار التي تسقط في الإسكندرية وشمال الدلتا يقدر به ٢٠٦ ملم ، وفي القاهرة ٣٣ ملم. انظر : .s.L ١٩٧٤ ، paraH ، nodnoL ، acirfA.etagguS (الدفاع عن القرآن ، ص ١٨٧ - ١٨٨).

(٢) narokehT ، elASeqroeGybciba rAlanigiroehtmor fhcsilgnEotnidet alsnart هذه الترجمة صدرت عام ١٧٣٤. (الدفاع عن القرآن ، ص ١٨٧).

فيا ترى كيف لم يطلع «نولدكه» على هذه الترجمة وهذه الملاحظة التي سجلها «سال» وكانت في متناوله؟!

فاليوم ننجيك ببدنك

قال تعالى . فيما حكاه خطابا لفرعون حينما أدركه الغرق . : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾. ^(١) وذلك عند ما أيقن بالغرق وقال : ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. ^(٢) قال تعالى : ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾. ^(٣)

قال هاشم العربي : وهذا يدل على أنه تعالى نجى فرعون من الغرق ، ومن ثم يناقض ما ورد في سائر الآيات من أنه تعالى أغرقه ومن معه جميعا. ^(٤) وسخف تأويل المفسرين ذلك بإنقاذ جسده من قعر البحر وجعله طافيا على وجه الماء ، أو نبذ الأمواج له إلى نجوة (مكان مرتفع) من ساحل البحر ، ليكون عبرة للآتين ، حيث يجدوه مطروحا بلا روح على الأرض. قال : هذا تأويل يخالف ظاهر التعبير ، حيث المتبادر من النجاة هو الخلاص من الغرق. قال : على أنه ليس في ذلك (طفو الجسد على وجه الماء أو طرحه على الساحل) آية ، لأن هذه حال أكثر الغرقى تطفو جثثهم على الماء أو يلقيها البحر بالساحل. ^(٥)

لكنه لم يمعن النظر في التعبير بالبدن ، وهي الجثة بلا روح. فلو كان أراد تنجيته لجاء التعبير : «ننجيك» بلا زيادة قوله : «ببدنك». فهذه الزيادة دللتنا على اختصاص البدن (الجسد بلا روح) بالنجاة.

والمراد بالنجاة هو الخلاص ببدنه سليما من مقضمة الحيوانات البحرية ومن غير أن يتفتت أشلاء أو يتفسخ.

(١) يونس ١٠ : ٩٢.

(٢) يونس ١٠ : ٩٠.

(٣) يونس ١٠ : ٩١. وراجع : الإسراء ١٧ : ١٠٣ ؛ والزخرف ٤٣ : ٥٥ ؛ والقصاص ٢٨ : ٤٠.

(٤) ملحق ترجمة كتاب الإسلام ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠.

(٥) راجع ما كتبه الشيخ الطنطاوي بهذا الشأن في تفسير الجواهر ، ج ٦ ، ص ٨١ و ١٠٥.

الأمر الذي بقي معجزة خالدة ، فهذا هو جسد فرعون المحنّط. معروض للعامة ، وقد شاهده في متحف بريطانيا الأثري ، وجثث أخرى معروضة هناك وفي متاحف مصر أيضا.

من هو فرعون موسى؟

وفرعون هذا يقال : إنه «توت عنخ آمون» من ملوك الأسرة الثامنة عشرة وكانت مدّة ملكه ما بين (١٣٤٨ . ١٣٣٧ ق. م) أي قبل ثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة تقريبا. (١)

وقيل : هو منفا (منفتاح) الأوّل من الاسرة التاسعة عشرة (١٢٢٣ . ١٢١١ ق. م).

وقيل : ابنه «سيتي» الثاني (١٢٠٧ . ١٢٠٢ ق. م). (٢) وفي أيامه اختلّ الأمن وسادت القلاقل وهلك سيتي بعد أن ملك مدّة قصيرة ، وقد عثر على جثته في قبر «أمنهوتب» الثاني بطيبة. فانفرد الولاة كلّ بولايته ، ومن ثمّ كثر وفود الأجانب على مصر. (٣)

ولقد صدق الله سبحانه حيث يقول : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾. (٤)

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥)

هل ورثت بنو إسرائيل ديار مصر بعد غرق فرعون وجنوده؟

ليس في الآية تصريح بذلك ، وإنما هو الاستيلاء على ديار كان ملوك مصر مسيطرين عليها ، وليس على نحو الشمول. ففي سورة الأعراف . بعد أن ذكر قصّة الغرق . قال : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا

(١) تفسير الجواهر ، ج ٦ ، ص ٨١ . ٨٢.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين ، ج ٩ ، ص ٣٠ . وراجع : الموسوعة المصرية (تاريخ مصر القديمة وآثارها) : المجلد الأوّل ، الجزء الأوّل ، ص ٥٩.

(٣) المصدر.

(٤) الدخان ٤٤ : ٢٥ . ٢٨.

(٥) الشعراء ٢٦ : ٥٩.

فِيهَا ^(١). والأرض المباركة هي أرض فلسطين والشامات. ^(٢) وهي عامرة بوفرة الخصب وكثرة الأرزاق. ومشارك الأرض ومغارها إشارة إلى سلطان داود وسليمان على بني إسرائيل وأتھما أقاما دولة واسعة الأرجاء في فلسطين امتدّت إلى شرق البلاد وغربها في عرض عريض. وأما قوله تعالى : **﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾** ^(٣). فلعلّه أراد الفوضى التي حصلت بعد هلاك «سيتي» الثاني وتواترت وفود الأجانب على البلاد كما قدّمنا. ^(٤) وإن كان اريد بهم قوم إسرائيل فيحمل على إرادة أرض فلسطين كالأية السابقة.

شبهة وجود اللحن في القرآن

قالوا : وأيّ باطل بعد الخطأ واللحن تبتغون؟ وقد رويتم عن عائشة أنّها قالت : ثلاثة أحرف في كتاب الله هنّ خطأ من الكاتب :

١ . قوله : **﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ﴾** ^(٥).

٢ . قوله : **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾** ^(٦).

٣ . قوله : **﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾** ^(٧).

ورويتم عن عثمان : أنّه نظر في المصحف بعد ما رفع إليه فقال : أرى فيه لحنا وستقيمه العرب بألسنتها. ^(٨)

ونسبوا إلى التابعي الكبير سعيد بن جبير أنّه زعم أنّ في القرآن لحنا في أربعة مواضع ، وذكر الموارد الثلاثة ، وزاد الرابعة قوله تعالى : **﴿فَأَصْدَقَ وَأَكْنُ**

مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ^(٩).

(١) الأعراف ٧ : ١٣٧.

(٢) جاء هذا التعبير بشأن أرض فلسطين وما والاها في مواضع من القرآن : الإسراء ١٧ : ١ ؛ الأنبياء ٢١ : ٧١ ؛ الأعراف ٧ : ١٣٧.

(٣) الدخان ٤٤ : ٢٨.

(٤) راجع : دائرة معارف القرن العشرين ، ج ٩ ، ص ٣٠.

(٥) طه ٢٠ : ٦٣.

(٦) المائدة ٥ : ٦٩.

(٧) النساء ٤ : ١٦٢.

(٨) راجع : تأويل مشكل القرآن ، ص ٢٥ - ٢٦.

(٩) المصاحف للسجستاني ، ص ٣٣ - ٣٤. والآية ١٠ من سورة المنافقين.

وقالوا في قوله تعالى ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾: ^(١) كان ينبغي التأنيث في العدد ، لأنَّ التقدير : عشرة أيام!. وهكذا زعم من لا دراية له من المستشرقين وأذناهم أنَّ في القرآن لحنا ، وتغافلوا عن أن لو كان الأمر على ذلك لاتخذ مناوءو الإسلام من أول يومه ذريعة للغمز فيه وهم عرب اقحاح ، ولم يكن يصل الدور إلى هؤلاء الأجانب الأسقاط. ^(٢)

ليس في القرآن لحن

لا شك أنَّ القرآن من أقدم أسناد اللغة ذوات الاعتبار ، ولا مجال للتزديد في حجّيته واعتباره بعد حضوره في عصر كان العرب في أوج حضارتها الأدبية الراقية ، وكانوا أعداء الداء له يتحينون الفرص للغمز فيه من أيّ جهة كانت ، لو لا اعترافاتهم الصريحة باعتلائه الشامخ في الأدب الرفيع. فهل يعقل أن يكون في القرآن مسارب للغمز فيه تغافلها أولئك الأقحاح ليتعرّف إليها هؤلاء الأذئاب؟ على أنَّ الصحيح من كلّ لغة هو ما حفظته أسنادهم العتيدة ، ولتكون هي المعيار في تمييز السليم عن السقيم. هذا ابن مالك ـ إمام في النحو والأدب ولغة العرب ـ يجعل القرآن قدوة في تنظيم قواعد اللغة وترصيف أدبها ، يقول :

وسبق حال ما بحرف جرّ قد أبوا ولا أمنعه فقده ورد
يعني : أنَّ بعض النحاة ذهبوا إلى عدم جواز تقدّم الحال على ذي حال مجرور بحرف ، ولكيّ اجيز ذلك ، استنادا إلى وروده في سند قويم وهو القرآن الكريم ، في قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾. ^(٣) لتكون «كافة» حالا من «الناس». فقد جعل القرآن سندا قطعيا لقاعدة لغوية ، دون العكس على ما زعمه الزاعمون. فكلّ ما جاء في القرآن هو الحجّة والسند القاطع لفهم مجاري الأدب الرفيع.

(١) البقرة ٢ : ٢٣٤.

(٢) انظر : تاريخ القرآن لنولديكه ، ج ٣ ، ص ٤٠٢ ؛ آراء المستشرقين حول القرآن ، ج ٢ ، ص ٥٥٥ ـ ٥٧٤.

(٣) سبأ ٣٤ : ٢٨.

* * *

فما زعمه الزاعمون من وجود لحن في كتاب الله فإنّما هو لقصور فهم وعدم اضطلاع بمباني اللغة الأصيلة وإليك توضيحاً لهذا الجانب :
أما قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ** ﴾^(١) فالقراءة الصحيحة المتبعة وهي قراءة حفص وجمهور المسلمين هي القراءة بالتحفيف ، مخففاً عن المثقلة ،
بدليل وجود اللام في الخبر . وكان أبو عمرو بن العلاء . وهو أعلم أهل زمانه بالقرآن والعربية وآدابها . يقول : إني لأستحيي أن أقرأ بالتشديد ورفع الاسم .
فالخطأ موجّه إلى تلك القراءة المرفوضة وليس في القرآن الذي يلهج به عامّة المسلمين وعلى رأسهم قراءة حفص ذات الإسناد الذهبي إلى الإمام أمير
المؤمنين عليه السلام .

أما الحمل على لغة بلحرت بن كعب ، حيث كانوا يلهجون في المثني بالألف مطلقاً . كما فعله ابن قتيبة .^(٢) فغير سديد . لأنّ القرآن نزل وفق اللغة
الفصحى ولا يحمل على الشواذ المنبوذة .^(٣)

* * *

وأما الرفع في المعطوف عن منصوب «إنّ» في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ** ﴾^(٤) قبل استكمال الخبر ، فلكونه عطفاً على
محلّ الاسم وهو رفع بالابتدائية . ورجّح ذلك لوجهين :
أحدهما : مناسبة الواو في «هادوا» ، في حين عدم ظهور إعراب الاسم بسبب البناء . قال الفراء : ويجوز ذلك إذا كان الاسم ممّا لم يتبيّن فيه
الإعراب ، كالمضمر والموصول .^(٥) كقول ضابئ بن الحارث البرجمي :

فمن يــــك أــــمــــسى بالمدينــــة رحله فــــإني وقــــيــــار بهــــالغريب

(١) طه ٢٠ : ٦٣ .

(٢) راجع : تأويل مشكل القرآن ، ص ٥٠ .

(٣) وقد أسهب ابن قتيبة في هذا المجال ، وذكر أشياء فيها فوائد كثيرة ، فراجع . وقد فصلنا الكلام حول الآية في كتابنا «صيانة القرآن من التحريف» ، ص ١٨٢ . ١٨٣ ، طبق ١٤١٨ .

(٤) المائدة ٥ : ٦٩ .

(٥) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ .

وقال بشر بن حازم :

وإِلَّا فَعَلِمُوا أَنَّا وَأَنْتُمْ بَعْدَ بَقِيْنَا فِي شَقَا

ورجح ذلك في الآية رعاية لمناسبة الواو في «هادوا» نظير العطف على الجوار. قال الكسائي : هو نسق على ما في «هادوا». (١)

كما رجح النصب على الأصل في آية أخرى نظيرتها أيضا لمناسبة الجوار ، وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ (٢) لمناسبة الياء في «النصارى». (٣)

ثانيهما : ما ذكره ابن قتيبة ، قال : جواز الرفع في مثل ذلك إنما كان لأجل عدم تغيير في مفهوم الابتدائية سواء قبل دخول «إن» أو بعده. حيث إنها تزيد معنى التحقيق ولا تزيد معنى آخر سوى ما كانت الجملة تفيدها ذاتا. ومن ثم لا يجوز ذلك في المعطوف على اسم «لعل» أو «ليت» لزيادة معنى الترجي أو التمني في مفهوم الكلام.

وقال : رفع «الصابئون» لأثمة ردّ (أي عطف) على موضع الاسم وموضعه رفع ، لأن «إن» مبتدأة ولم تحدث في مفهوم الكلام معنى كما تحدث أخواتها. ألا إنك تقول «زيد قائم» ثم تقول «إن زيدا قائم» ، ولا يكون بين الكلامين فرق في المعنى ، سوى زيادة التأكيد. لكنك إذا قلت «زيد قائم» ثم «لعل زيدا قائم» أو «ليت زيدا قائم» فقد أحدثت معنى الشكّ (الترجي) أو التمني في مفهوم الكلام. ومن ثم لا يجوز الرفع في المعطوف على الاسم في غير «إن» من سائر أخواتها. (٤)

وأما النصب في «المقيمين» من قوله تعالى : ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ (٥). وطرفاه على الرفع. فلأنه على القطع لأجل المدح والاختصاص ، وهو شائع في اللغة.

(١) المصدر.

(٢) البقرة ٢ : ٦٢.

(٣) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٢٢٥.

(٤) تأويل مشكل القرآن ، ص ٥٢.

(٥) النساء ٤ : ١٦٢.

ونظيره قوله تعالى في موضع آخر : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾. ^(١) قال سيبويه . في باب ما ينتصب في التعظيم والمدح . : وسمنا بعض العرب يقول : الحمد لله رب العالمين . بنصب الرب . فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية. ^(٢) قال : ومنها «والمقيمين» و «الصابرين» فقطع إلى النصب مدحا. وهذا باب شائع في العربية ، وتكلم فيه سيبويه بتفصيل. ^(٣) وهكذا قال أبو عبيد. قال : هو نصب على تطاول الكلام بالنسق ، أي للإيفاد بالكلام تطرية تخرجه على تطاول النسق. فيجوز القطع إلى النصب وإلى الرفع تطرية للكلام وإخراجه عن نسق واحد. وأنشد للخرنق بنت هقان :

لا يبعـد ن قـومـي الـذيـن هـم سـم العـداة وآفـة الجـز
النـازليـن بكـل مـعـتـرك والطـيـون معاقـد الأزر ^(٤)

* * *

وأما الجزم في «وأكن» معطوفا على «فأصدق» فمحمول على موضع «فأصدق» لو لم يكن فيه الفاء ، وموضعه جزم ، جوابا ل «لو لا» في قوله تعالى : ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. ^(٥) وهو من العطف على التوهم ، وهو شائع في اللغة. كما في قول الشاعر :

فـأـبلـوني بـليـتـكـم لـعلـي أصـالحـكم وأسـتـدرج نـويـا

فجزم «أستدرج» معطوفا على موضع «أصالحكم» بتوهم أنه لو لم يكن قبلها «لعلي». لأنه قال : فأبلوني بليتكم أصالحكم وأستدرج. ^(٦) وللفراء هنا كلام مسهب أتى فيه بفوائد جمّة ، نذكره على طوله :

(١) البقرة ٢ : ١٧٧.

(٢) كان سيبويه يحترم آراء يونس. ويأخذها حجة. والزعم هنا بمعنى الرأي والنظر.

(٣) راجع : كتاب سيبويه ، ج ١ ، ص ٢٨٨ - ٢٩١.

(٤) تأويل مشكل القرآن ، ص ٥٣.

(٥) المنافقون ٦٣ : ١٠.

(٦) راجع : تأويل مشكل القرآن ، ص ٥٦.

قال : فاذا أدخلت في جواب الاستفهام فاء نصبت ، كما قال الله تبارك وتعالى ﴿لَوْ لَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾. ^(١)

فإذا جئت بالمعطوف التي تكون في الجزاء وقد أجبته بالفاء كان لك في العطف ثلاثة أوجه :

١ . إن شئت رفعت العطف ، مثل قولك : إن تأتني فيأتي أهل ذاك ، وتؤجر وتحمد. وهو وجه الكلام.

٢ . وإن شئت جزمت ، وتجعله كالمردود على موضع الفاء.

والرفع على ما بعد الفاء. وقد قرأت القراء : ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ﴾. ^(٢) رفع وجزم.

وكذلك ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ﴾ ، ^(٣) جزم ورفع.

ولو نصبت على ما تنصب عليه عطوف الجزاء إذا استغنى لأصبت ، كما قال الشاعر وهو النابغة الذبياني :

فإن يهلك النعمان تعمر مطيئة وتخبأ في جوف العيـاب قطوعها

وإن جزمت عطفا على ما نصبت تردّه على الأول كان صوابا ، كما قال الشاعر بعد هذا البيت :

وتنحط حصان آخر الليل نخطئة تقصم منهم منها . أو تكاد . ضلوعها

وهو كثير في الشعر والكلام. وأكثر ما يكون النص في المعطوف إذا لم تكن في جواب الجزاء الفاء ، فاذا كانت الفاء فهو الرفع والجزم.

(١) وقد عدّ «لو لا» هنا في أدوات الاستفهام. وهذا المعنى ذكره الهروي. كما في المغني لابن هشام : حرف اللام ، ج ١ ، ٢٧٥ والطبعة الحجرية ، ص ١٤٤ ومثّل له بالآية. وقال الأمير في التعليقة على المغني : الاستفهام هنا بعيد جدا. ورجح أن يكون معنى العرض أو التحضيض.

(٢) الأعراف ٧ : ١٨٦.

(٣) البقرة ٢ : ٢٧١.

٣ . وإذا أجبنا الاستفهام بالفاء فنصبت فانصب العطف . وإن جزمته فصواب . من ذلك قوله تعالى : ﴿لَوْ لَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ﴾ ^(١) ، رددت «وأكن» على موضع الفاء ، لأنها في محلّ جزم ، إذ كان الفعل إذا وقع موقعها بغير الفاء جزم . والنصب على أن تردّه على ما بعدها ، فتقول : «وأكون» . وهي قراءة عبد الله بن مسعود «وأكون» بالواو . وقد قرأ بها بعض القرّاء (هو أبو عمرو بن العلاء) . قال : وأرى ذلك صواباً (أي القراءة بالواو مع عدم كتبها في المصحف) لأنّ الواو ربّما حذفت من الكتاب وهي تراءد ، لكثرة ما تنقص وتزاد في الكلام ... وقال بعض الشعراء (هو أبو داود الإيادي) :

فأبْلُونِي بِلَيْتٍ تَكُمُ لَعَلِّي اصْحَكُم وَأَسْتَدْرَجُ نَسِيًّا
فجزم «أستدرج» فإن شئت رددته إلى موضع الفاء المضمرّة في «لعلّي» ، وإن شئت جعلته في موضع رفع فسكنت الجيم لكثرة توالي الحركات . وقد قرأ بعض القرّاء ﴿لَا يَخْزُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ ^(٢) بالجرم وهم ينوون الرفع . وقرأوا ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوهُمْ﴾ ^(٣) والرفع أحبّ إليّ من الجزم . ^(٤)

* * *

وأما قوله تعالى : ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ ^(٥) فليس التقدير «عشرة أيام» إنّما التقدير في مثل ذلك عند العرب «عشر ليال» . كما في قولهم : خمس بقين أو خلون من رجب . والتقدير في حساب الأيام عند العرب بالليالي دون وضح النهار . ومن ثمّ تحسب الليلة من أوّل الشهر من الشهر ، ويبدأ كلّ شهر بليلة أوّله ، فالنهار تابع لليل كما في آخر الشهر .

(١) المنافقون ٦٣ : ١٠ .

(٢) الأنبياء ٢١ : ١٠٣ .

(٣) هود ١١ : ٢٨ .

(٤) راجع : معاني القرآن ، ج ١ ، ص ٨٦ - ٨٨ .

(٥) البقرة ٢ : ٢٣٤ .

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾^(١)

قالوا : فيه لحن ، أولا تأنيث العدد مع أنَّ التمييز مذكّر. وثانيا جمع التمييز ، والصحيح إفراده هنا. ^(٢)
 لكن الكلام يتم بالعدد من غير ما حاجة إلى ذكر التمييز ، كما في نظائره من قولك : قَطَّعت اللحم أربعاً ، أي أربع قطع. وجئناك خمسة ، أي خمسة أشخاص. ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾. ^(٣) أي بعشر ليال. ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ ، ^(٤) أي عشر ليال ، وذلك لأنّ الاعتبار بحساب الليالي . كما قدّمنا . ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾. ^(٥) ﴿فَإِنْ أَتَمَّمْتُمْ عَشْرًا فَلَمِنْ عِنْدِك﴾. ^(٦) ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾. ^(٧) أي خازنا.
 كلّ ذلك لمعلومية المعدود من غير حاجة إلى ذكره. وكذا هنا ، إذ قولك : فرّقتهُم اثنتي عشرة ، تعني : اثنتي عشرة فرقة ، «وحذف ما يعلم جائز» ، بل ذكره إمّا تأكيد أو حشو زائد.

قال المفسّرون : «أسباطا» بدل من «اثنتي عشرة». تقديره : وفرّقناهم فرقا أسباطا وجعلناهم أمما متفرّقة لا مجتمعة ، وهذا نكال بهم من أوّل يومهم ، حيث تفرّقهم في الرأي وعن اتّباع الرسول منذ البدء. على خلاف ما حظيت به هذه الامة من الاجتماع ووحدة الكلمة والتفافهم حول الرسول. ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾^(٨) الأمر الذي أراده بشأن كلّ أمة من الامم رغم تفرّقهم وتشعبهم فرقا ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾. فتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ (أي قطعاً كزبر الحديد أي صفحاته) ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾. ^(٩) الأمر الذي مني به بنو إسرائيل حيث تشبّثهم وتطاحنهم في الحياة.

(١) الأعراف ٧ : ١٦٠ .

(٢) هاشم العربي في ملحق ترجمة كتاب الإسلام ، ص ٤١٧ .

(٣) الأعراف ٧ : ١٤٢ .

(٤) البقرة ٢ : ٢٣٤ .

(٥) طه ٢٠ : ١٠٣ .

(٦) القصص ٢٨ : ٢٧ .

(٧) المدّثر ٧٤ : ٣٠ .

(٨) الأنبياء ٢١ : ٩٢ .

(٩) المؤمنون ٢٣ : ٥٢ و ٥٣ .

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(١)

زعم المتعرب (هاشم العربي) أنّ في ذلك لحنا ، حيث زيادة اللام من غير حاجة إليها وكان الصواب «نقدّسك». لأنّ الفعل متعدّ بنفسه. اللهمّ إلّا أن يقدر المفعول به شيئا من الأشياء ، الأمر الذي يزيد في إبهام الكلام.^(٢)

لكنّه لم يدر الفرق بين «قدّسه» و «قدّس له»!

يقال : قدّسه أي نزّهه ومجّده. أما إذا قيل : قدّس له ، فيعني : تطهير النفس تمهيدا لإمكان الحضور لدى ساحة قدسه تعالى.

قال أرباب اللغة : يقال : قدّس الرّجل الله ، أي نزّهه ووصفه بكونه قدّوسا. والقدّوس : المنتزّه عن العيوب والنقائص. وقدّس الله ، أي طهّر نفسه له. وذلك بأن مهّدها لإمكان الاستفاضة من أنوار الملكوت.

كانت الملائكة ترى من بني آدم ذواتا منكدرّة لا تصلح للاستجلاء بجلاء يليق بمقام القدس الأعلى فعرضت نفسها وهي صالحة للاقتراب من مقام القرب الأدنى.

لكنّه تعالى أعلم بالمصالح فيما يقدر ويدبّر. ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.^(٣)

ثمّ على فرض التقدير في الكلام فإنّه ليس على ما فرضه المتعرب من الإبهام. قال الراغب : ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي نطهر الأشياء ارتساما لك.^(٤) أي بدلا من بني آدم . حيث يفسدون في الأرض أي يعبثون بوجوه الأشياء ليغيّروها إلى جهة الفساد . نقوم نحن بتطهير الأشياء وتصقييلها إلى حيث الصفاء والجلاء التام. الأمر الذي يتحقّق منه الامتثال التام لما أَراده تعالى من الطهارة والنزاهة في خليقته جمعا.

ثمّ قال له كن فيكون

قال تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.^(٥)

(١) البقرة ٢ : ٣٠.

(٢) ملحق ترجمة كتاب الإسلام ، ص ٤٣٤.

(٣) البقرة ٢ : ٣٠.

(٤) المفردات ، ص ٣٩٦.

(٥) آل عمران ٣ : ٥٩.

قالوا : وكان ينبغي أن يقول : ثمّ قال له كن فكان.

قال بعضهم - تجاسرا على كتاب الله - : أثر الرويِّ على المعنى ، فأثر الإخلال بالمعنى ليستقيم له الرويِّ. وزاد بشاعة في القول : قد ساقه إليه ما ألفه لسانه . يعني محمدا ﷺ . حيث كرّره في ستّة مواضع من كتابه بصيغة المضارع ، ممّا كان متناسبا فيها غير ما هنا. ^(١)

لكن المسكين ذهب عنه أنّ هذه الجملة تمثّل كلمة التكوين وليست تكليفا بالقول ، ومن ثمّ كان المسيح ﷺ كلمة الله ألقاها إلى مريم. ^(٢)

قال الشيخ محمّد عبده : يجوز أن تكون كلمة التكوين مجموع «كن فيكون». والمعنى : ثمّ قال له كلمة التكوين التي هي عبارة عن توجّه الإرادة إلى الشيء ووجوده بها حالا. قال : ويظهر هذا في مثل قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾. ^(٣) ولو كان القول للتكليف لم يظهر هذا ، لأنّ قول التكليف من صفة الكلام ، وقول التكوين من صفة المشيئة. ^(٤)

لفظة «كن» تمثّل إرادته تعالى المتعلّقة بتكوين شيء. و «فيكون» تمثّل تكوين الشيء حالا فور إرادته تعالى. الأمر الذي يتمثّل في لفظة المضارع الدالّة على التحقّق في الحال ، ولا يصلح لذلك صيغة الماضي إلّا بتأويله إلى إرادة الحال أي «فكان في الحال». وهذا ممّا يكفله صيغة المضارع من غير تأويل. وهذا هو معنى قولهم : «فيكون» حكاية حال ماضية. ^(٥) أي وإن كان الأمر قد مضى ، لكنّها حكاية عن أمر كان حالا في ظرفه : فقد تكون الشيء حالا فور الإرادة. وهذا من تصوير الحال الماضية كما يقول أهل المعاني.

فمعنى قوله «كن فيكون» : أن لا فاصل زمنيّا بين إرادته تعالى وتكوين الشيء ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾. ^(٦) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. ^(٧) أي لا فاصل

(١) هاشم العربي في ملحق ترجمة كتاب الإسلام ، ص ٤١٧ - ٤١٨.

(٢) إشارة إلى الآية ١٧١ من سورة النساء.

(٣) الأنعام ٦ : ٧٣.

(٤) تفسير المنار ، ج ٣ ، ص ٣١٩.

(٥) الكشّاف ، ج ١ ، ص ٣٦٨.

(٦) القمر ٥٤ : ٥٠.

(٧) يس ٣٦ : ٨٢.

. عند إرادته تعالى لتكوين شيء . بين هذه الإرادة وتكوين ذاك الشيء حالا .
قال الحجّة البلاغي : «فيكون» فعل مضارع دالّ على الثبوت ، لبيان الملازمة الدائمة بين قوله «كن» وبين تكوّن الشيء بهذا الأمر لا محالة . وبهذه القدرة التامة والملازمة الدائمة خلق عيسى من غير فعل ، إذ قال له : «كن» .
وهو كلام صادر في مقام الاحتجاج بالتمثيل ، ولا تقوم الحجّة بهذا التمثيل ولا يحصل المراد منه في الاحتجاج إلّا ببيان الملازمة .
وهذا بخلاف ما لو قال : كن فكان . لأنّ هذا الأسلوب (الثاني) لا يفيد إلّا أن آدم كان . سواء أكان ذلك باتفاق أم بملازمة خاصّة بذلك الكون أو عامّة . وهو أمر معلوم لا فائدة في بيانه ولا حجة فيه على خلق عيسى من غير فعل . فلا يكون التفريع لو قيل : كن فكان ، إلّا لغوا في كلام متهافت .^(١)

والخلاصة : أنّ فعل المضارعة هنا يدلّ على الملازمة الدائمة بين قوله «كن» والتكوين . فصحّ جريانه بشأن آدم والمسيح على سواء . وهذا على خلاف ما لو قيل «فكان» ، لاحتمال مجرّد الاتفاق وليس عن ملازمة دائمة ... وهو تنبّه لطيف أفادته قريحة شيخنا العلامة البلاغي المهديّ بهداية الله تعالى . فرحمة الله عليه من مجاهد في سبيل الله بالعلم والعمل الدائب ، أفاض الله عليه شآبيب رضوانه . آمين .

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾^(٢)

قال هاشم العربي : كان الصواب أن يقول : وكان قدّامهم ...^(٣)
قلت : ما أقبح بالرجل لا علم له بالعربية وهو يتجرّأ في تخطئة أقدم وأقوم كلام عربي رصين . القرآن أصحّ سند عتيد حفظ على العرب لغتهم الأصيلة ، ولا تزال العرب تعرف أصالتها من القرآن وتستلهم أساليب كلامها من تعابير القرآن ، هذا ما يبدو من العرب خضوعهم تجاه عظمة القرآن ، سواء كانوا ممّن آمنوا به وصدّقوه وحيا . وهم

(١) الهدى إلى دين المصطفى ، ج ١ ، ص ٣٨٠ .

(٢) الكهف ١٨ : ٧٩ .

(٣) ملحق ترجمة كتاب الإسلام ، ص ٤٢٦ .

سورة المؤمنون ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾^(١).

لكنّه تجاهل استعمال اللفظة بكلا الوجهين في العهد القديم :

كانت البرية التي خرج إليها بنو إسرائيل . بعد اجتيازهم بحر سوف (البحر الأحمر) ومنطقتي شور وإيليم . تسمّى برية «سين» والتي تنتهي إلى جبل سيناء .

جاء في سفر الخروج : «ثمّ ارتحلوا من إيليم وأتى كلّ جماعة بني إسرائيل إلى برية سين التي بين إيليم وسيناء»^(٢) . وسيناء . بكسر السين . اسم جبل «حوريب»^(٣) وعبر عنه بسينيم أيضا . كما أنّ الوادي كلّ سميّ بسيناء^(٤) وسينيم باعتبار فخامة هذا الجبل الواقع فيه . جاء في سفر إشعياء : «هؤلاء من بعيد يأتون وهؤلاء من الشمال ومن المغرب وهؤلاء من أرض سينيم»^(٥) . قال جيمس هاكس : فسّره جماعة بوادي «سين» و «سيناء» نظرا للمناسبة القرية الملحوظة في عبارة الكتاب^(٦) . وهكذا جاءت اللفظة في القرآن معربة «سيناء» بفتح السين ، و «سينين» بقلب الميم نونا كما هي العادة الجارية في لغة العرب . فلم يكن هناك تضايق من جهة الروي كما زعم .

ومن المحتمل القريب أنّ «سينيم» جمع «سين» باعتبار أنّ الجمع في العبرية يأتي بالياء والميم . كما في «جمليم» و «حموريم» و «ركبيم» جمع «جمل» و «حمور» و «ركب»^(٧) . وعليه فقد أتى القرآن بسينين جمعا بالياء والنون على النهج العربي وبذلك قد التأم الروي من غير تكلف الأمر الذي اشتبه على المعرب المتكلف ، وكم له من نظير !

(١) راجع : ملحق ترجمة كتاب الإسلام ، ص ٤١٨ ، والآية ٢٠ من سورة المؤمنون .

(٢) سفر الخروج ، الإصحاح ١٦ / ١ .

(٣) راجع : قاموس الكتاب المقدّس ، ص ٤٩٨ مادة «سيناء» .

(٤) راجع : سفر الخروج ، الإصحاح ١٩ / ١ : «جاءوا إلى برية سيناء فنزلوا في البرية . هناك نزل بنو إسرائيل مقابل الجبل» وفي الإصحاح ١٩ / ١٨ : «فوقفوا في أسفل الجبل ، وكان جبل سيناء كلّه يدخن من أجل أنّ الربّ نزل عليه بالنار» .

(٥) سفر إشعياء ، الإصحاح ٤٩ / ١٢ .

(٦) قاموس الكتاب المقدّس ، ص ٥٠٤ .

(٧) راجع : الرحلة المدرسية ، ج ١ ، ص ٧٤ - ٧٥ .

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١)

اعترض المتكَلِّفُ بأنَّه جمع في موضع الإفراد ، والوجه أن يقال : سلام على إلياس. كما أفرد في قوله : ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾^(٢). وقوله : ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٣) و ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾^(٤). قال : وإنما ساقه إلى ذلك مراعاة الروي^(٥).

وقد فاته أنَّ الكلمة أعجمية يجوز التصرّف فيها حيث ساق الكلام وناسب المقام ، عادة جارية عند العرب يتلاعبون باللغات الأجنبية من غير ضابطة تحدّدها ، وقد جرى القرآن على منهجهم في الاستعمال ولا غضاضة ولا سيّما بعد مناسبة رعاية الروي.

قال المراغي : إلياسين لغة في إلياس. وكثيرا ما يتصرّفون في الأسماء غير العربية.^(٦)

وقال الحجّة البلاغي : وقوله تعالى : ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ بعد قوله : ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٧) ذلك لأنّ لاسم هذا الرسول في اللغة العربية تعريبان. كما كان لاسمه في العبرية تعبيران : إياه وإياهو^(٨) وهو المعروف بإيليا التّشبيّ في العهد القديم.^(٩)

هذا ، وقد جرت عادة العرب على استعمال اللغات الأجنبية على غير مقياس واحد . ولعلّه امتهان بما . ودرجوا على التصرّف فيها حيثما شاءوا وحيثما ساقهم مدارج الكلام.

فقد عربّوا «درخم» الفهلوية إلى «درهم» وجاء في الشعر «درهام» ، قال الشاعر :

لَو أَنَّ عَنـْـدِي مِـدْرَهَمًا لَجِـئْتُ فِي آفَاقِهِمُ خَـتَامِي

وعربّوا «متكسا» اليونانية ومعناه القَرّ ، إلى «مدقس» و «دمقس» و «دقمس» و «دمقص» و «دمقاس» وهكذا.

والدرونك والدرينك والدرنك والدرموك معرّب من أصل حبشي بمعنى الطنفسة.

والزنجبيل مأخوذ من الفارسيّة (شنگبيل ، شنگوير ، شنگبير وشنگويل) من أصل

(١) الصّاقّات ٣٧ : ١٣٠.

(٢) الصّاقّات ٣٧ : ٧٩.

(٣) الصّاقّات ٣٧ : ١٠٩.

(٤) الصّاقّات ٣٧ : ١٢٠.

(٥) ملحق ترجمة كتاب الإسلام ، ص ٤١٨.

(٦) تفسير المراغي ، ج ٢٣ ، ص ٨١.

(٧) الصّاقّات ٣٧ : ١٢٣.

(٨) الهدى إلى دين المصطفى ، ج ١ ، ص ٣٨٣.

(٩) راجع : سفر الملوك الثاني ، ١ / ٣ و ٤ و ٨ و ١٠ و ١٢ و ١٥ و ١٧.

الخطر القريب المحقق وهي عنه غافلة لاهية : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ... لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ...﴾^(١) ويزيدهم غفلة : أتهم أسروا النجوى . أي تواطئوا فيما بينهم تجاه مقابلة الحق الذي أتهم ليصدّوا عنه . وكانت النجوى التشكيك في رسالة الله على يد بشر مثلهم : ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ...﴾^(٢) . وهل كانت التوطئة الخبيثة إلّا من قبل الملأ الذين سطوا في البلاد وأظهروا الفساد بين العباد . ومن ثمّ جاءت كلمة «الذين ظلموا» اختصاصية ، فاصلة بين الفاعل . لغرض تبيينه . والمفعول به . وهو أبلغ تفضيحا بشأنهم ممّا لو أسند الفعل إليهم رأسا . والمعنى : وأسروا الغافلون النجوى . وأخصّ منهم الذين ظلموا هؤلاء ، أشدّ وطئا من سائر الغفلة الذين يشكّلون عامّة المشركين آنذاك . وقد ذكر النحاة : أنّ محلّ «الذين ظلموا» إمّا نصب على إرادة الاختصاص ، أو رفع على الإبدال من ضمير الجمع . قال الزمخشري : إشعارا بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به .^(٣) وهكذا ذكر العلامة البلاغي بشأن الآية .^(٤)

ثلاثة قروء

قال تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٥) . قال الزمخشري : فإن قلت : لم جاء المميّز على جمع الكثرة دون القلّة التي هي الأقراء؟ قلت : يتّسعون في ذلك فيستعملون كلّ واحد من الجمعين مكان الآخر ، لاشتراكهما في الجمعيّة . ألا ترى إلى قوله «بأنفسهنّ» وما هي إلّا نفوس كثيرة . ولعلّ القروء كانت أكثر استعمالا في جمع قرء من الأقراء ، فأوثر عليه ، تنزيلا لقليل الاستعمال منزلة المهمل ، فيكون مثل قولهم : ثلاثة شسوع.^(٦)

(١) الأنبياء ٢١ : ١ و ٢ .

(٢) الأنبياء ٢١ : ٣ .

(٣) الكشّاف ، ج ٣ ، ص ١٠٢ .

(٤) الهدى إلى دين المصطفى ، ج ١ ، ص ٣٨٤ .

(٥) البقرة ٢ : ٢٢٨ .

(٦) الكشّاف ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

الالتفات وتنوع الكلام

مما اخذ على القرآن : عدم نسجه على منوال واحد ، فهناك ظاهرة الالتفات وتنوع الخطاب والانتقال والرجوع والقطع والوصل ... وإلى أمثال ذلك من التنقل الكلامي. زعموا أنه قد يشوش على القارئ فهم المعاني! ^(١)

لكنه جهل بأساليب البديع من كلام العرب ، وما ذاك الالتفات وهذا التنقل في الخطاب إلا تطرية في الكلام تزيد في نشاط السامعين وتسترعي انتباههم لفهم مناحي الكلام أكثر وأنشط.

والشيء الذي أغفلوه أنهم حسبوا من صياغة القرآن أنها صياغة كتاب ، في حين أنها صياغة خطاب.

إن لصياغة الكتاب مميزات تختلف عن مميزات صياغة الخطاب. فقصية الجري على منوال واحد هي خاصة بصياغة الكتاب. أما التنوع والتنقل والالتفات فهي من خاصة صياغة الخطاب ، سواء أكان نظاما أم نثرا ، فلا يتقيد الناطق بالطراد في سياق واحد ، بل له الانتقال والتحول أثناء الكلام حسبما ساقته دلائل المقام.

فهذا عزيز مصر . ينقل كلامه القرآن حينما واجه امرأته ويوسف على حالة استنكرها . يقول : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾. ^(٢) فيخاطب يوسف أولا ، ثم يلتفت إلى امرأته يوبخها.

وكلا الخطابين منساق في نسق واحد ولكن في واجهتين ، وقد نقله القرآن على شاكلته الاولى. والقرآن كله من هذا القبيل ، لأنه كلام الله واجه به عباده في صياغة خطاب ولم ينزل في صياغة كتاب. ومن ثم كانت فيه هذه الكثرة من الالتفات والتنقل في الكلام. الأمر الذي زاد في طراوته وزان في طلاوته.

يقول تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ

(١) هاشم العربي محقق ترجمة كتاب الإسلام ، ص ٤٢٣ .

(٢) يوسف ١٢ : ٢٩ .

وَتُوقَرُّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا^(١).

يبتدئ الكلام بالخطاب مع الرسول ويتحوّل من فوره إلى مواجهة المؤمنين.

ثمّ الضمائر المتتابعة الثلاثة ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُقَرِّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ يعود الأوّلان منها إلى النبيّ والثالث إلى الله! وهذا من مداورة الكلام من وجهة إلى وجهة ، ويعدّ من ألطف صنع البديع.

ولا يخفى أنّ مثل هذا لا يدخل في متشابه الكلام بعد معروفة مراجع الضمائر لدى المخاطبين الناهجين. وهو من حسن الوجازة وظريف البيان (في ظاهر إبهام وواقع إحكام) سهلا ممتنعا يكسو الكلام حلاوة ممتعة.

فبدلا من أن يكون الكلام مشوّها مضطرب المفاد . حسبما راقه المتعرّب المتكلّف . أصبح حلوا سائعا يستلذه المستمع النبيه.

ومثله في القرآن كثير ويكون من لطيف صنع البديع.

وبديعة الالتفات كانت غزّة البدائع التي ازدان بها كلام ربّ العالمين وقد بحثنا عنها وعن أنواع ظرائفها عند البحث عن روائع فنون بدائع كلامه تعالى (في المجلّد الخامس من التمهيد). وتبّهنا هناك على أنّه لا بدّ في كلّ التفاتة من فائدة رائعة وراء تطرية الكلام والتفنّن فيه لتزيده رونقا فوق روعته ، وأتينا بأمثلة لذلك.

وهنا . في الآية التي تمثّل بها المتكلّف من سورة يونس . نقول : إنّّه يزيد مبالغة في الاستنكار :

قال تعالى : ﴿وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَنْهَمٍ إِذَا هُمْ مَكْرَرٌ فِي آيَاتِنَا ...﴾^(٢). يعني : أنّ أولئك الكفرة الجحود إذا كشف الله عنهم

ضربهم ، فبدلا من أن يشكروا تراهم يكفرون نعمة الله ويحاولون تغطيتها بأنواع الملتبسات ...

فيمثّل لذلك ركوبهم البحر ومواجهة الطوفان : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا

رِيحٌ عاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ

(١) الفتح ٤٨ : ٨ و ٩.

(٢) يونس ١٠ : ٢١.

مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُخِيتْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا أَتَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ... ﴿١﴾

فبدأ يواجههم في الخطاب ، لكنّه في الأثناء يغيّر وجهة الكلام إلى التكلّم عن غائبين ، ليحوّل وجهة السامعين من كونهم مخاطبين إلى كونهم ناظرين مستمعين. وذلك للتمكّن في نفوسهم من استقباح ما يشهدونه من فضيع الحال وشنيع المآل ، فيلمسون قباحة العمل وهم يرونه من كتب ، فيكونوا هم الحاكمين على فعّالهم بالتقبيح.

قال الريحشري : ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟

قال : المبالغة ، كأنّه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح. ^(٢)

وذلك لأنّ القبيح من الغير يبدو أقبح ممّا لو ذكر عن النفس.

وهكذا التنقّل من شأن إلى شأن كان من خاصيّة الكلام إذا كان خطاباً لا كتاباً. يتنقّل فيه المتكلّم من حال إلى حال ، وربّما من موضوع إلى موضوع آخر ، ثمّ يعود إلى موضوعه الأوّل حسبما يقتضيه الحال والمقام. والتنقّل ظاهرة قرآنية شاملة ولا سيّما في السور الطوال.

مثلاً نراه يتعرّض لمسألة الطلاق والعدد في آيات (البقرة : ٢٢٨ - ٢٣٧) وينتقل إلى الترغيب في المحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى (الآية : ٢٣٨) وصلاة الخوف (الآية ٢٣٩) ويذكر المتوقّ عنها زوجها (الآية : ٢٤٠) ثمّ يعود إلى ذكر المطلّقات (الآية : ٢٤١) الأمر الذي لم يكن متناسباً لو كان الكلام كتاباً ، ويجوز في الخطاب. وهذا أيضاً في القرآن كثير.

إذن ، فلا موضع لسفاسف الأبعاد من عدم الالتئام في نظم القرآن.

قال هاشم العربي . بشأن آية الكرسي بعد ما وصفها بفخامة اللفظ والمحتوى

(١) يونس ١٠ : ٢٢ - ٢٣.

(٢) الكشف ، ج ٢ ، ص ٣٣٨.

بحيث لا يوجد لها نظير في جميع القرآن . : إنّها بين جارتها (الآية السابقة عليها واللاحقة لها) كقطعة ديباج رقع بها ثوب كرباس. قال : وأكثر القرآن على هذه الصفة من عدم القرآن بين آياته ، والانتقال تّوا من الأوج إلى الحضيض ومن ذكر الجنّة والمغفرة إلى ذكر المحيض. ^(١)

﴿جاءَتْهَا رِيحٌ عاصِفٌ﴾

الريّح مؤنّثة. وتوصف بعاصف وعاصفة على سواء. لأنّ العاصف صفة الريح لا غيرها كالحائض للمرأة ، فلا تشبّه بغيرها من غير حاجة إلى التّاء الفارقة.

قال ابن منظور : وهي ريح عاصف وعاصفة.

واستعملها القرآن على الوجهين :

﴿جاءَتْهَا رِيحٌ عاصِفٌ﴾. ^(٢)

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ عاصِفَةٌ﴾. ^(٣)

﴿قُلْ بَلْ مَلَّةٌ إِبراهيمَ حَنِيفاً﴾ ^(٤)

زعم المتعرّب المتكلّف . الأجنبي عن لغة العرب . أنّ الحنيفية هي الميل عن الصراط السويّ. وقد استعملها القرآن في غير معناها الأصيل.

قال : وكثيرا ما يستعمل القرآن الألفاظ العربية في غير ما وضعت له. من ذلك تعبيره عن دين إبراهيم بالحنيف يعني به القويم. لكن العرب تعني بالحنف الاعوجاج ، ولذلك تسمّي عابد الوثن حنيفا لميله عن الدين القويم!

وزعم أنّ ذلك ممّا مؤهته اليهود على صاحب القرآن فلقنّته ليدعو دين إبراهيم حنيفا ، تعبيرا عليه ليفضح أمره عند العرب ، فانخدع بذلك من غير دراية بمعناه العربي

(١) ملحق ترجمة كتاب الإسلام ، ص ٤٣٩ وهو آخر رسالته.

(٢) يونس : ١٠ : ٢٢ .

(٣) الأنبياء ٢١ : ٨١ .

(٤) البقرة ٢ : ١٣٥ .

الأصيل. (١)

يا لها من جهالة عارمة تنبؤك عن غباوة فاضحة!!

كيف ينخدع نبي الإسلام بمفاهيم لغة كان فلذتها ولسان أمة كان من صميمها ، أفهل يعقل أن يتلاعب اناس أباعد . هم جالية المنطقة . بذهنية فحل فخم كان نابتة الربوة العلوية ، أين العجم من أبناء إسرائيل من العرب من أبناء قريش؟! وابن الهجين من العتيق الأصيل؟! ولعل المتعرب المسكين هو الذي انخدع بتلك التهجينات المفضوحة فحسبها لجة ، وما هي إلا سراب فارغ!

كان منذ الجاهلية اناس يدعون بالحنفاء ، حيث تنزهوا الأدناس ورغبوا في الحنيفية البيضاء ، دين إبراهيم الحنيف.

اجتمعت قريش يوما في عيد لهم عند صنم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويدورون به ، وكان ذلك عيدا لهم في كل سنة يوما ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا. (٢) ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكنتم بعضكم على بعض ، قالوا : أجل . . وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن حويرث ، وزيد بن عمرو ، من أفذاذ قريش .. فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله ما قومكم على شيء! لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم! ما حجر نطيف به ، لا يسمع ولا يبصر ولا يضمر ولا ينفع! يا قوم ، التمسوا لأنفسكم دينا ، فإنكم والله ما أنتم على شيء. ففترقوا يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم. (٣)

وهؤلاء . وأمثالهم من غيرهم يوم ذاك . فارقوا دين قومهم واعتزلوا الوثنية وعبادة الأصنام وأكل الميتة والدم والذبائح على النصب وتقذروا الفحشاء والمنكرات ووآد البنات وما إليها من عادات جاهلية سيئة ... وسموا بالحنفاء ، حيث اتباعهم الحنيفية دين

(١) ملحق ترجمة كتاب الإسلام ، ص ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٢) أي انفرد منهم هؤلاء الأربعة وجعلوا يتناجون فيما بينهم ، أي يتحدثون سرا عن غيرهم.

(٣) راجع : تفصيل القصة في سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٣٧ - ٢٤٨ .

قال الزجاجي : الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختن. ^(١)

وهكذا ذكر الفيروزآبادي في القاموس ، قال : الحنف . محرّكة . الاستقامة .

وقد عرفت أنّ إطلاقه على اعوجاج الرجل ، كان بالعناية والمجاز تفاؤلا ، لا حقيقة .

قال الجارود بن بشر من عبد قيس ، وكان نصرانيّا فأسلم طوعا :

فأبلغ رسول الله _____ رسلي رسالة بأني حنيف حيث كنت من الأرض

وقال حسّان بن ثابت يخاطب أبا سفيان :

هجوتم محمّدا بـ _____ أممّين الله شيمته الوفاء ^(٢)

ومّا يتأيد إرادة التطهّر من الأقدار في مفهوم «الحنف» ، أنّ العرب اليوم يستعملون لفظة «الحنفيّة» يريدون بها فتحة أنابيب المياه للغسل والشرب

، حيث كانت وسيلة التطهير من الأوساخ . وهو امتداد لمفهومه القديم المعروف عندهم. ^(٣)

فيا ترى هل كان هؤلاء العرب الأفحاح الخدعوا جميعا منذ أوّل يومهم حتّى الآن بدسائس يهودية هزيلة لا وزن لها ولا اعتبار ، اللهمّ إلّا في ذهنية

متعرّنا المسكين!!

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ ^(٤)

زعم المتعرّب أنّ «اعتدى» لا يتعدّى بنفسه ، وكان الصحيح أن يبدّل بقوله «فلا تعتدّوها» ^(٥) ويا ليتنه لم يفصح نفسه بالتدخل في شؤون لغة هو

أجنبيّ عنها. قال صاحب المنجد . وهو مسيحيّ مثله لكنّه عارف باللغة . : اعتدى الحقّ وعن الحقّ وفوق الحقّ : جاوزه . وكذا تعدّى الشيء : جاوزه .

فهما بمعنى .

(١) لسان العرب ، ج ٩ ، ص ٥٦ . ٥٨ .

(٢) راجع : الهدى إلى دين المصطفى ، ج ١ ، ص ٣٨٦ .

(٣) راجع : المعجم الوسيط ، ج ١ ، ص ٢٠٣ ، مادة «حنف» . وص ٥٢٤ «الصبور» .

(٤) البقرة ٢ : ٢٢٩ .

(٥) ملحق ترجمة كتاب الإسلام ، ص ٤٢٥ .

﴿أَتِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾

قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. (١)

قال المتعرب : والوجه استطعماهم.

قال العلامة البلاغي : ولعله توهم أنّ الجملة (استطعما أهلها) جواب «إذا» ، ولم يدر أنّها وصف للقرية (أي القرية التي استطعما أهلها ...). وجواب «إذا» إنّما هو قوله تعالى في آخر الآية : ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ ...﴾. (٢)

قال الإمام الرازي : التكرير قد يكون للتأكيد وهو معروف واقع في اللغة كقول الشاعر :

ليست الغراب غداة ينعيب دائماً كأن الغراب مقطّـع الأوداج (٣)

وقال أبو حيّان الغرناطي : وتكرّر لفظ «أهل» على سبيل التوكيد. وقد يظهر له فائدة عن التوكيد ، وهو أنّهما حين أتيا أهل القرية لم يأتيا جميع أهل القرية ، إنّما أتيا بعضهم ، فلمّا قال «استطعما ...» احتمل أنّهما لم يستطعما إلّا أولئك البعض الذين أتياهم ، فجاء بلفظ «أهلها» ليعمّ جميعهم وأنّهم تتبعوهم واحدا واحدا بالاستطعام منهم فأبوا جميعا أن يضيّفوهما. ولو كان التركيب «استطعماهم» لكان عائدا على أولئك البعض المأتيين أولا فحسب ، وهو خلاف المقصود. (٤)

﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾

قالوا : وكان الوجه أن يقول : إنّما الربا مثل البيع!

لكنّهم غفلوا وجه هذا التشبيه ، وذلك أنّ المرابين زعموا تماثل البيع والربا ، فكلّ ما في الربا من آثار وتبعات فإنّها بعينها موجودة في البيع بلا فرق ، ومن ثمّ استغربوا أن يحلّل

(١) الكهف ١٨ : ٧٧.

(٢) الهدى إلى دين المصطفى ، ج ١ ، ص ٣٨٩.

(٣) التفسير الكبير ، ج ٢١ ، ص ١٥٦.

(٤) تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي الغرناطي ، ج ٦ ، ص ١٥١.

البيع ويحرم الربا ، وقالوا : إنما البيع مثل الربا في الترابح وجلب المنافع ، فما شأن البيع يحلل والربا يحرم؟!

وقد حكى الله تعالى عنهم ذلك تفضيحا لشائنتهم :

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾. ^(١)

فشنع عليهم قولتهم هذه ، حيث المفسد والآثار السيئة التي يعقّبها الربا لا يوجد شيء منها في البيع ، ومن ثم فإنّ هذا التشبيه إنما هو من مضاعفات تسويل الشيطان على عقولهم الغائرة. ^(٢)

﴿وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ ^(٣)

قالوا : وكان الجدير أن يقول : ومثل الذي يعط الكفار كمثل الذي ينطق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون ...

قال المفسرون : في الكلام تقدير ، والمعنى : ومثل الذين كفروا في دعائك إياهم كمثل الذي ينطق البهائم ... كما في قوله : ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ

هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾. ^(٤) ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ... إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾. ^(٥)

﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْغُمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. ^(٦)

﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾. ^(٧)

إلى غيرهم من آيات تعرب عن فشل محاولة إرشاد من لا قلب له ولا وعي ولا حضور ، وهو تائه في غياهب الضلال. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ

كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ

(١) البقرة ٢ : ٢٧٥.

(٢) راجع : الهدى إلى دين المصطفى ، ج ١ ، ص ٣٩٧ . ٣٩٨.

(٣) البقرة ٢ : ١٧١.

(٤) الأعراف ٧ : ١٧٩.

(٥) النمل ٢٧ : ٨٠ و ٨١ ، الروم ٣٠ : ٥٢ و ٥٣.

(٦) الزخرف ٤٣ : ٤٠.

(٧) فاطر ٣٥ : ٢٢.

وَهُوَ شَهِيدٌ^(١).

وإنما لم يصرّح بهذا التقدير ، تحاشيا من تشبيهه الواعظ الناصح والمرشد الكامل في وعظه الشافي وإرشاده الحكيم بمن ينطق بمهمات لا معنى لها سوى التصويت والتعيق كصياح الغراب.^(٢)

﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^(٣)

قد تكرر في القرآن أنه نزل بلسان عربيّ مبين^(٤) وهو الظاهر البيان ميسّر لا تعقيد فيه ولا إبهام ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٥). هذا مع العلم بأنّ في القرآن آيات متشابهة (مغلقة الفهم مبهمة المعنى) بشهادة القرآن ذاته ، حيث قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. وأخيرا ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^(٦). أمّا عامة الناس فإنّهم محرومون عن فهم هذا اللغيف من الآيات ، وأصبحت لا فائدة فيها عندهم سوى تلاوتها جريا على الألسن لا وعيا في القلوب!!^(٧)

لكن تعرّضنا . عند الكلام عن متشابهات القرآن .^(٨) للإجابة على هذا السؤال وقلنا : متشابه القرآن على نوعين : أصلي وطارئ. والطارئ. وهو الأكثرية الساحقة من متشابهات القرآن . ما عرض له التشابه فيما بعد ولم يكن متشابهاً في أصله وعند نزوله ، وذلك من جرّاء تضارب الآراء وتخاصم أرباب الجدل والذي ثار أواره في مؤخّرة القرن الأول ودام حتّى القرنين الثاني والثالث ، وظهرت مذاهب ومشارب متنوّعة ومتزاحمة بعضها مع بعض في تلك الفترة غير القصيرة. كان صاحب كلّ مذهب فكري يعمد إلى لفيف مع آيات وروايات ليؤوّلها إلى حيث مرّتاها الخاصّ ويفسّرهما حسب رأيه ، دعما

(١) ق ٥٠ : ٣٧.

(٢) راجع : الهدى إلى دين المصطفى ، ج ١ ، ص ٣٩٧.

(٣) النحل ١٦ : ١٠٣.

(٤) الشعراء ٢٦ : ١٩٥.

(٥) الدخان ٤٤ : ٥٨.

(٦) آل عمران ٣ : ٧.

(٧) هذه شبهة أوردتها هاشم العربي في ملحق ترجمة كتاب الإسلام ، ص ٣٧٩.

(٨) في المجلد الثالث من التمهيد.

لعقيدة ارتأها أو دفعا لما سلكه خصماؤه. وفي غضون هذا التدافع والتخاصم كانت معالم الشريعة هي التي وقعت عرضة الأهواء ومتضارب الآراء ، وأصبح قسم كبير من بينات الآيات والسنن متشابهات ، وقد أحاطت بها حالات من الإبهام والإجمال ، فصار ما كان محكما بالأمس متشابها وما كان بيّنا ، مستطرفا طرق الظلام. هذا هو الحدث الجليل الذي عاد بسيماته إلى حوزة الشريعة الغراء.

وهذا في أكثرية النصوص التي تعرّضت لصفاته تعالى والجلال والجمال وشتون الخليقة والتدبير وما شابه.

أما المتشابه الأصل فهو أقلّ القليل من آيات تعرّضت لمعان مستجدّة على العرب هي ذوات مفاهيم رفيعة ومتوسّعة سعة الآفاق ، كانت القوالب اللفظية . الموضوعة عند العرب . تضيق عن حملها والإيفاد بها . ومن ثمّ جاءت في قوالب الاستعارة والتشبيه القاصرة . بطبيعة الحال . عن إفادة كمال المراد . وهذا من قصور يعود إلى القابل ولا يمسّ شأن الفاعل ، كما لا يخفى . وقد قدّمنا الكلام عن تفاصيله.

أما ولم أودعت هذه اللمّة من عديد آيات رفيعة المنال ضمن نصوص القرآن الكريم وهي معروضة على العامّة لتكون بيانا للناس كافّة؟ ﴿هذا بيانٌ للنّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

فيعود السبب إلى كونها ودائع أودعت لدى هذه الامة لتكون رصيда لها وذخرا وفيها في مسيرة الشريعة الأبدية ، كلّما تقدّم الزمان ظهرت منه آيات بيّئات لتتبر الدرب على مدى الأيام.

إنّ لهذه الآيات إشعاعات تشعّ بأطيافها متناسبة مع الظروف والشرائط المؤاتية في كلّ زمان ، فيوما حسب ظاهرها البدائي على حدّ ترجمة الألفاظ ، ويوما معاني أعمق فأعمق حسبما تتعمّق العقول وتنضج الأفكار . وهذا من حكمته تعالى حيث جعل من هذه الشريعة شريعة الخلود. الأمر الذي لم يجعل القرآن . حتّى في مثل هذا المتشابه من الآيات . يوما ما في موضع حيرة للامة لا يعقلون منه شيئا ، نعم ، سوى ما كان منه يحتاج

(١) آل عمران ٣ : ١٣٨ .

إلى تدبّر وتعمّق نظر ومراجعة الآيات المحكمات وهنّ أمّ الكتاب (أي المرجع النهائي لحلّ العضلات).

موارد زعموا فيها مخالفات في عود الضمير!

* قال تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ ...﴾. ^(١)
أتى أولاً بضمير التثنية «ائتيا» ، «قالتا» بصورة التأنيث. ثم بضمير الجمع المذكر السالم «طائعين». وأخيرا بضمير الجمع المؤنث السالم «فقضاهنّ»
...«!؟

* وهكذا قوله تعالى : ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ... دَوَاتَا أَفْنَانٍ ... فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ... فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ... مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ... فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ...﴾.

ثم قال : ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ... مُدْهَمَّتَانِ ... فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ... فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ ... فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ...﴾. ^(٢)

في كلا الموضعين جاء بضمير الجمع المؤنث السالم بعد تثنية الضمير مكرراً!

* وقوله تعالى : ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾. ^(٣)

* وقال . خطابا لآدم وحواء . : ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلُ وَلَا يَشْقَى﴾. ^(٤)
وقال في موضع آخر : ﴿فَازَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾. ^(٥)

وتعقبها بقوله : ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. ^(٦)

(١) فضّلت ٤١ : ١١ و ١٢ .

(٢) الرحمن ٥٥ : ٤٦ . ٧٠ .

(٣) الحجّ ٢٢ : ١٩ .

(٤) طه ٢٠ : ١٢٣ .

(٥) البقرة ٢ : ٣٦ .

(٦) البقرة ٢ : ٣٨ .

وقال : ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾. (١)

في كل هذه المواضع جاء الخطاب فيها أولا بصورة مثني ، ثم بصورة الجمع!

* وهكذا في قوله تعالى : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا خِصْمَهُمْ شَاهِدِينَ﴾. (٢)

وقوله تعالى : ﴿كَأَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾. (٣)

وقوله : ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾. (٤)

* وجاء في وصف الجمع المكسر بجمع المؤنث السالم : ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ (٥) مع العلم بأن مفردة «يوم» وهو مذكر!

* وقال تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾. (٦)

* وقال : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ...﴾. (٧)

عاد ضمير التأنيث على الأسماء باعتباره جمع مكسر. ثم عاد عليها ضمير الجمع المذكر ثم اسم الإشارة أيضا بصورة الجمع المذكر!

* يعبر تعالى عن الملائكة بجماعة الذكور في غالبية تعابيره. ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. (٨)

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. (٩)

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِئَاءً﴾. (١٠)

(١) الأعراف ٧ : ٢٣ و ٢٤.

(٢) الأنبياء ٢١ : ٧٨.

(٣) الشعراء ٢٦ : ١٥.

(٤) ص ٣٨ : ٢١ و ٢٢.

(٥) فصلت ٤١ : ١٦.

(٦) النور ٢٤ : ٤٥.

(٧) البقرة ٢ : ٣١.

(٨) التحريم ٦٦ : ٦.

(٩) غافر ٤٠ : ٧.

(١٠) الزخرف ٤٣ : ١٩.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾. ^(١)

لكن نرى أنه تعالى قد عبّر عنهم بالجمع المؤنث السالم في مواضع :

جاء في سورة المرسلات : ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾. ^(٢)

وفي سورة النازعات : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾. ^(٣)

وفي سورة الصافات : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا. فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا. فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾. ^(٤)

* قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. ^(٥)

وقال : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. ^(٦)

فقد جاء بجمع التذكير. لكنّه تعالى في موضع آخر قال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾. ^(٧)

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾. ^(٨)

وإليك بعض الكلام في ذلك :

تغليب جانب ذوي العقول

جرت العادة عند العرب وجرى عليها القرآن على تغليب جانب الذكور وكذا جانب ذوي العقول إذا كانوا في الجمع.

وعليه ، فعود الضمير إلى الأسماء في الآية (٣١ و ٣٣ . البقرة) إنما هو باعتبار المسمّيات دون نفس الأسماء. وبما فيها من ذوي العقول ، غلب

جانبيهم ، فقال : ﴿أَتُنَبِّئُكُمْ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾. وقال : ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾. ^(٩)

* * *

وهكذا في قوله تعالى في الآية (٤٥ . النور) : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ

(١) شورى ٤٢ : ٥.

(٢) المرسلات ٧٧ : ٥ و ٦.

(٣) النازعات ٧٩ : ٥.

(٤) الصافات ٣٧ : ١ - ٣.

(٥) الأنبياء ٢١ : ٣٣.

(٦) الإسراء ١٧ : ٤٤.

(٧) النور ٢٤ : ٤١.

(٨) الأنبياء ٢١ : ٧٩.

(٩) راجع : مجمع البيان ، ج ١ ، ص ٧٧ ؛ ومعاني القرآن ، ج ١ ، ص ٢٦ ؛ والكشاف ، ج ١ ، ص ١٢٦.

فحيث شَبَّهت الأشياء بمن يلهج بالتسييح من إنس وجنّ وملك استعير لفظ التسييح الذي هو فعل ذوي العقول. ثم جرى الكلام على هذا النمط وقال : ﴿لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ﴾ ، أتى بضمير الجمع المذكّر حسب سياق الكلام.

وهكذا جعل الزمخشري قوله تعالى : ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(١) من نوع الاستعارة بالكناية. قال : لما جعلن مخاطبات ومجيبات ، ووصفن بالطوع والكره ، قيل : طائعين ، في موضع طائعات.^(٢) فقد شَبَّهت السماوات والأرض بالكائنات الحيّة العاقلة الناطقة ، فوصفها بالقول والإطاعة. قال : وهذا نظير قوله تعالى : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.^(٣) لأنّه لما وصفها بما هو خاصّ بالعقلاء وهو السجود أجرى عليها حكمهم كأنّها عاقلة. وهذا كثير شائع في كلام العرب أن يلابس الشيء بشيء من بعض الوجوه ، فيعطى حكما من أحكامه ، إظهارا لأثر الملابس والمقاربة.^(٤)

وكذا قوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ﴾.^(٥) عبّر ب «من» . وهو لذوي العقول . بنفس الاعتبار. ولذلك جاء الجمع ، جمع المؤنّث السالم. وعلى نفس الغرار جاء قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾^(٦) ضمير جمع المؤنّث حيث تشبيه الجبال بالمسبحات. قال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٧) : الضمير للشمس والقمر ، والمراد بهما جنس الطوالع كلّ يوم وليلة. جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها وهو السبب في جمعهما بالشموس والأقمار. قال : وإتّما جعل الضمير «واو» العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة.^(٨)

(١) فضّلت ٤١ : ١١ .

(٢) الكشّاف ، ج ٤ ، ص ١٩٠ .

(٣) يوسف ١٢ : ٤ .

(٤) الكشّاف ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ .

(٥) النور ٢٤ : ٤١ .

(٦) الأنبياء ٢١ : ٧٩ .

(٧) الأنبياء ٢١ : ٣٣ .

(٨) الكشّاف ، ج ٣ ، ص ١١٥ .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(١).

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف صحّ مجيء خاضعين خبرا عن الأعناق؟ قلت : أصل الكلام فظلّوا لها خاضعين ، فاقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع ... أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل : خاضعين ، كما تقدّم في قوله «لي ساجدين» من سورة يوسف. وقيل : أعناق الناس رؤساؤهم ومقدّموهم ، شبّها بالأعناق كما قيل لهم : هم الرؤوس والنواصي والصدور. قال شاعرهم :

ومشــــهد قد كفيــــت الغــــائبين بــــه في محفــــل مــــن نواصــــي القــــوم مشــــهود

والمراد من نواصي القوم أشرافهم.^(٢)

ومثله قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾^(٣).

أي الآلهة التي يعبدوها المشركون هم يبتغون إلى ربّهم الوسيلة ويتسابقون كي يتقرّبوا إلى الله ، فكيف يعبدونها من دون الله؟!

فقد عبّر عنهم بلفظ جماعة العقلاء ، وذلك لما عدّوهم معبودين جرى عليهم ما جرى على العقلاء^(٤) وله نظائر كثيرة في القرآن :

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾^(٥).

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(٦) أي لا تسبّوا ما يعبدونه المشركون.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾^(٧).

(١) الشعراء ٢٦ : ٤ .

(٢) الكشف ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ .

(٣) الإسراء ١٧ : ٥٧ .

(٤) إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج ، ص ٩٠٣ . ٩٠٤ .

(٥) الأعراف ٧ : ١٩٤ و ١٩٥ .

(٦) الأنعام ٦ : ١٠٨ .

(٧) الرعد ١٣ : ١٤ .

- ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصِرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾. ^(١)
- ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ. إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾. ^(٢)
- ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾. ^(٣)

إلى غيرها من آيات جرى فيها الوصف مجرى العقلاء ، لما اضمر التشبيه بهم في النفس ، من باب الاستعارة التخيلية أو الاستعارة بالكناية ، على حدّ تعبيرهم.

مثقّى يراد به الجماعات

كثيرا ما تثقّى ألفاظ يراد بالواحد منها الجمع دون الفرد الحقيقي ، ولذلك قد يعود عليه بضمير الجمع نظرا إلى المعنى ، فاللفظ وإن كان مثقّى لكن يراد به الجمعان ، وهما معا جمع لا محالة.

من ذلك قوله تعالى : ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾. حيث المراد بالخصمين جماعة الكفار وجماعة المؤمنين. حيث التخاصم بين الفريقين قائم على ساق. ولذلك تعقبت الآية بقوله : ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ... إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾. ^(٤)

قال الطبرسي : فالفرق الكافرة خصم ، والمؤمنون خصم ، وقد ذكروا فيما قبل. ^(٥)

* * *

وهكذا خطابات الجمع الموجهة إلى آدم وحواء يراد بها : آدم وحواء وذريتهما. حيث هبوطهما من الجنة إلى الأرض هبوط ذريتهما الذين سيولدون منهما أيضا. فالخطاب مع الجمع . جماعة بني الإنسان . وليس آدم وحواء وحدهما.

(١) الأعراف ٧ : ١٩٧.

(٢) فاطر ٣٥ : ١٣ و ١٤.

(٣) الشعراء ٢٦ : ٧١ - ٧٣.

(٤) الحجّ ٢٢ : ١٩ - ٢٤.

(٥) مجمع البيان ، ج ٧ ، ص ٧٧.

بدليل ذيل الآيات : ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. ^(١) ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾. ^(٢)

وقد وهم من زعم أنَّ الخطاب يشترك فيه إبليس أو الحية أو غيرهما ، حيث لا تناسب له مع سياق الآيات. ^(٣)

* * *

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾. ^(٤) زعموا فيه تهافتا ، وكان الوجه أن يقال : اقتتلا ، أو بينهم. فجمع الضمير ثمّ تشنيته تهافت. ^(٥)

لكن الجمع إمّا هو باعتبار أن الاقتتال يقع بين آحاد المؤمنين من كلّ طائفة. أمّا التصالح فإنّما هو بين الفريقين لا الآحاد. ^(٦)

جمع يراد به الاثنان فما فوق

قد يعبر بلفظ الجمع ويراد به مطلق الجمع ، أي الجمع العربي الصادق من اجتماع اثنين فما فوق ، نظير ضمير المتكلم مع الغير ، يراد به الاثنان فما فوق. وهذا شائع في سائر اللغات التي لا توجد فيها صيغ للتثنية. والعرب قد تستعمل ذلك حسب العرف العامّ ونظرا للمعنى اللغوي للجمع الصادق مع الاثنين.

قال الطبرسي : والعرب تسمّي الاثنين بلفظ الجمع في كثير من كلامهم. حكى سيبويه أنّهم يقولون : وضعا راحلها ، يريدون رحلي راحلتيهما. وقال تعالى : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا خِصْمَهُمْ شَاهِدِينَ﴾. ^(٧) يعني : حكم داود وسليمان. ^(٨)

(١) البقرة ٢ : ٣٨.

(٢) الأعراف ٧ : ٢٤ و ٢٥.

(٣) راجع : مجمع البيان ، ج ١ ، ص ٨٧.

(٤) الحجرات ٤٩ : ٩.

(٥) هاشم العربي في ملحق ترجمة كتاب الإسلام ، ص ٤١٩.

(٦) الهدى إلى دين المصطفى ، ج ١ ، ص ٣٨٤.

(٧) الأنبياء ٢١ : ٧٨.

(٨) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ١٥.

قال سيبويه . في باب ما لفظ به مّا هو مثنى كما لفظ بالجمع . : وهو أن يكون الشيطان كلّ واحد منهما بعض شيء مفرد من صاحبه ، وذلك قولك : ما أحسن رءوسهما ، وما أحسن عواليهما. وقال عَجَلٌ : ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾^(١) . ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(٢) فرّقوا بين المثنى الذي هو شيء على حدة وبين ذا. وقال الخليل : نظيره قولك : فعلنا ، وأنتما اثنان فتكلّم به كما تكلّم به وأنتم ثلاثة. وقد قالت العرب في الشيطان اللّذين كلّ واحد منهما اسم على حدة وليس واحد منهما بعض شيء ، كما قالوا في ذا (أي فيما كان كلّ واحد منهما بعض شيء) لأنّ التثنية جمع ، فقالوا كما قالوا فعلنا. وزعم يونس أنّهم يقولون : ضع راحلها وغلمانها ، وإنّما هما اثنان. قال الله عَجَلٌ : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضُمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمَحْرَابَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخَظْنَا بِأَيْدِيهِمَا﴾^(٣) وقال : ﴿كَأَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾^(٤) .

* * *

وفي كتاب «إعراب القرآن» المنسوب إلى الزجاج^(٥) جاء الباب الثامن والأربعون لبيان ما جاء في القرآن من الجمع يراد به التثنية. فمن ذلك قوله تعالى : ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾^(٦) . وأجمعت الامة على أنّ الأخوين يحجبان الامّ من الثلث إلى السدس بدلالة الآية. وقوله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(٧) أي يديهما. وقوله تعالى : ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾^(٨) أي قلبكما. وقيل في قوله تعالى : ﴿يَرْبِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾^(٩) : إنّّه من هذا الباب ، لقوله تعالى :

(١) التحريم ٦٦ : ٤ .

(٢) المائدة ٥ : ٣٨ .

(٣) ص ٣٨ : ٢١ و ٢٢ . في حين أنّهما كانا اثنين (أخوين).

(٤) الشعراء ٢٦ : ١٥ . راجع : كتاب سيبويه ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٥) ومن المحتمل القريب أنه لمكي بن أبي طالب. راجع : ملحق الكتاب ، ص ١٠٩٦ . ١٠٩٩ .

(٦) النساء ٤ : ١١ .

(٧) المائدة ٥ : ٣٨ .

(٨) التحريم ٦٦ : ٤ .

(٩) المعارج ٧٠ : ٤٠ .

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾. ^(١)

وقوله تعالى : ﴿وَكُنَّا حُكَمِيَهُمْ شَاهِدِينَ﴾. ^(٢) والمتقدم : داود وسليمان. ^(٣)

وهكذا قال أبو البقاء العكبري : قيل : إنما جمع لأنّ الاثنين جمع. ^(٤)

قال أبو جعفر الطبري : قال جماعة أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان ومن بعدهم من علماء أهل الإسلام في كلّ زمان : عنى الله جل ثناؤه بقوله ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ اثنين كان الإخوة أو أكثر منهما ، اثنين كانتا أو كنّ إناثا ، أو ذكرين كانا أو كانوا ذكورا ، أو كان أحدهما ذكرا والآخر انثى. واعتلّ كثير ممن قال ذلك بأنّ ذلك قالته الامة عن بيان الله جلّ ثناؤه على لسان رسوله ﷺ ، فنقلته أمة نبيّه نقلا مستفيضا قطع العذر مجيئه ودفع الشكّ فيه عن قلوب الخلق وروده. ^(٥)

* * *

وقال أبو بكر الجصاص : إنّ اسم الإخوة قد يقع على الاثنين ، كما قال تعالى : ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ^(٦) وهما قلبان. وقال تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفِ إِذْ تُسَوِّرُوا الْمَحْرَابَ﴾ ^(٧) ثمّ قال تعالى : ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ ^(٨) فأطلق لفظ الجمع على اثنين. وقال تعالى : ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ ^(٩) فلو كان أخا وأختا كان حكم الآية جاريا فيهما.

وقد روي عن النبي ﷺ أنّه قال : «اثنان فما فوقهما جماعة». ^(١٠)

ولأنّ الاثنين إلى الثلاثة في حكم الجمع أقرب منهما إلى الواحد ، لأنّ لفظ الجمع موجود فيهما.

(١) الرحمن ٥٥ : ١٧.

(٢) الأنبياء ٢١ : ٧٨.

(٣) إعراب القرآن ، القسم الثالث ، ص ٧٨٧.

(٤) في كتابه : إملاء ما منّ به الرحمن في إعراب القرآن ، ج ٢ ، ص ١٣٥.

(٥) جامع البيان ، ج ٤ ، ص ١٨٧ - ١٨٨.

(٦) التحريم ٦٦ : ٤.

(٧) ص ٣٨ : ٢١.

(٨) ص ٣٨ : ٢٢.

(٩) النساء ٤ : ١٧٦.

(١٠) سنن ابن ماجه ، باب ٢٤٦ ج ١ ، ص ٣٠٨ ، رقم ٩٨١. وقد عقد البخاري بابا جعل ذلك عنوانه : باب ٣٥ الأذان ، ج ١ ، ص ١٦٧. وراجع : فتح الباري ، ج ٢ ، ص ١١٨.

وقد روي [وياسناد صحيح] عن زيد بن ثابت أنّه كان يحجب الّام بالأخوين ، فقالوا له : يا أبا سعيد ، إنّ الله تعالى يقول ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾^(١) وأنت تحجبها بالأخوين؟ فقال : إنّ العرب تسمّي الأخوين إخوة.^(٢)

فإذا كان زيد بن ثابت [وهو عربيّ صميم] قد حكى عن العرب أنّها تسمّي الأخوين إخوة فقد ثبت أنّ ذلك اسم لهما يتناولهما ...^(٣) قال تعالى : . بشأن الأولاد . : ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثًا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾.^(٤) فقد شملت النساء . وهي صيغة الجمع . للاثنتين فما فوق . ومن ثمّ كان معنى قوله «فوق اثنتين» : اثنتين فما فوق . وذلك بدليل تقابله مع قوله : ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ . وإلاّ كانت الاثنتان مغفولا عنهما ، الأمر الذي لا يتفق مع كون سياق الكلام لبيان الاستيعاب .

ويشهد لذلك قوله تعالى بشأن الكلالة : ﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ . وَهُوَ يَرِيْهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.^(٥) والمراد : الاثنتان فما فوق ، بدليل الإجماع في كلا الموضعين .

ذكر الطبرسي في الآية الاولى وجوها ، أحدها . وهو أوجهها . : أنّ في الآية بيان حكم البنتين فما فوق ، لأنّ معناه : فإن كرت اثنتين فما فوق فلهنّ ثلثا ما ترك ، إلّا أنّه قدّم ذكر الفوق على الاثنتين ، كما روي عن النبي ﷺ أنّه قال : لا تسافر المرأة سفرا فوق ثلاثة أيّام إلّا ومعها زوجها أو ذو محرم لها.^(٦) ومعناه : لا تسافر سفرا ثلاثة أيّام فما فوقها.^(٧)

(١) النساء ٤ : ١١ .

(٢) أحكام القرآن للجصاص ، ج ٢ ، ص ٨١ - ٨٢ .

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ، ج ٦ ، ص ٢٢٧ ، باب فرض الّام . وقد عقد البيهقي بابا لترجيح قول زيد على قول غيره من الصحابة وأنّه أعلم الصحابة بعلم الفرائض . راجع : ج ٦ ، ص ٢١٠ . وهكذا روى الحاكم في المستدرک ، ج ٤ ، ص ٣٣٥ : كان زيد يقول : الإخوة في كلام العرب إخوان فصاعدا . قال : هذا حديث صحيح لم يخرجّه الشيخان . وروى بإسناد صحّحه أيضا أنّ زيدا أفرض الّام . وراجع : الدرّ المنثور ، ج ٢ ، ص ٤٤٧ .

(٤) النساء ٤ : ١١ .

(٥) النساء ٤ : ١٧٦ .

(٦) راجع : السنن الكبرى ، ج ١٠ ، ص ٨٢ ؛ وسنن أبي داود ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ، رقم ١٧٢٦ ؛ وسنن ابن ماجّة ، ج ٢ ، ص ٢١١ ، رقم ٢٩٤٧ ؛ وصحيح البخاري ، ج ٢ ، ص ٥٤ ، باب التقصير في السفر ، رقم ٤ .

(٧) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ١٤ .

هذا الحديث ورد بألفاظ يختلف بعضها عن بعض ، فكان مقتضى الجمع بينها هو الحكم بأنّ الزائد على اليومين حرام عليها إلّا مع ذي رحم. ففي سنن البيهقي : «لا تسافر المرأة فوق ثلاثة أيّام إلّا مع ذي محرم». ^(١) وفي لفظ أبي داود : «لا يحل لامرأة ... أن تسافر سفرا فوق ثلاثة أيّام فصاعدا إلّا ومعها أبوها ، أو أخوها ، أو زوجها ، أو ابنها ، أو ذو محرم منها». ^(٢) وأيضا روي : «لا تسافر المرأة ثلاثا إلّا ومعها ذو محرم». ^(٣) وفي لفظ ابن ماجه : لا تسافر المرأة سفر ثلاثة أيّام فصاعدا إلّا مع ...». ^(٤) وفي البخاري : «لا تسافر المرأة ثلاثة أيّام إلّا مع ذي محرم». وجاء في الهامش : وفي نسخة «فوق ثلاثة أيّام». ^(٥) وأيضا روي : «لا تسافر المرأة يومين إلّا ومعها زوجها أو ذو محرم». ^(٦) «لا تسافر المرأة مسيرة يومين إلّا ومعها زوجها أو ذو محرم». ^(٧) ومقتضى الجمع بين مختلف التعابير أنّ النهي إنّما يتوجّه إليها فيما بعد اليومين. ومن ثمّ فهم الفقهاء من قوله ﷺ : «فوق ثلاثة أيّام» الثلاثة فما فوق.

يجوز في جماعة غير ذوي العقول اعتبار جمع التأنيث

قال تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾. ^(٨) جاء وصف الأيّام. وهو جمع مكسّر ل «يوم» الذي هو مذكّر حيث قوله تعالى : ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسٍ مَّتَّيْمٍ﴾ ^(٩) بجمع المؤنث السالم (بالألف والتاء).

(١) السنن الكبرى ، ج ١٠ ، ص ٨٢ ، باب من نذر المشي إلى مسجد المدينة أو مسجد بيت المقدس ، رقم ٢.

(٢) سنن أبي داود ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ، رقم ١٧٢٦ ، باب المرأة تحج بغير محرم ، رقم ٤.

(٣) المصدر : ص ١٤١ ، رقم ١٧٢٧ / ٥.

(٤) سنن ابن ماجه ، ج ٢ ، ص ٢١١ ، باب ١٠١٤ المرأة تحج بغير ولي ، رقم ٢٩٤٧.

(٥) صحيح البخاري ، ج ٢ ، ص ٥٤ ، باب التقصير في السفر ، رقم ٤.

(٦) المصدر : ص ٧٧ ، باب مسجد بيت المقدس.

(٧) المصدر : ج ٣ ، ص ٥٦ باب الصوم يوم النحر.

(٨) فضّلت ٤١ : ١٦.

(٩) القمر ٥٤ : ١٩.

قال أبو حيّان الأندلسي : و «نحسات» صفة لأَيّام ، جمع بألف وتاء ، لأنّه جمع صفة لما يعقل. ^(١)
 قال الريحشري . في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ... الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ . : ^(٢) الضمير في «خلقهنّ» لليل والنهار والشمس والقمر ، لأنّ حكم جماعة ما لا يعقل حكم الانثى أو الإناث. يقال : الأفلام بريتها وبريتهنّ. ^(٣)
 قال المحقّق رضي الدين الأسترآبادي . بشأن الجمع غير العاقلين . : هو ثلاثة أقسام ، مذكّر لا يعقل كالأيّام والجيّلات . ومؤنث يعقل كالنساء والزينبات . ومؤنث لا يعقل كالنساء والظلمات . فيجوز أن يكون ضمير جميعها الواحد المؤنث الغائب ، بتأويل الجماعة . وأن يكون النون (نون جمع المؤنث) لكونها جمع غير العاقلين ، وقد تقدّم [عند الكلام عن الضمائر] أنّ النون موضوع له . فنقول : الأَيّام والجيّلات ، والنساء والزينبات ، والدور والغرفات ، فعلت وفعلن ... ^(٤)

* * *

وأما وصف الملائكة بصيغة الجمع المؤنث السالم (بالألف والتاء) . في المرسلات ، والنازعات ، والصاقّات ، والذاريات . فباعتبار كون الموصوف هم جماعات الملائكة.
 فقوله : ﴿فَالْمَلَكِيَّاتِ ذِكْرًا﴾ ^(٥) أي الجماعات الملقيات ، جمع جماعة الملائكة. وكذا قوله : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ . ^(٦) ﴿وَالصَّاقَّاتِ صَفًّا﴾ . فالزّاجرات زَجْرًا . فَالتّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ . ^(٧) وهكذا قوله : ﴿فَالْمَقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ . ^(٨)
 وقوله تعالى : ﴿وَالطَّيْرُ صَاقَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ . ^(٩) صاقّات : حال من الطير ، باعتباره اسم جنس جمع ، فهو كالجمع المكسّر لغير ذوي العقول.

(١) البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٤٩١ .

(٢) فضّلت ٤١ : ٣٧ .

(٣) الكشّاف ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ .

(٤) شرح الكافية للأسترآبادي ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

(٥) المرسلات ٧٧ : ٥ .

(٦) النازعات ٧٩ : ٥ .

(٧) الصاقّات ٣٧ : ١ - ٣ .

(٨) الذاريات ٥١ : ٤ .

(٩) النور ٢٤ : ٤١ .

ومثله قوله : ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾. ^(١) أي الخيل الصافنات ، وهي الخيل الواقفة على ثلاث قوائم ، الواضعة طرف السنبك الرابع على الأرض.

التعبير عن العقلاء ب «ما» الموصولة

فقد جاء في القرآن الكريم مواضع استعمل فيها «ما» الموصولة فيمن يعقل :

منها قوله تعالى : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾. ^(٢)

وقوله : ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾. ^(٣)

وقوله : ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾. ^(٤)

وقوله : ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾. ^(٥)

وقوله : ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾. ^(٦)

وقوله : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾. ^(٧)

وقوله : ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾. ^(٨)

وقد تخلص أهل الأدب من ذلك من وجوه :

الأول : جواز استعمال «ما» الموصولة فيمن يعقل جوازا مطّردا وإن كان غير غالب.

قال أبو البقاء العكبري : «ما» هنا بمعنى من. ولها نظائر في القرآن. ^(٩)

وجاء في الكافية لابن حاجب : و «ما» في الغالب لما لا يعلم ، وقد جاء في العالم قليلا. حكى أبو زيد : سبحان من سحرّكّ لنا وسبحان ما

سبح الرعد بحمده. وقال تعالى : ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. ^(١٠)

(١) ص ٣٨ : ٣١.

(٢) النساء ٤ : ٣.

(٣) النساء ٤ : ٢٤.

(٤) الشمس ٩١ : ٥.

(٥) الكافرون ١٠٩ : ٢ و ٣.

(٦) النساء ٤ : ٢٥.

(٧) النساء ٤ : ٢٢.

(٨) الليل ٩٢ : ٣.

(٩) راجع : إملاء ما منّ به الرحمن ، ج ١ ، ص ١٦٦ ؛ وشرح الكافية ، ج ٢ ، ص ٥٥.

(١٠) النساء ٤ : ٣٦. جاء في نفس الصفحة من شرح الكافية : «سبحان ما سحرّكّ لنا وما سبح الرعد بحمده».

الثاني : أنّ الإناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء. ^(١) وهذا أبعد الوجوه.

الثالث . وهو الأوجه . : أنّه إجراء على الصفة لا على الذات.

قالوا : و «ما» تختصّ أو تغلب في غير العقلاء فيما إذا اريد الذات ، وأما إذا اريد الوصف فلا. كما تقول : ما زيد . في الاستفهام . أي أفاضل أم كريم. وأكرم ما شئت من الرجال ، تعني الكريم أو اللقيم. ^(٢)

قال الفراء : قال تعالى ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ ^(٣) ولم يقل «من طاب». وذلك أنّه ذهب إلى الفعل (أي الوصف) [أي فانكحوا الطيّبات من النساء]. كما قال : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ^(٤) يريد : أو ملك أيمانكم.

ولو قيل في هذين «من» كان صوابا ، ولكن الوجه ما جاء به الكتاب. وأنت تقول في الكلام : خذ من عبيدي ما شئت ، إذا أراد مشيئتك ، فإن قلت : «من شئت» فمعناه : خذ الذي تشاء. ^(٥)

وهكذا قال أبو البقاء : وقيل : «ما» تكون لصفات من يعقل ، وهي هنا كذلك ، لأنّ «ما طاب» يدلّ على الطيب منهم.

وقال الزمخشري : وقيل : «ما» ذهابا إلى الصفة.

قل رضيّ الدين الأسترآبادي : وتستعمل أيضا في الغالب في صفات العالم نحو : زيد ما هو وما هذا الرجل ، فهو سؤال عن صفته. والجواب : عالم أو غير ذلك. قال : وقول فرعون : ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. ^(٦) يجوز أن يكون سؤالاً عن الوصف ، ولهذا قال موسى ﷺ ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ^(٧)

قال الزمخشري . ردّا على من زعم أنّ «ما» في قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾. ^(٨) مصدرية . : وليس بالوجه ، لقوله ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ ، وما

(١) الكشاف ، ج ١ ، ص ٤٦٧.

(٢) روح المعاني ، ج ٤ ، ص ١٦٩.

(٣) النساء ٤ : ٣.

(٤) النساء ٤ : ٣.

(٥) معاني القرآن ، ج ١ ، ص ٢٥٣-٢٥٤.

(٦) الشعراء ٢٦ : ٢٣.

(٧) الشعراء ٢٦ : ٢٤ . راجع : شرح الكافية ، ج ٢ ، ص ٥٥.

(٨) الشمس ٩١ : ٧٠٥.

يؤدّي إليه من فساد النظم. قال : والوجه أن تكون «ما» موصولة ، وإثما اوثرت على «من» لإرادة معنى الوصفية ، كأنّه قيل : والسماء ، والقادر العظيم الذي بناها. ونفس ، والحكيم الباهر الحكمة الذي سوّاها. وفي كلامهم : سبحان ما سخرّك لنا. ^(١)

وقال . في تفسير سورة الكافرون . : فإن قلت : فلم جاء على «ما» دون «من»؟ قلت : لأنّ المراد الصفة ، كأنّه قال : لا أعبد الباطل ، ولا تعبدون الحقّ. ^(٢)

وقال الطبرسي . في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ ^(٣) . : إنّّه يجوز أن يكون ذهب به مذهب الجنس ، كما يقول القائل : لا تأخذ ما أخذ أبوك من الإماء. فيذهب مذهب الجنس ثم يفسّره ب «من». ^(٤)

وأقول . توضيحا لذلك . : إنّ «ما» قد يراد به الذات ، فذلك الغالب أن يقع على غير ذوي العقول. ولكن قد يقع على ذوي العقول مرادا به الوصف لا الذات ، فذلك هو الشائع واستعمله القرآن. ومنه السؤال عن ماهية أيضا ، يؤتى بما دون «من» وإن كان سؤالا عن ماهية عاقل فيقال : زيد ما هو ، وما هذا الرجل. فإنّ السؤال عن شخصيّة وعن تكوينه الذاتي في أوصافه الخاصّة ، وليس المراد السؤال عن معرفة شخصه ، فلا يصحّ أن يقال في الجواب : إنّ ابن فلان أو من آل فلان. بل ينبغي أن يجاب بما يعرف شخصيّة الذاتية وأن يؤتى بأوصاف تخصّه.

نعم ، لو اريد السؤال عن شخصه كان يجب أن يقال : من هو ، فيجاب بأنّه ابن فلان أو من آل فلان.

وفي الحديث عن أبي الحسن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد ، فإذا جماعة قد أطافوا برجل. فقال : ما هذا؟ فقيل : علامة. قال : وما العلامة؟ قالوا : أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية وبالأشعار والعريية. فقال النبي صلى الله عليه وآله : ذاك علم لا يضّر من جهله ، ولا ينفع من علمه. ^(٥)

(١) الكشاف ، ج ٤ ، ص ٧٥٩.

(٢) المصدر : ص ٨٠٩.

(٣) النساء ٤ : ٢٢.

(٤) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٢٧.

(٥) بحار الأنوار ، ج ١ ، ص ٢١١ عن أمالي الصدوق.

ومنه قوله تعالى . حكاية عن فرعون . : ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) وذلك لما دعاه موسى ﷺ إلى شريعته وقال : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) . عاد عليه فرعون وسأله عن سمات هذا الربّ والتي جعلته ربّاً للعالمين ، ولم يسأله عن ذاته المقدّسة وعن اسمه الخاصّ . وإلاّ لكان حقّ الجواب أن يقول موسى ﷺ : الله ، بل أجابه بقوله : ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ... رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ... رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾^(٣) وفيه تعريض بفرعون ، حيث ادّعى الربوبية ، لأنّ له ملك مصر ، وأنّ أنهارها تجري من تحته^(٤) . فهو يملك . فيما زعم . رقعة من الأرض وليست كلّها وفي مقطع من الزمان لا في كلّ الأزمان ، ولأناس معدودين وليس كلّ الخلائق من الأوّلين والآخرين .

والخلاصة : إنّ التعبير ب «ما» عن الشيء قد يكون تعريفا بعين ذاته ، فهذا ما يغلب استعماله في غير ذوي العقول . وقد يكون تعريفا بصفاته وعناوينه التي كوّنت شخصيته الخاصّة ، فهذا يعمّ ويغلب استعماله في العقلاء أيضا . وقد جاءت تعابير القرآن على هذا النمط ، وجاريا على أساليب كلام العرب الفصيح .

وعليه ، فكان قوله تعالى : ﴿فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾^(٥) تعبيرا عن الطّيّبات من النساء ، أي فانكحوا الطيّب من النساء . قال مكّي بن أبي طالب : أي فانكحوا الطيّب أي الحلال . و «ما» تقع لما لا يعقل ، ولنعت ما يعقل ، ولذلك وقعت هنا لنعت ما يعقل^(٦) . وكذا قال . في قوله تعالى : ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(٧) . : وقعت «ما» لمن يعقل ، لأنّ المراد بها صفة من يعقل . قال : و «ما» يسأل بها عمّا لا يعقل وعن صفات من يعقل^(٨) .

قال الفراء : ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يريد : أو ملك أيمانكم^(٩) .

(١) الشعراء ٢٦ : ٢٣ .

(٢) الشعراء ٢٦ : ١٦ .

(٣) الشعراء ٢٦ : ٢٤ . ٢٨ .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ . الزخرف ٤٣ : ٥١ .

(٥) النساء ٤ : ٣ .

(٦) مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ، ج ١ ، ص ١٨٩ .

(٧) النساء ٤ : ٣٦ .

(٨) المصدر : ص ١٩٥ .

(٩) معاني القرآن ، ج ١ ، ص ٢٥٤ .

فإنّه عنى الطيّبات ، ثم بيّنه بقوله : «من النساء». كما أنّه عنى المملوك ثم بيّنه بالفتيات وكذلك قوله ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ...﴾^(١) فإنّه عنى جانب الاستمتاع ، ثم جاء البيان بالنساء. ومثله قوله ﴿مَا نَكَحَّ آبَاؤُكُمْ﴾^(٢) أي ما وقع في نكاحهم ، ثم بيّنه بقوله : «من النساء».

وقال الرمحشري . في قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا...﴾^(٣) . : جعلت «ما» مصدرية ، وليس بالوجه ، لقوله «فألهمها» ، وما يؤدّي إليه من فساد النظم. والوجه : أن تكون موصولة ، وإثما اوثرت على «من» لإرادة معنى الوصفية ، كأنّه قال : والسماء والقادر العظيم الذي بناها. ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها. وفي كلامهم : «سبحان ما سحرّكنّ لنا». ^(٤) وقال . في قوله ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾^(٥) . : فإن قلت : لم جاء على «ما» دون «من»؟ قلت : لأنّ المراد الصفة ، كأنّه قال : لا أعبد الباطل ، ولا تعبدون الحقّ. ^(٦)

وقال . في قوله ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾^(٧) . : والقادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والانثى من ماء واحد. وقرأ ابن مسعود : والذي خلق الذكر والانثى. ^(٨) تبيننا لموضع «ما» وأثما موصولة.

قال الفراء : كلّ هذا . أي التعبير ب «ما» عن العقلاء فيما ذكر من الآيات . جائز في العربية. ^(٩)

ضمائر تخالف مراجعها

قال تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾. ^(١٠)

(١) النساء ٤ : ٢٤.

(٢) النساء ٤ : ٢٢.

(٣) الشمس ٩١ : ٥.

(٤) الكشف ، ج ٤ ، ص ٧٥٩.

(٥) الكافرون ١٠٩ : ٢ و ٣.

(٦) الكشف ، ج ٤ ، ص ٨٠٩.

(٧) الليل ٩٢ : ٣.

(٨) الكشف ، ج ٤ ص ٧٦١.

(٩) معاني القرآن ، ج ٣ ، ص ٢٦٣.

(١٠) البقرة ٢ : ١٧.

فقد شبّه المنافقون . في حالتهم المزرية . بالذي استوقد نارا لإنارة الطريق ، لكنّه افتقدها فور الوقود. ومن ثمّ كان يجب . حسب الظاهر . إفراد الضمائر كلّها ، حيث عودها على المشبه وهو مفرد!

لكن هذا من باب تناسي التشبيه . كما في الاستعارة المرشّحة .^(١) كما في قول أبي تمام من قصيدة يرثي بها خالد بن يزيد الشيباني ويذكر أباه. وهذا البيت في مدح أبيه وذكر علوّ قدره ورتبته :

ويصعدُ حــــــدى يظــــنّ الجــــهــــول بأنّ لــــه حاجــــة في الســــماء
استعار الصعود لعلوّ القدر والارتقاء في مدارج الكمال ، ثمّ بنى عليه ما يبني علوّ المكان والارتقاء في السماء. فلولا أنّ قصده أن يتناسى التشبيه ويصرّ على إنكاره فيجعله صاعدا في السماء من حيث المسافة المكانية ، لما كان لهذا الكلام وجه.

ونحوه قول أبي الفضل ابن العميد في غلام جميل قام على رأسه ليستره عن الشمس :

قامــــت تظلّلتــــني مــــن الشــــمس نفــــس أعرــــز علــــيّ مــــن نفــــسي
قامــــت تظلّلتــــني ومــــن عجب شمــــس تظلّلتــــني مــــن الشــــمس

فلولا أنّه تناسى التشبيه لم يكن وجه لهذا التعجّب.

وكذا قول أبي الطباطبا العلوي في وصف غلام صبيح :

لا تعجبــــوا مــــن بلــــى غلالتــــه قد زرّ أزواره علــــى القمــــر
فلولا أنّه تناسى التشبيه لم يكن وجه لهذا النهي عن التعجّب.

ونظيره ما جاء في نفس التشبيه . من غير استعارة . كما في قول عباس بن الأحنف في قصيدة يصف فيها محبوبته ، يخاطب نفسه :

(١) وهي : ما قرن المستعار له بما يلائم المستعار منه. كما في قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ البقرة ٢ : ١٦ . فإنّه استعار الاشتراء للاستبدال والاختيار ثمّ فرّع عليها ما يلائم الاشتراء من الربح والتجارة. قالوا : والترشيح أبلغ ، لاشتماله على تحقيق المبالغة في التشبيه ، ومبناه على تناسي التشبيه وادّعاء أنّ المستعار له عين المستعار منه (راجع المطوّل ، قسم البيان ، ص ٣٧٨ . ٣٧٩ طبع مصر ، منشورات مكتبة الداوري . قم).

هي الشمس مسكنها في السماء فعزّ الفؤاد عزاء جميلا
فلن تسطيع إليها الصعودا ولن تسطيع إليك النزولا
فقد شبهها بالشمس تشبيها صريحا من غير أن يطوي ذكر المشبه به ، ومع ذلك فقد تناسى التشبيه ، وبني على المشبه ما هو من شأن المشبه به .

(١)

وقوله تعالى : ﴿وُخِضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾^(٢) أي خضتم في الكفر والعناد كالذي خاضوه . فالعائد محذوف . وهذا من تشبيه الخوض بالخوض ، لا الخائضين بالخائضين . وهو من حسن التشبيه حيث وقع بين الفعلين لا الفاعلين .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٣) . المراد به الجنس وهو عام في مفهومه يشمل الواحد والكثير ، وبما أنّ الآية ذات مصاديق كثيرة لوحظ المعنى ليعمّ الحكم من غير ومن حضر ومن يأتي من بعد .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفٍّ لَّكُمْ...﴾^(٤) . المراد به الجنس أيضا . وهو نوع من الالتفات اللطيف ، حيث يبدأ الكلام بمفرد ، لكنّ المتكلم . حيث أراد الجنس لا الفرد الخاص . ينحو بكلامه إلى جانب العموم وإرادة الشمول .

وهنا بشأن هذه الآية حكاية طريفة : زعمت بنو اميّة وبنو مروان أنّها نزلت بشأن عبد الرحمن بن أبي بكر . حينما كتب معاوية إلى عامله بالمدينة مروان بن الحكم بأن يبايع الناس ليزيد قال عبد الرحمن : لقد جئتم بها هرقلية ، تبايعون لأبنائكم ! فقال مروان : أيّها الناس ، إنّ هذا هو الذي قال الله فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفٍّ لَّكُمْ...﴾ فسمعت عائشة ، فغضبت وقالت : والله ما هو به ، ولو شئت أن اسمّيه لسمّيته . ولكنّ الله لعن أباك وأنت في صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله .^(٥)

(١) المطوّل ، ص ٣٧٩ .

(٢) التوبة ٩ : ٦٩ .

(٣) الزمر ٣٩ : ٣٣ .

(٤) الأحقاف ٤٦ : ١٧ و ١٨ .

(٥) فضض : ما انفصّ من الشيء . قال الجوهري : وفي الحديث : أنت فضض من لعنة الله ، يعني : ما انفصّ من نطفة الرجل .

ما يستوي فيه المفرد والجمع

من ذلك لفظ «الطاغوت» يقع على الواحد والجمع :

* قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾^(١). وقال : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾^(٢). جاء في التفسير أنه أراد : كعب بن الأشرف رأس اليهود.

وقال : ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾^(٣). أراد به الأصنام.

قالوا : هو في الأصل مصدر «طغى» ، وأصله : طغيوت ، على وزان : فعلوت ، مثل : الرهبوت ، والرحموت. فقدّم الياء وأبدل منها ألفا فصار طاغوت.^(٤)

* ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(٥).

ومثله قوله : ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾^(٦).

والمراد بالإنسان هنا الجنس الذي يطلق على الواحد والجمع سواء ، بدليل الاستثناء هنا.

* قال تعالى : ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾^(٧). قال الزمخشري : والسامر ، نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع. وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون. وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا ، وسب النبي ﷺ . و «تهجرون» من أهجر في منطقه إذا أفحش. والهجر . بالضم . : الفحش. وبالفتح : الهذيان.^(٨)

* ومنه «الفلک» يطلق على المفرد والجمع ، قال تعالى في المفرد : ﴿وَمَنْ مَعَهُ فِي

. وتردد في صلبه. والحديث أخرجه النسائي وابن أبي خيثمة والحاكم وصححه ابن مردويه. وأخرج أصله البخاري في صحيحه. راجع : الكشاف ، ج ٤ ، ص ٣٠٤ وهامش ، ص ٣٠٣. وراجع أيضا : الدر المنثور ، ج ٧ ، ص ٤٤٤.

(١) البقرة ٢ : ٢٥٧.

(٢) النساء ٤ : ٦٠.

(٣) الزمر ٣٩ : ١٧.

(٤) إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج ، ص ٧٦٣ ، باب ٤٢.

(٥) التين ٩٥ : ٤ - ٦.

(٦) العصر ١٠٣ : ١ - ٣.

(٧) المؤمنون ٢٣ : ٦٧.

(٨) الكشاف ، ج ٣ ، ص ١٩٤.

الْفُلُكِ الْمَشْحُونِ^(١) وقال في الجمع : **﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾**^(٢) فهو في المفرد كقفل ، وفي الجمع كاسد .
وقوله **﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾** ، ^(٣) يحتمل المفرد والجمع ، وذلك لأنَّ «الفلک» يذكر ويؤنث . فيحتمل في ضمير التأنيث أن يكون لذلك ،
أو لإرادة الجمع .

* ومنه ما جاء مفردا بلفظة التمييز أو الحال أو المفعول به ، ويراد به الجمع ، لا باعتبار المجموع ، بل باعتبار كل واحد منهم : قال تعالى : **﴿فَإِنْ طَبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾** .^(٤) أي أنفسا ، والمراد : كل واحدة نفسا . وقال : **﴿وَحَسَنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾** .^(٥) أي رفقاء ، والمراد : كل واحد رفيقا .

قال الزمخشري : والرفيق كالصديق والخليط في استواء الواحد والجمع فيه . ويجوز أن يكون مفردا بيّن به الجنس في باب التمييز .^(٦)

وقال : **﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾** .^(٧) أي أطفالا ، والمراد : كل واحد طفلا .

وقال : **﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾** .^(٨) أي وكلاء .

وقال : **﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾** .^(٩) أي أنجباء أو أنجية .

قال الزمخشري : ويجوز أن يقال : هم نجي كما قيل : هم صديق ، لأنّه بزنة المصادر .^(١٠)

* ومنه لفظ «العدوّ» . فإنه يطلق على الواحد والجمع على سواء . قال تعالى : **﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾** .^(١١)

قال الراغب : يقال : رجل عدوّ ، وقوم عدوّ .^(١٢) قال تعالى : **﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ قَاتَلَهُمُ**

(١) الشعراء ٢٦ : ١١٩ .

(٢) يونس ١٠ : ٢٢ .

(٣) البقرة ٢ : ١٦٤ .

(٤) النساء ٤ : ٤ .

(٥) النساء ٤ : ٦٩ .

(٦) الكشّاف ، ج ١ ، ص ٥٣١ .

(٧) غافر ٤٠ : ٦٧ .

(٨) الإسراء ١٧ : ٢ .

(٩) يوسف ١٢ : ٨٠ .

(١٠) الكشّاف ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .

(١١) الشعراء ٢٦ : ٧٧ .

(١٢) المفردات ، ص ٣٢٦ .

اللَّهُ أَلَيَّْ يُوَفِّكُونَ ﴿١﴾ ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾. (٢)
* وقال تعالى : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾. (٣) أي أصدقاء أحماء.

(١) المنافقون ٦٣ : ٤ .

(٢) الكهف ١٨ : ٥٠ .

(٣) الشعراء ٢٦ : ١٠٠ و ١٠١ .

الباب الخامس

القصص القرآني

على منصّة التحقيق

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾^(١)

القصّة : الحديث. الخبر. الأمر الحادث. الاحدوثة. الشأن. الحال. جمعها : قصص ، والمصدر قصص.

يقال : قصّ عليه الخبر قصصا ، إذا حدّثه به. والقصّ والقصص : تتبّع الأثر. يقال : قصصت أثره أي تتبّعته. قال تعالى : ﴿فَارْتَدًّا عَلَى آثَارِهِمَا

قَصَصًا﴾ ، ^(٢) أي رجعا إلى الوراء ليستعلما الحال. وقال . على لسان أمّ موسى . : ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ . ^(٣) أمرتها بالفحص وتتبّع أثره ، ولتنظر من يأخذه من الماء.

وقصص القرآن : أخباره عن أحوال الماضين ، من امم وأنبياء سالفين. وعن

(١) يوسف ١٢ : ٣.

(٢) الكهف ١٨ : ٦٤.

(٣) القصص ٢٨ : ١١.

حوادث واقعة في سواف الأيّام ، ممّا فيه العبر والاعتبار للباقيين.

وللقصّة أثرها المباشر في النفوس وأكد في التربية والتعليم ممّا لو كان الكلام عاريا عن شواهد وأمّثال. ذلك أنّ النفوس تحفو إلى معرفة ما بين الأحداث وعللها وأسبابها من ربط. وكذا بينها وبين النتائج المترتبة عليها من علاقة وثيقة. فلو أنّ المتكلّم أبان وجه العلل والأسباب ، وكشف عن النتائج الحاصلة بشكل مستدلّ متين ، ووضع يده على مواضع العبر منها وذوات الاعتبار ، لكان قد اقترب من غايته في تأثير النصّح والإرشاد ، في أقرب طريق وأفضل أسلوب مؤثّر.

قال نظام الدين النيشابوري القمي ، صاحب التفسير : الإنسان قد يذكر معنى فلا يلوح له مبلغ تأثيره ولا مدى تفهيمه كما ينبغي ، حتّى إذا شقّعه بشاهد مثال ولا سيّما قصص الماضين . فيما إذا كان بصدد الوعظ والإرشاد . فتراه كلاما ذا وقع وتأثير حسبما يراد. ذلك أنّ في الطباع محاولة المحاكاة مع المشهود من جمال أو كمال. فإذا ذكر المعنى وحده كان قد أدركه العقل ، ولكن مع منازعة الخيال ومحاولة رفضه في بادئ الأمر ، أمّا إذا شقّع بذكر شاهد من أحوال الماضين وذكرت الأسباب المؤاتية والنتائج الحاصلة منها ، رغبت النفس في لمسّه في ذات ضميره ، فيكون أوقع في النفس وأقرب إلى القبول وإمكان التأثير. ومن ثمّ كان من الضروري الإكثار في القرآن من ذكر القصص والأمثال ، فإنّه الكتاب الذي انزل تبياناً لكلّ شيء وهدى ورحمة للعالمين. (١)

وقال الإمام الرازي . بصدد بيان فائدة ذكر قصص الأنبياء في القرآن . :

إنّ سبّحانه لما بالغ في تقرير الدلائل والبيّنات وفي الردّ على شبهات المعاندين ، شقّعها بذكر أحوال الامم السالفة ومواضعهم من الأنبياء ، لغرض أنّ الكلام إذا طال في تقرير نوع من أنواع المعارف ، فرّما حصل نوع من الملل ، وليس إذا حصل انتقال من نوع إلى نوع ، ليزيد طراوة وينشط من رغبة السامعين.

وأیضا لیكون الرسول ﷺ والمؤمنون في تسلیة عمّا یواجهوه من أذى الأعداء ،

(١) عن تفسير غرائب القرآن للنيشابوري (بهامش الطبري ، ج ١ ، ص ١٩٩ - ٢٠٠) بتصرّف وتبيين.

وليتأسوا بمن سلف من الأنبياء والصالحين.

وكذلك ليكون تنبها للجهال المعاندين ، فلينظروا في أحوال الماضين من آبائهم وليعتبروا بما أصيبوا من الفشل والخسران ، وأنّ الله تعالى لينصر أوليائه ويكون جنده هم الغالبين.

وأخيرا فإنّها معجزة قرآنيّة يذكر قصص الماضين نقيّة وسليمة من أكدار التحريف والتشويه ، على يد نبيّ أمّي لم يكتب ولم يقرأ الكتب. ^(١)

اسلوب القصّة في القرآن

إنّ اسلوب القصّة في القرآن جاء متميّزا عن الاسلوب المعروف للقصّة في التراث الأدبي والإنساني ، حيث يكتفي القرآن الكريم بذكر الأحداث بشكل مقتطفات وبصورة إجماليّة أحيانا تاركا التفاصيل ، وأحيانا بشكل متقطّع غير موصول ، واضعا يده على نقاط هي بيت القصيد من القصّة ، وفي الأغلب بشكل الاستطراد في التعرّض لمفاهيم وحقائق وموضوعات عقائديّة أو أخلاقيّة أو كونيّة (سنن الطبيعة) أو شرعيّة ، وغير ذلك من الخصوصيّات التي قد تثير ملاحظة كبيرة حول اسلوب القصّة في القرآن الكريم. وبذلك تخرج عن كونها عملا فنيّا مستقلاّ له مميّزاته الخاصّة.

وهذا يعود إلى أنّ القرآن كتاب هداية ، وإنّما استخدم الفنّ لغايته في أمر الهداية ، ومن ثمّ فإنّه يقتصر على موضع الحاجة منه في سبيل تحقيق هدفه الخاصّ ، ولا يعبره اهتماما فيما لا يعود إلى هذا الجانب بالذات.

وشيء آخر ، كان اسلوب القرآن اسلوب خطاب لا اسلوب كتاب . كما نَبّهنا . ^(٢) فلا ملزم له بسرد القضايا بانتظام وانسجام والإتيان بالتفاصيل والجزئيّات ، كما هو شأن الكتاب ، فلا يراعي فيما يقصّ من قصص ترتيبها الزمني ولا التواصل في ذكر حادثة ، بل

(١) عن التفسير الكبير ، ج ١٧ ، ص ١٣٥ ، عند تفسير الآية ٧١ من سورة يونس. فيما قصّ الله من حديث نوح ﷺ نقلا بتصرف.

(٢) في الجزء الأوّل من التمهيد.

ينتقل من حدث إلى آخر ، ثمّ يأخذ بالتجوال حسب اقتضاء الكلام.

ومن ثمّ فالقرآن يجري في ذكر الحادثة على اسلوبه الخاصّ في ذكر سائر المواضيع من المزج والالتقاط وضمّ بعض الموضوعات والمفاهيم إلى بعض ، لمناسبة يراها مقتضية ، وبذلك يخرج عن أساليب الكتب المدوّنة ، لا لشيء إلاّ لأنّه كلام صيغ على اسلوب الخطاب ، وفي فسحة عمّا يتقيّد به اسلوب الكتاب. فهو يمزج الحقائق الكونيّة بالمعارف العقائديّة ، وبالأحكام الشرعيّة ، وبالموعظة والإرشاد والتبشير والتحذير ، والعواطف والمشاعر والأحاسيس بالعقل والإدراك.

كما أنّه قد يكرّر الموضوعات والمفاهيم بصيغ متنوّعة وفي سياقات مختلفة ، كلّاً حسبما يقتضيه المقام وناسب اتجاه الهدف من ذكر القصّة. وفي كلّ مرّة قد يزيد أو ينقص ، وقد يوجز أو يطنب حسب المناسبة ، ومن ثمّ فله اسلوبه الخاص خارجاً عن أساليب القصّة في الأدب الرائج.

مميزات القصّة في القرآن

تمتاز القصة في القرآن في نقطتين أساسيتين : الاولى تحري جانب الصدق والواقعيّة ، وليس مجرد تخيل. الثانية جانب الهدف والغرض الذي جاء من أجله القصص في القرآن. فالقرآن لم يتناول القصّة باعتبار أنّها عمل فنيّ ، ولم يأت بها من أجل الحديث عن الماضي ، أو للتسلية أو للمتعة كما يفعل المؤرّخون والقصّاصون. وإنّما كان الغرض من القصّة في القرآن هو : المساهمة مع جملة الأساليب العديدة الاخرى التي استخدمها القرآن ، لتحقيق أهدافه وأغراضه الدينيّة والتربويّة ، وكانت القصّة القرآنيّة من أهمّ هذه الأساليب!

وانطلاقاً مع هذه الفكرة وعلى هذا الأساس ، يمكن أن نحدّد الفرق بين القصص القرآني وغيره من القصص ببعض النقاط التي تشكّل الميزات والخصائص والصفات الرئيسيّة للقصص القرآني ، ويمكن أن نجد هذه الخصائص قد اشير إليها في القرآن الكريم

في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .^(١)

حيث يمكن أن نفهم من هذه الآية اتّصاف القصص القرآني بالواقعية والصدق والحكمة والتربية الناجحة :

أولاً . الواقعية ، بمعنى ذكر الأحداث والقضايا والصور التي لها علاقة بواقع الحياة الإنسانية ومتطلّباتها المعاشة في مسيرة التاريخ الإنساني ، مقابل أن تكون القصّة في القرآن إشارة وتعبيراً عن الصور ، أو الخيالات ، أو الأماني ، أو الرغبات التي يطمح إليها الإنسان ، أو يتمنّاها في حياته .

ذلك لأنّ القرآن الكريم يريد من ذكر القصّة وأحداثها ، إعادة النظر في التأريخ الإنساني والقضايا الواقعية التي جرّبتها البشرية في حياتها ، والتي عاشتها الامم والرسالات الإلهية السالفة ، والتي تبيّنت محاسنها عن مساوئها ، وليؤخذ منها الاعتبار في الحاضر المعاش ، فلا يجرب ما جرّبه الآباء وحلّت بهم الندامة من قبل .

أمّا إذا انفصلت القصّة عن هذا الواقع ، وكانت مجرد تسلية وسرد أحداث التاريخ الماضي ومن غير نظر الاعتبار بها ، فهذا أشبه بكتب الأساطير منها بكتب التربية والأخلاق .

والإنسان في مسيرته التكاملية ، بحاجة إلى أن ينطلق مع الواقع نحو الطموحات والكمالات ، وبدون ذلك (بلا درس واقعه في الماضي والحال) سوف ينفصل هذا الإنسان عن واقعه الراهن ، فيضيع في متاهات الآمال والتمنّيات ، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الحالة في الإنسان عند ما تحدّث عن اليهود : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ .^(٢)

وعندئذ (عند ما خاض الإنسان في أمانيه من غير ملاحظة واقعه) لا يصل الإنسان إلى أهدافه وآماله العليا . لأنّ من لا ينطلق في اتجاه المسير من البداية فلا يبلغ النهاية .

(١) يوسف ١٢ : ١١١ .

(٢) البقرة ٢ : ٧٨ .

ومن هنا نجد القرآن الكريم يحاول أن يعالج من خلال القصّة ، الواقع الذي كان يعيشه المسلمون في زمن النبي ﷺ فيذكر ما يتطابق من الأحداث مع هذا الواقع من ناحية ، كما يعالج الواقع الذي سوف تعيشه الأجيال والعصور الإنسانية المستقبلية من ناحية أخرى.

وهذا هو الذي يفسّر لنا ما ورد عن أئمة أهل البيت عليه السلام من قولهم : «إنّ القرآن يجري كما تجري الشمس والقمر ، كلّما جاء منه شيء وقع». (١) وأنّ القرآن حيّ مع الأبد ، لا يموت مع من نزل في شأنهم بالذات. (٢) فإنّ انطباق هذا الكلام على القصص والأحداث ذات العلاقة بالأنبياء وأقوالهم أو بالتاريخ الماضي ، إنّما هو بلحاظ هذا البعد والصفة في القصّة القرآنية.

ولعلّ في الآية السالفة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٣) إشارة إلى هذه الصفة في القصص القرآني بوجه عام.

ثانياً . تحري الصدق في ذكر الأحداث والوقائع التاريخية التي تعرّض لها الأنبياء وأقوامهم في حياتهم. وذلك في مقابل الأكاذيب والانحرافات في الفهم والسلوك أو الخرافات التي اقترنت بقصص الأنبياء والامم السالفة حسبما سجّلت «مشوّهة ومحرّفة» في كتب العهدين بالذات ، على أثر ضياع وتحريف للحقائق عن قصد أو بدون قصد أو اشتباه أو جهل.

فما ورد في القرآن من أخبار وحوادث هي امور وحقائق ثابتة ليس فيها كذب أو خطأ أو اشتباه ، كما حصل في الكتب السالفة. ذلك لأنّ القرآن وحي إلهي ، والله لا يعزب عن علمه ذرّة في السماء والأرض ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. والحاضر والماضي والمستقبل لديه سواء. ويؤكد على هذه الحقيقة قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾!

(١) تفسير العياشي ، ج ١ ، ص ١١ ، رقم ٥.

(٢) المصدر : ص ١٠ ، رقم ٧.

(٣) يوسف ١٢ : ١١١.

وشيء آخر لعلّه أهم ، وهو : أنّ الأخذ بعبر التاريخ إنّما يصحّ إذا كان إخباراً عن صدق ، ذلك لأنّه أخذ بتجارب مرّت على حياة الإنسان ، إن حسنة أو سيّئة ، ولا تجربة إلّا إذا كانت واقعة ، لا مجرد فرض وتخيل!

والقرآن ، حتّى في ضرب الأمثال ، إنّما يضع يده على حقائق مرّت على حياة الإنسان ، لغرض العبرة بها (كي لا تتكرّر إذا كانت مريّة ، ولتتداوم إذا كانت جميلة) ولا عبرة بمجرد خيال لا واقع له.

ثالثاً . التربية على الأخلاق الإنسانيّة العالية ، في مقابل التركيز على الأحاسيس والانفعالات في شخصيّة الإنسان ، والتربية على الاهتمام بالغرائز . وإنّما اتّصفت في القرآن بالأخلاقيّة ، لأنّ المسيرة والحركة التكامليّة للإنسان . سواء على مستوى الفرد أو الجماعة . إنّما تقوم على أساس الأخلاق ، بعد العقيدة بالله تعالى والرسالات واليوم الآخر . بل إنّ الاتّصاف بالأخلاق العالية هو الذي يمثّل عنصر التكامل الحقيقي في حركة الإنسان الفرديّة والجماعيّة . ولذا كانت قاعدة المجتمع الإنساني في نظر الإسلام قاعدة أخلاقيّة ، والسلوك الرّاقى للإنسان هو السلوك الأخلاقي . وقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله : «بعثت بمكارم الأخلاق ومحاسنها» .^(١)

لذا جاءت القصّة في القرآن الكريم ذات طابع أخلاقي وللتربية على الإيمان بالله والعمل الصالح ، والسلوك الأفضل في الحياة الفرديّة والاجتماعية . ولعلّ هذا هو معنى الهدى والرحمة في الآية السالفة . ولذلك ورد قوله ﷺ أيضاً : «إنّما بعثت رحمة للعالمين» .^(٢)

رابعاً . الحكمة وكشف الحقائق الكونيّة وسنن التاريخ والقوانين والأسباب التي تتحكّم أو تؤثر في مسيرة الإنسان ، وعلاقاته الاجتماعيّة ، والحياة الكونية المحيطة به . لأنّ هذه الحقائق الكونية لها علاقة بمسيرة الإنسان التكامليّة ، ما دام أراد الله تعالى لهذا

(١) بحار الأنوار ، ج ١٦ ، ص ٢٨٧ ، عن أمالي الشيخ ، ص ٢٧ . رواه بإسناده إلى علي عليه السلام عنه ﷺ قال : سمعته يقول ... ؛ وكنز العمال للمتقي الهندي ، ج ٣ ، ص ١٦ ، رقم ٥٢١٧ . واللفظ فيه : «إنّما بعثت لآتمّ مكارم الأخلاق» . ورواه البخاري في الأدب المفرد برقم ٢٧٣ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ١٨ ، ص ٢٤٣ .

الإنسان أن يكون مختاراً في حياته ومستعبداً للعلم والحكمة في تنظيم مسيرته. ولذا كان من أهداف الرسالة : تعليم الكتاب والحكمة ، حتى ينتفع بها الإنسان في تقييم حياته وتنظيم مسيرته. ولعلّ هذه الصفة يقتصر القرآن الكريم في ذكر القصص والأحداث التاريخية على ما يكون له علاقة بهذه الجهة وفي اتجاه هذا الهدف بالذات. وإلى ذلك أشارت الآية : ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، حيث يفتح من كلّ باب منه ألف باب. وعلى وزن قوله تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. ^(١) وهذا بخلاف ما لو كانت القصة مجرد التسلية أو لتدوين الحوادث والوقائع التاريخية ، كما هو شأن كتب التواريخ.

تلك ميزة القصة القرآنية ، تعبيرا عن واقع الحياة ، لغرض التربية والعبرة بتجارب التاريخ ، ولكشف الحقائق الراهنة المؤثرة في مسيرة الإنسان نحو الكمال. وليس عبثاً ولا مجرد تسلية أو تخيل. وهكذا اختلفت القصة القرآنية عن غيرها بأنها قصة الأحياء ، قياساً للباقيين على الماضين. وليس سرد حكاية الأموات أو نقل آثارهم فيما تمتعوا بالحياة ، وأكثره عبث لا خير فيه. ^(٢) ولذلك كان القرآن المنزل أحسن الحديث. ^(٣)

أغراض القصة في القرآن

نجد القصة القرآنية تستوعب في مضمونها وهدفها كلّ الأغراض الرئيسية التي جاء من أجلها القرآن الكريم ، بعد أن كانت القصة هي الأداة المفضلة التي استخدمها القرآن في سبيل تحقيق أهدافه وأغراضه جمع. ومن ثمّ نرى القرآن قد استخدم القصة لإثبات الوحي والرسالة. وإثبات وحدانية الله ، وتوحد الأديان في أساسها ، والإنذار والتبشير ، ومظاهر القدرة الإلهية ، وعاقبة الخير والشرّ والصبر والجزع والشكر والبطر وما إلى ذلك من أهداف رسالية وعقائدية ، تربوية واجتماعية وسنن التاريخ وما شابه. وإليك

(١) النحل ١٦ : ٨٩.

(٢) راجع : الميزان في تفسير القرآن ، ج ٧ ، ص ١٧٢ ؛ والقصص القرآني للسيد الحكيم ، ص ٢١ - ٣٠.

(٣) الزمر ٣٩ : ٢٣.

الأهم من هذه الأغراض : (١)

١ . كان من أغراض القصّة إثبات الوحي والرسالة ، وأنّ ما ينزل على محمد ﷺ هو وحي من عند الله ، لا شيء سواه. فمحمد ﷺ لم يكن يكتب ولا يقرأ الكتب ولا عرف عنه أنّه جالس أحبار اليهود والنصارى ، ثمّ جاءت هذه القصص في القرآن على أدقّ وصف وأحسن بيان ، لا تحريف فيها ولا تشويه ، فكان أدلّ دليل على أنّه وحي يوحى وليس نقلا عن كتب محرّفة أو أقاصيص مشوّهة. والقرآن ينصّ على هذا الغرض نصّا في مقدّمة بعض القصص أو في أعقابها.

جاء في أوّل سورة يوسف : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

وفي نهاية السورة : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وجاء في سورة القصص قبل عرض قصّة موسى : ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. (٢) وبعد انتهائها : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا. وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. (٣)

وجاء في سورة آل عمران في مبدأ عرضه لقصّة مريم : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. (٤)

وفي سورة «ص» قبل عرض قصّة آدم : ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ. أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ. مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ. إِنَّ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ...﴾. (٥)

(١) راجع ما كتبه سيد قطب بهذا الصدد في كتابه : التصوير الفني في القرآن ، ص ١١٢ فما بعد.

(٢) القصص ٢٨ : ٣.

(٣) القصص ٢٨ : ٤٤ . ٤٦ .

(٤) آل عمران ٣ : ٤٤ .

(٥) ص ٣٨ : ٦٧ . ٧١ .

وفي سورة هود بعد قصّة نوح : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾. ^(١)

فكلّ هذه الآيات وأمثالها إنّما جاءت لتؤكد فكرة الوحي التي هي الفكرة الأساسية في الشريعة الإسلامية.

٢ . وكان من أغراض القصّة : بيان وحدة الدين والعقيدة لجميع الأنبياء ، وأنّ الدين كلّ من الله سبحانه ، وأنّ الأساس في الجميع واحد ، لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. ولما كان هذا غرضاً أساسياً في الدعوة وفي بناء تصوّر الإسلامي فقد تكرّر مجيء هذه القصص على هذا النمط ، مع اختلاف في التعبير ، لتثبيت هذه الحقيقة وتوكيدها في النفوس. وربما وردت قصص عدّة من الأنبياء مجتمعة في سورة واحدة ، معروضة بطريقة بديعة لتؤيّد هذه الحقيقة.

خذ مثلاً سورة الأنبياء ، يتابع قصص موسى وهارون وإبراهيم ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذي الكفل وذي النون ومريم. ويعقّب كلّاً بذكر جميل ، وفي النهاية يقول : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ^(٢) ... وهذه هو الغرض الأصيل من هذا الاستعراض الطويل ، وغيره من الأغراض الأخرى يأتي عرضاً وفي ثناياه!

وجاء في سورة النحل : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾. ^(٣)

وفي سورة المائدة : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾. ^(٤)

وفي سورة البينة : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾. ^(٥)

(١) هود ١١ : ٤٩ .

(٢) الأنبياء ٢١ : ٤٨ - ٩٢ .

(٣) النحل ١٦ : ٣٦ .

(٤) المائدة ٥ : ٤٤ .

(٥) البينة ٩٨ : ٥ .

وهذا الغرض يهدف في حقيقته إلى بيان إبراز الصلة الوثيقة بين الشريعة الإسلامية وسائر الشرائع الإلهية التي دعا إليها الرسل والأنبياء جميعا ، وإنّ الإسلام يمثّل امتدادا لها ، ولكنّها يحتلّ منها مركز الخاتمة التي يجب على البشرية جمعاء الرضوخ إليها : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ...﴾. ^(١) وبذلك يسدّ الطريق على أهل الزيغ الذين يلتهجون بمسافة الأديان الغابرة والحاضرة وأنّ اتّباع أحدها يكفى للرشد واحتضان معالم الهداية والنجاة في الآخرة ، على أساس أنّها حقيقة واحدة موحاة من قبل الله تعالى وأنّ الإسلام يصدّقها كذلك!

والقرآن يرفض هذه الفكرة المفرقة رفضا ويؤكد على أنّ الحقيقة تركّزت في طريق تكاملها في شريعة الإسلام ، وقد صرّح القرآن بذلك في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ ، ^(٢) أي لا محيد . في بلوغ سعادة الحياة . عن متابعة شريعة الإسلام بالذات!

٣ . وأيضا من تمام هذا الغرض بيان أنّ الدعوة الرسالية في الإسلام ليست بدعا في تاريخ الرسالات ، وإنّما هي وطيدة الصلة بها في الأهداف والتصورات والمفاهيم : ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ...﴾. ^(٣) بل إنّها تمثّل امتدادا لهذه الرسالات ، وتلك الرسالات تمثّل الجذر التاريخي للرسالة الإسلامية ، فهي رسالة إلهية لها هذا الامتداد في التاريخ الإنساني ، ولها هذا القدر من الأنصار والمضحيين والمؤمنين.

٤ . وهكذا يؤكد على أنّ وسائل الأنبياء وأساليبهم في الدعوة واحدة ، وطريقة مجابهة قومهم لهم واستقبالهم متشابهة ، وأنّ العوامل والأسباب والظواهر التي تواجهها الدعوة واحدة. وقد أكّد القرآن في عدّة مواضع على هذه الحقيقة ، وأشار إلى اشتراك الأنبياء في قضايا كثيرة. من ذلك قوله تعالى : ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَل مَعَهُ رَبُّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. ^(٤)

(١) المائدة ٥ : ٤٨ .

(٢) آل عمران ٣ : ٣١ .

(٣) الأحقاف ٤٦ : ٩ .

(٤) آل عمران ٣ : ١٤٦ .

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا. وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾. (١)

وكذلك قوله : ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. (٢)
ويتحدّث القرآن أحيانا عن الرسل حديثا عاما ، ليؤكد هذه الوحدة بينهم في الوسائل والأساليب ، كما جاء في سورة إبراهيم : ﴿... جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾. (٣)

والسبب وراء تأكيد القرآن لهذه الحقيقة هو : بيان صلابة تلك المواقف وأنها جميعا حقّ غالب في نهاية المطاف : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾. (٤)

٥ . ومن ثمّ كان من أغراض القصة في القرآن الرئيسيّة هو بيان أنّ الله ينصر أنبياءه في النهاية ويهلك المكذّبين ، وذلك تثبيتا لموقف محمد ﷺ وتأثيرا في نفوس المؤمنين : ﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ. وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. (٦)

وتبعا لهذا الغرض كانت ترد قصص الأنبياء مجتمعة ، مختومة بمصارع من كذبوهم. ويتكرّر بهذا عرض القصص كما جاء في سورة «العنكبوت» :
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إلى أن يقول : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ. فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ...﴾ إلى أن

(١) الأنعام ٦ : ١١٢ .

(٢) الزخرف ٤٣ : ٦ .٧ .

(٣) إبراهيم ١٤ : ٩ .

(٤) المجادلة ٥٨ : ٢١ .

(٥) الصافات ٣٧ : ١٧٣ .

(٦) هود ١١ : ١٢٠ .

يقول : ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .
﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ .

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ هُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ .
﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ. وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ .
﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ. فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ. وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .^(١)

وتلك هي النهاية الواحدة للمكذّبين!

٦ . وكان من أغراض القصّة بيان نعم الله على أصفیائه وخالصي عباده ، كقصص سليمان وداود وأيوب وإبراهيم ومريم وعيسى وزكريّا ويونس وموسى ، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى ، ويكون إبرازها هو الغرض الأول ، وما سواه يأتي عرضاً .
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ .^(٢)

٧ . وأيضاً بيان غواية الشيطان لهذا الإنسان ومبلغ عدائه له ، وترتبصه به الدوائر والفرص ، فليحذر بنو آدم من هذا العدو الذي أغوى أباهم من قبل . ولا شكّ إنّ إبراز هذه المعاني والعلاقات بواسطة القصّة يكون أوضح وادعى للحدّز والالتفات . لذا نجد قصّة آدم تتكرّر بأساليب مختلفة تأكيداً لهذا الغرض . بل يكاد يكون هذا الغرض هو الهدف الرئيسي لقصّة آدم كلّها .

(١) العنكبوت ٢٩ : ١٤ . ٤٠ .

(٢) مريم ١٩ : ٥٨ .

وأغراض أخرى كثيرة تلتقي مع أغراض الرسالة في عدد وفير ومستوى رفيع. ^(١)

أسرار التكرار في القصص القرآني

وهذا يعود إلى تعدّد الأغراض التي تهدفها القصّة في مجال التربية. وليست القصّة إذا ذكرت مرّة استنفدت أغراضها الدينيّة والتربويّة ، ليكون التحدّث عنها مرّة أخرى عبثاً وتكراراً للمكرّر!

القصّة إذا كانت ذات جوانب عديدة فإنّها إنّما تذكر كلّ مرّة بلحاظ جانب منها مناسب للحال والمقام ، وقد يعفى هذا الجانب ويلحظ جانب آخر في مناسبة أخرى وهكذا لعدّة مرّات.

وأكثر القصص تكراراً في القرآن حديث موسى وفرعون وتاريخ حياة بني إسرائيل. ذلك أنّ اليهود كانت جاورت العرب منذ حين ، وكانت العرب تعرف من شأنهم وتعظّم من قدرهم ما لا تكاد تعرفه أو تقدّره من سائر الأمم. وكانت الأدوار التي مرّت على حياة بني إسرائيل ومواقفهم مع الأنبياء أشبه بحالات كانت تعتور العرب حين ظهر الإسلام. فكانت العلاقة وثيقة بين الحياتين ، تلك في غابرها الماضي وهذه في حاضرهما الراهن.

والملاحظ في تكرار قصّة نبيّ الله موسى ﷺ الفرق بين روحها العامّة عند ما تذكر في السور المكيّة ، وروحها في السور المدنيّة. فإنّما تؤكّد في القصص المكيّة منها على العلاقة العامّة بين موسى من جانب وفرعون وماله من جانب آخر ، دون أن تذكر أوضاع بني إسرائيل تجاه موسى نفسه ، إلّا في موردين يذكر فيهما انحراف بني إسرائيل عن العقيدة الإلهيّة بشكل عام. وهذا بخلاف الروح العامّة لقصّة موسى في السور المدنيّة ، فإنّها تتحدّث عن علاقة موسى مع بني إسرائيل. وتتحدّث عن هذه العلاقة وارتباطها بالمشاكل الاجتماعيّة والسياسيّة.

(١) راجع ما كتبه الاستاذ سيد قطب في كتابه : التصوير الفني في القرآن ، ص ١١٢ . ١٢٠ . وعلى أثره العلامة السيد محمّد باقر الحكيم في كتابه : القصص القرآني ، ص ٣٣ . ٥٦ .

وهذا قد يدلنا على أنّ هذا التكرار للقصة في السور المكّيّة إنّما كان لمعالجة روحية تتعلّق بحوادث مختلفة واجهت النبي والمسلمين ومشاكلهم مع المشركين ، ومن أهداف هذه المعالجة توسعة نطاق المفهوم العامّ الذي تعطيه القصة في العلاقة بين النبي والجبّارين من قومه ، وأنّ هذه العلاقة لا تختلف فيها حادثة عن حادثة أو موقف عن موقف ، والتاريخ يكرّر نفسه.

وهكذا يختلف سرد قصص نوح وإبراهيم وسائر الأنبياء ، باختلاف الأحوال التي كان يعالجها المسلمون في طول الدعوة ، فأطوارا بمكّة وأطوارا بالمدينة حسب تغيّر الأوضاع.

ومن الناحية الأدبية أيضا نرى القرآن عند ما يكرّر الحديث عن حادث أو عن ظاهرة طبيعيّة ، فإنّه لا يكرّرها إلّا وفي هذا التكرار نكتة وظرافة لاحظها حسب المناسبة. الأمر الذي يزيد في بلاغة البيان القرآني وربّما إلى حدّ الإعجاز. إذ يعني ذلك : أنّ بإمكانه سرد قصّة واحدة بأنحاء وأشكال ، كلّ مرّة يأتي بالعجيب من الكلام ، بحيث لا يملّ السامع من الإصغاء ، حتّى ولو سمعها في عدّة مواطن ، فإنّه لا يمجّها مرّة أخرى وأخرى ، لما في كلّ مرّة من طراوة وإبداء شيء جديد ، وفي كلّ جديد لذّة! وقد عدّ ذلك وجها من وجوه إعجاز القرآن في بديع بيانه.

ولتاج القرّاء أبي القاسم محمود بن حمزة الكرماني تصنيف لطيف بهذا الشأن ، ذكر فيه الفوارق البديعيّة في مكرّرات الآيات ، وأبدع في ذلك. اقتطفنا منه قبسات عند الكلام عن الإعجاز البياني للقرآن. ^(١)

الحرية الفنيّة في قصص القرآن

هناك ظواهر كثيرة من ظاهرات الحرية الفنيّة (الأدبيّة) توجد في القرآن عند سرد أحداث التاريخ ممّا جعلته ممتازا عن مثل التوراة التي هي أشبه بكتاب تاريخ منه بكتاب

(١) نكت وظرف فيما تكرر من الآيات. التمهيد ، ج ٥ .

هداية. ونستطيع أن نعرض عليك منها الظواهر التالية : ^(١)

١ . إهمال القرآن . حينما يقصّ - كثيرا من مقوّمات التاريخ من زمان ومكان ، وأحيانا أبطال المعركة . فليس في القرآن الكريم قصّة واحدة عنى فيها الزمان . أمّا المكان إهمالا يكاد يكون تامّا لو لا تلك الأمكنة القليلة المبعثرة هنا وهناك والتي لم يلفت القرآن الذهن إليها . كما عمد إلى إهمال الأشخاص في بعض أقاصيصه إهمالا تامّا . اللهمّ إلّا إذا كان لمعرفة الأشخاص دخلا في العبرة بها .

وهذا من اصول البلاغة في الكلام ، أن لا يذكر من الحادث إلّا ما كانت له صلة بغرض الكلام .

٢ . اختياره لبعض الأحداث دون بعض . فلم يعن القرآن بتصوير الأحداث الدائرة حول شخص أو الحاصلة في أمة تصويرا تامّا كاملا ، وإنّما يكتفي باختيار ما يساعده على الوصول إلى أغراضه ، أي ما يلفت الذهن إلى مكان العظة وموطن الهداية ، ولعلّه من أجل ذلك كان القرآن ، يجمع في الموطن الواحد كثيرا من الأقاصيص التي تنتهي بالقارئ إلى غاية واحدة .

٣ . كان لا يهتمّ بالترتيب الزمني أو الطبيعي في إيراد الأحداث وتصويرها ، وإنّما يخالف في هذا الترتيب ويتجاوزه ، الأمر الذي أكثر من الإشارة إليه الاستاذ الشيخ محمد عبده . قال . بعد سرد قصص بني إسرائيل ذوات عبر من سورة البقرة . : جاءت هذه الآيات على اسلوب القرآن الخاصّ الذي لم يسبق إليه ولم يلحق فيه ، فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرّخين ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع ، حتّى في القصّة الواحدة . وإنّما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، ويحرّك الفكر إلى النظر تحريكا ، ويهزّ النفس الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، ويحرّك الفكر إلى النظر تحريكا ، ويهزّ النفس للاعتبار هزّا . وقد راعى في قصص بني إسرائيل أنواع المنن التي منحهم الله تعالى إيّاها ، وضروب الكفران والفسوق التي قابلوها بها ، وما كان في أثر كلّ ذلك من تأديبهم بالعقوبات ، وابتلائهم بالحسنات

(١) وللاستاذ محمد أحمد خلف الله هنا تحقيق لطيف . راجع : الفنّ القصصي في القرآن الكريم ، ص ٨٠ .

والسيئات ، وكيف كانوا يحدثون في أثر كل عقوبة توبة ، ويحدث لهم في أثر كل نوبة نعمة ، ثم يعودون إلى بطرهم ، وينقلبون إلى كفرهم! ^(١)

وهكذا قصة لوط جاءت في سورة الحجر : ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ. قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ. قَالُوا بَلْ جُنُنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ. وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ. وَقَصَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ. وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ. قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون. وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُون. قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ. قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ. لَعَنُوكَ إِهْمَ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ. فَأَخَذَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ...﴾ ^(٢).

لكنها لو لوحظت مع إحدى قصص لوط في القرآن كقصته في سورة هود (الآيات :

٧٨ . ٨٣) تختلف عنها في ترتيب سرد أحداثها ، فتبتدئ بمجيء الملائكة ، ثم حاله واضطرابه النفسي ، ثم مجيء القوم ، ثم موقفه وعرض بناته حتى لا ينجزى ، ثم ردّهم عليه وعزمهم على إتمام عزمهم ، ثم موقف الملائكة وإخبارهم إيّاه بأنهم رسل ربّه ، وإخبارهم بمجيء العذاب وموعده ، ثم نوع العذاب.

فهنا نلاحظ أنّ المحاور بينه وبين قومه تتمّ قبل أن نخبره الملائكة بأنهم رسل ربّه. والقصّة تجري بعد ذلك وقد رتبت وقائعها الترتيب الذي يشعر بأنّ الزمن هو المحور الذي يربط هذه الوقائع المختارة أو هذه الأحداث المصوّرة.

أمّا في سورة الحجر فالملائكة تعلّمه كلّ شيء قبل مجيء قومه ، ومع ذلك تمضي المحاور مع قومه وكأنّه لم يعلم بأنّ أضيافه من الملائكة. وليس يخفى أنّ هذا بعيد عن الوقائع ، ومشاكلته قريب من القصص وما فيه من حرّية تؤذن للفاصل بأن يرتّب أحداثه الترتيب الذي يصل إلى الغرض ويؤدّي إلى الأهداف.

ولعلّ السبب في هذا الاختلاف : القصد من قصة لوط في سورة هود هو تثبيت قلب

(١) تفسير المنار ، ج ١ ، ص ٣٤٦.

(٢) الحجر ١٥ : ٦١ . ٧٣.

النبي ﷺ ومن أجل ذلك عني القرآن أولاً بما ينال لوطاً من أذى وقلق نفسي ، كما نال محمّداً ﷺ وهو باخع نفسه على أن لا يكونوا مؤمنين وضائق به صدره الكريم. أمّا القصد من القصّة في سورة الحجر فقد كان بيان ما ينزل بالمكذّبين من عذاب ومن ثمّ بدأ به قبل كلّ شيء.

٤ . إسناده بعض الأحداث لانس بأعيانهم في موطن ، ثمّ إسناده الأحداث نفسها لغير الأشخاص في موطن آخر. ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾^(١) إذ نراه في سورة الشعراء مقولاً على لسان فرعون نفسه : ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

ويبدو أنّ هذا كلام تذاكره فرعون مع بطانته من رجال الدولة ، فصحّ إسناده إليه تارة وإلى الملأ من قومه تارة أخرى. ولذلك نجد تعقيب الآية الاولى بقوله : ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ. قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾. نفس التعقيب الذي جاء للآية الثانية. سوى تبديل «أرسل» بقوله «وابعث». وتبديل «ساحر» بقوله «سحّار». والسحّار (من أبنية الحرف) هو صاحب السحر. ويتّحد مع الساحر في المفهوم. وهكذا تجد في قصّة إبراهيم من سورة هود^(٣) أنّ البشرى بالغلام كانت لامرأته ، بينما نجد البشرى لإبراهيم نفسه في سورة الحجر^(٤) وفي سورة الذاريات. ذلك لأنّ البشرى بالذرّة لإبراهيم بشرى لامرأته العجوز ، كما يبدو ذلك من سرد القصّة في سورة الذاريات.

٥ . إنطاقه الشخص الواحد في الموقف الواحد بعبارات مختلفة حين يكرّر القصّة. ومن ذلك تصويره لموقف الإله من موسى حين رؤيته النار ، فقد نودي في سورة النمل بقوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^(٦). وفي سورة القصص : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا

(١) الأعراف ٧ : ١٠٩.

(٢) الشعراء ٢٦ : ٣٤.

(٣) هود ١١ : ٧١.

(٤) الحجر ١٥ : ٥٣.

(٥) الذاريات ٥١ : ٢٨.

(٦) النمل ٢٧ : ٨.

نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ^(١). وفي سورة طه : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى^(٢)﴾.

وذلك يشبه تصويره للموقف الواحد بعبارات مختلفة حين صوّر خوف موسى ، فمرة اكتفى بقوله : ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ^(٣)﴾. ومرة أخرى قال : ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا هَتَرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ^(٤)﴾. وهكذا في غيرها من المواقف ، كتعبيره بالرجفة مرة وبالصيحة أخرى والطاغية في غيرها. وتعبيره في انشقاق الحجر عن الماء في قصة موسى ، فانفجرت مرة وانبجست أخرى. وهكذا من المسائل التي جعلتهم يعدّون القصص القرآني من المتشابه. ولكن ليس من شكّ في أنّ الاختلاف كان نتيجة تغيّر في القصد أو الموقف ، وأنّ هذا التغيّر جعل هذه قصة وتلك قصة ، وما لا نرى من اختلاف ليس إلّا الصور الأدبية التي تلائم المقاصد والأغراض. خذ لذلك مثلاً قصة موسى وصاحبه وفعله العجائب. فتارة يقول له موسى : ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا^(٥)﴾ وأخرى : ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا^(٦)﴾. لأنّ الإمر . بكسر الهمز . هو الأمر العجب. وكلّ أمر خالف المألوف فهو يثير العجب ، سواء أكان خيراً أم شراً. وهذه العبارة جاءت بشأن خرق السفينة بما لا يستلزم غرق أهلها ، فقد أثار عجب موسى ، حيث لم تعد فيه فائدة ولا حكمة ظاهرة ، ولعلّ فيه حكمة خفيّة!

أمّا النكر فهو الأمر المنكر البادي قبحه بوضوح ، وهو يعود إلى قتل الغلام وهو طفل لم يعقل شيئاً ولم يرتكب ذنباً.

ومن ذلك أيضاً التعبير عن الأرض اليابسة ، بالهامدة^(٧) مرة وبالخاشعة^(٨) مرة أخرى ،

(١) القصص ٢٨ : ٣٠.

(٢) طه ٢٠ : ١١ - ١٢.

(٣) طه ٢٠ : ٢١.

(٤) النمل ٢٧ : ١٠.

(٥) الكهف ١٨ : ٧١.

(٦) الكهف ١٨ : ٧٤.

(٧) الحج ٢٢ : ٥.

(٨) فصلت ٤١ : ٣٩.

وذلك لاختلاف الموقف والغرض :

فالاولى في سورة الحج : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّينَ لَكُمْ وَنَقُرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَّتَوْقَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً. وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾. ^(١)

والثانية في سورة فصلت : ﴿وَمِن آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ. فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ. وَمِن آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ. إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ^(٢)

والفارق بين الآيتين هو السياق ، حيث مساق الكلام في الآية الاولى مساق الحديث عن البعث والنشور ، فناسب التعبير بالهمود بعده نشور. والهمود هو الخمود والهدوء يشبه همود الموت.

أما الآية الاخرى فسياقها سياق عبادة وضراعة فناسب التعبير بالخشوع ، خشوع الذلّ والاستكان ، يقال : خشعت الأرض إذا ييست ولم تمطر.

والشواهد على ذلك كثيرة ووفيرة في القرآن.

حالات كائنة أبرزها الترسيم

هناك الكثير من قصص قرآنيّة هي ترسيمات لحالات واقعيّة كائنة ، حكاية عن أمر واقع ، وليست مجرّد فرض أو تخيل. وهذا كحديث الأمانة وعرضها على السماوات والأرض والجال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، إنّه كان ظلوماً

(١) الحج ٢٢ : ٥.

(٢) فصلت ٤١ : ٣٧ . ٣٩.

جهولا. (١)

وهذا تمثيل لعرض الاستعدادات. كان الإنسان أكثر استعدادا وأقوى قابليّة لحمل الأمانة ، وهي ودائع الله أودعها الإنسان لقابليّته الذاتية. والتي هي عبارة عن العقل والقدرة الهيمنة والإبداع ، وحتى يكون خليفة الله في الأرض. استحقّ الشموخ إلى هذا المقام الرفيع ، بفضل قابليّته الفائقة ، غير أنّه جهول بشأن نفسه ظلوم لا يعرف قدر نفسه. (٢)

فهذا ترسيم رائع للقابليّات واستجلاء أرقاها وأقومها ، وهو أمر واقع وليس محض خيال.

وحديث «أخذ الميثاق» : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا. أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (٣) حكاية حال واقعة ... بيانا لفطرة الإنسان على التوحيد :

الإنسان ، في جبلّته مفطور على الإقرار بالتوحيد. كما في الحديث المستفيض عن النبي ﷺ : «كلّ مولود يولد على الفطرة ...». (٤) وهو المعني أيضا بقوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾. (٥) وهكذا قوله تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾. (٦) إشارة إلى العهد المودع في فطرة الإنسان. وكلّ إنسان إذا راجع ضميره وجد هذا العهد جليّا بأسطره الواضحة. ومن ثمّ صرّح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الأنبياء إنّما بعثوا ليثيروا دفائن العقول ، (٧) فدلائل التوحيد لائحة في عقول بني الإنسان لو لا تراكم الغبار عليه. وهكذا كانت العقول حجج الله الباطنة ، وكان الأنبياء الحجج الظاهرة جاءوا لدعم العقول. (٨) قال

(١) من الآية ٧٢ من سورة الأحزاب ٣٣.

(٢) راجع : تفسير الصافي للمحقّق الفيض الكاشاني ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ - ٣٧١ ؛ والميزان في تفسير القرآن ، ج ١٦ ، ص ٣٧١ - ٣٧٢ ؛ وللعلامة جبار الله الزمخشري تحقيق أنيق في هذا المجال. راجع : الكشّاف ، ج ٣ ، ص ٥٦٥.

(٣) الأعراف ٧ : ١٧٢.

(٤) بحار الأنوار ، ج ٣ ، ص ٢٨١ ، رقم ٢٢ ، عن غوالي اللثالي ، ج ١ ، ص ٣٥ ، رقم ١٨.

(٥) الروم ٣٠ : ٣٠.

(٦) يس ٣٦ : ٦٠ - ٦١.

(٧) في أولى خطبة من نهج البلاغة.

(٨) راجع : الكافي ، ج ١ ، ص ١٦ حديث هشام.

الإمام الكاظم عليه السلام : «إنّ الله تبارك وتعالى أكمل للنّاس الحجج بالعقول»^(١).

وهذا هو العهد الذي عاهد الله الإنسان عليه ، معنيًا به الفطرة التي فطر الناس عليها. كناية عن العقول التي ركّبت في ذوات الأنفس. أمّا ما حسبه البعض من إرادة «عالم الذرّ» . حسبما جاء في بعض التفاسير . وأنّ الله أخرج ذرّيّة آدم من صلبه وأشهدهم على ربوبيّته ... فهذا شيء لا مساس له بالآية الكريمة. ولا كانت الآية مشيرة إليه ، بل ومنافاته مع ظاهر التعبير ، حيث قوله تعالى : ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ ، وليس من ظهره فحسب.

القصة في القرآن حقيقة واقعة

سبق أن نبّهنا أنّ القصة في القرآن هي حكاية عن أمر واقع ، كانت تجربة مرّت على حياة الإنسان ، إن زاهية أو مريّة ، لغرض الاعتبار بها ، ولا اعتبار بما فرضه الوهم أو تصوّره الخيال!

نعم قصص القرآن حوادث واقعة (تاريخيّة) رسمتها ريشة الفنّ الأدبي في أبدع صورها وأروع أشكالها ، لغرض التأثير على النفوس والأخذ بمجامع القلوب. فهناك مزج بين التاريخ والأدب وليس مجرد فنّ التمثيل.

ذلك أنّ القرآن استخدم الفنّ في ترويح دعوته ، مع الحفاظ على الواقع المتمثّل به ، لغرض التأكيد على التأثير ، ومتجنّبًا مجالات الوهم ومحض الخيال ، إذ لا تأثير لمجرّد الفرض وقد أكّد علماء التربية على مجانية الابتناء على أساس منهار ، إذ لا قوام لبناء كان أساسه على شرف هار. التربية لها مجال حقيقي في حياة الإنسان ، فلا ينبغي بناؤها على أساس الفرض ممّا لا واقع له سوى الوهم والخيال. وسرعان ما ينهار البناء إذا لم يكن له أساس مكين. على أنّ القرآن . وهو كتاب هداية له دعوة الحقّ . في غنى عن التمثّل بمفروضات

(١) المصدر : ص ١٣.

الخيال ، بعد وفور الأحداث والتجارب التي مرّت على حياة الإنسان ، وقد كلفته أثمانا باهظة إن رابحة أو خاسرة ، هي تصلح لأن تقع موضع عبرته في مستقبل الزمان ، نظرا لوحدة متطلّبات الحياة في غابر الأزمان وحاضرها والآتي.

والخلاصة : أنّ القصّة في القرآن هي تجربة واقعيّة قاسها الإنسان في حياته الغابرة ، ولتكون عبرة في مستمرّ حياته ، وليست مجرد فرض خيال :

أولا . لأنّه في غنى عن اللجوء إلى مفروضات خياليّة أو مشهورات هي مقبولات عاميّة ، بعد وفرة التجارب ذوات العبر في سالف حياة الإنسان.

ثانيا . لأنّ البناء على أساس الفرض والخيال سرعان ما ينهار إذا ما كسحته واقعيّات الحياة ولا سيّما بعد فضح الحال.

* * *

هذا ولكن هناك من يرى من قصص القرآن . كلّها أو جلّها . هي مشهورات عاميّة استندها القرآن ، لا اعترافا بها ، بل معبرا للوصول إلى غايته في

الهداية والإرشاد ، على طريقة الخطابة في البيان . وبعضهم أجاز كونها تمثيلات مجرّدة تقريبا للمطالب إلى الأذهان ... ولعلّ هذا إفراط بشأن القرآن!

يقول محمد أحمد خلف الله : القرآن يجري في فنّه البياني على أساس ما كانت تعتقد العرب وتخيّل ، لا على ما هو الحقيقة العقليّة ، ولا على ما

هو الواقع العملي . فهو حينما يتحدّث عن الجنّ وعن عقيدة المشركين فيهم وأنهم يستمعون إلى السماء ليعرفوا أخبارها ثمّ يقومون بعد ذلك بإلقاء هذه

الأخبار على الكهنة ، وكان الكهنة يدّعون الاطلاع على الغيب ومعرفة الأسرار في كلّ ذلك يجري على هذا المذهب.

جاء في الرازي عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا شَجَرَةُ يُحْرَجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ﴾^(١) ما يلي : «وأما تشبيه هذا الطلع برءوس

الشياطين ففيه سؤال ، لأنّه قيل إنّ ما رأينا رءوس الشياطين ، فكيف يمكن تشبيه شيء بها؟ وأجابوا عنه بوجه ،

(١) الصافات ٣٧ : ٦٤ . ٦٥ .

الأول . وهو الصحيح . : أنَّ النَّاسَ لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة والسيرة ، واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح والتشويه في الصورة والسيرة ، فكما حسن التشبيه بالملك عند تقرير الكمال والفضيلة في قوله ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾^(١) فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برؤوس الشياطين في القبح وتشويه الحلقة». ^(٢)

وجاء في الكشف عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^(٣) ما يأتي : «لا يقومون إذا بعثوا من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان أي المصروع. وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، يزعمون أنَّ الشيطان يخط الإنسان فيصرع. والخبط : الضرب على غير استواء ، كخبط العشواء. فورد ما كانوا يعتقدون.

والمس : الجنون ، ورجل ممسوس ، وهذا أيضا من زعماتهم وأنَّ الجنَّ يمسّه فيختلط عقله ، وكذلك جنّ الرجل ، ضربته الجنّ. ورأيتهم لهم في الجنّ قصص وأخبار وعجائب. وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات». ^(٤)

يقول الاستاذ خلف الله : يجري القرآن على هذا المذهب الأدبي في محاولته هدم عقيدة المشركين السابقة ، وقد كانت تعتبر العقبة الاولى في سبيل الدعوة الإسلامية لما فيه من إتاحة الفرصة للمشركين بأن يدّعوا أنَّ محمداً من الكهّان وأنَّ الذي يطعنه على الغيب هم الشياطين وليس وحي السماء.

حارب القرآن هذه الفكرة وحاربها تدريجياً وبأساليب مختلفة. فالجنّ كانت تقعد مقاعد للسمع. ولكن الكواكب أصبحت رجوما والشهب أصبحت رواصد ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾. ^(٥) والجنّ تخطف الخطفة حتى بعد رسالة محمد ﷺ وحتى بعد أن حدثت المعجزة ومنعت الجنّ من الاستراق. ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ. لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ

(١) يوسف ١٢ : ٣١.

(٢) التفسير الكبير ، ج ٢٦ ، ص ١٤٢.

(٣) البقرة ٢ : ٢٧٥.

(٤) الكشف ، ج ١ ، ص ٣٢٠.

(٥) الجنّ ٧٢ : ٩.

مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ»^(١).

ذلك اسلوب محاربة الفكرة يوم أن كان سلطانها قويًا وإيمانهم بها عنيفاً ، ويوم أن كان القرآن في أوّل عهده بهم.

ولكن حينما تقدّم الزمن وحينما استقرّ الأمر في البيئة واشتهر أمر المعجزة وأخذ القوم يصدّقون بالرجم انتقل القرآن إلى اسلوب آخر في محاربة الفكرة فادّعى أنّ الجنّ ما كانت تعلم الغيب وأنّها لو كانت تعلمه ما لبثت في العذاب بعد أن فارق سليمان عليه السلام الحياة ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾^(٢).

واسلوب المحاورة قد يوقع بعض المفسّرين في إشكالات خاصّة ، حينما يأخذون المسائل مأخذ الجدّ ويحاولون البحث عن الأجرام السماويّة وهل كانت موجودة قبل محمّد أو لم تكن؟ وإذا كانت فكيف جعلت رجوماً؟ وهكذا إلى أن يضيّقوا هم أنفسهم بأمثال هذه المسائل. جاء في الرازي ما يلي :

يروى أنّ السبب في ذلك أنّ الجنّ كانت تتسمّع لخبر السماء ، فلمّا بعث محمّد ﷺ حرست السماء ورصدت الشياطين ، فمن جاء منهم مسترقاً السمع رمي بشهاب فأحرقه لئلاّ ينزل به إلى الأرض فيلقيه إلى الناس فيخلط على النبي أمره ويرتاب الناس بخبره. فهذا هو السبب في انقضاء الشهب وهو المراد من قوله : ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾^(٣) ومن الناس من طعن في هذا من وجوه :

أحدها : أنّ انقضاء الكواكب المذكور في كتب القدماء ، قالوا إنّ الأرض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس وإذا بلغ النار التي دون الفلك احترق بها ، فتلك الشعلة هي الشهاب.

وثانيها : أنّ هؤلاء الجنّ كيف يجوز أن يشاهدوا الالوف منهم يحترقون ، ومع ذلك يعودون لمثل صنيعهم!

(١) الصافات ٣٧ : ٦ - ١٠ .

(٢) سبأ ٣٤ : ١٤ .

(٣) الملك ٦٧ : ٥ .

وثالثها : كيف يجوز خرق ثخن السماء إذا نفذوا. وإذا لم ينفذون فكيف يستمعون إلى أسرار السماء من ذلك البعد البعيد؟ وكيف لا يسمعون إلى كلام الملائكة وهم على الأرض؟

ورابعها : لم لم يسكت الملائكة عن ذكر الأحوال المستقبلية كي تتمكّن الجنّ من استماعها؟

وخامسها : أنّ الشياطين مخلوقون من النار والنار لا تحرق النار!

وسادسها : كيف جاز تداوم القذف بعد النبوة وحتى بعد وفاة النبي ﷺ في حين أنّ الاستراق كان لأجل خلط أمر الوحي؟

وسابعها : أنّ هذه الرجوم تحدث بالقرب من الأرض ولو كانت قريبة من فلك السماء لما شاهدنا حركتها!

وثامنها : لم لم ينقل الشياطين أسرار المؤمنين إلى الكفار ، إذا كان يمكنهم نقل أخبار الملائكة إلى الكهنة؟

وتاسعها : لم لم يمنعوا ابتداء من الصعود إلى السماء حتى لا يحتاج في دفعهم إلى قذف الشهاب؟^(١)

لكن لو فطن الرازي من أوّل الأمر إلى أنّ القرآن إنّما يحارب هذه العقيدة ويحاول هدمها بأسلوبه الخاصّ ، القائم على فكرة التدرّج ، وأنّ هذا التدرّج يشبه تماما التدرّج في التشريع في مسألة محاربة الخمر وغيرها وأنّ النسخ في التشريع إنّما يعلّل بهذه الفكرة. لو فطن الرازي إلى كلّ هذا لما أتعب نفسه وأتعب غيره في هذه الوقفات الطويلة ، ولقال بأنّ القرآن إنّما يأخذ الناس بتصوراتهم ، وأنّه في هذا الموقف قد سلّم بهذه العقيدة ، لا لأنّها حقّ وصدق ، وإنّما لأنّه يريد أن يهدمها تدريجيّا ، فيسلّم بها أوّلا ثمّ يأخذ في هدمها مستعينا بالزمن.

(١) نقلناها بتلخيص واختزال. راجع : التفسير الكبير ، ج ٣٠ ، ص ٦١. وقد أجاب الرازي عنها إجابات ضعيفة ممّا يقوّي الإشكال!

فقد اتضح أنّ القرآن كان يأخذ الناس بتصوّراتهم ويأخذهم بالعرف والعادة وأنّه كان يفعل هنا ما كان يفعله في امور التشريع من أخذ الناس بعاداتهم ومن تغيير هذه العادات تدريجيّا ، الأمر الذي من أجله كان النسخ في التشريع.

فقد وضح أنّ القرآن قد قصّ في القصص التي كانت موطن الاختبار لمعرفة نبوة النبي ﷺ وصدق رسالته ما يعرفه أهل الكتاب عن التاريخ ، لا ما هو الحق والواقع من التاريخ ، وأنّه من هنا لا يجوز الاعتراض على النبي ﷺ وعلى القرآن الكريم بأنّ هذه الأقاصيص أخطاء من أخطاء التاريخ!

وبعد فنلفت ذهن القارئ إلى أنّه إذا وضح لديه الوضوح الكافي أنّ القصّة القرآنيّة قد قصد منها إلى التاريخ ، فإنّه يتعيّن عليه أن يؤمن بما جاء فيها على أنّه التاريخ ، وذلك كتقرير القرآن لمسألة مولد عيسى عليه السلام وتقريره لمسألة إبراهيم عليه السلام وأنّه لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا.

أمّا تلك التي يقصد منها إلى العظة والعبرة وإلى الهداية والإرشاد فإنّه لا يلزم أن يكون ما فيها هو التاريخ ، فقد تكون المعارف التاريخيّة عند العرب أو عند اليهود ، وهذه المعارف لا تكون دائما مطابقة للحقّ والواقع ، واكتفاء القرآن بما هو المشهور المتداول ، أمر أجازته النقد الأدبي وأجازته البلاغة العربيّة وجرى عليه كبار الكتّاب. ومن هنا لا يصحّ أن يتوجّه اعتراض على النبي ﷺ أو على القرآن الكريم! ^(١)

* * *

وبعد فهذا الذي ارتآه الاستاذ خلف الله ، كان قد سبقه إلى ذلك الكاتب الشهير طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» والاستاذ علي عبد الرزاق في كتابه «الإسلام واصول الحكم» وغيرهما حتّى أصبح ذلك من ميزات الفكر الإسلامي الحديث ، وربّما أثار ضجّة في الأوساط الدينيّة ولا يزال. وأخيرا قام الاستاذ خليل عبد الكريم بعرض وتحليل القصص القرآني بصورة نقد وتعليق على كتاب الفن القصصي في القرآن للاستاذ

(١) الفن القصصي في القرآن ، ص ٨٧ - ٩١.

خلف الله ، وزاد عليه الكثير ممّا حسب أنّ خلف الله أغفله! غير أنّه زاد في الطين بلّة ، يقول . معترضا على كلامه الأخير بشأن ما قصد من القصّة القرآنيّة إلى التاريخ . : إنّنا نقف مع خلف الله ملتبّا عند القصص التاريخي ، إذ لم يحدّد لنا المعيار الذي انطلق منه لتحديد تاريخيّة القصّة :

هل هو ثبوّتها في مدوّنات التاريخ المعتمدة؟

أم هل هو احتفاظ الشعوب في ذاكرتها لوقائعها؟

وهل مجرّد ورودها في التوراة يضيف عليها صفة التاريخيّة؟

لقد كان حريّا به وهو بصدد كتابة بحث أكاديمي أن يفعل ذلك ، ولعلّ إغفاله ذكر هذا المعيار هو الذي دفع به إلى إضفاء الصفة التاريخيّة على قصص ووقائع وأحداث في حين أنّها ليست كذلك. فنزاع ابني آدم وقتل أحدهما الآخر وجهل القاتل بكيفيّة دفن جثّة أخيه المقتول ، هذا ليس تاريخا ، وإنّما هو أدخل في باب الميثولوجيا (علم الأساطير). ولهذه الأحداث مثيرات في عقائد العديد من الشعوب القديمة والبدائيّة الحاليّة ، مثل أحداث الطوفان والسفينة المعجبة التي أنقذت البشريّة من الانقراض!

وكذلك حكاية عاد وهود وهلاك القوم بالريح التي تحمل العذاب الأليم ، فهي من الفولكلور ^(١) (قصص شعبيّة) العربي القديم ، حتّى الآن يضرب مثل للرسول (الوافد أو المندوب) المشعوم ب «وافد عاد»!

وتلحق بها قصّة صالح وثمود ، والناقة المدهشة التي تشرب يوما وكلّ سكّان القرية يوما ، وسدوم (مدائن لوط) التي ضربها أحد الزلازل ، فنسب إلى لعنة حاقت بهم من جرّاء شذوذهم الجنسي ، تنفيرا من دعاة الإصلاح لهذا العمل الخبيث. وكذلك قصّة أصحاب الكهف الذين لبثوا فيه أكثر من ثلاثة قرون وهم يغطّون في نوم عميق وينعمون بأحلام ورديّة دون أن يصابوا بجوع أو ظمأ ولا تتغيّر أجسامهم بمضيّ القرون ، فلمّا استيقظوا ظنّوا أنّهم ناموا بضع ساعات.

(١) قصص عاميّة تتداولها الألسن وتعارفها العامة منذ قديم الأيّام.

وكذا قصّة ذي القرنين الذي غزا البلاد ودوّخ السلاطين والملوك والأقيال ، وسار إلى الشرق حتّى وصل إلى حدود بلاد يأجوج ومأجوج ، فبنى سدّا منيعا بينه وبينهم ، ومن ضمن ما رآه في رحلاته تلك : الشمس وهي تغرب في عين حمئة.

ومع ذلك يذهب خلف الله إلى أنّ هاتين الحكايتين من صلب التاريخ. فكلّ هذا من قصص الفولكلور الشعبي الذي كان يتناقله عرب الجزيرة أو اليهود وكان معروفا ومحفوظا في عهد محمد ﷺ ويردّده الجميع ، فكيف يعتبره خلف الله تاريخا وكيف يعدّ حكايات اللطيفة حيناً والمرعبة حيناً آخر تاريخاً؟

أمّا الأوعر من ذلك فإنّه يعتبر حكاية موسى وفرعون وخروج بني إسرائيل من مصر ، وضرب ملاء فرعون بالجراد والضفادع والقمل والدّم ، وتحديّ موسى للسحرة ، وانقلاب العصى إلى حيّة وثعبان أو جان ... إلخ. نقول إنّّه يعتبر كلّ هذه الحكايات تاريخاً ، مع أنّه لا يوجد في العالم بلد أحرص على تدوين تاريخه كتابة كمصر ، وليس في التاريخ المصري شيء منها ، ومع ذلك عدّها المؤلّف قصصاً تاريخياً!

والأشدّ إثارة للدهش أن يضيف صفة التاريخيّة على المحاور التي دارت بين المستضعفين والمستكبرين ، ثمّ بين هؤلاء الآخرين وبين الشيطان ، أو على سؤال الله عيسى عمّا إذا كان قد طلب من تبعه أن يعبدوه هو وأمه؟

ويلحق به ما جاء على لسان اليهود أنّهم قتلوا المسيح رسول الله ، فبأيّ مقياس يعدّ هذا تاريخاً؟ وهل يمكن للقصص التي أوردنا أمثلة منها أن تنضوي تحت صفة التاريخيّة؟ وبقدر ما أخفق المؤلّف في إفضاء صفة التاريخيّة على هذه القصص ، بقدر ما حالفه التوفيق في القول بأنّها حقيقيّة بحسب اعتقاد المخاطبين بالقرآن المعاصرين لمحمد!

فعرّب الجزيرة آنذاك كانوا يؤمنون بصحّة وقائع قصص عاد وهود وثمود وصالح والناقة وآيات العذاب الأليم ... إلخ.

واليهود يؤمنون بصدق قصّة موسى وفرعون وملئه والضفادع والقمل والدّم

والآيات المفصّلات وموسى وشعيب وانقلاب العصيّ إلى حيّات وثعابين ... إلخ وخروج بني إسرائيل وانشقاق البحر ... إلخ وقبلها بقصّة ابني آدم وبالطوفان وبالسفينة الرائعة التي حفظت ذرّيّة آدم من الغرق ... إلخ.

إذن كان الأولى أن يصف هذه القصص بأنّها القصص الشعبيّة والقصص الدينيّة ، ولا يغضّ هذا من قيمتها أو يقلّل من قدرها أو يهوّن من مصداقيّتها أو ينال من حقيقتها! خلاصة القول إنّ الكسوة التاريخيّة التي حاول المؤلّف (خلف الله) أن يدّثر بها تلك القصص ليست ملائمة لها! ^(١)

* * *

ويتلخّص هذا المذهب (الذي وسموه باسم الفكر الإسلامي الحديث) في أنّ القرآن قد استخدم القصص الشعبيّة وكذا القصص الدينيّة الشائعة معبرا للبلوغ إلى أهدافه في تبليغ رسالة الله ، ومن غير أن يكون ذلك اعترافا بصحّتها أو إذعانا بصدقها ، على طريقة فنّ الخطابة وعلى أساس الأخذ بالمشهورات أو المقبولات (لدى العامة) ولو تمثيلا ولتكون ذريعة لتحقيق الغرض في الهداية والإرشاد. وكان ذلك يكفي تبريرا للاستناد إلى قضايا يعترف بها المعاصرون أو المخاطبون استنادا تمثيليّا ، وبذلك يمكن التأثير عليهم في التبشير والإنذار!

إذن فالقرآن لا يتحمّل عبأ مسؤوليّة القضايا المستند إليها ، بعد أن كانت وسائل لإنجاز الهدف من دون أن تكون هي مقصودة بالإثبات ، والغاية تبرّر الوسيلة.

وبهذا التعليل حاولوا التخلّص من تبعات القول بتأريخيّة تلك الأحداث.

وحجّتهم في ذلك ، والتي دعّتهم إلى سلوك هذا المسلك الوعر (حيث ارتكاب خلاف ظاهر التعبير!) أنّهم وجدوا أنفسهم في مأزق عن الإجابة الوافية لو تسالموا على واقعيّة تلك القصص والتي عليها صبغة التمثيل في حسابهم!

(١) الفن القصصي في القرآن ، مع شرح وتعليق خليل عبد الكريم ، ص ٤١٤ - ٤١٦ .

ملحوظة

هنا ملاحظة خطيرة يجدر التنبيه لها ، هي أنّ أصحاب هذا الفكر الحديث . حسب مصطلحهم . إنّما حسبوا حسابهم حفاظا على كرامة القرآن وأنّه في آفاق عالية من السموّ والرفعة ، ومن غير أن يتنازل مع رغبة الطامعين أو يتسافل حيث المذاهب العاميّة الساقطة.

فإن كان القرآن يتمثّل بقصص شعبية دارجة ، فإنّ معناه مجرّد التمثيل وإن كانت عناصره على أساس التخيّل والتصوير ، فإنّ هذا ليس بعيب ، إنّما العيب فيما إذا رضح لأوهام ساطية على الحقائق ، لمجرّد أنّ العامة تقبله وترضاه ، الأمر الذي هو استرضاء متسافل مقيت ويتحاشاه القرآن الكريم.

يقول الاستاذ خليل عبد الكريم . ردّا على من زعم أنّ القرآن إنّما صوّر قصّة أصحاب الكهف طبقا لآراء أهل الكتاب ، لغرض إثبات نبوّة محمّد ﷺ ، حيث كانت آراء اليهود هي المقياس الذي به يقيسون صدق النبي ﷺ فلو نزل القرآن بغيرها أي بما يخالف المقياس المذكور لكذبوا النبي ولما آمنوا به أو بالقرآن الذي جاء به . يقول ردّا على ذلك : وهل آمن اليهود برسوليّة محمّد وصدّقوه واتّبعوه ، بعد أن جاءهم بصورة لما يعرفه أهل الكتاب؟! قال : أليس القول بأنّ مجيء القرآن مطابقا للصورة التي يعلمها أهل الكتاب في خصوصيّة عدّة أصحاب الكهف ومدّة مكثهم ، وذلك للتدليل على صدق نبوّة محمّد ، أليس لهذا القول دلالة الصريحة أنّ معلومات أو معارف أهل الكتاب وحصرها وتحديدًا اليهود ، حاكم على القرآن ، وبعبارة أوضح : أنّ القرآن رضح لمقياس اليهود حتّى تثبت نبوّة محمّد ورسوليّته!! تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا!

هل ما قاله البعض من القدامى ووافقه بعض المعاصرين ، يتفق مع رأي القرآن في اليهود؟ وكيف يلائم ما جاء في القرآن ، إنّ بشأن عدّة الفتية أو مدّة مكثهم بالكهف ، تصوير معارف اليهود ، وقد رماهم القرآن بكلّ خسياسة ودفعهم بكلّ نقيصة ، وأوعر من هذا جميعه أن تكون المطابقة لهذه المعارف هي مقياس صدق محمّد وأنّه رسول يوحى إليه

من السماء؟! من السماء؟! من السماء؟!

إنّ المنطق والعقل لا يقبلان ذلك ويرفضانه ، فالشخص العاديّ يشمئزّ من اتّخاذ قالة الكذوب ميزانا لصحّة كلامه ، فما بالك بالله تعالى جلّ جلاله! ^(١)

وقفة فاحصة؟

غير أنّا لو اعتبرنا تلك القضايا بعين التحقيق وتعمّقنا النظر الدقيق ، لرأيناها صورة طبق الواقع ، لا وهم ولا مجرد تمثيل! إنّ أكثر القضايا التي قصّها القرآن قد اكتشفت آثارها وتبيّنت دلائل صدقها بعد حين. ولنبدأ بما ذكره الاستاذ خليل أخيرا بشأن قضايا إسرائيلية - مصرية. وأنّها لو صحّت لما أهمل ذكرها التاريخ المصري القديم : ^(٢) قلت : كثير من أحداث مصر القديم لم يسجلها التاريخ ، بعد أن كان مهمّة التاريخ الأثري هو مجرّد وصف البلاط الملكي وزهو رجالات الحكم ومجونهم في البذخ والترف والأفراح ، ليس غير. أمّا الأوضاع الاجتماعية وما عليه سائر الناس من الأحوال والأوضاع ، فهذا ممّا لا يهتمّ به التاريخ القديم سوى ما كانت له صلة بأحوال الملك وحواشيه. فالتاريخ القديم إنّما هو تاريخ الملوك ، وليس تاريخ الامم ، على خلاف ما وسم الطبري تاريخه. ^(٣) ومثلا لذلك نقول : كانت رحلة العبرانيين (بني اسرائيل) إلى مصر أمرا لا ينكر ، في حين أنّه لم يأت ذكر منها في تاريخ مصر القديم. وكذا موسى وهارون ، فضلا عن يوسف وإخوته ويعقوب ، شيء لا يمكن الغصّ عنه في تاريخ مصر ، ومع ذلك لم يأت في كتابات

(١) المصدر : ص ٤٠٩ . ٤١٠ .

(٢) يقول : «لا يوجد في العالم بلد أحرص على تدوين تاريخه كتابة كمصر ، وليس في التاريخ المصري شيء منها ... المصدر : ص ٤١٦ .

(٣) وسم تاريخه باسم تاريخ الامم والملوك ، في حين أنّه ليس في تاريخه ذكر عن أحوال الامم وأوضاعها ، سوى ما يمسّ شأن القادة الملوك وتصرفاتهم التعسّفية.

مصر القديمة ولا إشارة إليه.

وهل نستطيع أن نشطب على كثير من هذه القضايا . المقطوع بصحتها . بحجة أنّها لم تذكر في كتابات الأهرام؟ وهل يمكننا الغضّ عن حادث خروج موسى ببني إسرائيل قاصدا أرض فلسطين ، وقد عبر البحر إلى وادي سيناء مارّا بمضيق من البحر الأحمر في منطقة قريبة من خليج السويس ولعلّه كان متّصلا بالبحيرة المرة وأصبحت أرضا يابسة وقد اتّخذها موسى معبرا لقومه . والمحلّ مشهور باسمه إلى الآن. ^(١)

على أنّ إبراهيم وابنيه إسحاق وإسماعيل وكذا موسى وهارون ومن بعدهما من أنبياء ، ملأ بذكرهم الآفاق ، لم يذكرهم التاريخ المسجّل ، فهل يصلح ذلك حجة للقول بكونهم رجال أساطير؟

هذا ذو القرنين عرف أخيرا أنّه «كورش» الملك الفارسي العظيم وجاء ذكره في كتب العهد القديم وهو الذي فتح بابل عام (٥٣٨ ق م) وأطلق سراح بني إسرائيل من الأسر وحماهم وأسكن قسما منهم في مدينة «شوش» تحت زعامة «دانيال النبي» وسرّح الباقي إلى أرض فلسطين بزعامة «عزرا» ليشيد بناء الهيكل وإحياء آثار بني إسرائيل وتجديد بناء البيت المقدس وتعهّد تكاليف عمران تلك البلاد وغير ذلك من أعمال خير قام بها على أساس بسط العدل في الأرض. وبناء السدّ لحماية أقوام مستضعفين عن هجمات قبائل وحشيّة ، كان أحد آثار هذا العمل الخيري. وهذا شيء عرفه الأوائل وعثر عليه أهل التحقيق من المتأخّرين. ^(٢) ولا تزال الكشوف الأثريّة تطلّعوننا على غيوب من أسرار هذا القصص القرآني والذي لم يسجّله التاريخ.

ومواضع الغرابة في كلام هذا الكاتب المسترسل (خليل عبد الكريم) كثير سوف نبوّك عليها ، والآن وقبل كلّ شيء لا بدّ من النظر في أهمّ نقاط ركّز عليها بحثه الحاضر :

(١) انظر : قصص الأنبياء للاستاذ عبد الوهاب النجار ، ص ٢٠٤.

(٢) راجع : قاموس الكتاب المقدّس ، ص ٧٤٣. وقد قام بهذا التحقيق المولى أبو الكلام آزاد ، العالم الهندي الكبير . راجع : لغت نامه لعلّي أكبر دهخدا ، ص ١١٥٦٣ ، ذو القرنين الثاني ، نقلا عن مجلة «ثقافة الهند».

أولاً . كيف يصف هذه القصص بأنّها من التراث الشعبي والتي كان يعرفها العرب المعاصر لمحمد ، وبالأحرى أن يكون محمد ﷺ أعرف بها من غيره ... هذا في حين أنّ القرآن يباريهم بأنّها من الآثار التي كان يجهلها محمد وقومه من قبل؟

هو عند ما يذكر قصّة نوح والطوفان والسفينة بتفصيل وبيان ، يعود فيقول : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا...﴾. ^(١) فلو كانت العرب تعرفها وتعدّها من تراثها الشعبي الدارج ، لكانت أولى بالردّ على هذا التحدي الصارخ!

وكذا عند ما ينتهي من قصّة يوسف وإخوته يقول : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ. وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾. ^(٢) وهكذا بشأن الصديقة مريم وبشرى الملائكة لها يقول : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ. وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ. وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. ^(٣)

فلو كان أهل الكتاب يعرفون التفاصيل المروعة والتي جاءت في القرآن نقيّة زاكية ، لكانوا أولى بمجابهته وهم أشدّ المناوئين للإسلام ولرسالة محمد ﷺ !

لكنّهم (العرب واليهود والنصارى) عرفوا الصدق والأمانة في القرآن ، فلم يلهجوا بشيء سوى مناوئته عن طريق التواطؤ على العداء الغاشم. أفهل من المعقول أن يكون محمد قد أخذ تلك الأفاصيص من أفواه العرب وأهل الكتاب وقصّها عليهم ، ثمّ تحدّاهم بها ، وهؤلاء جميعاً سكتوا عليها من غير إجابة صارمة؟!

فما لكم . يا أهل الفكرة الإسلاميّة الحديثة!! . كيف تحكمون؟!

ثانياً . ما وجه الاستغراب أو الإنكار لصحّة تلك الأحداث التي قصّها القرآن ، والتي دعت البعض (وهم أصحاب الإلحاد) إلى فرضها مسرحيّات تمثيليّة ، والبعض الآخر (وهم أهل الفكرة الإسلاميّة الحديثة . أو العقل الإسلامي الحديث) إلى فرضها

(١) هود ١١ : ٤٩ .

(٢) يوسف ١٢ : ١٠٢ .

(٣) آل عمران ٣ : ٤٤ .

التراث الشعبي الرائج ، أفهل لا يمكن صدق مصداقيتها وأنها أحداث تاريخية كانت قد قُبعت في زوايا الجهل التاريخي ، وقد كشف القرآن عن وجهها ، حتى ولو كانت غريبة . نسيّا . في شكلها وهندامها؟! ولنذكرها بتباع :

حديث ابني آدم!

أما حديث ابني آدم إذ قرّبا قربانا فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر ... فكان ذلك سبب قتل قابيل لهابيل ... واحتار فيم يفعل بجثة أخيه. حتى هداه الغراب ليواريه في التراب ... (١)

فهذا حديث وصفه الله بأنه نبأ حقّ : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ...﴾! فمن الجرأة على الله وعلى كتابه المجيد أن يوصف بأنه من الأساطير الشائعة في عقائد العديد من الشعوب القديمة والبدائية. (٢)

نعم هذا الحادث في شكله هذا الترتيب ، من عمل الفنّ التصويري في القرآن. فهناك في بدء الخليقة وقع تشاحن بين بني آدم وهم في بداية مرحلة الحياة الاجتماعية ، والتي أساسها التعاون والتكافل في الحياة ، دون التباغض والتباعد ، لو لا أن تتداركهم الهداية الربّانية الأمر الذي نبّه الله آدم وزوجته عليه حينما أخرجهما من الجنة ليعيشا وذريتهما على وجه الأرض. ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. (٣)

قال سيد قطب : هذه القصّة تقدّم نموذجاً لطبيعة الشرّ والعدوان ، ونموذجاً كذلك من الطيبة والوداعة ، وتقفهما وجهاً لوجه ، كلّ منهما يتصرّف وفق طبيعته ...

واتل عليهم نبأ هذين النموذجين من نماذج البشرية ، اتله عليهم بالحقّ ، فهو حقّ وصدق في روايته ، وهو ينبيء عن حقّ في الفطرة البشرية ، وهو يحمل الحقّ في ضرورة

(١) المائدة ٥ : ٢٧ - ٣١.

(٢) الفن القصصي في القرآن ، ص ٤١٤.

(٣) بقرة ٢ : ٣٨.

الشريعة العادلة الرادعة.

إنّ ابني آدم هذين . قبل كلّ شيء . هما في موقف لا يثور فيه خاطر الاعتداء في نفس طيّبة . فهما في موقف طاعة بين يدي الله . موقف تقديم قربان ، يتقرّبان به إلى الله : ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ .. ﴿فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ . والفعل مبني للمجهول ، ليشير بناؤه هكذا إلى أنّ أمر القبول أو عدمه ، موكل إلى قوّة غيبية ، وإلى كيفية غيبية ... إحياء بأنّ الذي قبل قربانه لا جريرة له توجب الحفيظة عليه وتبييت قتله ، فالأمر لم يكن له يد فيه ، وإنّما تولّته قوّة غيبية بكيفية غيبية ، تعلو على إدراك كليهما وعلى مشيئته ... فما هناك مبرّر ليحنق الأخ على أخيه ، وليجيش خاطر القتل في نفسه .

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وهكذا يبدو هذا القول . بهذا التأكيد المنبئ عن الإصرار . نايبا مثيرا للاستنكار ، لأنّه ينبعث من غير موجب ، اللهمّ إلّا ذلك الشعور الحبيث المنكر ، شعور الحسد الأعمى ، الذي لا يعمر نفسا طيبة .

والسياق يمضي ليزيد هذا الاعتداء نكارة وبشاعة بتصوير استجابة النموذج الآخر ، ووداعته وطيبة قلبه : ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ . هكذا في براءة تردّ الأمر إلى وضعه وأصله ، وفي إيمان يدرك أسباب القبول ، وفي توجيه رفيق للمعتدي أن يتقي الله ، وهداية له إلى الطريق الذي يؤدي إلى القبول ، وتعرض لطيف به لا يصرّح بما يחדشه أو يستثيره .

ثمّ يمضي الأخ المؤمن التقيّ الوديع المسالم ليكسر من شره الشرّ الهائج في نفس أخيه الشرير : ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ .

وهكذا يرسم نموذج من الوداعة والسلام والتقوى ، في أشدّ المواقف استجاشة للضمير الإنساني وحماسة للمعتدى عليه ضدّ المعتدي ، وإعجابا بهدوئه واطمئنانه أمام نذر الاعتداء ، وتقوى قلبه وخوفه من ربّ العالمين ... ^(١)

(١) ملنقط من صفحات ٧٠٤ . ٧٠٧ في ظلال القرآن ، المجلد الثاني .

... إلى آخر القصة وهي حكاية عن تقابل نموذجين من الطباع البشري منذ البدء ولا يزال ، هما في تناحر وتنازع ، غير أنّ طابع الشرّ يؤول لا محالة إلى الندم والخسران في نهاية المطاف.

ولا عجب إذ كان الطابعان قد تمثّلا في ابني آدم يوم ذاك ، كما هو جار في ذرايهما عبر العصور ، والعاقبة للمتقين.

حديث الطوفان والسفينة

أمّا حديث الطوفان والسفينة . الذي زعمه الاستاذ خليل أنّه حديث أساطير . فلعلّه نظر إلى ما أورده المفسّرون من خرافات إسرائيلية ، شوّوها بها وجه القرآن الوضيء ، وقد تكلمنا عن الطوفان وأنّه حادث محليّ عمّ السهل الذي كان يعيشه قوم نوح ، وليس كما فرضته التوراة من شمول وجه الأرض كلّها ... وعلى ما قرّرنا وشهدت له دلائل من القرآن ودعمه التاريخ ، لم يكن أمثال هذا الحادث غريبا عن طبيعة المناخ ، ولا سيّما في السهول المحاطة بمرتفعات تحطل منها السيول الهائلة بين حين وآخر ، ومنها حادث طوفان نوح وقد تكلمنا عن ذلك بتفصيل فراجع.

حديث عاد وثمود وقوم هود

وأما حكاية عاد وثمود وقوم هود ، والتي عدّها الاستاذ من الفولكلور العربي القديم ، فالذي يجعلها من الفولكلور ، هي الأساطير التي حيكت حولها في طول المدّة ، وحسب العادة عند القصّاصين ، حيث لا يقنعهم نقل الحوادث بخالصتها ما لم يصوّروها في أشكال غريبة هائلة ، لتقع موضع إعجاب السامعين كلّما بالغوا في تهويل الأحداث وزادوا في غرابتها.

الأمر الذي نجده في قصة إرم عاد ، والتي قصّها أعرابي مجهول هو عبد الله بن قلابة على عهد معاوية ، كان قد ذهب في طلب أباعر له شردت. فبينما هو يتيه في ابتغائها إذ

اطّلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب فدخلها فوجدها مبنية بلبن من ذهب ولبن من فضة قصورها ودورها وبساتينها وأنّ حصباءها لآلئ وجواهر وتراها بنادق المسك وأنهارها سارحة وثمارها ساقطة ... إلخ. قال ابن كثير : هذا كلّ من خرافات الإسرائيليين من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس. قال : وهذه الحكاية لم تصحّ ولو صحّ إسنادها إلى ذلك الأعراي فقد يكون اختلق ذلك أو أصابه نوع من الهوس والخبال ... وعلى آية حال فهذا ممّا يقطع بعدم صحته. ^(١)

أما الآيات من سورة الفجر : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِمُرْصَادٍ﴾. ^(٢)

فقد جمع الله في هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ العربي القديم ، مصرع : «عاد إرم» وهي عاد الاولى. وهم من العرب العاربة أو البائدة ^(٣) والتي ابيدت قبل بزوغ الإسلام ، فكانوا ذلك العهد حديث أمس الدابر وقد عفى عليهم الزمان ومحى جلّ آثارهم. وعاد جيل من العرب كان مسكنهم بالأحقاف وهي كثبان الرمل ، في جنوبي الجزيرة بين حضرموت واليمن ، وكانوا بدو ذوى خيام تقوم على عماد ، وكانوا ذوى قوّة وبطش وأقوى قبيلة في وقتها وأميزها ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ في ذلك الأوان.

قال أبو جعفر الطبري : وأشبه الأقوال والذي دلّ عليه ظاهر التنزيل أنّهم كانوا أهل عمد سيّارة. لأنّ المعروف من كلام العرب من العماد ، ما عمد به الخيام من الخشب والسواري التي يحمل عليها البناء ، ولا يعلم بناء كان لهم بالعماد بخبر صحيح ، بل وجه أهل التأويل إلى أنّه عني به طول أجسامهم ، وبعضهم إلى أنّه عني به عماد خيامهم ، فأما عماد البنيان فلا يعلم من أحد من أهل التأويل وجهه إليه. وتأويل القرآن إنّما يوجّه إلى

(١) راجع : تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٥٠٨.

(٢) الفجر ٨٩ : ٦ - ١٤.

(٣) العرب البائدة أو العاربة ممّن عفيت آثارهم قبل الإسلام ، وهم : قبائل عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت ومن يتّصل بهم. دائرة القرن العشرين لفريد وجدي ، ج ٦ ، ص ٢٣٢.

الأغلب الأشهر من معانيه ما وجد إلى ذلك سبيل ، دون الأنكر. ^(١)

وأما إرم فقد قيل : إنها قبيلة تفرّعت من قوم عاد ، كما يقال : تميم نحشل. قال أبو جعفر الطبري : وأشبه الأقوال بالصواب عندي أنّها اسم قبيلة من عاد ولذلك جاءت القراءة بترك الإضافة. وهو رأي قتادة. ^(٢)

ويرى المتأخرون أنّ عاداً من القبائل الآرامية ، ولذلك سمّوا : عاد إرم ، والعرب يضربون المثل بها في القدم. ^(٣)

غير أنّ اللغويين فسّروا الإرم بالعلم يبنى من الحجارة وجمعه آرام. قال ابن الأثير : الأرام ، الأعلام. وهي حجارة تجمع وتنصب في المفازة يهتدى بها ، واحدها إرم كعنب. وكان من عادة الجاهليّة أنّهم إذا وجدوا شيئاً في طريقهم لا يمكنهم استصحابه تركوا عليه حجارة يعرفونه بها حتّى إذا عادوا أخذوه. وفي الحديث : «ما يوجد في آرام الجاهليّة وخرّبها فيه الخمس». ^(٤)

والعماد : البناء الرفيع ، جمعه عمد وعمد ، واحدته عمادة.

وعليه فيكون معنى الآية : أنّهم كانوا يبنون أعلاماً رفيعة ضخمة لغاية الصبوت والفخار بحيث لم يكدهم يوجب لها مثيل ذلك الأوان.

وقد جاء التصريح بذلك في سورة الشعراء : ﴿... أَتَنْبُؤُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ...﴾. ^(٥)

والريّح : المرتفع من الأرض. والظاهر أنّهم كانوا يبنون فوق القلال والمرتفعات بنايات ضخمة رفيعة بحيث تبدو للناظر من بعد كأنّه علامة. وكان

القصد هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة ، ومن ثمّ سمّاه عبثاً. ولو كان لهداية المارة ومعرفة الاتجاه ما

(١) جامع البيان ، ج ٣٠ ، ص ١١٢-١١٣.

(٢) المصدر.

(٣) دائرة معارف القرن العشرين ، ج ٦ ، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٤) النهاية لابن الأثير ، ج ١ ، ص ٤٠. جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص : أنّه سأل رسول الله ﷺ عن الكنز يوجد في الخرب وفي الآرام؟ فقال ﷺ : فيه وفي الركاز

الخمس. راجع : مسند أحمد ، ج ٢ ، ص ١٨٦.

(٥) الشعراء ٢٦ : ١٢٨-١٣٤.

قال لهم : «تعبثون».

ويبدو من قوله : ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أنّ عادا كانت قد بلغت من الحضارة الصناعيّة مبلغا يذكر ، حتّى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور وتشبيد العلامات على المرتفعات ، وحتّى ليجول في خاطر القوم أنّ هذه المصانع وما ينشئونه بوساطتها من البنايات والقلاع سوف يكفي لحمايتهم في سبيل الخلود ، ووقايتهم من مؤثرات الجوّ ومن غارات الأعداء ...

كما يبدو من ظاهر التعابير الواردة في الآيات أنّ قوم عاد كانوا حضّرا لا قبائل رحّل ، فيما حسبه الطبري وغيره من المفسّرين. فقد كانت لهم مباني ومصانع وعيون وجنّات وأعلام ، وتلك مساكنهم كانت ظاهرة حتّى أوان ظهور الإسلام : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ﴾^(١). أمّا مساكن عاد فبالأحقاف بين اليمن وحضرموت كانت بمرأى من العرب في رحلاتهم الشتويّة إلى جنوبيّ الجزيرة. وكذا ثمود كان مقامها في الحجر المعروفة بمدائن صالح بين المدينة وتبوك ، وقد قطعت الصخر وشيّدته قصورا ، كما نحتت الجبال ملاجئ ومغارات وبقيت مشهودة لدى العرب في رحلاتهم الصيفيّة إلى شماليّ الجزيرة.

واقتران ذكر ثمود مع عاد فلكونهما معا من أجيال العرب البائدة والباقية آثارها حتّى حين وفي منتهى رحلتي الشتاء والصيف. على أنّ المؤرّخين ذكروا أنّ ثمود كانت تسكن جنوبي الجزيرة بجوار قوم عاد ، فلمّا ملكت حمير أخرجوهم إلى تيماء الحجاز. وذكر صاحب كتاب فتوح الشام أنّ ثمودا ملئوا الأرض بين بصرى وعدن! فلعلّها كانت في طريق هجرتها نحو الشمال ، كما ذكر جرجي زيدان.^(٢)

وفي دائرة المعارف المترجمة : «ثمود قوم من العرب الأقدمين بادوا قبل ظهور النبي ﷺ مثلهم في ذلك مثل عاد ...». ^(٣)

(١) العنكبوت ٢٩ : ٣٨.

(٢) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ، ص ٧٧ . ٧٨.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ، ج ٦ ، ص ٢١٠.

قلت : يبدو من ظاهر تعبير القرآن أنّ ثمود كانوا قريبي عهد بعاد ومسكنهم . قبل مغادرة البلاد . بقرب مساكنهم وعلى معرفة من أحوالهم وما حلّ بهم من سوء العقبي :

قال تعالى : ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ. وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُوبِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا. فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ...﴾. ^(١)

وقد عثر المنقبون على كثير من آثار قوم ثمود بديار حجر وبقايا وكتابات غنيّة بإثبات حضارة تلك الأقوام البائدة ^(٢) والتي ذكرها القرآن بإتقان ، وليس أخذنا من أفواه العرب من غير أساس ، كما حسبه الاستاذ خليل عبد الكريم وزملاؤه من أصحاب الفكر الإسلامي الحديث؟!

ناقة صالح!

أما ناقة صالح فقد جاء وصفها في القرآن بأنّها معجزة صاحبت دعوة صالح حين طلبها قومه للتصديق : ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ ^(٣) وهكذا طلبت ثمود تلك الخارقة فاستجاب الله لعبده صالح وأعطاه هذه الخارقة في صورة ناقة. ولا يذكر تفصيلا عنها سوى كونها بيّنة من ربّهم وأنّها ناقة الله وفيها آية منه. قال سيد قطب : ومن هذا الإسناد نستلهم أنّها كانت ناقة غير عاديّة ، أو أنّها أخرجت لهم إخراجا غير عاديّ. ممّا يجعلها بيّنة من ربّهم وممّا يجعل نسبتها إلى الله ذات معنى ، ويجعلها آية على صدق نبوّته. ولا نزيد على هذا شيئا ممّا لم يرد ذكره من أمرها في هذا المصدر المستيقن. قال : ولا

(١) الأعراف ٧ : ٧٣ . ٧٤ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ، ج ٧ ، ص ٣١٩ ؛ والعرب قبل الإسلام ، ص ٧٨ .

(٣) الأعراف ٧ : ٧٣ . وصيغة الطلب جاءت في سورة الشعراء ٢٦ : ١٥٣ . ١٥٤ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا. فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾.

نخوض في وصفها كما خاض المفسّرون القدامى ، لأنّه ليس لدينا سند صحيح نعتد عليه في هذا الوصف. فنكتفي بأنّها كانت خارقة كما طلبت ثمود.^(١)

نعم جاءت الإشارة إلى جانب خارقيتها بشأن قسمة الماء بينهم وبينها : ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطِرِّ. وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضَرٌّ﴾.^(٢) ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ. وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.^(٣) قال الحسن : كانت ناقة من النوق ، وكان وجه الإعجاز فيها أنّها كانت تشرب ماء الوادي كلّ في يوم.^(٤) وهو ماء معيّن كان مخصّصا للشرب كما سنذكر.

هذا جلّ وصف تلك الناقة الخارقة حسبما جاء إجمالياً في هذا المصدر الوثيق. أمّا كيف أخرجت الناقة ، وكيف كان إرسالها تأكل في أرض الله بلا أن تتعرّض لسوء ، وكيف كانت قسمة الماء بينها وبين القوم ، والماء لديهم كثير ﴿أَنْتَزِغُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ...﴾!^(٥)

قال الشيخ محمد عبده . ما ملخصه . : دلّ مجموع الآيات على أنّ آية الله في الناقة أن لا يتعرّض لها أحد من القوم بسوء في نفسها ، ولا في أكلها ولا في شربها. وأنّ ماء ثمود قسمة بينهم وبين الناقة إذ كان الماء قليلا ، فكانوا يشربونه يوما وتشربه هي يوما. وروي أنّهم كانوا يستعيضون عنه في يومها بدرّ لبنها الوفير . وهي آية لهم!

ولعلّ الماء كان معيّنا خاصّا لشربهم دون سقي الأرض والمواشي. إذ ذكر في سورة القمر معرّفا بلام العهد : ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾. وفي الحديث : أنّ النبي ﷺ دلّ المسلمين على البئر التي كانت تشرب منها الناقة حين مرّوا بديار قوم صالح في غزوة تبوك. وأمرهم أن يستقوا منها ويهريقوا ما استقوا من غيرها من تلك الآبار. قال العلماء : وقد علمها بالوحي.^(٦)

(١) راجع : في ظلال القرآن ، ج ٨ ، ص ٢١٢ وج ١٩ ، ص ٩٢.

(٢) القمر ٥٤ : ٢٧-٢٨.

(٣) الشعراء ٢٦ : ١٥٦-١٥٧.

(٤) مجمع البيان ، ج ٤ ، ص ٤٤٠.

(٥) الشعراء ٢٦ : ١٤٦-١٤٨.

(٦) راجع : تفسير المنار ، ج ٨ ، ص ٥٠٢-٥٠٣. وشطب على ما ورد في الروايات من أوصاف في خلق الناقة وفصيلها .

حديث سدوم!

كان أهل سدوم وهم قوم لوط ذوي أخلاق رديئة لا يتعففون من منكر يأتونه على رؤوس الأشهاد ، كما قال تعالى على لسان لوط وهو يعظهم ويؤنبهم : ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾^(١) وقد شاعت عنهم المنكرات وارتكاب الفواحش والمظالم بحيث سارت بها الركبان وضرب بهم المثل في كل عمل قبيح.

جاء في بعض كتب الأدب العبري : أنّ سارة زوج إبراهيم أرسلت إلى لعازر كبير عبيد إبراهيم ليأتيها بسلامة لوط. فلما دخل مدينة سدوم لقيه رجل من أهلها فعمد إلى لعازر بحجر ضربه به في رأسه فأسال منه الدم ، ثمّ تعلّق به الرجل قائلاً : إنّ هذا الدم لو بقي في بدنك لأضرّك ، فقد نفعتك بإخراجه ، فأعطني أجري! فترافعا إلى القاضي فحكم على لعازر بإدانته الأجر. فلما رأى لعازر ذلك من القاضي ، عمد إلى حجر فضرب به رأسه وأسال دمه وقال له : الأجر الذي وجب لي عليك بإسالة دمك ، ادفعه إلى ضاري جزاء لضربه إيتاي. وإلى ذلك يشير المعري :

وأيّ امرئ في الناس ألفى قاضياً ولم يمسّ أحكاماً لحكم سدوم^(٢)

فلما أن طغى عصيانهم وجاوزوا الحدّ أخذهم العذاب ودمّروا تدميرا ، سنّة الله جرت في الخلق ، وقد أكّد عليه القرآن ، وليس عن صدفة كما زعمه أصحاب الفكر الإسلامي الحديث! قال تعالى : ﴿فَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾^(٣). ذكر ذلك تعالى بعد أنّ قصّ حديث قوم نوح وعاد وثمرود. وقوم إبراهيم وقوم لوط ، وأصحاب مدين وفرعون وموسى ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ. ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾^(٤).

وتلك خرائب قرى لوط (بأرض فلسطين . على ضفاف البحر الميت) لم تزل

. وتفصيل لم يصحّ شيء منها بل وآثار الوضع والمبالغة فيها لائحة! والحديث رواه البخاري في كتاب الأنبياء من جامعه ، ج ٤ ، ص ١٨١ ، باب ما ورد في ثمود.

(١) العنكبوت ٢٩ : ٢٩ .

(٢) راجع : قصص الأنبياء للنجّار ، ص ١١٢ .

(٣) الحج ٢٢ : ٤٥ .

(٤) الحج ٢٢ : ٤٤ .

مشهودة للعرب المعاصر لنزول القرآن في رحلاتهم إلى الشام صباحا ومساء ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ﴾^(١). يرون ديارهم التي عفت وأضحت خرابا يبابا! ألا فليعتبروا ويحذروا أن يصيبهم مثل ما أصابهم ، إن تمادوا في الغي والضلال البعيد!

أصحاب الكهف والرقيم!

قصّة أصحاب الكهف ، تعرض نموذجا للإيمان في النفوس المؤمنة. كيف تطمئنّ به ، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها ، وتلجأ به إلى الكهف حين يعزّ عليها أن تعيش به مع الناس. وكيف يرضى الله هذه النفوس المؤمنة ، ويقيها الفتنة ، ويشملها بالرحمة. وفي القصّة روايات شتى وأقاويل كثيرة. فقد وردت في بعض الكتب القديمة وفي الأساطير بصور شتى. ولكن يجب الوقوف فيها عند حدّ ما جاء في القرآن ، فهو المصدر الوحيد المستيقن. ولتطرح سائر الروايات والأساطير التي اندست في التفاسير بلا سند. وبخاصّة أنّ القرآن الكريم قد نهي عن استفتاء أحد فيهم ، وعن المراء والجدل رجما بالغيب ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَنَفِثَ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾^(٢). والكهف : المغارة الواسعة. والرقيم ، قيل : إنّ معرّب «أركه ekra» اليونانيّة أحد أسماء مدينة «بطرا»^(٣) هي قصبة الأنباط. كانت مدينة صخريّة قائمة في مستو من الأرض ، تحيط بها الصخور كالسور المنيع ، وهي واقعة في «وادي موسى» عند ملتقى طرق القوافل بين «تدمر» و «غزة». وقد عمرت في إبّان دولة الأنباط وكثرت فيها الأبنية ، فلمّا ذهبت الدولة تحرّب معظمها ، وبقي منها إلى الآن أطلال لا تفنيها الأيام ولا يؤثّر فيها الإقليم. منها «خزنة فرعون» وهي بناء شامخ منقور في صخر ورديّ اللون ، على وجهته نقوش وكتابات بالقلم النبطي ، وبجانبها مسرح منقور في الصخر أيضا ، ويستطرق من هناك إلى

(١) الصافات ٣٧ : ١٣٧ - ١٣٨.

(٢) الكهف ١٨ : ٢٢.

(٣) يقول عنها العرب : البتراء ، مدينة أثرية في الأردن ، هي سلع القديمة أو الصخرة. أهمّ آثارها قصر فرعون والبوابة الأثرية والمسرح الكبير وقيور بيترا وهيجر.

سهل واسع فيه عشرات من الكهوف الطبيعيّة أو المنقورة ، ول بعضها وجهات منقوشة وجدران أكثرها ظهورا مكان يقال له «الدير». وكانت هذه الكهوف مساكن الحوريّين القدماء ، ويلجأ إليها اليوم بعض المارّة ، فرارا من المطر أو البرد.

ومدينة بطرا ، أو الرقيم أنشأها الأنباط . في الجنوب الشرقي من فلسطين . مدينة عربيّة قبل القرن الرابع قبل الميلاد ، وظلّت قائمة إلى أوائل القرن الثاني بعده ، إذ دخلت في حوزة الرّومان سنة ١٠٦ م.

وبطرا لفظ يوناني معناه الصخر . وقد سمّي البلد بذلك لأنّ مبانيه منحوتة في الصخر ، واسمها القديم سلع وسالع . ويعني أيضا الصخر . ولا زالت أطلاله إلى اليوم في وادي موسى في الأردن ، ويسمّى أيضا وادي السيق.

والعرب شاهدوا آثار هذه المدينة بعد الإسلام وسمّوها «الرقيم» وهو تعريب أحد أسمائها اليونانية ، لأنّ اليونانيّين كانوا يسمّونها أركه . كما تقدّم . فحرّفه العرب وقالوا : الرقيم. ^(١)

وقال المقرئ في عرض كلامه عن التيه : «إنّ بعض المماليك البحريّة هربوا من القاهرة سنة ٦٥٢ هـ فمرّت طائفة منهم بالتيه فتأهوا خمسة أيّام ، ثمّ تراءى لهم في اليوم السادس سواد على بعد فقصدوه ، فإذا مدينة عظيمة لها سور وأبواب كلّها من رخام أخضر . فدخلوا بها وطافوا ، فإذا هي قد غلب عليها الرمل حتّى طمّ أسواقها ودورها ، ووجدوا بها أواني وملابس . وكانوا إذا تناولوا منها شيئا تنثر من طول البلى ، ووجدوا في صينيّة بعض البرّازين تسعة دنانير ذهباً عليها صورة غزال وكتابة عبرانية . وحفروا موضعا فإذا حجر على صهريج ماء ، فشربوا ماء أبرد من الثلج . ثمّ خرجوا ومشوا ليلة فإذا بطائفة من العربان ، فحملوهم إلى مدينة الكرك ، فدفعوا الدنانير لبعض الصيارفة ... ودفع لهم في كلّ دينار مائة درهم ... وقيل لهم : إنّ هذه المدينة لها طوفان رمل يزيد تارة وينقص اخرى

(١) العرب قبل الإسلام ، ص ٨٣ - ٨٤ .

لا يراها إلّا تائه. ^(١)

ولعلّ في هذا الوصف اختلاطا للحقيقة بالخيال ، وأنّ الممالك شاهدوا أطلال بطرا . كما احتمله زيدان . ووجدوا الدنانير ، إقما من ضرب اليهود أو النبطيين ، وقد زار المدينة غير واحد من المستشرقين في القرن الماضي (١٩) وقرءوا ما عليها من نقوش نبطيّة. ^(٢)

من هم أصحاب الكهف؟

قد ذكر المؤرّخون والمفسّرون عن أهل الكهف شيئا كثيرا ، أورده الطبري في التاريخ وفي تفسيره ، ويتّفق أكثر الروايات على القول بأنّ عددا من الفتية نبذوا عبادة الأوثان واعتنقوا التوحيد في مدينة «أبسس» ^(٣) ثمّ فرّوا من تلك المدينة وأووا إلى كهف وكان معهم كلب عجزوا عن إبعاده ، وناموا في هذا الكهف. ثمّ جاء الملك الوثني داقبوس (ويسمّى أيضا داقينوس وداقيانوس) ومعه أتباعه للقبض عليهم ، ولكن لم يستطع أيّ واحد منهم دخول الكهف ، فبنوا عليهم باب الكهف ليموت الفتية جوعا وعطشا ، ونسي الناس أمرهم بعد ذلك.

وفي يوم من الأيام بعث أحد الرعاة برجاله وأمرهم بفتح فم الغار ليتّخذ حظيرة لغنمه ، ولما دخلوا لم يروا أوّل الأمر الفتية الذين بعثهم الله في الأجل الذي ضربه ليقظتهم. وعند ما استيقظوا كانوا لا يزالون يملؤهم الفزع والرعب من الخطر الذي نجوا منه ، فعمدوا إلى الحيطّة وبعثوا بأحدهم إلى المدينة ليشترى لهم طعاما. ولم يعرف بائع الطعام النقود التي دفعها إليه الفتى ، فساقه إلى الملك وهناك تبين كلّ شيء : فقد نام الفتية ثلاثمائة سنة وتسعا ، وكانت الوثنيّة قد انقرضت خلال هذه المدة وحلّ محلّها التوحيد ، وفرح الملك بأصحاب الكهف فرحا عظيما ، لأنّ بعثهم أيّد عقيدة دينية كان البعض يشكّ في صحتّها ، وهي أنّ الناس يبعثون كما هم بالجسد والروح معا.

(١) الخطط المقرّبة ، ج ١ ، ص ٣٧٦.

(٢) العرب قبل الإسلام ، ص ٨٥.

(٣) بلدة رومانيّة من ثغور طرسوس بين حلب وأنطاكية.

ولم يكّد الفتى يعود إلى الكهف ثانية حتى ضرب الله على آذانهم مرّة أخرى. فجاء الناس وشيّدوا هناك . على المغارة . مسجدا ، تبرّكا بهم.

* * *

وهنا عدة أسئلة أخرى :

ما هي تلك المدينة التي هرب منها الفتية ولجئوا إلى الكهف؟

يقول ابن عاشور : والذي ذكره الأكثر أنّ في بلد يقال له : «أبسس» . بفتح الهمزة وسكون الباء وضمّ السين ، بعدها سين أخرى . وكان بلدا من ثغور طرسوس ^(١) بين حلب وبلاد إرمينية وأنطاكية.

قال : وليست هي «أفسس» بالفاء ، المعروفة في بلاد اليونان بشهرة هيكل المشتري فيها ، فإنّها من بلاد اليونان ، وقد اشتبه ذلك على بعض المؤرّخين والمفسّرين ، وهي قريبة من «مرعش» ^(٢) من بلاد إرمينية. ^(٣)

وأبسس هذه هي مدينة «عريسوس» ^(٤) القديمة في «كبادوشيا» ، وكانت تسمّى أيضا «أبسس». وتسمّى اليوم «بريوز». ^(٥)

فهل كانت مدينة «أبسس» هذه هي المسرح الذي وقعت فيه تلك الحوادث بما فيها من غرائب؟

أمّا «ده غوى» فيؤيّد هذا الرأي معتمدا على براهين استمدّها من النصوص. وفي الحقّ إنّ بعض الرّحالة قالوا : إنّهم رأوا في مدينة «أبسس» هذه كهفا كان به جثث ثلاثة عشر رجلا قد يبست. ^(٦)

قال ياقوت : أبسس ، اسم لمدينة خراب قرب «أبلستين» من نواحي الروم. يقال :

(١) مدينة في جنوبي تركيا الآسيوية (فيليقيا). وفيها ولد بولس وفتحها المأمون سنة ٧٨٨ م وفيها دفن.

(٢) مدينة في جنوب تركيا على حدود سورية.

(٣) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ، ج ١٥ ، ص ٢١.

(٤) عريسوس : بلد من نواحي الثغور قرب المصيصة (مدينة على شاطئ نهر جيحان قرب طرسوس - تركيا).

(٥) دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٢.

(٦) ليس في ذلك دليل ، لأنّ العثور على جثث متبيّسة في الكهوف ، كان أمرا شائعا ذلك العهد. ووجد من ذلك الكثير وليس هذا وحده.

منها أصحاب الكهف والرقيم. وقيل : هي مدينة دقيانوس. وفيها آثار عجيبة مع خرابها. ^(١)
 وفوق هذا فقد تضمّنت مجموعة النصوص المتعلّقة بتاريخ السلاجقة ما ينصّ على أنّ «عريسوس» هي مدينة أصحاب الكهف والرقيم. وربما كان
 اكتشاف هذه الجثث الثلاث عشرة هو الأصل لهذا القول ، ثمّ حرّف الناس «أبسس» فيما بعد إلى «أفسس»؟ ^(٢)
 وقيل : هي البتراء (بطرا) مدينة أثرية في الأردن وفيها المسرح الكبير ، حسبما تقدّم. ولعلّه المراد فيما اثر عن ابن عباس ، قال : الرقيم ، واد دون
 فلسطين قريب من أيلة. ^(٣)

* * *

متى كان هذا الهروب واللجوء؟

والأكثر على أنّه كان بعد ظهور النصرانيّة ولعلّه في بدايتها. كانت الديانة النصرانيّة دخلت في تلك الجهات ، وكان الغالب عليها دين عبادة
 الأوثان على الطريقة الروميّة الشرقيّة قبل تنصّر قسطنطين. فكان من أهل «أبسس» نفر من صالحى النصارى يقاومون عبادة الأصنام ، وكانوا في زمن
 الإمبراطور «دقيانوس» الذي ملك في حدود سنة ٢٣٧ م.
 وكان متعصّبا للديانة الرومانيّة وشديد البغض للنصرانيّة ، ولذلك توعّدهم بالتعذيب ، فاتّفقوا على أن يخرجوا من المدينة إلى جبل بينه وبين المدينة
 فرسخان يقال له : «بنجلوس» أو «أنخيلوس».
 وتقول الروايات إنّ الملك الوثني الذي اضطهد النصارى كان يسمّى «دافيوس» الذي ملك ما بين (٢٤٩ - ٢٥١ م). أمّا الملك النصراني الذي
 بعث الفتية في عهده فهو الملك «تيودوس» الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠ م). فتكون مدّة مكوثهم في الكهف ما يقرب من (٢٠٠) سنة ، وهذا لا يتّفق مع ما
 ورد في القرآن من أنّ أصحاب الكهف ﴿لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾!؟ ^(٤)

(١) معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٣.

(٢) دائرة المعارف الإسلاميّة المترجمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٣.

(٣) الدرّ المنثور ، ج ٥ ، ص ٣٦٢. وأيلة : ميناء أردني في شمال العقبة على البحر الأحمر يقوم على انقاض أيلة الرومانية.

(٤) الكهف ١٨ : ٢٥. راجع : دائرة المعارف الإسلاميّة المترجمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٢.

يقول الدكتور عبد الوهاب النجار . معلقاً على ذلك في الهامش . : الذي ألاحظه ، أنّ عبارة دائرة المعارف الإسلامية كعبارة أكثر المفسرين ، تعتبر أنّ قوله تعالى ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ خبر عن مدّة مكث أهل الكهف في كهفهم منذ دخوله إلى أن استيقظوا! ولكي أفهم غير ذلك وأقول : إنّ قوله ﴿وَلَبِثُوا ...﴾ معمول لقوله ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ ...﴾ فهو من مقول السائلين وليس خبراً من الله تعالى ، ولذا أتبع ذلك القول بقوله ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. وكذا هنا أتبع قوله ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ ...﴾ بقوله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾.

فالقرآن ساكت عن عددهم وكذا عن مقدار لبثهم ، إذ لا غرض يترتب على الهدف الذي ساقه القرآن.

وقد ورد هذا القول عن ابن عباس وتلميذه قتادة.

قال ابن عباس : إنّ الرجل ليفسّر الآية يرى أنّها كذلك ، فيهوي أبعد ما بين السماء والأرض!

ثمّ تلا : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ...﴾ قال : لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله : ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ ، لكنّه حكى مقالة القوم في العدد وفي المدّة ، وردّ عليهم بأنّه تعالى أعلم.

وقال قتادة : في حرف (أي قراءة) ابن مسعود : وقالوا لبثوا في كهفهم ... يعني إنّما قاله الناس ، ألا ترى أنّه قال : ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾.

وفي رواية أخرى عنه أيضاً : هذا قول أهل الكتاب ، فردّ الله عليهم ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾.^(١)

* * *

قلت : قصّة أصحاب الكهف ، حسبما جاءت في القرآن ، قصّة قديمة موعلة في القدم ، يرجع عهدها إلى ما قبل الميلاد ، ولعلّه بقرون. ولأنّها

بقضيّة يهوديّة أشبه منها أن تكون قضيّة مسيحيّة.

(١) الدرّ المنثور ، ج ٥ ، ص ٣٧٩.

روى محمد بن إسحاق بإسناده إلى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس ، قال : إنّ النضر بن الحرث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط ، أنفذهما قريش إلى أحبار اليهود بالمدينة ، وقالوا لهما : سلاهم عن محمد ، وصفا لهم صفته ، وخبراهم بقوله ، فإنّهم أهل الكتاب الأوّل وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا. فخرجوا حتّى قدما المدينة فسألوا أحبار اليهود عن النبي ﷺ وقالوا لهم ما قالت قريش.

فقال لهما أحبار اليهود : اسألوه عن ثلاث ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل ، فأرأوا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ، ما كان أمرهم؟ فإنّه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟

وفي رواية اخرى : فإن أخبركم عن الثنتين ولم يخبركم بالروح فهو نبيّ.

فانصرفا إلى مكّة ، فقالا : يا معاشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، وقصّا عليهم القصّة. فجاءوا إلى النبي ﷺ فسألوه. فاستمهلهم النبي ﷺ حتّى يأتيه الوحي ، فمكث اسبوعين حتّى نزلت الآيات بشأن أصحاب الكهف وذوي القرنين وبشأن الروح : إنّّه من أمر ربّي ولم يبيّن. (١)

وفي هذا الوصف الذي جاء في رواية ابن اسحاق ، دلالة واضحة على أنّ حديث الفتية حديث قديم يرجع عهده إلى الدهر الأوّل. وربّما يعني ذلك : العهد القديم السابق على عهد موسى وبني إسرائيل. فقد كان حديثا شائعا يتداوله أبناء الأديان القديمة وتوارثها المتأخرون ومنهم اليهود. ولعلّه كان من شعارات أصحاب الأديان ، هي معرفة هكذا قصص دينيّة فيها اضطهاد وفيها الصبر والأناة والمقاومة تجاه الإلحاد ، وفي النهاية : النصر والظفر ... فهو حديث غلبة الحقّ على الباطل ، وظهور السلام على العسف والطغيان في أيّ زمان. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾. (٢) جاءت الآية حديثا عن مواضع الأنبياء الطافرة.

إذن فقد كان حديث الفتية رمزا قديما لانتصار التوحيد على الشرك كلّ ، وشعارا

(١) مجمع البيان ، ج ٦ ، ص ٤٥١ . ٤٥٢ .

(٢) الأنبياء ٢١ : ١٨ .

لائحا بمحبّة الدين الظاهرة والدائمة على مدى الدهر.

وجاءت القصّة في الأوساط المسيحيّة بعنوان «نوّام أفسس»^(١) السبعة» نشرت لأوّل مرّة في الشرق في كتاب سرياني يرجع تأريخه إلى القرن الخامس بعد الميلاد.^(٢) ووردت عند الغربيّين في كتاب «ثيودوسيوس»^(٣) عن الأرض المقدّسة. وقصّة أصحاب الكهف مشهورة ذائعة في الآداب الشرقيّة والغربيّة على حدّ سواء.^(٤)

غير أنّ فكرة تقادم القصّة في أوساط سابقة على المسيحيّة ، قد شغلت أذهان المحقّقين ، حتّى عثر بعضهم على آثار مشابهة في مصادر يهوديّة ويونانيّة وغيرهما ، منها : قصّة «أنياس» ـ حوني ـ التي جاءت في كتاب «تعانيت» في فصول من كتاب «التلمود». وكان قد استغرق نومه ٧٠ سنة. وهكذا قصّة «هلني» والنوّام التسعة بساردينيا ، التي أشار إليه «أرسطو» ، وغير ذلك ممّا ذكره بهذا الصدد.^(٥)

حديث ذي القرنين؟

وهكذا حديث ذي القرنين ، الرجل الذي جاب البلاد وطاف المعمورة فأتى مطلع الشمس (شرقيّ الأرض) ومغربها (غربيّ الأرض) حديث قديم قد يرجع تأريخه إلى عهد بعيد. غير أنّ الذي حقّقه بعض أعلام العصر ، الأستاذ أبو الكلام آزاد الهندي ، مستمدّا من نصوص التوراة (العهد القديم) هو احتمال أن يكون هو الملك الفارسي «كورش» الكبير (٥٥٧ ـ ٥٢٨ ق. م) الذي دانت له البلاد شرقا وغربا. استولى على بلاد ماداي وآسيا

(١) مدينة قديمة في آسيا الصغرى على بحر إيجه ، تقع أنقاضها بالقرب من «سلجوق» الحاليّة (تركيا). كانت مركزا تجاريّا عامرا منذ القرن الثامن قبل الميلاد.
(٢) نشرت على يد الاسقف السرياني يعقوب السروجي (٤٥١ ـ ٥٢١ م) شاعر سرياني كبير ، ولد في «كرتم» (ما بين النهرين) ودرس في مدرسة «الرها» الشهيرة. أسقف بطنان المونوفيزي .٥١٩

(٣) بطريك الإسكندريّة (٥٣٥ ـ ٥٦٦ م). كان مونوفيزيّاً فنفي إلى القسطنطينيّة ٥٣٧. له مؤلّفات دينيّة.

(٤) راجع : دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٣.

(٥) راجع : دائرة المعارف الإسلامية الكبرى للجنوردي ، ج ٩ ، ص ١٤١.

الصغرى وبابل. وأطلق سراح اليهود من أسر البابليين وأذن لهم بالعودة إلى فلسطين وأعانهم على إحياء القدس من جديد. ومن ثمّ جاء ذكره في أسفار التوراة بإعظام وتبجيل.

وكانت تسميته بذي القرنين تعبيرا عن رؤيا رآها دانيال النبيّ عند ما كانوا في الأسر ، ^(١) وكانت الرؤيا تبشّر بخلصهم على يد ملك ذي سلطان قاهر يسطو على بلاد ميديا وفارس.

جاء في الرؤيا : «في السنّة الثالثة من ملك «بيلشاصر» البابلي ، ظهرت لي أنا «دانيال» رؤيا ... وكان في رؤياي ، وأنا في شوشان القصر الذي في ولاية عيلام. ورأيت في الرؤيا وأنا عند نهر أولاي ، فرفعت عينيّ ورأيت وإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان ، والقرنان عاليان ... رأيت الكبش ينطح غربا وشمالا وجنوبا ، فلم يقف حيوان قدّامه ولا منقذ من يده ، وفعل كمرضاته وعظم ...

ثمّ إنّ الله أن يبعث له من يعبرّ له الرؤيا ، وإذا بشبح إنسان واقف قبالة ، وسمع صوتا يقول : يا جبرائيل ، فهّم هذا الرجل الرؤيا ... فجعل جبرائيل يفسّر الرؤيا في تفصيل حتّى أتى على ذكر الكبش والقرنين ، فقال : أمّا الكبش الذي رأيته ذا القرنين ، فهو ملك ماديّ وفارس ... ^(٢) وبالفعل فإنّ «كورش» وحدّ مملكتي ماديا وفارس غربا وشمالا واستولى على بابل في الجنوب وبسط سلطانه على أرجاء البلاد.

وهكذا جاء في كتاب «إشعياء» : وأقول بشأن كورش ، إنّ خير راع اصطفيته ، وإنّّه يحقّق إرادتي ، ويجدّد بناء اورشليم ويعمر بيتي من أساس. ^(٣)

(١) ولعلّ دانيال هو قصّ على كورش رؤياه ، فتبسّر كورش بها وأخذها شعارا في ملكه تبرّكا بذلك وتقوية لسلطانه. ومن ثمّ كان قد أعجبه أن ينحت صورته على الحجر ويحمل على رأسه تاجا ذا قرنين يسطو بهما على الشمال والجنوب جميعا. وهكذا نجد تمثال كورش الذي عثر عليه في مشهد مرغاب وعلى رأسه التاج الشهير بالقرنين.

(٢) سفر دانيال ، أصحاب ٨ : ١ - ٤ و ١٥ - ٢١.

(٣) سفر إشعياء ، أصحاب ٤٤ : ٢٥ - ٢٨.

وفي الأصحاح ٤٥ : هكذا يقول الربّ لمسيحه ^(١) يعنى كورش : إنيّ منحت لك القدرة والسطوة والملك. وسوف يخضع أمامك كلّ الملوك ، ويفتح لك الأبواب كلّها وسوف تصفى لك الأرض ويذاب لك النحاس والحديد ، وتستولي على خزائن الأرض وذخائرها ، . إلى قوله . أنا أنقضته بالنصر وكلّ طرقه اسهّل. وهو يبني مدينتي ويطلق سببي ... ^(٢)

وفي الأصحاح ٤٦ جاء تشبيه كورش بالعقاب الكاسر ، ^(٣) يقول : أبعث من المشرق عقابا كاسرا ينقضّ على الأكاسرة ليحطّمهم ويفعل في الأرض ما أريد ، وسوف يتحقّق على يديه ما قضيت. ^(٤)

وكتاب إشعياء . ولعلّه عاش قبل ظهور كورش بأكثر من قرن ونصف (١٦٠ سنة). لم يؤلّف في زمن واحد. وقد أكمله بعده أنبياء متأخرون وبعضهم عاصر ظهور كورش وسقوط بابل. غير أنّ الجميع وصفوا كورش بالقدرة والسطوة الربّانيّة والذي جاء ليخلّص العباد من الظلم والجور عليهم. وهكذا فعل في خلاص بني اسرائيل وإعادة بناء البيت وقد ملك الأرض شرقا وغربا وبسط العدل فيها.

الأمر الذي يهمّنا ويرتبط بصلب البحث عن شخصيّة ذي القرنين في كتب السالفين.

وفي كتاب إرميا ، أصحاح ٥٠ : أخبروا في الشعوب وارفعوا راية الفخار ، وقولوا : أخذت بابل ، وخزي بيل ومردوخ وأوثانها وسحقت الأصنام. لأنّه قد طلعت عليها من الشمال أمة تهدم كلّ هذه البنايات وتكسر سطوتها. ^(٥)

وفي هذا التعبير جاء تشبيه الامة الفارسيّة ذلك اليوم بالشمس الطالعة والتي تبعث على العالم أشعتها للدفع والحيويّة والنشاط.

(١) أي عبده الذي اصطفاه. وهكذا يقال لعيسى بن مريم المسيح ، لأنّه النبي المختار لإسعاد أمته ، والمسيح : المبارك. حيث باركه الله وجعل في وجوده البركة واللفظ لعباده المؤمنين. وبهذا المعنى اطلق «المسيح» على كورش.

(٢) سفر إشعياء ، أصحاح ٤٥ : ١٤ . ١ نقلا بتلخيص وتوضيح.

(٣) يقال للعقاب : كاسر ، لأنّه ينقضّ على ما يصيده فيكسره كسرا.

(٤) سفر إشعياء ، أصحاح ٤٦ : ١٠ . ١١ .

(٥) كتاب إرميا ، أصحاح ٥٠ . نقلا بتلخيص وتوضيح.

وهكذا جاء التعبير في القرآن عن ذي القرنين بالعبد الصالح ، والذي منحه الله القدرة والسطوة ، لا ليستعملها في الشرّ ، بل في الخير والصالح ونشر العدل في البلاد وحماية العباد عن مظالم الطغاة.

فكانت سيرته حسنة وكانت سياسته على أساس الحكمة وقد ارتضاه الله ، فألهمه الخير ووفّقه في إسعاد العباد وإصلاح البلاد. ومن العباد ملهمون وربّما محدّثون ، وإن لم يكونوا أنبياء. الأمر الذي ينطبق على ذي القرنين بكلّ وضوح. ولعلّه هو كورش على ما جاء في العهد العتيق ، نظرا لهذا الانطباق أيضا حسب الظاهر.

وإليك وصفه على ما جاء في القرآن :

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.
- ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾.
- ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾.
- ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُتَّخَذُ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.
- ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا﴾.
- ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.
- ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا. كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾.
- ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾.
- ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.
- ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.
- ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾. ^(١)

والذي يبدو من هذه الآيات : أنّ لدى القرنين شأنًا عند الله ، وأنّه كان ملهما من عنده ، بعثه الله ^(٢) سطوة على الطغاة ونجاة للعباد في أرجاء البلاد.

وهكذا جاء في منشور كورش دعما لإحياء القدس من جديد وإطلاق سراح إسرائيل من الأسر. منوها أنّ ذلك من أمر الإله ربّ العالمين. جاء في كتاب عزرا ، أصحاب ١ : ١١ . ١ : «وفي السنة الاولى لكورش ملك فارس ، عند تمام كلام الربّ بفم إرميا ، نبّه الربّ روح كورش ملك فارس ، فأطلق نداء في كلّ مملكته ، وبالكتابة أيضا ، قائلا : «هكذا قال كورش ملك فارس : جميع ممالك الأرض دفعها لي الربّ إله السماء ، وهو أوصاني أن أبني له بيتا في اورشليم التي في يهوذا...».

وجمع الإعانة من كلّ أبناء ملكه الوسيع ، قائلا : «وكلّ من بقي في أحد الأماكن ، حيث هو متغرب ، فلينجده أهل مكانه بفضّة وبذهب وبأمتعة وببهاائم ، مع التبرّع لبيت الربّ في اورشليم.

وحتّى أنّه أرجع التراث الإسرائيلي الذي كان قد نهبه بخت نصر ، وردّه إلى البيت ، وكانت أواني من ذهب وفضّة ما يعدّ بالالوف». ^(٣)

والتعبير في هذا البيان : أنّ الربّ نبّه روح كورش. وهو الوحي بمعنى الإلهام.

وهذا يتّحد مع قوله هو : وهو أوصاني أن أبني له بيتا ... أي وقع في خلدي فعل هذا الخير. وكلّ فكرة خير إنّما هو من عند الله. كما أنّ فكرة الشرّ من الشيطان. ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾. ^(٤) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾. ^(٥)

(١) الكهف ١٨ : ٨٣ . ٩٨ .

(٢) كما بعث بخت نصر نقمة على العتاة ، في قوله تعالى : ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ الإسراء ١٧ : ٥ .

(٣) كتاب عزرا ، أصحاب ١ : ١١ . ١ .

(٤) الأنعام ٦ : ١٢١ .

(٥) الأنعام ٦ : ١١٢ .

وهذا هو إلهام الشرّ الشيطاني. أمّا إلهام الخير الرحماني ، فهو كما بشأن أمّ موسى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ...﴾. ^(١) وأوحينا بمعنى ألهمنا ، في القرآن كثير.

وهكذا «قلنا» حديثا مع ذوات الأنفس وليس مشافهة بالكلام. وليس بشأن الإنسان فحسب ، بل بشأن الحيوان والجماد ، أيضا كثير. فجاء حديثا مع أصحاب البقرة : ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. ^(٢) إذ لم يكن خطاب مشافهة ، ولا دليل على أنّه بواسطة الرسول. والمحتمل قويّا هو إحياء هذا المعنى كما في أمّ موسى.

وهكذا قوله بشأن بني إسرائيل . بعد هلاك فرعون . : ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ...﴾. ^(٣) إلقاء في النفوس بطبيعة الحال. وكان الخطاب مع النار في قوله تعالى : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ^(٤) أيضا من قبيل إحياء إرادته تعالى ، لكن تكويننا. نظير الإحياء إلى النحل والنمل وسائر الحيوان ليسلكوا سبل ربحهم ذللا.

ومن هذا القبيل قوله تعالى بشأن مرده بني إسرائيل : ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾. ^(٥) لم يكن خطاب تكليف بل خطاب تكوين. وهكذا الحديث مع الأرض والسماء في قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي...﴾. ^(٦) ﴿فَقَالَ هَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. ^(٧)

فلا غرابة بعدئذ أن يأتي بشأن الإحياء . نفسيّا . إلى عبد من عباد الله الصالحين : ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا. قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ... وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾. ^(٨) وهذا عند ما سار كورش متوجّها في فتوحاته نحو الغرب لتسخير بلاد ليديا ، ^(٩)

(١) القصص ٢٨ : ٧.

(٢) البقرة ٢ : ٧٣.

(٣) الإسراء ١٧ : ١٠٤.

(٤) الأنبياء ٢١ : ٦٩.

(٥) البقرة ٢ : ٦٥.

(٦) هود ١١ : ٤٤.

(٧) فصلت ٤١ : ١١.

(٨) الكهف ١٨ : ٨٦ . ٨٨.

(٩) مملكة قديمة غربيّ آسيا الصغرى ممّا يلي بحر إيجه. كانت قاعدة ملكها مدينة «سارد» الزاهية بفخامتها يوم ذاك.

فوقع ملكها «كرزوس» أسيرا في يد كورش ، وكان قد تأمر ضده مع سائر الدول للقضاء على امبراطورية فارس ، ولكنه فشل ووقعت بلاده طعمة رخيصة للملك الفارسي ، ومن ثم حاول إحراقه بالنار ، لكنه ساحمه وعفى عنه ، حسب دأبه مع سائر أمراء البلاد الذين بغوا عليه وأصفح عنهم.

وبذلك نرى الآيات لعلها تتصادق مع ما سجله التاريخ بشأن كورش. فقد قويت شوكته بعد أن وحّد فارس ماديا بعد الاستيلاء على «إكباتان» (همدان ـ اليوم). فذهب متوجّها نحو الغرب لإخضاع مناوئيه هناك (ليديا). الأمر الذي يتصادق مع قوله تعالى : ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ (بتوحيد بلاد فارس وماديا) ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (أي علما بطرق الفتح والظفر على الخصوم) ^(١) ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ (هي الضفة الغربية من آسيا الصغرى ، حيث بلاد ليديا ، تركيا الحالية) ﴿وَجَدَهَا﴾ (أي الشمس) ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ حيث بحر إيجه ويسمى بحر المغرب ، وبحر مرمرة وعلى امتدادهما البحر الأسود ، وكلها تضرب بالسود ، كأنه الوحل. والحماة : الطين الأسود. وكانت الشمس تغرب على آفاق تتاخم تلك البحار الضاربة لونها إلى السود.

وهكذا سار كورش (ذو القرنين) بجيوشه نحو مغرب الشمس (غربي بلاد فارس ـ آسيا الصغرى) حتى أوقفه البحر ، ولم يكن من شبر أمامه من يابس . في مسيرته تلك !. فما ذا بعد قرص الشمس المحتقن وقد تخضّب بحمرة كأنه ينزف ما فيه من طاقة ... ما ذا بعد قرص الشمس وقد اصفرّ واحتضر وتضاءل عند الافق ، ثم هوى وسقط غارقا في العين الحمئة ... ^(٢) في خليج «إزمير» ، ^(٣) بين الماء والطين الأسود العكر اللذين يسكبهما نهر «جيديس»؟

لقد رأى كورش (ذو القرنين) في هذا المشهد ما يشدّه إلى الخالق الأعظم ، مالك

(١) عن قتادة والضحاك : علما يتسبّب به إلى تحقيق إرادته وبلوغ مآربه. وعن الجبائي : كل شيء يستعين به الملوك على فتح البلاد والظفر على الأعداء. مجمع البيان ، ج ٦ ، ص ٤٩٠.

(٢) والعين ـ هنا ـ : لجة الماء وعبابه المتموّج ، فيتراءى للناظر على ساحل البحر كأنّ الشمس تغرب في عبابه ، كما أنّ الناظر إليها وهي تغرب في البرّ ، كأنّها تغرب في أرض ملساء.

(٣) هي «سميرنا» (enrymS) القديمة ، مرفأ عظيم في تركيا على بحر إيجه.

السماء والأرض ومسيّر الأفلاك القابض الباسط العظيم المتعال.

لقد تضاعل . رغم ملكه العريض . أمام سقوط الشمس في عين حمئة ، حيث أظلمت الدنيا بعدها ، فعرف أنّ لكلّ شيء نهاية ، وكلّ شيء هالك إلا وجه الله الكريم. لقد توصّل كورش . بما لديه من خلفيّة روحية استمدّها من زرادشت . إلى حقيقة البعث والممات ، وعظمة الله في الآفاق.

هذا هو شعب ليديا قد صار في قبضته ، فما ذا يفعل بهم؟

لقد منح الله ذا القرنين حريّة اختيار العفو عنهم أو تأديبهم والتنكيل بهم ... واختار ذو القرنين العفو عمّن تاب وآمن. وقال : من كان هذا شأنه فسمح وعطف ويسر وتكرّم وأمان ورحمة. ومن كفر وطغى وتجبر فضرب بالأعناق وعنف وتأديب.

قال تعالى : ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا. قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ... قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

(١)

نحو مغرب الشمس!

نعم قام كورش بحملة نحو المغرب (غرب بلاد فارس) حيث مغرب الشمس بالنسبة إليهم.

والشمس لا تغرب في مكان محدد تهوي إليه حتّى الصباح الثاني. وإنّما أيّ مكان في الكرة الأرضيّة تغرب فيه الشمس عند الافق يسمّى مغرب الشمس ، وبالتالي فمغرب الشمس شيء نسبيّ ... قد يراه ابن الصحراء وراء التلال ، وهو بالنسبة له مغرب الشمس ، وقد يراه ابن السهل الساحلي شاطئ البحر ، وقد يكون سطح البحر المنحني مغرباً للشمس في نظر الرائي ، وما هي . آنذاك . إلّا مشرقة عند قوم آخرين.

(١) الكهف ١٨ : ٨٦ - ٨٨.

وتؤخذ لحظة الغروب عند ما يقع الافق على منتصف قرص الشمس تماما ، ونقول ساعتها : هذا مغرب الشمس!
 فإذا قلنا : إنّ كورش توجه نحو مغرب الشمس ، فمعنى ذلك أنّنا نقول : إنّ مسار الحملة كان صوب الغرب.
 فإذا كان كورش . ملك فارس الكبير . يقيم في «أنشانا . خوزستان الحالية» على خط طول (٥٠ ش) فإنّ اتجاهه صوب المغرب يعني حملته على «ليديا . تركيا حاليّا».

بعد أن انتصر كورش على الميديّين ودخل عاصمتهم «همدان» ، ساد الوجوم والانزعاج ربوع أعظم الممالك قاطبة ذلك الحين : مملكة مصر الفرعونيّة ، مملكة الليديين (ليديا) ومملكة البابليّين . وجرت بينهم مفاوضات لتحقيق الاتحاد بينهم لمواجهة كورش ، وكانت مملكة ليديا (تركيا الآن) أخوف الثلاثة وأحرصهم على تحقيق هذا الاتحاد العسكري ، رغم أنّ ملكها «كرزوس» كان قد بذل أقصى جهوده لازدهار ليديا حتى صارت عاصمتها «سارد» يقال عنها بسارد الذهبية.

وقد بلغ الاضطراب بملك ليديا درجة أنّه كان يتوقّع هجوم كورش على بلاده بين لحظة واخرى ، ومن ثمّ جهّز الملك الليدي نفسه ، فدخل في مفاوضات مع اسبراطة (إحدى الدول اليونانية) وضمّها إلى حلفه واتّحدت بابل ومصر كذلك معه وسارت الجيوش نحو كورش في إيران. ^(١)

يقول الاستاذ خضر : لم يكن كورش . إذن . معتديا ولا سقّاحا ولا طامعا في ملك أحد. ^(٢)

أمّا الجيوش التي سارت نحو كورش فلم تكن جيوش الحلفاء جميعا ، فالملك «نبونيد» ملك بابل لم يكن ليجسر على القيام بأيّ حركة ، لخوفه من انتقام الفرس . والأسبارطيون وعدوا بالمساعدة ولكنّهم تقاعسوا عن العمل ، متمسّكين بسياسة العزلة التي ظلّوا دوما يتّبعونها. أمّا ملك مصر (آماسيس) الذي أدرك خطر الفرس على بلاده فقد

(١) تاريخ إيران ، ص ٦٤ . ٦٥ .

(٢) مفاهيم جغرافية ، ص ٢٤١ .

رضي بإرسال جيش صغير بطريق البحر. ولكن ملك ليديا «كرزوس» لم ينتظر وصول النجدات من حلفائه ، بل أسرع بالهجوم وعبر نهر «هاليس» (قزل أرماق) وضرب البلاد التي في طريقه.

وفجأة اصطدم بجيش كورش عند مدينة «بترية» أو «بتريوم». العاصمة القديمة للحيثيين .^(١) ودارت رحى حرب ضروس بين الجيشين ... واضطرّ الملك الليدي إلى الانسحاب غربا حتّى حدود مملكته.

واندفع كورش نحو «مغرب الشمس» متقدّما بسرعة وباغت جيش ليديا عند أسوار العاصمة (سارد) أو (سارديس) فسحق الجيش الليدي منذ الحملة الاولى ووقع الملك الليدي أسيرا وجميع قادة جيشه وجنوده سنة ٥٤٦ ق. م.^(٢) وهنا يأتي دور الآية الكريمة : ﴿فُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا...﴾.^(٣)

قال الدكتور خضر : كان العالم القديم آنذاك قد تعوّد من الملوك الفاتحين المنتصرين تدمير البلاد المقهورة التي تخرج مغلوبة مهزومة من المعارك الحربيّة ... ولكن كورش عامل كرزوس بالحسنى . وفقا للآية الكريمة . كما كانت شيمته الكريمة مع سائر الملوك المغلوبين ، كان يعاملهم الحسنى ، كما فعل بملك ماد وملك أرمنستان وغيرهما.^(٤)

ويذكر هيرودوت أنّ كورش كان يودّ . في بداية الأمر . أن يختبر صلابة الملك الأسير وإيمانه فأمر بإضرام النار ليلقى فيها ، ثمّ عدل عن ذلك . رأفة ورحمة به . وزاد من إكرامه وتعزيزه ، وبلغ من إكرامه أن اتّخذ مستشارا كان يستشير به في مهمّ اموره.^(٥) وأما بقيّة رواية هيرودوت من إلقاء الملك الأسير . فعلا . في النار ، ثمّ عنّ له . لبادرة بدرت من كرزوس . فأمر بإنجائه وذويه من النار ... فإنّ المحقّقين من أرباب

(١) الحيثيون (هيتي itih . ahl) من الأقوام القديمة منذ (١٨٠٠ ق. م) كانوا يسكنون شرقيّ آسيا الصغرى ممّا يلي البحر الأسود شمالا ، وجبال «توروس . كيليكية» ، ونهر الفرات شرقا ، ونهر «هاليس . قزل إيرماق ، الحاليّة» غربا . واسم بلادهم «كاپادوكيه» معرّب «قباد وقيا» . وأسّسوا حضارة راقية . وكانت عاصمة بلادهم «بتريوم» المعروفة اليوم ببوغازكويي .

(٢) تاريخ إيران ، ص ٦٤ . ٦٥ .

(٣) الكهف ١٨ : ٨٦ .

(٤) مفاهيم جغرافية ، ص ٢٤٢ .

(٥) تاريخ هيرودوت ، ترجمة الوحيد المازندراني ، الكتاب الاول ، ص ٥٣ . ٥٥ .

التاريخ المعاصرين ، لا يتوافقون على صحّته ، إذ كان متنافيا مع معتقدات الفرس آنذاك ، حيث تقديسهم لجانب النار وأن لا تتلوّث بالأقذار ، فضلا عن مخالفته لشيمة ملوك الفرس عامّة من اتّخاذ طريقة الرأفة بالاسراء الملوك والأخذ بجانب حرمتهم بالذات.

ولعلّ هيرودوت أخذ هذه القصّة من قصّاصين قبله وسجّله في كتابه من غير تحقيق. ^(١)

بعد ذلك واصل كورش زحفه غربا في آسيا الصغرى لإخضاع المستعمرات اليونانيّة . وكانت قد رفضت التحالف مع كورش في حربه مع ملك ليديا . كما كان من الطبيعي بعد انتصاره على الليديين أن يفكر كورش في الوصول إلى بحر إيجه (غرب ليديا) الذي تحتاج إليه الإمبراطوريّة الفارسيّة لتسهيل مصالحها التجارية العالميّة ، وكانت المدن الأيونيّة (المستعمرات اليونانية) على شواطئ هذا البحر مشهورة بغناها ، ولكنّها منقسمة على بعضها وبالتالي كانت ضعيفة ، فكانت تؤلّف غنائم سهلة التناول تغري الفاتحين.

وكانت مباغتة فجيلة لليونانيين على شواطئ آسيا الصغرى عند ما رأوا الجيوش الفارسيّة الجرّارة تطبّق عليهم جميعا وتستولي بحملة واحدة على مدّهم كلّها على سواحل بحر إيجه.

هذا هو ذا قد بلغ كورش مغرب الشمس بالنسبة لبلاده ، لقد صار على حافة البحر الأبيض المتوسّط ، فأين العين الحمئة إذن؟؟

وجدتها تغرب في عين حمئة!

حين توقّف كورش عند شواطئ بحر إيجه . وهي جزء من سواحل تركيا على البحر المتوسط . وجد الشاطئ . كما هو معروف في الخريطة . كثير التعاريج ، حيث تتداخل ألسنة البحر داخل اليابس ، ومن أمثلة هذه الألسنة البحريّة خليج هرمس

(١) راجع : تاريخ إيران ، ص ٦٦ ؛ ومفاهيم جغرافيّة لعبد العليم خضر ، ص ٢٤٢ .

ومندريس الأكبر ومندريس الأصغر ، ويتعمّق خليج «إزمير» إلى الداخل بمقدار (١٢٠ ك. م) تحيط به الجبال البللورية التي سمّاها «فيلبسون nosppilihP» : «العين اللبديّة الكارية»^(١) حيث تحيط هذه الجبال من الغرب إلى الشرق حافتي هذا اللسان البحري الذي يتخذ شكل العين ، ويصبّ فيه نهر «غديس» المياه العكرة المحمّلة بالطين البركاني والتراب الأحمر ، من فوق هضبة الأناضول التي تنحدر ببطء نحو الغرب قبل أن تصل إلى الحافة الغربيّة ، ولذلك تزيد سرعة جريان نهر «غديس» في اتجاه السهل الساحلي المتقطّع في شكل خلجان وأخوار^(٢) وأجوان لا حصر لها ، حتّى يصل مستوى قاعدة بحر إيجه ، حيث يصبّ في خليج «إزمير» الغارق بين قمم الجبال المحيطة به بارتفاع يتراوح بين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ متر.

وحين وقف كورش ذو القرنين عند «سارد» قرب إزمير تأمل قرص الشمس وهو يسقط عند الغروب في هذا الخليج الذي يشبه العين [الكبيرة] تماما واختلطت حمرة الغسق بالطين الأحمر والأسود الذي يلفظه نهر «غديس» في عين خليج إزمير.

ونرجّح أن تكون تلك هي العين الحمئة التي ذكرها القرآن.

وهكذا ورد في التفسير : العين الحمئة ، هي عباب الماء ولجّته المليئة بالوحل ، أي الطين الأسود الفاحم.

روى عبد الرزاق بإسناده إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي عن عثمان بن حاضر الحميري الأزدي (أبو حاضر القاصّ ، شيخ من أهل اليمن مقبول صدوق وذكره ابن حبان في الثقات) ،^(٣) قال : قال لي ابن عباس : لو رأيت إلّ وإلى معاوية ، وقرأت : ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ (أي وحلة) وقرأ : «حامية» (أي دافئة). فدخل كعب فسأله معاوية ، فقال : أنتم أعرف بالعربيّة ، ولكنّها تغرب في عين سوداء.

(١) يقال : كرى البئر أي طواها بالشجر. وكرى الأرض : حفرها.

(٢) جمع خور : المنخفض من الأرض بين النشزين ، تجتمع فيها المياه بصورة أحواض طبيعيّة في السهول.

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر ، ج ٧ ، ص ١٠٩ ، رقم ٢٣٥. روى عن ابن عباس وابن الزبير وجابر وأنس ، وعنه الخليل وخلق كثير.

وفي رواية : قال ابن عباس لمعاوية : في بيتي نزل القرآن. لكنّه أرسل إلى كعب وسأله ، فقال : كعب : سل أهل العربيّة فإنّهم أعلم بها. ثمّ فسّرها بماء وطن.

قال أبو حنبل : لو أنّي عنديما أيّدتك بكلام وتزداد به بصيرة في «حمّة»! قال ابن عباس : وما هو؟ قال : فيما نأثر قول الشاعر . وهو تبع اليماني . فيما ذكر به ذا القرنين في كلفه بالعلم واتباعه إيّاه :

قد كان ذو القرنين عمرو مسلما ملكا تدين لـه الملوك وتحشد
فأتى المشارق والمغارب يتغني أسباب ملك من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند مغابها في عين ذي خلـب وثأط حرمـد

فقال له ابن عباس : ما الخلب؟ قال : الطين ، بلسانهم (أي الحمير). قال : فما الثأط؟ قال : الحمأة (الوحل وهو الطين الرقيق الأسود). قال : فما الحرمد؟ قال : الأسود. ^(١) فدعا ابن عباس غلاما أن يأتي بالدواة ، فقال له : اكتب ما يقوله الرجل. ^(٢)

قال الدكتور خضر : والبحث العلمي الجغرافي تتبّع نشأة المدن القديمة على خليج إزمير ، مثل «أفسوس» و «ملطية» فوجد أنّ هذه الحمأة السوداء التي كانت تعكر خليج إزمير حين نظر كورش إلى الشمس وهي تغرب في هذا الخليج ، هي الرواسب التي سدّت جانبا كبيرا من هذا الخليج ، وبعد أن كانت «أفسوس» و «ملاطيّة» . وكانت ميناءين في الزمن القديم . صارتا تقعان اليوم على بعد بضعة كيلومترات من البحر . كما أنّ ميناء «إزمير» نفسه لم ينج من الامتلاء وبرواسب الطين التي كان يجلبها نهر «غديس» إلى الشمال منه بقليل . وأخيرا اضطرت الحكومة التركيّة إلى تحويل مياه

(١) الحرمد أو الحرمد : المتغيّر اللون والرائحة. يضرب إلى السواد الفاحم.

(٢) راجع : تفسير عبد الرزاق ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ . ٣٤٥ ، رقم ١٧١٢ و ١٧١٣ ؛ وتفسير ابن أبي حاتم ، ج ٧ ، ص ٢٣٨٣ ، رقم ١٢٩٤٧ . ١٢٩٤٨ ؛ والدّر المنثور ، ج ٥ ، ص ٤٥١ ؛ وتفسير القرطبي ، ج ١١ ، ص ٤٩ .

النهر بعيدا عن هذا الخليج.^(١)

ثمّ وبعد أن فرغ من أمر آسيا الصغرى . الواقعة في غربيّ البلاد . توجّه شمالا وفي شرقيّ البلاد . لإخضاع أقوام هناك كانوا قد تعسّفوا وأفسدوا في الأرض ، فحاربهم محاربة عنيفة طالّت ثماني سنوات ، حتّى ساد الأمن على تلك البلاد .
ثمّ أتبع سببا حتى إذا بلغ مطلع الشمس (شرقي البلاد) وجدها تطلع على قوم (وحش) لم نجعل لهم من دونها سترا . عن الباقر عليه السلام : لم يعلموا صنعة البيوت ^(٢) فلم يعرفوا بناية السقوف والبنيان ، سوى اللجوء إلى الأسراب وغدران المياه من حرارة الشمس . ^(٣) والمنطقة كانت صحراوية قاحلة ممتدّة من شماليّ بحر قزوين حتّى شواطئ المحيط الهندي وتشمل بلاد «مكران . سيستان وبلوجستان» . وظلّ كورش يعالج إخضاع تلك الأقوام خلال ثمانية أعوام .
(٤)

وقد دلّت الدراسات التي اجريت على قياس الجنس الإنساني سنة ١٩٠١ م بالهند قبل التقسيم وحين كانت صحراء غيدروسيا (مكران ، بلوجستان ، سيستان) تابعة لها على حدود إيران وأفغانستان ، على أنّ السكّان ينتمون إلى الجنس التركي الإيراني الذي يتّسم بقصر القامة على العموم . ومعظمهم من ذوي الرؤوس العريضة ، ويبلغ قياس محّهم (٨٠ . ٨١) وانوفهم طويلة وشعر رأسهم ولحيتهم غزير ولون العيون والشعر أسود غالبا وبشرّهم بيّنة فاتحة وهي تميل إلى الدكنة كلّما اقتربنا من الشاطئ ...

وهذه سمات بقايا قبائل بدائيّة شرسة كانت تعيش بالإقليم منذ (٤٠٠٠) سنة ويمكن تقسيم سلالاتهم إلى البلوش . البراهوئي . الهنود والبربر .
وقسم من البلوش يعيش الآن في سهل كججهر حتّى خطّ عرض (٣١) شمالا ويقطن عدد كبير منهم السهول الجنوبيّة وشماليّ سنده وناحية يعقوب آباد . أمّا البراهوئي

(١) مفاهيم جغرافيّة ، ص ٢٣٩ - ٢٤٥ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٦ ، ص ٤٩١ .

(٣) عن الحسن وقتادة وابن جريج . والسّرب : الحفير تحت الأرض . النفق .

(٤) راجع : تاريخ إيران ، ص ٦٨ .

فيتجَمعون حول «كالات» و «كوطه» وتتسع رقعة تواجدهم لتشمل منطقة «ليس بيله». والراجح أنَّ البلوش . كما يقول علماء الأجناس البشريَّة . دخلوا صحراء مكران عن طريق كرمان وسجستان وانتشروا سريعا حتَّى حدود الهند ... وإن كان ذلك لا يزيد على درجة التكهَّن كما قيل ، وقد يكون الأقرب إلى الصواب أنَّ معظمهم كانوا من الجنس الهندي ...

وأقدم تسمية لدينا لهذه المنطقة ما عثر عليه المؤرِّخون في نقوش بهستون (بيستون) ... وهي لفظة مكيا «aikeM» كما ذكر لنا هيرودوت ... أو لفظة «snaikyM» أي بلد الميكيان التي كانت ضمن ولايات الإمبراطوريَّة الفارسية الرابعة عشرة. ويجمع هيرودوت في كلامه . في مواضع اخرى . بين الميكيان واليوتيان «snaitU» والباركانيان «snainakiraP» الذين كانوا مقاتلين كالبكتان «snatkoP» ... وعيَّن بطليموس الحدود بين الهند وفارس بحيث ترك الجزء الشرقي من «سيستان» في الهند ... ويقول أريان «nairra» : إنَّ الغيدروسيَّين أو الكيدروسيَّين (سكَّان غيدروسيا) كانوا يقيمون في الوديان الداخليَّة إلى الغرب من سيستان ، وقد سمِّي الإقليم كلّهُ باسمهم كدروسيا «كدروسيا» (غدروسيا) «aisordaC» كما ذكر مولانا أبو الكلام آزاد نفس التسمية للإقليم ...

وتتفرَّع من قبائل غيدروسيا جماعات بدائيَّة تسمَّى «الأشيوفاكوي» كانت تقطن المناطق الصحراويَّة المطلَّة على المحيط الهندي وهم من الصيَّادين القدامى ... ويمثِّلهم الآن قبائل «الميديَّة» وبعض القبائل الاخرى ...

وظلَّ غيدروسيا (مكران ، سيستان ، بلوجستان) الاسم المعترف به . لتلك الصحاري غرب الهند . في الزمن القديم ... ومن النادر أن نعثر على تسمية هيرودوت «مكيا» في الكتابات التاريخيَّة منسوبة للإقليم ...

غير أنَّنا لا ننكر بقاء استعمال هذه التسمية طوال القرون السبع الميلاديَّة الأوائل حتَّى جاء الفتح الإسلامي للإقليم في العام السابع عشر للهجرة الموافق سنة ٦٣٩ م. فقد

ذكروا لنا أنّهم وجدوا الاسم «مكيان» (مكران). وهو النطق الحالي عند البلوش.

وتقترب الصورة من الوضوح حين فسّر «مولسويرث سيكس» «htrowseluoM sekys» المقطع الأخير من الاسم منطوقا بالسنسكريتية ، على أنّه «عرانيا» ومعناها : الأرض القاحلة.

ويؤكّد «هولدخ» أنّ اسم «غيدروسيوي» هو مكران ، وهو اسم عشيرة من «لس بيلة» ... وعشيرة كدور أو «غيدور» الآن اسم عشيرة ضئيلة الشأن من أصل هندي لا يزيد عدد من بقي منها حتّى الآن على (٢٠٠٠) نسمة.

وكثيرا ما بحث العلماء في أصل اسم «بلوش» وأسماء القبائل والعشائر الرئيسة القديمة الجذور. ويرون . على الأرجح . أنّ جميع أسماء القبائل والعشائر الحديثة (الموجودة الآن) ليست إلّا منسوبة إلى السلف وليس الحال كذلك بالنسبة للأسماء الأقدم عهدا مثل الغيدروسيين ، كما أنّ بعض الأسماء الرئيسة الموجودة الآن إمّا أن تكون ألقابا أو الفاظا تدلّ على المدح أو الذمّ.

ومن الواضح أنّ الأرض القاحلة (غيدروسيا) كانت مأوى لقبائل متأخرة ، لا تعرف الزراعة ولا الاستقرار ولا بناء البيوت الثابتة حتّى ولا الخيام. وأنّهم كانوا يعيشون على الجمع والالتقاط حتّى تحين فرصة بين وقت وآخر فيغيرون على حدود الصحراء المتاخمة للأمارات الفارسية في القرن السادس قبل الميلاد.

والإقليم من الناحية الطبيعية جزء من الصحاري الحارة المتاخمة للمدارين والتي يقلّ المعدّل السنوي للأمطار فيها عن (١٠٠ م. م). ^(١) وهذا لا يسمح بنموّ غطاء نباتي واضح. والإقليم مصاب بالجفاف منذ ما لا يقلّ عن خمسة آلاف سنة قبل الميلاد. وهو نوع الجفاف المطلق ، وربما لم يجد السكّان القدامى من قبائل غيدروسيا البدائيين (زمن كورش في القرن السادس قبل الميلاد) إلّا جذور النباتات لالتهامها. فالبيئة فعلا تخلو تماما إلّا من نباتات تلاءمت للحياة في الأقاليم المناخية أو البيئات التي يسودها الجفاف أو تلك التي لا تتمتع إلّا بقسط ضئيل من الرطوبة مثل صحراء سيستان ومكران. فهذه

(١) مفاهيم جغرافية ، ص ٢٦٩.

النباتات . بما لها من تركيب خاصّ . تتحايّل على الحصول على أكبر كميّة ممكنة من الماء والاحتفاظ به . ومن ثمّ كانت الجذور أطول وأكثر تشعباً من السيقان . ولذا فقد كانت هذه القبائل تحفر في الأرض بحثاً عن هذه الجذور لتقتات بها . وعند ما كان العطش يهدّد حياة هذه القبائل كانوا يفتحون جذوع بعض النباتات الصحراوية التي تتّصف بالانتفاخ ويمتصّون ما فيها من ماء مخزون .

والبيئة . والحال هذه . تشبه تماماً ما توحى به الآية الكريمة التي عبّرت عن نمط حياة هؤلاء الأقوام المعيشيّة حيث قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سَبِيلًا﴾ . فسبحان الله أصدق القائلين ! وما أروع دقّة القرآن وشموليّته ومعالجته لهذه القضايا ، في شكل إشارات عابرة تترك للعقل البشري على تتابع العصور مهمّة الكشف والتنقيب عن تفصيلاتها واتّخاذ العبرة والموعظة الحسنة منها !

﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا﴾ .

وهي رحلة ثالثة ، كانت اولها إلى الغرب لإخضاع بلاد ليديا ، والثانية نحو الشرق شماليّ بحر قزوين لإخضاع قبائل عزّل وحش لم يعرفوا حتّى الوقاء من الشمس ، وهذه هي الثالثة نحو الشرق أيضاً ، ولكن حيث متّجه بلاد قوقاز بين بحر قزوين والبحر الأسود . ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين من سلسلة جبال قوقاز . والسدّ : الجبل الشامخ يصعب عبوره كأنّه سدّ حاجز .

﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ (وراءهما) ^(١) ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لصعوبة لغتهم ووعورة لهجتهم بحيث لم يكدر يمكن التفاهم معهم بسهولة . ينتهي هذا الطريق الذي سلّكه كورش ، إلى منطقة جبلية وعرة متضرّسة تمثّل حائطا جبليّاً طبيعيّاً عرضيّاً شامخاً يحول دون هجرات الشعوب المتوحّشة وإغارتها على من وراء الحائط الجبلي من شعوب بدائيّة مستضعفة .

(١) حسبما ذكره الرازي في التفسير الكبير ، ج ٢١ ، ص ١٧٠ .

ولكن الحائط الجبلي كان مثلما من وسطه بثغرة (مضيق جبلي) ^(١) مخيفة ، اتخذها الغزاة المتوحّشون معبرا نحو الشعوب المسالمة في زهرانيه ، حيث كانت تتعرّض باستمرار لهجمات اولئك البرابرة المتوحّشين.

كان قد قضى الملك الهخامنشي العظيم «كورش» ثمانى سنوات ^(٢) في تأديب وإخضاع قبائل غيدروسيا الهمجية في صحاري سيستان ومكران وبلوچستان ، وزحزح حدود الإمبراطورية حتّى حدود نهر «سيحون» حيث بنى مدينة باسمه على شاطئ هذا النهر ، فكانت هذه المدينة تسمّى إبان عصر الإسكندر «المدينة الأقصى الكورشي» ويعتقد أنّها مكان مدينة «اوراتّيه» الحالية.

ووجد كورش أنّه الأوان لتأديب الشعوب المتوحّشة التي كانت تغير عبر مضيق داريال في جبال قوقاز ، على شعوب إماراته الطيبة في آذربيجان وجورجيا وإرمينيا جنوب الحائط الجبلي الرهيب الذي يسمّى جبال القوقاز التي تمتدّ من بحر قزوين في الشرق عند مدينة «دريند» حتّى «سرخوم» على البحر الأسود. فتوجّه إليها سنة ٥٣٧ ق.م. وقضى بالإقليم حوالي تسع سنوات متوالية ، ^(٣) ما بين بناء السدّ عبر المضيق وتأديب قبائل الأسكوديين أو «الماساجيت» أو «يأجوج ومأجوج» على حدّ تعبير القرآن. ^(٤)

وحيث إنّ كورش قد وصل إلى الحائط الجبلي العظيم (جبال قوقاز) فهذا معناه أنّه عبر كردستان وآذربيجان وإرمينيا وجورجيا ، ووصل إلى أجزاء من داغستان ، حتّى مدينة «دريند» وما حولها ، وكذلك إقليم اوسنينا الجنوبية ، ويكون شمال هذا الحدّ حائط القوقاز الجبلي ، ذو فتحة في منتصفه تسمّى مضيق «داريال» حيث تقيم جماعات يأجوج ومأجوج ، وإلى الجنوب من هذا الخطّ الجبلي كانت تقيم جماعات مجرّدة من الحضارة ، وصفهم القرآن بقوله : ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي يعسر التفاهم معهم. هذا إن

(١) سنذكر أنّه مضيق داريال.

(٢) حسبما ذكره حسن پيرنيا : أنّه قضى تجواله العسكري في شرق وشمال إيران لمدة ٨ سنوات. تاريخ إيران ، ص ٦٨.

(٣) حسبما ذكره الدكتور عبد العليم : أنّه قضى بالإقليم حوالي تسع سنوات. مفاهيم جغرافية ، ص ٢٧٣. هذا إن قلنا بأنّها كانت بعد فتح بابل كما قيل. تاريخ إيران ، ص ٦٨.

(٤) مفاهيم جغرافية ، ص ٢٧٣.

فَسَرْنَا «من دونهما» بما قبل السدّين لا وراء كما سبق.

وقد اتخذ كورش طريقه إليهم متوجّها شمالا عبر إقليم كردستان الجبلي الوعر الذي يعتلي ظهر المرتفعات الآسيوية وسلاسل الجبال على محاورها المنتشرة في موقع يضمّ بعضا من شمال العراق وشرق أو جنوب شرق تركيا وبعضا من غرب إيران. ويسكنه الأكراد منذ سنة (٢٤٠٠ ق. م.) والإقليم به معابر مشهورة لمرور التجارة بقوافلها وفيالق الحروب بجحافلها ، وهي معابر تتّجه على محور عام يخدم الصلات والعلاقات فيما بين قلب آسيا وشرقها الأقصى وآسيا الصغرى والشام. وقد احترق الأكراد . علاوة على تمرير التجارة . حرفة الرعي واقتنوا قطعانا من الأغنام والماعز ، وعاشوا عيشة البداوة والحركة في حركات فصلية شبه منتظمة سعيًا وراء المرعى وتأمين العشب لقطعان أغنامهم.

وعلى ذلك فقد عبر كورش إقليما متضرّسا وعرا ، غنيًا بالموارد الاقتصادية المتاحة تكفل تأمين إطعام الجيوش الفارسية ، وانحرف شمالا بشرق حتى بلغ بحيرة أرومية التي يصبّ فيها نهر طلخة وهي أكبر بحيرات فارس ، وتقع في الشمال الغربي من فارس في إقليم آذربيجان ويبلغ طولها ١٣٠ كم وأقصى عرضها بلغ ٥٠ كم. وهي بحيرة ضحلة قليلة الغور لا يزيد عمقها على ٢١ مترا. وعلى صخرة «كورجين» تقع قلعة قديمة تشرف على البحيرة قبالة شاطئ «سلماس». ووجد فيها نقش يشير إلى عراقتها في القدم. ويبدو أنّ كورش أثر محاذاة شواطئ بحر قزوين (خزر) بحيث يكون البحر عن يمينه وهو متّجه نحو الشمال إلى جبال قوقاز. ومعنى ذلك أنّه سلك ضفاف نهر طلخة نحو الإقليم الساحلي لبحر قزوين. والإقليم عبارة عن سهول ضيقة تتّسم بالدفء ، لأنّ ارتفاعها قليل وقد ينخفض دون سطح البحر ، ويندر أن يحدث الصقيع (الجليد) هناك في الشتاء ، كما يندر أن ترتفع درجة الحرارة في الصيف عن ٣٢. ولكن الرطوبة شديدة ، وتكثر الأمطار وتتوزّع على مدار السنة ، وبسبب هذه الأمطار الغزيرة تنمو الغابات النفضية مثل البلوط والدردار ، وهي التي تنفض أي تسقط أوراقها في فصل الشتاء.

وظلّ كورش محاذيا شاطئ بحر قزوين حتّى وصل إلى نهر أطلق عليه اسمه «كورش» أي سائرس (سيروس).^(١) والإقليم جزء من آذربيجان الشرقية التي تقع في الجنوب الشرقي من قفقاسيا وتشمل سهول نهر «كورا» المنخفضة والتي تحيط بها الجبال من كلّ الجهات. فلا تنفتح إلّا من جهة الشرق حيث بحر قزوين.

وهذه الجبال هي القفقاز من الشمال ، وإرمينيا من الغرب ، وجبال آذربيجان الشرقية من الجنوب. وتجري المياه نحو هذه السهول من جميع الأطراف من الجبال المحيطة بها ، وتكون شديدة الانحدار ، لقصر المسافة التي تقطعها ، فتحفر أودية واسعة سحيقة ، تعتبر من مراكز الزراعة في الإقليم. وأمطار هذه السهول نادرة لانحصارها بين المرتفعات التي تحجب الأمطار عنها ، ممّا يجعلها جافّة ، ولكن هذا الجفاف يعوّض بالمياه المتدفّقة التي تجري من المرتفعات. وأشهر هذه المجاري وأطولها نهر «كورا» الذي يجري من جورجيا (جرجستان) ويمرّ من عاصمتها تفليس ، ثمّ يدخل أراضي آذربيجان حيث يرفده نهر «أورا» المناسب أيضا من جورجيا ، ويتّجه النهر نحو الجنوب الشرقي حتّى يصبّ في البحر.

وعليه فكان العائشون في المنطقة في رفاهيّة من العيش ، حيث خصوبة الأرض ووفرة المياه ، آمنين مطمئنّين سوى ما كان يهدّدهم أقوام وحشيّة كانوا يسكنون وراء الجبال فرما أغاروا عليهم بين حين وآخر. ولم يكن التهديد لسكّان تلك المناطق الشاطئيّة وحدها من القبائل الوحشيّة ، بل كان يشمل سكّان إرمينيا وجورجيا أيضا.

من هم يأجوج ومأجوج؟

عنوان أطلقه القرآن الكريم على السلالات البشريّة المتوحشة في عصر ذي القرنين.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ

(١) والآن يسمّى نهر كورا ، كما يأتي.

تَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا... ﴿١﴾

والجغرافية البشرية تحاول وضع تصوّر محدّد لأنماط الاستيطان البشري لتلك الجماعات وتدرس تسلسلهم في قائمة الأجناس البشرية ، وتحديد الحقبة الحضارية . من عمر البشرية . التي كانوا يعيشون أثناءها.

تذكر بعض الدراسات أنّ أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح ، وأنّ التسمية مأخوذة من أجيج النار وهو : ضوؤها وشررها ، عنوان مستعار يشير إلى كثرتهم وشدّتهم.

وذكر بعض المدقّقين في البحث عن تأصيلهم : أنّ أصل المغول والتتر من رجل واحد يقال له : «ترك». وهو نفس الذي سمّاه أبو الفداء باسم «مأجوج». فيظهر من هذا القول أنّ المغول والتتر هم المقصودون بيأجوج ومأجوج ، وهم كانوا يشغلون الجزء الشمالي من آسيا ، تمتدّ بلادهم من «التبت والصين» إلى المحيط المنجمد الشمالي ، وتنتهي غربا بما يلي بلاد «التركستان».^(٢)

وكلمة «تتر» تكتب تاتار وتكتب تتر ، وهي اسم لشعب يختلف مدلوله باختلاف العصور. وقد ورد في الكتابات الاورخونية التركية التي يرجع تاريخها إلى القرن الثامن ، ذكر طائفتين من القبائل التترية ، وهما «التتر الثلاثون» و «التتر التسعة». ولكن «طومسون» (nosmohT) يرى أنّ التتر اسم يطلق حتى في ذلك العصر على المغول أو فريق منهم ، وليس الشعب التركي! ويقول : إنّ هؤلاء التتر كانوا يعيشون على وجه التقريب في الجنوب الغربي من بحيرة بيكال حتى كرولين.^(٣) ويقول : إنّ الترك اخرجوا من منغوليا ليحلّ محلّهم المغول ، حينما قامت إمبراطورية قره خطائي.^(٤) وقد صحبت بعض العشائر التترية قبائل الترك حين خرجت من منغوليا وسارت معها متّجهة من أواسط آسيا

(١) الكهف ١٨ : ٩٤ .

(٢) انظر : الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره ، ج ٩ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٣) نهر كورا (aruoK) في قفقاسيا يصبّ في غرب بحر قزوين .

(٤) اسم أطلقته المصادر الإسلامية منذ القرن ١١ م على بعض شعوب الصين المغول. أسّس زعيمهم «آپاوكي» سلالة «لياد» الصينية ، اجبروا على مغادرة الصين ١١٢٥ م فاصطدموا بالدول الإسلامية المجاورة. صدّهم الإيلخانيون.

صوب الغرب.

وجاء في أخبار الغزوات المغوليّة التي تمّت في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أنّ الغزاة كانوا يعرفون (في الصين . والعالم الإسلامي . والروسيا . وغرب اوربا) باسم التتر وهي بالصينية : تاتا.

وقد أطلق ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) هذا الاسم (التتر) على أسلاف «جنكيزخان» وأنّهم نوع كثير من الترك ، وكانت مساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين.^(١)

وقد قسّمت عدّة شعوب باسم التتر في خطاي والهندوستان وجين ماجين ، وبين القرغيز وفي كلارا (بولندا) وباشقرد (المجر) وفي سهوب (دشت) قفقاج. وفي البلاد الشماليّة بين البدو. ولا يزال يطلق على جميع الشعوب التركيّة حتّى اليوم اسم التتار.

ويظهر أنّ الشعوب التي انحدرت من أصل مغولي وتحدّث بالمغوليّة كانت تسمّى نفسها باسم التتر ، ولكن حلّ محلّ هذا الاسم بعد عهد جنكيزخان في منغوليا وآسيا الوسطى اسم «مغول» وهو الاسم الذي استعمله رسميًا جنكيزخان.

وقد ورد هذا الاسم في المصادر الإسلاميّة «مغل» و «مغول». وكذلك ينطق سلالة المغول في أفغانستان الذين احتفظوا بلغتهم حتى اليوم بهذا الاسم (مغل).

وكان هؤلاء التتر أثناء غزو تيمور يعيشون عيشة البدو الرحل فيما بين أماسيّة وقيساريّة ، ويتراوح عددهم بين ثلاثين ألفا وأربعين ألف اسرة.^(٢) وقد اتّسع مدلول كلمة «تتر» باعتباره اسم شعب يتكلّم التركيّة في حوض نهر «تولغا» من قازان^(٣) حتى آستراخان^(٤) وشبه جزيرة القرم وجزء من سيبيريا ، أي في المكان الذي حدّده القرآن خلف السدّين أي وراء حاجز جبال القوقاز وبحر قزوين والبحر الأسود.

(١) راجع : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٣٦١ (أحداث سنة ٦١٧).

(٢) انظر : ظفرنامه . الطبعة الهنديّة . كلكتا ، سنة ١٨٨٨ ، ج ٢ ، ص ٥٠٢ وما بعدها. وكذلك ابن عريشاه ، طبعة مانجر ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ وما بعدها. (مفاهيم جغرافية ، ص ٢٨٥ . ٢٨٦).

(٣) هي عاصمة جمهورية التتر المستقلّة شرقي مسكو.

(٤) مدينة ومرفأ على مصبّ نهر تولغا في بحر قزوين. أسّسها المغول.

وهم الذين سكنوا هذه المناطق قبل الميلاد وعرفوا بالوحشية والإغارة على المسلمين. وكلّ الأبحاث العلميّة الحديثة تؤكّد على أنّ الشعب الذي يتحدث بالتركيّة في آستراخان على بحر قزوين شمال جبال القوقاز ، من سلالات التتر القدامى الذين كانوا يغيرون عبر مضيق داريال الجبلي في جبال القوقاز ، على شعوب جورجيا وإرمينية وأذربيجان. وهم يقيمون الآن في السفوح الشماليّة لجبال القوقاز ، ويطلق عليهم «ششن أنفوشيا». وينتمي سكّان كبرداي أو قبرطاي أيضا إلى الجنس التتري وهم مبالغون في عصبيّتهم ويتفاخرون بها أشدّ المفاخرة وينظرون إلى جميع العناصر المجاورة لهم من شركسيّة وغيرها نظرة فيها شيء من الاحتقار. وجميع هذه القبائل تسمّى تتر في آسيا.

ويرى أبو الكلام آزاد أنّ كلمتي ياجوج ومأجوج تبدوان كأنّهما عبريّتان ، ولكنّهما في الأصل والواقع أجنبيّتان اتّخذتا الصورة العبريّة ، فهما تنطقان باليونانية گوگ «goG» وماگوگ «gogaM». ^(١) ويبدو أنّ فرعا منهم سكن ما وراء القوقاز في القرن السابع قبل الميلاد وعاصر كورش غارة من غاراتهم. ^(٢) وسنذكره.

وقد حدّد مولانا أبو الكلام ، الأدوار السبعة لخروج ياجوج ومأجوج كالتالي :

الدور الأوّل منها كان قبل ٥٠٠٠ سنة وقد اندفعت هذه القبائل نحو الجنوب الغربي من سيبيريا إلى هضاب وسط آسيا (منغوليا).

الدور الثاني ويبدأ ما بين ١٥٠٠ - ١٠٠٠ ق.م. وفيه كانت تتابع موجات المغوليّة من أقصى الشمال الشرقي نحو سهول الصين وهضاب وسط آسيا ومنغوليا والتركستان الغربيّة وزونغاريا.

الدور الثالث وصلت جحافل المغول حوالي ١٠٠٠ ق.م. إلى منطقة بحر قزوين والبحر الأسود وشمال القوقاز وحوض نهر الدانوب والفلجا. وظهرت قبائل «سي تهن» على مسرح التاريخ سنة ٧٠٠ ق.م. وهاجمت مناطق آسيا الغربيّة.

(١) وإذا كان حرف «g» ينطق ب «جي» ، فلفظ القرآن أقرب تعبيرا بالكلمة : جاج وماجاج!

(٢) كورش الكبير لأبي الكلام آزاد ، ترجمة باستاني پاريزي ، ص ٢٧١.

الدور الرابع . جعله أبو الكلام سنة ٥٠٠ ق. م. حيث برز كورش كأعظم ملوك العالم قاطبة ، فقد أخضع ميديا وليديا وبابل والشام وجميع الممالك الشرقيّة حتّى نهر السند وسيحون.

وبذلك توقّف سيل قبائل «سي تمين» وخصوصا بعد أن أقام كورش سدّ داريال في جبال القوقاز.

الدور الخامس تزعزع أمن الصين بمحافل جديدة من قبائل المغول الهمجيّة ويطلق الصينيّون على هؤلاء المتوحّشين اسم «هيونغ نو» وقد تحوّر فيما بعد وصار «هون». ولم يجد إمبراطور الصين بدّا من تشييد سور الصين الحجري العظيم ، لصدّ هجمات هذه القبائل.

وبذلك توقّف غزو قبائل «هون» لسهول الصين بعد بناء السور ، ولكن ذلك جعلهم يتوجّهون نحو أواسط آسيا من جديد.

وفي الدور السادس تجمّع شمل هذه القبائل في اربوا تحت قيادة «آتيلا» وقضوا على الإمبراطوريّة الرومانيّة في القرن الرابع الميلادي.

وكان الدور الأخير هو هجوم جنكيزخان على الحضارة الإسلامية من منغوليا في القرن الثاني عشر للميلاد وخرّبت بغداد. ^(١)

ويذكر المؤرّخون أنّ هذه القبائل كثيرا ما أفسدت في الأرض وبطشت بالآمنين وهدّمت حضارات وأراقت دماء وحرّقت زروعا ومدنا ، وكم أهلكوا

الحرث والنسل؟! فهم إذن مفسدون في الأرض بنصّ القرآن . أصدق الحديث . وشهادة التاريخ.

* * *

إنّ منطقة بحر قزوين والبحر الأسود وجبال القوقاز كانت مستقرّا لجماعات من المغول والتّرك من فجر التاريخ ، وتناثر شبه جزيرة القرم حول البحر

الأسود ، والأترّك والمجريون والفنلنديون ، هم المتخلّفون من ذريّتهم في المنطقة ، ولم يكن هؤلاء يقنعون

(١) كورش كبير ، ص ٢٧٤ . ٢٧٦.

بالموارد الطبيعيّة المتاحة لهم في الأرض التي احتلّوها ، وإتّما كان مضيق داريال معبرا لهم إلى حضارات العالم القديم في غرب آسيا ، وما زالت سلالاتهم حتّى اليوم تقيم في المنطقة ، وإن اتّخذوا أسماء جديدة ، فالجركس مثلا اسم عام يطلق على هؤلاء الأقوام.

وكانت هذه القبائل المتوحّشه زمن كورش تسكن المنحدرات الشماليّة والجنوبيّة لسلاسل جبال قوقاز ولكن في أقصى الغرب ، أي الضفة اليسرى لنهر قوبان وروافده وشاطئ البحر الأسود حتّى نهر شخة ، وما تزال البقية منهم في القوقاز وما والاها.

* * *

وهناك للشيخ طنطاوي حديث مع عالم من أمة يأجوج ومأجوج. يقول : كان أوّل ما ألّفت كتابا من كتبي ، كان انتشاره وترجمته في بلاد «روسيا» بناحية «قازان» وما والاها. حيث ترجمت تلك الكتب باللغة القازانية. وكانت مقالة «يأجوج ومأجوج» نشرتها في أواخر القرن التاسع عشر بمجلّة «الهلال» ، ثمّ اعيد نشرها بزيادة تحقيق في جريدة «المؤيّد» المنتشرة إذ ذاك في أقطار العالم الإسلامي في نحو العشر سنين الاولى من القرن العشرين.

يقول : بينما أنا بالمدرسة الخديويّة أدّرس اللغة العربيّة ، إذ قابلني تلميذ فقال : قد قابلني الاستاذ عبد الله بوي من مدينة «أوفا» ببلاد روسيا ويريد موعدا للمقابلة بالمنزل ، فعينيّت له موعدا ليلا ، فلمّا حضر خاطبني باللغة العربيّة الفصحى ، وأوّل ما بادرنى به أن قال : عرفتك من مؤلّفاتك وقرأت في «المؤيّد» أنّك تقول : إنّنا من «يأجوج ومأجوج». وهذه المقالة ترجمتها بلغتنا ولم أطلع عليه الشيوخ الكبار ، لظنّهم أنّ هذا كفر وقد جهلوا أصلنا ، وإنّنا نحن المغول «يأجوج ومأجوج» والتتر فريق من تلك الامم. فأنا والشبّان جميعا فهمنا مقالك ... (١)

* * *

ومن الغريب وليس بعجيب تصريح «جنكيزخان» بأنّ قومه المغل والترك (التتار)

(١) تفسير الشيخ طنطاوي ، ج ٩ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

هم قوم «يأجوج ومأجوج» الذين حدّث عنهم القرآن وحذّر بطشهم.

جاء في كتاب بعثه إلى محمّد خوارزم شاه يؤيّبه على تعسّفه في سياسته الغاشمة وقتله الودعاء من أصحابه (التجّار المغل) ونهب أموالهم زورا. ^(١) متوعّدا له شرّ الانتقام إن هو لم يتلاف الخرق قبل توسّعها.

جاء في الكتاب : «... كيف تجرّأتم على أصحابي ورجالي وأخذتم تجارتي ومالي ، وهل ورد في دينكم أو جاز في اعتقادكم و يقينكم أن تريقوا دم الأبرياء أو تستحلّوا أموال الأتقياء أو تعادوا من لا عاداكم وتكذبوا صفو عيش من صادقكم وصافاكم. أتحرّكون الفتنة الخامدة وتنبّهون الشرور الكامنة؟! أو ما جاءكم عن نبيّكم ... أن تمنعوا عن السفاهة غويّكم وعن ظلم الضعيف قويّكم؟! أو ما أخبركم مرشدوكم ومحدّثوكم عنه قوله : اتركوا الترك ما تركوكم؟! وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ونبيّكم قد أوصى بهم ... فتلافوا هذا التلف قبل أن ينهض داعي الانتقام وتقوم سوق الفتنة ويظهر من الشرّ ما بطن ويروج بحر البلاء ويموج ، وينفتح عليكم سدّ «يأجوج ومأجوج» وسينصر الله المظلوم ، والانتقام من الظالم أمر معلوم ، ولا بدّ أنّ الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سرّ ربوبيّته وآثار عدله في بريّته ، فإنّ به الحول والقوّة ومنه النصره مرجوّة ، فلتروا من جزاء أفعالكم العجب ، ولينسلنّ عليكم يأجوج ومأجوج من كلّ حدب ... ^(٢)

(١) ذكر ابن الأثير أنّ جنكيزخان المعروف بتموجين كان قد فارق بلاده وسار إلى نواحي تركستان ، وسيّر جماعة من التجّار والأتراك ومعهم شيء كثير من الثّقرة والقندر (حيوان بحري يصنع من جلده الفرو) وغيرهما ، إلى بلاد ما وراء النهر (سمرقند وبخارا) ليشتروا به ثيابا للكسوة. فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمّى «اوترار» وهي آخر ولاية خوارزم شاه. وكان له نائب هناك ، فلما ورد عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلى خوارزم شاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الأموال. فبعث إليه خوارزم شاه يأمرهم بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال وإنفاذه إليه. فقتلهم وسيّر ما معهم وكان شيئا كثيرا. فلما وصل إلى خوارزم شاه فرّقه على تجّار بخارى وسمرقند وأخذ ثمنه مهم. وسرعان ما ندم خوارزم شاه على صنيعه هذا وأشغل فكره فهمّ بمهاجمة جنكيزخان قبل أن يهاجمه في جموعه وعساكره التي أخبر جواسيسه عنها بأنّها لا تحصى. فاستشار امراءه في ذلك ، وبينما هم كذلك إذ ورد رسول جنكيزخان ومعه جماعة يهدّد خوارزم شاه ويقول : تقتلون أصحابي وتجارتي وتأخذون مالي منهم! استعدّوا للحرب فإنّي واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به. لكن خوارزم شاه بدل أن يستميل جنكيزخان من صنيعه هذا القبيح ، أمر بقتل الرسول وحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه وأعادهم إلى صاحبهم جنكيزخان يخبرونه بما فعل ، ويقولون له : إنّ خوارزم شاه يقول لك : أنا سائر إليك ولو أنّك في آخر الدنيا حتّى أفعل بك كما فعلت بأصحابك ... الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٣٦١-٣٦٤.

(٢) تفسير الشيخ طنطاوي ، ج ٩ ، ص ٢٠٤.

وأيضاً كان بين ممالك مغل وممالك خوارزم منطقة وسيعة يحكمها أمراء «قراختائيان» وكانت ما وراء النهر (سمرقند وبخارا) تحت سلطتهم وكانت الفاصل الحاجز بين المغل والخوارزمية. فعمد الملك محمد خوارزم شاه إلى فتحها وإلحاقها بمملكه الوسيعة الأمر الذي تحقّق سنة ٦٠٧ هـ. وفي سنة ٦١٢ هـ. زحف خوارزم شاه من مدينة «جند» نحو مساكن قبائل «قپچاق» فواجه أفواج «جوجي» ابن جنكيزخان ، وهذا وإن ساعه وأخبره أنّه لم يأت للحرب سوى إخماد نائرة بعض البغاة. لكن الملك محمد خوارزم شاه لغروره عزم على مقاتلتهم ، سوى أنّ «جوجي» غادر المحلّ ليلاً وأخبر أباه بمفاجأة الملك الخوارزمي وأنّه عازم على مقاتلتهم بالذات ، فكان أوّل بادرة حدثت بين الدولتين. ^(١)

ويضيف الشيخ طنطاوي هنا : أنّ الملك الخوارزمي لما غزا بلاد ما وراء النهر ، سرت السرائر وابتهجت القلوب بهذا الفتح. وكان إذ ذاك في «نيسابور» عالمان فاضلان فأقاما العزاء على الإسلام وبكيا. فستلا عن ذلك فقالا : وأنتم تعدّون هذا التلم فتحاً وتتصوّرون هذا الفساد صلحاً ، وإنّما هو مبدأ الخروج وتسليط العلوج وفتح سدّ يأجوج ومأجوج ، ونحن نقيم العزاء على الإسلام والمسلمين وما سيحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾. ^(٢)

قال الطنطاوي : فهذا تصريح من هذين العالمين بما أوردناه بشأن يأجوج ومأجوج وأنهم من أقوام التتر ، وانظر كيف ظهر صدق كلامهما في حينه وظهر التتر وأفنوا المسلمين وماج الناس بعضهم في بعض. ^(٣) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾. ^(٤)

(١) راجع : تاريخ إيران ، ص ٤٠٤ . ٤٠٥ .

(٢) ص ٣٨ : ٨٨ .

(٣) تفسير الشيخ طنطاوي ، ج ٩ ، ص ٢٠٥ .

(٤) الأنبياء ٢١ : ٩٦ .

يأجوج ومأجوج في التاريخ

وهكذا جاء لفظ يأجوج ومأجوج في الأسفار القديمة وفي التاريخ ، تعبيرا عن أمة متوحّشة يُموج بعضهم في بعض ، ويكونون خطرا بين حين وآخر يهدّد الامم المتحضّرة المجاورة لها وحتىّ غير المجاورة إلى حدّ بعيد.

جاء في سفر التكوين عند ذكر ولد نوح وأحفاده : «بنو يافث : جومر ومأجوج وماداي».^(١)

وفي سفر حزقيال ، يتحدّث عن جوج ، أرض مأجوج ، وأنّهم يفسدون في الأرض وأن سوف يذلّ بهم جبابرة الأرض.^(٢)

وذكر جيمس هاكس : أنّ السوريين . في القرون الوسطى . سمّوا قبائل التتر بمأجوج. وكانت العرب تعتبر السهول الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين ببلاد يأجوج ومأجوج. وفي أيام حزقيال كانت الأقوام السكيّية في الشمال الغربي من آسيا وراء جبال قوقاز معروفين بأقوام مأجوج ، وفي عام (٦٢٩ ق. م) انسالوا بمجموعهم نحو مدينة «ساردس» عاصمة ليديا ، وتغلّبوا عليها ، واستولوا عام (٦٢٤ ق. م) على ملك ماديا «سياكرس» ، وأخذوا بالهجوم نحو مصر ، لو لا أن واجههم الملك «پساميتخس» بالهدايا الكثيرة ليقنعهم بالرجوع إلى أوطانهم.

وحزقيال يصفهم بالفروسيّة والقدرة على ضرب الكتائب بما يفوقون سائر الامم. وهكذا وصفهم مؤرّخو يونان القدامى.^(٣)

ولهيرودوت حديث عن هذه الأقوام يتوافق مع حديث حزقيال.^(٤)

وله أيضا حديث عن أقوام وحش كان مسكنهم وراء جبال قوقاز ، سمّاهم «ماساگت» (ماساجيت setegassaM) «مأجوج» وقال عنهم : أنّهم أصحاب فروسيّة وشجاعة فائقة ، ويعتبرهم البعض أنّهم من أفخاذ الأقوام السكائيّة (السكيّية)^(٥) حسبما

(١) سفر التكوين ١٠ : ٣. أخبار الأيام الأول ١ : ٥ .

(٢) سفر حزقيال ، أصحاب ٣٨ .

(٣) قاموس الكتاب المقدس ، حرف م ، ص ٧٧٥ .

(٤) تاريخ هيرودوت ، ص ٦٢ .

(٥) المصدر : ص ٩٨ .

جاء في كلام حزقيال.

ومن ثمّ جاء قول المؤرّخين بأنّ هذه القبائل التي سمّيت «ميكاگ» عند اليونان و «منگوگ» عند الصينيين هي «يأجوج ومأجوج» التي ذكرت في القرآن. ^(١)

ذكر الاستاذ أبو الكلام آزاد : أنّ لفظي يأجوج ومأجوج ، يبدو في صيغتهما أنّهما عبريّتان ، في حين أنّهما أعرق وذواتا أصل غير عبراني. وقد عبّر اليونان عنهما «گوگ» (goG) و «ماگوگ» (gogaM). وهكذا جاءتا في الترجمة السبعينية للتوراة ، ومنها تسرّب إلى اللغات الأوروبية. وقد اطلق على أقوام وحش كانوا يسكنون منذ (٦٠٠ ق. م) ما وراء جبال قوقاز ، عرفوا باسم «التتر» وبلادهم حسب تعبير الصينيين معروف باسم «منغوليا» ، وهذه القبائل قد اطلق عليهم «المنغول» (المنغول). والمصادر الصينية تعطينا أنّ أصل هذه الكلمة هي : «منگوگ» أو «منچوگ»! وهذا قريب من الكلمة في صيغتها العبريّة «مأجوج» وعند اليونان «ميكاگ». وفي تاريخ الصين نجد الحديث عن قبيلة اخرى باسم «يوشي» (ihceuY) ، والظاهر أنّ الكلمة حرّفت فيما بعد في صورة «يأجوج» العبريّة. وجاءت في تعبير الإفرنج : «يوئه چي». ^(٢)

إذن فالتعابير الواردة في التاريخ القديم (تاريخ هيرودوت) : «ماساگيت» (ماساجيت). وعند اليونان : «گوگ» و «ماگوگ» ، وطبقا للتوراة : «جوج» و «مأجوج» ، وعند الصينيين : «منگوگ» أو «منچوگ» ، و «يوشي» (يأجوج). والإفرنج : «يوئه چي» ... كلّها عن أصل هذه الكلمة تعبيرا عن أقوام وحش همج كانوا خطرا على البلاد ، وجاء التعبير عنهم في القرآن ب «يأجوج ومأجوج» وأنّهم مفسدون في الأرض. وقد التمس أهل البلاد الخصبة من كورش (ذي القرنين) أن يجعل لهم سدّا يمنعهم عن هجمات تلك الأقوام.

(١) مفاهيم جغرافيّة ، ص ٣١٣.

(٢) كورش الكبير ، ص ٢٧١ - ٢٧٣.

أين السدّ وأين موضعه الآن؟

سبق أن دلّت الشواهد على أنّ موضعه هي الثغرة في ثنايا جبال قوقاز ، كانت تعبرها أقوام وحش للإغارة على المسالمين في الأرض. وعرفت الثغرة باسم مضيق «داريال» حسبما مرّ ، وهي بالقرب من مدينة «تفليس» عاصمة «گرجستان».

لمسنا من المفاهيم القرآنيّة المفسّرة أن لم يكن من سبيل . في القرن السادس قبل الميلاد . إلى الأمان للشعوب المسالمة البدائيّة الضعيفة جنوب جبال القوقاز (في آذربيجان وجورجيا وإرمينيّة وسواحل جنوب بحر قزوين) إلّا بتشديد سدّ منيع يحكم إغلاق الثغرة بين شطري جبال قوقاز ويحول دون عبور القبائل المغوليّة (القديمة المتوحّشة) للمسلك الجغرافي الوحيد نحو تلكم الشعوب المستضعفة. ويبدو أنّ الحائط الجبلي المذكور في القرآن كان ممتدّا امتدادا عرضيا كبيرا يفضي من جانبه إلى بحرين لا يمكن عبورهما (بحر قزوين في الشرق والبحر الأسود في الغرب). لذلك عرض القوم البدائيّون الضعفاء في جنوب جبال قوقاز على ذي القرنين (كورش) بناء سدّ يوقف زحف المتوحّشين تماما.

وقبل أن نتحدّث عن سدّ ذي القرنين وأنّه هل هو سدّ كورش الذي بناه على أقوم استحكام ممّا يتطلّب تقدّما حضاريا من حيث الإمكانيّات التي قدّمها كورش لإنجاز هذا المشروع الجلل والذي يعدّ آية في تاريخ البشريّة الصناعيّة والهندسيّة والعلميّة ... لا بدّ أن نلقي ضوء على المقدرات الفنيّة يوم ذاك ولا سيّما في بلاد فارس على عهد كورش أي قبل الميلاد ببضع قرون.

التحصّن البشري في عهد ذي القرنين

يقول الدكتور عبد العليم . استاذ الجغرافيا المساعد في جامعة ابن سعود ويحمل شهادة زمالة الجغرافيين الملكية . لندن . : دراسة جغرافيّة منطقة السدّ ، دراسة جيولوجيّة واقتصاديّة ، لمعرفة إمكانيّاتها الطبيعيّة والإمكانات البشريّة التي كان من المفروض

توفّرها للوفاء باحتياجات السّد التي طلبها ذو القرنين ، ودراسة مدى التحضّر البشري حينذاك.

بالنظر إلى الآية الكريمة ﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾^(١) نرى أنّ الإمكانيّات التي قدّمها كورش لإتمام السّد هي : الخبرة والمهندسين والإشراف. وأمّا الإمكانيّات التي طلبها من سكّان المنطقة فكانت تنحصر في :

- ١ . القوّة البشريّة (العمالة).
 - ٢ . خامات الحديد.
 - ٣ . الفحم أو الخشب لصهر الحديد.
 - ٤ . خامات النحاس.
 - ٥ . عدد ما من حيوانات الجرّ والحمل.
 - ٦ . استهلاك العمّال والمهندسين من طعام وشراب ومأوى.
- ولنا أن نتساءل : هل كانت «فارس» على درجة من التحضّر والتقدّم بما يوفّر الخبرة الهندسيّة لتشييد السدود والأعمال العمرانيّة الضخمة؟
- لفارس ، حضارتها الخاصّة بما بلا شكّ. ولكن مصر الفرعونيّة . بشهادة التاريخ . قدّمت لها أعظم مدرسة في التشييد والبناء والصناعة. لقد قدّمت مصر . وكانت على اتّصال وثيق ببلاد الشرق الأدنى منذ ٤٠٠٠ سنة . للحضارة الفارسيّة العلوم الرياضيّة والهندسيّة والطبّ والفلك وتعبيد الطرق والكتابة والتقويم والساعات والورق وفنّ المكتبات وحفظ الوثائق ، والأثاث الدقيق والمصقول ، وفنّ التلوين.
- ولم تقتبس فارس من حضارة مصر فقط ، وإمّا نقلت أيضا . زمن الهخامنشيّين . من بابل كثيرا من العلوم والفنون والصناعات. وهكذا من اليونان استخدموا مهندسين كبارا لفنّ النحت وبناء القصور الشامخات والأعمدة الرفيعة والأقواس من الرخام

(١) الكهف ١٨ : ٩٥ . ٩٦ .

والأحجار الثمينة.^(١) ولا ننكر أنّهم - أي الفرس - أضافوا إلى ما أخذوه وخلفوا لنا حضارة راقية ، هي مزيج من حضارات العالم القديم مصر - بابل - يونان . وإجابة على السؤال ، يمكن القول : إنّ الفرس - في عصر الهخامنشيين - امتازوا بمهارتهم في فنّ العمارة والبناء . يشهد بذلك كلّ ما اكتشفه علماء الآثار هناك من أبنية تدلّ على عظمة التصميم الهندسي ، ودقّة اختيار الموادّ الخام ، وتطويعها للغرض الإنشائي المنشود . فقد أخذ البنّاءون الفرس يتعلّمون فنّ المعمار من الشعوب التي خضعت لهم (سومر - آشور - كلدان - يونان) وسرعان ما استوعبوا أسرارهم . ومن ينظر إلى مقبرة وقصور كورش ، ودارا الأوّل ، وخشيارشا الأوّل ، يدرك عمق تأثير المعمار الفارسي بما يحيط به من أنماط في مصر ويونان وبابل وميديا وليديا ... ونذكر نحن ذلك إذا فحصنا جيّدا ما شيّده كورش في «پاسارگاد»^(٢) رغم تهمّمها . فالواقع أنّها صور من الروعة والجمال ترسم ملامح الفن الفارسي الهخامنشي منذ أربعة وعشرين قرنا . وتزداد صور الروعة إشراقا إذا فحصنا «نقش رستم» بالقرب من «برسبوليس»^(٣) والآثار الموجودة في هذه المدينة .

بالإضافة إلى ذلك توجد أبنية فارسيّة قدّر لها أن تفلت من مخالب الحروب والدمار والغارات والسرقات وتقلّبات الأجواء ، وهي تتمثّل في مجموعة من حطام القصور وبقاياها موجودة حتّى الآن في العواصم الفارسيّة القديمة مثل «پاسارگاد» و «پرس پوليس» و «اكتانا - همدان» . وهي جميعها تفيد في دراسة مراحل تطوّر فنّ التشييد والبناء في تلك المرحلة من حكم الهخامنشيين لفارس ، وتؤكد أنّ الهخامنشيين تتلمذوا على حضارات امم مجاورة وأحسنوا التلمذة وأجادوها في كلّ الحقول ، سواء أكانت الصناعات المختلفة أو التكنيك

(١) تاريخ إيران ، ص ١٢٥ .

(٢) جاء تعريبه : «بازارجاد» ، هي مدينة ضخمة بقيت آثارها الفخيمة في مشهد مرغاب ، عاصمة الهخامنشيين القديمة . واقعة على بعد ١٨ فرسخا في الشمال الشرقي من شيراز . وبها مقبرة كورش الكبير قائمة إلى اليوم وفيها عثر على تمثال كورش الحجري الشهير .

(٣) تحت جمشيد . وتسمّيه اليونان : «پرس پوليس» .

أو تعبيد الطرق أو الإنشاءات المعماريّة والفنيّة والجسور والسدود.

وكُلّها اتّسمت بطابع الأصالة في التخطيط وحسن التنفيذ بما يمكن أن يجعلنا نقول : إنّ الفرس صنعوا ممّا نقلوه رمزا شاهدا على اتّجاههم الخاصّ واسلوبهم المتطوّر.

ويبدو ممّا بقي من آثار حجريّة ودرج وأعمدة وأقواس ، وتمائيل الحيوانات المجسّمة ، وبقايا البناء الذي خلّد فيه كورش ذكرى انتصاره على الميديين ، درجة كفاءة التحضّر الفارسيّ آنذاك. ويبدو أيضا ممّا بقي من آثار أنّ صورا قد نُحتت من الحجر في هذا المكان من «مشهد مرغاب» ولكنّها خربت ، وأنّ نقشا يظنّ أنّه لكورش قد درس ، وعلى مقربة من هذا البناء بناء عظيم من الحجر يقع في ستّ مدرجات وقد عرف هذا البناء اليوم باسم قبر أمّ سليمان. ويعتقد المحقّقون أنّه قبر كورش. كما عثر على مقربة منه نقش ترجمته : «أنا كوروش الملك الهخامنشي ...» وفي پاسارگاد تمثال بارز منحوت من الحجر يصوّر شخصا واقفا مادّا يده إلى الأمام وله جناحان وأجنحة شبيهة بتمائيل الآشوريّين ، إلّا أنّ لحيته فارسيّة وتاجه مصري وثيابه عيلاميّة (١) وهو تمثال كورش ، حسبما استقرّ عليه الرأى أخيرا. وينطبق على ذي القرنين الذي جاء وصفه في القرآن وفي العهد القديم ، باعتبار أنّ لتاجه قرنين ، أحدهما إلى الأمام والآخر إلى الخلف). (١) هذا علاوة على الكثير من الحفريّات التي تدلّ على أنّ الخرائب هي آثار مدينة عامرة وعريقة مוגلة في القدم ، لم يبق منها سوى خرائب وآثار قصور وأبنية كثيرة فخمة بقيت الأجزاء الحجريّة منها. يدلّك على فخامتها تلك الدرج وهي مائة وست درجات في عرض سبعة أذرع تتصاعد إلى قاعة فسيحة عليها مائة عمود من الرخام وبعضها قائمة حتّى اليوم.

وعلى أجنحة الدرج تماثيل وتصاوير رجال منحوتة على الحجر وكان سرير الملك يحمله ٢٨ مجسّمة حجريّة ، رمزا إلى ممثلي الممالك التي سخرها داريوش ، وهو جالس على السرير ويرى من خلفه رجل يظنّ أنّه خشيارشا. كما عثر المنقبون في

(١) ولعلّه صنع بأمره ، تيمّنا بما فاتحه دانيال من الرؤيا التي كان قد رآها وهو في أسر البابليين. لغت نامه دهخدا ، حرف الذال ، ص ١١٥٦٩ ، ذو القرنين الثاني.

سروستان وفيروزآباد على أقواس وقباب لأبنية قديمة ، يعتقد أنّها من بقايا عصر كورش الكبير ، كما يوجد حجر مكعب الشكل يعرف بتخت طاوس في پاسارگاد على مقربة من مقبرة كورش كان واحدا من أعتاب معبد قديم.

أضف إلى ذلك «ترعة سويس» . قناة تصل البحر الأحمر بالمتوسط . ذلك المشروع العظيم ، كان أوّل من أمر بحفرها هو الملك الفارسي داريوش الأول الهخامنشي . وذلك بعد أن استولى على مصر وبلاد إفريقيّة مجاورة . وقد عثر في حفريّات هناك على ضفاف الترعة كتّيبية فيها دلالة واضحة على السيرة الحسنة التي كان يراعيها ملوك فارس مع أبناء البلاد التي كانوا يمتلكونها آنذاك . الأمر الذي يدلّ على حضارة راقية كانت تسود إمبراطوريّة فارس. ^(١) والأمثلة لا حصر لها في هذا المبحث من موضوعنا ، وكلّها تجيب على السؤال المطروح : هل كانت فارس على درجة من التخصّر والتقدّم بما يوفّر الخبرة الهندسيّة لتشييد السدود والأعمال العمرانية؟

ومن العرض البسيط قد تحقّقنا من تقديم كورش الخبرة والمهندسين والإشراف لسكّان منطقة سهول القوقاز وبحر قزوين والبحر الأسود.

* * *

وأما عن الإمكانيّات التي يمكن أن يكون قد طلبها ذو القرنين من الامم المسالمة في المنطقة الوادعة ، حسب فهمنا للآية الكريمة ، فنأخذ أوّلا : القوّة البشرية (العمالة) التي يمكن أن يكون كورش قد طلبها . فإنّ المنطقة حسب التخمين العام كانت أهلة ومزدحمة بالسكّان ويمكن حساب عدد السكّان (تقريبا) في إقليم آذربيجان . إرمينيّة . داغستان . جورجيا وما والاها سنة ٥٥٠ ق. م كان على الأرجح ما يقرب من ١٧٠ / ٠٠٠ نسمة. ^(٢)

(١) راجع : تاريخ إيران ، ص ١٢٤ . ١٣٢ .

(٢) وذلك على حسب الإحصاءات التقريبيّة والتي قدّرت عدد نفوس العالم قبل الميلاد بثمانية آلاف سنة ، وكانت خمسة ملايين نسمة . وقبل خمسة قرون من الميلاد بعشرين مليون . وقبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة بأربعين مليون . وقبل الميلاد بألف سنة بمائة مليون . وبعده بألف : ٠٠٠ / ٠٠٠ / ٢٧٥ وفي سنة ١٦٥٠ م : ٠٠٠ / ٠٠٠ / ٥٤٥ . وذلك على .

فلو افترضنا أنّ العمالة كانت تمثّل بنسبة ٦٪ من السكّان ، لعرفنا أنّ العمالة التي تقدّر للاشتراك في بناء السدّ ما يزيد على (١٠٠ / ٠٠٠) مائة ألف عامل.

وهذا العدد يمكنه بالفعل إنجاز العمل في سدّ ثغرة «داريال» لمُدّة عشر سنوات تقريبا.
والموادّ الخام التي شيّد منها سدّ ذي القرنين حسب وصف القرآن الكريم : خامات الحديد.
تحتوي أراضي آذربيجان على معادن الحديد بكميّات كبيرة ، ويشهد لذلك قيام صناعة الحديد والصلب الآن في مدينة «باكو». فإذا كان الإقليم غنيّا به الآن فلا شكّ أنّه كان أغنى زمن كورش بالطبع.

أمّا إرمينية فعنّية بمعادنها ، ويكثر بها على وجه الخصوص خام الحديد والنحاس والرصاص والزرنيخ وحجر الشبّ والكبريت والذهب. وابن الفقيه ^(١) هو الكاتب الإسلامي الوحيد الذي أمدّنا بمعلومات قيّمة عن الثروة المعدنيّة في إرمينية.

ويذكر المؤرّخ الأرمني (ليونتيسوس) أنّ مناجم الحديد والفضّة في تلك البلاد كشفت حوالي نهاية القرن الثامن للميلاد ، وتدلّ ملامح الأرض على مناطق محفورة في الجبال تشير إلى استنفاد السكّان الأقدمين لاحتياطي الحديد القديم الذي كان يستخرج في العراء دون عناء كبير. وهي تقع في منتصف الطريق بين أطرابزندة وأرزن الروم. كما يوجد الحديد بوفرة في جورجيا بالقرب من «تسخالطابو» و «محج قلعة» و «دريند» في داغستان وغيرها. وفي مناطق الحدود الإرمينية في تركيا إقليم الحديد المشهور الذي يقدر احتياطيه بحوالي ٢٥ مليون طنّ وتبلغ نسبة الحديد في الفلز ما بين ٦٠ - ٦٦٪ وهي نسبة عالية. وقد استخرج الحثيّون من آلاف السنين كمّيّات هائلة من الحديد من هذا الإقليم ، وأهمّ مناطق انتاجه الآن هناك إقليم «ديفرجي».

. حساب (O.A.F) المعروف. مفاهيم جغرافية ، ص ٣٠٤. وبذلك يقدر عدد نفوس العالم سنة (٥٥٠ ق.م) : ١٦٨ مليون نسمة. ويكون قسط إقليم آذربيجان وإرمينية وداغستان وجورجيا ذلك العهد . على حساب التقسيم على المائة . ما يقرب من ١٧٠ / ٠٠٠ نسمة.
(١) كاتب شاعر مجيد من أهل الموصل توفي ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م.

أما عن الفحم والأخشاب اللازمين لصهر الحديد ، فتكوينيّات منطقة «كلاكنت» بأرمينية فيها احتياطيّ كبير. وفي سواحل البحر الأسود تعتبر مناجم «زونفلداك» من المناطق الغنيّة جدّا بخامات الفحم ، وهو من النوع البتومين ويعطي نوعاً جيّداً من فحم الكوك الذي يستخدم في صناعة الحديد. وأما عن الأخشاب فيذكر ابن حوقل أنّ إقليم أردبيل كثير البساتين والأثمار والمياه والأشجار والفواكه الحسنة والخيرات والغلات ، وكذلك إقليم المراغة. ويقول عن إقليم ارومية : إنّ كثير الكروم والمياه الجارية والضياح والرساتيق. ويضمّ الإقليم أيضاً : أشنة ، كثيرة الشجر والخضر والخيرات ومدينة بردعة ، كثيرة الخصب والزرع والثمار والأشجار.

كما أنّ مجموعة أثمار كورا (كوروش) ونهر ترك ، وكذلك صولاق ونهر آراكس ونهر آيورا ، كلّها محاطة بمساحات هائلة من الأخشاب ، لانتشار أشجار الدردار والبلوط والصنوبر والارز والشوح والعرعر والزيتون البري.

خامات النحاس . التي طلبها «كورش ذو القرنين» من سكّان الإقليم حسبما عبّر القرآن الكريم : ﴿قَالَ آتُونِي أَفْرَغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ ... هذه الخامات ثبت علمياً وتأريخياً توقُّرها بالمنطقة ، فالدراسات الجيولوجيّة الحديثة أثبتت وجودها بوفرة في تكوينيّات «زنجان» و «أنارك» وشمال أصفهان وفي جنوب آذربيجان ، كمّيّات هائلة منه. وفي إرمينية أصبحت مناجم النحاس الكبيرة المعروفة منذ القدم ، شاهد على استخراج السكّان القدماء لخاماته ، خصوصاً في منطقة «كدابك» وما يتبعها من منجم فرعي في إقليم «كلاكنت» . بين البزاوتبول وبحيرة كوك جاي . وقد اعيد إحياء مجد الإقليم في مجال استخراج النحاس حديثاً في السنوات الأخيرة ، بفضل إدارة إخوان «سيمنس» مؤسّسي مصانع سبك المعادن هناك.

ومن ناحية توقُّر العدد اللازم من حيوانات الجرّ والحمل ، فالإقليم غنيّ بالثروة الرعيّة والحيوانيّة ، لأنّه يقع بين خطّي عرض ٣٠ . ٤٥ شمالاً ، وينحصر بين إقليم البحر

المتوسط غربا وإقليم الصين شرقا ويمتدّ في أوراسيا بين التركستان الصينيّة ورومانيا ، ويشمل بذلك كلّ آذربيجان وإرمينيّة والقوقاز وجورجيا وداغستان وأنجازيا وأجاريا. ولكثرة حشائش الإقليم سمّيت إقليم المراعي المعتدلة الدفيئة ، وهي غنيّة تكفي رعي الماعز والضأن على الهضاب ، والأبقار والمواشي في السهول ، والجمل أيضا معروف هناك وهو من نوع ذي السنامين وحيوان اليك (kAY).^(١) وقد استخدمه السكّان في النقل تماما كالحمير ، وهو يمتاز على الحمير بوجود أظفار في رجليه تساعده على ارتقاء المرتفعات والتنقّل بأحماله بينها. كما يوجد هناك منذ القدم عشرات الآلاف من الخيول السيسي الشهيرة بقدرتها على حمل الأثقال وجرّ العربات.

ومن حيث توفرّ المؤن لمواجهة استهلاك العمّال والمهندسين من غذاء لازم حتّى إتمام تشييد السّد ، فقد عرف الإقليم جميع الحبوب من آلاف السنين ، وكانت إرمينيّة تعتبر من أخصب أملاك الخلافة العباسيّة ، وكانت الغلال تستنبت فيها بكثرة وتصدر إلى الخارج كبغداد مثلا ،^(٢) وكان السمك يكثر في بحيراتها وأنهارها ويصدر إلى الخارج أيضا ،^(٣) وكانت خيرات الإقليم تتوجّه زمن كورش إلى همدان وسائر البلاد المعروفة ذلك اليوم. وأودية هذا الإقليم الكبير مزدحمة بغابات الأشجار المثمرة ، وفي مناطق العراق كانت زراعة البطاطا والشمندر السكري من أهمّ حرف السكّان في العصور القديمة.

ففي آذربيجان كان القمح الشتوي يزرع هناك بنجاح كبير ، علاوة على أنواع أخرى من الحبوب وكذلك الكروم والجوز ... وداغستان بلاد زراعيّة بالدرجة الاولى من

(١) نوع من البقر الوحش عظيم الجثّة وقوّتها. يكثر وجوده في جبال آسيا الغربيّة والوسطى ولا سيما هضبات تبت. وقد استخدموه لحمل الأثقال.

(٢) انظر : تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ . ٢٧٥ . (مفاهيم جغرافية ، ص ٣١١).

(٣) وقد ورد أنّ شهرة الإقليم بالأسماك كمورد غذائي للسكّان والتصدير لا تضارع ، حيث كانت الأسماك تكثر في بحيرات إرمينيّة وسواحل القوقاز وخصوصا بحيرة «وان» التي اشتهرت بنوع خاصّ وبكميّات هائلة منه ، وهو الذي يعرفه العرب باسم «الطريخ» وكان هذا السمك في العصور القديمة يملّح ويصدر إلى الجهات البعيدة كالهند. انظر : القزويني ، طبعة قسطنفلد ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ . (مفاهيم جغرافية ، ص ٣١١). ولا يزال الناس في إرمينيّة وآذربيجان وبلاد القوقاز وآسيا الصغرى يستطيّبون هذا السمك المملّح حتّى يومنا هذا.

العصور القديمة حتّى الآن ، فهي تنتج القمح والذرة والبطاطا والخضروات والكرمة ، كما أنّ الماشية ترعى في سفوح الجبال وأشهر مواشيتها الأغنام ... ومناخ جورجيا (گرجستان) من آلاف السنين ملائم لزراعة الحبوب وخاصة الذرة والكرمة والحمضيات والشمندر السكّري ^(١) وهذه المزروعات تجدها في كلّ أنحاء الإقليم. وثروة الإقليم بالماشية هائلة ، إذ تنتشر المراعي الواسعة كما رأينا وتربّي عليها قطعان الماشية وخاصة الأغنام. ومن الملامح التي عرضناها بإيجاز تأكّد لنا قدرة الإقليم على تموين العمّال والمهندسين بالطعام والشراب الكافي ، دون أن يحدث نقص في إمدادات الغذاء ، أي أنّ الأمن الغذائي كان مكفولا.

والموادّ الخام اللازمة كانت متوفّرة ، من حديد ونحاس وفحم وأخشاب ، وحيوانات الجرّ والحمل كانت موجودة تفي بالغرض تماما. والأيدي العاملة الرخيصة كانت متوفّرة كذلك. والخبرة الفارسيّة ، والتخطيط الدقيق لكورش كلّها كانت مقوّمات نجاح تشييد أعظم السدود في العالم ، لدرجة جعلت القرآن يصفه بالردم ، أي السدّ الضخم الهائل في قوله تعالى : ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾. ^(٢) وبعد فإليك الكلام عن السدّ (سدّ ذي القرنين الذي ذكره القرآن) وهل هو سدّ كورش التاريخي؟

سدّ كورش (ذي القرنين) التاريخي؟

في وصف شامل لسدّ كورش (ذي القرنين) وتحديد موقعه الجغرافي حالّيّا على الخريطة السياسيّة ، وتحديد نوعيّة الدولة التي كانت تسيطر على المنطقة الجبلية التي شيّد فيها ، يمكن القول : إنّ من المعطيات السابقة ، تتبلور ملامح سدّ كورش التاريخي في :

-
- (١) فقد عرف الإقليم جميع الحبوب من آلاف السنين . حسبما تقول الجغرافيا التاريخيّة . وعثر عليها في الآثار القديمة ، ووجدت قوارير مملوءة بالحبوب وغيرها (القمح . الذرة . القصب . الارز). انظر : مواطن الشعوب الإسلاميّة ، قفقازيا لمحمود شاکر ، ص ٦٢ . ٦٩ . (مفاهيم جغرافية ، ص ٣١١).
- (٢) مفاهيم جغرافية ، الفصل السابع ، ص ٣٠١ . ٣١٢.

أنّ السّدّ بني فيما بين عامي ٥٣٩ ق.م. و ٥٢٩ ق.م. في مكان جبليّ شاهق شديد التضرّس قائم كجدارين شامخين على جانبيه ، وبذلك . وعلى هذه الصورة . يكون السّدّ حجازا مضافا على الجدارين ، في مكان المضيق الجبلي الذي كان موجودا بينهما ، ويعرف بمضيق «داريال» ، وهو موسوم في جميع الخرائط الإسلاميّة والروسيّة في جمهوريّة جورجيا (گرجستان).

وقد استخدمت في تشييد السّدّ زبر الحديد أي قطع الحديد الكبيرة ، وافرغ عليها النحاس المنصهر . وهذا هو وصف القرآن ، ولا نقبل عنه بديلا ، مهما كانت درجة التقارب أو التشابه ، ونرفض أيّ سدّ آخر يكون قد شيّد من الحجارة . مثل سور الصين العظيم . حتى ولو كانت عناصر ومقوّمات وظروف إنشائه مشابهة لما جاء عن سدّ ذي القرنين .

وقد رأينا خلال السرد التاريخي أنّ القبائل المغولية . وراء سلسلة جبال قوقاز . كانت لا تتكاسل عن الانقضاض على مناطق آسيا الغربيّة خلال القرن السادس قبل الميلاد .

وكلّ صفحات التاريخ تذكر لنا أنّ ثمة توقّف مفاجئ حدث في عمليّة تدفّق هذه القبائل البدائيّة المتوحّشة ، وتشير أصابع الدقّة التاريخيّة نحو الحقبة التي ظهر فيها كورش الهخامنشي !

ومن ثمّ جاء قول المؤرّخين بأنّ هذه القبائل التي سمّيت «ميگاگ» عند اليونان و «منگوگ» عند الصينيين ، هم قوم «يأجوج ومأجوج» الذين جاء ذكرهم في القرآن . وقد تقدّم الكلام عن ذلك .

هذا وقد تتبّع مولانا أبو الكلام آزاد ، من خلال استقراء التاريخ ومراجعة النصوص في العهد القديم وما جاء فيها عن يأجوج ومأجوج ، ووصل إلى نفس ما هو قائم في الواقع في جمهورية جورجيا (گرجستان) الآن ، وقد عثر على كتل هائلة من الحديد المخلوط بالنحاس ، موجودة في جبال قوقاز ، مبعثرة في منطقة مضيق «داريال» الجبلي .

وهذه حقيقة قائمة لكلّ من أراد أن يشاهدها برأي العين .

جبال شاهقة تمتدّ من البحر الأسود حتّى بحر قزوين ، التي تمتدّ لتصل بين البحرين طوال ١٢٠٠ ك. م. وهي جبال التوائيّة حديثة التكوين ، شاهقة متجانسة التركيب ، إلّا من كتل هائلة من الحديد الصافي المخلوط بالنحاس الصافي في مضيق داريال. غير أنّ جسم الجبال الصخري (جبال قوقاز) من جانبي السدّ تآكل بفعل عوامل التعرية طوال ٢٥٠٠ سنة وصار هناك فراغ فيما بين الصخور الجبلية وجسم السدّ الحديدي النحاسي. وأصبح كتلا ضخمة تبعثرت في معبر المضيق.

ويشار إلى هذا السدّ في الأطالس الجغرافيّة الحديثة بين فلادي (idalF) وكوكس (ssakauik) وبين تفليس. ويذكره الأرمن. هناك. في صفحات تاريخهم (الشاهد على أحداثهم) باسم «بهاك غورائي» و «كابان غورائي» أي مضيق كورش أو «ممرّ كورش». كما أنّ سكّان كرجستان يعرفونه في بلادهم باسم الباب الحديدي ، وذكره الأتراك في كتاباتهم أيضا باسم «دامركايو» (قاپو).^(١) و «دامر» . بالتركيّة . يعني : الحديد. و «قاپو» : الباب. فالسدّ شيّد في منطقة جبلية بين صدفين في مضيق داريال ، وليس في مناطق سهليّة مثل سور الصين العظيم. وقد اقيم لإيقاف زحف الأجناس المتوحّشة عبر جبال القوقاز إلى شمال مملكة فارس وغرب آسيا ، ولم يكن لحجز مياه السيول والفيضان مثل سدّ مأرب. وقد شيّد من خامات الحديد واشعلت النيران لصهر النحاس ليصبّ فوق الحديد. وبقاياه تدلّ فعلا على انطباق مواصفاته مع ما جاء في القرآن الكريم.

ولذلك عبّر القرآن عن متانته بقوله تعالى : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾.

إذن ، لم يكن السدّ من الحجر ، مثل سور الصين العظيم.^(٢) أو جدار «دريند» الذي بناه

(١) كورش الكبير ، ص ٢٨٠.

(٢) بناء الإمبراطور «تشين شيه هوانج» بعد سنة (٢٢١ ق. م) ، حاجزا بين «منغوليا» والصين. وهو مشيّد من الطوب (البن .

أنوشيروان الملك الساساني^(١) بعد (١٠٠٠ عام) من بناء سدّ كورش. أو سدّ «مأرب» الذي شيد لتنظيم الريّ ووقاية المنطقة . وعاصمتها مدينة مأرب قاعدة المملكة السبئية (باليمن) . من أخطار الفيضانات الموسميّة ، وتهدّم بين (٥٧٠ . ٥٤٢ ق. م) على أثر السيل العرم (الهائج المدمر) ونتيجة للإهمال بشأن ترميم ثلمها.^(٢)

هذا هو سدّ كورش ذي القرنين . كما وصفه القرآن الكريم . يشهد على ذلك جميع الشعوب التي دخلت اوربا عن شمال جبال قوقاز وشاهدته بعد ما شيد أو اجتازت مضيق داريال قبل تشييده. هذا هو السدّ ، في منطقة استراتيجيّة ذات أهميّة كبيرة ، جرّ عليها موقعها هذا صعبا كثيرة ، فطمعت فيها كلّ الدول المجاورة!

هكذا ، فكلّ من سيطر على الإقليم صارت كلّ المناطق شماله وجنوبه تحت رحمته ، لذلك فقد وصل الغزاة إلى المنطقة من فجر التاريخ. فغزاها الآشوريّون والكلدانيّون والمصريّون والقديما والفرسيّون ، ثمّ اليونانيّون ... وخضعت لنفوذ بيزانطة في القرن الثالث الميلادي بعد أن انتشرت المسيحيّة في جنوبها في القرن الأوّل الميلادي. وكذلك استولت الصين على جنوب قوقاز في القرن الرابع الميلادي. وكانت دولتا الفرس والروم كفرسي رهان على امتلاك إرمينيا وقوقاز وأذربيجان طول التاريخ.

بناء جدار «دريند»

وفيما بين عامي (٥٣١ . ٥٧٩ م) حكم الفرس في عهد أنوشيروان هذه المنطقة ووجد الملك الفارسي أنّ السدّ (الذي بناه كورش قبل ١٠٠٠ عام) لم يعد يمنع المغيرين عن بلاد فارس ، خصوصا وأنّ النوعيّة قد تغيّرت ، فقد اضيف إليها العنصر الروماني

. المحروق) والطين والحجارة. يبلغ طوله (١٥٠٠ ميلا) ويمتدّ من البحر الأصفر حتّى سلاسل جبال «تاين داغ» ، لتحول دون القبائل الهمجيّة . التي كانت تسكن صحراوات منغوليا . الدائمة الإغارة على سهول الصين. ويشتمل السور على عدد من البوّابات الضخمة في مناطق متباعدة يقوم على حراستها جنود أشداء. مفاهيم جغرافيّة ، ص ١٢٨ . ١٢٩ .

(١) بناه في منحدرات جبال قوقاز حتى شواطئ بحر قزوين حيث مدينة دريند في طول سبعة فراسخ ، سدّا لهجمات الرومان البيزنطيّين والأتراك حيث كانوا يتدفّقون على شمال فارس عبر الشريط الساحلي الذي بلغ اتّساعه ٣٠ ميلا بين بحر قزوين وجبال قوقاز. مفاهيم جغرافيّة ، ص ٣١٥ ؛ ولغت نامدهخدا ، حرف الدال.

(٢) المنجد في الأعلام ، حرف الميم.

والتركي.

فمن أين جاء التهديد هذه المرّة ، وكيف بطل مفعول السدّ الكورشي؟
... كان بحر قزوين يضرب بأمواجه أقدام جبال قوقاز من جهة الشرق ، وكانت مياه البحر الأسود تضرب أقدامها من ناحية الغرب. وكان من المستحيل على الغزاة بعد بناء سدّ كورش الشهير أن يتوغّلوا إلى جنوب قوقاز.
ولكن بعد (١٠٠٠ عام) من بناء السدّ في مضيق داريال ، كان البحر قد فعل مفعوله في مياه بحر قزوين.
وبما أنّه بحر مغلق لا يتّصل ببحار العالم ومحيطاتها ، فقد تناقصت مياهه وانحسرت عن شواطئه ، متراجعة نحو القاع ، فانكشف جزء مدرّج على طول امتداد تعاريج الساحل وظهر بذلك شريط ساحلي ضيّق بين خطّ ماء البحر الجديد وأقدام جبال قوقاز عند «دربند» وصار الرومان البيزنطيّون والأتراك يتدفّقون على شمال فارس عبر هذا الشريط الساحلي الذي بلغ اتساعه ٣٠ ميلا بين بحر قزوين وجبال قوقاز.
لذلك أمر «أنوشيروان» ببناء جدار من الحجر بين مياه بحر قزوين وأقدام الجبال ، بعرض هذا الشريط الساحلي ، حتى التحم الجدار تماما بجبال قوقاز ، وبذلك عاد لسدّ كورش مفعوله مرّة أخرى.^(١)

جدار «دربند»^(٢)

ويجدر بنا ونحن على وشك الانتهاء من حديث ذي القرنين ، أن نتحدّث شيئا عن السدود المعروفة في العالم القديم وربما اشتبهت بسدّ ذي القرنين الآتي في القرآن الكريم :

(١) مفاهيم جغرافية ، ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٢) دربند ، مدينة في داغستان على ساحل بحر قزوين غربا ، سمّاها العرب «باب الأبواب» مشهورة بأسوارها التي تسدّ الممرّ بين البحر والجبل. احتلّها المسلمون عام ٢٢ هـ / ٦٤٣ م. وكانت آخر مدينة على حدود إيران الشمالية حتّى عهد فتحعلي شاه قاجار فاستلبها الروس عام ١٧٩٦ م.

منها : «جدار دربند» أو «حائط قوقاز» الذي بناه الملك الساساني أنوشيروان في امتداد جبال قوقاز حتى مياه بحر قزوين في طول سبعة فراسخ ، سدًا لهجمات أقوام همج كانوا وراء السدّ ، كانوا يغيرون على حدود ممالك فارس ، فصدهم ببناء هذا الحائط العظيم ، وجعل له بابا ضخما كان يوصد بوجه المغول والتتار. واشتهر بباب الأبواب وكانت مدينة «دربند» والتي بناها أنوشيروان في نفس المكان ، قد سمّيت بنفس الاسم. وهي اليوم عاصمة جمهورية «داغستان» على ساحل البحر ، ^(١) لقد كانت الحروب دامية بين ملوك فارس والقبائل الوحش خلف جبال قوقاز منذ عهد بعيد ، حيث أطماع تلك الأقوام الصحراويين في ثراء منطقة آذربيجان وإرمينية وداغستان وكرجستان وسائر البلاد الخصبة الغنيّة بالحرث والنسل. وكان الملك الساساني «قباد» (والد أنوشيروان) كان قد شرّع حملاته الدفاعية ضدّ أقوام التتر ، ليمنعهم عن إغارة البلاد ، وكانوا يغيرون عبر حدود ممالك فارس حتى نهر كورا (كورش القديم) ، فحاربهم «قباد» ومزّق شملهم في حروب دامية وقتلهم شرّ قتلة وسبى وغنم الكثير من أموالهم. وهكذا كانت الإغارات والهجمات ظلّت مستمرة بين حين وآخر حتى جاء دور «أنوشيروان» وتسّم الحكم ، فكان ممّا شدّ العزم على إنهاء تلك العرقلة ، أن قام بتشبيد حائط متين يحجز دون إغارات الأقوام الهمج نهائيًا ، وليريح شعبه من المزاكين طول حقبات. ^(٢)

وفيما بين عامي ٥٣١ . ٥٧٩ م (أي بعد بناء سدّ كورش بألف عام) وجد الملك أنوشيروان أنّ السدّ القديم لم يعد يمنع المغيرين عن فارس ، خصوصا وأنّ النوعيّة قد تغيّرت ، فقد اضيف إلى أقوام التتر والمغول ، العنصر الروماني والتركي ، وكان بحر قزوين قد أخذ في الانخفاض والانحسار عن أقدام جبال قوقاز ، نظرا لأنّه بحر مغلق لا يتّصل بالمحيطات ، فقد تناقصت مياهه وانحسرت عن شواطئه نحو القاع ، فأنكشف جزء مدرّج على طول امتداد تعاريج الساحل ، وظهر بذلك شريط ساحليّ ضيّق بين خطّ ماء البحر الجديد وأقدام جبال القوقاز عند «دربند» وصار الرومان البيزنطيّون والأتراك ، مع البقايا

(١) لغت نامه دهخدا ، حرف الدال ، ص ١٠٥٥٤ .

(٢) تاريخ إيران ، ص ٢٠٥ . ٢٠٦ و ٢١٥ .

من أقوام التتر الهمج يتدفّقون على شمال فارس ، عبر هذا الشريط الساحلي الذي بلغ اتّساعه (٣٠ ميلا) ^(١) بين بحر قزوين وجبال قوقاز .
لذلك قام أنوشيروان ببناء جدار متين من الصخور الغلاظ ، ممتدّا من سفوح جبال قوقاز حتى مياه البحر ، وآخذا فيه بعض الشيء . على ما ذكره
المسعودي والحموي . ^(٢) حتى التحم الجدار مع الجبال تماما .

* * *

وهل كان أنوشيروان هو الذي تبنّى بناء جدار دربند ، أم كان هو القائم بتجديد بنائه بعد انهيارات حصلت في أطرافه وتضعضع وأشرف على
الخراب ، فأعاد أنوشيروان بناءه على اسس متينة وعلى استحكام بالغ بقي طيلة قرون . (وقد كان قائما حتى عهد المسعودي سنة ٣٢٣ هـ)؟
يبدو من كتاب تاريخ كرمان : أنّ الجدار كان قد بني قبل ذلك بما أثر فيه طول العهد

(١) حسب تقديره الآن وقد انحسر البحر أكثر . وو قد قدره الحموي آنذاك على عهد الملك أنوشيروان بسبعة فراسخ ، كلّ فرسخ ثلاثة أميال اليوم ، فقد اتّسع هذا الشريط بعد ألفي عام
بعرض عشرة فراسخ .

(٢) قال الحموي : وعلى مدينة باب الأبواب (دربند) سور من الحجارة ممتدّ من الجبل طولا ، ومع طول السور فقد مدّت قطعة في البحر شبه أنف طولاني ليمنع من تقارب السفن من
السور ، وهي محكمة البناء موثّقة الأساس من بناء أنوشيروان . وهي أحد الثغور الجليّة العظيمة ، لأنّها كثيرة الأعداء الذين حقّوا بها من امم شتى وألسنة مختلفة وعدد كثير . قال : وأقام
أنوشيروان بيني الحائط بالصخر والرصاص ، ثمّ قاده في البحر . وقد أحكم هذا الممتدّ في البحر بحيث لا يتهيأ سلوكه ، وقد بناه بالحجارة المنقورة المربّعة المهندمة ، لا يقلّ أصغرها خمسون رجلا
، وقد أحكمت بالمسامير والرصاص ، والقيت في قرار البحر حتى اعتلى السور على وجه البحر بما استوى مع الذي في البرّ في عرضه وارتفاعه . وقدّر طول الحائط من البحر إلى سفح الجبل
بسبعة فراسخ . معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٠٣ . ٣٠٥ . وذكر المسعودي أنّ كسرى أنوشيروان بنى السور من جوف البحر بمقدار ميل (٤٠٠ ذراع) بالصخر والحديد والرصاص ، ويسمّى
هذا الموضع من السور في البحر : الصّدّ . وهو باق إلى وقتنا هذا ، وهو سنة (٣٣٢ هـ) مانعا للمراكب في البحر إن وردت من بعض الأعداء . ثمّ مدّ السور في البرّ ما بين الجبل والبحر . وزاد
: أنّه مدّ السور حتى أعالي الجبال ومنخفضاته وشعابه (أي سدّ جميع الخلل والفرج هناك) نحو من أربعين فرسخا إلى أن ينتهي إلى قلعة «طبرستان» . مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٧٦ و
٢٦٤ . قلت : ولعلّه الصاروج بدل الرصاص وقد التبس عليهم ، لوجود المشابهة شكليّا وبعد مرور ألف عام على بنائه . والصاروج : خليط من حجر الكلس وأملاح الكلسيوم والباريوم
محروق القصب وغيرها ، يستعمل في طلاء الجدران والأحواض والحمامات . صنعة قديمة استخدمت في اسس البنايات الضخمة وأعمدة الجسور ولمخازن المياه ، لمقاومتها تجاه تأثير الرطوبة
واستحكامها عن كلّ مؤثرات الجوّ والمحيط . وهي على مقاومة الإسمتت في هذا العصر .

من التضعضع والإشراف على الانهيار ، فكان أنوشيروان قام بترميمه وتحديد عمارته.

جاء فيه : أنّ شاهنشاه إيران أنوشيروان عمد من «المدائن» عاصمة ملوك الفرس ، قاصدا مدينة باب الأبواب لترميم السدّ في منطقة «شروان»^(١). فأخذ طريقه على ساحل الخزر ومعه العمّال والمهندسون لعمارة السدّ. وأنفق أموالا طائلة ، لكن المشروع استنفدها دون الاكتمال. وبعد التدبّر والمشاورة رأى الملك أنّ أحدا من عظماء مملكته لا تسعه المساهمة في إكمال المشروع الجلل ، سوى الأمير «آذرماهان» وكان واليا على بلاد كرمان من قبل السلطان. وكانت بلاد كرمان يوم ذاك غنيّة بالثروات الطبيعيّة والزراعيّة بما يفوق سائر البلاد. غير أنّ الملك لم يرقه تكليف موظّفيه بأكثر من المقرّر الرسمي المفروض عليهم ، حيث كان خلاف العدل السلطاني. ولذلك عزم على المسير إليه في ألف من خواصّه المهندسين والعمّال الفنّيين ، حتى ورد «إيلغار گواشير»^(٢) نازلا في دار الأمير ، فوعدهم بالمساهمة في المشروع بما يكفي مئونة إكمال السدّ نهائيا ... ذكروا أنّ السدّ اكتمل بما بذله أمير كرمان آنذاك.^(٣)

شكوك حول كورش : هل هو ذو القرنين؟

ربما تشكّك البعض في الرأي القائل بأنّ ذا القرنين . الذي وصفه القرآن بالصلاح . هو كوروش الكبير الملك الفارسي العظيم؟! وعمدة مسارب الشكّ هو جانب سلوكه السياسي المتسامح مع أصحاب الأديان وحتى مع عبدة الأوثان ، ومن غير أن يسير سعيا وراء إعلاء كلمة الله في الأرض. يشهد لذلك سلوكه الخاصّ مع البابليّين وإفساح المجال لهم في عقيدتهم الاولى ولا سيّما تزلفه في تكريم كبير آلهتهم «مردوك» . حتى أنّه عدّ نفسه موضعا لعنايته في منشور عام ، كما ردّ إلى عبدة الأوثان كلّ ما نهب منهم من أصنام وجعلها في معابد كانت تسمّى «شادي

(١) شروان : منطقة في الجنوب الشرقي من بلاد قوقاز بين أعالي نهر أرس وكورا كانت في القديم من نواحي باب الأبواب.

(٢) إيلغار ، لفظة تركيه تعني : المعسكر . الحامية. وگواشير اسم قديم لمدينة كرمان الفعلية.

(٣) راجع : كورش كبير ، ص ٢٨٣ . ٢٨٤ الهامش. عن تاريخ كرمان ، ص ٢٤ .

دل» أي فرحة النفس.

يقول في ذلك الاستاذ محمد خير رمضان : تلك المقاطع التاريخية إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على وثنيّة كورش وتعظيمه للآلهة وإفساح المجال لعبادتها لكلّ الشعوب المقدّسة لها. ويكفيك ما قاله في منشوره العام : «أرجعت الآلهة التي نقلت إليها (معابد بابل) إلى مواطنها ... وأعدت إلى سومر وأكد آلهتها التي حملت إلى بابل ووضعتها في قصورها التي تسمّى «شادي دل» وبذلك أنهيت غضب الآلهة بأمر من مردوك الإله الكبير . ومردوك هو صنم بابلي.

وهذا يقوي ما ذهب إليه المؤرّخون ممّا قيل عن عقيدته وإعطائه الحرّيّة الدينيّة كيفما كانت ، وبخاصّة عبادة الأصنام. لا كما هي صفات ذي القرنين . حسبما جاءت في القرآن . من أنّه كان يحارب هذا الشرك. ولا يتعامل معهم ولا يقبل منهم إلّا الإيمان أو الحرب!!^(١)

ومن ناحية أخرى هي جانب بناء السدّ . الذي ذكره القرآن . تشكّكوا في كونه من عمل كورش بالذات ، ولعلّه قام بترميمه نظير ما عمله أنوشيروان بعد ألف عام. ومستند الشكّ أنّه لم يأت في التاريخ ذكر عن بناء هذا السدّ على يد كورش ، في حين أنّه لم يكن بذلك البعيد بحيث يجهل تاريخ حياته ولا سيّما في مثل هذا العمل الضخم ، كما لم يذكره هو في مفاخره حيث ذكر مفاخر هي أقلّ شأنًا من بناء هذا السدّ العظيم.

يقول الاستاذ محمد خير رمضان : لا دليل لاستناد بناء السدّ إلى كورش ، وعمدة ما يستدلّون به : أنّ القبائل المغوليّة كانت لا تتكاسل عن الانقضاض على مناطق آسيا الغربيّة خلال القرن السادس قبل الميلاد ... وكلّ صفحات التاريخ تذكر لنا أنّ ثمة توقّفًا مفاجئًا حدث في عمليّة تدفّق هذه القبائل البدائيّة المتوحّشه ... وتشير أصابع الدقّة التاريخيّة نحو الحقبة التي ظهر فيها كورش الهخامنشي.

هذا هو الدليل الوحيد الذي استند إليه أصحاب القول بأنّ السدّ من عمل كورش

(١) ذو القرنين ، القائد الفاتح والحاكم الصالح لمحمد خير رمضان يوسف ، ص ٢٣٦ . ٢٣٨.

الكبير. ولكن :

هل يعني توقف هذه القبائل : أنّ كورش بنى السدّ؟!

لما ذا لا نقول : إنّ السدّ كان مبنياً من قبل ، ولكنّ الحوادث الطبيعيّة أثّرت في جوانب السدّ ، كأن تكون مياه بحر قزوين قد انحسرت عن شواطئه فكانت القبائل تغزو من الساحل الذي كان مكانه الماء ، ثمّ اعيد ترميم السدّ في عهد ذلك الملك. ووقفت هجمات القبائل المتوحّشة على تلك المنطقة بعد هذا؟!

وهذا نظير ما حدث على عهد أنوشيروان بعد ألف عام ... أفليس من المعقول أن يكون كورش قد فعل مثل صنيع أنوشيروان في ذلك ، ويكون السدّ . بطبيعة الحال . قد بني قبله بزمان طويل؟!

قال : إنّني أرى ما ذكرته أسلم ، لأسباب :

١ . لم يثبت تاريخيّاً قطّ أنّ كورش قد بنى سدّاً هناك ...

٢ . لم يذكر كورش في الوثيقة السابقة التي كتبها ، أنّه بنى السدّ ... رغم أنّ هذا يعدّ عملاً عظيماً جدّاً لا يرتقي إليه أيّ عمل من أعمال كورش السابقة ...

فكيف يهمل كورش ذكر هذا السدّ . والذي استغرق بناؤه عشر سنوات كما يقول الاستاذ خضر . والذي هو أبلغ آثاره على مرّ السنين ، ثمّ يذكر أشياء آخر أبسط منه بكثير ، والتي يشارك فيها ملوك غيره؟!

٣ . ليس كورش بذلك الملك القديم جدّاً حتى تخفى أخباره على جزيرة العرب ... في حين يجب أن لا ننسى أنّ قصص الفرس كانت منتشرة بين العرب ، وكان لهم أنصار بينهم ، وقد تأثّروا بأدبهم ورواياتهم وقصصهم الشعبيّة ... وتحدّثنا السيرة النبويّة الشريفة عن النضر بن الحارث ، الذي قدم من الحيرة وكان قد تعلّم بها أحاديث ملوك فارس وأحاديث رستم واسفنديار ... وكان يحدث بها إثر ما يقوم رسول الله ﷺ من مجلسه حينذاك ...

وإذا كان كورش من أعظم ملوك فارس ، فلا بدّ أنّه كان له نصيب من بين تلك

الأحاديث ...

قال : هذا ما بدا لي خلال هذا البحث ، والقارئ حرّ فيما يرتّيه ، وبخاصّة بعد أن بيّنت له كلّ الأوجه بدقّة وإنصاف ... (١)

* * *

إذن فمن هو ذو القرنين؟

يرى الاستاذ رمضان : إنّ رجل آخر. عاش في عصور غابرة. قبل تتّبع. وقبل الإسكندر. وقبل كورش. فقد كان في زمن نبي الله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام (أي قبل كورش هذا بألف عام) كما ذكره وصحّحه ثقات المؤرّخين!!

إذن فذو القرنين رجل آخر ضاعت أخباره على مرّ التاريخ ولم يسلم منها إلّا ما ذكره الله . عزّ وجلّ . وما ثبت عن الرسول ﷺ ونتف اخرى قليلة من التاريخ ، اعتمدها بعض الثقات من المؤرّخين. (٢)

وهنا أورد روايات وحكايات . أسندها إلى السلف . بشأن ذي القرنين :

ذو القرنين في الروايات

قال : وأنا هنا سأصل بالقارئ إلى النتيجة ، من تلك الروايات إلى ما سنستقرّ عليه بعونه تعالى.

فقد ذكر الأزرقى وغيره : أنّ ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل عليه السلام وطاف معه بالكعبة المكرّمة هو وإسماعيل عليه السلام .

وروي عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما : أنّ ذا القرنين حجّ ماشيا ، وأنّ إبراهيم لما سمع بقدمه تلقّاه ، فلما اجتمعا دعا له الخليل ورضاه وأنّ الله سخرّ لذي القرنين السحاب يحمله حيث أراد.

وقال إسحاق بن بشر عن عثمان بن الساج عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان ذو القرنين ملكا صالحا رضي الله عمله وأثنى عليه

في كتابه وكان منصورا وكان

(١) المصدر : ص ٢٤٢ . ٢٤٤.

(٢) المصدر : ص ٢٤٨.

الخضر وزيره. وذكر أنّ الخضر عليه السلام كان على مقدّمة جيشه ، وكان عنده بمنزلة المشاور ... ^(١)

وروى الفاكهي من طريق عبيد بن عمير . أحد كبار التابعين . : أنّ ذا القرنين حجّ ماشيا فسمع به إبراهيم فتلقّاه . ومن طريق عطا عن ابن عباس : أنّ ذا القرنين دخل المسجد الحرام فسلمّ على إبراهيم وصافحه ، ويقال : إنّّه أوّل من صافح. ^(٢) ومن طريق عثمان بن الساج : أنّ ذا القرنين سأل إبراهيم أن يدعو له . فقال : وكيف وقد أفسدتم بئري! فقال ذو القرنين : لم يكن ذلك عن أمري ، يعني أنّ بعض الجند فعل ذلك بغير علمه! وذكر ابن هشام . في التيجان . : أنّ إبراهيم تحاكم إلى ذي القرنين في شيء فحكم له! وروى ابن أبي حاتم من طريق علي بن أحمد : أن ذا القرنين قدم مكّة فوجد إبراهيم وإسماعيل بينان الكعبة ، فاستفهمهما عن ذلك ، فقالا : نحن عبدان مأموران ، فقال : من يشهد لكما؟ فقامت خمسة أكبش (!؟) فشهدت! فقال : قد صدقتما. قال ابن حجر : فهذه الآثار يشدّد بعضها بعضها وتدلّ على قدم عهد ذي القرنين. ^(٣)

إزاحة شبهات؟!

تلك شبهات اثيرت حول الرأي القائل بأنّ ذا القرنين . الذي جاء وصفه في القرآن . هو كورش الهخامنشي الملك الفارسي العظيم!!

لكنّها لم تحسب حسابها الدقيق ، ومن ثمّ فإنّ الترجيح مع هذا القول المعتمد على اصول متينة ، أمّا الشبهات أو الشكوك فلا مجال لها بعد إحكام الدليل :

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

(٢) وهكذا روى الشيخ في أماليه (المجلس ٨ والحديث ٢٥ . ترتيب الأمالي ، ج ٢ ، ص ٤٥ ، رقم ١٠ . ٦٠٣) بإسناده إلى أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : «أول اثنين تصافحا على وجه الأرض ذو القرنين وإبراهيم الخليل ، استقبله إبراهيم فصافحه ...». وفي قصص الأنبياء للراوندي : وكان ذو القرنين أوّل الملوك بعد نوح عليه السلام ملك ما بين المشرق والمغرب . بحار الأنوار ، ج ١٢ ، ص ١٧٥ . قال الصدوق : والصحيح الذي أعتقده في ذي القرنين أنّه لم يكن نبيا ، وإنّما كان عبدا صالحا أحبّ الله فأحبّه الله ونصح الله فنصحه . قال أمير المؤمنين عليه السلام : وفيكم مثله . يعني نفسه الشريفة . بحار الأنوار ، ج ١٢ ، ص ١٨١ ، رقم ٩ .

(٣) انظر : فتح الباري بشرح البخاري ، ج ٦ ، ص ٢٧١ .

أولاً . ليس في الروايات أو الحكايات التي سردوها لغرض إثبات قدم عهد ذي القرنين بما يقارن عهد إبراهيم الخليل . ليس فيها ما يفيد اليقين ، لضعف الأسناد واضطراب المتن إلى حدّ بعيد.

يقول الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي . ردّا على اختيار الاستاذ محمد خير رمضان يوسف . : «كم كنت أتمنّى على الاستاذ ... أن يأتي على رأيه بأدلة علميّة يقينيّة ، وهذه لا تكون إلّا فيما اخذ من القرآن والحديث الصحيح ، أمّا اعتماده على كلام مؤرّخين ومفسّرين ، لا دليل عليه من المصادر المعتمدة ، فهذا لا يقبل في البحث العلمي المنهجي اليقيني.

ولذلك نحن مضطّرون أن نخالف الاستاذ محمد خير في ترجيحه عن ذي القرنين ، من أنّه كان يعيش في زمن إبراهيم ﷺ كما أنّنا مضطّرون إلى ترك كلّ الأقوال المذكورة في كتب التاريخ والتفسير ، عن التقاء ذي القرنين بإبراهيم ﷺ في فلسطين أو الحجاز ، لكونها غير مذكورة في حديث واحد صحيح ، يمكن للإنسان أن يعتمد عليه ويطمئنّ به ، والله أعلم». ^(١)

كورش هو ذلك العبد الصالح؟

جاء في وصف القرآن لذي القرنين ما ينمّ على صلاح وإيمان واعتقاد بالله العظيم ، وأنّه كان على بصيرة من أمره وموضع عنايته تعالى فيما انتهجه من الحياة السياسيّة الاجتماعيّة ، وفي سبيل إحياء كلمة الله في الأرض ، بما آتاه الله من القدرة والحكمة وحسن التدبير :

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا...﴾

﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا...﴾

(١) مع قصص السابقين في القرآن (٢) من كنوز القرآن (٦) . دار القلم . دمشق ، ط ٢ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م . الدار الشاميّة ، بيروت ، دار البشير بجدة ، المملكة العربيّة السعوديّة.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ... هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ...﴾^(١)

كان قد مكّنه الله في الأرض وكان قد استخدم سلطانه هذا في سبيل عمارة الأرض وإفشاء السلام فيها ، وبذلك وبنعمته تعالى أصبح عبدا شكورا!

وهل تتصادق صفات كهذه مع سيرة كورش السياسيّة آنذاك؟

الممعن في سيرة كورش بدقّة يجده على الوصف الذي جاء في القرآن الكريم :

كان مؤمنا معتقدا بالله العظيم وأن لا حول ولا قوّة إلّا به ، وأنّه تعالى هو الذي رعاه وألهمه الخير وهداه إلى سبيل الرشاد ، في إصلاح البلاد والعناية بشئون العباد. الأمر الذي يبدو بوضوح من سيرته الحكيمة مع مختلف شعوب الأرض :

يقول الدكتور خضر : ويميل كثير من المؤرّخين إلى اعتبار أنّ كورش كان ملكا يتّصف بالعقل والحزم والعزم والرأفة في آن واحد ، وأنّه كان يمضي إلى آخر المطاف في أيّ عمل يبدأه ، ولا يترك أيّ عمل دون إتمام. وكان يلجأ إلى العقل أكثر من لجوئه إلى القوّة.

وكان يعامل الشعوب المغلوبة معاملة حسنة تتّصف بالرأفة والشفقة ، بخلاف ما كان عليه الحال عند الملوك الآشوريّين والبابليّين ، وكان يعامل الملوك المهزومين معاملة طيّبة جدّا لدرجة أنّهم كانوا يصبحون أصدقاء حميمين له وكانوا يقدّمون له العون إذا تطلّب الأمر.

وكان العدل يرفرف على جميع الشعوب التي خضعت له من نهر السند حتى بحر إيجه (وهي مسافة تقرب من طول الولايات المتّحدة الأمريكيّة من الشرق إلى الغرب) ... ومن خليج عدن حتى صحراء بحر قزوين. وكان النظام الذي أرسى الحاكم العظيم كورش دعائمه في هذه الإمبراطوريّة المترامية الأطراف عملا خارقا يعدّ من الأعمال الخالدة المجيدة في تاريخ الشرق بل في تاريخ العالم كلّ ...

حقّا ... لقد كان حاكما رحيمًا مستنيرًا يدعو إلى الخير ... وكان يلقّب بالملك

(١) الكهف ١٨ : ٨٤ و ٨٦ و ٩٥ و ٩٨ .

الأكبر ... وظلّ هذا تقليدا عاما لكلّ عاهل فارسي.

ويرى العلامة أبو الكلام آزاد : أنّ كورش كان يطبّق تعاليم الفيلسوف والحكيم المشهور «زرادشت» والتي تدعو إلى الخير وتعتقد بالحياة الاخرى وبقاء الروح. كما يرى أبو الكلام آزاد في تعاليم «زرادشت» أنّها محور دارت عليه الدعوة إلى طهارة النفس وحسن العمل ، يرى فيها أيضا تحريما لعبادة الأصنام في أيّ شكل من الأشكال.

ومن دلائل تدبّن الحاكم العظيم كورش ما كشفه الاستاذ «هرتزفلد» (dlefzreH) من بقايا معبد قديم ، يعتقد أنّ كورش هو الذي بناه في مدينة «پاسارگاد» ويقوم هذا المعبد على مقربة من قصر الملك ، وقبره في تلك المنطقة. وهذا المعبد يعبر عن مبلغ أهميّة هذه الديانة في عهد كورش ومن بعده. ويراها المؤرّخون ديانة قديمة كانت ذات أهميّة كبيرة عند أهل فارس القديمة ، وأنّها دعت كلّ إنسان وحثته على اختيار أحد الطريقتين : إمّا أن يملأ قلبه بالخير والنور أو ينغمس في الشرّ والظلمة. وعلى كلّ فسيلاقي جزاءه ويحاسب على ما آتاه. ويعتبر المؤرّخون هذه العقيدة أقدم ديانة ظهرت في آسيا تعتقد بالحساب بعد البعث.

قال الدكتور خضر : ولعلنا نجد في قول ذي القرنين ما يشير إلى ذلك :

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا﴾.

أي هناك إلها ، سيرد إليه كلّ إنسان يوم البعث للحساب ، فإن كان ظالما في حياته فسوف يعذّبه الله عذابا شديدا.

وقد ذكرت كتب المؤرّخين أنّ كورش لم يعمل السلب والنهب في القبائل الأيونية ^(١) التي أخضعها ، ولم يسمح بالنهب والقتل فيما آل إليه من مدن وممالك. وكان بذلك على العكس تماما من الملوك الآشوريّين ... فإنّهم جعلوا المدن التي فتحوها في مستوى الأرض ، وكانوا يتبجّحون بأنّهم تركوها خرابا يبابا ، فلم يعد يسمع فيها نباح كلب

(١) أيونية : منطقة واسعة في غرب آسيا الصغرى تشمل السهول الساحليّة لبحر إيجه والبحر الأسود وجزر منتشرة هناك ، كان يسكنها المهاجرون اليونانيّون القدامى وأسّسوا هناك مملكة واسعة مقتدرة حالفت ليديا وملكها «كرزوس» العاتي على كورش ، لكنّ كورش ساحمهم بعد الاستيلاء عليهم جميعا.

أو صياح ديك. وقد ورد نفس الشيء عن ملوك عيلام.

وحين رأى الناس سلوك كورش ، وفارنوا ذلك بما كان سائدا ومتّبعاً آنذاك ، كانوا يعتبرونه حاكماً عادلاً منصفاً ، طيّب القلب يحبّ الخير للناس. (١)

ويعتبره المؤرّخون أوّل من أرسى الاسس الأخلاقية في العالم القديم وأدخل اسلوباً جديداً لمعاملة الممالك التابعة والشعوب المغلوبة. (٢)

ويذكر المؤرّخ اليوناني الكبير «هيرودتس» أنّ كورش . بعد إخضاع بابل . توجّه نحو الشمال الغربي لإعادة الأمن على البلاد ، وإخضاع القبائل الوحش (ماساجيت . مأجوج) التي كانت تشنّ إغارتها على البلاد الآمنة. يقول : وكان قد توجّه لذلك الصوب بدافع إلهي ... أولاً : أصالة نزعتة الإلهية ... وثانياً : ثقته النفسية اعتماداً على ما مكّنه الله تعالى من القوّة والسطوة وقدرته الفائقة على إخضاع كلّ الصعاب. (٣)

ويقول «ول ديورانت» : كان كورش من الحكّام الذين خلقوا ليكونوا حكاماً ، والذين يقول فيهم «إمرسن» : كان الناس يبتهجون عند ما يرون هؤلاء يتوّجون. فلقد كان ملكاً بحقّ في روحه وأعماله ، قديراً في الأعمال الإدارية والفتوح الخاطفة المحيرة ، كريماً في معاملة المغلوبين ، محبوباً لدى أعدائه السابقين ، فلا عجب والحالة هذه أن يتّخذ اليونان منه موضوعاً لعدّة روايات بطولية وأن يصفوه بأنّه أكبر أبطال العالم. (٤)

كان وسيماً بهيّ الطلعة . وقد اتّخذ الفرس نموذجاً للجمال البشري حتى آخر أيّام فنونهم القديمة. (٥) وأنّه أسّس الاسرة الهخامنشيه اسرة الملوك العظام التي حكمت بلاد الفرس في أزهى أيّامها وأعظمها شهرة ، وأنّه نظّم قوّات ميديا وفارس الحربية ، فجعل منها

(١) مفاهيم جغرافية ، ص ٢٥١ - ٢٥٥.

(٢) تاريخ إيران ، ص ٧١ - ٧٢.

(٣) . «انگیزه های متعددی داشت ، یکی اصل و تبار ایردی وی ، دیگر پیروزیهای بی دریی ...». تاريخ هيرودت ، ص ٩٩.

(٤) قصة الحضارة ، ج ٢ ، ص ٤٠٣.

(٥) يبدو من وصف «ول ديورانت» عن الشعب الفارسي أنّهم كانوا أجمل شعوب الشرق الأدنى في الزمن القديم ، فالآثار الباقية من عهدهم تصوّرهم شعباً معتدلاً القامات قويّ الأجسام ، قد وهبتهم طبيعة البلاد شدّة وصلابة ، ولكن ثروتهم الطائلة رققت طباعهم ، وهم ذوو ملامح متناسبة متناسقة ، شمّ الانوف ، تبدو على وجناتهم سمات النبل والروعة . ثمّ يأتي في وصف ملابسهم الجميلة ذوات وقار وإكبار ... قصّة الحضارة . تاريخ الشرق القديم ، ج ٢ ، ص ٤١٠.

جيشاً قوياً لا يقهر ، وأنّه استولى على سرديس (سارد) وبابل ، وقضى على حكم الساميين في غربيّ آسيا ، فلم تقم له بعدئذ قائمة مدى ألف عام كاملة ، وضمّ إلى الدولة الفارسيّة كلّ البلاد التي كانت من قبل تحت سلطة آشور وبابل وليديا وآسيا الصغرى ، حتى أصبحت تلك الإمبراطوريّة أوسع المنظّمات السياسيّة في العالم القديم ومن أحسنها حكماً في جميع عصور التاريخ.

ويبدو . على ما نستطيع أن نتصوّره فيما يحيط به من سدم الأساطير . أنّه (كورش) كان أحبّ الفاتحين إلى النفوس ، وأنّه أقام دولته على قواعد من النبل وكرم السجّايا ، وأنّ أعداءه كانوا يعرفون عنه لين الجانب فلم يحاربوه بتلك القوّة المستعيسة التي يحارب بها الرجال حين لا يجدون بداً من أن يقتلوا أو يقتلوا ...

... وكانت أولى القواعد السياسيّة التي تقوم عليها دولته : أن يترك للشعوب المختلفة . التي تتألّف دولته منها . حرّيّة العبادة والعقيدة الدينيّة ، لأنّه كان عليماً كلّ العلم بالمبدأ الأوّل الذي يبني عليه حكم الشعوب ، وهو : أنّ الدين أقوى من الدولة ، ومن أجل ذلك لا نراه ينهب المدن أو يخرّب المعابد ، بل نراه يبدي كثيراً من الإكبار والمجاملة لآلهة الشعوب المغلوبة ، ويسهم بما له في المحافظة على أضرحتها ...^(١) ويزيدك نباهة بشأن هذا الرجل العظيم ، تلك وثائقه بشأن حقوق الامم :

وثيقة إعلان حقوق الامم

التي أصدرها كورش الأكبر مؤسس الإمبراطوريّة الفارسيّة منذ سنة ٢٥٠٠ أي قبل الميلاد ب ٥٠٠ عام وإليك نصّ المنشور الذي أصدره كورش إثر فتح بابل سنة ٥٣٩ ق. م. وقد نقش على اسطوانة من الطين المطبوع (الفخار) وجدت سنة ١٦٧٩ م في منطقة «اور» في ما بين النهرين من سهل العراق. وقد كتبت باللغة البابليّة. والاسطوانة محفوظة في المتحف البريطاني بلندن :

(١) المصدر : ص ٤٠٣ . ٤٠٤ .

أنا كورش

«أنا كورش ملك العالم ، الملك الكبير ، الملك المقتدر ، ملك بابل وسومر وأكد ، ملك الجوانب الأربعة للعالم ، ابن قمبيز (كمبوجيه) الملك الكبير ، ملك أنشان (أنزان خوزستان : عيلام) حفيد ملك أنشان الكبير ، من أعقاب «چيش پيش» الملك الكبير ، ملك أنشان ، دوحه السلطنة الأبديّة ، موئل عناية «بعل ونبو»^(١) وموضع رعايتهما. دخلت «تين تير - بابل» بلا حرب ولا مقاومة ، فاستبشر الناس بي ، وارتقيت على أريكة البلاد بسلام ، إذ ربط «مردوك» الإله الكبير^(٢) قلوب الناس بي ، حيث احترمت جانبه طيلة حياتي ... دخل جيشي العظيم بابل بكلّ سهولة ، ولم أسمح لأيّ شخص أن يثير الخوف والرعب في أرض «سومر وأكد». وتأملت الأوضاع وألمتني مشاهد وهنها في بابل ، فبذلت جهدي في إحياء المعابد والهياكل وإصلاح عمارتها ، كما سعت في الترفيه على أهل بابل ورفع شقاء العيش عنهم ، فأصبحوا في ظلّي مرفّهين ومتحرّرين من نير الذلّ الذي كان وضعه عليهم سلاطينهم من قبل (يقصد : نبوكدنصر وأحفاده). فعمرت البلاد وأصلحت شئون العباد ، ومن ثمّ ابتهج «مردوك» كبير آلهة بابل بأعمالي وقد أثبتت عليه بكلّ سرور ، فغمري بعنايته الشاملة ... أنا كورش الذي أثبتت عليه وكذا ابني قمبيز وكلّ أفراد عسكري ، فشمّلنا جميعا ببركاته. فملوك العالم ، المتكثّون على أرائكهم في القصور ، كلّهم من البحر الأعلى حتى البحر الأسفل ، وملوك المغرب الذين يعيشون في الخيام ، قدّموا لي الخراج والهدايا الكثيرة ولمسوا قدمي وقبّلوهما بكلّ خضوع ...

وجمعت شمل الناس وأحييت بلادهم وشيّدت معابدهم على ما راموا ، وأرجعت إليها كلّ ما نهب منها من مجوهرات وصور آلهة وأموال ، والتي كان «نبونيد» (آخر ملوك بابل ، حفيد نبوكدنصر) قد استلبها ونهبها ،

(١) بعل : اسم للبارئ المتعالي عند البابليين. ونبو : اسم للمدبّر الذي يقوم بتدبير العالم عن أمره تعالى.

(٢) اسم لكبير الآلهة في معبد بابل ، كان يمثّل الإله ربّ العالمين.

فأعدتها في أماكنها الآمنة بكلّ صفاء وخلوص ، وبذلك كنت قد أرضيت خاطر الإله الكبير «مردوك» والذي كان قد غضب من أعمال الجبابة من قبل ، وأرجو أن تبتهل الآلهة التي أرجعتها إلى أماكنها ، إلى الله وملائكته (بعل ونبو) كلّ صباح ، ليدوم عمري في عافية. وليقولوا : إنّ كورش وولده قمبيز يكرمان من شأن الإله في إكبار وإعظام ...»^(١)

وثيقة إعلام تحرير اليهود

التي أصدرها كورش بشأن بناء القدس الشريف وإعادة مجده وتحرير بني إسرائيل من الأسر البابلي وتزويدهم بالعدّة والمال. والوثيقة مسجّلة في سفر عزرا ، الذي تزعم اليهود في عودتهم إلى اورشليم وإحياء ما درس من آثار الديانة اليهوديّة وصحائفها وكتبها ...

جاء فيه :

«تَبَّه الربّ روح كورش ملك فارس ، فأطلق نداء في كلّ أرجاء مملكته الواسعة وكتب دستورهِ العامّ إلى كافّة الشعوب التي تحت حكمه. وهذا هو نصّ المنشور :

«أنا كورش ملك فارس ، أرفع ندائي بأنّ الربّ إله السماء ، هو الذي منحني السلطة على جميع ممالك الأرض ، وأمرني أن اعيد بناء بيته في اورشليم التي في يهوذا. وعليه فأوجّه ندائي إلى جميع شعوب اليهود الذين يعيشون في ظلّ حكومتي ، من كان منهم يريد الهجرة إلى اورشليم. موطنه الأصل . ويعمر بيت الإله إله إسرائيل ، فالله معه وتحت رعايته ، وعلى أولئك الذين يجاورون أبناء اليهود في أيّ البلاد ، عليهم أن يساعدوا هؤلاء بالزاد والمال وحمولة الركوب ، وهدايا يقدّمونها إلى بيت الربّ في اورشليم.

(١) راجع : الصفحة الاولى من كتاب «تونس وإيران - قرون من التلاقح الحضاري» تأليف عدّة أساتذة تونسيّين ، الدار التونسيّة للنشر ، عام ١٩٧١ م (ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح ، ص ٢٣٦ . ٢٣٧) ؛ و «كورش الكبير» (ذو القرنين) ، ص ٥٤ . ٥٥ .

ويقول الاستاذ أبو الكلام آزاد : إنّ أهمّ شيء في وصف ذي القرنين . حسبما جاء في القرآن الكريم . هو : خلوص نيّته وطهارة إيمانه بالله ، وتمجيده لساحة قدسه تعالى ، وعقيدته بالحياة الاخرى ... فهل هذه الصفات تتصادق مع سمات كورش؟ ولعلّ القرائن والشواهد الراهنة في حياة كورش ، تؤيّد جانب الإثبات ، وأنّ سماته نفس السمات والصفات المذكورة في وصف ذي القرنين ... واولى هذه الشواهد ، هي عقيدة اليهود بشأنه ، حتى جعلوه المنجي المنتظر من قبل الله ، ورفعوه إلى منزلة المسيح ، أي الصفوة من أوليائه المخلصين.

ولا شك أنّ اليهود يصعب عليهم الإيمان برجل هو خارج مذهبهم في الإيمان بالله تعالى فضلا عن عابد وثن أو ساجد نار ... وأيضا فمن المقطوع به أنّ كورش كان على دين «زردشت» وهو دين التوحيد والعقيدة بوحى السماء ويوم الجزاء والدعوة إلى الطهارة والقداسة في الحياة .. وكان لا بدّ أنّ كورش كان يستقي في أخلاقه الكريمة من هذا المعين الصافي والضافي بمكارم الأخلاق ، والتي منها الدعوة إلى رءوس الأخلاق الثلاثة :

١ . «هو مت (پندار نيك)» : صدق النيّة.

٢ . «هوخت (گفتار نيك)» : صدق القول.

٣ . «هو ورشت (کردار نيك)» : صدق العمل.

هذا هو أساس تعاليم زردشت الدينيّة ، ومن مثل هذه الأخلاق يمكن أن يتكوّن مزاج كورش الملكي الفخيم! قال : فإن كان ذو القرنين يدين بدين «مزديسنا» أي بالدين الزردشتي ، ويثبت له القرآن الإيمان بالله واليوم الآخر ، ليس هذا فحسب ، بل يجعله من الملهمين من عند الله ، أفلا يلزم من هذا أنّ دين زردشت كان دينا صحيحا إلهيّا؟ أجل ، يلزم هذا ، وليس هنالك ما يحملنا على رفض هذا اللزوم ، لأنّه قد ثبت الآن نهائيا أنّ دين زردشت كان دين

التوحيد والأخلاق الفاضلة ، وأنّ عبادة النار ^(١) والعقيدة الثنويّة ^(٢) ليستا منه ، بل من بقايا مجوسيّة ^(٣) «مادا» التي اختلطت بالزردشتيّة في العصور التالية. ^(٤)

ثمّ يأخذ مولانا أبو الكلام آزاد في الكلام عن ديانة زردشت وأنها كانت دين توحيد خالص وكانت دعوتها قائمة على أساس فضيلة الأخلاق والإيمان بيوم الحساب ، وكان ازدهار هذه الديانة على عهد الهخامنشيين كما يبدو من وثائق نحتها ملوكهم العظام على صخور الجبال. تلك وثائق داريوش . الذي تسنّم الحكم بعد كورش بثمان سنوات . تتجلى على صفاح الجبال الشاخحة قبل ألفين وخمسمائة عام ، جاء في إحداها : «هو الله العظيم ، «أهورامزدا» ، ^(٥) خالق السماوات والأرض وخالق الإنسان ومنحه لذات الحياة ، والذي أكرم داريوش بكرامة الملك والسلطنة على مملكة واسعة الأرجاء ، ومنحه برجال أكفاء وأفراس جياذ ...». وجاء في أخرى :

(١) لم تكن هناك عبادة نار بمعنى قداستها ، بل جعل حريم لها حفاظا على الإبقاء لإشعالها لغرض استفادة العموم منها في حوائجها اليوميّة ، حيث كان إيقاد النار على العائمة صعبا ، فجعلوا مكانا خاصا لإشعالها ليل نهار في خدمة الناس. ولغلا يتعرّض السفلة لإطفائها فرضوا لها حرما وفرضوا حرمتها لذلك محضا ، بلا أن يكون ذلك قداسة أو عبادة. فلم يكن المجوس يوما ما يقدّسون أو يعبدون النار ، نعم كانوا يأخذون بجانب حرمتها لغرض الخدمات العائمة تسهيلا على الناس في حوائجهم ... وقد ظلّت هذه العادة مستمرة حتى الأيام التي لم تعد حاجة إلى ذلك. تقليدا لسنة السلف محضا. يقول الفردوسي في ذلك :

مگــوئی کــه آتــش پــرســتــان بدنــد پــرســتــند نــیــک یــزدان بدنــد
(لا تقبل إثمهم عبادة النار إنمّا هم عبادة صالحون لله تعالى)

(٢) لا أساس للعقيدة الثنويّة في مبدأ الوجود ، وإنّما هو إله واحد (أهورامزدا) هو خالق كلّ شيء ، وبما أنّه خير محض ، فكلّ مخلوقاته خير. نعم كانت الشرور بفعل «أهرمن» (الشيطان) الذي هو فاعل الشرور بتسويلاته ، لا أنّه خالقها. وقد صرّح زردشت بأن ليس هناك إله هو خالق الشرور ، بل هناك مظهر للشرور سمّاه «أنكره مى نيوش» وتحوّل إلى «آنرومين» وأخيرا إلى «أهرمن» ، هو الشيطان الرجيم عند المسلمين. ذو القرنين ، ص ٢٥٧ . ٢٦٠.

(٣) مجوس ، لفظة عبريّة عربيّة ، معرّب «موغوش» (موگوش . بالكاف الفارسيّة) أي «مغ» و «موبدان» يطلق على سدة المعابد وبيوت النار عند المجوس. وراج استعماله على كلّ من اعتنق المجوسيّة.

(٤) كورش الكبير (ذو القرنين) ، ص ٢٤٦ . ٢٥٤.

(٥) يعني : الإله الحكيم. راجع : تاريخ جامع أديان ، جان بي ناس ، ترجمة علي أصغر حكمت ، ص ٤٥٦.

«يقول الملك داريوش : «آهورامزدا» هو الذي منحني بفضلته الملك وغمري بتوفيقه لإشادة مباني العدل وسيادة الصلح والأمن في كلّ البلاد وفي كلّ أصقاع الأرض ... فيا آهورامزدا! أعني وأهلي وكلّ أهل الأرض الذين جعلتهم تحت سلطاني ، لنكون في حمايتك وحراستك ، ربّ كما دعوتك فاستجب لي دعائي ...».

وفي ثالثة :

«أيّها الإنسان ، أقول لك ما أمري الإله «آهورامزدا» : كن على الصراط المستقيم ولا تحد عنه شيئا ، ولا تظنّ بأحد ظنّ سوء ، ومن الأجرام والآثام فاحترز وكن على حذر ...».

يقول الاستاذ آزاد : ولا تنس أنّ داريوش هو من بني أعمام كورش ، وتسّم الحكم بعده بثمانى سنوات ، ومن ثمّ فما يقوله داريوش ، هو في الحقيقة لسان حال سلفه كورش ، وكلّ ما ذكره داريوش وتضرّع إلى الله مبتهلا : أنّ توفيقاته على القيام بمهامّ الامور إنّما هي بفضلته ورحمته تعالى ... أفهل لا يكون ذلك متصادقا مع ما ذكره القرآن الكريم عن لسان ذي القرنين : ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾! (١).

وقد مرّ عليك منشور كورش بشأن الأسرى اليهود وإعادة بناء الهيكل في اورشليم : «هكذا قال كورش ملك فارس : جميع ممالك الأرض دفعها لي الربّ إله السماء ، وهو أوصاني أن أبني له بيتا في اورشليم التي في يهوذا ...». (٢)

هنا ملحوظة؟

إنّ كارثة الإسكندر المقدوني الفضيحة ، والتي أصيبت بها إمبراطوريّة فارس ذاك العهد ، هي بعينها ككارثة بخت نصر الفجيعة ، والتي أصيب بها القدس وجامعة اليهود في حينها ... فقد أبادت وكسحت كلّ معالم الحضارة في المنطقة ، ومزّقتها شرّ ممزّق ، فلم تبق

(١) الكهف ١٨ : ٩٨ . راجع : كورش الكبير (ذو القرنين) ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢) سفر عزرا . الأصحاح الأوّل .

المقصد الأعلى والمطلوب الأوفى ، قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾! ^(١)

ومن ثمّ نرى كورش عند ما يتكلّم مع بني جلده وفي أوساط توحيدية خالصة ، يذكر الإله تعالى ويصفه باسمى تمجيد : «آهورامزدا» يعني الخالق الحكيم ، ربّ العالمين ، ربّ السماوات والأرض ومدبّرهما. ^(٢)

وهو عند ما يعلن بمشروعه الفخيم بشأن إطلاق سراح بني إسرائيل والتعبئة لإعادة بناء القدس الشريف وإحياء معالم دين اليهود المتمزّق ، نراه يعبرّ عنه سبحانه ب «يهوه» على حدّ تعبير اليهود أنفسهم ، يريدون ذاته المقدّسة ، خالق السماوات والأرض ومدبّرهما. ^(٣)
وهو كذلك عند ما يصف الإله المتعالى بلسان البابليين ، لكنّه يصفه وصفا لا ينطبق إلّا على الله سبحانه ، وإن كان التعبير منساقا حسب مصطلح المنطقة. فهو يعبرّ ب «مردوك» . وفق تعبير أهل بابل . ولكن يصفه بعظمة ربّ الأرباب وإله العالمين. وهكذا عبّر عنه ب «بعل» بمعنى الربّ الأعلى والسيد المالك إله السماوات.

وقد كان البابليّون يرون من «مردوك» ممثّل الإله ربّ العالمين. ^(٤)

هذا ، مضافا إلى ما يراه المؤرّخون من أنّ هذا المنشور الملكي كان قد نظّم بمعونة كبار الكهنة وعلى وفق آداب ومراسيمهم الدينيّة ، والذي جاء تعقيبا على منشور سابق كتبه الكهنة أنفسهم ترحيبا بجانب الملك الفاتح النبيل. ^(٥)
فلا غرو أن نجد فيه تعابير تتفق مع رسوم البابليين محضا ... أمّا المعنى والمحتوى فمحتمل التأويل.

* * *

والسؤال الأخير : حتى ولو كانت الشواهد وفيرة على أنّ كورش هو ذو القرنين

(١) الزمر ٣٩ : ٣.

(٢) تاريخ جامع أديان ، ص ٤٥٦ . ٤٥٧ .

(٣) إيران باستان ، كتاب ٢ ، كورش ، لحسن پيرنيا ، ج ٢ ، ص ٤٠١ .

(٤) راجع : دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٣ ، مادة بعل ؛ وإيران باستان ، ج ١ ، ص ١١٤ و ١١٩ وج ٢ ، ص ٣٨٦ . ٣٨٧ .

(٥) راجع : إيران باستان ، ج ٢ ، ص ٣٩١ .

المذكور في القرآن ، وأتّه هو الذي بنى السدّ الحديدي العظيم ... فمثل هذا المشروع الجلل ، والذي كان . على الفرض . من أكبر مفاخر الاسرة الهخامنشيّة ولا سيما كورش رأس السلسلة ... فلما لم يذكره المؤرّخون ، ولم يلهج به أبناء الفرس المتعصّبين على مفاخرهم في التاريخ ، وهالاً ذكره كورش في مفاخره ضمن سائر مفاخره والذي هو أعظمها وأجلّها ... ولم لم يعرفه العرب عنه ذلك وكانوا مولعين بذكر تاريخ الفرس وبطولاتهم ، ولا ننسى أنّ قصص الفرس كانت منتشرة بين العرب ، وكان لهم أنصار بينهم ، وقد تأثّروا بأدبهم ورواياتهم وقصصهم الشعبيّة ...؟! ^(١)

والإجابة على ذلك واضحة لمن سبر تاريخ ذلك العهد وما اعتورته من خطوب وأحداث كادت تكسح بكلّ آثاره وتذروها ذرو الرياح العقيم. إنّ ما حدث بعد عهد الهخامنشيين من هجمات الإسكندر المقدوني العمياء ، لم يدع شيئاً من معالم الحضارة قبلها إلّا طمسته وعملت في إحائها عن صفحة الوجود ، عملاً مستمراً طول أحقاب ، بحيث أنست كلّ معالم التاريخ وآثار المدنيّة العظيمة والتي شيّدتها الحكماء والنبلاء من ذي قبل. وفي العهد الساساني قامت حركة لإحياء التراث القديم ، ولكن من غير جدوى وبعد عهد طويل. وإتّما هي مقتطفات من أفواه الرجال وفيها الكثير من التحريف والتحوير ، فهي بأن تكون صورة ممسوخة ، أشبه منها أن تكون حقائق ناصعة.

تلك كانت مغبّة أجرام قام بها الإسكندر وأخلافه (السلوكيّون) حوالي قرن ، ومن بعدهم (الأشكانيّون) طيلة خمسة قرون ، حتى جاء دور الساسانيين ليقوموا بإحياء التراث القديم من جديد.

الأمر الذي جعل صفحة التاريخ خلوا من ذكر تلكم الآثار الجليّة والتي كان من حقّها الخلود مع الأبد.

وحتى أنّ أبناء الفرس لم يكذب يعرف منهم شيئاً من جلائل آثار كورش وأعقابيه ،

(١) ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح ، ص ٢٤٣ . ٢٤٤ .

فضلا عن غيرهم من عرب الجزيرة.

وأما أنّ كورش نفسه ، لم لم يذكر ضمن مفاخره بناء ذلك السدّ العظيم ، فالأمر أيضا واضح ، بعد أن علمنا أنّ بناء السدّ كان من اخريات أعماله الضخمة ، والذي كان حتفه فيه ولم يمّله الأجل لتسجيله ، كما سجّل غيره من أعمال ...

والعمدة في التدليل على عمليّة السدّ على يد كورش ، ما ذكره الاستاذ خضر بهذا الشأن ، قال :

«وقد رأينا خلال السرد التاريخي أنّ القبائل المغوليّة كانت لا تتكاسل عن الانقضااض على مناطق آسيا الغربيّة خلال القرن السادس قبل الميلاد. وكلّ صفحات التاريخ تذكر لنا أن ثمّة توقّف مفاجئ حدث في عمليّة تدفّق هذه القبائل البدائيّة المتوحّشة. وتشير أصابع الدقّة التاريخيّة نحو الحقبة التي ظهر فيها كورش الأخميني أو الهخامنشي. (١) ...

هذا بعد أن لم نعرف في التاريخ القديم ما يصلح تفسيراً تطبيقياً للآية سوى ما عرفناه بشأن كورش العظيم ، فلعلّه هو ذو القرنين الذي جاء ذكره في القرآن . حيث الأكثر انطباقاً عليه . والله العالم بحقيقة الحال .

سدّ مأرب العظيم!

وحيث جرى الحديث عن سدّ ذي القرنين ، كان المناسب التحدّث عن سدّ مأرب وقد اشتبه الأمر على بعضهم فحسبه هو المنسوب إلى ذي القرنين .

قال الحموي : هو بين ثلاثة جبال يصبّ ماء السيل إلى موضع واحد ، وليس لذلك الماء مخرج إلّا من جهة واحدة ، فكان الأوائل قد سدّوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص (الصاروج) فيجتمع فيه ماء عيون هناك ، مع ما يفيض من مياه السيول ، فيصير خلف السدّ كالبحر ، فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السدّ بقدر حاجتهم

(١) مفاهيم جغرافية ، ص ٣١٢ .

بأبواب محكمة وحركات مهندسة ، فيسقون حسب حاجتهم ثمّ يسدّونه إذا أرادوا ... (١)

وذكر البيروني (٣٦٢ . ٤٤٠) . في الآثار الباقية . : أنّه قيل : هو شمر يعرش الحميري (وسمّي بذلك لذؤابتين كانتا تنوسان على عاتقيه ، وقد بلغ مشارق الأرض ومغاربها وجاب شمالها وجنوبها ودوّخ البلاد وأخضع العباد . وبه يفتخر أحد مقاول اليمن وهو أبو كرب أسعد بن عمرو الحميري في شعره الذي يقول فيه :

قـد كـان ذـو القـرنين قـبـلي مـسـلـما	مـلـكـا عـلا في الأـرض غـيـر مـعـبـد
بـلـغ المـشـارق والمـغـارب يـتـغـي	أـسـباب مـلـك مـن كـرـيم سـيـد
فـرأى مـغـيب الشـمس وقـت غـروبـها	في عـين ذي حـمـاء وثأط حـرمـد
مـن قـبلـه بـلقـيس كـانـت عـمـتي	حـتى تـقـضّى مـلـكـها بـالـهـدـمـد (٢)

ورجح البيروني هذا القول ورآه أقرب الأقاويل ، فإنّ الأذواء كانوا من اليمن ، كذي المنار وذي الأذعار وذي الشناتر وذي نواس وذي جدن وذي يزن ، وأخباره مع هذا تشبه ما حكى عنه في القرآن ... (٣)

وشمر يعرش هذا هو أول ملوك حمير من الطبقة الثانية ، كانت مدّة ملكه (٢٧٥ . ٣٠٠ م).

وأسعد أبو كرب هو سابع ملوكهم من نفس الطبقة (٣٨٥ . ٤٢٠ م). (٤)

ولعلّ الأمر اشتبه على البيروني ، إذ الذي يفتخر به أسعد أبو كرب ، هو ثاني ملوك حمير من هذه الطبقة ، واسمه «الصعب» الملقّب بذي القرنين عندهم وقد ملك سبأ وريدان وحضرموت (٣٠٠ . ٣٢٠ م). وبه افتخرت العرب الأوائل في أشعارها وخطبها ، منها خطبة قسّ بن ساعدة الأيادي (٥) المعروفة :

(١) معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٥ .

(٢) في لفظ الأبيات اختلاف مع ما سبق نقله ، والصحيح ما أثبتناه هناك .

(٣) الآثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق وتعليق پرويز أذكائي ، ص ٤٧ . ٤٨ ؛ وراجع : البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

(٤) العرب قبل الإسلام لمرجي زيدان ، ص ١٤٣ .

(٥) خطيب جاهلي مات حدود (٦٠٠ م) كان يضرب به المثل في البلاغة وحسن البيان . يقال : إنّ كان من نصارى نجران ، وكان يعظ قومه في سوق عكاظ .

«يا معشر أياد! أين الصعب ذو القرنين ، ملك الخافقين ، وأذلّ الثقلين ، وعمّر ألفين ، ثمّ كان ذلك كلحظة عين ...». وأنشد ابن هشام للأعشى :

والصعب ذو القرنين أصحّ ثاويًا بالحنو في جسد أممٍ مقمٍ

قوله بالحنو ، يريد : حنو قراقر ، الذي مات فيه ذو القرنين بالعراق. ^(١)

وسننّه : أنّ تلك الأبيات وهذه الخطبة من مختلقات الأواخر ، وليس عليها صبغة جاهليّة قديمة.

وأغرب منه ما ذكره المفجّع في أخبار ملوك اليمن. قال : لما مات «ياسر ينعم» (٢٥٠ . ٢٧٥ م) آخر ملوك حمير من الطبقة الاولى ، قام من بعده «شمير يرعش» (٢٧٥ . ٣٠٠ م). أول ملوكهم من الطبقة الثانية . فجمع جنوده وسار في (٥٠٠ / ٥٠٠) خمسمائة ألف رجل حتى ورد العراق ، فأعطاه «يشناسف» (عامل ملوك الفرس على العراق) الطاعة ... فسار لا يصدّه شيء نحو بلاد الصّين ، فلمّا صار بالصغد تحصّن أهلها بمدينة «سمرقند» فاستنزهم من غير أمان وقتل منهم مقتلة عظيمة وأمر بالمدينة فهدمت ، فسمّيت : شمركند ، فعزّيتها العرب «سمرقند». ولكنّه مات هو وجنوده في طريقهم إلى الصّين ...

فبقيت سمرقند خرابا إلى أن ملك «تبع الأقرن» (ثالث ملوك حمير بعد شمير يرعش . على رواية حمزة الأصفهاني) فتجهّز نحو الصّين ، فورد العراق ، فأعطاه «بهمن بن اسفنديار» الطاعة. حتى وصل إلى سمرقند فوجدها خرابا فأمر بعمارّتها ، وسار حتى أتى بلادا واسعة فبنى «التبّت» ، ثمّ قصد الصين فقتل وسبى وأحرق ، وعاد إلى اليمن مظفّرا ... وعن الأصمعي : على باب سمرقند نقوش وكتابات بالحميرية تعيّن أبعاد البلاد عنها ... ^(٢)

(١) الروض الأنف للسهيلى ، ج ٢ ، ص ٥٩.

(٢) أورده ياقوت في معجم البلدان بشأن مدينة سمرقند ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ؛ وراجع : العرب قبل الإسلام ، ص ١٢٣ و ١٤٣ - ١٤٤.

وهكذا ذكر ابن خلدون : أنّ شمر يَرعش (٢٧٥ . ٣٠٠ م) . سَمّي بذلك لارتعاش كان به . ويقال إنّهُ وطئ أرض العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنها وخرب مدينة الصغد ^(١) وراء جيحون ، فقالت العجم «شمر كند» أي شمر خرب ، وبنى مدينة هناك باسمه وعزّيته العرب فصار «سمرقند» . ويقال : إنّهُ الذي قاتل «قباد» ^(٢) ملك فارس وأسره! وأنّهُ الذي حير «الحيرة» ^(٣) وكان ملكه (١٦٠) سنة وذكر بعض الأخباريين أنّه ملك بلاد الروم! وأنّهُ استعمل عليهم «ماهان قيصر» . ذكر ذلك ولم يعلّق شيئاً ...! ^(٤)

لكنّه في المقدّمة يأتي عليها ويذروها ذروا ، ويجعلها أوهاما خرافيّة هي أشبه بقصص شعبية أساطيريّة ، يقول : ومن الأخبار الواهية ما ينقلونه عن التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب ، أنّهم كانوا يغزون من قراهم بجيوش حافلة إلى أقاصي البلاد ويدوّنون المعمورة كلّها بحملات متتالية ، وأنّ ذا الإذعار من ملوكهم غزا المغرب ودوّخه ، وكذلك ياسر ابنه بلغ وادي الرمل في بلاد المغرب ، وأنّ تبّع الآخر وهو أسعد أبو كرب ، ملك الموصل وآذربيجان ولقى الترك فهزمهم وأثنخ ثمّ غزاهم ثانية وثالثة ، وأغزى بعد ذلك ثلاثة من بنيهِ : بلاد فارس ، وإلى بلاد الصغد من بلاد امم الترك وراء النهر ، وإلى بلاد الروم . فملك الأوّل البلاد إلى سمرقند وقطع المفازة إلى الصين فوجد أخاه الثاني قد سبقه إليها ، فأثنخها في بلاد الصين ورجعا جميعا بالغنائم ، وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير ، فهم

(١) صغد : منطقة واسعة ، قصبتها سمرقند ، وهي قرى متّصلة خلال الأشجار والبساتين من سمرقند إلى بخارى ، من أزهى بلاد العالم وأجملها ، قال الحموي : هي من أطيب أرض الله ، كثيرة الأشجار ، غزيرة الأنهار ، متجاوية الطيار ... معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٠٩ .

(٢) ولعلّه والد أنوشيروان الملك الساساني ، كانت مدّة ملكه (٤٨٧ . ٥٣١ م) وتوفّي موقفاً في أمره عن عمر جاوز الثمانين ، كان قد عمر البلاد وأشاد كثيراً من المدن في حياته وفوّض الملك إلى ابنه أنوشيروان . بسلام . تاريخ إيران ، ص ٢٠٥ . ٢٠٩ .

(٣) مدينة كانت عامرة قرب الكوفة بالعراق ، كانت قاعدة ملك الملوك اللخميّين (المناذرة) . كان اللخميّون عمّال الفرس على أطراف العراق ، كما كان الغساسنة عمّال الروم على مشارف الشام ، وكان أوّل من حكم العراق آل تنوخ ومنهم جذيمة الأبرش وصار الحكم بعده إلى ابن اخته عمرو بن عديّ وهو من آل نصر فرع من لخم . ولذلك فإنّ هذه الدولة تسمّى دولة آل نصر ، أو آل لخم ، أو آل عمرو بن عديّ ، أو ملوك الحيرة ، أو المناذرة . باعتبار خمسة من ملوكهم سمّوا بالمنذر ، وآخرهم المنذر المغرور . وكانت المناذرة قد تنصّروا على مذهب النساطرة . كانت مدّة ملكهم ٣٦٠ سنة (٢٦٨ . ٦٢٨ م) . وقصبة ملكهم جميعا الحيرة ، على ثلاثة أميال من مكان الكوفة على ضفة الفرات الغربيّة في حدود البادية . وتقع الآن في الجنوب الشرقي من النجف الأشرف . ولم تكن للحيرة وملوكهم أيّ صلة بملوك حمير اليمنيّين . العرب قبل الإسلام ، ص ٢٢١ . ٢٢٣ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

بها إلى هذا العهد. وبلغ الثالث إلى قسطنطينية فدرسها (هدمها ومحي أثرها نهائياً) ودوّخ بلاد الروم ورجع ...

قال : وهذه الأخبار كلّها بعيدة عن الصحة ، عريقة في الوهم والغلط ، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة ... ثمّ أخذ في التدليل على بطلانها بأساليب النقد النزيه ... ^(١) وهكذا يقول الدكتور السيد سالم . في حديثه عن تاريخ جاهلية العرب . : «لا شكّ أنّ ما رواه العرب عن فتوحاته لا يعدو قصصاً خرافية. والثابت أنّه (تبع الأكبر . شمر يعرش) انتصر على مناطق من بلاد العرب الجنوبيّة وأنّه تغلّب على قبائل تامة التي كانت تسكن على ساحل البحر الأحمر ...» ^(٢).

وهكذا يستبعد الدكتور «هبو» تلك الأخبار عن ملوك التبابعة ، يقول : «فَعَصَرُ التَّبَابُعَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ أَزْهَى الْعَصُورِ وَأَكْثَرُهَا إِثَارَةً لِخَيَالِهِمُ الْخَصْبِ ، إِذْ يَرُونَ الْقِصَصَ الْخَيَالِيَّةَ وَالْأَسَاطِيرَ عَنْ قَوَّتهمْ وَعَظَمَتِهِمْ ، فَيَنْسُبُونَ إِلَيْهِمْ غَزَا إِفْرِيْقِيَا وَالْهِنْدَ وَالصِّينَ وَإِخْضَاعَ فَارَسَ وَبِلَادَ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَمِصْرَ وَالْمَغْرِبَ ... مِمَّا دَعَا ابْنُ خَلْدُونٍ إِلَى وَصْفِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ بِالْوَهْمِ وَالْغُلْطِ ...» ^(٣).

* * *

تلك أساطير بائدة أو شئت فقل قصص شعبية حاكتها أوهام خيال هي أشبه بطيف أحلام.

إنّ سبأ كانت في أوّل أمرها إمارة أو مشيخة صغيرة تحكم ناحية صغيرة من اليمن ، ثمّ أخذت تتّسع حتى شملت اليمن كلّه وحضرموت وتامة. هذا فحسب ولم تتعدّ حدود اليمن في يوم من الأيام.

كانت عاصمة سبأ مدينة مأرب حتى نهاية القرن الثالث للميلاد ، ثمّ حلّت محلّها

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٢ - ١٤ .

(٢) راجع : كتابه «تاريخ العرب في عصر الجاهلية» ، ص ١٤٠ - ١٥٣ ، ط ١٩٧١ م ؛ وكتابه الآخر «تاريخ العرب قبل الإسلام» ، ص ٥٥ ؛ ودراساته في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ١ ، ص ١١٤ - ١٢٧ . فهي نفس الأبحاث مكرّرة في الكتب الثلاثة. (ذو القرنين لمحمد خير رمضان ، ص ١٨١ ، الهامش).

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور أحمد ارحيم هبو ، ص ١٣٢ - ١٣٣ . راجع : محمد خير رمضان ، ص ١٨٢ .

مدينة ظفار. ولذلك أسباب سياسيّة واقتصاديّة ذكرها المؤرّخون.

يقول جرجي زيدان : أخبار اليمن . على ما ترويه العرب . أكثرها مبالغ فيها ، وبعضها أقرب إلى الخرافات منه إلى الحقائق ... كغزو شمر يريش المشرق فدوّخ خراسان وهدم مدينة الصّغد وبنى سمرقند ... وأنّ أسعد أبو كرب غزا الصين وترك ، وغير ذلك ممّا يخالف العقل فضلا عن نصوص التاريخ العامّة ... (١)

وقد نبّهنا أنّ الأبيات المنسوبة إلى تبّع أو أسعد أبي كرب ، تبدو مختلفة وأنّها من صنع أبناء اليمن بعد ظهور الإسلام ، إذ ملامح الاقتباس من القرآن عليها لائحة. والمنسوب إلى قسّ بن ساعدة ، خرافة مفتعلة لا يعتريها شك!

من الذي بنى سدّ مأرب؟

أما ومن الذي بنى سدّ مأرب ، الذي حطّمه سيل العرم ، على ما جاء ذكره في القرآن الكريم؟
مأرب ، وتسمّى أيضا «سبأ» هي أشهر مدن اليمن القديمة ، ويلوح أنّ لفظها آرامي الأصل ، مركّب من «ماء» و «رأب» أي الماء الكثير أو السيل الكبير . ويؤخذ ممّا عثر عليه من أنقاضها أنّها كانت مستديرة الشكل ، قطرها نحو كيلومتر ، يحدّق بها سور منيع له بابان ، أحدهما شرقيّ والآخر غربيّ. وبجانب الباب الغربيّ ، كتابة تفسّرها : أنّه من بناء يثعمر بين بن سمهليّ ينوف مكرب سبأ. وفي وسطها آثار هيكل يسمّيه أهل تلك الناحية الآن : هيكل سليمان.

وكان السيل في وادي «أذنة» يجري في شرقيّتها ، ليسقي ما بين يديها وما حولها ، فتصير كأنّها في جنان وغياض ، غير ما كان فيها من الأبنية الضخمة من الرخام.

قال الطمّحان يذكر مأرب :

أما ترى مأربا ما كان أحصنه وما حواليه من سور وبنيان

(١) العرب قبل الإسلام لـجرجي زيدان ، ص ١٢٢ - ١٢٦.

وقال علقمة يصف بناياتها :

ومَنَّا الَّذِي دَانَتْ لَهُ الْأَرْضُ كُلُّهَا بِمَأْرَبٍ يَمْنَى بِالرَّخَامِ دِيَارَا

وبذلك جاء تصديق قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَيِّدٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ...﴾

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ...﴾. (١)

* * *

أما السدّ ، فقد كثر في بلاد اليمن بناء الأسداد ، وهي جدران ضخمة كانوا يقيمونها في عرض الأودية لحجز السيول وخن المياه ورفعها ، لريّ الأرضين المرتفعة ، كما يفعل اليوم في بناء الخزانات. وإثما عمد السبائيون إلى بناء الأسداد ، لقلّة الأنهار ومجاري المياه في بلادهم (بل في الجزيرة كلّها) مع رغبتهم في إحياء زراعتها ، فلم يدعوا واديا يمكن استثمار جانبيه بالماء إلّا حجزوا سيّله بسدّ ، فتكاثرت الأسداد بتكاثر الأودية التي تكثرت فيها السيول ، حتى تجاوزت المئات. وقد ذكر الهمداني في «يخصب العلوّ» من مخاليف اليمن وحده ثمانين سدّا ، وكانوا يسمّون كلّ سدّ باسم خاصّ به.

وإلى ذلك أشار شاعرهم :

وبالْبَقْعَةِ الْخَضِرَاءِ مَنَ أَرْضٍ يَحْصِبُ ثَمَانُونَ سَدًّا تَقْذِفُ الْمَاءَ سَائِلًا

وأشهر أسداد اليمن «العرم» وهو سدّ مأرب الشهير. هو أعظم أسداد بلاد العرب وأشهرها ، وقد كثر ذكره في أخبار العرب وأشعارهم على سبيل العبرة ، لما أصاب مأرب بانفجاره ، وإليه أشار القرآن في سورة سبأ :

﴿فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ

(١) سبأ ٣٤ : ١٥ و ١٨ .

وَشَيْءٌ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ... ﴿١﴾

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْفَأَهُمْ كُلَّ مُرْقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. (١)

أما موضع هذا السدّ ، ففي الجنوب الغربي من مأرب سلسلة جبال هي شعاب من جبل السراة الشهير ، تمتدّ مئات من الأميال نحو الشرق الشمالي ، وبين هذه الجبال أودية تصبّ في واد كبير يعبر عنه العرب بالميزاب الشرقيّ ، وهو أعظم أودية الشرق ، تميّز له عن ميزاب «مور» أعظم أودية الغرب المنشعبة من جبل السراة المذكور.

وشعاب الميزاب الشرقيّ كثيرة تتجه في مصابّها ومنحدراتها نحو الشرقيّ الشماليّ ، وأشهر جبالها ومواضعها في ناحية «رداع العرش» و «ردمان» و «قرن» والجبال المشرفة على «سويق» ، وفي ناحية «ذمار بلد عنس» جميعا.

فشعاب هذه المواضع وأوديتها ، إذا أمطرت السماء تجمّعت فيها السيول ، وانحدرت حتى تنتهي أخيرا إلى وادي «أذنة» وهو يعلو نحو (١١٠٠ متر) عن سطح البحر ، فتسير فيه المياه نحو الشرق الشمالي ، حتى تنتهي إلى مكان قبل مدينة مأرب بثلاث ساعات ، هو مضيق بين جبلين ، يقال لكلّ منهما : «بلق» ، (٢) يعبر عن أحدهما بالأيمن وعن الآخر بالأيسر ، والمسافة بينهما (٦٠٠) ستمائة خطوة (أو ذراع) ويسمّيها الهمداني : «مأذمي مأرب» يجري السيل الأكبر بينهما من الغرب الجنوبي إلى الشرقيّ الشماليّ في واد هو وادي أذنة.

واليمن مثل سائر بلاد العرب ، ليس فيها أنهر ، وإنّما يستقي أهلها من السيول التي تجتمع من مياه المطر ، فإذا أمطرت السماء فاضت السيول وزادت مياهها عن حاجة الناس ، فيذهب معظمها ضياعا في الرمال. فإذا انقضى فصل المطر ظمئ القوم وجفّت أغراسهم ، فكانوا إمّا في غريق أو حريق ، وقلّما ينتفعون حتى أياّم السيول من استثمار البقاع المرتفعة (الهضبات) عن منحدرات الجبال. وكان قد يفيض السيل حتى يسطو على

(١) سبأ ٣٤ : ١٦ و ١٩.

(٢) يقال : بلق السيل الأحجار بلقا وبلوقا : جرفها. وقد كانت السيول جرفت طرقي سفح الجبلين ، فسمّيا : البلقين.

المدن والقرى ، فينالهم من أذاه أكثر ممّا ينالون من نفعه. فساقطهم الحاجة إلى استنباط الحيلة في اختزان المياه ورفعها إلى مستوى الهضبات وتوزيعه على قدر الحاجة. فاختار السبّاؤون المضيق بين جبلي «بلق» وبنوا في عرضه سورا عظيما عرف بسدّ مأرب أو سدّ العرم ، لريّ ما يجاور مدينتهم (مأرب) من السهول والهضبات.

والجبلان المذكوران ، بعد أن يتقاربا عند مضيق بلق ، ينفرجان ويتسع الوادي بينهما ، وعلى ثلاث ساعات منهما نحو الشمال الشرقي من مدينة مأرب أو سبأ ، في الجانب الغربي أو الأيسر من وادي أذنة. فإذا جرى السيل حاذى بإها الشرقي ، وبين المضيق والمدينة متسع من الأرض تبلغ مساحة ما يحيط به من سفوح الجبال نحو (٣٠٠) ميل مربّع ، كانت جرداء قاحلة ، فأصبحت بعد تدبير وإلجام المياه بالسدّ ، غياضا وبساتين على سفحي الجبلين ، وهي المعبرّ عنها بالجنتين بالشمال واليمين أو بالجنة اليمنى والجنة اليسرى ، على ما جاءت الإشارة إليه في القرآن.

والسدّ المشار إليه عبارة عن حائط ضخّم أقاموه في عرض الوادي ، على نحو (١٥٠) ذراعا نحو الشمال الشرقي من المضيق ، سمّوه «العرم». وهو سدّ أصمّ طوله من الشرق إلى الغرب نحو (٨٠٠) ذراع ، وعلوه بضعة عشر ذراعا ، وعرضه (١٥٠) ذراعا ، لا يزال ثلثه الغربي أو الأيمن باقيا إلى اليوم. ويظهر ممّا شاهدوه في جزئه الباقي أنّه مبنيّ من التراب والحجارة ينتهي أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة ، تكسوهما طبقة من الحصى كالرصيف يمنع انجراف التراب عند تدفق المياه.

فالعرم يقف في طريق السيل كالجبل المستعرض ويصدّه عن الجري ، فتجتمع مياهه وترتفع ارتفاعا عاليا يفي بريّ المرتفعات. وقد جعلوا طرفي السدّ عند الجبلين أبنية من حجارة ضخمة متينة ، فيها منافذ ينصرف منها الماء إلى إحدى الجنتين اليمنى أو اليسرى. فأنشئوا عند قاعدة الجبل الأيمن بناءين بشكل المخروط المقطوع ، علوّ كلّ منهما

بضعة عشر ذراعاً ، سمّوها الصدفين ، إحداهما قائم على الجبل نفسه ، والآخر إلى يساره ، وبينهما فرجة عرضها خمسة أذرع ، وقاعدة الأيمن منهما تعلو قاعدة الأيسر بثلاثة أذرع. والأيسر مبني من حجارة منحوتة ، يمتدّ منه نحو الشمال والشرق جدار طوله ٤٠ ذراعاً ينتهي في العرم نفسه ويندغم فيه. وعلوّ الجدار المذكور مثل علوّ الصدف ومثل علوّ العرم.

وفي جانب كلّ من الصدفين ، عند وجهيهما المتقابلين ، ميزاب يقابل ميزاباً في الصدف الآخر. والميزابان مدرّجان ، أي في قاع كلّ منهما درجات من حجارة كالسّلم ، الدرجة فوق الاخرى. ونظراً لشكل الصدفين المخروطين ، ولما يقتضيه شكل الميزاب السّلمي ، أصبحت المسافة بينهما عند القاعدة أقصر منها عند القمة.

ويظهر من وضع المخروطين أو الصدفين على هذه الصورة ، أنّ أصحاب ذلك السدّ كانوا يستخدمون المسافة بينهما مصرفاً يسيل منه الماء إلى سفح جبل بلق الأيمن فيسقي الجنّة اليمنى. وأنّهم كانوا يقفلون المصرف بعوارض ضخمة من الخشب أو الحديد ، تنزل في الميزابين عرضاً ، وكلّ عارضة في درجة ، فتكون العارضة السفلى أقصرها جميعاً ، فوقها عارضة أطول منها فأطول إلى العليا وهي أطولها جميعاً.

والظاهر أنّ تلك العوارض كانت مصنوعة على شكل تراكب فيه أو تتداخل ، حتّى يتألّف منها باب متين يسدّ المصرف سدّاً محكماً يمنع الماء مع الانصراف إلّا عند الحاجة.

فإذا بلغ الماء في علوّه إلى قمة الصدفين رفعوا العارضة العليا ، فيجري الماء على ذلك العلوّ إلى سفح الجبل في أقنية معدّة لذلك ، ونقر أو أحواض لخزن الماء أو توزيعه في سفح ذلك الجبل. فلا يزال الماء ينصرف حتى يهبط سطحه إلى مساواة العارضة الثانية فيقف ، فمتى أرادوا ربّاً آخر نزعوا عارضة اخرى ، وهكذا بالتدريج وعلى قدر الحاجة.

وفي الطرف الأيسر من العرم . وهو الغربي الذي ينتهي بالجنّة اليسرى . كالحائط . دعونه السدّ الأيسر . عرضه عند قاعدته (١٥) ذراعاً ، وطوله نحو (٢٠٠) ذراعاً ، وبجانبه من اليمين مخروطان أو صدفان أيّمان ، أحدهما متّصل بالعرم نفسه والآخر بينه

وبين السدّ الأيسر ، فيتكوّن من ذلك مصرفان ، مثل المصرف الأيمن ، لكلّ منهما ميزابان مدرّجان متقابلان ، تنزل فيهما العوارض وتنزع حسب الحاجة لصرف الماء إلى الجنّة اليسرى ، وينتهي العرم من حدّه الغربي بحائط منجليّ الشكل مبنيّ بحجارة منحوتة صلبة ، لعلّه الذي وصفه الهمداني : العضاد. فكان السيل إذا جرى في وادي أذنة حتى تجاوز المضيق بين جبلي بلق ، صدّه العرم عن الجري فيتعالى ويتحوّل جانب منه نحو اليسار إلى السدّ الأيسر ، فإذا أرادوا ريّ الجنّة اليمنى رفعوا من العوارض بين الصدفين الأيمنين على قدر الحاجة. وإذا أرادوا ريّ الجنّة اليسرى صرفوا الماء من المصرفين بنفس الطريقة ، فيجري الماء في أقنية وأحواض في سفح الجبل الأيسر حتى يأتي مأرب ، لأنّها واقعة إلى اليسار من السدّ.

* * *

وأما من هو الذي بنى السدّ (سدّ مأرب العظيم) ... ومتى؟

فقد عثر المنقبون في انقاض سدّ مأرب على نقوش كتابية بالحرف المسند (الخطّ الحميري) استدّلوا منها على بانيه. أهمّها نقشان ، أحدهما على الصدف الأيمن الملاصق للجنّة اليمنى ، تفسيره : «أنّ يثعمر بين بن سمه على ينوف مكرب سبأ ، خرق جبل بلق وبني مصرف رحب لتسهيل الرّي». والآخر على الصدف الآخر ، تفسيره : «أنّ سمه على ينوف مكرب سبأ اخترق بلق وبني رحب لتسهيل الرّي».

«سمه على» هذا هو والد «يثعمر» المذكور ، وكلّ منهما بنى صدفاً أو حائطا ، وكلاهما من أهل القرن الثامن قبل الميلاد ... فهما مؤسّساه ، ولم يتمكّنا من إتمامه ، فأتمّه خلفاؤهما ، وبني كلّ منهم جزءا ونقش اسمه عليه. فعلى المخروط أو الصدف في اليسار نقش قرءوا منه : «كرب إيل بين بن يثعمر مكرب سبأ بنى ...» ، وعلى جزء آخر من السدّ اسم «ذمر على ذرح ملك سبأ» ، وفي محلّ آخر اسم «يدع إيل وتار» ، وعلى السدّ الأيسر مما يلي الجنّة اليسرى عدّة نقوش يمثل هذا المعنى ... ممّا يدلّ على أنّ هذا السدّ لم يستأثر

بينائه ملك واحد. تلك هي العادة في تشييد الأبنية الكبيرة في كلّ زمان ...^(١)

ويجدر بالذكر أن نعلم أنّ اسم «شمر يرعش» قد حكّ على صخر عثر عليه في أنقاض مدينة مأرب ، وليس في انقاض السدّ ، ويرجع تاريخه إلى سنة (٢٧٠) بعد الميلاد.^(٢)

ومن ثمّ فنوجّه عتابنا اللّاذع إلى الاستاذ أحمد موسى سالم ، في ذهابه إلى الرأي القائل بأنّ ذا القرنين . المذكور في القرآن والمتّسم ببناء سدّ يأجوج ومأجوج . هو الملك الحميري «شمر يرعش»^(٣) ... بدافع عصبية عنصرية ... وليحتكر كلّ شخصيّة عظيمة لقوميّته العربيّة حتى ولو خالف الواقع وعارضه التاريخ.

فقد غضب الاستاذ (سالم) لأنّهم قالوا بأنّه (ذا القرنين) فارسي أو يوناني أو رومي ، وليس عربيّاً. وأغمض عينه عن كلّ شيء سوى الميل بكونه عربياً من اليمن. إن هذا إلّا تعصّب مقيت يتنافى وعصرنا الحاضر ، الذي تبدّى فيه كلّ شيء ، ولم يبق جانب إهمام على قضايا التاريخ القديم. كما كانت قبل اليوم.

كيف يرضى استاذ يعيش في عصر النور ، أن يجعل نفسه في غطاء التعامي عن كلّ مقوّمات التحقيق المعاصر ، والتي دلّتنا على أنّ بناء السدّ . أي سدّ كان : السدّ الحديدي في جبال قوقاز. أو سور الصين. أو سدّ مأرب . الذي يرجع تاريخه إلى قرون قبل الميلاد ...

ليجعله من بناء ملك عاش بعد الميلاد بقرون ...!^(٤)

فقد صحّ قولهم : «حبّ الشيء يعمي ويصمّ» ، والعصمة لله.

(١) راجع : العرب قبل الإسلام لمرجي زيدان ، ص ١٦٢ . ١٦٣ و ١٦٩ . ١٧٦ .

(٢) راجع : تاريخ العرب للدكتور السيد سالم ، ص ٥٤ . (ذو القرنين لمحمد خير رمضان ، ص ١٨١).

(٣) راجع : كتابه «قصص القرآن . في مواجهة أدب الرواية والمسرح» ، ص ٢٢٠ . ٢٢١ ، ط ١٩٧٨ م . (ذو القرنين لمحمد خير رمضان ، ص ٢٣٣).

(٤) كان بناء سدّ مأرب حسب الكتابات المنقوشة في أنقاضه ، ما يرجع تاريخه إلى (٦٤٠ . ٦١٠ ق. م). ومعنى ذلك أنّه كان قبل «شمر يرعش» بحوالي (٩١٥) سنة. وقبل «تبّع الأكبر» بحوالي (٩٦٠) سنة. وقبل «الملك الصعب . ذي القرنين عندهم» بحوالي ٩٤٠ سنة. ومنه يتّضح عدم مشاركة أي واحد من الملوك الثلاثة في بناء سدّ مأرب. مفاهيم جغرافيّة ، ص ٢١٥ .

سور الصين الكبير!

نُجِح «تشن شيه هوانج» (gnuauHhiehCnihC) سنة ٢٢١ ق. م لأول مرة في التاريخ في جمع شمال الولايات والإمارات الصينية ، وبذلك تجمّعت لديه كلّ أسباب القوّة البشريّة والاقتصاديّة ، فشرع في بناء سور الصين العظيم ، وخصّص لذلك آلاف المهندسين ومئات الألوف من العمّال لنحت الأحجار ، ^(١) واستمرّ البناء ^(٢) حتى تمّ سدّ الحدود الشماليّة بين الصين ومنغوليا ، حيث كانت تعيش القبائل الهمجيّة الدائمة الإغارة على سهول الصين. ويمتدّ هذا السور من مياه البحر الأصفر (جزء من بحر الصين) حتى سلاسل جبال (تاين داغ). وبلغ طوله (١٥٠٠) ميل ، حوالي (٢٤٠٠ كم) ^(٣) في خطّ ممتدّ من الساحل المواجه لشبه جزيرة «لياوتونج» حتى «تشيا يوكوان» آخر الحصون في وسط آسيا ، عبر أقاليم «هويي ، شانسي ، وشينسي ، وكناسو». ومساره يتلوّى ويلتفّ تابعا سلاسل الجبال . قممها وحواقيها . ومنحدرا خلال الوديان العميقة ، مغطّيا أكثر من (٣٢٠٠ كم) ، ويتراوح ارتفاع السور في الجزء الشرقي منه بين (٥ أمتار) و (١٠ أمتار) ، وعرضه من (٨ أمتار) عند القاعدة إلى (٥ أمتار) عند القمة ، حيث يوجد رصيف واسع يسمح بمرور سيّة فرسان جنبا إلى جنب ، تحميهم متاريس محصّنة. وعند بناء السور كان له (٢٥٠٠٠) برج ^(٤) تبلغ مساحته كلّ منها خمسة أمتار مربّعة ، وارتفاعه (١٣ مترا) ، وتبرز هذه الأبراج قائمة حتى اليوم.

(١) يقال : استخدم الملك لإنجاز هذا المشروع كلّ إنسان كانت له صلاحية العمل ، فمن كلّ ثلاث نفرات من الصينيين اضطرّ للعمل منهم واحد ، ولم يقتصر على الأفراد العاديين بل وحتى الكتّاب وأصحاب المهن ، قاموا بقلع الأحجار ونحتها وما إلى ذلك. فرهنك عميد ، قسم الأعلام ، ص ٥٥٢.

(٢) يقال : استغرق إنجاز المشروع حوالي (١٨) عاما. المصدر : ص ٥٥٣.

(٣) في الموسوعة الأثريّة العالميّة. إشراف «ليونارد كوتريل» تأليف (٤٨) عالما أثريّا ، ترجمة الدكتور محمد عبد القادر محمد ، الدكتور زكي اسكندر. مراجعة الدكتور عبد المنعم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ م : «أصبح طوله النهائي ١٤٠٠ ميل ، حوالي ٢٢٥٠ كم». راجع : ذو القرنين ، محمد خير رمضان ، ص ٣٤٩ ، الهامش.

(٤) كان يفصل كلّ برج عن آخر ب (١٦٠٠) متر. وكان الجنود الذين يحرسون السور في تلك الأبراج يبلغ عددهم (١٠٠ / ٩٠٠) جنديّا. فرهنك عميد ، قسم الأعلام ، ص ٥٥٣.

ويشتمل على عدد من البوابات الضخمة في مناطق متباعدة يقوم على حراستها جنود أشداء. أمّا خارج السور فثمة العديد من أبراج المراقبة فوق قمم التلال أو على المضائق. وهذه مع أبراج السور كانت تستخدم للإنذار بالدخان أو الرايات نهاراً ، وبالنييران ليلاً. وهكذا يمكن الإبلاغ عن اقتراب الغزاة في الحال ، فترسل التعزيزات لأيّ جزء على الحدود. التركيب المعماري للسور : يتكوّن قلب السور من التراب والحجر ، تغطّيه واجهة من الطوب (الآجر) ، وكلّ ذلك قد اقيم على أساس من الحجر. (١)

وفي المواضع التي تمرّ فوق التلال ، حفر خندقان متوازيان أو نحتا في الصخر ، بينهما (٨ أمتار) ، وقد وضعت في الخنادق كتل ضخمة من الجرانيت ، (٢) يصل ارتفاعها إلى عدّة أمتار ، وعلى كلّ من الجانبين بنيت حوائط من الطوب الأحمر يصل طولها إلى أقلّ من المتر قليلاً ، عمودية على واجهة السور ، وقد ارتبط الطوب مع بعضه ببلاط أبيض (لعلّه الصاروج) بلغ من الصلابة بحيث لا يمكن لأيّ مسمار أن ينفذ فيه. وكانت المسافة بين حائطي الطوب تملأ بالتراب الذي يدكّ جيّداً ، وليفرش بالرصيف من الأحجار ، ممّراً للجنود الفرسان. وفي شمال «پكن» يتبع السور قمم جبال (٣) بالغة الانحدار ، والتي لا يمكن حتى للجداء أن تتسلّقها. وبعيداً في الغرب في «شينسي وكنسو» غالباً ما يتبع السور أسهل الدروب.

وقد بني من الرواسب الطفليّة أو التربة الصفراء ، تغطّيها طبقة رقيقة من الطوب أو الحجر.

(١) بناية السور تتألّف من جدارين بارتفاع ستّة أمتار ، وبفاصل (٨ أمتار) على امتداد السور ، وقد حشي بينهما بالتراب ، ليكون السطح الأعلى رصيفاً في خمسة أمتار. وعلى طرفي الرصيف حائطان بارتفاع متر ونصف ، ليكون مجموع ارتفاع الجدار سبعة أمتار ونصف. المصدر : ص ٥٥٢.

(٢) الجرانيت : حجر صلب ذو ألوان مختلفة ، يتّخذ منه العمود والأساطين.

(٣) بارتفاع (١٦٠٠) متر.

والسور القائم اليوم يرجع عهده كلّه تقريباً إلى اسرة «مينج» ، لكنّ الكثير من أساساته يبلغ عمرها أكثر من ألفي عام.^(١) والخطّ الطويل من الطوب الرمادي يعود إلى تاريخ الصين القديم ، إذ يفصل بين طريقين للحياة ويحول بين الحياة البدوية وبين الفلاحين المسلمين. وبذلك يمثّل حائطاً شاهقاً من الحجارة والطوب والطين ، من الشرق (حيث البحر) إلى الغرب (حيث جبال تايين داغ) ، وبذلك يحكم حصر صحراء «جوي» تماماً في الشمال وعزلها عن سهول الصين الخصبة الكثيرة الأمطار والأنهار والخيرات والعظيمة التحضّر بشعبها العريق ، من فجر التاريخ ، منذ (٤٠٠٠) أربعة آلاف سنة!

ولم يقتصر اهتمام الإمبراطور «تشن شيه هوانج» على حماية بلاده من قبائل المغول الهمج في صحراء منغوليا (جوي) وتوفير الأمن للبلاد. بل تعدّاها إلى سنّ قوانين وتشريعات جديدة لتوحيد نظم الحكم والقضاء على الإقطاع. وبذلك تبين أنّ هذا السور العظيم ، ليس بذلك السدّ المنيع الذي بناه ذو القرنين ، حسبما جاء في القرآن. إذ هذا مبنيّ من الحجر والطوب والصاروج ، وذاك مبنيّ من زبر الحديد المفرغ عليها صهير النحاس.^(٢)

ويقول «ول ديورانت» في وصفه عن هذا السور العظيم : «إنّ «شي هونج . دي» لما بلغ الخامسة والعشرين بدأ يفتح البلاد ويضمّ الدويلات التي كانت الصين منقسمة إليها من زمن بعيد ، فاستولى على دولة «هان» في عام (٢٣٠) ق. م ، وعلى «چو» في عام (٢٢٨) وعلى «ويه» في عام (٢٢٥) ، وعلى «تشو» في عام (٢٢٣) ، وعلى «يين» في عام (٢٢٢). واستولى أخيراً على دولة «تشي» المهمّة في عام (٢٢١) ، وبهذا خضعت الصين لحكم رجل واحد ، لأوّل مرّة ، منذ قرون طوال ، أو لعلّ ذلك كان لأوّل مرّة في التاريخ كلّه. ولقّب الفاتح نفسه باسم «شيء هونج . دي» ، ثمّ وجه همّه إلى وضع دستور ثابت دائم

(١) بني السور بعد سنة ٢٢١ ق. م. على يد «تشن شيه هوانج» الذي قام بإعادة الأمن إلى بلاده منذ تلك السنة.

(٢) راجع : مفاهيم جغرافية ، ص ١٢٨ - ١٣٠ ؛ وذو القرنين لمحمد خير رمضان ، ص ٣٤٩ - ٣٥١.

لإمبراطوريّته الجديدة.

وكان الرجل قويّ الشكيمة ، عنيدا لا يحول عن رأيه ، وكان عقد العزم على أن يوحد بلاده بالدم والحديد.
ولما أن وحد بلاد الصين وجلس على عرشها ، كان أوّل عمل قام به أن حمى بلاده من الهمج البرابرة المجاورين لحدودها الشماليّة ، وذلك بأن أتمّ الأسوار التي كانت مقامة من قبل عند حدودها ، ووصلها كلّها بعضها ببعض. وقد وجد في أعدائه المقيمين في داخل البلاد موردا سهلا يستمدّ منه حاجته من العمّال لتشييد هذا البناء العظيم الذي يعدّ رمزا لمجد الصين ودليلا على عظيم صبرها. وهو أضخم بناء أقامه الإنسان في جميع عصور التاريخ. ويقول عنه «ولتير» : إنّ أهرام مصر إذا قيسست إليه لم تكن إلّا كتلا حجريّة من عبث الصبيان لا نفع فيها».^(١)

إذن فمن غريب الأمر ما ذهب إليه بعضهم من أنّ هذا السور هو السدّ الذي بناه ذو القرنين!
قال الاستاذ محمد خير رمضان يوسف : ما كنت أظنّ أنّ الخطأ في التحقيق يصل بالبعض إلى هذا الحدّ ... فقد خلط بين السدّ والسور ، رغم أنّه يعرف الفارق الكبير بينهما ، من حيث الطول أو الهيئة أو المكان!

فيذكر الاستاذ الطيّاح : أنّه لا ينافي أن يكون السدّ (سور الصين) من آثار ذي القرنين ، لأنّ البنّائين إنّما هم صينيّون ، وهو مقتضى قوله تعالى : ﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾^(٢) أي بقوة فعلة أو بما أتقوى به من الآلات ... وهذا لا ينافي أيضا أن ينسب بناؤه إلى ملك الصين الذي كان في ذلك الزمن ، حيث إنّه كان يطلب منه وعمل على مرأى منه ، إلّا أنّه لما كان ضعيفا لا يتمكّن من عمله بنفسه ورعيّته ، وكان عدوّه قويّا ليس في الوسع مقاومته وردّ غارته ، استنجد بذوي القرنين ، لما وصل إليه دفع ذي القرنين من الجنود ما لا قبل لأحد بها ، فاضطرّ المغوليّون إلى السكوت وعدم الممانعة ، فتمكّن الصينيّون بمعونة ذي القرنين

(١) قصّة الحضارة ، ج ٤ ، ص ٩٧ - ٩٨.

(٢) الكهف ١٨ : ٩٥.

من القيام بعمل هذا السدّ الهائل ...^(١)

وأعرب منه ما كتبه الاستاذ محمد جميل بينهم مقالا . في مجلّة الإخاء التي كانت تصدر في طهران في عدد (٣٢) من السنة الثالثة في ١ / ج ٢ / ١٣٨٢ هـ . تشرين الأوّل سنة ١٩٦٢ م . ردّا على مقال الاستاذ أبو الكلام آزاد ، الذي نشر في نفس المجلّة . أوّل آب سنة ١٩٦٢ م .!

قال صاحب المقال (محمد جميل بينهم) : كنت كتبت مقالا نشرته مجلّة العرفان في أيار سنة ١٩٥٥ م برهنت فيه على أنّ السور الصيني الكبير إنّما هو سدّ يأجوج ومأجوج الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، وحاك القصاصون حوله الخرافات والخزعبلات ... ولما اتّيح لي الوصول إلى الصين ، وزرت هذا السور ، ازددت وثوقا بما ذهب إليه في ذلك المقال ، خصوصا وإنيّ رأيت بأمّ عيني الصدفين (!) أي رأسي الجبلين المتقابلين الذين ساوى بينهما ذو القرنين ... ورأيت أيضا زير الحديد في الأنقاض ،^(٢) حيث يقوم عمّال الحكومة . اليوم . بترميم البناء ...؟!^(٣)

يقول الاستاذ محمد خير رمضان تعقيا عليه : وأنا لا أزيد أن أقول : إنّ هذا من أعجب ما قرأت في مغالطة التحقيق ...^(٤) فيا لله ولالأوهام ...!؟

لمحة عن الإسكندر المقدوني!

ولعلّك تتساءل : ما هو السبب في شيوع القول بأنّ ذا القرنين المذكور في القرآن ، هو الإسكندر المقدوني (اليوناني) ، وقد شاع وصف سدّ ذي القرنين بالسدّ الاسكندري؟! قد تكرّرت آراء من يرى . من المفسّرين وبعض أهل التاريخ . أنّه الإسكندر في عدّة مراجع :

(١) راجع ما كتبه بهذا الشأن في كتابه «ذو القرنين» ، ص ٥٥ (محمد خير رمضان ، ص ٣٤٧).

(٢) ولعلّ زير الحديد التي شاهدها هناك كانت بقايا من معاول ومساحي العمّال الذين كانوا يشتغلون في الحفر عن الأنقاض ، فحسبها من بقايا الردم؟!.

(٣) انظر : كتاب «أغاليط المؤرّخين» للدكتور أبو اليسر عابدين ، ص ٣١٧ ، دمشق ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م .

(٤) ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح ، ص ٣٤٩ .

وأول من وجدناه ذكر ذلك من أهل التاريخ ، هو أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢ هـ) في كتابه «الأخبار الطوال». ذكر فتوحاته في الهند والصين ، وكرّر راجعا إلى بلاد يأجوج ومأجوج ، وبنائه السدّ ، حيث قصّ الله خبرهم في القرآن. ^(١)

وبعده العلامة المؤرّخ الجغرافي أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٥ هـ) في كتابه «التنبيه والإشراف». قال فيه : وأخبار الإسكندر وسيره ومسيره في مشارق الأرض ومغاربها وما وطئ من الممالك ولقى من الملوك وبنى المدائن ورأى من العجائب ، وأخبار الردم ... ^(٢)

ومن المفسّرين الكبار الإمام الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسيره الكبير ، استنادا إلى أنّ إنسانا هذا شأنه ، قد ملك المشرق والمغرب وطاف البلاد ، لا بدّ أن يبقى ذكره خالدا غير مطموس ولا مغمور ، ولا أحد من ملوك العالم . فيما سجّله التاريخ . يعرف بهذا الوصف سوى الإسكندر اليوناني ...

ثمّ يعترض على هذا الرأي بأنّ الإسكندر هذا كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه ، فتعظيم الله إيّاه يوجب الحكم بأنّ مذهب أرسطاطاليس حقّ وصدق ... وذلك ممّا لا سبيل إليه ... قال : وهو إشكال قويّ ... ^(٣)

وتبعه على ذلك المتأثّرون بتفسيره ، منهم : نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري (ت ٧٢٨ هـ) في تفسيره «غرائب القرآن». قال فيه : وأصحّ الأقوال أنّ ذا القرنين هو الإسكندر بن فيلقوس . ولكنّه وصفه بالرومي ، خطأ . واستدلّ بما استدلّ به الرازي . وأجاب عن الإشكال بأن ليس كلّ ما ذهب إليه الفلاسفة باطلا ، فلعلّه أخذ منهم ما صفا ، وترك ما كدر ... ^(٤)

وعلاّمة بغداد أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت ١٢٧٠ هـ) في

(١) الأخبار الطوال ، ص ٣٧.

(٢) التنبيه والإشراف ، ص ١٠٠ (ط دار الصاوي ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م).

(٣) التفسير الكبير ، ج ٢١ ، ص ١٦٣ . ١٦٥ .

(٤) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، بهامش جامع البيان ، ج ١٦ ، ص ١٨ .

تفسيره «روح المعاني» يسرد الأقوال بشأن شخصية ذي القرنين ، وينتهي أخيرا بأنه الإسكندر المقدوني . الموصوف تارة باليوناني واخرى بالرومي . يقول :
وكأنيّ بك بعد الاطلاع على الأقوال ، وما لها وما عليها ، تختار أنه إسكندر بن فليقوس الذي غلب «دارا» ملك فارس وأنه كان مؤمنا لم يرتكب مكفرا
من عقد أو قول أو فعل ... أمّا تلمذته على أرسطو فلا تمنع من ذلك ، فقد تتلمذ الأشعري على المعتزلة ، كما خالف أرسطو استاذة أفلاطون في كثير
من المسائل ... هذا وقد ذكر الفيلسوف صدر الدين الشيرازي أنّ أرسطو كان حكيما عابدا موحدًا قائلًا بحدوث العالم ودثوره ... ^(١)

وسبقهم إلى ذلك أصحاب التفسير بالمأثور :

جاء في تفسير مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠) : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ﴾ ^(٢) يعني : الإسكندر قيصر! ويسمى الملك القابض على
قاف ، وهو جبل محيط بالعالم. وذو القرنين ، لأنه أتى قرني الشمس : المشرق والمغرب ... ^(٣)

وفي تفسير أبي جعفر الطبري (ت ٣١٠) : «كان شاتًا من الروم ، فجاء وبنى مدينة الإسكندرية»! ^(٤)

وفي تفسير الماوردي أبي الحسن علي بن محمد البصري (ت ٤٥٠) : «قال معاذ بن جبل : كان روميًا اسمه الإسكندروس. قال ابن هشام : هو
الإسكندر ، وهو الذي بنى الإسكندرية». ^(٥)

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر عن قتادة : الإسكندر هو ذو القرنين.

وعن وهب بن منبه : كان ذو القرنين رجلا من الروم. وكان اسمه الإسكندر. وإنما سمي ذا القرنين ، لأنّ صفحتي رأسه كانتا من نحاس!

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر عن السدي والحسن : كان أنف الإسكندر ثلاثة أذرع. وعن عبيد بن يعلى : كان له قرنان صغيران تواريهما

العمامة! ^(٦)

(١) روح المعاني ، ج ١٦ ، ص ٢٨.

(٢) الكهف ١٨ : ٨٣.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ، ج ٢ ، ص ٥٩٩.

(٤) جامع البيان ، ج ١٦ ، ص ٧.

(٥) تفسير الماوردي (النكت والعيون) ، ج ٣ ، ص ٣٣٧.

(٦) الدر المنثور ، ج ٥ ، ص ٤٣٨ . ٤٣٩.

وللحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤) هنا محاولة غريبة : ^(١) عمد إلى الجمع بين الروايات المختلفة بشأن الإسكندر ، وأتته شخصان ، هو في أحدهما روميّ ، وفي الآخر يونانيّ مقدونيّ.

أخرج بإسناده إلى إسحاق بن بشر عن سعيد بن بشير عن قتادة ، قال : إسكندر هو ذو القرنين ، وأبوه أول القياصرة ، وكان من ولد سام بن نوح.

فأمّا ذو القرنين الثاني فهو اسكندر بن فيلبس من ذريّة إسحاق. قال : كذا نسبه ابن عساكر في تاريخه ، المقدوني اليوناني المصري باني الإسكندريّة ، وكان متأخراً عن الأوّل بدهر طويل. كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة. وكان أرسطاطاليس الفيلسوف وزيره ، وهو الذي قتل دارا وأذلّ ملوك الفرس وأوطأ أرضهم.

قال : وإتّما نبّهنا عليه لأنّ كثيراً من الناس يعتقد أنّهما واحد ، وأنّ المذكور في القرآن هو الذي كان أرسطاطاليس وزيره ، فيقع بسبب ذلك في خطأ كبير وفساد عريض طويل كثير!!

فإنّ الأوّل كان عبداً مؤمناً صالحاً وملكاً عادلاً وكان وزيره الخضر ، وقد كان نبياً على ما قرّرناه قبل ... وزاد في التفسير : أنّه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل وأوّل ما بناه وآمن به وأتبعه.

وأما الثاني فكان مشركاً وكان وزيره فيلسوفاً ، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة ، فأين هذا من هذا ، لا يستويان ولا يشتبهان إلّا على غيِّ لا يعرف حقائق الأمور!! ^(٢)

ولعلّك أيّها القارئ النبیه ، في غنى عن التدليل على مواضع الضعف من هذه الأوهام والتي هي أشبه بالخيال من الحقيقة! فإنّ التناقض والتهافت فيما تلوناه عليك باد بعيان من غير حاجة إلى البيان.

وللدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر تفصيل وتبيين عن مواضع الإسكندر

(١) على غرار ما سبق عن زميله ابن قيم ابن الجوزيّة (ت ٧٥١ هـ) ، هما رضيعا ندي واحد (تلميذا ابن تيمية) وكان هاتما في تحيّلته ، وهكذا أثر على أعقابه وأتباعه!

(٢) البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ؛ وراجع تفسيره أيضا ، ج ٣ ، ص ١٠٠ .

المقدوني ، والتي لا تدع مجالاً لاحتمال كونه ذا القرنين المذكور في القرآن ، ولا احتمال أن يكون هناك إسكندران : روميّ ويونانيّ . كما حسبته البعض . لأنّ القضية تعود إلى وثائق التاريخ وليس هناك عبث في الكلام ... (١)

ومن المعاصرين ، ذهب الاستاذ محمد جمال الدين القاسمي (ت ١٣٢٢ هـ) إلى أنّ ذا القرنين الذي جاء ذكره في القرآن ، هو الإسكندر الكبير المقدوني . (٢)

يقول : اتفق المحققون على أنّ اسمه (ذا القرنين) الإسكندر الأكبر ابن فيلبس باني الإسكندريّة بتسعمائة وأربعة وخمسين سنة (٩٥٤) قبل الهجرة ، وثلاثمائة واثنين وثلاثين (٣٣٢) سنة قبل ميلاد المسيح ﷺ .

وردّ على ابن القيم ابن الجوزيّة في زعمه : أنّه سبق هذا الإسكندر بقرون كثيرة ...

قال ابن قيم . في كتابه «إغاثة اللهفان» في الكلام على الفلاسفة . : ومن ملوكهم الإسكندر المقدونيّ وهو ابن فيلبس ، وليس بالإسكندر ذي القرنين الذي قصّ الله تعالى نبأه في القرآن ، بل بينهما قرون كثيرة ، وبينهما في الدين أعظم تباين . فذو القرنين . في القرآن . كان رجلاً صالحاً موحّداً لله تعالى ، يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وكان يغزو عبّاد الأصنام ، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وبني السدّ بين الناس وبين يأجوج ومأجوج . وأمّا هذا المقدونيّ فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته . وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستّمائة سنة (!!). (٣) والنصارى تؤرّخ له . وكان أرسطاطليس وزيره وكان مشركاً يعبد الأصنام ...

وهنا يأتي القاسمي ليردّ عليه قائلاً : إنّ المرجع هم أئمّة التاريخ ، وقد أطبقوا على أنّه (أي ذي القرنين) هو الإسكندر الأكبر ابن فيلبس باني الإسكندرية . وقد أصبح ذلك من الأوّليات عند علماء الجغرافيا .

... وأمّا ما جاء في وصفه في القرآن ، فلعلّه لخصال حسان لا تمسّ جانب عبادته

(١) راجع ما كتبه بهذا الشأن ، في كتابه القيم «مفاهيم جغرافيّة في القصص القرآني» ، ص ٥٠ . ١٣٠ . فإنّه جيّد دقيق!

(٢) تفسير القاسمي ، ج ٥ ، ص ٥٤ .

(٣) لقد اشتبه الأمر عليه كثير ، إذ الإسكندر المقدوني كان قبل المسيح بثلاثمائة وثلاث وثلاثين سنة . نعم ذكروا أنّ الفصل الزماني بين ذي القرنين الذي جاء ذكره في القرآن والذي كان على عهد إبراهيم الخليل . حسبما زعموا . هو نحو هذا العدد (١٦٠٠ سنة)!

للأوثان ... بل لعله من المحتمل أنه خالف شعبه وتبع استاذة في التوحيد ، كما قيل. ^(١)

وهكذا ذكر الاستاذ محمد فريد وجدي : لا ينافي أن يكون المقصود بذي القرنين هو الإسكندر المقدوني ، على ما كان فيه من الشذوذ في بعض الامور. ^(٢)

هذا وإننا لنستغرب صدور مثل هذا الكلام من مثل القاسمي والوجداني وقد عاشا القرن العشرين ودرسوا أساليب النقد التاريخي الصحيح ، وعرفا من الإسكندر المقدوني ذلك الطاغية الذي عاش حياته القصيرة في الترف والزهو وقد أبطرتة النعمة وأطغته العظمة ، فعلا في الأرض واستكبر وأفسد فيها وأهلك الحرث والنسل وحاول إبادة الحضارات والثقافات واصل الديانات وأحرق المكتبات ، وانهمك على اللذات واللهو العارم ، فأنشأ لنفسه سرايا على نسق ملوك الشرق المبشرين ، وأحاط نفسه بالندمان وأهل الخلاعة ، وتغلغل في متاهات الغلو ، حتى ادعى أنه هو وحده يرجع إليه الفضل في تلك الفتوحات. ثم تنمر حتى ادعى أنه ابن الإله «جوبة» ودعا إلى عبادته. ^(٣)

تسع آيات إلى فرعون وقومه! ^(٤)

وهناك من أصحاب الفكر الإسلامي الحديث . حسب مصطلحهم . من يستنكر على القائل بأن تلك الآيات حوادث واقعة ، ويراهها قصصا شعبية تسلمها الخصوم فاستغلها القرآن جدلا بالتي هي أحسن!

يقول الاستاذ خليل عبد الكريم . ردًا على الاستاذ محمد أحمد خلف الله ، مذهبه في إضفاء الصفة التاريخية على هذه الأحداث . : أما الأوغر من ذلك فإنه (الاستاذ خلف الله) يعتبر حكاية موسى وفرعون ، وخروج بني إسرائيل من مصر ، وضرب ملأ فرعون بالجراد والقمل والضفادع والدم ، وتحدي موسى للسحرة ، وانقلاب العصي إلى حية أو

(١) تفسير القاسمي ، ج ٥ ، ص ٥٨ .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين ، ج ١ ، ص ٣٢٥ .

(٣) راجع : البحر الزاخر ، في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر لمحمود فهمي المهندس ، ج ٢ ، ص ١٣٦ . ١٣٧ و ١٥٠ . ١٥١ . (محمد خير رمضان ، ص ١٤٦ . ١٤٧) .

(٤) النمل ٢٧ : ١٢ . الإسراء ١٧ : ١٠١ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، فَسْتَكْبَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْخُورًا﴾ . راجع : قصص الأنبياء للاستاذ النجار ، ص ١٩٧ . ١٩٨ .

ثعبان أو جأن ... نقول : إنّه يعتبر كلّ هذه الحكايات تاريخاً ، مع أنّه لا يوجد في العالم بلد حرص على تدوين تاريخه كتابة كمصر ، وليس في التاريخ المصري شيء من هذا ، ومع ذلك فقد عدّها المؤلّف قصصاً تاريخيّة ...^(١)

لَمّا أخذت فرعون العزّة بالإثم وعنى عن أمر الله تعالى وتمادى في تكذيب موسى وهارون ، واستمرّ في إعنات بني إسرائيل وإيقاع ضروب الإذلال والإهانة بهم ، أمر الله تعالى موسى أن يعلن فرعون وقومه بوقوع العذاب بهم. فكانوا كلّما وقع بهم عذاب بعد إنباء موسى إياهم به وعدوه بالإيمان تارة وبإرسال بني إسرائيل أخرى إن كشف الله عنهم العذاب. وكلّما كشف الله عنهم عادوا إلى طغيانهم وغدروا بعهدهم وخاسوا بوعدهم ، وهكذا إلى أن وقعت الآية الكبرى والبطشة العظمى ، وهي إغراق فرعون في اليمّ ونجاة بني إسرائيل. والآيات . حسبما ذكره المفسرون . هي :

- ١ . الجذب «أخذناهم بالسنين» بأن قلّ عنهم ماء النيل وقصر عن إرواء أراضيهم.
- ٢ . النقص من الثمرات بسبب ما أتى عليها من الجوائح والعاهات.
- ٣ . الطوفان ، قيل بطغيان النيل حتى دخل بيوتهم ومساكنهم فخرّبها ، وفاض على مزارعهم فأفسدها في وقت كان الزرع فيها نامياً.
- ٤ . الجراد ، بأن هجمتهم جحافل الجراد فأكل الزرع واجتاح الثمار.
- ٥ . القمل ، قيل : هو السوس الذي يفسد الحبوب. وقيل : القراد ، دويبة تتعلّق بالبعير ونحوه وهي كالقمل للإنسان تلسعه وتأخذ راحته. وأبدلتها التوراة بالبعوض ، كما يأتي.

٦ . الضفادع ، كثرت عليهم حتى نغضت عليهم عيشتهم بسقوطها على فرشهم وأوانيهم وطعامهم.

٧ . الدم ، قال زيد بن أسلم : سلّط الله عليهم الرعاف بحيث أزعج عليهم الحياة.

٨ . الطمس على أموالهم ، فتوالت عليهم الخسران في مكاسبهم.

٩ . اليد البيضاء ، إذ كان يضع يده في جيبه ثمّ يخرجها بيضاء من غير سوء.

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم ، مع شرح وتعليق خليل عبد الكريم ، ص ٤١٥ . ٤١٦ .

والاستاذ عبد الوهاب النجار . بعد أن ذكر كلام المفسرين . رجّح أن تكون الآيات التسع كما يلي :

١ . السنون ، ٢ . نقص الأموال ، ٣ . نقص الأنفس ، ٤ . نقص الثمرات ، ٥ . الطوفان ، ٦ . الجراد ، ٧ . القمل ، ٨ . الضفادع ، ٩ . الدّم .^(١)

* * *

وقد ذكرت التوراة الآيات التي جاء بها موسى إلى فرعون وملائته ، وجعلتها اثنتي عشرة آية :

- ١ . انقلاب العصي حيّة . (الأصحاح ٧ من سفر الخروج عدد ١٢) .
- ٢ . انقلاب نهر النيل دما سبعة أيّام وموت السمك فيه وبتن مائه . (أص ٧ : ١٧ - ٢٤)
- ٣ . صعود الضفادع من النهر إلى أرض مصر ومضايقتها للمصريّين حتى غطّت أرض مصر كلّها . (أص ٨ : ١ - ١٠)
- ٤ . كثرة البعوض بأرض مصر على الناس والبهائم . (أص ٨ : ١٦ - ١٩)
- ٥ . كثرة الذباب في أرض مصر وبيوت المصريّين كثرة فاحشة حتى تنعّصت عيشتهم . (أص ٨ : ٢٠ - ٢٤)
- ٦ . تفشّي الوباء في مواشي المصريّين . (أص ٩ : ١ - ٧)
- ٧ . فشوّ الدماميل في الناس والبهائم . (أص ٩ : ٨ - ١٢)
- ٨ . نزول البرد العظيم فأهلك الحرث والنسل . (أص ٩ : ١٣ - ٣٥)
- ٩ . كثرة الجراد فأفسدت الزرع والثمار . (أص ١٠ : ١ - ١٥)
- ١٠ . إظلام السماء ثلاثة أيّام . (أص ١٠ : ٢١ - ٢٣)
- ١١ . موت كلّ بكر من الناس والبهائم . (أص ١١ : ١ - ٩)
- ١٢ . اليد البيضاء . (أص ٤ : ٦ - ٩)

(١) قصص الأنبياء ، ص ١٩٨ .

* * *

رأى فرعون الآيات ولكنه تمادى في كفره وأصرّ على عناده ، وعاد في اضطهاد بني إسرائيل ، معتزاً بما له عليهم من القهر والغلبة والسلطان ، فطبعي أن يضحّ بنو إسرائيل بالشكوى إلى موسى ممّا حاق بهم من الحيف والجور. فوصّاهم موسى بالصبر والاستعانة بالله ، ووعدهم بالنصر وحسن العاقبة. فلم يكفكف ذلك دموعهم وقالوا له : ﴿أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾! فمناهم هلاك عدوّهم وإخراجهم من الضيق إلى السعة وأن يكونوا خلفاء في الأرض التي وعدوا بها. ^(١) وأراد فرعون أن يبطش بموسى ، متحدّياً إلهه حتى لا يكون منه تبديل لدين القوم. ولكنّ موسى عاذ بالله من شرّ هذا المتكبر العاتي ، فكان عيذاً. ^(٢) فاصيب فرعون وقومه الدمار والهلاك ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾. ^(٣) انطلق موسى بقومه من أرض مصر ، ذاهباً إلى أرض فلسطين ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرْكاً وَلَا تَخْشَى﴾. ^(٤)

فهل كان هذا الانطلاق بناء على أمر صدر له من فرعون ، بعد أن أمضه الله وقومه بسوء العذاب ، في الآيات التسع؟ تقول التوراة : إنّ ذلك كان بناء على سماح فرعون لهم بالانطلاق ، ليخلص من ضروب العذاب التي حاقت بقومه. جاء في الاصحاح ١٢ : ٢٩-٣٣ من سفر الخروج : «فحدث في نصف الليل أنّ الربّ ضرب كلّ بكر في أرض مصر ... وكان صراخ عظيم. لأنّه لم يكن بيت ليس فيه ميّت ... فدعا فرعون موسى وهارون وقال : قوموا اخرجوا من بين شعبي ، أنتما وبنو إسرائيل جميعاً ، واذهبوا اعبدوا الربّ كما تكلمتم. خذوا غنمكم أيضاً وبقركم كما

(١) الأعراف ٧ : ١٢٩.

(٢) غافر ٤٠ : ٢٤-٢٧.

(٣) طه ٢٠ : ٧٨.

(٤) طه ٢٠ : ٧٧.

تكلّمتم واذهبوا ، وباركوني أيضا. وكذلك ألحّ المصريّون على بني إسرائيل ليخرجوا من أرض مصر ، حيث خوفهم من الفناء ...
 لكن فرعون ندم على سماحه لخروج بني إسرائيل . وقد كان هو وقومه يستعبدونهم . فعزم على اتّباعهم ليردّهم عبيدا أذلاء ... وكان بنو إسرائيل قد بلغوا ساحل البحر الأحمر . على خليج السويس . وأطلع عليهم فرعون مع شروق الشمس ، وأيقن بنو إسرائيل بالهلاك وأنّ فرعون باطش بهم . فسكّن موسى روعهم وضرب البحر ، فكان فلقطين وظهرت اليابسة بينهما ، فأمر بني إسرائيل بالعبور ، فعبروا من الشاطئ الغربي إلى الشاطئ الشرقي ...

وأشرف فرعون في ذلك الحين على الموضع الذي عبر منه بنو إسرائيل ، فرأى طريقا في البحر لا وعورة فيه ، وبنو إسرائيل بين فرقي الماء لم يمّسهم أذى . فطمع أن يعبر في أثرهم هو وجنوده ، فاقتحموا الطريق اليابس في البحر خلف بني إسرائيل . فلما جاز بنو إسرائيل البحر عن آخرهم وكان فرعون وجنوده قد توسّطوه انطبق عليهم البحر فكانوا من المغرقين ...

لمحة عن حياة بني إسرائيل في مصر

ذكر الاستاذ أحمد يوسف أحمد . في كتابه : فرعون موسى . قصّة الولادة والرسالة . والخروج . : أنّ يوسف الصديق عليه السلام قد دخل مصر في عهد الاسرة السادسة عشرة ، في أيّام أحد ملوكها المدعوّ «أبائي الأوّل» . وقد وجدت لوحة أثرية عبارة عن شاهد مقبرة ذكر فيها اسم «فوتي فارع» وهو المذكور في التوراة «فوطيفار . عزيز مصر» . كما استدلّ من بعض الآثار عن الاسرة السابعة عشرة ، على حدوث جذب في مصر قبل هذه الاسرة ، وهو ما ذكر في القرآن والتوراة عن سنّي القحط .

إذن فدخول يوسف يمكن تحديده قريبا من سنة (١٦٠٠ ق . م) في عهد الملك أبائي المذكور . ويكون دخول بني إسرائيل بعد ذلك بنحو ما يقرب من (٢٧ عاما) وهي

المدّة التي أقامها يوسف في بيت سيّده ، مضموما إليها المدّة التي قضّاها في السجن. يضمّ إلى ذلك مدّة الرخاء والخصب ، ثمّ بعض مدّة الجذب ، إلى أن قال لإخوته : ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١).

وإذا اطلعنا على حياة ملوك الفراعنة ، فيما بين هذه الاسرة والاسرة التاسعة عشرة ، لم نجد أيضا ذكرا يثبت أيّ اضطهاد حدث لقوم إسرائيل ، ولا أيّ ذكر لهم أثناء ذلك.

ولكن التوراة تذكر أنّ فرعون مصر الذي اضطهد بني إسرائيل ، كان يستخدمهم في بناء مدينتين : رعمسيس وفيثوم. وقد ثبت من الحفائر الأثريّة وجود مدينة باسم «فيثوم» أو «بر. توم» ومعناها : بيت الإله توم. ومدينة اخرى باسم «بر رعمسيس» أي بيت أو قصر رعمسيس.

والاولى اكتشفت بواسطة العالم الفرنسي «نافيل» سنة (١٨٨٣ م) وموضعها الآن : تلّ المسخوطة ، في مديريّة الشرقية. والثانية اكتشفت بواسطة العالم المصري الاستاذ محمود حمزة في سنة (١٩٢٨ م) وموضعها بلدة «قنتير» وتسمّى بالمصري القديم : «خنت نفر» أو الوسط الجميل. وأيضا «بر رعمسيس» هي التي بناها «رعمسيس» الثاني ، لتكون عاصمة لملكه في مصر في وسط الوجه البحريّ ، ليكون بها قريبا من الحدود المصريّة ، لتساعده على صدّ الأعداء. كما أنّه أيضا بنى مدينة «فيثوم» ، واتّضح من وجود بعض آثار الجدران في المدينة أنّها أيضا كانت حصنا مصريّا. وتكون التوراة قد أخطأت في حسابها مخازن للغلال.

إذن فرعمسيس الثاني قد يعتبر الفرعون الذي اضطهد بني إسرائيل ، وولد موسى ﷺ في زمنه. ويضاف إلى ذلك عداؤه الشديد للشعوب الآسيويّة التي ظلّ يحاربها متغيّبا عن مصر زهاء تسع سنوات. وقد يكون كرهه لبني إسرائيل المقيمين في مصر مترتّبا على خشيته من أن يصبحوا حزبا ممالئا لأعدائه المواطنين لهم من قبل ، ولا سيّما

(١) يوسف ١٢ : ٩٣.

وقد تكاثروا في عددهم وتناسلوا حتى كانت لهم جالية كبيرة تشمل جزءا عظيما من مديرية الشرقية.

وحيث إنّ الملك رعمسيس الثاني قد أشرك معه ابنه الملك «منفتاح» في الحكم قبل وفاته ، وكان «منفتاح» الولد الثالث عشر لرعمسيس . وقد بلغ أولاده (١٥٠) . وكان (أي منفتاح) مسنّا حين ولايته للعهد ، فيكون قد عاصر موسى في بيت أبيه ... وبحقّ قال لموسى : ﴿ **أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ** ﴾^(١) . ويكون «منفتاح» هو فرعون الخروج ، الذي ارسل إليه موسى وهارون عليهما السلام لإخراج بني إسرائيل من مصر . وكان موسى حينما بعث إلى فرعون هذا قد بلغ الثمانين ، وأخوه هارون أكبر منه بثلاث سنين .^(٢) وتكون التوراة على صواب عند ما قالت : وفي هذه الأثناء كان ملك مصر . تقصد الملك رعمسيس . قد مات ...

وقد عثر العلامة «فلندرس بيري» على حجر من الجرانيت القاتم ، ورقمه في دار الآثار (٥٩٩) وهو عبارة عن لوحة كبيرة يبلغ ارتفاعها (٣) أمتار و (١٤) سم ، وهو منقوش من الوجهين ، أحدهما للملك «امنحتب» الثالث من الأسرة (١٨) يذكر فيه كلّ ما عمله لمعبد «آمون» . أمّا الوجه الآخر فقد استعمل في شأن الملك «منفتاح» ابن رعمسيس الثاني من الأسرة (١٩) . وذكر فيه عبارات بأسلوب شعري يفتخر فيها بانتصاره على اللوِيِّين . ويشير إلى سقوط عسقلان وجيزر ويانوعيم في فلسطين . وجاء في ضمنها عبارة تشير إلى بني إسرائيل ، ونصّها الحرفيّ : «لقد سحق بنو إسرائيل ولم يبق لهم بذر» . وهذا أوّل نصّ رمي في الآثار ، ذكر فيه بنو إسرائيل .

وقد عثر على هذا الحجر في كوم الحيتان بطيبة الأقصر .

وهذا الحجر يبدو منه للمدقّق : أنّ «منفتاح» لم يكتبه في عهده ، وإلاّ لكانت لهذه الحوادث الخطيرة التي يذكرها فيه شأن عظيم كان يجب أن يدوّن في أثر خاصّ ، لا أن

(١) الشعراء ٢٦ : ١٨ .

(٢) سفر الخروج . أصحاب ٧ : عدد ٧ .

يستعمل له حجر كان لغيره من قبل.

ويظهر أنّ الكهنة التابعين لمنفتاح هم الذين استعملوا هذا الحجر ودوّنوا ما به ليشيدوا بذكره ، فيقوموا بذلك بواجب التخليد ، حيث لم يكن منتظرا أن يموت الملك بتلك الصورة المعجّلة التي مات بها ، وقد أرادوا أن يوهمو الناس أنّ فرعون قد سحق بني إسرائيل ، تمويها وقلبا للحقائق ، حتى يستروا أمام الشعب المصري الذي كان يحترم ديانتهم ، خذلائهم وخذلان إلههم أمام موسى ، حين كان فرعون يتعقّب بني إسرائيل.

ويكون العثور على جثّة «منفتاح» ووجودها الآن بالمتحف المصري ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً﴾. (١)

وقد وجدت الجثّة مع غيرها من الجثث في قبر «أمنحتب الثاني» بالأقصر.

وظهر من آثار قبر «منفتاح» أنّه لم يكن مهيباً كما يجب لدفن ملك مثله ، لأنّ موته لم يكن منتظرا ، فلم يهيأ له قبر خاص. (٢)

* * *

أمّا موضع العبور فلم يعرف بالضبط ، والتوراة تورّد أسماء أمكنة مرّ بها بنو إسرائيل حتى أتوا إلى مكان العبور. وهذه الأمكنة ليست مسمّياتها معروفة اليوم. والبحارة في البحر الأحمر يسمّون مكانا في خليج السويس «بركة فرعون» ويقولون : إنّ العبور كان بها ، وهي بعيدة عن السويس كثيرا ، تمارّ بها السفن البخاريّة بعد نصف الليل إذا قامت من السويس في المساء.

قال الاستاذ النجار : وإنيّ لاستبعد ذلك كثيرا وأعتقد أنّ خليج السويس كان يمتدّ من تلك الأزمان إلى البحيرة المرّة أو يقرب منها ، وفي هذا الخليج من تلك الناحية كان عبورهم. وبعبارة اخرى إنهم عبروا مكان شماليّ المكان المعروف بعيون موسى ، في البرّ الآسيوي ، وهي لا تبعد عن السويس كثيرا.

(١) يونس ١٠ : ٩٢.

(٢) انتهى ما نقله الاستاذ النجار عن كتاب أحمد يوسف أحمد ، وقد كان تحت الطبع ، كما ذكر الاستاذ. راجع : قصص الأنبياء للنجار ، ص ٢٠١ - ٢٠٣.

وتقول التوراة : إنّ الله أرسل ريحا شرقية على البحر فأزالت الماء حتى ظهرت اليابسة ، وعبر بنو إسرائيل فتبعهم فرعون فغرق. والعبارة هكذا : فقال الرب لموسى ... قل لبني إسرائيل أن يرحلوا ، وارفع أنت عصاك ومدّ يدك على البحر وشقّه ، فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة ...
ومدّ موسى يده على البحر ، فأجرى الربّ البحر بريح شرقية شديدة كلّ الليل وجعل البحر يابسة وانشقّ الماء. فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم ...^(١)

وأخذ بعضهم من ذلك شبهة أنّ فلق البحر كان بهبوب العواصف ، ولم تكن آية معجزة! لكن لم يعهد أن تعمل الرياح مهما اشتدّت هذا العمل العجيب في الخليج مرّة أخرى ، بل كلّ الدهر ، سواء قبل هذه الحادثة أم بعدها ، فلم فعلت ذلك حين أمر موسى بني إسرائيل بعبور البحر ، ذلك الحين فقط؟!

قال الاستاذ النجّار : فلم يكن ذلك إلّا بعناية خاصّة من الله تعالى لإنقاذ ما في علمه.^(٢)

* * *

وبعد فياذ قد علمنا أنّ سجلّات التاريخ ، غالبيتها إنّما تعنى بشئون السلاطين وإضفاء وابل الثناء عليهم خاصّة ، حتى ولو كان بقلب الحقائق وتبديل سيئاتهم حسنات وإعفاء ما سواها من شئون ، فيا ترى هل تجد هناك مجالا لوصف محاسن خصومهم أو الإشادة بذكرهم ، ولا سيّما إذا استدعى ذلك مسّا بكرامة الأسياد أو الخطّ من شأنهم الرفيع!!

لم تكد الوثائق التاريخية القديمة تتجاوز رغبات حاشية الملوك والامراء ، فيما يعود إلى تفخيم شأنهم وتعظيم جانبهم بالذات ، وأن لا يذكر هناك شيء يشينهم أو يضع من شأنهم إطلاقا. فما هي إلّا إملاءات تملّوها الأسياد ، حسب ميولهم واتّجاهاتهم

(١) سفر الخروج ، أص ١٤ : ٢٣-١٥.

(٢) قصص الأنبياء للنجّار ، ص ٢٠٤-٢٠٥.

الخاصّة.

أمّا المحاسن فتذكر وتسجّل بتفصيل وتبيين . حتى ولو كانت مصطنعة . وأمّا المساوئ فتعفى ، وتصبح نسيا منسياً .
وقد عرفت مدى جهود السلطة المقدونيّة في طمس مآثر الحكم الهخامنشي الرهيب ، بحيث طوى عليها التاريخ فتنوسيت حتى عن أذهان أبناء
الفرس أنفسهم ، حيث تداوم العمل المستمرّ في إخماد تاريخ السلف طيلة قرون .
أفلا تعجب من تناسي ذكر كورش ومآثره وحتى اسمه ورسمه عند أكبر مؤرّخي الفرس : الحكيم الفردوسي فلم يتحدّث عنه بشيء!!
هذا جانب خطير من مضاعفات سلطة الأجانب على البلاد .
وهكذا الأمر بشأن موسى ومواقفه الرهيبة مع فرعون وملائه ... فيا ترى لم لم يأت له ذكر في سجلّات مصر القديمة؟!
فيا فضيلة الاستاذ خليل عبد الكريم ، هل تجد فسحة لإنكار حضور موسى ﷺ نفسه شخصياً في مصر ذلك العهد وفي تلك الحقبة من التاريخ
القديم ، هل يتخالج في فكرك (الإسلامي الحديث!) إنكاره رأساً ، بحجّة أنّ سجلّات مصر قد أهملته؟! أو أنّك تحسب الحديث عن موسى المصري .
حسبما جاء في القرآن الكريم . كسائر قضاياه التي حسبتها . أنت وزملاؤك . قصصاً شعبيّة لا واقع لها؟!
فإن خالجتك نفسك في إنكار وجود موسى المصري (ولادة ونشأة ومبعثاً) ... فقد ارتكبت خطأ عظيماً يجب الاستغفار منه!!
وهكذا سائر قضاياه في مصر ، قد أغفلتها سجلّات تاريخ مصر القديمة ، لا شيء إلّا لكونها مخاّزي تغضّ من كبرياء فراعين مصر!!
وقد عرفت أنّ أوّل وثيقة مصريّة سجّلت عن بني إسرائيل ، هي اللّوحة المرقّمة (٥٩٩) بدار الآثار المصريّة ، جاء فيها الحديث عن الملك «منفتاح»
ابن رعمسيس الثاني من الاسرة (١٩) وجاء فيها عرضاً ، الكلام عن بني إسرائيل باعتبار سحقهم على يد هذا

الملك الجبار.

هكذا جاء قلب الحقائق ، وتبديل المخازي محاسن ، وثبتها مقلوبة في ذمة التاريخ.

هذا وقد تمّ ترقيم هذا البحث بجوار مشهد الإمام الرضا عليه السلام بخراسان في ظهيرة يوم

الجمعة سادس عشر ربيع الثاني عام ١٤٢٣ هـ ق ٧ / ٤ / ١٣٨١ هـ ش.

والحمد لله رب العالمين . محمد هادي معرفة

فهرس الآيات

البقرة

- ٢ : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ٢٥٢
- ٨ : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ٢٥١
- ١٧ : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي﴾ ٤١٢
- ٢٥ : ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ ٤٢
- ٣٠ : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ٢٢ ، ١٢٣ ، ٣٧٦
- ٣١ : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ ٢١ ، ١٢٣ ، ٣٩٦
- ٣٣ : ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ ٣٩٧
- ٣٤ : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ ٢١ ، ١٢٣
- ٣٦ : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي﴾ ٣٩٥
- ٣٨ : ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ﴾ ٢٠ ، ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٥١
- ٦٢ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ ٣٧١
- ٦٣ و ٦٤ : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ... ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ .. ٧٣
- ٦٥ : ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ٤٧٢
- ٧٣ : ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَلِكَ يُخَيِّبُ اللَّهُ الْمُتَوَسِّلِينَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ . ٤٧٢
- ٧٨ : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يِعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ٤٢١
- ٨٩ : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ١٦
- ١٠٢ : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانُ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٢٣
- ١٠٦ و ١٠٧ : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ... أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾ ٣٦٠
- ١١٥ : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ٣٥٩
- ١٢٠ : ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وِليٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ١٤١
- ١٢١ : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ٢٥٢
- ١٢٣ : ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ ٥٢

- ١٣٥ : ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١٢
- ١٣٦ : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ... وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ﴾ ١٢
- ١٣٧ : ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ ١٢
- ١٣٨ : ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ ١٢
- ١٥٠ و ١٥١ : ﴿وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ﴾ ٣٠٥
- ١٦٤ : ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ ٤١٥
- ١٧٧ : ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ . ٣٧١
- ١٨٥ : ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ ٢٥٢
- ١٨٧ : ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ ٢٠٠
- ٢١٢ : ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ٢٦٥
- ٢٢٨ : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ ١٤٢ ، ٣٨٣
- ٢٢٨ : ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ١١٥ ، ١١٧ ، ١٥٥
- ٢٢٨ : ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ ١١٧
- ٢٢٩ . ٢٣٢ : ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ... فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ﴾ ١٤٠
- ٢٢٩ : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَقِيْمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ ١٤٥
- ٢٣٣ : ﴿لَا تَضَارَّ وَالِدَةً بِوَلَدِهَا﴾ ١٣٩
- ٢٣٤ : ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ ٣٦٨ ، ٣٧٤
- ٢٣٥ : ﴿وَلَا تَعَزَّمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ﴾ ٢٢٥
- ٢٣٧ : ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ ٢٢٥
- ٢٥٥ : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ... وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ١٧ .
- ٢٥٥ : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ٣٣١
- ٢٥٧ : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ٤١٥
- ٢٦٠ : ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَال بَلَىٰ وَلَكِنْ لَّيَطْمَنَّ قَلْبِي﴾ ٣١٩
- ٢٧١ : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ﴾ ٢٧٣
- ٢٧٥ : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ﴾ ١٩١ ، ٣٩٢ ، ٤٤
- ٢٨٢ : ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ ٢٤٠
- ٢٨٢ : ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِّجَالِكُمْ فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ ١٣٢
- ٢٨٤ : ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ ٢٦٤

٢٨٦ : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ٢٥٣

آل عمران

٧ : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ٢٩٣

١١ : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ١٢٤

١٤ : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ ٤٠٠

١٩ : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ١٢

٣١ : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ١٥٧ ، ٤٢٧

٣٥ : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ ٨٣

٤٤ : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ ٨٦ ، ٤٣٥ ، ٤٥٠

٤٦ : ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ٨٨

٤٩ : ﴿أَيُّ أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ٢٨٢

٥٢ : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٣٧٦

٥٥ : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَنْزَلَكَ مِنَ رَبِّكَ وَارْفُكْ إِلَيَّ﴾ ١٠٣

٥٩ : ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ ٢٤٩

٦٤ : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ ٧

٦٧ : ﴿خَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ ٨٩

٨٥ : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ١٢

١٠٦ و ١٠٧ : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ٢٠٠

١٣٨ : ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ٢٥٣ ، ٣٩٤

١٤٦ : ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ٤٢٧

١٥٩ : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ٢٨٣

١٨١ : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ٣٥٨

١٨٧ : ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَزَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ٢٧٢

١٩٥ : ﴿أَيُّ لَأُضِيعَ عَمَلٌ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ ١١٦

النساء

١ : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ١٦٧

٢ و ٣ : ﴿وَاتَّوُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ... وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ﴾ ١٦٢ ، ١٦٣ ، ٤٠٨ ، ٤١١

٣ : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ ١٦٧ ، ١٧١ ، ٤٠٩

- ٤ : ﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ ٤١٦
- ٧ : ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾ ١٢٥
- ١١ : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ ١٢٥ ، ١٢٧
- ١١ : ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ... فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ ٤٠٣ ، ٤٠٥
- ١٣ . ١٤ : ﴿وَصِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ ... وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ... وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ ... يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ ١٢٨
- ١٩ : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ١٥٥
- ٢٢ : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ١ ، ٣ ، ٨ ، ٤٠ ، ٤١٠ ، ٤١٢
- ٢٤ : ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ ٤٠٨ ، ٤١٢
- ٢٥ : ﴿بَعْضُكُمْ مِّنَ بَعْضٍ﴾ ١٧٦
- ٢٥ : ﴿مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنَ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ ٤٠٨
- ٣٢ : ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ ١١٥
- ٣٤ : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَمَا أَنْفَقُوا مِنْ ...﴾ ١١٧ ، ١٢١ ، ١٤٩ ، ١٥٤
- ٣٤ : ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ ١٤٩
- ٣٦ : ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ٤٠٨ ، ٤١١
- ٤٢ : ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ٢٦٩
- ٦٠ : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ ٤١٥
- ٦٩ : ﴿وَحَسَنُ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ ٤١٦
- ٨٢ : ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ٢٤٤
- ٩٩ : ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ٣٠٠
- ١٢٩ : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ ١٧١
- ١٥٣ : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ﴾ ٦٥
- ١٥٣ : ﴿أَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ بَطْلَمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ ٦٥
- ١٥٧ : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ... وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ١٠٤
- ١٥٧ ، ١٥٨ : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ ١٠٢ ، ١٠٦
- ١٥٩ : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ ١٠٧
- ١٦٢ : ﴿لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ﴾ ١٥ ، ٢٥٢ ، ٣٦٨ ، ٣٧١
- ١٦٣ . ١٦٦ : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ١٤
- ١٦٤ : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ٢٧

- ١٦٦ : ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ ٣١٢
- ١٧٦ : ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ ٤٠٤
- ١٧٦ : ﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ... فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ ٤٠٥

المائدة

- ٧ : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ٣٢٠
- ١٨ : ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ ٣٠٦ ، ٣٦٢
- ٣٣ : ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ٣٤٧
- ٣٨ : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ ٤٠٣
- ٤٤ : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ ٤٢٦
- ٤٦ : ﴿هُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ٢٥٢
- ٤٨ : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ .. ٤٢٧
- ٦٤ : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ٣٥٦ ، ٣٥٩
- ٦٧ : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ١٧٤
- ٦٩ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّونَ﴾ ٣٦٨ ، ٣٧٠
- ٨٣ : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ ١٥
- ١٠٥ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ ٢٥٤
- ١١٠ : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ٨٨ ، ٩٠
- ١١٠ : ﴿وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ ٢٨٢
- ١١٦ : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ٨٦
- ١١٧ : ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ ١٠٣

الأنعام

- ٢ : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ ٢٧٨
- ١٢ و ٢٠ : ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٢٥٣
- ١٩ : ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ ١٤
- ٢٠ : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ١٦
- ٢٣ : ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ٢٦٩
- ٢٥ : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ ٣٠٤
- ٣٨ : ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ٢٤٦

- ٥٢ : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ٢٨٤
- ٥٩ : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ ٧٢
- ٦٠ : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ ١٠٣ ، ٢٦٨
- ٦١ : ﴿تَوَفَّيْتُهُ رُسُلَنَا﴾ ٢٦٨
- ٧١ : ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ ١٩١
- ٧٣ : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ ٣٧٧
- ٧٤ : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزر﴾ ٣٠٩ ، ٥١
- ٨٣ . ٨٨ : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاء ... وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ﴿ ٥٩
- ٨٤ و ٨٥ : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ . إِلَى قَوْلِهِ . وَعِيسَى﴾ ٥٣
- ٩٧ : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ٣٢٧
- ١٠٣ : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ ٢٧١
- ١٠٨ : ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ٤٠٠
- ١١٢ : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي﴿ ١١٨ ، ١٩٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٨ ، ٤٢٨ ، ٤٧١
- ١١٤ : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ ١٦
- ١٢١ : ﴿إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ ١٨٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٨ ، ٤٧١
- ١٢٥ : ﴿يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ ٣٢٠
- ١٢٨ : ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ٣٠١
- ١٤١ : ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ ٤٢ ، ٣١٣
- ١٥١ : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ ١٢٨
- ١٥٥ : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ٣٠٠
- ١٦٤ : ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ٢٥٣

الأعراف

- ٦ : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٢٥٠ ، ٢٦٠
- ٨ و ٩ : ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٢٦٤
- ١٠ : ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمُ فِيهَا مَعَاشٍ﴾ ٣٢٦
- ٢٠ . ٢٢ : ﴿قَالَ مَا تَحَاكُمَا رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ... فَدَلَّاهُمَا﴾ ١٩
- ٢٢ : ﴿وَنَادَاهُمَا رُحُمَا﴾ ٢٧٠
- ٢٣ و ٢٤ : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُوا﴾ ٣٩٥ ، ٤٠٢

- ٢٥ : ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ ٤٠٢
- ٢٨ : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ٢٥٦
- ٣٧ : ﴿قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ ١٣٦
- ٤٠ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ ٣٢٦
- ٥١ : ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ ٢٧٢
- ٥٤ : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ٢٨٢
- ٥٩ . ٦٤ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ... فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ﴾ ٣٢
- ٧٣ . ٧٤ : ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ٤٥٧
- ١٠٧ : ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ ١٩٤
- ١٠٩ : ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ٤٣٤
- ١١٦ : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ ٢٠٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
- ١١٧ . ١١٩ : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَكَانُوا﴾ ١٩٥ ، ٢٢١
- ١٢٧ : ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآهَتِكَ﴾ ٢٥١
- ١٢٩ : ﴿أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ ٥٥٣
- ١٣٧ : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ ٣٦٧
- ١٤٢ : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ ...﴾ ٣٧٤
- ١٤٢ . ١٤٨ : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ ... وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ﴾ ٦٤ ، ٦٥ ، ٣٧٤
- ١٤٨ : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ٦٨
- ١٥٠ : ﴿ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ﴾ ٦٣
- ١٥٤ : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ٦٣
- ١٥٥ : ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ﴾ ٦٤ ، ٦٥
- ١٥٧ : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ ٥٢
- ١٧١ : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ﴾ ٧٣
- ١٧٢ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ ٤٣٧
- ١٧٩ : ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ٣٩٢
- ١٨٦ : ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ﴾ ٣٧٣
- ١٩٤ و ١٩٥ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٤٠٠
- ١٩٧ : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتِطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ ٤٠٠

١٩٨ : ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ٢٥١

٢٠٣ : ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ٢٥٣

الأنفال

١ : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ٣٠٥

٢ : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ٢٥١

٤ و ٥ : ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٣٠٤

١٧ : ﴿فَلَمَّ تَفْتَلَوْهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ ٢٥٠

١٧ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ ٢٥٠

٢١ : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ٢٥١

٢٥ : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ٣٠٨

٣٣ : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ٢٦٣

٣٤ : ﴿وَمَا هُمْ إِلَّا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّفِقُونَ﴾ ٢٦٣

٣٨ : ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ ٢٤٠

٤٦ : ﴿وَلَا تَنَارَعُوا فِتْفَشْلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ ٢١

٥٥ : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٢٥٣

التوبة

٢٨ : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ٥٣

٣٠ : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ ... قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ ٢٤٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٦٢

٣٢ : ﴿وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ٣

٣٣ : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ١١٠ ، ١١١ ، ١٧٤

٦٧ : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ ٢٧٢

٦٩ : ﴿وَحُضِّنْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ ٤١٤

١١٤ : ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ ٥٤

١٢٨ : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ٢٨٦

يونس

٣ : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ ٣٣٥

٩ : ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ١٩٩

٢١ : ﴿وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا هُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ ٣٨٥

٢٢. ٢٣ : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ٣٨٦ ، ٤١٥
- ٢٢ : ﴿جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ٣٨٧
- ٢٦ و ٢٧ : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ٢٠١
- ٣٣ : ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٢٥٣
- ٤٥ : ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَ﴾ ٢٦٠
- ٧٧ : ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْحَرُ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ ٢٢٠
- ٨٧ : ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ أَلْبَرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ﴾ ٣٩
- ٩٠ : ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ٣٦٦
- ٩١ : ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ٣٦٦
- ٩٢ : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ ٣٦٦ ، ٥٥٧

هود

- ٢٠ : ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ ٢٦٩
- ٢٨ : ﴿أَنزَلْنَاهُمْهَا وَأَنْتُمْ هَا كَارِهُونَ﴾ ٣٧٨
٤٠. ٤١ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ ٣١ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٣١٤
- ٤٢ و ٤٣ : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ ... قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ٣١ ، ٣٨ ، ٤٠
- ٤٤ : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءِ أَقْلَعِي﴾ ٤٧٢
- ٤٨ : ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ﴾ ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠
- ٤٩ : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا﴾ ٣٧ ، ٤٢٦ ، ٤٥٠
- ٦١ : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ٢٤
١٠٥. ١٠٨ : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ... إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ٢٩٥
- ١٠٧ : ﴿فَعَالٌ لِّمَآ يُرِيدُ﴾ ٣٥٨
- ١٠٨ : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ﴾ ٢٩٤
- ١١٦ : ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ٥٠
- ١٢٠ : ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ﴾ ٤٢٨

يوسف

٢. ٣ : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ٤٢٥
- ٤ : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ ٣٩٩
- ١٩ : ﴿فَارْسَلُوهُ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوُهُ﴾ ٢٨٠

- ٢١ : ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ ١١٥
- ٢٩ : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ٣٨٤
- ٣١ : ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ ٢٨٧
- ٣١ : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ٤٤٠
- ٤٥ : ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ ٢٨٧
- ٤٩ : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ٣٦٤
- ٥٤ و ٥٥ : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسٍ ... قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ ٣٦٣
- ٦٧ : ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ٢٢٩
- ٦٨ : ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ ٢٣٠
- ٨٠ : ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ ٤١٦
- ٩٣ : ﴿وَاتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٥٥٤
- ١٠٢ : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ٤٥٠
- ١١١ : ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ٢٥٢
- ١١١ : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥
- الرعد
- ٣ : ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُوحَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ٤٢ ، ٣١٣ ، ٣١٦
- ٩ : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ ١٧
- ١٠ : ﴿بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ ٣٢٠
- ١٢ : ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ ٣٤٢
- ١٩ : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ٢٩٣
- ٢٣ : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ١٩٨
- ٢٨ : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ ١١٣
- ٣٨ و ٣٩ : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦١
- إبراهيم
- ٤ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ١١٣
- ٩ : ﴿جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ ٤٢٨
- ١٦ : ﴿مَنْ وَرَأَاهُ جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ ٣٧٩
- ١٧ : ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ ٢٥٠ ، ٣٧٩

- ٢٢ : ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾ ١٨٩
- ٢٤ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ٣٢٧
- ٣٥ . ٤١ : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ... رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ﴾ ٥٤
- ٤٨ : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ ٢٩٤
- ٥٠ : ﴿سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ﴾ ٢٩١

الحجر

- ٦ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ٦٧
- ٩ : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ٨ ، ١٧٤ ، ٣٢٥
- ١٦ . ١٨ : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ... وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ﴾ ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
- ٢١ : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ٣٣٥
- ٢٦ : ﴿مِّنْ حِمَاٍ مَّسْنُونٍ﴾ ٢٤٩
- ٢٩ : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ٢١ ، ٢٢
- ٤٢ : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ٢٢٠
- ٦١ . ٧٣ : ﴿فَلَمَّا جَاء آل لُوطِ الْمُرْسَلُونَ. قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ. قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكُمْ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ٤٣٣
- ٧٧ : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٢٩٣
- ٨٨ : ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ ٣١٣
- ٨٨ : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٣١٣
- ٨٩ . ٩١ : ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ. كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ ٣٠٤
- ٩٢ و ٩٣ : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٢٦٠
- ٩٧ : ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ ٣٢٠

النحل

- ٢٢ : ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُّنْكَرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ ٢٥٣
- ٢٥ : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ ٢٥٤
- ٢٨ : ﴿تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ٢٦٨
- ٣٦ : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ﴾ ٤٢٦
- ٥١ : ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ ٤٣ ، ٣١٥
- ٥٨ : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ١٢١ ، ٢٠٠
- ٦٩ : ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ٢٩٣

- ٨٩ : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ٢٥٢ ، ٤٢٤
- ١٠١ : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٣٦١
- ١٢٠ : ﴿فَأَنبَأْنَا إِلَهًا حَنِيفًا﴾ ٣٨٩
- ١٢٧ : ﴿وَلَا تَكُ فِي صِيقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ١٧٤

الإسراء

- ٢ : ﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ ٤١٦
- ٣ : ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ٤٩
- ٤ : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ ٣٩
- ١٣ : ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلَزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ .. ٢٧٧
- ١٥ : ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَامَّا يَصِلُ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ٢٥٣ ، ٢٥٦
- ١٦ : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ ٢٥٦
- ٣٩ : ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ٣١٥
- ٤٠ : ﴿أَفَأَصْنَعُكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ .. ١٢٣
- ٤٤ : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن مَّا حَسَبْتَ﴾ ٣٩٨ ، ٣٩٧ ، ٣٤٦
- ٥٧ : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ﴾ ٤٠٠
- ٦٥ : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ ٢٤
- ٧٠ : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ٢٣
- ٧٦ : ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ ٣٩ ، ٢٣١
- ٧٩ : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ٣٠٠
- ٨٥ : ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٣٢٨
- ١٠٤ : ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ ٤٧٢

الكهف

- ٢٢ : ﴿فَلَا تَمَارٍ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءٌ ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ ٤٦٠
- ٢٥ ، ٢٦ : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ ٣٠٩ ، ٤٦٤
- ٤٩ : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ... وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ﴾ ١١٨ ، ١٦٧
- ٥٠ : ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ ٤١٦
- ٦٤ : ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ ٤١٧
- ٧١ : ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ٤٣٥

- ٧٤ : ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ ٤٣٥
- ٧٧ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا﴾ ٣٩١
- ٨٣ : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ﴾ ٥٤٧
- ٨٣ . ٩٨ : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ٤٧٠
- ٨٤ : ﴿إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ ٥١٧
- ٨٦ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ ٣٤٧ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٥١٧
- ٨٧ . ٨٨ : ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ... وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ﴾ ٤٧٢
- ٩٤ : ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ﴾ ٤٨٦
- ٩٥ . ٩٦ : ﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ، آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ ٤٩٧
- ٩٨ : ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ ٥١٧ ، ٥٢٥
- ١٠١ : ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ ٣٠٣
- ١٠٣ . ١٠٦ : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ ... قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ
- ... هُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزُنَّا﴾ ٢٦٦
- ١٠٥ : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ ٢٦٥
- مريم
- ١٦ . ٣٠ : ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا. فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ ٩٢
- ٢٧ : ﴿فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ ٨٣
- ٢٨ : ﴿يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْيًّا﴾ ٨٣ . ٣٠٩
- ٢٩ : ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا﴾ ٨٨
- ٤١ . ٤٧ : ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ ٥٤
- ٥٨ : ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٤٢٩
- ٦٤ : ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ... وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ٢٧٢ ، ٣٣٥
- ٦٧ : ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ٢٩٣
- ٦٨ . ٧٢ : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ... وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا﴾ ٢٨٠
- ٧١ : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ٢٧٩ ، ٢٨١
- ٧٢ : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا﴾ ٢٨٠
- ٨١ : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ ٣١٥
- ٨٦ : ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ ١٩٧
- ٩٦ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ٣٠٢

طه

١١. ١٢ : ﴿فَلَمَّا أَنهَا نُودِي يَا مُوسَى : إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ٤٣٥
- ١٥ : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ٢٨٧
- ٢١ : ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ ٤٣٥
- ٣١ : ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ ٥٢
- ٢٩ : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ ٣٠٢
- ٥٢ : ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ ١٣٦ ، ٢٧٢
- ٥٣ : ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ ٣١٣
- ٦٣ : ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ أُنْ... وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ ٣٣٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠
- ٦٦ : ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيئُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ ٢٠٢ ، ٢٢١
- ٦٩ : ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ ٢٢٠
- ٧٧ : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَن أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا﴾ ٦١ ، ٥٥٣
- ٧٨ : ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فَرَغَوْا بِنُحُودِهِ فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ٥٥٣
٨٣. ٨٥ : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هُم أَوْلَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ ٦٣ ، ٥٥٣
٨٦. ٩٧ : ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ﴾ ٦٣
- ٨٥ : ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ ٦٧
- ٨٨ : ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾ ٦٨
- ٨٩ : ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ ٦٨
- ٩٦ : ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ٦٤ ، ٦٦
- ١٠٣ : ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ٣٧٥
- ١٠٤ : ﴿إِذْ يَقُولُ مُثَلِّهِمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ ٣٣٥
- ١١٠ : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ ٢٧١
- ١١٥ : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ ٢٧٢
- ١١٧ : ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ ١٩
- ١٢٢ : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ ٢٠
- ١٢٣ : ﴿هَبْطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ٣٩٥
- ١٢٦ : ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ ٢٧٢

الأنبياء

- ١ و ٢ : ﴿افْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ... لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ﴾ ٣٨٢
- ٣ : ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ ٣٨٣
- ١٨ : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ٣٢٥ ، ٤٦٦
- ٣٣ : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ٣٩٧ ، ٣٩٩
- ٤٧ : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ...﴾ ٢٦٤
- ٦٣ : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفِقُونَ﴾ ٢٨
- ٦٩ : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ ٤٧٢
- ٧١ و ٧٢ : ﴿وَجَعَلْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا﴾ ٥٤
- ٧٤ و ٧٥ : ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْقَرِيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ... وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ ٥٨
- ٧٨ : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ ٣٩٦ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤
- ٧٩ : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ ٣٩٧ ، ٣٩٩
- ٨١ : ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ ٣٨٧
- ٨٣ : ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ١٩١
- ٩٢ : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ٣٧٥ ، ٤٢٦
- ٩٦ : ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ٤٩٣
- ١٠١ و ١٠٢ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ، لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ ٢٨٠ ، ٢٨١
- ١٠٣ : ﴿لَا يَجْزُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ﴾ ٣٧٤
- ١٠٤ : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ ٢٩٤
- ١٠٥ : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ١٦٢

الحج

- ٢ : ﴿يَوْمَ تَرَوْهَا تَدَاهِلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ﴾ ٢٥٠ ، ٢٦١
- ٥ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ... وَأَنْبَتْنَا مِنْ كُلِّ﴾ ٣١٥ ، ٤٣٦
- ١٩ . ٢٤ : ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ ٣٩٥ ، ٤٠١
- ٣٠ و ٣١ : ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنْفَاءَ﴾ ٣٨٩
- ٤٤ : ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ٤٥٩
- ٤٥ : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبَنِيٌّ مُعْتَظِلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ﴾ ٤٥٩
- ٤٦ : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ ٣٠٤

- ٥٢ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَيَّيْنَا عَلَى الشَّيْطَانِ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ﴾ ٣٢٥
 ٧٨ : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ١٤٦

المؤمنون

- ١٢ . ١٤ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ... فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ ٣٢١
 ١٤ : ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ٢٨٢ ، ٢٢
 ١٧ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ٣٣٤
 ٣٦ : ﴿هِيَهَاتَ هِيَهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ ٢٣٩
 ٥٢٠ : ﴿جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ٩٢
 ٥٢ و ٥٣ : ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ... فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا﴾ ٣٧٥
 ٦٧ : ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ ٤١٥
 ٨٦ : ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ٣٣١
 ١٠٠ : ﴿وَمَنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ٣٧٩
 ١٠١ : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٣٦٠

النور

- ١١ : ﴿لِكُلِّ امْرئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ ٢٥٣
 ١٥ : ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ ٢٨٧
 ٣٠ و ٣١ : ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ... وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ﴾ ٢٤١ ، ١٦١ ، ١٦٠
 ٣١ : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمْرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ ٢٤١ ، ١٦٢
 ٣٩ : ﴿كَسْرَابٍ بَقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ ٢١٢
 ٤٠ : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ ٣
 ٤١ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ﴾ ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٧
 ٤٣ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ ٣٣٩
 ٤٥ : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ ٣٩٦ ، ٣٩٧

الفرقان

- ٥ : ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ٤
 ٦١ : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ٣٣٧

الشعراء

- ٤ : ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ ٣٩٩

- ٧ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ٣١٣
- ١٥ : ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ ٣٩٦ ، ٤٠٣
- ١٦ : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٤١١
- ١٨ : ﴿أَلَمْ نُزَيِّدْكُمْ فِيهَا وَلِيدًا وَلَيْسَتْ فِيهَا مِنْ عُمْرِكُمْ سِنِينَ﴾ ٥٥٦
- ٢٣ : ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٤٠٩ ، ٤١١
- ٢٨-٢٤ : ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ... رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ... رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ ٤٠٩ ، ٤١١
- ٣٢ : ﴿فَإِذَا هِيَ تُعْبَأُ مُبِينٌ﴾ ٢٥٠
- ٣٤ : ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ٤٣٤
- ٦٣ : ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ٦١
- ٧١-٧٣ : ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنْفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ﴾ ٤٠١
- ٧٧ : ﴿فَاتَّخَذْتُمْ عِدُوِّي﴾ ٤١٦
- ٨٦-٨٩ : ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ... وَاعْفِرْ لَأَيِّ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ٥٤
- ١٠٠ و ١٠١ : ﴿مَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ٤١٦
- ١١٩ : ﴿وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ ٤١٥
- ١٢٨-١٣٤ : ﴿أَتُبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطِشْتُمْ﴾ ٤٥٥
- ١٤٦-١٤٨ : ﴿أَتَنْزِلُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ ٤٥٨
- ١٥٦-١٥٧ : ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ﴾ ٤٥٨
- ١٨٤ : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِيلَةَ الْأَوَّلِينَ﴾ ٣٣٩
- ١٩٦ و ١٩٧ : ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ. أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ١٠
- ٢١٥ : ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٢٨٤

النمل

- ٨ : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنِ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ٤٣٤
- ٩ و ١٠ : ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ﴾ ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٤٣٥
- ١٤ : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ١٦
- ١٦ : ﴿عَلِمْنَا مِنْطَقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ٣٢٠
- ١٨ و ١٩ : ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ مَلَأَ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنُكُمْ ... فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ ٣٢٠
- ٢٥ : ﴿اللَّهُ الَّذِي يَخْرِجُ الْحَبَّاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ٣٤٦
- ٨٠ و ٨١ : ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ... إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ﴾ ٣٩٢

٨٧ : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَفَخَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ٣٤٦

٨٨ : ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ١١٩

القصص

٣ : ﴿نَسُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيِّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ٤٢٥

٥ : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ١٦٢

٦ : ﴿وَمُتَّكِئِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ١٦٢ ، ٣٤٩

٧ : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ٤٧١

٨ : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ ٣٤٩

١١ : ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ ٤١٧

١٥ : ﴿فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ ٣٦٤

٢٣ : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْتَفُونَ﴾ ٣٦٤

٢٧ : ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ ٣٧٥

٣٠ و ٣١ : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ ... وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا هَتَرُ﴾ ١٩٥ ، ٢٥٠ ، ٤٣٥

٣٨ : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ ٣٤٩ ، ٣٥٤

٤٤ . ٤٦ : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا﴾ ٤٢٥

٦٥ و ٦٦ : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ. فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٢٦٠

٧٦ : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَىٰ﴾ ٧٠ ، ٧١

٧٨ : ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ٣٦٠

٧٩ : ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ٧١

العنكبوت

١٢ و ١٣ : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَلَيَنحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ﴾ ٢٥٤

١٤ . ٤٠ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ﴾ ٤٢٩

١٧ : ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ ٢٨٢

٢٥ : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ ٢٦٧

٢٩ : ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾ ٥٤٩

٣٨ : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسَاكِينِهِمْ﴾ ٤٥٦

٣٩ : ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ ٧١ ، ٣٥٠

٤٣ : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ ٣٢٤

الزوم

- ٢٦ : ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَانِتُونَ﴾ ٣٤٦
- ٣٠ : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ٣٨٩ ، ٤٣٧
- ٥٧ : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ﴾ ٢٦٨

لقمان

- ٢ و ٣ : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ ٢٥٢
- ١٥ : ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ٣٥٥
- ٢٠ : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ٣٤٦
- ٣١ : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ٢٩٢

السجدة

- ٤ : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ٢٥٨
- ٥ : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ٢٤٥ ، ٢٥٧ ، ٣٣٥
- ١١ : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ٢٦٨
- ٢٠ : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا﴾ ٢٧٣ ، ٢٧٤

الأحزاب

- ٤ و ٥ : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ... أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ١٧٣
- ٢١ : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ١٥٧
- ٣٥ : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ... وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ ١١٦ ، ٢٤١
- ٣٦ : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ١٤٤ ، ١٧٢
- ٣٧ : ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ... لَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٧٣
- ٣٨ . ٤٠ : ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ﴾ ١٧٤
- ٥٢ : ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ ١٦٧
- ٧٢ : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ ٢١

سبا

- ١٣ : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ٧٨
- ١٤ : ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ ٤٤١
- ١٥ و ١٨ : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ ٥٣٥
- ١٦ و ١٩ : ﴿فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾ ٥٣٥

٢٨ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ ٣٦٩
 ٤٢ : ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ٢٧٣

فاطر

١ : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ٣٤٥
 ١ : ﴿زَيْدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٣٥٨
 ١٠ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ٣٢٧
 ١١ : ﴿مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ ٢٧٧
 ١٣ و ١٤ : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا﴾ ٤٠١
 ١٨ : ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ٢٥٣
 ٢٢ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ ٣٩٢
 ٤١ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ ٣٤٥

يس

٢٩ : ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾
 ٣٣ : ﴿وَأَيَّةٌ هُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ ٣٤٧
 ٣٦ : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٣١٦
 ٤٠ : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ٣٣٤
 ٦٠ . ٦١ : ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا﴾ ٤٣٧
 ٨٢ : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٣٧٧

الصفات

١ . ٣ : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ ٣٩٧ ، ٤٠٧
 ٦ . ١٠ : ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِرَبِّنَا الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ... إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٤٤٠
 ١١ : ﴿مِّنْ طِينٍ لَّزِبٍ﴾ ٢٤٩
 ٢٢ . ٣٤ : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ﴾ ٢٦١ ، ٣١٣
 ٢٤ : ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ﴾ ٢٥٠ ، ٣٦٠
 ٢٧ . ٢٩ : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ . قَالُوا﴾ ٢٦٠
 ٤٠ . ٥٠ : ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . أُولَٰئِكَ هُمُ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ... فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٢٦١
 ٦٢ . ٦٦ : ﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ... إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ﴾ ١٩١ ، ٤٣٩
 ٧٥ . ٨٤ : ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ... إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِبَرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ﴾ ٢٦ ، ٥١

- ٧٧ : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٠
- ٧٩ : ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ ٣٨٠
- ٨٩ : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ٢٨
- ٩٨ . ١٠٠ : ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ. وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِينَ. رَبِّ هَبْ لِي مِنْ ٥٤
- ١٠١ . ١١٣ : ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ... وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ ٥٦
- ١٠٧ : ١١٣ ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. أَنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشِّرْنَاهُ﴾ ٢٦ ، ٣٨٠
- ١١٤ . ١٢٢ : ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ... سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي﴾ ٢٦ ، ٣٨١
- ١١٦ : ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ ١١٥
- ١٢٣ . ١٣٢ : ﴿وَإِنِّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ... سَلَامٌ عَلَىٰ إِلَٰ يَاسِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أَنَّهُ﴾ ٢٦ ، ٣٨١
- ١٣٣ . ١٣٥ : ﴿وَإِنِّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ... إِذْ تَجَيْنَاهُ وَأَهْلُهُ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ ٥٨
- ١٣٧ . ١٣٨ : ﴿وَإِنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ﴾ ٤٥٩
- ١٤٥ : ﴿فَتَبَدَّنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ٣٠٨
- ١٤٩ و ١٥٥ : ﴿فَاسْتَفْتَيْهِمَ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ. أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ ١٢٢
- ١٥١ . ١٥٢ : ﴿إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾ ١٢٣
- ١٧٣ : ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ٤٢٨
- ص
- ١٧ . ٢٠ : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ. إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ ... وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ﴾ ٧٨
- ٢١ و ٢٢ : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفِ إِذْ تُسَوِّرُوا الصَّخْرَةَ لِتَسْقُوا مِنْهُمُ﴾ ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤
- ٣٠ : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ٧٨
- ٣١ : ﴿إِذْ غُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِرَاتُ الْجِيَادُ﴾ ٤٠٨
- ٤١ : ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ١٩١
- ٤٥ . ٤٧ : ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا﴾ ٥٩
- ٥٨ : ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ﴾ ٣١٥
- ٦٤ : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ٢٦٧
- ٦٧ . ٧١ : ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ. أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ. مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ٤٢٥
- ٧٥ : ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ ٢١ ، ٢٢
- ٨٨ : ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ٤٩٣

الزمر

- ٣ : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ٥٢٦
- ٦ : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ٣١٣
- ١٠ : ﴿إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ٢٦٥
- ١٧ : ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ ٤١٥
- ٢٣ : ﴿تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ .. ٢٥١
- ٢٨ : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ ٣١١
- ٣٣ : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ٤١٤
- ٤٢ : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ١٠٣ ، ٢٦٨
- ٥٣ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ١٩
- ٦٠ : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ ٢٠١
- ٦٣ : ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ٣٤٦
- ٧١ : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ ٢٩٩
- ٧٣ : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ ٢٩٩

غافر

- ٧ : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ٣٩٦
- ٢٣ و ٢٤ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ٣٥٠ ، ٧١
- ٣٦ و ٣٧ : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعُ﴾ ٣٥٠
- ٣٧ : ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ ٣٥١
- ٤٠ : ﴿أُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ٢٦٤
- ٥٢ : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ ٢٦٨
- ٦٧ : ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ ٤١٦

فصلت

- ٣ : ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ١٠
- ٨ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ٢٩٤
- ٩ . ١٢ : ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تُكْفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ... فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ﴾ ٢٥٨ ، ٣٤٦ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤٧٢
- ١٣ : ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ٣٠٥
- ١٦ : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾ ٣٩٦ ، ٤٠٦

- ٣٠ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ٣٢٦
٣٧. ٣٩ : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ ٤٠٧ ، ٤٣٦
٤١. ٤٢ : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ٣ ، ٥ ، ١٠٢

الشورى

- ٥ : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ ٣٩٦
- ١١ و ١٢ : ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ﴾ ١٧
- ١٣ : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ ١٢
- ٢٩ : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ ٣٤٦
- ٣٣ : ﴿وَمَرْفَأُهُمْ كُلٌّ مُّرْقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ٢٩٣
- ٤٠ : ﴿وَجَزَاءَ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ ٢٦٩
- ٤٥ : ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ٢٥١
- ٥١ : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ ٢٧٠

الزخرف

٦. ٧ : ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ .. ٤٢٨
- ١٦ و ١٨ : ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ ١٢٢
- ١٨ : ﴿أَوْمَن يُنَشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ ١٢٢ ، ١٣٤ ، ١٣٧
- ١٩ : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ ١٢٢ ، ٣٩٦
- ٢٨ : ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ ٥٠
- ٤٠ : ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ٣٩٢
- ٧٠ : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ١٩٨
- ٨٢ : ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ ٣٤٦

الدخان

- ٤ : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ٢٧٦ ، ٢٧٧
- ٢٥ و ٢٦ : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ٣٦٧
- ٢٧ : ﴿وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ ١٩٩ ، ٣٦٧
- ٢٨ : ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ٣٦٧ ، ٣٦٨
- ٥٦ : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ ٣٠١
- ٥٨ : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٣٩٣

الجاثية

- ١٠ : ﴿مِن وَّرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ ٣٧٩
- ١٣ : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ٢٢
- ٢٠ : ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ٢٥٢
- ٢٤ : ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ٣١٢

الأحقاف

- ٩ : ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّن الرُّسُلِ﴾ ٤٢٧ ، ١٤
- ١٠ : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ ١٥
- ١٢ : ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ ١٠
- ١٧ و ١٨ : ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِ لَكُمَا ... أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ ٤١٤

محمد

- ٤ : ﴿فِيمَا مَنَّا بَعْدَ وَاِمَا فِدَاءٍ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ ١٨٦

الفتح

- ٨ و ٩ : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ٣٨٤
- ٢٨ : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ٣٢٥

الحجرات

- ٩ : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ ٤٠٢
- ١١ : ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ ٣٠٣
- ١٣ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ﴾ ٢١ ، ١١٦ ، ١٧٧

ق

- ٤ : ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ ١٦٧
- ٦ : ﴿فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ٣٢٨ ، ٣٣٧
- ١٨ : ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ١٦٧
- ١٩ : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ ٢٨٧
- ٢٢ : ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ٢٥١
- ٢٧ : ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ٢٦٧
- ٢٨ : ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ ٢٦٧
- ٣٧ : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ٣١٩ ، ٣٩٢

الذاريات

- ١٩ : ﴿فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ ٤٠٧
- ٢٩ : ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ٣٣٥
- ٣٩ : ﴿مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّمِيمِ﴾ ٥
- ٤٦ . ٧٠ : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ٣٢٩
- ٥٢ : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ٣١٣ ، ٣١٦
- ٥٦ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ١٨٨

الطور

- ٤١ : ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ٣٠٤

النجم

- ١٢ . ٤ : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ... فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ٧
- ١٣ و ١٤ : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ٢٧١
- ٢١ و ٢٢ : ﴿الْكُفَّ الدَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ، تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ ١٢٢
- ٣٦ : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ ١٠ ، ١٥
- ٣٧ و ٣٨ : ﴿وِإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى. أَلَّا تَرَىٰٓ ذُرًّا وَمُرَّةً وَهُوَ خَرَىٰ﴾ ١٠ ، ٢٥٣
- ٣٩ : ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ١١٦
- ٤٥ : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ٣١٤

القمر

- ١١ و ١٣ : ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا. فَالتَّقى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ﴾ ٤٧ ، ٣٤ ، ٣٢٧
- ١٩ : ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسٍ مَّتَّسِمٍ﴾ ٤٠٦
- ٢٧ . ٢٨ : ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ. وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ ٤٥٧
- ٤٩ : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ٢٧٧
- ٥٠ : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ٣٧٧

الرحمان

- ١٠ : ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ٣٤٦
- ١٤ : ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ٢٤٩
- ١٥ : ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ ١٨٨
- ١٧ : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ ٤٠٣

- ١٩ : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ ٦١
- ٢٩ : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ٣٥٨
- ٣٩ : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ ٢٦٠ ، ٢٥٠
- ٤٦ . ٧٠ : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ... مُدْهَامَّتَانِ ... فِيهِمَا عَيْنَانِ نَصَّاحَتَانِ ... فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ﴾ ٣٩٥
- ٥٢ : ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ ٤٢ ، ٣١٣
- ٥٦ : ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ١٩٨

الواقعة

- ٧ : ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ ٣١٣
- ٣٥ . ٣٧ : ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا. غُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ١٩٨

الحديد

- ١١ : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ ٣٥٦
- ٢٠ : ﴿كَمْثَلٍ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ﴾ ٢٩٣
- ٢٢ : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ ٢٧٦ ، ٢٧٧
- ٢٦ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ ٥٠

المجادلة

- ١٩ : ﴿اسْتَخُودَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ﴾ ١٩١
- ٢١ : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْلَبِ بْنِ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ١١٥ ، ٤٢٨
- ٢٢ : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ﴾ ٢٥٥

الحشر

- ١٩ : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ ٢٧٢
- ٢٤ . ٢٢ : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا﴾ ١٧

الصف

- ٦ : ﴿إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ... وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾ ٩٤

المنافقون

- ٤ : ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَاتْلُهِمُ اللَّهُ أَلَّا يُؤْفَكُونَ﴾ ٤١٦
- ١٠ : ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ٣٧٢ ، ٣٧٣

الطلاق

- ٣ : ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ٢٣٩

١٢ : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ٣٤٢

التحريم

٤ : ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ﴾ ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٢٤٢

٦ : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ٣٩٦

١٠ : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾ ٣١ ، ٢٤١

١٢ : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ ٨٣

الملك

٥. ٣ : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ... وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ ٣٢٨ . ٣٣٧

٤ : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ ٣١٥

٥ : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ ٣٢٢ ، ٤٤١

القلم

٤ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ٢٨٢

٤٩ : ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ٣٠٨

٥٢. ٥١ : ﴿إِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ﴾ ٢٢٩

الحاقة

٣٥ و ٣٦ : ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ ٢٩١

المعارج

٤ : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ٢٤٥ ، ٢٥٧

١٠. ٨ : (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ، وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا) ٢٦٠

٤٠ : ﴿بِ رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ ٤٠٣

نوح

٢٦ : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا﴾ ٣٨

الجن

١ : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ٣٢٥

٨ : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلْتَئِذًا خَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا﴾ ٣٢٥ ، ٣٢٣

٩ : ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٤٤٠

١١ : ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ ٣٣٥

١٦ : ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ ٣٣٥

المذثر

- ٣٠ : ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ٣٧٥
- ٣٨ : ﴿كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةً﴾ ٢٥٣
- ٤٨ . ٣٩ : ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ. مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ. قَالُوا لَمْ﴾ ٢٦١

القيامة

- ٢٢ . ٢٥ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ ٢٧١ ، ٢٠١

الانسان

- ٦ : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ١٩٩
- ١١ : ﴿فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ ٢٠١
- ١٣ و ١٤ : ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ وَذَلَّلْتُ فَطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ ١٩٩

المرسلات

- ١ : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ١٢٤
- ٥ : ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ ٤٠٧ ، ٣٩٧ ، ١٢٤
- ٦ : ﴿عُذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ ٣٩٧
- ٣٦ : ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ ٢٦٨

النبأ

- ٩ : ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ ٣٠٢
- ١٢ : ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ ٣٢٨
- ٣٣ : ﴿وَكَوَاعِبَ أُنْرَابًا﴾ ١٩٨

النازعات

- ١ . ٤ : ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا. وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا. وَالسَّاجِحَاتِ سَبْحًا. فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ ... ١٢٤
- ٥ : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ ٤٠٧ ، ٣٩٧ ، ١٢٤
- ٢٤ : ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ ٢٥١
- ٢٧ . ٣٠ : ﴿أَلَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ... وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ٢٥٨

عبس

- ١ : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ٢٨٣
- ٣٨ . ٤٢ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ ٢٠١

التكوير

٧ : ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ ٣١٣

المطففين

٢٤ : ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ ٢٠١

الانشقاق

٧ و ٨ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ٢٦٤

الأعلى

٦ و ٧ : ﴿سَنُقَرِّؤُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ٣٠٠

١٨ و ١٩ : ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ ١٠ ، ١٤

الغاشية

٦ : ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيرٍ﴾ ٢٩١

٢٥ و ٢٦ : ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ ٢٣٩

الفجر

١٤ . ٦ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ. وَتَقْوَدُ الْدِّينَ﴾ ٤٥٤

البلد

١ و ٢ : ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ٢٦٢

الشمس

٥ : ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢

٦ . ٧ : ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ٤٠٨ ، ٤١٢

الليل

٣ : ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ ٤٠٨ - ٤١٢

التين

١ . ٣ : ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ٢٦٢

٤ . ٦ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا﴾ ٤١٥

القدر

٤ : ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ٣٣٥

البينة

٥ : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ ٤٢٦

القارعة

٥ : ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ ٢٨٧

العصر

١ . ٣ : ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ٤١٥

الكافرون

٢ و ٣ : ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ٤٠٨ ، ٤١٢

المسد

٤ : ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ٢٢٥ ، ٢٤٠

الاحلاص

١ . ٤ : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ١٧

الفلق

٤ : ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ٢١١

٥ : ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ٢٢٩ ، ٣٢٣

١ . ٦ : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ٢٢٣

المصادر

- آراء المتشرفين حول القرآن الكريم : عمر إبراهيم رضوان ، دارطبية . الرياض ، ١٤١٣ .
- الآثار الباقية عن القرون الخالية : أبو ريجان البيروني ، وزارت فرهنگ وارشاد إسلامي . طهران . ٢٠٠٠ م .
- آلاء الرحمان في تفسير القرآن : الشيخ محمد جواد البلاغي ، مكتبة الوجداني . قم . الطبعة الثانية .
- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي ، مطبعة المشهد الحسيني . القاهرة . ١٣٨٧ .
- الاحتجاج : أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي ، النجف . ١٣٨٦ .
- أحكام القرآن : أبوبكر أحمد بن علي الجصاص ، دار الكتاب العربي . ١٣٣٥ .
- إحياء علوم الدين : أبوحامد الغزالي ، مصطفى الباي الحلبي . مصر . ١٣٥٨ .
- الأخبار الطوال : أحمد بن داود الدينوري ، القاهرة . ١٩٦٠ م .
- اساس البلاغة : جارالله الزمخشري ، دارالكتب . مصر . ١٩٧٣ م .
- الاستبصار : الشيخ أبوجعفر محمد بن الحسن الطوسي ، دارالكتب الإسلامية . طهران . ١٣٩٠ .
- الإسرائيليات والموضوعات : أبوشهبة محمد بن محمد مكتبة السنّة . القاهرة . ١٤٠٨ .
- أسد الغابة : ابن الأثير ، المطبعة الوهبية . ١٢٨٠ .
- الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلاني ، مطبعة السعادة . مصر . ١٣٢٨ .
- إعراب القرآن : المنسوب إلى الزّجاج ، القاهرة . ١٩٦٣ م .
- الأعلام : خير الدين الزركلي ، بيروت . ١٣٩٠ .
- الأُمالي : السيّد الشريف المرتضى علم الهدى ، دارالكتاب العربي . بيروت . ١٣٨٧ .
- الأُمالي : الشيخ أبو جعفر محمّد بن علي الصدوق ، النجف . ١٣٨٩ .
- إملاء ما منّ به الرحمان : أبو البقاء العكبري ، مصطفى الباي الحلبي . مصر . ١٣٨٠ .
- بحار الأنوار : محمّد باقر المجلسي ، مؤسسة الوفاء ، بيروت . ١٩٨٣ م .
- بداية المجتهد : محمّد بن أحمد (أبن رشد الأندلسي) ، مكتبة الكليات الأزهرية . مصر . ١٣٨٩ .
- البداية والنهاية : أبن كثير ، مكتبة المعارف . بيروت . ١٩٧٧ م .
- البرهان في علوم القرآن بدر الدين الزركشي ، دارإحياء الكتب العربية . ١٣٧٦ .
- البيان في تفسير القرآن : آية الله السيّد أبو القاسم الخوئي ، المطبعة العلمية . قم . ١٣٩٤ .
- تاريخ الطبري : محمّد بن جرير ، دار المعارف . مصر ، ١٩٧١ م .
- تاريخ القرآن : تولديكه : (نقلاً عن آراء المستشرقين).
- تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة ، دارالتراث . القاهرة . ١٣٩٣ .
- التبيان في تفسير القرآن : الشيخ أبوجعفر محمّد بن الحسن الطوسي ، دار الكتب الإسلامية . طهران . ١٣٩٠ .
- تفسير أبن أبي حاتم : عبد الرحمن الرازي ، المكتبة العصرية . بيروت . ١٤١٩ .
- تفسير أبن كثير (تفسير القرآن العظيم) : أبن كثير ، دارإحياء الكتب العربية . مصر .

- تفسير البحر المحيط : أبوحيان الأندلسي ، دارالفكر . بيروت . ١٣٩٨ .
- تفسيرالبرهان : السيد هاشم بحراني ، مؤسسة الأعلمي . بيروت . ١٤١٩ .
- تفسير البيضاوي : عبدالله بن عمرالبيضاوي ، مؤسسة شعبان . بيروت .
- تفسير التحرير والتنوير : ابن عاشور ، مؤسسة التاريخ العربي . بيروت . ١٤٢٠ .
- تفسير الجلالين : دار إحياء الكتب العربية . مصر . ١٣٤٢ .
- تفسير الجواهر في تفسير القرآن الكريم : الشيخ طنطاوي جواهري ، مصطفى البابي الحلبي . مصر . ١٣٥٠ .
- تفسير الصافي : المولى محمد محسن الكاشاني ، المطبعة الإسلامية ، طهران ، ١٣٨٤ .
- تفسير العياشي : أبو نضر محمد بن مسعود ، المكتبة العلمية الإسلامية . طهران .
- تفسير الفرقان : الدكتور محمد الصادقي ، إسماعيليان . قم . ١٤١٠ .
- تفسير القاسمي (محاسن التأويل) : محمد جمال الدين القاسمي ، مؤسسة التاريخ العربي . بيروت . ١٤١٥ .
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) : محمد بن أحمد القرطبي ، القاهرة . ١٣٨٧ .
- تفسير القميّ : علي بن إبراهيم القميّ ، النجف . ١٣٨٧ .
- تفسير الماوردي (النكت والعيون) : أبوالحسن علي بن محمد . دار الكتب العلمية . بيروت . ١٤١٢ .
- تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي ، مصر . دار الفكر .
- تفسير المنار : الشيخ محمد عبده ، تأليف محمد رشيد رضا ، دار المعرفة . بيروت .
- تفسير جزء عم (تفسير القرآن العظيم) : محمد عبده نشر أدب الحوزة . ١٣٤١ .
- تفسير عبد الرزاق : ابن همام ، دار الكتب العلمية . بيروت ، ١٤١٩ .
- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان : نظام الدين النيسابوري (هامش جامع البيان للطبري) .
- تفسير مقاتل بن سليمان : مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ١٤٢٣ .
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) : فخر الدين الرازي ، الطبعة الثانية . دار الكتب العلمية . طهران .
- تفسير نور الثقلين : الشيخ عبد العلي الخويزي ، إسماعيليان . قم . ١٤١٥ .
- التفسير المبين : محمد جواد مغنية ، دار الكتاب الإسلامي .
- التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام : مطبعة مهر . قم . ١٤٠٩ .
- التوحيد : الشيخ أبو جعفر محمد بن علي الصدوق ، دار المعرفة . بيروت .
- تنزيه الأنبياء : السيد الشريف علم الهدى ، مكتبة بصيرتي . قم .
- تنزيه القرآن عن المطاعن : القاضي عبد الجبار ، دارالنهضة الحديثة . بيروت .
- تهذيب التهذيب : ابن حجر العسقلاني ، دار صادر . بيروت . ١٣٢٥ .
- ثواب الأعمال : الشيخ أبو جعفر محمد بن علي الصدوق ، النجف . ١٣٩٢ .
- جامع البيان في تفسير القرآن : محمد بن جرير الطبري ، دار المعرفة . بيروت . ١٣٩٢ .
- جامع الشواهد : محمد باقر الشريف الأردكاني ، الطبعة الحجرية .
- جمهرة اللغة : ابن دريد محمد بن الحسن البصري ، حيدرآباد الدكن . ١٣٤٥ .
- جواهر الكلام : الشيخ محمد حسن النجفي ، دارإحياء التراث العربي . بيروت . ١٩٨١ م .

- حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم : محمد حسين هيكل ، مطبعة مصر . القاهرة . ١٣٥٤ .
- الحيوان : الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر ، تحقيق يحيى الشامي ، دار مكتبة الهلال . بيروت . ١٩٨٦ م . الحيوان للدراسات العليا في جامعة بغداد .
- الخرائج : والجرائح : قطب الدين الراوندي ، مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام . قم . ١٤٠٩ .
- الخصال : الشيخ أبو جعفر محمد بن علي الصدوق ، مكتبة الصدوق . طهران . ١٣٨٩ .
- الخطط المقرئية : أحمد بن علي المقرئ ، دار العرفان . بيروت .
- الخلافا : الشيخ أبوجعفر محمد بن الحسن الطوسي ، طهران . ١٣٨٢ .
- دائرة المعارف الإسلامية الكبرى : إشراف كاظم البجنوردي ، طهران . ١٩٩١ م .
- دائرة المعارف الإسلامية (المترجمة إلى العربية) : دار المعرفة . بيروت .
- دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدي ، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين . ١٣٨٦ .
- الدّر المثور : جلال الدين السيوطي ، دارالفكر . بيروت . ١٤١٤ .
- الدروس الشرعية : الشهيد محمد بن مكي العاملي ، الطبعة الحجرية .
- الدفاع عن القرآن ضدّ منتقديه : عبد الرحمان بدوي ، مكتبة مدبولي الصغير .
- دعائم الإسلام : القاضي أبو نعيمة النعمان المصري ، دارالمعارف . مصر . ١٩٦٥ .
- ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح (سلسلة القصص القرآني) : محمد خير رمضان يوسف ، دار القلم . دمشق . ١٤١٥ .
- الرحلة المدرسية : الشيخ محمد جواد البلاغي ، النجف .
- روح المعاني : أبو الفضل محمود الألوسي ، إدارة الطباعة المنيرية . مصر .
- الروض الأنف : عبد الرحمان السهيلي ، مكتبة الكليات الأزهرية . ١٣٩١ .
- سعد السعود : ابن طاووس سيد رضي الدين ، افست مؤسسة النشر الرضي . قم . ١٣٦٣ .
- سنن أبين ماجة (سنن المصطفى) : أبو عبد الله محمد بن يزيد ، دار الفكر . بيروت .
- سنن البيهقي (السنن الكبرى) : أبو بكر أحمد بن الحسين ، دارالمعرفة . بيروت .
- سنن الترمذي : محمد بن عيسى الترمذي ، المكتبة الإسلامية .
- سنن الدارمي : عبد الله بن عبد الرحمن ، دار إحياء السنة النبوية .
- السنن الكبرى : أحمد بن الحسين البيهقي ، دارالمعرفة . بيروت . ١٤٠٦ .
- سنن النسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب ، مصطفى البابي الحلبي . مصر . ١٣٨٣ .
- سنن أبي داود : سليمان بن الأشعث ، دارأحياء السنّة النبوية .
- سبويه : أبو بشر عمرو ، مؤسسة الأعلمي . بيروت . ١٣٨٧ .
- سير أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبي ، مؤسسة الرسالة . بيروت . ١٤١٠ .
- السيرة النبوية : أبين هشام ، مصطفى البابي الحلبي . مصر . ١٣٥٥ .
- شبهات حول الإسلام : سيد محمد قطب ، مكتبة وهبة . الطبعة الثالثة . ١٩٥٨ م .

- شرح الكافية في النحو : الشيخ رضي الدين الإسترآبادي ، دارالكتب العلمية . بيروت .
- شرح المعلّقات السبع : الحسين بن أحمد الزوزني ، منشورات أرومية . قم . ١٤٠٥ .
- شرح نهج البلاغة أبّن أبي الحديد ، دارإحياء الكتب العربية . مصر . ١٩٦٥ م .
- الصحاح : إسماعيل بن حماد الجوهري ، دارالعلم للملايين . بيروت . ١٣٧٦ .
- صحيح البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، مطابع الشعب . ١٢٧٨ .
- صحيح مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري ، مكتبة محمد علي صبيح . ١٣٣٤ .
- العرب قبل الإسلام : جرجي زيدان ، دار الهلال . القاهرة .
- علل الشرائع : الشيخ أبو جعفر محمد بن علي الصدوق ، النجف . ١٣٨٥ .
- علم اليقين : المولى محمد محسن الفيض الكاشاني ، بيدار . قم . ١٤٠٠ .
- عوالي الثاني : ابن أبي جمهور الإحسائي ، سيد الشهداء . قم . ١٤٠٣ .
- العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي ، دار الجهرة . قم . ١٤٠٥ .
- عيون أخبار الرضا عليه السلام : الشيخ أبوجعفر محمد بن علي الصدوق ، النجف . ١٣٩٠ .
- غنية النزوع : ابن زهر السيد حمزة بن علي ، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام . قم . ١٤١٧ .
- فتح الباري : ابن حجر العسقلاني ، دارالمعرفة . بيروت . ١٣٠٠ .
- الفتوحات المكية : محيي الدين ابن عربي ، دار صادر ، بيروت .
- الفصل في الملل والنحل : ابن حزم علي بن أحمد ، دار المعرفة . بيروت . ١٣٩٥ .
- الفتحة على العذاب الأربعة : عبد الرحمان الجزيري ، دارإحياء التراث العربي . بيروت . ١٤٠٦ .
- فقه اللغة وسرّ العربية : أبو منصور الثعالبي ، مصطفى الباوي الحلبي . مصر . ١٣٩٢ .
- الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله . مع شرح وتعليق خليل عبد الكريم ، مؤسسة الإنشارات العربي . بيروت . ١٩٩٩ م .
- في ظلال القرآن : سيد قطب ، الطبعة السادسة
- قرب الاسناد : عبد الله بن جعفر الحميري ، النجف .
- قصص الانبياء : عبد الوهاب النجار ، دار الثقافة . بيروت . ١٣٨٦ .
- القصص القرآني : السيد محمد باقرالحكيم ، المركز العالمي للعلوم الإسلامية . قم . ١٤١٦ .
- قصّة الحضارة : ول ديورانت ، لجنة التأليف والترجمة . القاهرة . ١٩٥٦ م .
- الكافي : أبوجعفر محمد بن يعقوب الكليني ، دار الكتب الإسلامية . طهران . ١٣٨٩ .
- الكافي في الفقه : أبو الصلاح الحلبي ، مكتبة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام . إصفهان .
- الكامل في التاريخ : أبّن أثير ، دار صادر . بيروت . ١٣٩٩ .
- الكتاب المقدس (كتب العهد القديم والعهد الجديد) : جمعية التوراة البريطانية والأجنبية .
- الكشاف : جارالله الزمخشري ، الطبعة الثالثة . دار الكتب العلمية . طهران .
- كفاية الأثر : الخزار الرازي ، الطبعة الحجرية . ١٣٠٥ ، في مجموعة كتب .
- كمال الدين : الشيخ أبوجعفر محمد بن علي الصدوق ، طهران . ١٣٩٠ .

- كنز العمال : علي المتقي الهندي ، مؤسسة الرسالة . بيروت . ١٤٠٥ .
- لسان العرب : أبن منظور ، بيروت . ١٣٧٦ .
- لسان الميزان : أبن حجر العسقلاني ، مؤسسة الأعلمي . بيروت . ١٣٩٠ .
- المبسوط : الشيخ أبوجعفر محمد بن الحسن ، المطبعة الحيدرية . طهران .
- متشابهات القرآن ومختلفة : محمد بن علي بن شهر آشوب ، بیدار . قم . ١٣٦٩ .
- المجازات النبوية : السيد الشريف الرضي أبوالحسن محمد ، مؤسسة الحلبي . القاهرة . ١٣٨٧ .
- مجمع الأمثال : أحمد بن محمد الميداني ، بيروت ، دارالفكر ، ١٣٩٣ .
- مجمع البيان : أبوعلي الفضل بن الحسن ، المكتبة الإسلامية . طهران . ١٣٨٢ .
- المحاسن : أحمد بن محمد البرقي ، المجمع العالمي لأهل البيت . قم . ١٤١٣ .
- الحجة البيضاء : الفيض الكاشاني ، مؤسسة النشرالإسلامي . قم . المطبعة الثانية .
- المختلف (مختلف الشيعة) : العلامة الحسن بن يوسف الحلبي ، مكتب الإعلام الإسلامي . قم ١٤١٧ .
- مختصر في شواذ القرآن : ابن خالويه ، مصدر . ١٩٣٤ م .
- مذاهب التفسير الإسلامي : جولد تسهير ، تعريب عبدالحليم النجار ، القاهرة . ١٣٧٤ .
- مروج الذهب : أبوالحسن علي بن الحسين المسعودي ، المكتبة التجارية الكبرى . مصر . ١٣٨٤ .
- مسائل علي بن جعفر : مؤسسة آل البيت . قم . ١٤٠٩ .
- المستدرك على الصحيحين : الحاكم النيسابوري ، مكتبة المطبوعات الإسلامية . حلب .
- مستدرك الوسائل : ميرزا حسين النوري الطبرسي ، مؤسسة آل البيت . قم . ١٤٠٧ .
- المسند : أحمد بن الحنبل ، دارصادر . بيروت .
- مشكل إعراب القرآن : مكّي بن أبي طالب ، بغداد . ١٩٧٥ م .
- المصاحف : أبوبكر عبدالله السجستاني ، المطبعة الرحمانية . مصر . ١٣٥٥ .
- المطوّل : سعد الدين مسعود التفتازاني ، افست الداوري . قم .
- معاني الأخبار : الشيخ أبو جعفر محمد بن علي الصدوق ، النجف .
- معاني القرآن : يحيى بن زياد الفراء ، مصر . ١٩٧٢ .
- المعجزة الخالدة : السيد هبة الدين الشهرستاني ، مكتبة الجوادين . الكاظمية .
- معجم البلدان : شهاب الدين الياقوت الحموي ، دارصادر . بيروت . ١٣٧٦ .
- المعجم الزوولوجي : محمد كاظم الملكي ، النجف . ١٣٧٦ .
- معجم لغات القرآن (نثرطوي) : أبوالحسن الشعرائي ، ملحق تفسيرأي الفتوح الرازي .
- معجم مقاييس اللغة : أبن فارس أبوالحسن أحمد ، مصطفى البابي الحلبي . مصر . ١٣٩٢ .
- المعجم الوسيط : دارإحياء التراث العربي . بيروت .
- المعرب : أبومنصور الجواليقي ، دار القلم . دمشق . ١٤١٠ .
- مغني اللبيب : ابن هشام جمال الدين يوسف ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد والطبعة الحجرية .
- مفاهيم جغرافية في القصص القرآني : عبد العظيم عبدالرحمان خضر ، دارالشروق . السعودية . ١٤٠١ .

- مفتاح الكرامة السيد محمد جواد العاملي ، مؤسسة آل البيت .
- المفردات : الراغب الإصفهاني ، مصطفى الباي الحلبي . مصر . ١٣٨١ .
- مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمان بن محمد ، المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة .
- المقنعة : الشيخ محمد بن محمد بن نعمان المفيد ، مؤسسة النشر الإسلامي . قم . ١٤١٠ .
- ملحق ترجمة كتاب «مقالة في الإسلام لتسدال» : هاشم العربي ، مطبعة النيل المسيحية . مصر . ١٩٢٥ . المناقب (مناقب آل أبي طالب) : مكتبة علامة . قم .
- من لايحضره الفقيه : الشيخ أبوجعفر محمد بن علي الصدوق ، دارالكتب الإسلامية . طهران . ١٣٩٠ .
- منهاج الصالحين : آية الله السيد أبوالقاسم الخوئي ، الطبعة الخامسة ، المطبعة العلمية . قم . ١٣٩٥ . المهذب : القاضي ابن البراج ، مؤسسة النشر الإسلامي . قم . ١٤٠٦ .
- الموسوعة المصرية : لجنة التحرير ، وزارة الثقافة والاعلام . مصر .
- الميزان في تفسير القرآن : العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي . طهران . دارالكتب الإسلامية .
- نهاية المرام : السيد محمد بن علي العاملي (صاحب المدارك) ، مؤسسة النشر الإسلامي . قم . ١٤١٣ .
- النهاية في مجرّد الفقه والفتاوي : الشيخ أبوجعفر محمد بن الحسن ، دارالكتاب العربي . بيروت . ١٣٩٠ .
- نُجّج البلاغة : تصحيح صبحي الصالح ، بيروت . ١٣٨٧ .
- النوادر : فضل الله بن علي الراوندي ، دار الحديث . قم .
- الهدى إلى دين المصطفى : الشيخ جواد البلاغي ، النجف . ١٣٨٥ .
- الهيئة والإسلام : السيد هبة الدين الشهرستاني ، النجف . ١٣٨٤ .
- الوافي بالوفيات : صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي ، دارإحياء التراث العربي . بيروت . ١٤٢٠ .
- وسائل الشيعة : الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي ، مؤسسة آل البيت . قم ١٤١٢ .
- مصادر فارسية
- ايران باستان حسن پيرنيا (مشير الدولة) ، ابن سينا . طهران . ١٣٤٤ .
- تاريخ تمدن الإسلامي : ويل دورانت ، الطبعة الرابعة . طهران . ١٣٧٣ ش .
- تاريخ ايران : حسن پيرنيا ، مكتبة خيام . طهران .
- تاريخ هيروودوت : ترجمة المازندراني ، وزرات فرهنگ و هنر . تهران .
- تفسير أبي الفتوح الرازي (زوج الجنان وروح الجنان) : المطبعة الإسلامية . طهران . ١٣٥٢ ش .
- تفسير أبي مسلم (بررسی آراء ونظرات تفسیری أبو مسلم اصفهانی) : قم . ١٣٧٤ ش .
- تفسير نمونه : لجنة التأليف ، دارالكتب الإسلامية . قم . الطبعة الأولى .
- قاموس كتاب مقدس : جيمس هاكس ، مكتبة ظهوري . طهران . ١٩٢٨ م .
- كوروش كبير ذوالقرنين : أبوالكلام آزاد ، ترجمة باستاني پاريزي . نشر علم . طهران . ٢٠٠١ م .
- لغت نامه : دهخدا ، جامعة طهران . ١٤١٩ .

فهرس المواضيع

٦.....	الباب الأول . هل للقرآن من مصادر
٧.....	الوحي مصدر القرآن الوحيد!
١١.....	شرائع إبراهيمية منحدره عن أصل واحد
١٣.....	وحدة المنشأ هو السبب للتوافق على المنهج
١٤.....	القرآن يشهد بأنه مُوحى
١٤.....	القرآن فى زُبر الأولين
١٥.....	﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾
١٦.....	مقارنه عابرة بين القرآن وكتب سالفه محرّفة
١٦.....	معارف فخيمة امتاز بها الإسلام
١٧.....	جلائل صفات الله فى القرآن
١٨.....	وصفه تعالى كما فى التوراة؟
٢٠.....	الله يصول ويجول ضدّ بني آدم؟
٢١.....	الإنسان سرّ الخليفة
٢٢.....	ميزات الإنسان الفطرية
٢٥.....	خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي!
٢٥.....	الحفاظ على كرامة الأنبياء
٢٨.....	إبراهيم لم يكذب قطّ!
٢٩.....	قصّة الطوفان فى التوراة
٣٠.....	حادث الطوفان فى القرآن
٣١.....	مواضع عبرأغفلتها التوراة
٣٢.....	هل عمّ الطوفان وجه الأرض؟

٣٣	نقض فريضة الشمول؟
٣٤	الطوفان ظاهرة طبيعية حيث أرادها الله.
٣٧	لا شاهد على شمول الطوفان.
٣٨	آثار جيولوجية؟
٣٩	﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ﴾
٣٩	﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾
٤١	﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾
٤٣	﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾
٤٦	﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾
٤٧	﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾
٤٨	﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾
٥٠	نوح بعد الهبوط.
٥١	والد إبراهيم تارح أو آزر؟
٥٥	الذبيح هو إسماعيل وليس بإسحاق!
٥٧	قصة لوط مع ابنتيه كما هي في التوراة.
٥٨	يعقوب ينتهب النبوة من أخيه عيسوا.
٥٨	يعقوب يصارع الرب.
٥٩	خروج بني إسرائيل وتجاوزهم البحر.
٦٢	قصة العجل والسامري.
٦٣	مواضع الاختلاف بين القرآن والتوراة بشأن العجل.
٦٢	نظرة في قولة السامري.
٦٨	ما كانت صفة العجل؟
٦٩	من هو السامري؟
٧٠	من هو قارون؟
٧١	﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾

٧٢	 حادث نتوق الجبل فوق رؤوس بني إسرائيل
٧٧	 قصّة داود وامرأة أوربا
٧٨	 القرآن والأناجيل
٧٩	 الصديقة مريم
٨٣	 يا أخت هارون؟
٨٥	 ابنة عمران؟
٨٦	 تأليه الصديقة مريم!
٨٨	 ويكلّم الناس في المهد وكهلاً؟
٩١	 مريم تعود بانحاً وقد جاوز سنّ الرضاعة
٩٣	 عيسى يحتاج العلماء في سنّ مبكّر
٩٣	 الكهولة هو تحطّي الثلاثين
٩٤	 التبشير بمقدم رسول الإسلام محمّد
٩٧	 قصّة الصّلب
١٠٢	 مسألة التوفيّ
١١٠	 الباب الثاني . القرآن وثقافات عصره
١١١	 التأثير بالبيئة!
١١١	 هل تأثّر القرآن بثقافات عصره؟
١١٢	 ١ . مجازة في الاستعمال
١١٣	 ٢ . خطاب القرآن عامّ
١١٤	 ٣ . حقيقة لا تخيل
١١٥	 ثقافات جاهليّة كافحها الإسلام
١١٥	 المرأة وكرامتها في القرآن
١١٧	 وللرجال عليهنّ درجة
١٢١	 تفضيل البنين على البنات

للذكر مثل حظّ الأنثيين.....	١٢٤
محاولات فاشلة.....	١٢٦
دية المرأة على النصف!	١٢٩
المرأة في مجال الشهادة.....	١٣٢
نكتة أدبيّة في الآية.....	١٣٥
المرأة في مجال القضاء.....	١٣٦
المرأة في مجال الحضانة.....	١٣٧
الطلاق والعدة والعدد.....	١٣٩
واضربوهنّ!	١٤٩
﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.....	١٥٨
تعدّد الزوجات.....	١٦٢
تعدّد زوجات النبيّ.....	١٦٧
تحرير الرقيق تدريجياً.....	١٧٤
خرافات جاهليّة بائدة.....	١٨٦
الجنّ في تعابير القرآن.....	١٨٧
كلام عن مسّ الجنّ.....	١٩٠
التشبيه في رؤوس الشياطين.....	١٩١
أوصاف جاءت على مقاييس عامّة.....	١٩٥
الخُور العين.....	١٩٦
الأشجار والأثمار.....	١٩٩
ابيضاض الوجوه واسودادها.....	٢٠٠
كلام عن السحر في القرآن.....	٢٠٢
أقسام السحر.....	٢٠٥
سَحَرَة فرعون.....	٢٢٠
سَحَرَة بابل.....	٢٢٢

٢٢٤	 النفاثات في العقد
٢٢٧	 ظواهر رويّة غريبة
٢٢٩	 كلام عن إصابة العين
٢٣٢	 نظرة فاحصة عن إصابة العين
٢٣٧	 هل تأثر القرآن بالشعر الجاهلي؟
٢٣٨	 الاقتباس
٢٤٠	 هل في القرآن تعابير جافية؟
٢٤٠	 ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾
٢٤١	 ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾
٢٤٣	 الباب الثالث . موهم الاختلاف والتناقض
٢٤٤	 كلام عن موهم الاختلاف في القرآن
٢٤٨	 السلامة من الاختلاف إعجاز!
٢٤٩	 الأسباب الموهمة للاختلاف
٢٥٢	 هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين
٢٥٣	 ولا تزر وازرة وزر أخرى
٢٥٥	 وصاحبهما في الدنيا معروفاً
٢٥٦	 إن الله لا يأمر بالفحشاء
٢٥٧	 ألف سنة أو خمسون ألف سنة
٢٥٨	 خلق السماوات والأرض في ستة أيام
٢٦٠	 تسأول بعضهم بعضاً
٢٦٢	 لا أقسم بهذا البلد
٢٦٣	 وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم
٢٦٤	 والوزن يومئذ الحقّ
٢٦٦	 مواطن القيامة متفاوتة

الله يتوفى الأنفس حين موتها	٢٦٨
ولا يكتمون الله حديثا.....	٢٦٩
مضاعفة العذاب	٢٦٩
التكليم من وراء الحجاب	٢٧٠
نظرة أو انتظار؟	٢٧١
التناسي أو النسيان	٢٧٢
كسب التأنيث والتذكير	٢٧٣
فرعون يُقتل أبناء إسرائيل قبل بعثة موسى أم بعدها؟.....	٢٧٥
التقدير أزلأ أم في ليلة القدر؟	٢٧٦
متى وقع التقدير؟ وهل لا يتنافي التقدير مع الاختيار؟.....	٢٧٧
إن منكم إلاّ واردها	٢٧٩
فتبارك الله أحسن الخالقين	٢٨١
عبس وتولّى	٢٨٢
أسئلة مع أجوبتها لابن قتيبة.....	٢٨٦
اختلاف القراءة هل يوجب اختلافاً في القرآن؟	٢٨٧
القرآن شيء والقراءات شيء آخر	٢٨٨
موهم الاختلاف والتناقض زيادة على ما سبق	٢٩١
مطاعن ردّ عليها قُطب الدين الراوندي.....	٣٠٣
الباب الرابع . هل هناك في القرآن مخالفات	٣١١
مخالفات علمية؟!	٣١٢
هل هناك في القرآن ما يخالف العلم؟	٣١٢
ومن كلّ شيء خلقنا زوجين	٣١٢
ولكن تعمى القلوب التي في الصدور!.....	٣١٨
فتبسم ضاحكاً من قولها.....	٣٢٠

- ٣٢١ فخلقنا المضغة عظاماً؟
- ٣٢٢ وجعلناها رجوماً للشياطين
- ٣٢٨ سبع سماوات علًا
- ٣٣٤ مسائل ودلائل
- ٣٣٤ ١. ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾
- ٣٣٤ ٢. ﴿فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾
- ٣٣٦ ٣. ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾
- ٣٣٧ ٤. ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾
- ٣٣٧ ٥. (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)
- ٣٣٩ ٦. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾
- ٣٤٢ ٧. ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾
- ٣٤٣ تقاسيم الأرض
- ٣٤٣ محتملات ثلاثة
- ٣٤٤ أرضون لا تُحصى
- ٣٤٥ المختار في تفسير «مِثْلَهُنَّ»
- ٣٤٨ ٨. ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾
- ٣٤٩ أخطاء تاريخية!
- ٣٤٩ مشكلة هامان
- ٣٥٤ فأوقد لي يا هامان على الطين!
- ٣٥٥ صناعة الآجر واستخدامه منذ عهد قديم
- ٣٥٦ قولة اليهود : يدالله مغلولة
- ٣٦٢ قولة اليهود : عزيز ابن الله!
- ٣٦٣ قال اجعلني على خزائن الأرض
- ٣٦٤ عامّ فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون
- ٣٦٦ فاليوم ننجيك بدنك

من هو فرعون موسى؟.....	٣٦٧
﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.....	٣٦٧
شبهة وجود اللحن في القرآن	٣٦٨
ليس في القرآن لحن	٣٦٩
﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾.....	٣٧٥
﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.....	٣٧٦
ثم قال له كن فيكون.....	٣٧٦
﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.....	٣٧٨
﴿وَطُورٍ سِينِينَ﴾.....	٣٧٩
﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.....	٣٨١
﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.....	٣٨٢
ثلاثة قروء.....	٣٨٣
الالتفات وتنوع الكلام.....	٣٨٤
﴿جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.....	٣٨٧
﴿قُلْ بَلْ مَلَكٌ بَرَّاهِيمَ حَنِيفًا﴾.....	٣٨٧
﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾.....	٣٩٠
أتيا أهل قرية استطعما أهلها.....	٣٩١
إنما البيع مثل الربا.....	٣٩١
﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾.....	٣٩٢
﴿هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.....	٣٩٣
موارد زعموا فيها مخالفات في عود الضمير!.....	٣٩٥
تغليب جانب ذوي العقول	٣٩٧
استعارة تخيلية.....	٣٩٨
مثنى يراد به الجماعات	٤٠١
جمع يراد به الاثنان فما فوق	٤٠٢

٤٠٦	 يجوز في جماعة غير ذوي العقول اعتبار جمع التأنيث
٤٠٨	 التعبير عن العقلاء بـ «ما» الموصولة.
٤١٢	 ضمائر تخالف مراجعها.
٤١٥	 ما يستوي فيه المفرد والجمع.
٤١٨	 الباب الخامس . القصص القرآني
٤٢٠	 أسلوب القصّة في القرآن
٤٢١	 ميزات القصّة في القرآن
٤٢٥	 أغراض القصّة في القرآن.
٤٣١	 أسرار التكرار في القصص القرآني.
٤٣٢	 الحرّية الفنيّة في قصص القرآن
٤٣٧	 حالات كائنة أبرزها الترسيم.
٤٣٩	 القصّة في القرآن حقيقة واقعة.
٤٤٩	 وقفة فاحصة؟
٤٥٢	 حديث بني آدم!
٤٥٤	 حديث الطوفان والسفينة.
٤٥٤	 حديث عاد وثمود وقوم هود
٤٥٨	 ناقة صالح!
٤٦٠	 حديث سدوم!
٤٦١	 أصحاب الكهف والرقيم!
٤٦٣	 من هم أصحاب الكهف!
٤٦٥	 متى كان هذا الهروب واللجوء؟
١٦٨	 حديث ذي القرنين؟
٤٧٥	 نحو مغرب الشمس؟
٤٧٨	 وجدها تغرب في عين حمئة!

من هم يأجوج ومأجوج؟	٤٨٧
يأجوج ومأجوج في التاريخ	٤٩٥
أين السدّ وأين موضعه الآن؟	٤٩٧
التحضّر البشري في عهد ذي القرنين	٤٩٧
سدّ كورش (ذي القرنين) التاريخي؟	٥٠٥
بناء جدار «دريند»	٥٠٨
جدار «دريند»	٥٠٩
شكوك حول كورش : هل هو ذوالقرنين؟	٥١٢
ذو القرنين في الروايات	٥١٥
إزاحة شبهات؟!	٥١٦
كورش هو ذلك العبد الصالح؟	٥١٧
وثيقة إعلان حقوق الأمم	٥٢١
أنا كورش	٥٢٢
وثيقة إعلام تحرير اليهود	٥٢٣
هنا ملحوظة؟	٥٢٦
سدّ مأرب العظيم!	٥٣٠
من الذي بنى سدّ مأرب؟	٥٣٥
سور الصين الكبير!	٥٤٢
لمحة عن الإسكندر المقدوني!	٥٤٦
تسع آيات إلى فرعون وقومه!	٥٥١
لمحة عن حياة بني إسرائيل في مصر	٥٥٥
فهرس الآيات	٥٦٢
المصادر	٥٩٢
فهرس المواضيع	٥٩٨